

«ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً ، أي أنه سبحانه يعطي المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستلذه يشعر بالخزي إلى درجة أن تكون أنفه في الرغام .

والمتضعف في أرض ما يجد من يضيق عليه حركته ، لكنه عندما يهاجر في سبيل الله سينجد سعة ورزقا .

ويتابع الحق الآية : «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً» ولا أحد يعرف ميعاد الموت . فإن هاجر إنسان في سبيل الله فقد لا يصل إلى المراغم ، لأن الموت قد يأتيه ، وهنا يقع أجره على الله . فإذا كان سبحانه قد وعد المهاجر في سبيله بالمكان الذي يرغب أنف خصمه وذلك سبب ، ومن مات قبل أن يصل إلى ذلك السبب فهو قد ذهب إلى رب السبب ، ومن المؤكد أن الذهاب إلى رب السبب أكثر عطاءً . وهكذا نجد أن المهاجر رابح حياً أو ميتاً .

«ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً» وكلمة «وقع أجره على الله» أي سقط أجره على الله . كأن الحق سبحانه وتعالى يقول للعبد : أنت عندما هاجر إلى أرض الله الواسعة ، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السعة والمراغم ، فأنت تذهب إلى رحابي . والمراغم سبب من أسبابي وأنا المسبب .

وحتى نفهم معنى : «وقع أجره على الله» علينا أن نقرأ قوله الحق :

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النمل)

والوقوع هنا هو سقوط ، ولكنه ليس كالسقوط الذي نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله . ولماذا يستخدم الحق هنا «وقع» بمعنى «سقط» ؟

هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام : حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا ما أدرك العبد الموت فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ،

ويعرف الجزء من يلعب إليه معركة كاملة .

ومكنا يجب أن نفهم قوله الحق :

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَمِلًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ
مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ۝﴾

(سورة النمل)

والله غفور رحيم حتى لمن توان قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركب الإيمان ويشاركه
ما فاتك ؛ لأن الله يغفر ما فات إن حاول العبد نفاذك . والهجرة تقتضي ضرباً في
الأرض ، وتقتضي الجهاد .

ويعد أن جعل الله للإسلام أركاناً ، جاء لحمل المسلم ما يمكن أن يؤديه من هذه
الأركان ، فركان الإسلام هي : الشهادة ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج
لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، والمسلم ينطق بالشهادة ويؤدي الصلاة ، ولكنه قد
لا يملك مالاً ؛ لذلك يعفيه الحق من الزكاة . وقد يكون صاحب مرض دائم
فلا يستطيع الصوم ، فيعفيه الله من الصوم . وقد لا تكون عنده القدرة على الحج
فيعفيه الحق من الحج . أما شهادة « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فقد
لا يقولها المسلم في العمر إلا مرة واحدة . ولم يبق إلا ركن الصلاة وهو لا يسقط عن
الإنسان أبداً ما قامت فيه صلاحية لأدائها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم :

(رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة) (١) .

ولأن الصلاة هي الركن الذي لا يسقط أبداً فقد جمع الله فيها كل الأركان ، فعند
إقامة الصلاة يشهد المسلم ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وخلال الصلاة
يصوم الإنسان عن الطعام والشراب ، وإضافة إلى ذلك يصوم ويمتنع عن الكلام
أيضاً ، وهكذا نجد الصلاة أوسع في الإنساك من ركن الصيام . فالإنسان وهو يقيم

الصلاة يحبس نفسه عن أشياء كثيرة قد يفعلها وهو صائم ، فالصوم - مثلاً - لا يمنع الإنسان من الحركة إلى أى مكان لكن الصلاة تمنع الإنسان إلا من الوقوف بين يدي الله .

إذن فالصلاة تأخذ إمساكاً من نوع أوسع من إمساك المؤمن في الصيام . والزكاة هي إخراج جزء من المال ، والمال باقٍ به الإنسان من الحركة والعمل . والحركة والعمل تأخذ من الوقت . وحين يصلى المسلم فهو يركى بالأصل ، إنه يركى بهذا الوقت الذى هو وعاء الحركة ، إذن ففي الصلاة زكاة واسعة .

والحج إلى البيت الحرام موجود في الصلاة ؛ لأن المسلم يتحرى الاتجاه إلى البيت الحرام كقبلة في كل صلاة ، وهكذا .

ولذلك اختلفت الصلاة عن بقية الأركان . فلم تشرع بواسطة الوحي ، وإنما شرعت بالمباشرة بين رب محمد ومحمد صلى الله عليه وسلم . ولأن هذه هي منزلة الصلاة نجد الحق يحذرننا من أن يشغلنا الضرب في الأرض عنها ، بل شرع سبحانه صلاة مخصوصة اسمها « صلاة الحرب وصلاة الخوف » حتى لا يقول أحد إن الحرب تمنعنا من الصلاة ، ففي الحرب يكون من الأولى بالمسلم أن يلتزم بمنهج ربه . كذلك في السفر يشرع الحق قصر الصلوات :

﴿ وَإِذَا حَضَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسْ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا أَعْدَاؤُمْ يُبِينُونَ ﴾ (١٥)

والضرب في الأرض مقصود به أن يمشى المؤمن في الأرض بصلابة وحزم وقوة . والفصر في الصلاة هو اختزال الكمية العددية لركعاتها . وفي اللغة « اختصار »

«اقتصار» . «الاقتصار» أن تأخذ بعضاً وتترك بعضاً ، «الاختصار» هو أخذ الكل بصفة موجزة . مثل ذلك عندما تختصر كتاباً ما فنحن نوجز كل المعاني التي فيه في عدد أقل من الكلمات .

وقد يفكر إنسان في أن يكتب خطاباً ، ثم يقول لنفسه : سأرسل برقية في الموضوع نفسه . وهنا لا بد أن يختزل الكلمات لتحمل معاني كثيرة في ألفاظ موجزة .

والإسهاب - كما نعلم - لا يأخذ من الوقت مثلياً يأخذ الإيجاز ؛ فعندما يريد الإنسان الإيجاز فهو يفتح ذهنه - في وقت أطول - ليصل إلى المعاني في كلمات أقل .

ويحكى عن سعد زغلول - زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية - أنه كتب رسالة لصديق فاطال ، وأنهى رسالته بهذه الكلمات :

ولم أعتذر إليك عن التطويل فليس عندي الوقت الكافي للإيجاز . ويحكى التاريخ عن الخليفة المسلم الذي أراد أن يهدد قائد الروم . فكتب إليه : لما بعد : فسأتيك بجيش أوله عندك وآخره عندي . وهكذا أوجز الخليفة حجم الخطر الداهم الذي سيواجه ملك الروم من جيش هرمم سيملا الأرض إلخ .

وينقل التاريخ عن أحد قادة العرب وموقفه القتالي الذي كان صعباً في «دومة الجندل» أنه كتب إلى خالد بن الوليد كلمتين لا غيرهما «إياك أريد» ولم يقل أكثر من ذلك ليتضح من هذا الإيجاز حجم المعاناة التي يعانيها . وقد أوردنا هذا الكلام ونحن بصدد الحديث عن القصر والإيجاز .

والقصر في الصلاة هو أن يؤدي المؤمن كلاً من صلاة الظهر والعصر والمساء ركعتين بدلاً من أربع ركعات ، أما الصبح والمغرب فكلهما على حاله ، الصبح ركعتان ، والمغرب ثلاث ركعات . وحكمة مشروعية ذلك أن الصلاة في وقت الحرب تقتضي ألا ينشغل المقاتلون عن العدو ، ولا ينشغلوا أيضاً عن قول الحق :

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا﴾

فإذا شرع الله للمخوف صلاة ، وللحرب صلاة فمعنى ذلك أنه لا سبيل أبداً لأن ينسى العبد المؤمن إقامة الصلاة . وإذا كانت الصلاة راجية في الحرب فلن تكون هناك مشاغل في الحياة أكثر من مشاغل الحرب والسيف . وصلاة الحرب - أي صلاة المخوف - جاء بها القرآن ، أما صلاة السفر فقد جاءت بها السنة أيضاً ، وفيها يقصر المؤمن صلواته أيضاً :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ كُنْتُمْ
أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾

(سورة النساء)

ولو رأى الكافرون المؤمنين مصغوفين جميعاً في الصلاة فقد يهجمون عليهم هجمة واحدة . ولذلك شرع الحق قصر الصلاة .

ويكون الخطاب من بعد ذلك موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ
طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بَأْسَلِحَتِهِمْ فَإِذَا سَجَدُوا
فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ
يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بِحَدِّهِمْ
وَأَسْلِحَتِهِمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَوَفَّلُوا عَنْ
أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ

أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا
حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١١٢﴾

وحين يقول الحق : « فلتقم طائفة منهم » نفهم أن ينقسم المؤمنون إلى طائفتين : طائفة تصل مع رسول الله ، وأخرى تترك العدو وتحمل المؤمنين .

ولكن كيف تصل طائفة خلف رسول الله ولا تصل أخرى وكلهم مزمونون يطلبون شرف الصلاة مع رسول الله ؟ ويأمر الحق أن ينقسم النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة ليصل بكل طائفة مرة ، ليحرف كل مقاتل بالصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقصر الصلاة - كما عرفنا - ينطبق على الصلاة الرباعية وهي الظهر والمغرب والعشاء أما صلاة الفجر وصلاة المغرب فلا قصر فيها ، فليس من المتصور أن يصل أحد ركعة ونصف ركعة ، وفي علم الحساب نحن نجبر الكسور إلى الرقم الأكبر .

وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بمئات متعددة ، ولا مانع من أن نلم بها إماماً عاجلاً ، لأن تعليم هذه الصلاة عادة يكون واجباً على الأئمة والعلماء الذين يصلون بالجيوش في حالة الحرب . ولصلاة الخوف طرق وكيفيات : كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينقسم الجيش إلى قسمين ، قسم يصل معه وقسم يرقب العدو ، ويصل بكل فرقة ركعتين .

وهناك طريقة أخرى وهي أن يصل بطائفة وفرقة ركعة واحدة ، ثم ينصرفون وتأتي الطائفة التي حلت الطائفة الأولى في أثناء الصلاة لتصل هذه الطائفة الثانية ركعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا يسلم رسول الله لأنه أنهى الصلاة .

وبعد ذلك تصل الطائفة الأولى الركعة الثانية التي عليها في القصر وتسلم ، ثم تصل الطائفة الثانية الركعة الثانية التي عليها في القصر وتسلم .

وهناك كيفية ثالثة وهى أن تأتى الطائفة الأولى تصلى مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ركعة ، ولا يصلى النبى ﷺ معها الركعة الثانية بل يظل واقفا قائما إلى أن تخرج من صلاتها بالتسليم لتنادى الطائفة التى تقف فى مواجهة العدو لتصلى خلف النبى ﷺ الركعة الثانية بالنسبة للنبى ﷺ بينما هى الركعة الأولى بالنسبة إليها ، ويظل النبى ﷺ قاعداً إلى أن تأتى الطائفة الثانية بركعتها الثانية ويسلم النبى ﷺ بها وتنال الطائفة الأولى بشرف بدء الصلاة مع الرسول ﷺ وتغطى الطائفة الثانية بشرف السلام معه ﷺ .

وهنا نسال : هل هذه الصلاة بهذا الأسلوب مقصورة على عهد النبى ﷺ وانما هى به لأن الصلاة معه هى الشرف ؟ فكيف يصلى المقاتلون الخوف بعده ﷺ ؟ قال العلماء : إذا كنت تعتبر القائمين بأمر القيادة هم خلفاء لرسول الله ﷺ فى الولاية فتقام صلاة الخوف على صورتها التى جاءت فى القرآن ، ولكن إذا كان لكل جماعة إمام فلتصل كل جماعة صلاة القصركاملة خلف الإمام .

«وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم» وهذه الأسلحة المقصود بها الأسلحة الحقيقية مثل السيف أو الرمح أو النبل أو البندقية فيأخذها المقاتل معه ، أما من معه سلاح ثقيل فلن يأخذه بطبيعة الحال إلى الصلاة .

«فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم» والقول القرآنى هنا ليس مجرد الفاظ تقال ولكنها ألفاظ لها مدلولات من رب العالمين ، فمن قدموا إلى الصلاة أولاً : تركوا خلفهم من يحميهم .

ولكن الطائفة الثانية التى سوف تترك المواقع من أجل الركعة الثانية خلف رسول الله ﷺ فبالهم مشغول بدواتهم ويحمية من يصلون ، فلعلهم حين يذهبون إلى الصلاة مع رسول الله ﷺ تلهيهم المسألة ؛ لذلك قال الله : «ولياخذوا حذرهم وأسلحتهم» وهكذا نجد أن الطائفة الأولى ملزمة بأخذ السلاح ، والطائفة الثانية ملزمة بأخذ الحذر والسلاح .

وقد يقول قائل : صحيح إن الأسلحة تؤخذ ، ولكن كيف يؤخذ الخنزير وهو عملية معنوية ؟

ونقول : إنه سبحانه يصور المعنويات ويحسمها تمهيم الماديات حتى لا يغفل الإنسان عنها ، فكأن الخنزير آلة من آلات القتال ، وإياك أيها المقاتل أن تغفل عنها .

وهذا أمر يشيع في أساليب القرآن الكريم ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

والدار هي مكان باستطاعة الإنسان أن يتبوءه ويقيم به ، فما معنى أن يتبوء الإنسان الإيمان وهو أمر معنوي ؟ . إنه سبحانه في هذا القول يصف الأنصار الذين أكرموا وفادة المهاجرين ، والدار - كما نعرف - هي المكان الذي يرجع إليه الإنسان ، والإيمان هو مرجع كل أمر من الأمور .

إذن فقد جعل الحق سبحانه الإيمان كأنه يتبوء ، أي جعله شيئاً ينزل الإنسان فيه ، والإيمان كذلك حقاً ، والدار في هذا القول مقصود بها هنا المدينة المنورة ، حيث استقبل الأنصار المهاجرين .

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنُ نَفْسِهِ فَوَاقٍ ۚ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ٩ ﴾

(سورة الحشر)

وهكذا يحسم الحق المعنويات لفهم منها الأمر وكأنه أمر حسي ، تماماً كما قال الحق : « فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة » .

وهذا ما بوضح لنا لماذا أمر الله أن يأخذ المسلمون الخنزير والأسلحة ، لأن المقاتل يجب أن يخاف على سلاحه ومناعه . فلو فقدوا المقاتل لفقد أداة القتال ولصارت

أدوات قتاله قوة لعدوه . فحين يأخذ المقاتل السلاح من عدوه ، يتحول السلاح إلى قوة ضد العدو .

لذلك كان التحذير من فقد الأسلحة والأمتعة حتى لا تضاف قوة السلاح والمناع إلى قوة العدو ؛ لأن في ذلك إضعافاً للمؤمن وقوة لخصمه . وهو الإسلام يود أن ينقل المسلمون عن الأسلحة والمناع ، والمؤمن ساعة الصلاة يستغرق بيقظته مع الله ، ولكن على الإنسان ألا يفقد يقظته إن كان يصلي أثناء الحرب ، فلا يصح أن ينسى الإنسان سلاحه أثناء القتال حتى وهو يصلي ، فالقتال موقوف لله ، فلا تفصل القتال في سبيل الله عن الصلاة لله .

«ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم والغفلة هي نسيان طارئ على ما لا يصح أن ينسى ، وفي هذا تحذير واضح ؛ لأن الغفلة أثناء القتال هي حلم للكافرين حتى يحققوا هدفهم المتمثل في قول الله : « فيميلون عليكم ميلاً واحدة » . فمعسكر الكفر يتمنى أن يهجم على المؤمنين في لحظة واحدة ، هذا هو المقصود بقوله : « فيميلون عليكم ميلاً واحدة » .

ولكن لئلا نر من بعد ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضًى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَلُّوا جُدُرَكُمْ إِنْ أَلَّاهُ أَعْدَاءُ الْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة النمل)

ونجد هنا أن كلمة « الحذر » تكررت ، وسبحانه بجلال جبروته أعد للكافرين عذاباً مهيناً ، وفي ذلك بشارة منه أن الكافرين لن يتألوا من المؤمنين شيئاً ، فليأذا جاء الأمر هنا بأخذ الحذر ؟ . إن أخذ الحذر لا يعنى أن الله تخلص عن المؤمنين ، ولكن لتنبيه المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب ، ولا يغفلوا عن المسبب لأنه سببانه هياً وأعد العذاب المهين للكافرين . « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » .

وهذا ما يجب أن نفهمه حتى لا يتوهم أحد أن الله عتلهما به كثيراً بضرورة الأخذ بالحذر ثم أنه يتخلى عنا ، لا . إنه سبحانه يوضح لنا أن نأخذ بالأسباب ولا نهملها

وهو الغافل ، إن الله أحد للكافرين عذاباً مهيناً .

ومن بعد ذلك قال الحق :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا
مَّوْقُوتًا ﴾

كان المؤمن مطالب بالآيسوف ويؤخر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه ، وذلك لتكون الصلاة دائماً في بؤرة شعور الإنسان ، بل إن المؤمن مطالب بذكر الله حتى وهو يشايف عدوه وينزله ، فهو يعمل السيف ولسانه رطب بذكر الله ويقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

والإنسان حين يسبح الله حتى وهو في حالة الاشتباك مع العدو لا ينسأ الله . والمؤمن قد يؤخر الصلاة في حالة الاشتباك مع العدو والالتحام به ، ولكن عليه أن يدفع قلبه ونفسه إلى ذكر الله ، ففي وقت الصلاة يكون مع ربه فليذكره قائماً وقاعداً وفي كل حال ، وبعد أن يطعن المسلم لوقفة القتلى فليفيض الصلاة . وأنه لا يترك ربه أبداً بل وهو في الحرب يكون ذلك منه أولى ؛ لأنه في حالة الاحتياج إليه سبحانه ، والقتال يدفع المؤمن إلى الاستعانة بربه ، وإذا كان المسلم يعرف أن الله في أوقاته تعجليات ، فلا يحرم واحد نفسه من هذه التعجليات في أي وقت ، وذكر الله يقرب العبد من مولاه - سبحانه - مع عبده إذا ذكره ، فإن كان الإنسان مشغولاً بالأطمئنان وقت الخوف والقتال فليذكر الله ليدعم موقفه بالقوة العليا .

وقوله الحق : « إذا أصبأتم فأقيموا الصلاة » أى إذا انتهى الاشتباك القتلى
فعلى المؤمن أن ينتقل من ذكر الله أثناء الاشتباك إلى الصلاة التى حان ميعادها أثناء
القتال . فقد كان ذكر الله وقت الاشتباك من أجل ألا يضيع وقت الصلاة بلا كرامة
لهذا الوقت ، وبلا كرامة للقاء العبد مع الرب . وبهذا كل ذلك ؟ وبأى القول
العقل : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً »

وقد أوضح لنا الحق صلاة الخوف ، وشرع سبحانه لنا ذكره إذا ما جاء وقت
الصلاة فى أثناء الاشتباك القتلى ، وإذا ما اتفق توقيته مع وقت الصلاة ، وشرحت لنا
سنة النبى صلى الله عليه وسلم كيفية قصر الصلاة فى أثناء السفر ، لماذا كن ذلك ؟ لأن
الصلاة فرض لا غنى عنه على الإطلاق « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً
موقوتاً » . أى أن الصلاة لها وقت .

ولا يصح أن يفهم أحد هذا المعنى . كما يفهمه البعض . بأن صلاة الظهر - على
سبيل المثال - وقتها عند من الظهر إلى العصر ، وصحيح أن الإنسان إذا حاش حتى
يصلى الظهر قبيل العصر فإنها تسقط عنه ، ولكن ماذا يحدث لو مات العبد وقد فات
حيه وقت بسعها ؟ إذن فقد أثم العبد ، ومن يضمن حياته حتى يؤدى الصلاة مؤجلة
عن سرعد أدائها ؟

وقد يقول قائل : أحياناً أسمع أذان الصلاة وأكون فى عمل لا أستطيع أن أتركه ،
فقد أكون فى إجراء جراحة أو ركباً طائرة . ونقول : أسألك الله إذا كنت فى هذا
العمل الذى تتحين أنك غير قادر على تركه وأردت أن تنفى حاجة ، فهاذا نصع ؟
إنك تلعب لقصد حاجتك ، فلماذا استقطعت جزءاً من وقتك من أجل أن تنفى
حاجتك ؟ وقد نجد قوماً كافرين يسهلون لك مؤنك عن دورة المياه لتنفى
حاجتك .

وساعة يراك هؤلاء وأنت تعمل فأنت ترى على وجوههم سمة الاستبشار ، لأن
فيهم العبودية العظمية لله ، وتجد منهم من يسهل ذلك ويحضر لك ملاءمة لتنفى
فوقها ، ويقف فى ارتعاش سببه العبودية العظمية لله ، فلا تقل أبداً : إن الوقت
لا ينسح للصلاة ، لأن الله لا يكف أبداً عبده شيئاً ليس فى مسعته ، والحق كلف
العبد بالصلاة ومعها الوقت الذى يسعها .

وله المثل الأعلى ، نحن نرى رئيس العمال في موقع ما يوزع العمل على عماله بما
يسع وقت كل منهم ، فيما بالتنا بالرب الخالق ، ولنلك يقول الحق :
﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآية ٢ ومن الآية ٣ سورة الطلاق)

والصلاة ررق عبودي بحورك من أى خوف ، وفضتها لا حدود له لأن فريضتها هو
الخالق المهي ، فكيف نبجل على نفسك أن تكون موصولا بربك ؟
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ
فَأِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤﴾

وهذه الآية تذكرة لنا بكيفية الرد من من يدعوون التحرر ويحولون إظهار الإسلام
بأنه يصلح للعصر الذي نحياه عندما تؤدله ونطرحه لمرادات العصر ، ناسين مرادات
الإسلام ، فهم يقولون : لقد شرع الحق الحرب في الإسلام لرد العدوان . ونقول
لهم : صحيح أن الحرب في الإسلام لرد العدوان ، والحرب في الإسلام أيضاً هي
لتوسيع المجال الحرية الاعتقاد للإنسان .

إن الذي يحيف هؤلاء أن يكون القتال في الإسلام فريضة ، فيقاوم المسلمون
الظلمين في أى مكان . وهذه محاولة من أعداء الإسلام لصرف المسلمين حتى
لا يقاوموا قهر الناس والظلمين عليهم ؛ لأن أعداء الإسلام يعرفون تماماً قوة الإسلام
الكامنة والتي يببها لمن يؤمن به حياً ، ويستخدع بعض المسلمين بدعاوى أعداء
الإسلام الذين يقولون . إن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان .

ولذلك نقول هؤلاء وأولئك : لا ؛ إن الإسلام جاء بالقتال ليحرر حق الإنسان

في الاعتقاد والمسلم مطلوب منه أن يعلن كلمة الله ، وأن يقف في وجه من يقاوم إعلانها ، ولكن الإسلام لا يفرض العقيلة بالسيف ، إنما يحمي بالسيف حرية المعتقد ، فالحق يقول : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم » أي لا تضعفوا في طلب القوم الذين يحاربون الإسلام ، والابتغاء هو أن يجعل الإنسان شيئاً بغية له ، أي هدفاً وغاية ، ويحتد لها كل تخطيطات الفكر ومتعلقات لطاقة ، كأن الإنسان لا يرد انقوم الكافرين فقط ملحة يهاجمون دار الإسلام ، ولكن على المسلم أن يتفهم أيضاً امتثالاً لقول الله : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم » . عمل المسلمين أن يُعلنوا كلمة الله ويدعوا الناس كافة إلى الإيمان بالله . وهم في هذه الدعوة لا يحرصون كلمة الله ، لكنهم يرفعون السيف في وجه الجبروت الذي يمنع الإنسان من حرية الاعتقاد . إن على المسلمين رفع الجبروت عن البشر حتى ولو كان في ذلك مشقة عليهم لأن الحق قال :

﴿ كَيْفَ تَلْبِسُ الْقَتْلَ وَهُوَ كَرِهٌ لَّكَ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وقد خلق الله في المؤمن القدرة على أن يتغى عدو الإسلام ليرفع الجبروت عن غيره من البشر ، صحيح أن الحرب مسألة مكروهة من البشر وليس رحلة سهلة ، ولكنها أحياناً تكون واجبة ، والدين لمذكروا الحرب العملية الثانية عرفوا أن « تشرشل » جاء رئيس لوزراء بريطانيا بعد « تشمبرلين » الذي عرف عنه أنه رجل سلام ، وحاول « تشمبرلين » أن يماطل ويلوح بالسلام مع ألمانيا حتى تستعد إنجلترا بالحرب ، وعندما استعدت إنجلترا أعلن « تشمبرلين » أن سياسته غير نافعة ، وجاء « تشرشل » وقاد دفعة الحرب ، وقال للإنجليز : « انتظروا أيماً سوداء وانتظروا الجمع ».

لقد قال تشرشل ذلك للإنجليز ، حتى إذا ما جاء الواقع بأقل من قوله ، فهم يستبشرون ويفرحون .

والحق سبحانه يقول : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تأمنون فإنهم يأمنون كما تأمنون » . إن الحرب ترهقهم أيضاً كما ترهقكم ، لكنكم أيها المؤمنون تبتارون على الكافرين بما يلي . « وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله علياً حكيماً » . فأنتم

وهم في الآلم سواء ، ولكن الاختلاف هو أن المؤمنين يرجون ما لا يرجوه الكافرون ، إن المؤمنين يعمدون خطه دخولهم الحرب أن الله معهم وهو الذي ينصرهم ومن تمت منهم يذهب إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهذا ما لا يرجوه الكفرة .

والحق سبحانه وتعالى يطالب العنة المؤمنة التي انتهت قصية عقيدتها إلى الإيمان بالله واحد ، هو - سبحانه - أنشأهم وخلقهم وإليه يعودون ، وهذه القصية تحكم حركات حياتهم ، إنه - سبحانه - يعالهم أن يزدوا مطلوبات هذه القصية ، وأن يدافعوا عن هذه العقيدة التي تثبت للناس جميعاً أنه لا معبود - أي لا مطاع - في أمر إلا الحق سبحانه وتعالى

وحين تحكم هذه القصية أناساً فهي توحّد اتجاهاتهم ولا تتصارف مع حركاتهم ، ويصبحون جميعاً متعاونين متساندين متعاضدين ، لذلك جعل الله الطائفة للمؤمنين خير أمة أخرجت للناس ، لأن رسولها صلى الله عليه وسلم خير رسول أرسل للناس ، وطلب الحق من أهل الإيمان أن يجاهدوا الكافرين والمنافقين لتصوّر رقعة الإيمان على يكدّر صدر حركة الحياة .

والحق يعامل خلقه كبشر ، إنه خضعهم ويعلم طوائفهم وغرّهم ولا يخاطبهم على أنهم ملائكة ، وإنما يخاطبهم على أنهم بشر ، وهم أشير ، ومن الأغيار أن يصفو هم أمر العقيدة مرة ، وأن تعكر عليهم شهواتهم صفو العقيدة مرة أخرى ، لذلك يؤكد لهم أن طريق العقيدة ليس مفروشاً بالرياحين والورود ، وإنما هو مفروش بالأشواك حتى لا يتحمل رسالة الحق في الأرض إلا من صبر على هذه البلايا وهذه المحن . فلو كانت القصية على طرف النمام^(١) أي سهنة التناول لا مشقة في الحصول عليها وتذكر بدون آلام وبدون متاعب فسيذهبها كل إنسان ويصبح غير مأمون على حل العقيدة

من أجل ذلك لم ينصر الله لإسلام أولاً ، إنما جعل الإسلام في أول أمره ضعيفاً مضطهداً ، لا يستطيع أهله أن يحجموا أنفسهم ، حتى لا يصير على هذا الإيذاء

(١) النمام : عصب لا يطول له زهر يسهل إخلاله وفطنه .

الإيمان دافق حلاوة الإيمان مما يجعله لا يشعر بحرارة الاضطهاد ووحشة التعذيب ومشتته فقال الحق سبحانه وتعالى : « ولا تهوا في ابتغاء القوم » أى لا تضحكوا في طلب القوم .

وكلمة « لا تشعروا في ابتغاء القوم » أى في طلبهم تدل على أن الأمة الإسلامية ليس مطلوبوا منها فقط أن تدفع عن نفسها عدواناً ، بل عليها أن تطلب هؤلاء الذين يعمدون في وجه الدعوة بتؤذيهم حتى يتركوا الناس أسواراً في أن يختاروا العقيدة .

إذن فالطلب منه سبحانه . ألا تهوا ولا تضعفوا في طلب الموم الذين يقومون في وجه الدعوة . ثم قال سبحانه . « إن تكثرنا تألمون لأنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » أى إنه إذا كان يصيبكم ألم الحرب والإعداد لها ، فأنتم أيضاً تحاربون قوماً يصيبهم ألم المراقع والحروب والإعداد لها ؛ فأنتم وهم متساوون في إدراك الألم والمشقة والتعب ، ولكن يجب ألا تغفلوا عن تقييم القوة فلا تهملوها ؛ لأنها هي القوة المرجحة . فأنتم تزيدون عليهم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون . والأشياء يجب أن تقوّم بغاياتها والثواب عليها لا يقولن أحد أبداً « هذا يساوى ذلك » . فلا يحمل أحد قضية الثواب على العمل . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في شرح هذه العبارة حتى تكون الأدهان على بيته منها إعداداً وخصوصاً للحرب واحتمالاً لألامها :

﴿قُلْ هَلْ تَرَوْهُوَ بِمَا إِلَّا يَخْشَى الْخَاسِرِينَ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

عليكم أيها الكافرون أن نعلموا أن الذي ينتظرنا هو إحدى الحسينين . . إما أن نتصبر ونظهركم ، وإما أن نستشهد منظر بالحياة الأخرى . وماذا عن تربية المؤمنين بالكافرين :

﴿وَمَنْ تَزِرْ وَزِرَّتْ بِكُمُ اللَّهُ يُصِيبْكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عَذَابِهِ أَوْ يَأْتِيَنَّكُمْ﴾

(مس الآية ٥٦ سورة التوبة)

كلمة من - إذن - هي الراجعة في المعادلة ؟ إنها كلمة المؤمنين ، لذلك قال الحق : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تأمنون فإنهم يأمنون كما تأمنون وترجون من الله ما لا يرجون » فلا تضغطوا أيها المؤمنون في طلب القوم لأنهم يأمنون كما تأمنون ، ولكن

لكم مرجعاً أصل وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجون

ويذيل الحق قضية حث المؤمنين على طلب الكافرين وكيف يزيد المؤمنون على الكافرين بأنهم يرجون من الله ما لا يرجوه الكافرون فيقول : « وكان الله علياً حكيماً » إنه عليم بكل ما يصيب المؤمن من ألم ، فلا تعتقد أيها المؤمن أن لك أجراً سيضيع منك ، فالشوكة التي تشاك بها في القتال محسوبة لك ، وهو سبحانه وتعالى حين يتركك تألم أمام الكافر كما يألم . فعدك لحكمة هي أن تدير إلى القتال وأنت واثق من قدرة إيمانك على تحمل تبعات هذا الدين .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . (ما يصيب المؤمن من شوكة مما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة)^(١) .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال في سبيل نصرة دينه لم يحرم المؤمنين من توجيه يدهم أيضاً حركة الحياة ، لماذا ؟ لأنه علم أن قوماً يؤمنون به ويتصوون تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، فيوضح : أن انصرواكم أيها المؤمنون تحت لواء الإسلام له تبعات ، فأنتم أول من يطبق عليه حكم الله ، ولإياكم أن تطوا أنكم بإيمانكم وإعلان إسلامكم لله وانصاعكم لرسول الله قد أحدثتم شيئاً مبركاً عن بقية خلق الله ، فكما قلنا لكم دافعوا لكم ولدافعوا المذنبين نقول لكم أيضاً : دافعوا أنفسكم ؛ لأن واحداً قد ينضم إلى الإسلام وبعد ذلك يظن أن الإسلام سيعطيه فرصة ليكون له غير على غيره ، ومثل هذا الإنسان : نقول لا . ولذلك يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له :

﴿ إِنَّمَا أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ
النَّاسِ بِمَا أَرَدَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْغَائِبِينَ
خَصِيماً ١٥ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه ؛ يتكلم فيما يتعلق بالفعل بصحة التعظيم والجمع . مثال ذلك قوله : « إنا أنزلنا » . وهذه « نون الجعاعة » حيث يتطلب نزول القرآن قوى متعددة لا تتوافر إلا لمن له الملك في كل الكون. ولضرب لذلك مثلاً والله المثل الأعلى . . إنا نجد أن رئيس الدولة أو الملك في أى بلد يصدر قراراً فيقول : « نحن فلانا أصدرنا لقرار » . والملك أو الرئيس يعرف أنه ليس وحده الذى يصدر القرار ، ولكن يصدره معه كل المتعاونين معه وكل العاملين تحت رئاسته . فما بالك بالحق الأعلى سبحانه وتعالى ؟ لذلك نحى بكلم سبحانه فيما يتعلق بالذات يكون الحديث بواسطة ضمير الأفراد فيقول :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝ ﴾

(سورة طه)

ولا يأتى هنا ضمير الجمع أبداً ، ولا تاتى « نون التعظيم » . ولكن فى هذه الآية نجد الحق يقول : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » . ونرى « نون التعظيم » واضحة ، فالقرآن كلام الله ، ونزول القرآن يتطلب صفات متعاضدة . سبحانه مرة يقول :

﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۝ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة العنكبوت)

ومرة يقول :

﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۝ ﴾

(من الآية ٥١ سورة العنكبوت)

ومرة ثالثة يقول .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرٌ مُّزَكَّرٌ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾

(سورة الأنبياء)

ما الغاية من الإنزال ؟ الغاية من الإنزال أن يوجد على لأرض منهج يحكم حركة الحياة . والقرآن قد أنزل إلى الرسول وإلى من آمن بالرسالة . وحين يقول الحق : « أنزلنا عليك » فمعنى ذلك نزول التكليف . وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » فعلينا أن

نعرف أن كل شيء يحىء من الحق فهو يرسل إليها منه سبحانه ، وكلمة « أنزل » تشعر السامع أو القارئ بها أن الجهة التي أنزلت هي جهة أعلى ، وليست مسبوقة لمن أنزل إليه ، وليست أدنى منه أيضاً

وكلمة « أنزلنا » تدل على أن جهة أنزلت ، وجهه أنزل إليها ، وشيء أنزلت الجهة إلى المنزل إليه . والكتاب هو المنزل . والذي أنزله هو الله . والمنزل إليه هو رسول الله وأمه . وهل أنزل الحق سبحانه الكتاب فقط أو أنزل قبل ذلك كل ما يتحقق بمقومات الحياة ؟

وعندما نقرأ هذا القول الكريم :

﴿ يَذَرُكَ أَدَمَ قَدْ أَرْنَا عَلَىٰ لِبَاسٍ يُرَارِي سَوَاءَ تَكُونُ رِيثًا وَلِبَاسٍ اتَّقَوْنِ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الاحزاب)

إنه لباس جاء من أعلى ، لذلك استحسن الحق كلمة « أنزلنا » وهو ليس لباساً فقط ولكنه أيضاً يزركم مأخوذ من ريش الطائر لأنه لباسه وريته ، فهو لا يوارى العورة بحسب ولكنه جميل أيضاً ، والأهل منه أنه لباس التقوى

لقد جاء الحق بالمقوم للحياة سترأ ورمادية ، وبعد ذلك أنزل الحق لباس التقوى وهو الخير . فاللباس الأول يوارى عورة مادية ، ولباس التقوى يوارى العورات القيمة والمعنوية ، وكل ذلك إزال من أعلى . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَرْسَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَرْسَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فكلمة « الإنزال » تدل على أن كل ما جاء من قبل الحق الأعلى إلينا ، فهو نازل إليها بشيء يعالج مادتنا وقوامها ، وشيء يعالج معنوياتنا وقيمنا .

ويقول الحق في الآية التي نحن بصدد تناولها الآن : « إنا أنزلنا إليك الكتاب » وحين يطلع الكتاب فليعلم ينصرف إلى الكتاب الجامع للذات المهيمن على سائر

الكتب وهو القرآن ، وإن كان « الكتاب » يطلق على المكتوب الذي نزل على أي رسول من الله سبحانه وتعالى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » والحق هو الشيء الثابت الذي لا يأتي واقع آخر لينقضه . وعلى سبيل المثال : أنت في حياتك العادية حين تقول قضية صدق تحكي بها واقعا حدث مهما تكررت روايتك لهذه التفاصيل عدة عشرين سنة فهي لا تتغير ؛ لأنها مطابقة للواقع . وأنت حين تقولها تستحضر الواقع الذي حدث أمامك . ولكن إذا حدث إنسان بقضية كذب لا واقع له . فماذا يكون موقفه ؟ سيحكي القضية مرة بأسلوب ، وإن مر عليه أسبوع فهو ينسى بعضاً مما قاله في أول مرة فيحكي وقائع أخرى ، ذلك أن ما يرويه ليس له واقع ، لذلك يقول كلاماً متناهيماً لما قاله في المرة الأولى ، وهنا يعرف السامع أن هذه المسألة كاذبة .

إذن فالحق هو الشيء الثابت الذي لا ينقضه واقع أبداً . وأنزل الله الكتاب بالحق أي أنزله بالتفاصيل الثابتة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقضه واقع .

ويقال في حياتنا للتلميذ الساجد من أساتذته : لقد أعطيتك المرتبة الأولى عن زملائك بالحق . أي أن هذا التلميذ قد أتبع حقه لأنه يستحق هذه المكانة . ونزله الحق سبحانه : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » أي إن أنزال الكتاب على سيدنا رسول الله ليبلغه جاء ملتصقا ومرتبطا بالحق ولا ينك عنه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل لأن ينزل عليه الكتاب . ووحد معنى بجانب معنى في القرآن هو من أسرار إشعاعات الكلمات القرآنية ، فهي لا تتناقص ولكنها توضح بحكمة الخالق لتجولو لنا المعاني .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس » وهذا يوضح لنا أن حكومة الدين الإسلامي وعلى رأسها المحاكم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاء لا ليحكم بين المؤمنين به فقط ، بل ليحكم بين الناس . ومن شرط الحكم بين الناس القيام بالعدل فيما يختصمون فيه ، فلا يقولن واحد : هذا مسلم ، وذاك كافر ، فإذا كان الحق مع الكافر فلا بد أن تعطيه له ، وإذا كان الحق مع المسلم فيجب أن تعطيه له ، لأنك لا تحكم بين المؤمنين فقط ولكنك تحكم بين الناس .

وانت إن حكمت بين الناس حكماً يتفق مع منطق الواقع والحق تجعل الذي حكم له يشهد أن دينك حق ، فعندما يكون الحق مع الكافر ، وتحكم على المؤمن بالحكم الحق الذي لا حيف فيه حتى وإن كان عقاباً ، فالكافر يفرغ نفسه على أنه لم يكن من أهل هذا الدين الذي يعترف بالحق ويحكم به ولو كان على مسلم . وايضاً يعرف المسلم ساعة يحكم عليه لصالح واحد غير مسلم أن المسألة ليست نسبة شكلية إلى الإسلام ، ولكنها نسبة موضوعية ، فلا يظن أحد أن الإسلام قد جاء ليحلي مسلماً على أي إنسان آخر ، ولكن الإسلام قد جاء ليأخذ الجميع بمنطق الحق ، ويطبق على الجميع منهج الحق ، وليكون المسلم دائماً في جانب الحق .

وسبحانه وتعالى يعطي هذه القضية الواقعة حدثت معاصرة لرسول الله . والوقائع التي حدثت معاصرة لرسول الله ست بمثابة استدلال السواء للأحكام ، فالقضية تحدث وينزل فيها الحكم ، وبوجاهات الأحكام صوبة وسقطت ونزلت مرة واحدة ، فقد تحدث الحادثة ويكون لدى المؤمنين الحكم ويحاولون البحث عنه في الكتاب . لكن إذا ما جاء الحكم ساعة ونوع الحادثة فهو ينصب عليها ، ويكون الأمر أدهى للإذعان له ؛ لأنه ثبت وأيد ووثق بواقعة تطبيقية .

والحكم الذي نزل هو . « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » . وعندما يقول سبحانه « أراك » أو « علمك » فلتعلم أن تعليم الله هو أكثر تصديقاً من رؤيتك الإنسانية ، وكأنك تمثل الشيء الذي يعلمه لك الله وكأنه مجسد لما لك ، وليس مع العين أين .

والواقعة التي حدثت هي : كان في « بني ظمر » واحد اسمه « طعمة بن أبيرق » وسرق « طعمة » درعاً ، وهذا الدرع كان « لقتادة بن النعمان » . وخاف « طعمة » أن يحتفظ بالدرع في بيته فيعرف الناس أنه سرق الدرع . وكان « طعمة » فيما يبدو مشهوراً بأنه نص ، فذهب إلى يهودي وأودع عنده الدرع ، وكان الدرع في جراب دقيق . وحينما خرج به « طعمة » رحله صار الدقيق يتثر من خرق في الجراب وتكون من الدقيق أثراً في الأرض إلى بيت اليهودي وكان اسمه « زيد بن السمير » ، وعندما تتبعوا أثر الدقيق وجدوه إلى بيت طعمة ، ولكنه حلف ما أخفاها وما له بها

علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأحسنوها وقالوا : « لقد سرق بن السمين » . وهنا قال ابن السمين : « أنا لم أسرق الدرع ولكن أودعه عندى » طعمة بن أبيرق . وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء « بنو ظفر » وهم مسلمون « وطعمة بن أبيرق » منهم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حكمت حل المسلم ضد اليهودي مستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجد العار بين المسلمين .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل رسوله ليمدّل متعج الغرائز ابشيرة .
والفرصة البشرية بحسب اندفاعها وقصر نظرها قد تتصور أن الحكم على المسلم
وبطريقة لليهودي هو إصعاف للمسلمين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يفهم الأمر
بالفط فيتزل على رسوله :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لَعَلَّكَ تَتَّقُونَ ﴾

١٠٤

(سورة النساء)

أى يالك أن تقول : إن هذا مسدم ولا يصح أن تلتصق به الجريمة التى ارتكبها حتى لا تكون شبهة عليه ، وإياك أن تحتشى ارتفاع رأس اليهودى ؛ لأن عمالك لعملاً قد ظهر من بين المسلمين . ومن الشرف للإسلام أن يعاقب أى إنسان ارتكب خطأ لأنه ما دام قد انتسب للإسلام فعليه أن يصون هذا الانتساب . وعقاب المسلم عن خطأ هو شهادة للإسلام على أنه لم يأت ليُجامل مسلماً . وعلى كل مسدم أن يعرف أنه دخل الإسلام بحق الإسلام .

لقد نظر بعض السطحيين إلى قوله الحق : « ولا تكن للخائنين خصيماً » قائلين : إن كان هناك نصي أو عائن أو مستغل لقوته فأتزره ولا تنظر إليه ولا تلتفت حتى لا يسب لك نعباً . وهؤلاء يقولون : لا ، فسيبنا وتعالى يقول : « ولا تكن للخائنين خصيماً » و« اللام » التي في أول « الخائنين » هي للمصكية أي أن الحق يأمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا يقف موقفاً لصالح الخائن ، بل عليه أن يتخاصم لصالح الحق .

وقد حاول العلماء أن يقربوا المسافة فقالوا : ربما لا يتنبه أحد لمسألة اللام وأنها هنا للنفعية ، فيكون المنهى عنه أن يقف مسلم موقفاً يتنفع نخات ، بل لا بد أن يكون على الخائن وليس معه . فاللام هنا تكون بمعنى « عن » . كأن الحق يقول : ولا تكن من الخائنين حصيها . أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين .

ولمذا لم يقل الحق « عن » بدلاً من « اللام » ؟ يقول : إن الغاية من الدفاع عن الخصم أن ترجع أموره وتكون له لا عليه ، لذلك جاء الحق بـ « اللام » هنا من أجل أن يعرف الغاية من « عن » واضحة . فاللام تفيد ألا يتنفع المسلم خائناً ، فلا تكون المسألة له . ولذلك جاء الحق بها ليوضحاً واختصاراً لنعرف أن رسوله لن يقف في جانب الخائن ولن يأتي له بما ينفعه . ولذلك قال العلماء : إن اللام هنا بمعنى « عن » والقرآن فيه الكثير من مثل هذا .

وبعض الناس يقول : لماذا لا يأتي باللفظ الواضح الذى يجعلنا نعرف المعنى مباشرة ؟ ونقول : إن الملحظية هنا مفيدة لنعرف في أى صف يقف القرآن والرسول المبلغ عن ربه ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِذَا تَنَادَّ سِحْرُهُمْ ؕ ائْتَيْنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كُنْتُمْ يَعْبُدُونَ ؕ ائْتَيْنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۚ كَذَّبُوا بَيِّنَاتٍ لَّهُمْ وَلَكُنْ لَهُمْ آيَاتٍ وَلَكِنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْتَدَوْا ۚ وَمَا هُمْ بِمُعْتَدِينَ ۚ ﴾

(سورة سبا)

القاتل هم الذين كفروا ، والمقول له هو الحق . وبعض الناس كان يفترض أن المطلق يقتضى أن يقول الكفار : إنك سحريين . وكان الآية هى : وإد تئل آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم أنت سحريين . ولنلاحظ أنهم لم يقولوا للحق ، ولكنهم قالوا عن الحق . ولم يقولوا للحق ذلك ، بل قال بعضهم لبعض . و« الحق » هنا تحدث عنه وليس مخاطب . فقالوا عنه : إنه سحريين

ومثلك آية أخرى يقول الحق فيها :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾

(س الآية ١١ سورة الاحزاب)

والقاتل هنا هم الذين كفروا . والمقول لهم هم الذين آمنوا . والمقصود هو . أن الذين كفروا قالوا للذين آمنوا لو كان الإسلام خيراً ما سبقتمونا إليه .

ولكن الحق سبحانه أورد : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » ، وذلك ليدلنا على أنهم قالوا ذلك في غير محضر المؤمنين ، بل هم يتبدلون هذا القول فيما بينهم .
والأمر أن القول من الكافرين للمؤمنين لكان السياق يقتضي أن يكون : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه .

ومن بعد ذلك يقول الحق .

﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

والأمر بالاستغفار يحىء على مجرد وجود خطر التردد بين نصرته أو نصرته اليهودي ، فلم يكن الرسول قد نصر أحداً على أحد بعد ، ولكن مجرد هذا الخطر يتطلب الاستغفار . والذي يصدر الأمر بذلك هو الحق سبحانه لرسوله ، ولا اعتراض ولا غصاصة أن يمدل لنا ربنا أمراً ما .

أو أن كل خطاب من هذا اللون موجه لمن جعل المسألة موضع مساومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقول « بنى ظفر » عندما أرادوا ألا يحكم الرسول على اللص الذي من بيتهم ، وثمكروا في الإسلام . لذلك يأمر الحق الذين حدثوا رسول الله عن هذا الموضوع بالاستغفار ، أو أن يستغفر الرسول لهم الله ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا رغبة في ألا يفضح أمر المسلمين .

وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ وَلَا تَجِدُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّافًا أَشِيمًا ﴾

وسبحانه يريد أن يشيع هذه القضية بحثاً ، فقد كان يكفي أن يقول لنا ما سبق . لكنه يريد أن يحسم مثل هذه الأمور ؛ فلا مجادلة في الذين يختانون أنفسهم . والجمل كما نعرف هو القتل . وحين يقتل الإنسان شيئاً ، مثل أن يحضر بعضاً من الشعر أو الصوف أو الليف ويحدها ليصنع حبالاً ، فهو يقتل هذا العزل ليقويه ويجعله غير هش وقابلًا للشد والجلب ، ولذلك يقال عن مثل هذه العملية : إنا نجعل الحبل حتى يعطيه القوة . وكذلك شأن الخصمين ؛ كل واحد منهما يريد تقوية حجته ، فيحاول جاهداً أن يقويها بما يشاء من أساليب في القول ولحنه أو الفصاحة في الأسلوب . لذلك يأتي الأمر إلى الرسول . لا تقو مركز أي إنسان يختلن نفسه .

والقرآن حين يعدل عن يخونون أنفسهم إلى « يختانون أنفسهم » ، فلا بد أن لهذا معنى كبيراً ؛ لأن الخيانة هي أن تأخذ غير الحق . ومن المحتمل أن يخون الإنسان غيره ، لكن أيمن المقول أن يخون الإنسان نفسه ؟ إن مثل هذه العملية تحتاج إلى احتمال كبير ، فقد يخون الإنسان غيره من أجل مصلحة نفسه ، أو ليعطي نفسه شهوة ومعصية عليها عاقبة ، وهذه خيانة للنفس ؛ لأن الإنسان في مثل هذه الحالة يغفل عن العقوبة الأجلة بالشهوة العابرة العاجلة .

وهكذا نرى أن الذي يخون الناس إنما يخون - خشناً - مصلحة نفسه . وإذا ما خان الإنسان نفسه فهذا ليس سهلاً ويطلب احتمالاً ، ولذلك يقول الحق : « وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّافًا أَشِيمًا »

والآية التي تحدثت من قبل ذلك عن هذا الموقف لم تأت بكلمة « خوائين » ولكن جاءت بالخائنين ، وهنا يأتي الحق بكلمة خَوَّانٍ . وفيه فرق بين « خائنان » ، و« خَوَّان » ، فـ« خائنان » تصغر منه الحيالة مرة واحدة ، أما الخَوَّان فتصغر منه الحيالة



مراراً . أو يكون المعنى هو : أن الخائن تصدر منه الخيانة في أمر يسير صغير ، أما الخوأن فتصدر منه الخيانة في أمر كبير . إذن . فمرة ثأل المبالغة في تكرير الفعل ، وأخرى في تضخيم الفعل .

ومن لطف الله أنه لم يقل « حائن » ؛ لأن الخائن هو من خان مرة عابرة وانتهى الأمر ، ولم يخرج الله عن دائرة السر إلا إذا اتخذ الخيانة طبعاً وعادة وحرفة . وقد جاءت لسيدنا عمر - رضي الله عنه - امرأة أخذ ولدها بسرقة ، وأراد عمر - رضي الله عنه - أن يقيم على ذلك الولد الحد ، فبكت الأم قائلة : يا أمير المؤمنين والله ما فعل هذا إلا هذه المرة . قال عمر : كذبت . والله ما كان الله ليأخذ عبداً بأول مرة .

ولذلك يقولون : إذا حرفت في رجل سيئة انكشفت وصارت واضحة . فلتعلم أن لها أخوات ، فله لا يمكن أن يفضح أول سيئة ؛ لأنه سبحانه يجب أن يستر عباده ، لذلك يستر العبد مرة وثانية ، ثم يستر العبد في السيئة فيفضحها الله : « إن الله لا يحب من كان خواراً أثياً » ، والإثم أظنع المعاصي . والقوم الذين ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشفوا عنه لابن أبيرق لكي يحكم له الرسول ضد اليهودي ، لماذا صنعوا ذلك ؟ لأنهم استظفروا أن يفضح أمر مسلم ويرا يهودي ، استحبوا أن يحدث هذا ، وعالج القرآن هذه القضية وذلك ليأق بالحشية التي دعتهم إلى أن يفعلوا هذا ويقص على مثل هذا الفعل من أساسه ، فقال :

﴿ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ
وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾

إنهم يطلبون البراءة أمام الناس في أن « طعمه » لم يفعل السرقة ، ولكن هل يملك الناس ما يملكه الله عنهم ؟ . إنه سبحانه أحق بذلك من الناس . فإذا كنتم تريدون

التعصية في قضاء الأرض لمن تعموا على قضاء السماء . وهذه القصيدة يجب أن تحكم حركة المؤن ، فإذا ما فكر إنسان مسروب إلى الإسلام أن يفعل شيئاً يعضب الله عليه أن يفكر : أنا لو فعلت ذلك لفضحت نفسي أو فضحت ولدي أو مضحت أسرى أو فضحت المسلمين ، وعلى الإنسان المسلم ألا يخشى الناس إن فعل أخ له شيئاً يهين المسلمين ، بل عليه أن يأخذ على يديه ويردّه عن فعله . ونقول لمن يستتر عن الناس : أنت استخفيت من الناس ، ولم تستخف من الله ؛ لذلك قانت غير مأمون على ولاية .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » ، وكلمة « معهم » هذه تريد أن تحمل المؤمن مصداقاً أن الله لا تخفى عليه خافية ، إنه من الممكن أن يستتر الشخص عن الناس ، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يستتر عن الله ؛ لأن الله مع كل إنسان في الخفية والجلوة والسر والعلن . فإن قلنا واحد على الاستخفاء من الناس فهو لن يفلح على الاستخفاء من الله .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، و « يبيت » أي أنه يفعل أمره في الليل ؛ لأن الناس كانت تلجأ إلى بيوتهم في الليل ، ومعنى « يبيت » أن يصبح مكيدة في البيت ليلاً ، وكل تدبير يخفيه اسمه « تبيت » حتى ولو كان في وضوح النهار ، ولا يبيت إنسان في خفاء إلا رغبة منه في أن ينقض عنه عيون الرائيين . فنقول له : أنت تنقض العيون التي مثلك ، لكن العيون الأزلية وهي عيون الحق فلن تقدر عليها

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَحِيْطًا ٢١٢ ﴾

(سورة النساء)

حين نسمع كلمة « محيط » فلنعلم أن الإحاطة هي تطويق المحيط للمحاط ، بحيث لا يستطيع أن يفلت منه علماً بحاله التي هو عليها ولا قدرة على أن يفلت منه ما لا وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذي لا تخفى عليه خافية ، ومحيط قدرة فلا يستطيع أن يفلت أحد منه إلى الخارج . وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفاصيله وهو القادر فوق كل شيء . فإذا ما سمعنا كلمة « محيط » فممتناها أن



الحق سبحانه وتعالى يحيط به عباداً بكل جزئياته فلا يستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق . وسبحانه محيط بكل شيء قدرة فلا يستطيع أن يفلت من ماله شيء من الجواهر الحق .

وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا :

﴿ هَآأَنَآ هَآؤَلَا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ
الْءَنَىٰ فَمَن يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ
مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

والذي جادل من ابن أيرق كان يريد أن يجرى مساحته أمام الناس ويدين اليهودي ، وفي أنه قد جادل أمام بشر عن شر ، فهل تنتهي المسألة بهذا اليسر ؟ لا ، لأن الدنيا ليست دار جزاء . وهب أنه أفلت من العقوبة البشرية ، أفلت من عقوبة الله في الآخرة ؟ لا ، إذن فالذي يجادل يريد أن يعصى على قضاء الأرض ، ولن يستطيع أن يعصى حل قضاء الحق ، ولن يجد من يجادل عن مثل هذا الخطأ يوم القيامة . وليس هذا فقط ، ولكن الحق ينزل الآية : ألم من يكون عليهم وكيلاً ؟ أى فمن إذن يستطيع أن يكون وكيلاً عن هؤلاء يوم القيامة ؟ . ونعرف أن الوكيل هو الشخص الملقب الذي يختاره بعض الناس ليكون قادراً على إقناع من أمامه . فمن يستطيع أن يقوم بذلك العمل أمام الله ؟ لا أحد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ
اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّءِيمًا ﴾

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخلق جعلهم أهل أهوار ، لذلك لم يشأ أن يخرج مذنباً بلذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه - سبحانه - شرع التوبة للذنوب حماية للمجتمع من انتشار شره . فلو خرج كل من ارتكب ذنباً من رحمة الله ، فسوف يمان المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمة مستطيرة الشر على المجتمع إذن فالتوبة من الله ، مشروعية وقبولاً ، إنما هي حماية للبشر من شراسة من يصنع أول ذنب . وهكذا جاءت التوبة لتحمي الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة .

إن الذين وقفوا في محاولة تبرئة « ابن أبيرق » انقسموا إلى قسمين : قسم في بآله أن يرى « ابن أبيرق » ، وقسم في بآله ألا يفضح مسلماً . وكل من القسمين قد أذنب . ولكن هل يخرجهم هذا الذنب من رحمة الله ؟ لا ، سبحانه يقول : « يجد الله عفورا رحيماً » والحق يعفو عن تلك المسألة . إن القسمين جميعا أصبحوا مطالبين بعمل طيب بعد أن أوضح لهم الرسول ، وفهموا مراد الحق . وسبحانه يفيهم في الصف الإيماني ، وقد حكم رسول الله عن « ابن أبيرق » لصالح اليهودي ، وبعد ذلك ارتد « ابن أبيرق » ، ودعب إلى مكة مصاحباً لإبادة الحريانة ، فقتب حائطا على رجل ليسرق محتاه فوقع الحائط عليه فمات .

والحق سبحانه يضح المعايير ، فمن يرتكب ذنباً أو يظلم نفسه بخطيئة ثم يستغفر الله يجد الله عفورا رحيماً . ونلاحظ أن بعض السطحيين لا يفهمون جيداً قول الحق : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله عفورا رحيماً » يتساءلون : أليس الذي ارتكب العمل السيء قد ظلم نفسه ؟

ونقول : إن دقة القرآن توضح لنا المعنى ، بمعنى عمل سوءا أضرب هذا العمل آخرين ، إنه خير الذي ارتكب شيئا يضر به نفسه فقط ، فالذي سرق أو قتل أو اعتدى على آخر قطعا أو ضربا أو إهانة ، مثل هذه الأفعال هي ارتكاب للسوء ، فالسوء هو عمل يكرهه الناس ، ويقال : فلان رجل سوء ، أي يلقى الناس بما يكرهون .

لكن الذي يشرب الخمر قد يكون في عزلة عن الناس لم يرتكب إساءة إلى أحد ،

لكنه ظلم نفسه ، لأن الإنسان المسلم مطلوب منه الولاية على نفسه أيضاً ، والمنهج يحبس المسلم حتى من نفسه ، ويحسب النفس من صاحبها ، بذليل أننا نأخذ من يقتل غيره بالمقوية ، وكذلك يحرم الله من الجنة من قتل نفسه انتحاراً .

وهكذا يرى حاية المنهج للإنسان وكيف تحوطه من كل الجهات ، لأن الإنسان فرد من كون الله ، والحق يطلب من كل فرد أن يحسب نفسه . فإن صنع سواء أى أضر بشيره ، فهذا اسمه «سوء» . أما حين يصنع فعلاً يضر نفسه فهذا ظلم النفس :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ عَمَلُوا غُلُوبًا اتَّبَعُوا مَا تَتَّبِعُونَ الْأَنْفُسَ فَسَافَرُوا إِلَيْهَا قُلْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ يَحْمِلُونَ الْوِثْرَ الْأُولَىٰ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَحْمِلُونَ الْوِثْرَ الْآخِرَ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَ اللَّهِ سَلَامًا فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَ اللَّهِ سَلَامًا فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَ اللَّهِ سَلَامًا فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَ اللَّهِ سَلَامًا فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ ﴾

(سورة آل عمران)

وهل فعل الفاحشة مخالف لظلم النفس ؟ إنه إسائة لغيره أيضاً ، لكن ظلم النفس هو الفعل الذى يسيء إلى النفس وحدها . أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتنع نفسه بها لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الآخرة . وقد نجد إنساناً يرتكب المعصية ليحقق لغيره منة ، مثال ذلك شاهد الزور الذى يعطى حق إنسان لإنسان آخر ولم يأخذ شيئاً لنفسه ، بل باع دينه بدنياه غيره ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« يأتونكم بالأعمال سبعة فتنة كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمس كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا » (١) .

« ومن يعمل سريرة أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » والله غفور رحيم أولاً ودائماً ، والعبد التائب يرى مغفرة الله ورحمته

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٣﴾

ويورد الحق كلمة « كسب » عندما يتناول أمراً خيراً فعلة الإنسان ، ويصف ارتكاب الفعل السيء بـ « اكتسب » ، لماذا ؟ لأن فعل الخير عملية فطرية في الإنسان لا يستحي منه ، لكن الشر دائماً هو عملية يستحي منها الإنسان ، لذلك يجب أن يقوم بها في خفية ، وتحتاج إلى اتصال من الإنسان .

ولنضرب هذا المثل بالإيضاح - والله المثل الأعلى - نحن نجد الرجل ينظر إلى وصاة زوجته بكل ملكاته ، لكنه لو نظر إلى واحدة أخرى من غير عارفه فهو يقوم بعملية الخداع ملكات النفس حتى يتخلص ليرى هذه المرأة . ويحاول التحايل والافتعال ليتخلص على ما ليس له . ولذلك يقال عن الخلال : إنه « كسب » ويقال عن الحرام : إنه « اكتساب » .

فلذا ما جاء القرآن للبيئة وقال : « كسب سيئة » فهذا أمر يستحق الانتباه ، فالإنسان قد يعمل السيئة ويتم عليها بمجرد الانتهاء منها إن كان من أهل الخير ، ونجده يربح نفسه ويلومها ويحرم على ألا يعود إليها . لكن لو ارتكب واحد سيئة وسعد بذلك وكأنها حققت له كسباً ويفخر بها متناسياً الخطر الجسيم الذي سوف يواجهه يوم القيامة وللعصير الأسود ، وهو حين يفخر بالمعصية في ذلك إعلان عن فساد الفطرة ، وسباحة الضجور في أحباقه ، وهو يختلف من ذلك الذي تقع عليه المعصية ولحظة ما يتذكرها يتشعر بدنه ويستغفر الله .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » فإياك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحداً بعمل سوء قد كسبت الدنيا ، والله لو علم الظالم ماذا أعد الله للمظلوم لضمن على عدوه أن يظلمه . واضرب هذا المثل للإيضاح - والله المثل الأعلى دائماً - هب أن رجلاً له ولدان . وجاء ولد منها وضرب أخاه أو خطف منه شيئاً يملكه ، ورأى الأب هذا الحادث ، فلين يكون قلب الأب ومع من يكون ؟

إن الأب يتف مع المظلوم ، ويحاول أن يرضيه ، فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئاً يساوى عشرة قروش ، فالأب يعرض الابن المظلوم بشيء يساوى مائة قرش . ويحس الظالم في حسرة ، ولو علم أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلمه أبداً . إذن فالظالم قمة من قمم الخباء .

ومن ضمن المفاخر التي تروى مفارقة تقول : إن كنت ولا بد معتاباً فاختب أبوك . ولا بد أن يقول السامع لذلك : وكيف اختب أبى وأمى ؟ فيقول صاحب المفارقة : إن والدك أولى بحسناتك ، بدلاً من أن تعطى حسناتك لعنوك ، ابعد ممن تحبهم وأعطهم حسناتك . وحيثية ذلك هي . لا تكن أيها المعتاب أحق لك لا تختب إلا عن عداوة ، وكيف تعطى لعنوك حسناتك وهي نتيجة أعمالك ؟

ونعرف ما فعله سيدنا الحسن البصري ، عندما بلغه أن واحداً قد اختابه . فإرسل إلى المعتاب طبقاً من البلع الرطب مع رسول ، وقال للرسول : اذهب بهذا الطبق إلى فلان وقل له : بلغ سيدى أنك اعتبت بالأمس فأهديت له حسناتك ، وحسناتك بلاشك ألتمن من هذا الرطب . وفي هذا إيضاح كاف للثم الغيبة .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق « داخلية في صورة كينونة أى مسبوقه » كان ، فليأثم أن تأخذوا « كان » على أنها وصف لما حدث في زمن ماضٍ ، ولكن لتقل « كان وما زال » . لماذا ؟ لأن الله كان أولاً ، فهو غفور رحيم قبل أن يوجد مغفور له لو مرحوم ، فإنه ليس من أهل الأخيار ، والصفات ثابتة له ، لأن الزمن في الأحداث يتغير بالنسبة للأخيار فقط ، وعلى سبيل المثال نجد الواحد من البشر صحيحاً في زمن ومريضاً في زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضي إلا أصحاب الأخيار . وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا في أصحاب الأخيار . وما دام الله هو الذي يغير ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان في الأزل غفوراً رحيماً ، ولا يزال أيضاً غفوراً رحيماً . وكذلك كان علم الله أزلياً وحكمته لا حدود لها .

ويعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا
فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

قالوا : إن الخطيئة هي الشيء غير المتعمد ، مثال ذلك حين نعلم التلميذ قاعدة من قواعد النحو ، ثم نطلب منه أن يطالع نصاً من النصوص ، وننتفت لنجد التلميذ قد نصب المفعول ورفع المفعول ، ونصحح له الخطأ ، إنه لم يتعمده ، بل نسي القاعدة ولم يستحضرها . ونطل نصحيح له الخطأ إلى أن يتذكر القاعدة استحوية ، وبالتدريب يصبح الإعراب ملكة عند التلميذ فلا يخطئ .

والخطيئة - إذن - هي الخطأ غير المتعمد . أما الإثم فهو الأمر المتعمد . فكيف إذا رمى واحد غيره بإثم ارتكبه أو خطيئة ارتكبها هو . . ما حكم الله في ذلك ؟

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

(سورة النساء)

لقد ارتكب الخطيئة أو الإثم ، وباليه اكتمل بهذا ، لا ، بل يريد أن يصعد الجريمة بارتكاب جريمة ثالثة وذلك بأن يرمى بالخطيئة أو الإثم بريئاً ، إن إثمه مركب ، ولذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » واستخدام الحق هنا لكلمة « احتمل » وليس « هل » ، نؤكد لنا أن هالك علاجاً ومكابدة وشدة ليحمل الإنسان هذا الشيء الثقيل ، فالجريمة جريمتان وليست واحدة ، لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريئاً ، وفعل الخطيئة يندم هل فعلها مرة ، ويندم أيضاً هل الصاقها بغيره ، إذن فهي هل هل أكتابه . ونعلم أن الإنسان ساعة يقع أسير صغار العداوة ، بيون عليه أن يصنع العصية ، ولكن بعد أن يبدأ صغار العداوة فالندم يأتيه . قال الحق :

﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ أَبِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَهُ يُتَقَبَّلُ مِنَ
الْآخَرِ قَالَ لَأُنْتَسِكَ قَالَ إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَعَبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(سورة النمل)

هابيل - إدن - يسأل قابيل : وما ذنبى أنا فى ذلك ، إن الله هو الذى يقبل القربان
وليس أما فلماذا تفتنى ؟

ويستمر القول الحكيم :

﴿لَنْ يَسْعَتْ إِلَىٰ بَدَايَةِ تَقَاتُلِي مَا أَنَا بِسَلِيطٍ بِدَىٰ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة النمل)

وماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(سورة النمل)

كان مسألة القتل كانت عملية شاقة وليست سهلة ، وأخذت مغالية . وعلى سبيل
المثال : لن يقول أحد : « لقد طرعت الحبل » ولكن هناك من يقول : « أنا طوَّعت
الحديد » وسعار الغضب جعل قابيل ينسى كل شيء وقت الجريمة ، وبعد أن
ونعت ، وهذا سعار الغضب الذى ستر موارين القيم ، هنا ظهرت موازين القيم
ناصعة في النفس

ولذلك نجد من يرتكب جريمة م ، ويتجه بعد ذلك لتسليم نفسه إلى الشرطة ،
وهو يفعل ذلك لأن سعار الجريمة انتهى وظهر ضوء موازين القيم ساطعاً . وعلى ذلك
نعمهم قول الحق . « فقد احتمل هتاناً وإثناً مبيناً » .

وهذا يدل على أن من يصنع جريمة ثم يرمى البريء بالإثم إنما يرتكب خطأ
يتطلب مثاقفة وتنازحه نفسه مرة بالدم ، لأنه فعل الجريمة ، وتنازحه نفسه مرة ثانية
لأنه رمى بريئاً بالجريمة ، لذلك قال الحق . « فقد احتمل هتاناً وإثناً مبيناً » وساعة

سمع كلمة « بهتان » فهي مأخوذة من مادة « بهت » . والبهتان هو الأمر الذي يتعجب من صدوره من فاعله . مثال ذلك قوله الحق في شرح قصة سيدنا إبراهيم مع النمرود ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

فإذا كان موقف الرجل ؟

﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أي أنه سمع شيئاً عجبياً يخبره عن أن يتكلم ، فقد جاء له سيدنا إبراهيم بأمر عجيب لا يخطر على باله ، ولا يستطيع أن يجد منه مفعلاً ، فكان الأمور المحالمة لخلق الحق والمطلوب القيم أمور غريبة عن الناس إنها هي البهتان ، والدليل على ذلك أنها أمور يستتر فاعلها عن الناس .

وإذا ما نظرنا إلى القضية التي نزلت الآية بسببها وجدنا أن سارقاً سرق وأراد أن يبرئ نفسه وأن يدخل في الجريمة بريئاً . ويلصقها به ، وأن يرتكب المجرم الجريمة فهذا يجهل تماماً . أما أن ينقل الجريمة إلى سواء هذا يدل على وجود طائفة أخرى حتى يمتن ما فعله ، وهذا صعب على النفس ، ولا يتعجب أحد لسماع شيء . لا إذا كان هذا الشيء مخالفاً لما هو مأثور ومعروف . وإن في الحوار بين سيدنا إبراهيم والنمرود لدليلاً واضحاً وناضحاً ، فعندما قال النمرود :

﴿ أَنَا أَخْبَرُ وَلَمْ أُحْثِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

قصد بذلك قدرته على أن يقتل إنساناً ، ويترك إنساناً آخر لمسهة . وهنا عاجله سيدنا إبراهيم بالقضية التي نبهته ولا يدخل فيها هذا التهاكك اللفظي . فقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أن النمرود سمع قولاً عجيباً وليس هذه من الذكاء ما يحتاط به إلى دفعه ، وكذلك الرجل الذى صنع الحرمة ثم رمى بها غيره احتاج إلى طاقة تتحمل هذا ، مما يدل على أن العطرة السليمة كارهة لفعل القبيح . فإذا ما فعل الإنسان دنياً فقد حمل بهتاناً ، وإذا ما عدى ذلك إلى أن يجعله إلى برىء ، فذلك يعنى أن الأمر يحتاج إلى طاقة أخرى .

إذن فقوله الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » أى أنه احتمل أمراً عجيباً يبهت السامع ويتعجب كيف حدث ذلك . ويحتمل من يفعل ذلك الإثم أيضاً .

. والإثم - كما عرفنا - هو السيئة المستندة . ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه القضية - إن الله سبحانه وتعالى يحيطك يا محمد بعنايته وبرعايته وينظرك ، وإن حاول بعض من قليلي الإيمان أن يخرجوك عن هذه المسألة ، وأن يزعموا لك أن نبريئ مذنباً لتجرم آخر بريئاً وإن كان المذنب مسلماً وإن كان البريئ غير مسلم ، والله لم يرسل محمداً ليحكم بين المؤمنين فقط ، ولكن صدر هذه الآية بوضع لنا أن الله أرسل رسوله ليحكم باحق : « لتحكم بين الناس » أى ليحكم بين الناس على إطلاعهم . فإياك حين تحكم أن تقول : هذا مسلم وذلك كافر أو تقول : هذا مسلم وذلك من أهل الكتاب ، بل كل الناس أمام قصايا الحق سواء .

ولذلك أخذ لرسول صلى الله عليه وسلم تلك الجرعة الإيمانية التي جاءت بها حادثة من الحوادث ليقول بعد ذلك في قصة المخزومية حينما سرقت ولراد أن يفهم عليها الحد ، وكلمه حبيب أسامة بن زيد في أن يرفع عنها الحد ، فقال رسول الله :

« من عاتشة رضى الله عنها أن قریشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجرد عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : « أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت محمد يدها » (١)

هذا القول مستخلص من القضية السابقة . ويفوق سبحانه وتعالى .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ
طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ
إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ
عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ
تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ١١٢

وهنا تتساءل : هل هم أحد بإضلال رسول الله ؟ علينا أن نفهم أن و لهم
نوحان : هم إنقاذ ، وهم تزيين . وقد رفض رسول الله هم الإنقاذ ، ودفعه الله عنه
لأنه سبحانه وتعالى يحوط رسوله بفضله ورحمته ويأتي بالأحداث ليعلمه حكماً
جديداً . وفضل الله على رسوله ورحمته جعل لهم منهم هم تزيين فقط وحفظ الله
رسوله منه أيضاً . وعندما تعلم الرسول هذا الحكم الجديد ، صار يقضي به من بعد
ذلك في كل قضايا الناس . فإذا ما جاء حدث من الأحداث وجاء له حكم من السماء
لم يكن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالفضل لله لأنه يزيد رسوله تعليماً

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النمل)
وكان قصد الذين دافعوا عن « ابن أبيرق » أن يزينوا لرسول الله ، وهذا هو هم
التزيين لا هم الإنقاذ . وكان الهدف من التزيين أن يضرروا الرسول ويضلوه والعيذ
بالله ، ليأخذوه إلى غير طريق الحق وغير طريق الهدى ، وهذا أمر يضر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فهو أن رسول الله يرى المذهب الذي يعلم أنه مذهب لا يستقر في
ذهن المذهب أن قضايا الدين ليست جادة ، أما البريء الذي كان مظلوماً أن يديه
رسول الله ماذا يكون موقفه ؟ لا بد أن يقول نفسه . إن دين محمد لا صدق فيه لأنه
يعاقب بريئاً . إذن فهم التزيين يضر بالرسول عند المبرأ وعند من يراد إلصاق الجريمة

به . لكن الله سبحانه رسوله بالمفصل وبالرحمة عن هذا أيضا
 ﴿لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ أَنْ يَنْبُؤَكَ وَمَا يُنْصِتُونَ إِلَّا آتَانَهُمْ^ط وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ^٤
 وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النجم)

لقد أنزل الحق كتاباً ليفصل في القصة ونزول الحكم بعد وقوع تلك الحادثة ، بما
 جاء ليبين صمن ما يبين سر نزول القرآن مجيئاً ، لأن القرآن يعالج أحداثاً وفعيية ،
 فيترك الأمر إلى أن يقع الحدث ثم يصب على الحدث حكم الله الذي يرسل من السماء
 وقت حدوث الحدث ، وإلا كيف يعالج القرآن الأحداث لو نزل مرة واحدة يبينها
 الأحداث لم تقع ؟ لذلك أراد الله أن تنزل الأحداث أولاً ثم يأتي الحكم وقد سبق
 أن قال الكفار :

﴿يَوَلَّا زُرَّانَ عَلَيْهِ الْفُرْقَانُ بَعْجَةً وَاحِدَةً﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

لا ، فقد أراد الله القرآن مجيئاً ومتفرقاً ومقسطاً لماذا ؟

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

فكلما حدثت هزة للنفوس في اللبد والخصومة الشديدة ومن العباد الذي كان عليه
 الكفر وردد لهم للحق - وهم يعرفونه كما يعرفون آبائهم - ينزل نجم من القرآن ،
 وفي شعب البشر مع الرسول تنزل رحمة السماء تثبت الفؤاد ، فإن تعب الفؤاد من
 شعب الناس ، آيات اتصال الرسول بالسماء وبالوحي تأتي عنه هذه المتاعب
 ورسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الدعوة كانت تحدث له كل يوم هزات ،
 لذلك كان في كل لحظة يحتاج إلى تثبيت . وعندما ينزل النجم القرآني بعد العراك مع
 الخصوم فإن حللوا النجم القرآني تهوّن عليه الأمر ، وإذا ما جاء للرسول صلى الله
 عليه وسلم أمر آخر يعكر صفوه ، فهو يتنظر حللوه الوحي لتنزل عليه ، وهذا معنى
 قوله الحق

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

أى أنزلناه متجماً لتثبت به قواذك . ولو نزل القرآن جملة واحدة لفلل من مرات اتصال السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد مداومة اتصال السماء به . بدليل أن الوحي عندما فتر جلس الرسول يطالع إلى السماء ويتشوق . لماذا ؟ ففى بداية النزول أرفقه الوحي ، لذلك قال الرسول : « فضحنى إليه حتى بلغ منى الجهد » (١)

ورأه خديجة - رضى الله عنها - (وإن جبينه ليتفصد عرقاً) فاتصال جبريل بملكه ونورانيته برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بشرته لا بد أن يحدث تغييراً كيميائياً فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد على فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » (٢)

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يراجه المتاعب وأراد الله بفترة الوحي أن يحس محمد حلاوة الوحي الذى نزل إليه ، وأن يشتاق إليه ، فالشوق يعين الرسول على تحمل متاعب الوحي عندما يحى . ، ولذلك نجد أن عملية تفصد العرق لم تستمر كثيراً ، لأن الحق قال :

﴿ وَلَئِنَّكَ لَمِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن الحق أوصح لرسوله : إنك ستجد شوقاً وحلاوة ولذة فى أن تستقبل هذه الأشياء .

(١) روى البخارى فى كتاب بدء الوحي

(٢) روى البخارى فى كتاب بدء الوحي

﴿كَذَلِكَ يُنْشِئُ فِيهِ فُؤَادَكَ وَرَبَّنَا تَرْتِيلًا﴾

(من الآية ٣٦ سورة الفرقان)

وهكذا كان القرآن ينزل منجياً ، على فترات ، ويسمع الصحابة عدداً من آيات القرآن . ويحفظونها ويكتبونها كُتُبُ الرُوحى ، وبعد ذلك تأتي معجزة أخرى من معجزات القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتزل سورة كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يسرى عنه يقول للكتابة : اكتبوا هذه . ويرتب رسول الله الآيات بموافعها من السورة . ثم يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة في الصلاة ويسمع المصلون الترتيل الذى تكون فيه كل آية في موقعها ، وهذا دليل على أن المسألة مدروسة دراسة دقيقة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يحكى إنما يحكى صدقاً .

والأقولوا لى . كيف ينزل الوحي على رسول الله بسورة بأكملها ويملأها للكتابة ، ثم يقرؤها في الصلاة كما نزلت وكما كتبها أصحابه ، كيف يحدث ذلك إن لم يكن ما نزل عليه صدقاً كاملاً من عند الله ؟ ونحن قد نجد إنساناً يتكلم لمدة ربع ساعة ، لكن لو قلنا له : أعد ما تكلمت به فلن يعيد أبداً الكلمات نفسها ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الآيات كما نزلت . مما يدل على أنه يقرأ كتاب الله المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه تنزيل من حكيم حميد . ولذلك يقول الحق :

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

(سورة الفرقان)

أى لا يأتونك بمحاكاة تحدث إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً فيها . إذن لم يكن للقرآن أن ينزل منجياً إلا ليشت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تنابع الهوام لى يتعرض لها ، وأراد الله أن يشر اتصال السماء برسول الله صلى الله عليه وسلم على الثلاثة والعشرين عاماً التى استغرقتها الرسالة .

والترتيل هو التنجيم والتفريق الذى ينزل به القرآن فيقرأه الرسول في الصلاة مثلاً نزل عليه قبل ذلك دون تحريف أو تبديل ، والحق يقول :

﴿ سَقِرْفُكَ فَلَا تَدْسِقْ ﴾ ①

(سورة لاهل)

وكل حادثة تحدث ينزل لها ما يناسبها من القرآن . كما حدثت حادثة سرقة دس
أبيري فزل فيها الحكم والحق بقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله
عليك عظيماً »

فإذا ما علمك الله - يا رسول الله - ما لم تكن تعلم ينزل الكتاب ، فهل أنت
يا سيدي يا رسول الله مشرع فقط بما نزل من الكتاب ؟ لا ، فالكتاب معجزة وفيه
أصول المنهج الإيماني ، ولكن الله مع ذلك هو من رسول الله عليه وسلم أن
يشرع ، وتلك هيزة لم تكن لرسول قبله ، بل قيل قوله الحق -

﴿ وَمَا أَسْكُرُ الرُّسُولَ فَخُذْهُ وَمَا نَكُرْهُ فَاسْتَنْهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة المشر)

فالرسل من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يتناولون ما أخذوه عن الله ، ويمز
سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بتفويض التشريع . وأوصح الحق أنه علّم رسوله
الكتاب والحكمة ، والحكمة مقصود بها السنة ، فسبحانه القائل

﴿ وَأَذْكُرْ مَا يَنْتَلِي فِي يَوْمِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وسبحانه صاحب الفضل على كل الخلق وصاحب الفضل على رسوله : « وأنزل
الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً »
ولما أن نلاحظ أن فضل الله « تكرر في هذه الآية مرتين . ففضل الله الأول في هذه
الآية أنه خصه من أن تفضله طائفة وتناهى به عن الحق ، ثم كان فضل الله عليه ثانياً
أنه أنزل عليه الكتاب بكل أحكامه وأعطاه الحكمة وهي التفويض من الله لرسوله أن
يشرع . إذ فالحق سبحانه وتعالى جعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم امتداداً
لوحيه . ولذلك إذا قيل من قوم يحاولون التشكيك في حديث رسول الله : إن الصلاة
لم تأت في القرآن .

نقول سائين الواحد منهم : هل تؤدي الصلاة أم لا ؟

فيقول : إني أصلي ..

فيقول له : كم فرضاً تصل ؟

فيقول : خمسة فروض .

فيقول : هات هذه الفروض الخمسة من القرآن . وسوف يصيبه البهت ، وسيلتبس عليه أمر تحديد الصبح بركعتين والظهر بأربع ركعات ، والعصر بثلاث ، والمغرب بثلاث ، والعشاء بأربع ركعات . وسيترف أخيراً أنه يصل على ضوء قول الرسول : (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(١) وهذه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » ، وقد نجد واحداً من أهل السطحية واللباجة يقول : القرآن يكرر الكلمات في أكثر من موقع ، ولماذا يذكر فضل الله في صدر هذه الآية ، ويذكره مرة أخرى في خيل نفس الآية ؟

نقول : أنت لم تلاحظ فضل الله في الجزئية الأولى لأنه أنقذ رسوله من همّ الكثيرين بالحكم على واحد من أهل الكتاب ظليماً ، وفي الجزئية الثانية هو فضل في الإمام بأنه علم رسوله الكتاب والحكمة وكان هذا الفضل عظيماً حقاً

وساعة يذهب هؤلاء الناس ليحدثوا الرسول في أمر طعمة ابن أبيرق ، ألم يجلسوا مما ليتدارسوا كيف يقلت طعمة بن أبيرق من الجرمية ؟

لقد قاموا بالتداول فيما بينهم لأمر طعمة واففقوا على أن يذهبوا للرسول ، فكانت الصلة قريبة من السجوى . ولذلك حرص أدب الإسلام على أن يحترم كرامة كل جليس ثالث مع اثنين فلا يتناحى اثنان دون صاحبهما ؛ لأن ذلك يحزنه .

وقد يكون الأمر جاثراً لو كان المجلس أربعة ، فواحد يتحدث مع آخر ، وهناك يستطيع اثنان أن يتناحيا . إذن فالسجوى معناها المسألة ، والمسألة لا تكون إلا عن أمر لا يحبون أن يشيع ، وقد فعل القوم ذلك قبل أن يذهبوا إلى لرسول ليكلموا عن

(١) رواه البخاري والبيهقي في المسند الكبير

حادثة طعمة بن أبيرق ، ولذلك يوضح الحق أمر هذه النجوى ، فيقول القول الحق :

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ
وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤)

وسبحانه يوضح أمر هذه النجوى التي تحمل التبييت للإضلال ، ولكن ماذا إن كانت النجوى لتحين على حق ؟ إنه سبحانه يستثنى هنا ، لذلك لم يصدر حكماً جازماً ضد كل نجوى ، واستثنى منها نجوى من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، بل ويهزى عليها حسن الثواب . لذلك قال : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . ويستخدم الحق هنا كلمة « سوف » ، وكان من الممكن أن يأتى القول « فسؤتيه أجراً عظيماً » لكن لدقة الأداء القرآنى البالغة جعلت بأبعد المسافات وهى « سوف » .

ونعرف أن جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم « السين » ، وإذا ما جاء جواب الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم « سوف » . وجاء الحق هنا بـ « سوف » لأن مناط الجزاء هو الآخرة ، فإليك أيها العبد المؤمن أن تقول : لماذا لم يعطى الله الجزاء على العطيى فى الدنيا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل : « فسؤتيه » ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » بما يدل على أن الفضل والإكرام من الله ، وإن كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ، لأن جزاء الحق لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدل على هذا الجزاء فى الآخرة إلا « سوف » . ونعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين هبى أمته الإيمانية بشيء فهو ينيها بالآخرة ، ولتنظر إلى بهمة العقبة عندما جاء الأنصار من المدينة لمبايعة رسول الله :

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصاية من أصحابه : يا أيها الذين آمنوا لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بيهتان فتفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف ، فمن وفى منكم فأجره من الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كغمار له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه^(١) .

لقد انحلت نفسك يا رسول الله ونحن نريد أن نأخذ لأنفسنا ، ماذا لنا إن نحن وفينا بهذا ؟ ولتر عظيمة الجواب والهامية الرد ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم :
(لكم الجنة)

كان في استطاعة رسول الله أن يقول لهم : إنكم ستتصرون وإنكم ستأخذون مشارق الأرض ومغاربها وسيأتى لكم خير البلاد الإسلامية كلها . لكنه بحكمته لم يقل ذلك أبداً فقد يستشهد واحد منهم في قتال من أجل نصرته دين الله ، فإذا سيأخذ في الدنيا ؟ . إنه لن يأخذ حظه من التكريم في الدنيا ، ولكنه سيأخذ الجزاء في الآخرة . لذلك جاء بالجزاء الذي سيضمن الكس ، وهو الجنة ليدفعهم على أن الدنيا أثم من أن يكون جزاء الله محصوراً فيها ، ويحضر كل المؤمنين من أن يطلبوا جزاء الآخرة ، ونعلم جميعاً هذه الحكاية ، ونجد رجلاً يقول لصاحبه : أعجبني ؟ فأجاب صاحب : نعم أعجبك . فسأل السائل : على أى قدر تحبني ؟ قال صاحب : قدر الدنيا . أجاب الرجل : ما أتعجبني حثلك !!

يقول الحق : « ومن يفعل ذلك ابتغاه مرضيت الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » ومن صاحب « نؤتيه » والماعل لهذا المطاء ؟ إنه الحق سبحانه وتعالى الذى وصف الأجر بأنه أجر عظيم . وكان الحق يبلغنا :

- يا معشر الأمة الإيمانية اتبعوا بمنهج رسول الله وامتزجوا به تتكبروا معه شيئاً واحداً . ولما كنتم أن يكون لكم رأى منفصل عن المنهج ؟ فهو مبلغ عن الله ، فمن آمن به فليكن حم به . ولذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - ساعة

حدثوه في حكاية الإسراء والمعراج بجده يسأل محدثه : أقال رسول الله ما قلتموه . ؟ فيقولون : بلى ، لقد قال فبرد عليهم الصديق : إن كان قال فقد صدق ، فالصديق أبوبكر لا يحتاج إلى دليل على صدق ما قال رسول الله .
وبلى الحق بالمقابل فيقول :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ
الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَاهُ مَا قَوْلُ
وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١٦٥ ﴾

وكلمة « يشاقق » تدل على أن شقاً قد حدث في أمر كان ملتصقاً ، مثلاً نشق قطعة الخشب فتجعلها جزئين بعد أن كانت كتلة واحدة . وأنتم أيها المؤمنون قد التحمت بمنهج رسول الله إيماناً ، واعترفتم به رسولا ومبلغ صدق عن الله ، فليحكم أن تشرعوا هذا الالتحام . فإن جاء حكم وحاول أحد المؤمنين أن يخرج عنه ، فهذا شقاق للرسول والعياد بالله . أو لمعنى ومن سلك غير الطريقة التي جاء بها الرسول بأن صار في شق وشرع الله في شق آخر .

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » نعم فقد تبين الهدى للمسلم حينما آمن بالله خالقاً ورباً . وآمن بالرسول مبلغاً وهو بذلك قد أسلم زمامه إلى الله . ولذلك قلنا : إن عمل العقل هو أن ينظر في أدلة الوجود الأعلى الله ، فإذا ما آمن الإنسان بالوجود الأعلى الله ، بقيت مرتبة ، وهي أن يؤمن الإنسان بالرسول المبلغ عن الله ، لأن قصارى ما يطلبه العقل من الدليل الإيمان على وجود الله أن وراء الإنسان ووراء الكون قوة قادرة حكيمة حاملة لبيها كل صفات الكمال .

إن العقل لا يستطيع معرفة اسم هذه القوة . ولا يستطيع العقل أن يعرف على مطلوباتها ؛ لذلك لابد من البلاغ عن هذه القوة ، وإذا تبين للإنسان الهدى في

الوجود الاعلى وفي البلاغ من الله فلا بد للإنسان أن يلتزم بالمنهج الذي جاء به المبلغ عن الله . وفعل الإنسان مطلوب القوة العليا ، لأن الله قد أمر به ، ولأن رسول الله قد بلغ الأمر أو فعله أو أقره . لما إذا دخل الإنسان في محامكات فإننا نقول له : راجع إيمانك بالله أولاً وإيمانك برسول الله ثانياً . لذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٥٥ ﴾

(سورة التوبة)

والهدى - كما نعرف - هو الطريق الموصل إلى الغاية . فكل فعل من أفعال الخلق لابد له من هدف . ومن فعل فعلاً بلا هدف يعتبر المجتمع فلقدماً للتمييز . أما إذا كان الإنسان صاحب هدف فهو يتعرف على جدية هدفه وأهميته . ويبحث له عن أفضل طريق ، هذا الطريق هو ما نسميه الهدى . ومن يعرف الطريق الموصل إلى الهدى لم يتبع غير سبيل المؤمنين فهو يشاقق الرسول ، ولا يلتزم بمنهج الإيمان ولا يلتزم به ، ومن يشاقق إنما يرجع عن إيمانه .

وهكذا نعرف أن هناك سبيلاً وطريقاً للرسول ، ومؤمنين اتبعوا الرسول بالتحام بالمنهج ، ومن يشاقق الرسول يخالف المنهج الذي جاء به الرسول ، ويخالف المؤمنين أيضاً .

والحق هو القاتل :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ۖ

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

فليس للحق إلا سبيل واحد . ومن يخرج عن هذا السبيل فما الذي يحدث له ؟ . ها هي فتى إجابة الحق : « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » . ولكي يلقى لفظ من المحتمل أن يكون أدلة شرط ويحتمل أن يكون اسماً موصولاً مثل قولنا : مَنْ يذاكرُ يسجح . بالضم فهما ، و « مَنْ » هنا هي اسم موصول ، فالذى يذاكر هو مَنْ يسجح . وقد نقول : مَنْ يذاكر يسجح . بالسكون وهنا « مَنْ » شرطية .

وفي الاسم للوصول نجد الجملة تسير على ما هي ، أما إذا كانت شرطية ، فهناك الجزم الذي يقتضي سكون الفعل ، ويقتضي - أيضاً - جواباً للشرط . ومن « تصلح أن تكون اسماً موصولاً ، وتصلح أن تكون أداة شرط ، وتتعرف - عادة - على وضعها بما يأتي بعدها . مثال ذلك قوله الحق :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع » ونجد « يتبع » هنا عليها سكون الجزم ، وهذا يدل على أن « من » شرطية .

وتختلف القراءة لو اعتبرنا « من » اسم موصول ، لأن هذا يستدعي ترك الفعل « يشاقق » في وضعه كفعل مضارع مرفوع بالضم ، وكذلك يكون « يتبع » فعلاً مضارعاً مرفوعاً بالضم ، عند ذلك نقول : « نوله ما تولى وبصله » . ولكن إن اعتبرنا « من » أداة شرط - وهي في هذه الآية شرطية - فلا بد من جزم الفعل فنقرأها « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » . وكذلك نجزم الفعل المعطوف وهو قوله : (ويتبع) ويحرم جواب الشرط وما عطف عليه وهو قوله : (تولى) (وبصله) والجواب وما عطف عليه مجزومان يحذف حرف العلة وهي الياء من آخره « ويتبع » غير سبيل المؤمنين تولى ما تولى وبصله جهنم وساءت مصيراً ، ومعنى « تولى » أي قرب ، ويقال : فلان ولي فلان ، أي صار قريباً له . ومن يتبع غير سبيل المؤمنين ، فالحق لا يبرئه بل ويقربه من غير المؤمنين ويكبله إلى أصحاب الكفر . وها هو ذا الحق سبحانه يقول : « أنا أضفي الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه »^(١) .

فالذي يحتاج إلى الشرك هو من به زاوية من ضعف ، ويريد شريكاً ليقويه فيها . وعلى سبيل المثال - والله المثل الأعلى - لا نجد أحداً يشارك واحداً على تجارة إلا إذا كان لا يملك المال الكافي لإدارة التجاره أو لا يستطيع أن يقوم على شأنها . وسبحانه حين يعلمنا : « أنا أضفي الشركاء من اشرك . من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه »^(١) .

أي أن له مطلق القوة المعاملة التي لا تحتاج إلى معونة ، ولا تحتاج إلى شريك ، لأن الشركة أول ما تشهد فإنها تشهد ضعفاً من شركك واحتياجاً لغريب . ولذلك

(١) قوله مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

فمن يشاقق الرسول في أمر إيماني فالحق يوليه مع الذي كفر ويقربه من مراده .
وسبحانه يعلم أن الإنسان لن يتنفع بالشئ المشاقق لرسول الله ، بل يكون جزاء
المشاقق لرسول الله والنجح لغير سبيل المؤمنين أن يقربه الله ويدنيه من أهل الكفر
والعاصي ، ويلحق بهم ويحشره في زمريهم . ولا يمتنى هذا أن الله يمنع عن العبد
الرزق ، لا ، فالرزق للمؤمن والكافر ، وقد أمر الله الأسباب أن تخدم العبد إن
فعلها . ومن رحمة الله وفضله أنه لا يقبض النعمة عن مثل هذا العبد ، فالشمس
تعطيه الضوء والحرارة ، والهواء يهب عليه ، والأرض تعطيه من عناصرها الخير :
﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(سورة الشورى)

ويقول سبحانه :

﴿ كَلَّا لَأُعَذِّبُنَّهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

(سورة الإسراء)

وهكذا نجد العطاء الرباني غير متصور على المؤمنين فقط ولكنه للمؤمن والكافر ،
ولو لم يكن الله إلا هذه المسألة لكانت كافية في أن نلتحم بمحبته ونحبه .

« ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما نول ونصله جهنم وساءت مصيراً » ولا بد أن
يكون المصير المؤدى إلى جهنم غاية في السوء . وبعد ذلك تأتي سيرة الحياة العظمى
للإيمان ، إنها قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

والحق هنا يشكلم من إنسان لم تحدث له توبة عن الشرك غواصين ، لأن الإيمان يجب ما قبله أى يقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب التى لا تتعلق بحقوق الآخرين كظلم العباد بعضهم بعضاً . ومن عظمة الإيمان أن الإنسان حين يؤمن بالله وتخلص النية بهذا الإيمان ، وبعد ذلك جاءه قدر الله بالموت ، فقد يعطيه سبحانه نعمها يفوق من عاش مؤثراً لفترة طويلة قد يكون مرتكباً فيها لبعض السيئات فينال عقابها .

مثال ذلك « عبيد بن جراح » فحينما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد قال عبيد بن جراح : ألا تنصرون محمداً والله إنكم لتعظمون أن نصرك حق عليكم فقلوا : اليوم يوم السبت فقال : لا سبت . وأخذ سيده ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتل حتى أثبتته الجراحة (أى لا يستطيع أن يقوم معها) فلما حضره الموت قال : أموالى إلى محمد يضعها حيث شاء . فلم يصل فى حياته ركعة واحدة ومع ذلك نال مرقية الشهيد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عبيد بن جراح سيوف يهود وسليمان سائق فارس وهلال سائق الحبشة » .

وسبحانه يبلغنا هنا : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وهه المثل الأهل نرى فى حياتنا مجتمعاً قد تقوم فيه ثورة أو انقلاب ، ونجد قادة الثورة أو الانقلاب يرون واحداً يفعل ما شاء له فلا يفترون منه إلى أن يتعرض للثورة بالنقد أو يحاول أن يصنع انقلاباً ، هنا تتم محاكمته بتهمة الحياة العظمى ، فما بالناس بالذى يخرج عن نطاق الإيمان كلية ويشرك بالله ؟ سبحانه لا يغفر ذلك أبداً ، ولكنه يغفر ما دون ذلك ، ومن راحة الله بالخلق أن يحتفظ هو بإزادة الغفران حتى لا يصير الناس إلى ارتكاب كل المعاصى . ولكن لا بد من توبة العبد عن الذنب . ويعلم أن العبد لا يتم طرده من رحمة الله لمجرد ارتكاب الذنب . ويعلم أن هناك فرقاً بين من يأتى الذنب ويفعله ويقره وهو يعلم أنه مذنب وأن حكم الله صحيح وصالح ، لكن نفسه ضعفت ، والذي يرد الحكم عن الله . وقد نجد حيناً يريد أن يرتكب الذنب فيلتصم له وجه حل ، كقول بعضهم : إن الربا ليس حراماً . هذا هو رد الحكم على الله . أما العبد الذى يقول : إننى أعرف أن الربا حرام ولكن ظروف قاسية وضروقات ملحة . فهو عبد حاسر فقط لا يرد الحكم على الله ، ومن يرد الحكم على الله هو - والعياذ بالله - كافر .

« إن الله لا يخفى أن يشرك به ويخفى ما دون ذلك لمن يشاء » ولنتنبه إلى أن بعض المستشرقين الذين يريدون أن يعيشوا في الأرض فساداً . ولكنهم يدعون أن يدروا ينشرون فضيلة الإسلام ، وهم كما يقول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حمود

وحين يتكلمون في مثل هذه الأمور يلطمون لعل الإيمان لتطمس وجه الإعجاز القرآني وبلاغته .

إنهم يقولون : « بلغ محمد قومه » إن الله لا يخفى أن يشرك به ويخفى ما دون ذلك لمن يشاء ، لكن يبدو أن السهو قد غلبه فقال في آية أخرى :

﴿ قُلْ يٰٓأَعْيَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الزمر)

هم يحاولون نسبة القرآن إلى محمد لا إلى الله . ويحاولون إيجاد تضارب بين الآيتين الكريمتين . ونقول رداً عليهم : إن الواحد منكم أعمى ويجهل ملكة اللغة ، فلو كانت اللغة عندكم ملكة وسليقة وطبيعة لفهم الواحد منكم قوله الحق :

﴿ قُلْ يٰٓأَعْيَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الزمر)

وكان الواجب أن يفهم الواحد منكم أن الشرك مسألة أكبر من الذنب ؛ فالذنب هو أن يعرف الإنسان قضية إيمانية ثم يخالفها ، ولكن المشرك لا يدخل في هذا الأمر كله ؛ لأنه كافر في الفضة . ولذلك فلا تناقض ولا تعارض ولا تخالف بين الآيتين الكريمتين . والمستشرقون إنما هم قوم لا يفقهون حقيقة بلعاق القرآنية .

« إن الله لا يخفى أن يشرك به ويخفى ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد

ضل ضلالاً بعيداً . والمشرِكُ معها أخذ من متع حياته قضاياه محدودة ، فإن بقيت له المتع فليسوف يتركها ، وإن لم تبق له المتع فهي تخرج منه . إذن ، هو إما تارك للمتع بالموت ، أو المتع تاركة له بحكم الأغيار ، فهو بين أمرين : إما أن يفوتها وإما أن تفوته . وهو راجع إلى الله ، فلماذا ما ذهب إلى الله في الآخرة واحساب ، فالآخرة لا زمن لها ، ولذلك ما أطول شقاءه بجزئته ، وهذا ضلال بعيد جداً . أما الذي يفضل قليلاً فهو يعود مرة أخرى إلى رسله . ومن المشركين بالله هؤلاء الذين لا يجادلون في الألوهية الحق ولكنهم يجعلون لله شركاء . وهناك بعض المشركين ينكرون الألوهية كلها وهذا هو الكفر . فهناك إذن مشرك يؤمن بالله ولكن يجعل له شركاء .

ولذلك نجد أن المشركين على عهد رسول الله يقولون عن الأصنام :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾

(من الآية ٣ سورة الرمر)

ولو قالوا . لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، مثلاً ، لكان من الجائز أن يدخلوا في عبادة الله ، ولكنهم يشتون العبادة للأصنام ؛ لذلك لا نفر من دخولهم في الشرك . ويقول سيلفا إبراهيم عن الأصنام .

﴿ قَالَتْهُمْ عَدُوِّيَ إِلَّا رَبُّ الْمَشْرِيقَيْنِ ۖ ﴾

(سورة الشعراء)

إنه يضع الاستثناء ليعدد بوضوح قاطع ويقول لقومه :

إن ما تعبدونه من الأصنام ، كلهم عدوي ، إلا رب العالمين . كان قوم إبراهيم كانوا يؤمنون بالله ولكن وضعوا معه بعض الشركاء . ولذلك قال إبراهيم عليه السلام عن الله :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن الشرك ليس فقط إنكار الوجود لله بل قد يكون إشراكاً لغير الله مع الله وإنه من يعبدونه ويدعونه في مصائبهم :

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِىَ إِنْ يَأْتِىهِمْ سَاعَةٌ أَنْ يَدْعُونِ
إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ ١١٧ ﴿

وه « إن » هنا بمعنى ما ، فـ « إن » مرة تكون شرطية ، ومرة تكون نافية . مثل قوله
في موقع آخر :

﴿إِنْ أَمْنَهُمْ إِلَّا الْآلِهَىٰ وَلَهُمْ﴾

(من الآية ٢ سورة النجم)

أى إن الحق يقول : « إن أمهاتهم إلا الآلهى ولدهم » . وكذلك « إن » في قوله :
« إن يدعون من دونه إلا إنثاء » ، وكان العرب يسبون إلى المرأة كل ما هو هين
وضيف ولذلك قال الحق :

﴿أَوْ مَنْ يَشْأُرُ فِي الْحِلْمِ وَهُوَ فِي الْحَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ١١٨ ﴿

(سورة الزخرف)

فالإناث في عرف العرب لا تستطيع الصر أو الدفاع ، ولذلك يقول لشاعر :
وما أدرى ولست أخصال أدرى أقوم آل حصن أم مساء

والقوم هنا مقصود بهم الرجال لأنهم يقومون لمواجهة المشكلات فلهاذا تدعون مع
الله إنثاء ؟ . هل تفعلون ذلك لأنها ضعيفة ، أو لأنكم تقولون : إن الملائكة بنات
الله ؟ . وكانوا يعبدون الملائكة وحدهما تريدون القسمة لماذا تجعلون لله البنات ؟ .
على الرغم من أنه سبحانه خلق البنين والبنات .
ولذلك قال الحق :

﴿تِلْكَ إِذْ أَوَسَّاهُ ضَبْرًا﴾ ١١٩ ﴿

(سورة النجم)

أى نسمة جائرة لم يراع فيها العدل .

وعندم ننظر إلى الأصنام كلها نجد أن أسماءها أسماء مؤنثة :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَوَۋَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۝ ﴾

(سورة النجم)

وكذلك كان عندك صنم اسمه « إيساف » و « نائلة » ، فهل هذه الأصنام إناث ؟ وكيف تدعون النساء والنساء لا ينصرون ولا يثمنن ؟ . وهل ما تعبدون من دون الله أصنام بأسماء إناث ، أو هي نساء ، أو هي ملائكة ؟

والحق يقول : « إن يدعون من دونه إلا إناثا » والأسلوب هنا أسلوب قطع أي ما يدعون إلا إناثا ، تماماً مثلما نقول « ما أكرم لا زهداً » وهذا نفس الإكرام لغير زيد ، وإثبات للإكرام لزيد . فساعة يقول الحق : « إن يدعون من دونه إلا إناثا » فغير الإناث لا يدعونهم ، ولذلك يعطف عليها الحق : « وإن يدعون إلا شيطانا مريداً » .

واستخدم الحق في صدر الآية أسلوب القصر ، وأسلوب القصر معناه أن يقتصر الفعل على المقصور عليه لا يمتداه إلى غيره ؛ فهم يعبدون الإناث ، هذا قصر أول ، ثم قصر ثاني هو قوله الحق : « وإن يدعون إلا شيطانا مريداً »

وكان خدام الأصنام يدعون أن في جوف كل صنم شيئاً يتكلم إليهم ؛ لذلك كان لا بد أن يكون في جوف كل صنم شيطان يكلمهم .. وكان ذلك لونا من الخداع ، فالشياطين ليست جنّا فقط ولكن من الإنس أيضاً

هناك سيدة وتعلم يقومون على خدمة الآلهة ويريدون أن يجعلوا للآلهة سلطاناً ونفوذاً حتى يأمن الخير للآلهة كالقرايين والنور ويسعد السادة بذلك ؛ لذلك كانوا يسأجرون واحداً له صوت أجش يتكلم من وراء الصنم ويقول : ادبحوا لي كذا ، أو هاتوا لي كذا . تماماً كما يحدث من الدجالين حتى يشتوا لأنفسهم سلطاناً . وهكذا كان الذي يتكلم في جوف هذه الأصنام إما شيطان من الجن ، وإما شيطان من الإنس . والشيطان من « الشطن » وهو « البعد »

ووصف الشيطان بأنه مريد يتطلب ما أن نعرف أن هناك كلمة « ملود » وكلمة

«مريد» . وكل الأمور التي تغيب عن الحس مأخوذة من الأمور الحسية . وعندما نحسك مادة «المهم والراء والذال» نجد كلمات مثل «أمرد» و «امرأة مرداء» و «شجرة مرداء» ، و «صرح عمرد» .

إن المادة كلها تدور حول اللمس الأملس . فأمرد تعني أملس ؛ أي أن منابت الشعر فيه نعومة . وصرح عمرد كصرح بلفيس أي صرح مصقول صقلًا ناعماً للوجه أنها اشتبهت في أنه ماء ، ولذلك كشفت عن ساقها خوفاً أن يتل ثوبها . والشجرة المرداء هي التي لا يمكن الصعود عليها من قرط نعومة ساقها تماماً كالنخلة فإنه لا تبقى عليها الفروع ، ولذلك يدقون في ساق هذه النخلة بعض المساهير الكبيرة حتى يصعدوا عليها .

والشيطان المريد هو المتمرد الذي لا تستطيع الإمساك به . إذن . فـ «مرد» و «مريد» و «عمرد» و «مرداء» و «أمرد» ، كلها من معومة اللمس .
«وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً»

وعندما يحاول العصاة الإمساك بالشيطان في الآخرة يقول لهم :

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُهُمْ فَلَسَجْتُمْ لِي﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وهو بذلك يتماهى من الذين اتبعوه ؛ لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر ، فقط نادى بعضاً من الخلق فزاحمت أبصارهم واتبعوه من قرط خيالهم .
والشيطان موصوف بأن الله طرد من رحمته . فالخلق يقول :

﴿لَمَنَّهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا نَخْذَنُ مِنْ عِبَادِكَ

فَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (١١٨)

لماذا هذا اللعن ؟ لقد أذن الشيطان وعصى الله . وأدم أذن أيضاً وعصى الله .

فليذا لعن الله الشيطان ، ولماذا عفا الله عن آدم ؟ نجد الإجابة في القرآن :

﴿ قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَافِلِينَ ١٩٠ ﴾

(سورة البقرة)

ونعرف هذا القول ، لأن هناك فرقاً بين أن يرد المخلوق على الله حكماً ، وفعل المعصية للغفلة .

فحين أمر الحق إبليس بالسجود لآدم قال إبليس .

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وهذا رد للحكم على الله ، ويختلف هذا القول عن قول آدم وحواء ، قالوا :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

وهكذا نجد أن آدم قد اعترف بحكم الله واعترف بأنه لم يقدر على نفسه . ولذلك فيحظر كل واحد أن يأخذ إلى ما حرم الله ويقول : لا ، ليس هذا الأمر حراماً لكن إن كان لا يقدر على نفسه فليعترف ويقول : إن ما حرم الله حرام . لكنني غير قادر على نفسي . ولذلك يستبعد الكفر عن نفسه ، ويكون حاصياً فقط ولعل التوبة أو الاستغفار يذهبان عنه سيئات فعله . أما من يحمل ما حرم الله فهو يصر على الكفر ، وطمس الله على بصيرته نتيجة لذلك .

وسبحانه وتعالى يصف الشيطان بقوله - سبحانه - : « لعنه الله » أي طرده من رحمته . ولينظر ابن آدم لحياتل الشيطان وليحذره ، لأنه مطرود من رحمة الله .

ولو أن سيدنا آدم أهمل فكره لفقد قول الشيطان وكينه ، فذلك أن كيد الشيطان ضعيف . ولكن آدم عليه السلام لم يتصور أن هناك من يقسم بالله كذباً . فقد أقسم الشيطان :

﴿ وَقَالَ لَهُمَا إِنِّي لَنُكَامِنُ الشَّامِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت غفلة آدم - عليه السلام - لأمر أراحه الله وهو أن يكون آدم خليفة في هذه الدنيا ، لذلك كان من السهل أن يرموس الشيطان لآدم ولزوجه :

﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

وأنغوى الشيطان آدم وحواء بأن الله قد نهاهما عن الأكل من تلك الشجرة حتى لا يكونا ملكين ، وحتى لا يستمررا في الخلود . ولو أن آدم أحسن فكره في المسألة لقال للشيطان : كل أنت من الشجرة لتكون ملكاً وتكون من الخالدين ، فانت أيها الشيطان الذي قلت بحوف شديد لله :

﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحجر)

والحق يريد لنا أن نتعلم من غفلة آدم ، لذلك لا بد للمؤمن أن يكون يقظاً .

فسبحانه يقول عن الشيطان : ولعنه الله وقال لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً .

والقرآن الكريم حين يعالج قضية ما بهذه القضية يحتاج إلى تدبر . ونلاحظ أن إبليس قد تكلم بذلك ولم يكن موجوداً من البشر إلا آدم وحواء ، فكيف علم ما يكون في المستقبل من أنه سيكون له اتباع من البشر ؟ وكيف قال : لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ؟ .

لقد عرف أنه مادام قد قدر هل أبيهم آدم وأمههم حواء فلنوف بقدر هل أولادها ويأخذ بعضها من هؤلاء الأولاد إلى جانب ، قال ذلك ظناً من واقع أنه قدر هل آدم وهل حواء . والذين اتبعوا إبليس من البشر صدقوا إبليس في ظنه . وكان هذا الظن ساعة قال : لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً .

وأخذ إبليس هذا الظن لأنه قدر هل آدم وحواء مع أن آدم وحواء قد أخذوا

التكليف من الله مباشرة ، فيما بالك بالأولاد الذين لم يأخذوا التكليف مباشرة بل عن طريق الرسل . إذن كان ظن إبليس مبنياً على الدليل فالظن - كما نعلم - هو نسبة راجحة وغير مبنية ، ويقابلها القوم وهو نسبة مرجوحة :

﴿ وَلَقَدْ هَدَيْنَا إِبْرَاهِيمَ نَجَاتَهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة سبأ)

ولذلك قال إبليس أيضاً :

﴿ إِنِّي اتَّخَذْتُ لَكَ بِعْرَ الْيَمِينِ لِأَخِيكَ قُرَيْشَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الإسراء)

وقال كذلك :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغَرِّبُهُمْ أَبَحَبَّ ۝٨٧ ﴾

(سورة ص)

عندما إبليس قد قال : « لا تخذن من هبائك نصيباً مفروضاً »

فهذا اعتراف بأنه لو يستطيع أن يأخذ كل أولاد آدم . والقروض - كما نعلم - هو المقطع . ويقال من الشيء المفروض : إنه المقطوع الذي لا كلام فيه أبداً .

وبما وسيلة إبليس - إذن - لأخذ نصيب مفروض من بني آدم ؟

وبوضع الخلق لنا وسائل إبليس ، على لسان إبليس :

﴿ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرَنَتْهُمْ فَلْيَبْشِرْكَ
مَا ذَاكَ الْأَنْفَرِ وَلَا مَرَنَتْهُمْ فَلْيُخَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ

وَمَنْ يَشْغِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٢٩﴾

في هذه الآية تفصيل لطرق أخذ إبليس نصيب مفروض من بني آدم . فإبليس هو القاتل كما يحكي القرآن :

﴿لَا تُعِدُّنَّ لَهُمْ مِرَاطَكُمُ الْيُسْتَفِيمَ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

وعرفت من قبل أنه لن يقعد إلا على الطريق الطيب ؛ لأن طريق من اختار السلوك السيئ لا يحتاج إلى شيطان ؛ لأنه هو نفسه شيطان ؛ لذلك لا يذهب إبليس إلى الخبثاء ؛ ولكنه يقف على باب المسجد ليرى الناس وهي تعمل الخير فيوسوس لهم ، وفي هذا إجابة لمن يقولون : إن ابوسلوس تأتيني لحظة الصلاة . والصلاة - كما نعلم - هي أشرف موقف لعباد ؛ لأنه يقف بين يدي الرب ؛ لذلك يحاول الشيطان أن يلهي الإنسان عنها حتى يحبس عنه الثواب . وهذه الوسوس ظاهرة صحيحة في الإيمان ؛ ولكنها تحتاج إلى البقطة ، فساعة ينزع الشيطان الإنسان نعمة فلهذا تذكر قول الحق :

﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَوَخُّعٌ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠١ سورة الأعراف)

وعندما نستعبد بالله فوراً يعرف الشيطان أنك متبته له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن في أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، قطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة ، وحين يعرف الشيطان أنك متبته له مرة واثنين وثلاثاً فهو يعتمد عليك فلا يأتيك من بعد ذلك إلا إذا أحسن منك غفلة .

وبين لنا الحق طريقة الشيطان في أخذ النصيب المتروك من عباد الله فقال عن إبليس : « ولأضلّهم » . والإضلال معناه أن يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍ إلى غاية الحميدة ، لأنه حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية المنشودة ، فمعنى ذلك أنه اهتمى ، أما إذا ذهب بعيداً عن الغاية ، فهذا هو

الضلال . والحق سبحانه وتعالى يوصفه مبعج الهداية أعطانا أقصر طريق مستقيم إلى الغاية ، فإذا ما انحرفنا هنا أو هناك ، فالانحراف في البداية يتسع حتى نتصل إلى غير غاية .

وصربنا ندباً هذا المثل وقبلنا : إن هناك نقطة في منتصف كل دائرة نسي مركز الدائرة ، فإذا ما انحرف المنهج إليها بنسبة واحد على الألف من المليمتر فتتسع مسافة ابتعادها كلها سار على نسبة الانحراف نفسها ، ورغم أنه يفترض في أن كل خطوة بخطوها تنهي له القرب إلى الغاية .

لقد ضربنا مثلاً توضيحياً بـ «الكشك» الذي يوجد قبل محطات السكك الحديدية ، حيث ينظم عمل «الكشك» التحامات القطارات على القضبان المختلفة ويتيح لكل فطو أن يتوقف عند رصيف معين حتى لا تصادم القطارات ، ومن أجل إنجاح تلك المهمة نجد عامل التحويلات في هذا «الكشك» يحرك قضيباً يكون سمكه في بعض الأحيان علناً من المليمترات ، ليتصق هذا القضيب بقضيب آخر وبذلك يسمح لعجلات القطر أن تنقل من قضيب إلى آخر .

الضلال - إذن - أن يسلك الإنسان سبيلاً غير موصل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوة في هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بترينه الشر والنجس للإنسان ليمده عن مسالك الخير والفضيلة .

ومن بعد ذلك يأتي على لسان الشيطان ما قاله الحق في هذه الآية : « ولأمنيتهم ، والأمل هي أن ينصب الإنسان في خياله شيئاً يستمتع به من غير أن يخطو له خطوة عمل تقربه من ذلك ، ومثال ذلك الإنسان الذي نراه جالساً ويمنى نفسه قائلاً : سيكون عندي كذا .. وكذا وكذا ولا يتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك .

ولذلك يقول الشاعر تسلية لنفسه :

مَنْ .. إن تكن حقاً .. تكن أحسن المني

وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

أى أنه استمتع بهذه الأمان في أحلام اليقظة سواء أكانت هذه الأحلام امتلاك قصر لم سيارة أم غير ذلك . وكى أمنية لا تحفز الإنسان إلى عمل يقربه منها هى أمنية كاذبة ، ولذلك يقال : « إن الأمان بضاعة الخمقى » والشيطان يخون الإنسان بأنه لا يوجد بعث ولا جراء .

ومن بعد ذلك يقول الشيطان : « ولأمرهم فليبتكن آذان الأنعام » والبتك هو : النطح . والأنعام : هى الإبل والبقر والغنم ، أى قطع آذان الأنعام . والقرآن نال فى الأنعام :

﴿ تَحْسِبُ أَنْزَوْجٌ مِّنَ النَّسْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكَ زَوْجٌ مِّنَ الْأَنْثَيْنِ
أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ يُخَوِّفُ فِيهِم مِّمَّنْ مَعَهُمْ ﴾ (١٤٤) وَمِنَ الْإِبِلِ
اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكَ زَوْجٌ مِّنَ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْأُنثَيْنِ ﴿

(الآية ١٤٢ وجزء من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

لو كان الزوج يطلق على « الاثنين » لكان العدد أربعة فقط ، ويعلمنا التعبير القرآنى ويوضح لنا أن تفرق جيداً لفهم أن معنى كلمة « زوج » ليس أبداً « اثنين » ، ولكن معناها : واحد معه غيره من نوعه أو جنسه . فيقال عن فردة الحذاء « زوج » لأن معها فردة أخرى ، ومثال آخر أبها : كلمة « توأم » التى نظى أنها تعنى « اثنين » ، لكن المعنى الحقيقى أن التوأم هو واحد له توأم آخر ، فإذا ما أردنا التعبير عن الاثنين قلنا : « توأمان » .

وحين أورد من خطط الشيطان « ولأمرهم فليبتكن آذان الأنعام » فهنا قصة ونحن نعرف أن المنتقمين بالفضلات يصنعون لهم سلطة زمنية حتى يربطوا الناس بأشخاصهم هم . وكان المشركون على الأصنام يقومون على خدمتها ، ولم يلاحظ أحد أنه من الغباء تقبل فكرة أن يخدم البشر الآلهة ، فالإله هو القيوم على خلقه برعاهم ويعفون بأسياهم ، وكان هؤلاء الناس هم المنتقمين بخيبة الغفلة عند البشر ، وكانوا يعيشون سدة ليعملوا الخير ، وبطبيعة الحال فالشيطان من البشر أو الجن يجهلها

وسيلة ، فيجلس في جوف الصنم ويتكلم فيأخذ السدنة والخدم هذه لمسألة لترويج
اندماجات للصنم ، فيأن الأغبياء له بالانعام من الإبل والبقر والغنم يذبحونها
ويأكلونها ولذلك كان السدنة دائماً وفي أغلب الحالات أهل سمعة لأنهم أهل
بطنة ، والنبي صل الله عليه وسلم قال :

(إن الله يفضي الخبر السمين)^(١) .

فمثل هذا الخبر يستسهل أكل خبر الناس والانتفاع به ، فهو يتجمع بضلالات
الناس ، ومن يتنفع بالضلالة يرى أن حظه في أن نستمر الضلالة ، مثله في ذلك مثل
المتنعم من تجارة المخدرات إنه يتعنى أن يتعاطى الناس جميعهم المخدرات ..
وعندما تقوم حملات لمقاومة المخدرات بغضب ويحزن

ومثل ذلك أيضاً تاجر السوق السوداء الذي يصيبه العم عندما تأتي البضائع على
قدر حاجات الناس ونكفيهم . فكل فساد مستر وراءه أناس يتنعمون به . وعندما
يرى المتنعم بالفساد حبة إصلاح يغضب ويحاول أن يجد وسيلة لاستمرار الفساد ،
ولهذا كان السدنة يفتغون في الأصنام لتصدر أصواتاً ليطلبوا من وراء ذلك مطالب
من الأغبياء المصدقين لهم ، مثلهم مثل الدجالين الذين نسمع عنهم حيث يقول
الواحد منهم لأهل المريص : إن على المريص عقرباً ، والعقربيت يطلب ناقة أو
ذبيحة أو دما

هكذا كان يفعل السدنة ، ويحاولون بشق الطرق من الخيل والخدم حتى يأخذوا
من الغافلين السذج الإبل والبقر والغنم . وعندما يقطع صاحب الإبل أو البقر أو
الغنم آذن أي واحدة منها ، فهنا يعني أنها مندورة للأصنام ، والأصنام بطبيعتها
لا تأكل ولكن السدنة يأكلون .

وفي آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

(١) أخرجه الترمذي في أسباب النزول ، وعند أبي نعيم في الطب النبوي وهو أبو الهيثم السمرقندي في حديثه لأبي
لثة الهادي مرفوعاً .

ويورد الحق أيضاً في هذا الأمر :

﴿ تَمْسِيَةً رَّوْجٍ مِّنَ الصَّارِ أَتَيْنَ وَمِنَ الْمَرْآتَيْنِ قُلْ ءَالِدُكُمْ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ
أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ
أَتَيْنَ وَمِنَ الْغَنَاقَتَيْنِ قُلْ ءَالِدُكُمْ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْإِنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمُ اللَّهُ بِهِذَا قُلْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
لِّيُرْسِلَ النَّاسَ فِي سُبُلٍ يَلْمِزُ فِيهَا إِنْ لَّمْ يَهْدِ الْغَنَمُ الْإِنثَيْنِ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

فهو المحرم هو « الذكران » أو الأنثيان أو الذي اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

لا شيء من هذه كلها محرم ، فقد خلقها الله كلها ورقاً حلالاً . والنعمة نفسها
تعرف وظيفتها ، ونلاحظ في الريف المصري عندما نختنق جاموسة أو بقرة أو غروب
بالحلل . أو يصاب بأذى أو مرض فإنه ينلم ويد عنه فيقال : « لقد طلب
الحلال » ، كأن البهيمة تقول لصاحبها : الحقني بالذبيح لنستفيد من لحمي
وتتعجب لأن الحمار مثلاً لا يفعل ذلك ، لأن لحمه غير مهلل . لكن البهيمة تعرف
فائدتها بالنسبة للإنسان فتد رقبها طابة الذبيح ، كما نعرف أنها في أثناء حياتها تخدم
الإنسان إما في أن تحمل الأثقال ، وإما أن تأخذ منها اللبن أو الوبر أو الصوف أو
الشعر ، ولحظة ما يدهمها ويغشاها ويصيبها خطر فهي تمد رقبها كأنها تطلب الذبيح
لنستفيد الإنسان من لحمها ، فهي مسخرة للإنسان ونعرف ذلك إلهاماً وتسخيراً .

ولماذا الله قد جعل لنا كل هذا . فلم يقبل لحم غير المحرم وتحليل غير
الحلال ؟ لكن السدنة كانوا يفعلون الأعاجيب للسيطرة على الناس ، فإذا ما ولدت
الناقة أربعة أبطن وجاءت بالمولود الخامس ذكراً يقول السدنة : يكفى أنها جاءت
بأربعة بطون وأنت بالخامس فعلاً ذكراً ويشقون إذن الناقة ويتركبوها ، وعندما
يراهن أحد ويخذلها مشقوقة فالعرف يقضى بالآلة تستخدم في أي شيء ، لا في
الرضاعة ، ولا في الحمل ولا يجلب لبنها ولا تلع من لبنه أو الكلاً وتسمى

« البعيرة » ويأخذها السنة في أى وقت ؛ لأهم لا يريدون تخزين اللحوم ، يريدونها حية ليذبحوها في الوقت الذى يترامى لهم ، ولذلك قلل الحق :

﴿ مَا حَلَ آلِهَةٌ مِنْ بَعِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الناقة)

والبعيرة - إذن - هى الناقة التى نبحر أذا بها - أى تشق - فذلك يعنى أنها جاءت بأربعة أبطن تبدأ ثم جاءت بالذكر فى البطن الخامسة وسببها صلحها للأصنام . والبعيرة سائبة مع وجود سائبة أخرى ، وهى وإن لم تأت بأربعة أبطن ولا بالذكر فى البطن الخامسة ولكن صاحبها يقدمها نلراً أو هدية لأحد الأصنام . وتسمى « سائبة » لأن أحداً لا يقوم حل شأنها ، ولكنها ترعى فى أى أرض وتشرب من أى ماء ولا أحد يأخذ من لبنها أو يركبها ، ويأخذها السنة وقت احتياجهم للحوم الطازج الخفى . وإذا ولدت الشاة أنثى جعلوها لهم ، وإن ولدت ذكراً جعلوه لأهنتهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى لم يذبحوا الذكر لأهنتهم وقالوا عن الشاة : وصلت أخاها فهذه هى الوصيلة ؛ لأن الناس كانت تحتفظ بالإناث من البهائم فهى وعاء النفس ؛ لذلك فهبة الفحل للسنة كان أمراً مقدوراً عليه . ويقول الشاعر

والما أمهات القوم أوحية مستحدثات وللأحساب آباء

ونرى فى المزارع أن إناث المواشى تحتاج إلى فحل واحد ؛ وقد يكون فى البلدة كلها فحل واحد أو اثنان لإناث الماشية من النوع نفسه ، ويفرح الأطفال فى الريف حين تلد الماشية ذكراً ؛ لأنه سيتغذى قليلاً ثم يتم ذبحه ويأكلون منه ويفضبه الأطفال حين تلد الماشية أنثى لأنه سيتم تربيته ، ولن يأكلوا منها .

أى أنهم قديماً عندما كانت الماشية تلد فى بطن واحد أنثى وذكراً لا يذبحون الذكر ويقولون : الأنثى وصلت أخاها ويضمن الذكر حياته ويستخدم كفحل ليلقح بقية الإناث ، ويقال عنها : الوصيلة .

هكذا نجد البعيرة هى الناقة التى أنجبت خمسة أبطن آخرها ذكر ، والسائبة وهى النلو من أول الأمر ، والوصيلة وهى التى ولدت أنثى ومعهما ذكر ، فيقال وصلت الأنثى أخاها ، أى قدمت له الحباية والحام هو الذكر الذى نتجت من صلبه هشرة

أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا موحى وقالوا : هي ظهري .

وهناك من يتحدث في عصرنا قائلًا : أنا نيان ، لا أكل اللحم ، حل الرخم من أن الواحد منهم قد ينبع إنساناً ويدهى الحزن عند ذبح دجاجة ، ونقول هؤلاء : انتبهوا ، إن الله قد سخر لنا هذه الأنعام وهي نفسها تحب أن ينتفع بها .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق : « ولا أمرهم فليبتكن آذان الأنعام » وعرفنا أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل إرضاء سدنة الأصنام ، هؤلاء السدنة الذين أحبوا أن تظل هذه الأصنام وهذه الأنعام المرسودة من أجلها . ولذلك أقول دائماً : آه من أن يرتبط رجل دين بمسائل دنيا ، فهذا مصدر للخوف من أن يزيغ الدين لمصلحة الأهواء .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق على لسان الشيطان : « ولا أمرهم فليخبرن خلق الله » . وكشف لنا الحق كيف صار للشيطان أمر على هؤلاء الناس ، مع أن الأمر يجب أن يكون لله وحده ، ونسأله : كيف يخبرون من خلق الله ؟ وكل شيء هو من خلق الله .

والخلق - كما نعلم - إيجاد من عدم ، وسبحانه خلق كل شيء وجعل لكل كائن وظيفة ما ، فهو خلق عن حكمة لغاية ، وهذه الغاية موجودة في علم الخالق أولاً . والله المثل الأعلى - نجد المستحدث الصناعي في الأسواق كمسألة الملابس مثلاً ونعرف أن الذي صممها إنما صممها من أجل راحة الناس ، وقد فكر في هذا الهدف قبل أن يصنع ويصمم الآلة التي تؤدي هذا العمل فتريخ الناس من تعب غسل الملابس بأيديهم ، وكذلك من صمم « الميكرون » أراد في البداية هدفاً هو أن يصل الصوت لمن هو بعيد ، ثم بدأ البحوث والتطبيقات من أجل أنه يصل إلى الغاية وانقصد .

والحق سبحانه وتعالى خلق كل خلق من خلقه لغاية ، فإن استعملنا مخلوقه لغايته ، فلن نفع في محطوره تغيير خلق الله ، ولكن لو استعملنا المخلوق لغير الغاية فهذا هو التمييز لخلق الله ، وساعة نريد فهم لفظ من الألفاظ فلتنبه في القرآن عن

نظائره ، وقد سجد في لقرآن نفسه ما يفسر القرآن نفسه ، فخلق يقول هنا :
« فليضربن خلق الله » ، وفي موقع آخر يقول :

﴿الْأَلَهَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق المعروف نراه في الكائنات ، وهناك ما لا نراه أيضاً ، والأمر مقصود به
قوله الحق :

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾

(من الآية ٨٢ سورة يس)

وآية أخرى تقربنا أكثر من هذا الموضوع :

﴿نَظَرَتْ إِلَيْهِ أَلَمِى فَفَظَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الروم)

وهذا يعنى أن الخلق كله على أصل المطرة . فإذا ما حاول أحد أن يغير المطرة
فهذا تغيير لخلق الله . ه المطرة إذن ؟ إنها الصماء الأولى في النفس والطبيعة .
وعنال ذلك حين يوجد الإنسان في بيئة لا تكذب فلن يعرف في حياته الكذب .
وعندما يوجد الإنسان في بيئة لا تسرق فلن يعرف ما السرقة ؛ فالإنسان إنما يتعرف
على الموضات من النقص المجتمعي ، بدليل أن الملدن الى طبقت الشريعة
الإسلامية وتم قطع عدد قليل من الأيدي عنوبة وحداً في السرقة انتهت فيها
لسرقة . وشأ حين لم يرسارفاً . ومن يترك شيئاً في مكان ما يضل في مكانه إلى أن
يعود صاحبه ليحده . هذه هي الفطرة السليمة ، ودلينا على أن المطرة سليمة
طبيعتها هو أننا نجد أن الذي يحاول صنع أمر ما يخالف المطرة إنما يتلصص
ويستتر ، لأنه يعرف أن هذا الأمر غير سليم

لقد ضربت المثل على ذلك بالرجل حين ينظر إلى زوجته ، إنه ينظر بكل ملكاته ،
أما إن نظر - والعياذ بالله - إلى عخدم غيره فهو يتلصص ليختلس النظر بعيداً عن
الآخرين . فالإنسان حين يرتكب إثماً يتكلم شيئاً متاعراً ومغفراً لطبيعته
والتكلف هو الإتيان بشيء خارج عن الفطرة الإنسانية . وتغيير كل ما يتعلق بالفطرة
هو تغيير لخلق الله .

وصور الفساد لا تأتي إلا من هذه الناحية .

كيف ؟

إننا نرى الخلق قد خلق للزوجين الذكر والأنثى . ومحمد من الرجال من يمشى
- أى أنه يحاول أن يكون أنثى - وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ريتين برينتها
ويتحدث ، هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد يجد امرأة تريد أن
تسترجل ، فهي تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك فإن نرى استبدأ عالم هو الدكتور حسن جاد - أمدته الله بالعافية - وهو
شاعر ورميل لى وبشأن معاً ، رأى هذه الظاهرة ، ماهرة محاربة البهيم تغيير خلق
الله فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حريق من الدين اللان - حرت بين الحق وبين الفتنة

الشاعر يعلن حيرته ؛ لأنه لا يتعرف على العارق بين الحق والفتنة ، فهو بعض
الأحيد صبرا من الدين واللائ معاً لأن الحق يشبه بالفتنة ، واعتادة تشبه
بالحق . عن الرعم من احتياط كل منها بحصائص نوعه ، وبما يميزه عن النوع
الأخر . وبعض النساء يقمن بأحرار لتغيير الخلقة ، كنوع شعر الطواحب من
مأبته وإعادة رسم مكنه بوصف خط بالعلم الملون ، ويقصص ذلك نبت الشعر من
جديد ، فتتحول إلى شكل قبيح وتسى أن الجمال إبداع تقاسيم ، فقد يكون سر
جمال واحدة أن يكون شعر الحاحيين كئيباً ، وقد يكون سر الجمال للمرأة اتساع
العم ، أو طول الأنف

لقد سمعت أن أنف كليوباترا لو كان قصيراً بعض الشيء لشعر وجه التاريخ
واحق سبحانه وتعالى كما ورع الأمرجة عن العباد ورع أيضاً أسلوب الخلق ي يغطي
هذه الأمرجة . ألا ترى في الحياة اليومية شهاً يتقدم الخطية فتاة فلا تعجبه ، أو
لا يعجبها ، وأبى آخر فيعجب بانفتاة نفسها وتعجب الفتاة به . هو سبحانه الذى
أبنا السيل العظمى ليتوهم الخلق بهذا السيل . وقد تحول فتاة أن تغير من خلق
الله فتسبب بذلك فساداً للسيل العظمى .

وقد تريد المرأة أن تجمع حمراً عديها فى لون الورد فتضع عليها بعضاً من

المساحيق ، إلا تعلم هذه المرأة أن روحها وأقاربها يعرفون أنها قد صمتت ذلك بمواد خارجية ، وملا يكون موقفها عندما يراها زوجها في الصباح وقد أصبحت الألوان بشرتها ، وماداً يكون موقفها عندما تتقدم بها السن وتكون المسحيق قد خفيت مسام جلدها ومنعت الجلد من التنفس ، ويضحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كائن أقرب إلى وجه القرد والعباد بالله ؟ لقد غيرت بسوء العمل حق الله .

وكذلك الأطافر التي يتم حنقها بطمعت من « البلاستيك » الملون هل نطن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أطافرها الطبيعي ؟ . إن الأطافر ذات لون أراحه الله بحكمه ، لها نظام ، فلهاذا تحرم المرأة أطافرها من الحياة الطبيعية ومن نعمة تنفس الهواء ، فالأطافر تنفس أيضا . وقد يفتي واحد بأنه يصح للمرأة أن تنوصاً بعد أن تصبغ هذا الطلاء ، وأقول : اتق الله ، فهذه ليست أصابغاً ، لأن الأصباغ تتخلل الجلد أو الظفر ولا يذهب لون الصبغة إلا بذهب الجلد أو الظفر . مثل الحنة - وفي هذه الحالة يصل الماء في الظهيرة إلى الجلد ، أما طمقة البلاستيك التي على الظفر فلا تُزال إلا بمادة كيميائية وبمكس إزالتها وهي لون من الطلاء وليست صبغة ولا يصل الماء معها في الغسل أو الوضوء إلى البشرة

ومن تعمل ذلك إنما تخدع نفسها ومن يعجب بها . ولنا أن يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعدل من مزاج لكون فيعطى للإنسان سكناً وممتعة ولكن يتوازن عاطفي وعقلي ، فلو أراد الله لخذ المرأة التوهج لتثير غرائز الرجل لخلق الله الخدين على هذا الأسلوب ، لكنه أراد للمخدود أن تكون بألوانها الطبيعية حتى تهيج الغرائز على قدر القوة التي في الرجل ، وعندما تكبر المرأة نجد جمالها قد ذبل قليلاً على قدر سبب ذبول قدرة الرجل ، فلهذا يعطى على قدر الطاقة حتى لا تتحول المسألة إلى إهانة للغرائز فقط .

إن هناك فرقاً بين تصريف الغرائز وإهانة الغرائز وإلحاحها ، وما يحدث من وسائل التجميل هو تموير لخلق الله . وكذلك المرأة التي تحدث وشياً^(١) ، أو الرجل الذي يفعل ذلك إنما يغيران من خلق الله ، ولو كان الحس يرى أن مثل هذه الأعمال تريد من الجمال لفعلها « فليغيرن خلق الله » .

(١) الوضوء ما يكون من غرض الإبر، في البدن ، ولذا ومراعاة عليه تسخرج من بين يمين النبي يسمى « شبح » حتى يورق، ثم أو يضر

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً ، والولى للشيطان هو الذى يلبى ويقرب منه . ومن فعل ذلك فقد ترك الأفضل وذهب إلى الأضعف الذى يورده مهاوى وموارد الهلاك ، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل الجهات ، ولا انفلات من مثل هذا الخسران .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ
الْأَعْرُورُ ۝ ﴾

وهذا يعنى أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لمواليه ويخبرهم بشئ يسره ، فالوعد هو أن يخرج أحد آخر بشئ يسره أن يوجد .

والمثال على ذلك نراه فى الحياة العادية فالإنسان منا يحب ماله الذى قد جاءه بالتعب ، والصدقة فى ظاهر الأمر تنقص المال ، فيقول الحق :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمُ الْفَقْرَ ﴾

(من الآية ٢٦٨ سورة البقرة)

لماذا ؟

لأن الشيطان يوسوس فى صدر صاحب المال فائلاً : « إنك عندما تصدق يعرض الملك عليك بتقص . وويل لمن يرضخ لوسوس الشيطان ، لأنه يورده مولود التهلكة ، والشيطان أيضاً يقدم الأمان الكاذبة فى الوسوس : « ومنهم » . ومثال ذلك ما جاء على لسان المضحك على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

المختصر بقول : مادام الله قد أعطاني في الدنيا ، ومادامت مهمة الله هي العطاء الدائم فلا بد أن يعطيني رب في الآخرة أصعاف ما في الدنيا ؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد في الآخرة ، فهذا كان جزاؤه ؟ .

لقد رأى أسرار زراعته وعرف سوء مصير العرور ، لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً « وما يمدهم الشيطان إلا عرورا » .

فما هو العرور ؟ . هالك « غرور » - بضم العين - ، و« غرور » - بفتح العين - . والعرور - بضم العين - هو الشيء يُصوّر لك على أنه حقيقة وهو في الواقع وهم . والغرور - بفتح العين - هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالعرور - بفتح العين - هو الشيطان ؛ لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمي ، ويؤثر مثلها يؤثر اسراب ؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك :

﴿ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الْمُطَشُّونَ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وكذلك العرور ، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه يستمتع به . فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق أسرار الكمار فيقول عنها :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْلَحُ لَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الْمُطَشُّونَ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ

يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ قُرْآنَهُ يُحْسِبُهُمْ وَآلَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣٨)

(سورة النور)

ويفاجأ الكافر بوجود الله الذي كان كامراً به ، ويصير أمام نكبتين : نكية أنه كان ظاهراً إلى ماء فلا يجد فيجب أمه ، والنكية الثانية أن يجد الله الذي يحاسبه على الإنكار والكفر .

ويقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمَاتٍ إِلَىٰ نُورٍ وَكَرَّمَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا ذَٰلِكُمْ فَجُوعًا يَاجُوعِينَ ﴾ (٢٢)

(سورة الفرقان)

وقد بات واحد ويدعى لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم باسم الله يقول .

- من هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التي أفادت الناس كالموصلات وغيرها ، أبصروا إلى عذاب ؟ ويقول : هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر ؛ لأن لواحد منهم قد عمل أعماله وليس في ياله الله بل قام بتلك الأعمال وفي ياله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم ، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له ، وينطبق عليه قول الرسول :

عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت لحلم لي قال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أعطت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جوادء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار) (١) .

ولم يخطئهم الله جزاء أعمالهم في الدنيا . فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم .

ورزق سبحانه فضل هذه بلواهب على الناس الذين في بالهم الله ؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويسجل أحاديث الإيمان على شرائط ليسمعها من لم يحضر وشاهد هذه الشهيرة ، إذن هؤلاء الكافرون مسحرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم ، والمؤمنون أيمس مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله ليأثروا كرم الله في عطاء العلم ، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا حالة على سواهم ، فلا يستدلون .

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في الجهاد وأخرجه كذلك النسائي والترمذي وابن ماجه .

« وما يعلمهم الشيطان إلا غرورا » وماذا يكون نصيب هؤلاء في الآخرة ؟ يقول سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُحَدُّونَ عَنْهَا
بَحِيصًا ﴾

وكلمة « مأوى » معناها المكان الذي يضطر الإنسان إلى أن يأوى إليه ، فهل هذا الاضطراب يكون اندفاعاً أو جذباً ؟ سبحانه يقول عن النار إنها ستنتقل قاتلة :
﴿ نَارٌ مِنْ شَرِيدٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة ق)

كان النار تستجلب أصحابها . وهم لن يجدوا عنها محيصاً ، أى لا مهرب ولا مفر ولا معدي ، وكان باستطاعة الواحد منهم أن يفر من مخلوق مثله في دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمر لله وحده فلا مفر .

﴿ لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ ۖ إِنَّ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والمقابل لذلك يورثه الحق :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مَسْكَنَةٌ يَدْخُلُوهَا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
يُخَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
اللَّهِ قِيلًا ﴾

وحين يأتي سبحانه بأمر يتعلق بالكفار وعقابهم فالنفوس مهتأة ومستعدة لتسمع من المقابل ، فإذا كان جزاء الكفار بنظر الإنسان من أن يكون منهم ، فالنفس السامعة تنجذب إلى المقابل وهو الحديث عن جزاء المؤمنين أصحاب العمل الصالح . وسبحانه قال من قبل :

﴿سَوْفَ نُزَيِّرُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(من الآية ١١٤ سورة النجم)

وهذا يقول : « سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار » . ولتيقن من الله والواقع به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعده عن عطاء الله ، مثال ذلك حينما سأل النبي أحد الصحابة وكان اسمه الحديث بن مالك الأنصاري (كيف أصبحت يا حديث ؟) .

قال : أصبحت مؤمناً حقاً . لقد أجاب الصحابي بكلمة كبيرة المعان وهي الإيمان حقاً ، لذلك قال الرسول : انظروا تقولون إن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟

أجاب الصحابي : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت بذلك ليل وأظلمت نهارى ، وكأني أنظر إلى عرش ربى بديراً وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاعون فيها (يتصايحون فيها) .

فقال . « يا حديث . عرفت فللم ثلاثاً »^(١) .

والحق ساعة يقول : « س » وساعة يقول : « سوف » فلكل حرف من الحروف الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى وكل عطاء من الله جميل . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار »

والجنة - كما قلنا من قبل - على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهي الجنة بحق ، أما جنة الدنيا فهي الممكن أن يتصوَّح نباتها وشجرها وييس ويتناثر ، أو يهيبها الجلب ، أما جنة الآخرة فهي ذات الأكل الدائم ، وإن لم تطلق كلمة « الجنة » من

١- رواه الطبراني في الكبير وابن جرير في المحلى وضعفه الدارقطني وابن حبان .

أى قيد أو وصف بل قيدت ، فالقصد منها معنى آخر ، كقول الحق :

﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذَا أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة القلم)

وقوله سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِرَبْوَةٍ أَصْلَبَهَا وَارْبِلٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة بربوة هي البستان على مكان عال ، وهي ذات مواضع أعلى مما وصل إليه العلم الحديث ، لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تغسل جذور النبات المزروع في هذه الأرض ، فيظل النبات أنحصر النون ، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة :

﴿ فَكَانَتْ أَكْثَلُهَا ضَمَقِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

ويريد على ذلك أنها بربوة ، وأنها تروى بالمطر من أعلى ، ومن الظل ، فتعتمد الرى من المطر للجذور، والظل لغسل الأوراق . كل ذلك يطلق على الجنة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ويظمتنا سبحانه على احتفاظها بنضرتها ونضرتها ، وأول شيء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة

ونجد القرآن مرة يقول : « جنات تجري تحتها الأنهار » وهذا يعنى أن منبع المياه بعيد . ومرة أخرى يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ويعنى أن منبع المياه لن يحجزه أحد ، لأن الأنهار تجري وتنبع من تحتها . وبعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود في الجنة ، والخلود هو المكث طويلاً ، فإذا قال الحق : « خالدون » أي أنها أبداً ، أى أن المكث في الجنة يستقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وهذا وعد من ؟ « وعد الله حقاً ومن صدق من الله قتيلاً » . وحيى بعدك من

لا يخرج شيء عن إيماد وعنده ، فهذا هو وعد الحق - سبحانه - . أما وعد المساوي لك في البشرية فقد لا يتحقق ، لعله ساعه إنفاذ الوعد بغير رأيه ، أو لا يجد الوجود واليسار والسعة والعنى فلا يستطيع أن يوفى بي وعد به ، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك ، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتأوله الأغيار ، ولا يعجزه شيء ، وليس معه إله آخر يقول له لا . إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا عيب عن تحقيقه

قول الله هنا « وعد الله حقاً ومن صدق من الله قتيلاً » هو كلام من ليوضح لكل واحد منا : أنا لا أريد أن أستفهم منك ، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقراراً منهم بصدق ما يقوله الله ، أيوجد أصدق من الله ؟

وتكون الإجابة : لا يمكن ، حاشا لله ، لأن الكذب إنما يأتي من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه ، أو الخوف من يكذب عنده ، والله مزه عن ذلك ، فلذا قال قولاً فهو صدق .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ
مَنْ يَمَلَّ سَوْءَ إِيجْزَائِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

والأمية - كما حرما - هي أن يطمح الإنسان إلى شيء محتج مسعد بدون رصيد من عمل ، إن الحق سبحانه وتعالى حينما استغلف الإنسان في الأرض طيب منه أن يستقبل كل شيء صالح في الوجود استقبال المحافظ عليه ، فلا يفسد الصالح بالفعل ، وإن لولد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد ، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً .

والمثل الذي نضربه لذلك ، عندما يوجد بشر يشرب منها الخمر ، فهذه البئر لها

حراف وجوانب وأطراف ، وتفسد البئر إذا جاء أحد هذه الحراف والجوانب ما فيها من الأثرية لطمر البئر .

ومن يرد استمرار صلاح البئر فهو يتركها كما هي وبذلك يترك الصالح على صلاحه . وإن شاء إنسان أن يطمع إلى عمل مسعد تمتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً كان يأتي إلى جوانب البئر ويبقى حولها جداراً من الطوب كي لا يتسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع خطاً للبئر ، فإن طمع الإنسان أكثر فهو يفكر في راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم المصائب إلى البئر ليعملوا جوارهم ويرقيهم فيمكروا في رفع المياه بمضخة ماصة كابسة إلى صهريج عال ، ثم يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت ، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح ، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً .

أما إن أراد الإنسان أن يطمع إلى تمتع دون عمل . فهذه هي الأمانى الكاذبة . ولو ظل إنسان يحلم بالأماني ولا ينفذها بخطة من عمل . . . فهذه هي الأمانى التي لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف .

إن فالأمنية هي أن يطمع إنسان إلى أمر تمتع مسعد بدون رحمة من عمل ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شيء سبباً ، ونلاحظ أن الحق قد قال :

﴿ فَاتَّبِعْ نَبِيَّآ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء تُرقى أصاليب الحياة في الأرض ، فانه ضمن للإنسان الخليفة مسؤول الحياة الضرورية ، وعندما يريد الإنسان الترف والتنعم فلا بد أن يكسبه . ومثل ذلك : لقد أعطى الحق الإنسان المطر فيزل الماء من السماء ، ويترى ماء المطر في مجاري مكددة ، حضرها المطر لنفسه ، وقد يكون في كل مجرى تراب من صخور أو طمي ، لذلك يقوم الإنسان بترويق المياه ، ويرفعها في صهاريج لتأتيه إلى المنزل ، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة ، يصنع كوباً جميلاً . وصنع الإنسان الكوب في البداية من الفخار ، ثم من مواد مختلفة كالنحاس ثم البلور . وهكذا نجد أن كل طرف يحتاج إلى عمل يوصل إليه ، فلوست المسألة بالأمانى .

وكذلك الانتساب إلى الدين ، ليست المسألة أن يمثل الإنسان ويتسبب إلى الدين شكلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحكم بين الناس جميعاً ، ولا يمكن لواحد أن يتسبب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق الله من الديانات الأخرى ، لا ، فالإنسان محكوم بما يدين به . والمسلم أول محكوم بما داد به .

كذلك قال الحق : « ليس بآمانيكم » والخطاب هنا لمن ؟ إن كان الخطاب للمؤمنين فالحق يوضح لهم : يا أيها المؤمنون ليست المسألة مسألة أمانى ، ولكنها مسألة عمل ، لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل ، فكم من أناس يمررون الدنيا وتنقضي حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة ، فإذا قيل لهم : ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل ؟ يقولون : أحسننا الظن بالله . ونسمع الحسن البصري يقول هؤلاء : ليس الإيمان بالثمنى ولكن ما وقروا القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألثمهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكلبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له

وسبحانه يقول هؤلاء : « ليس بآمانيكم » . أما إن كان الخطاب موجهاً لغير المؤمنين ، فالحق لم يبع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن . أما جراء الآخرة فهو وعد من سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً ، وهو الوعد الحق بالجنة ، هذا الوعد الحق ليس بالآمانى بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل .

إذن فقد يصح أن يكون الخطاب بـ « ليس بآمانيكم » شاملاً أيضاً للكفار والمنافقين وأهل الكتاب . وكان للكفار بعض من الأمانى كقول المنكر للبحث :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾

(سورة الكهف)

هذه هي أمانى الكفار . ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب ، فقد قال الحق عن آمانيهم :

﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن صَبَرُوا أَوْ صَبْرُنِي ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وقالوا :

﴿لَنْ نَحْنَأَ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

كل هذه أمانى حادثة ؛ لأن منتهج الله واحد على الناس أجمعين ، من انتسب للإسلام الذى جاء حاثماً فليعمل ؛ لأن القصة الواضحة التى يحكم بها الله خلقه هى قوله سبحانه : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجند له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وأبو هريرة رضى الله عنه يقول : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سئدوا وقاربوا فإن نى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والكبة ينكها » (١) .

وقال بعض العلماء : المراد بالسوء فى هذه الآية هو الشرك بالله ؛ لأن الله وعد أن يعمر بعض الذنوب . واستند فى ذلك إلى قوله الحق :

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كُفُورٍ﴾

(من الآية ٢٦ سورة طه)

كان الجزاء المألم يكون للكفار ، أما الذين آمنوا ، فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة لقبيل الله توبتهم ويغفر لهم ، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينها ، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينها ، وجعل الحج كفارة لما سبقه ، وكل ذلك امتيازات إيمانية . أما جراء الكفار فهو : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجند له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ولا يقال فلان لا يجند إلا إذا بحث هذا الشخص عن شيء فلم يجده ، فالإنسان بذاته لا يستغنى ، ولكن من يعمل سوءاً فليبحث نفسه عن ولى أو نصير وليس يجند .

والرلى هو الذى يلى الإنسان ، أى يقرب منه ، ومثلها النصير والمعاون ، ولا يلى

الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه . وما دام قد أحب قوياً صعباً ، فهو قادر على الدفاع عنه ومعاونته .

ولمذا أورد الحق هنا « الولي » ، و« النصير » ؟ . والولي - كما عرفنا - هو القريب الذي يلي الإنسان ، أما كلمة « نصير » فتوحى أن هناك معارك وحصومة بين المؤمن وغيره ، وهناك قوة كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه في سلام ورضاء ، إن هذه القوة عندما تعلم أن هناك حصوماً للمؤمن تأتي لنصرته ، يساعده لا يجده الكافر ولياً أو نصيراً ، ولن يجده من يقرب منه ولن يجده من ينصره إن عصته الأحداث ، وعرض الأحداث هو الذي يجعل الناس تتعاطف مع المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يعزق إليه لينصره ، لكن أحداً لا ينصر على الله .
ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝١٢٤﴾

وجاءت كلمتا « ذكر » و« أنثى » هنا حتى لا يفهم أحد أن معنى الفعل بصيغة التذكير في قوله (يعمل) أن المرأة معصية منه ؛ لأن المرأة في كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً في مسألة الرجل ، وفي ذلك إجماع بأن أمرها مبنى على الستر

لكن الأشياء التي تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى » . وجاء سبحانه بها بلفظة (من) التي تدل على التبعية . أي على جريء من كل يقول . « ومن يعمل من الصالحات » ولم يقل : « ومن يعمل الصالحات » لأنه يعلم خلقه . فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، هناك من يحاول عمل بعض من الصالحات حسب قدرته . وللطوبى من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه .

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة من صلاحها ، فليقده الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، هذه هي أول مرتبة ، ومن بعد ذلك يترقى الإنسان في الأعمال الصالحة التي تتفق مع خلافته في الأرض ، وكل عمل يصلح به خلافة الإنسان في الأرض هو عمل صالح ، فالذي يرفض طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح ، وحرثة الموصلات للبشر حتى يصبوا إلى غايتهم عمل صالح ، ومن يعمل على ألا يشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح . وقد يصح الإنسان الأعمال الصالحة وليس في باله إله كعلماء السور المتقدمة غير المؤمنة بالله واحد كذلك لعلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان ، كرفض طرق وصناعة بعض الآلات التي يتفنع بها الناس ، وقاموا بها للطموح الكشفي ، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف ويخدم الإنسانية وينطبق عليه أنه عمل صالحاً ، لكنه غير مؤمن ، لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التي عصوا لها ، وليس لهم جزاء عند الله .

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَسْأَلُونَ نَقِيرًا ۝١٦١﴾

(سورة النمل)

قد يقول البعض إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءاً وبعد من يقول : من يعمل سوءاً هو الذي يجب أن يتلقى العقاب ، وتلقبه العقاب أمر ليس فيه ظلم ، والحق هو المقاتل .

﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ۝١٦٢﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

ومن يصنع الحسنه بأحد عشرة أمثاله وقد يكون اجزاء سبعائة ضعف ويأتيه ذلك فضلاً من الله ، والفضل من الله غير مفيد وهو فضل بلا حدود ، فكيف يأتي في

هذا المقام قوله تعالى : (ولا يظلمون نقيراً) وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن ، ونقول : إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم ، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهري ، وفي آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة ، وفي شهر آخر لا يعطيه سوى أجره ، وهذه الزيادة إعطائها ومسحها فضل من صاحب العمل . أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف ، إنه غير محدود ولا رجوع فيه . وهذا هو معنى (ولا يظلمون نقيراً) ، فسبحاته لا يكتفى بجزء صاحب الحسنة بحسنة ، بل يعطى جزاء الحسنة عشر أمثالها وإلى سبعائة ضعف ، ولا يتراجع عن الفضل ، فالتراجع في الفضل - بالنسبة لله - هو ظلم للعبد . ولا يقلون الفضل من الله بالفضل من البشر . فالبشر يمكن أن يتراجعوا في الفضل أما الله فلا رجوع عنده عن الفضل .

وهو الغافل :

﴿ قُلْ يُضِلُّ اللهَ وَيُرْحِتُهُ فَبِذَلِكَ طَبَعُ حُرّاً هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢٦٦)

(سورة يونس)

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى : « قل أولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » والنقيير هو : الشرة في ظهره النواة ، وهي لمر ضئيل للغاية . وهناك شيء آخر يسمى « الفتيل » وهو الخيط الذي تشبه الخيط في بطن نواة التمر ، وشيء ثالث يشبه الورقة ويعلق النواة واسمه « القطمير » .

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة سعراً مدى فضله سبحانه وتعالى في عطائه للمؤمنين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾

وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿٦٧﴾

ومسألة سمع استفهاماً مثل قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله »
فحسن الاستنباط يقتضى أن نفهم أن الذى أسلم وجهه لله هو الأحسن ديناً ، وفي
حديثنا اليومى نقول : ومن أكرم من زيد ؟ . معنى ذلك أن القائل لا يريد أن يصرح
بأن زيدا هو أكرم الناس لكنه يترك ذلك للاستنباط الحسن . ولا يقال مثل هذا على
صورة الاستفهام إلا إذا كان للمخبر به عيناً ومعيناً ، والقائل مطمئن إلى أن من
يسمع سؤاله لن يجد جواباً إلا الأمر المحدد المعين لمسئول عنه . وكان الناس مسألة
تدبر رأسها بحثاً عن جواب للسؤال لن نجد إلا ما حنكه السائل .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » والإجابة على مثل هذا السؤال : لا أحد
أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله . وهكذا نرى أن الله يلقى خبراً مؤكداً في صيغة
سؤال مع أنه لو تكلم بالخبر لكان هو الصديق كله :

﴿ وَمَنْ أصدقَ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة النساء)

وسبحانه يلقى إلينا بالسؤال ليرك لنا حرية الجواب في الكلام ، كأنه سبحانه
يقول :

- أنا أطرح السؤال عليك أيها الإنسان وأترك لك الإجابة في إطار ذمتك وحكمك
فقل لي من أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ؟ وتبحث أنت عن الجواب فلا تجد أحسن
من أسلم وجهه لله فنقول :

- لا أحد أحسن من أسلم وجهه لله . وبذلك تكون الإجابة من المخاطب
إقراراً ، والأقرار - كما نعلم - سيد الأدلة .

«ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله» ونعلم أن الكلمة إذا أضلقت في عدة مواضع فهي لا تأخذ معنى واحداً . بل يتطلب كل موضع معنى يفرضه سياق الكلام ، فإذا قال الله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

فذلك لأن الوجه هو العضو المواجه الذي ترجد به تميزات تبيين وتوضيح ملامح الأشخاص . لأننا بن نتعرف على واحد من كتفه أو من رجله ، بل نتعرف الأشخاص من سمات الوجوه .

وعندما نسمع قول الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

فإننا نسأل : ما المراد بالوجه هنا ؟

إن أردنا الوجه الذي يشبه وجوهنا فهذا وقوع في المحذور ، لأن كل شيء متعلق بالله سبحانه وتعالى فألحظه على ضوء « ليس كمثله شيء » نفوق ذلك حتى لا يقولن قائل . مادام وجه الله هو الذي لن يهلك يوم القيامة فهل يهلك بده أو غير ذلك ؟ لا : إن الحق حين قال : « كل شيء هالك إلا وجهه » فالقصد بذلك ذاته فهو سبحانه وتعالى منزه عن التشبيه وسبحانه القائل :

﴿ قَائِمًا تَلَوُّوا لَهُمْ رَجَّةُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

إذن وجه الله - هنا - هو الجهة التي يرتضيها ، والإنسان يتجه بوجهه إلى الكعبة في أثناء الصلاة . وإياك أن تظن أنك حينما تولي وجهك صوب الكعبة أنها وجه الله ، لأن الله موجود في كل الوجود ، فأى متجه للإنسان سيجد فيه الله ، بلليل أننا نصل حول الكعبة ، ونكون شرق واحد وغرب آخر ، وشمال ثالث ، وجنوب رابع ، فكل الجهات موجودة في أثناء الطواف حول الكعبة وفي أثناء الصلاة ، والكعبة موجودة هكذا للطواف حولها ، ولتكون متجهها إلى الله في جميع الاتجاهات .

﴿قَابَسَمَاءُ تَوَلَّوْا أَنْتُمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

أي الجهة التي ارتضاهما سبحانه وتعالى .

وبمعنى هنا في هذه الآية نرى قول الله : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » .
وأسلم وجهه أي أسلم اتجاهه ؛ لأن الإنسان حين يكون ذاهباً إلى قصد أو هدف أو
غرض ، فيكون وجهه هو اتجاهه ؛ لأن الإنسان لا يسير بظهره . والوجه هنا - إذن -
هو الاتجاه .

ولماذا جاء الحق بالوجه فقط ، برغم أن المؤمن يسلم مع الوجه كل الجوارح ؟
لأن الوجه أشرف الأعضاء ، ولذلك جعل سبحانه السجود أشرف موقع للعبد ؛ لأن
القائمة العالية وانوجه الذي يحرص الإنسان على نظافته يسجد لله .

إذن أسلم وجهه لله ، أي أسلم وجهته واتجاهه لله ، ومعنى « أسلم » من
الإسلام ، فـ « أسلم » تعني : سلم زمام أموره لواحد . وحين يسلم الإنسان زمامه
إلى مساو له فهذه شهادة لهذا المساوي أنه يعرف في هذا الأمر أفضل منه . ولا يسلم
لما ولا إن شهد له قل أن يلقي إليه بزمامه أنه صاحب حكمة وعلم وتربية عنه
فإن لم يلمس الإنسان ذلك قلن يسلم له . وما أجدر للإنسان أن يسلم نفسه لمن
خلقه ، أليس هذا هو أفضل الأمور ؟

إن الإنسان قد يسلم زمامه لإنسان آخر لأنه يظن فيه الحكمة ، ولكن أبيضن أن
يبنى هذا الإنسان حكماً ؟ أنه كإنسان هو ابن أعين ، وقد يتغير قلبه أو أن المسألة
المسلم له بها تكون مستعصية عليه ، لكن عندما أسلم زمامي لمن خلقتي فهذا مستهين
الحكمة . ولذلك قلنا : إن الإسلام هو أن تسلم زمامك لمن أصبت به إله قوياً وقادراً
وحكماً وحياً وله القيومية في كل زمان ومكان . وحين يسلم الإنسان وجهه لله قلن
يصنع عملاً إلا كانت وجهته إلى الله

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة البقرة)

ولماذا جاءت كلمة « محس » هنا ؟ وقد تكلم صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ، ومعرف أننا آمننا بالله غيباً ، لكن عندما ندخل بالإيمان إلى مقام الإحسان ، فبت بعبد الله كأننا نراه فإن لم تكن نراه فهو يرانا . والحوار الذي دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد صحابته وكان اسمه الحارث فقال له : « كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمن حقا فقتل الرسول صلى الله عليه وسلم : « انظر ما تقول ؟ فإن بكل شيء حقيقة بما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت لذلك ليل وأظلمات نهارى ، وكان أنظر إلى عرش ربه باروا ، وكان أنظر إلى أهل الحبه يتراورون فيها وكان أنظر إلى أهل النار يتصافعون فيها (يتصاحبون فيها) فقال « يا حارث عرفت فالتزم ثلاثاً »^(١)

ويعرف الإنسان من أهل الصلاح أنه في لقاء دائم مع الله ، لذلك يضع برنامجاً لنفسه موجزاً أنه يعلم أنه لا يخلو من ظر الله إليه (وهو معكم أينما كنتم) إنه يستحضر أنه لا يهيب من الله طرفه عين فيستحي أن يعصيه .

ويوضح الحديث ما رواه سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عندما سأل جبريل -عليه السلام- رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال له : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٢) .

وعندما تتيقن أن الله ينظر إليك فكيف تمصيه ؟ أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبدٍ مساوٍ لك . فكيف تفعله مع الله ؟^(٣)

وتدخل العظمة في قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محس » وتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، لماذا إذن « ملة إبراهيم » ؟ لأن القرآن يقول عن إبراهيم :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ هَكَذَا أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ومعنى كونه « أُمَّةً » : أنه اجماع لكل حصال الخير التي لا تكاد تجتمع في فرد إلا

١- رواه الطبراني في الكبير وأبو يعقوب في المعجم وصنفه الدارقطني وابن حبان

٢- من حديث طويل رواه الإمام مسلم

إن وزعنا الخصال في أمة يأكملها ، فهذا شجاع وذلك حليم والثالث عالم والرابع قوى ، وهذه الصفات الخيرة كلها لا تجتمع في فرد واحد إلا إذا جمعناها من أمة وأراد الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن يكون جامعاً للخير كثير موصفه بقوله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ويقول هنا عن ملة إبراهيم « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » والملة هي الديانة « حنيفاً » أى « مائلاً عن الباطل إلى الحق » والمعنى الغيبي لكلمة « حنيف » أنه هو « المائل » . وكان إبراهيم حنيفاً عن الباطل . ومعنى ترسل الرسل إلى الأتوام يعرف أن الرسل تأتي إذا طم الفساد وعم ، وحين تكون المجتمعات قادرة على إصلاح الفساد الذى فيها . فالحق سبحانه يهمل الناس ويظهرهم ، لكن إذا ما بلغ الفساد أوجاً ، فالحق يرسل رسولاً . وحين يأتى الرسول إلى قوم ينتشر فيهم الفساد ، فالرسول يميل من الفساد ، بهذا يكون الميل عن الاعوجاج اعتدالاً . « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالعناية الواضحة « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » فما هي حيثيات الخلّة ؟ لأنه يتبع أفضل دين ، ويسلم له وجهه ، وكان عسماً ، واتبع الملة . وكان حنيفاً ، هذه هي حيثيات الخلّة . وكلها كانت صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام

لقد حدثونا أن جبريل عليه السلام قد جاء لسيدنا إبراهيم عندما ألقاه أهله في اسار ، فقال جبريل يا إبراهيم : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم « أما إليك فلا » ، فقال جبريل فاصأل ربك فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالى » فقال الله : « يا نلر كوفى بردا وسلاما على إبراهيم »^(١) أى أنه لا يطلب من جبريل بدانه شيئاً وتلك قمة الإسلام لله . كما أننا نعرف مدى انس الناس بأبنائها : ونعلم أن إسماعيل قد جاءه ولداً فى آخر حياته ، وأوصح له خلق أنه مثليه ، وكان الابنلاء عديه فى الصعومة : فالابن لا يموت ؛ ولا يفته أحد ولكن يقوم الأب بديحه ، فكم درجة من الانتلاء مر بها إبراهيم عليه السلام ؟!

١- من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، وذكر نحوه فى تفسير ابن كثير وفى الكشف للزمخشري

وساد إبراهيم لتتميد أمر ربه ، ولذلك نفرا على سنان إبراهيم عليه السلام .

﴿ يَنْبَغِي إِنِّي أُرَى فِي الْمَنَامِ أَنَّ أَذْبَحُكَ فَأَنْطَرُ مَاذَا تَرَى ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ويجعل الحق ذلك برؤيا في المنام لا بالوحي المباشر ولسطر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام لم يفعل « اعمل ما يد لك يا أبي ، ولكنه قال :

﴿ يَكُنَّ أَفْعَلُ مَا تَوْصَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

أى أن إسماعيل وإبراهيم أسلما معا لأمر الله .

فهاذ فعل الله ؟

﴿ وَتَنبَيْتُ أَنْ يُكَرِّهَهُ ۖ ﴿١٠٣﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾
إِنْ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الَّذِي ۖ ﴿١٠٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثَ فِي دِينِكُمْ عِيسَى ۖ ﴿١٠٦﴾ وَرَفَعْنَا فِي
الْآخِرِينَ ﴿١٠٧﴾ سَنُمُوتُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴿١٠٨﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٠﴾ وَبَشِّرْهُ بِأَحْسَنِ نَبَأَيْنِ الصَّالِحِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولا يكتفى الحق بإعطاء إبراهيم وإسماعيل أباً ، وله فداء ، ولكن ررق الله إبراهيم بابن آخر هو إسحاق « وانجد الله إبراهيم حليلاً »

وجلس العلماء ليعشوا معنى كلمة « خليلاً » ، ويعشوا ما فيها من صفات ، وكل الأساليب التي وردت فيها . والكلمة مأخوذة من « الخفاء ولا م ولا م » وه الخل « - يفتح الخفاء - هو الطريق في الرمل ، وهو ما سمي به في عرفنا « عدناً » ، وعادة يكون ضيقاً ، وحبيب يسير فيه النمل فتكافئان إن كان بينهما ود عال ، وإن لم يكن بينهما ود فواحد يمشي خلف الآخر ولذلك سموا الاثنين الذين يسيران متكاتفين « خليل » فكلاهما متخلف في الآخر أى متداخل فيه . و« خليل » أيضاً هو من يسد حلل

صاحبه . والخيل هو الذي يتحد ويتوفق مع صديقه في الجلال والصفات والأحلاق . أو هو من يتحلل إليه الإنسان في مساتره ، ويتحلل هو أيضاً في مسائر الإنسان . والإنسان قد يستقبل واحداً من أصحابه في أى مكان سواء في أصالون أو في غرفة المكتب أو في غرفه النوم . لكن هناك من لا يستمله إلا في أصالون أو في غرفة المكتب .

« واتخذ الله إبراهيم خليلًا » أى اصطفاه الحق اصطفاً خاصاً ، والحب قد يُشارك فيه ، فهو سبحانه يحب واحداً وآخر وثالثاً ورابعاً وكل المؤمنين ، فهو القائل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ النَّوَّابِينَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وسبحانه القائل :

﴿ لَئِنْ آتَىٰ اللَّهُ بِمَنَّانٍ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة آل عمران)

وهو معلما

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة آل عمران)

ويقول لنا :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة آل عمران)

ويقول أيضاً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٨ سورة الممتحنة)

لكنه اصطفاً إبراهيم خليلًا ، أى لا مشاركة لأحد في مكانته ، أما الحب عيعم ، ولكن الخلقة لا مشاركة فيها . ولذلك فرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى

قومه قائلاً : (أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر من أبي قحافة خليلاً وإن صاحبكم خليل الله تعالى) يعني نفسه^(١) .

واسماعيل صبرى الشاعر المصرى الذى كان اسبق من احمد شوقي وكان شيعيا للقبضة . التقط هذا المعنى من القرآن ومن الألفاظ التى دارت عليه فى القرآن ، ويقول :

ولما اتقينا قرب الشوق جهده
خيلين زادا لوعة وعتابا
كان خيلاً في خلال خيله
تسرب أثناء المنطق وغابا

وَشَاعِرٌ آخَرٌ يَقُولُ :

ففيها خمسة نبي بها واحداً

ولكن إسماعيل صبري قال ما يفوق هذا المعنى : لقد تخللنا كأن بعضنا قد غاب في البعض الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَكَانَ

اللَّهُ يَكُلُّ مِنْهُ جُحُشًا ﴿١٦﴾

ومسبحانه أوضح في آية سابقة أنه لا ولي ولا نصير للكافرين أو للمنافقين .

ويؤكد لنا المعنى هنا : إياكم أن تظنوا أن هناك مَهْرَباً أو محبصاً أو معزلاً أو مفراً ،

۱ - رواہ مسلم و احمد عن ابن مسعود و ابن الجاری (لو كنت متخذاً خليلاً غيري لاتخذت اباً بكم ولكن اخوة

ملكه ما في السموات وما في الأرض ، فلا السموات تُؤوي هارباً منه ، ولا من في السموات يعاون هارباً منه ، وسجاته المحيط علماً بكل شيء ، والقادر على كل شيء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَنَصَّي النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ الَّيْنَ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ١٢٧ ﴾

« يستفتونك » أي يطلبون الفتيا ، ونعرف أن الدين قد مر بمراحل منها قول الحق : (يسألونك) .

وهي تعبير عن سؤال المؤمنين في مواضع كثيرة . ومرحلة ثانية هي « يستفتونك » . وما الفارق بين الاثنين ؟

لقد سألوا عن الخمر والأهلة والمعيص والإتفاق . والسؤال هو لرسول الله ص الله عليه وسلم مع أنه قال :

« ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم عن أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »^(١)

أى أنه طلب منهم ألا ينشروا ولا يُفتشوا في أشياء قد يحلبون بها على أنفسهم تكاليف جديدة ، ومع ذلك سألوه عن رغبة في معرفة أى حكم يحدد حركة الإنسان في الحياة .

ولو كانوا لا يريدون تحديد حركة حياتهم فلماذا سألوه ؟ . كان السؤال دليلاً على أن السائل قد عشق منج الله فأحب أن يجعل منج الله مسيطراً على كل أفعاله ، فالشيء الذى أجمله وأوجزه الله يجب أن يسأل عنه

وأيضاً فالإسلام جاء ليحدد عادات الدنيا مليحة وللعرب ولهم أحكام يسبرون عليها صنعوها لأنفسهم فلم يغير الإسلام فيها شيئاً ، فيما أحبوا أن يستمروا في ذلك لمجرد أنه من عمل آبائهم ، ولكن أحبوا أن يكون كل سلوكهم من صميم أمر الإسلام ، لذلك سألوه في أشياء كثيرة

أما الاستفتاء فهو عن أمر قد يوحد فيه حكم ملتبس ، ولذلك يقول الواحد في أمر ما . فلست أنت وحدك في هذا الأمر ؛ لأن معنى الاستفتاء عدم قدرة واحد من الناس أو جماعة منهم في استنباط حكم أو معرفة هذا الحكم ، ولذلك يردون هذا الأمر إلى أهله .

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

الاستفتاء - إذن - يكون لحكم موجود ، ولكن المستفتى لا يملك القدرة على استنباطه . ولذلك نجد المجتمعات الإسلامية تخصص ذاراً للإفتاء ، لأن المؤمن قد لا يعلم كل الجزئيات في الدين . وقد يعيش حياته ولا يمر به هذه الجزئيات ، مثل أبواب الوقف أو المضاربة أو الميراث ، فإن حدثت له مسألة فهو يستفتى فيها أهل الذكر . فالسؤال يكون محل العمل الرقيب ، أما الفتوى فهي في أمر ليس المطلوب أن تكون المعرفة به عامة . ولذلك يتجه المستفتى إلى أهل الذكر طالباً الفتيا .

والحق يقول . (ويستفتوك في النساء) كأنهم قالوا للرسول : نريد حكم الله فيها يتعلق بالنساء حلاً وحرمة ونصرفاً .



فكيف يكون الجواب ؟ : « قل الله يفتيكم فيها » ولم يؤجل الله الفتوى لاستفتائهم بل سبق أن قال ، وعلى الرغم من ذلك فإنه - سبحانه - يفتيهم من جليده .

لعل الحكم الذى نزل أولاً ليس على باهم أو ليسوا على ذكر منه .

يقال الحق :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَنَصَّي النِّسَاءَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

أى أن الحق يفتيكم في أمرهن ، ومسبق أن نزل في الكتاب ، آية من سورة النساء . قال الحق فيها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِثْلَهُنَّ وَلَوْلَا وَرُفْعُ ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

وتوالت آيات من بعد ذلك في أمر النساء .

فقوله الحق : « قل الله يفتيكم فيها وما يتلى عليكم في الكتاب » .

إنما يعلمنا أن الإنسان لا يصح أن يتمجّل الاستفتاء في شيء إلا إذا استعرض قبل ذلك ما عنده من علم لعله يجد فيه الجواب الذى يفتيه عن أن يستحق

ومع أن الاستفتاء في أمر النساء جملة : صغيرات وكبيرات ، بنات وبنات ، فلماذا جاء الجواب في تناسى النساء ؛ لأن النساء الكبيرات هي القادرة على أن يحسن أمرهن ، ولهن ضميريات ، أما الشيمة فهي صيغة الضعيفات ، وعرفنا معنى اليتيم ، واليتيم حيث لا يبلغ الإنسان البالغ الذى يصح فيه مستقلاً ، فلا يقال لمن بلغ حد البلوغ سواء أكان رجلاً أم امرأة أنه يتيم ، لذلك جاء الجواب خاصاً بتناسى النساء ؛ لأن تناسى النساء هن دائماً تحت أولياء ، هؤلاء الأولياء الذين نسميهم في

عصرنا بعد الأوصياء . وكان للأوصياء حالتان : فإن كانت البنت جميلة وذات مال فالوصى يجب أن يتكهنها ليستمتع بهاها ويستولي على مالها . وإن كانت دمية فالوصى لا يرغب في زواجها لذلك يعضلها ، أي يمنعها من أن تتزوج ، لأنها إن تزوجت فسيكون الزوج هو الأولى بالمال .

فلاحتاجت هذه المسألة إلى تشريع واضح . وما نحن أولاء نجد سيدنا عمر - رضي الله عنه - وكانت له الفراسات التي تسمى الفراسات القلروقية وجاءه واحد يسأله عن أمر يتهمه تحت وصايته ، فقال سيدنا عمر :

- إن كانت جميلة فدعها تأخذ خيراً منك ، وإن كانت دمية فخذها زوجة وليكن مالها شافعياً للمعامتها .

ويقول الحق :

﴿ وَمَا يَنْتَظِرُ عَلَيْكُمْ فِي آلِكَتَابٍ فِي يَتَنَصَّى النِّسَاءُ الَّتِي لَا تُنْزَوْنَ عَنْ مَا كَتَبَ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

والذي كتب لمن إما أن يكون مهوراً . وإما أن يكون تركة ، وجاء القول الحكيم ليرفع عن المرأة عسف الولي . وجاء الأمر بهذا الأسلوب العالي الذي لا يمكن أن يقوله غير رب كريم ، وبعد مادة « رغب » تعني « أحب » . فإذا ما كان الحال « أحب أن يكون » يقال : « رغب فيه » ، وإذا « أحب ألا يكون » فيقال : « رغب عنه » . ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة البقرة)

ومادامت « عن » جاءت كما في الآية فما بعدها هو المتروك . لكن لو كان القول « رغب في » فهو لأمر محبوب . وكلمة « ترغبون » في هذه الآية سجدها محذوفة الحرف الذي يقوم بالتعدي حياً أو كرهاً ، لأنها تقصد المعنيين . فإن كانت الرغبة في المرأة . تصير « ترغبون في » وإن كانت المرأة دمية وزهد فيها فالقول يكون « ترغبون عن » ولا يفكر أحد غير الله على أن يأل بأسلوب يجمع بين المرفقين المتناقضين . وجاء الحق ليقتل للامرئ معاً .

ويأتي الحق من بعد ذلك بالقول : « والمستضعفين من الولدان » بجانب اليهيات

وهو الصنف المستضعف الآخر ، أى اليتيم الذى لم يبلغ مبلغ الرجال ، وحيها يتكلم سبحانه عن الولاية والوصاية من مثل هؤلاء فهو يتكلم بأسلوبين اثنين ، وإن لم يكن للإنسان منة استقلال الأسلوب البليغ فقد يقرب : هذا كلام متناقض ، لكن لو تمتع الإنسان بملكة استقلال الأسلوب البليغ فقد يقول : إن عظمت هذا الأسلوب لا يمكن أن يأن به إلا رب كريم . فاحق قال :

﴿ وَلَا تَنْزُتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

قال الله ذلك على الرغم من أن الأموال هي في الأصل ملك للسفهاء ، فإما ليس ماله إلى أن يعود إليه رشده ، وقد جعل الإسلام الأحوه الإيمانية للتكافل والتكافل ، ومساعدة يرى المسلمون واحداً من السفهاء فهم يجبرون على سلوكه حمية لماله من سفهه ، والمال يهان ويحفظ ويطلب من الوصى والولى أن يحميه ، هذا ما قاله الحق في السفهاء .

واحق يتكلم في اليتامى فيقول سبحانه -

﴿ وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

لأن السفه أو المذر ليس لأى منها سلطة التصرف في المال بل سلطة التصرف تكون للوصى ، ويتسبب المال في هذه الحالة للوصى لأنه القائم عليه والحفظ له ، لكن ما إن يبلغ القاصر الرشد فعل الوصى أن يرد له المال

وبحق أمام آية نصع المواعيد لليتامى من النساء والمستضعفين من الولدان .

﴿ وَمَا يُبَلِّغُنَّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا يُولُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْجُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقْرُبُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النساء)

ما معنى القيامة لليتامى بالقسط ؟ والقسط - بالكسر - تعنى العدل . وتختلف عن « القسط » - بفتح القاف - وهو يعنى الجور ، قَسَطَ - يَقْسِطُ أى عدل ، وقسط يَقْسُطُ ، أى جار ، فالعدل مصدره « القسط » بالكسر للقاف ، والجور مصدره « القسط » بالفتح للقاف .

وبعض من الذين يريدون الاستدراك على كلام الله صفها بنير علم - قالوا .
- يأتى القرآن بالقسط بمعنى العدل فى آيات متعددة ، ثم يأتى فى موقع آخر ليقول :

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٥)

(سورة الجن)

وه «القاسطون» هى اسم فاعل من قسط ، ونفون . ومن قال لكم : إن « قسط » تستخدم فقط فى معنى « عدل » ، إنه يستعمل فى « عدل » وفى « جار » ، ومسحابه يقول عن العادلين :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

لقسط يذهب إلى النار ، وهى مأخوذة من « قَسَطَ يَقْسُطُ » ، والقسط يذهب إلى الجنة ، ومقسط مأخوذة من أقسط .

وعندما نرى « أقسط » براها نبدأ جمرة الإدالة ، أى كان هناك جور فأزلناه . أما القسط - بالكسر - فهو العدل من البداية والمقسط هو الذى وجد جوراً فأزاله ، والذى يعصل بين الاثنين هو العمل المضارع ، نفس العدل هو « يقسط » بكسر السين فى المضارع ، أما يَقْسُطُ - بضم السين فى المضارع - تعنى « يجور ويعلم » ومن ههنا الدعة نجد اللص الواحد يُستعمل لأكثر من معنى ؛ ليتعلم الإنسان لياقة الاستقبال ، وليفهم الكلمات فى ضوء السياق .

وقديماً كانت اللغة ملكة لا صناعة كما هى الآن فى عصرنا . كانت اللغة ملكة إلى درجة أنهم إذا شكلوا الكتاب إلى الموصل إليه يفضب ، ويرد الكتاب إلى مرسله ويقول لمن أرسله : أتشك فى قدرى على قراءة كتابك دون تشكيل ؟ فتشكيل

الكتاب سوء ظن بالكتوب إليه ، وفي عصرنا نجد من يلقى خطاباً يطلب تشكيل الخطب حتى ينطق النطق السليم .

ولحق سبحانه وتعالى بقول : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » وجاء الحكم في قوله الحق : (وآتوا اليتامى أموالهم) وسبحانه ينكلم في المهور والأموال ويرتفع بالأمر إلى مرتبة اعتبار حسن التصرف في أمور اليتامى من المسئولية الإيمانية ؛ فقد تكون اليتيمة لا مال لها وليست جبهة حتى يطمع فيها أو في مالها ، وفي هذه الحالة يجب على الولي أن يروعاها ويرعى حق الله فيها .

وقوله الحق : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » هو أمر بأد يقوم المؤمن على أمر ليتامى بالعدل ؛ لأن اليتيمة قد تكون مع الولي ومع أهله ، وقد يكون لليتيمة شيء من الوسيلة ، فيسرع إليها الولي بعطف وحنان زائد عن أولاده ، وينبه الحق أن رعاية اليتيمة يجب أن تتسم بالعدل ، ولا تزيد ويقول سبحانه :

« وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً » ليدلنا على أن أمر العمل والقيام به ليس مناهج الجزاء ، ولكن أمر النية في الفعل هو مناط الجزاء ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : فعلت ، ولكن قل : فعلت بنية كذا .

إن الذي يسمع عن رأس اليتيم يكون صاحب حظ عظيم في الثواب ، ومن يكفل ليتيم فهو مع النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة . والذي يفكر ذلك هو الله - سبحانه - العليم بالخفايا حسب نية الشخص الذي يقوم بهذا العمل ؛ فقد يتقرب واحد من يتيم ويتكلف العطف والحنان بينما يقصد التقرب إلى أم اليتيم ؛ لذلك فمناط الجزاء ومناط الثواب هو في النية الدافعة والباعثة على العمل . ولا يخفى أن يقول الإنسان : إن نيتي طيبة ، ولا يعمل ؛ فالحديث الشريف يقول :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(١)

أى لا بد من ارتباط واقتراح النية بالعمل ، لأن الله يريد منا أن نعمل الخير وبذلك يمدى الإنسان الخير من نفسه إلى غيره وهذا هو المطلوب ، فوجود النية للخير وحدها لا يكفي ، وإن اعتقد الإنسان النية وأدى العمل فغيره يأخذ غيره ولا يأخذ هو شيئاً سوى التعب . فإن أراد الإنسان أن يكون له ثواب فلا بد من وجود نية طيبة ، وعمل صالح .

ولم يقل الحق : « وما تعملوا من خير فإن الله به عليم » ، لأنه سبحانه عليم لا بعد أن يصنع العمل بل بكمال قدرته يعلم قبل أن نصنع الخير ، وكل شيء كان معلوماً لله قبل أن يخلق الوجود ، ولا يتصور سبحانه إلى أن يقوم الإنسان بالعمل حتى يحصل ويحدث منه العلم ، بل إنه - جل شأنه - يعلم كل شيء عليها أرضاً ، لذلك قال : « فإن الله كان به عليم » ، لأن كل أمر برز في الوجود إنما كان على وفق ما علمه الله أولاً قبل أن يوجد الوجود .

وفي المجال البشري يرى المهندس يتلقى التعليمات من صاحب الأرض الخلاء ويقول له : صمم لي قصراً صغيراً من مساحة كذا ومكوناً من كذا حجرة . وعدد محدود من دورات المياه ، وبعد ذلك يصمم المهندس الرسم الهندسي على الورق حسب أوامر صاحب الأرض . وقد يكون صاحب الأرض دقيقاً فطنا غاية في الدقة فيقول للمهندس : إنني أريد أن تصنع لي نموذجاً صغيراً قبل لباء بحيث أرى تطبيقاً واقعياً بمقياس هندسي مصغر ، وأن تبني الحجرات بقطاعات واضحة حتى أرى ألوانها وكيفيةها .

هكذا العالم قبل أن يوجد ، كان معلوماً علماً تفصيلياً بكل دقائقه وأبعاده عند خالفه ، والنهائج المصغرة التي يصنعها البشر قد يقصر البشر فيها عن صناعة شيء لعدم توافر المواد ، كالجار الذي يقصر في صنع حجرة نوم من خشب المورد لتدريته ، فيستعصم بخشب من نوع آخر ، وذلك خلل في علم وقدرته المنفذ . أما خلق الله فهو يبلغ تمام الدقة ، لأنه - سبحانه - هو الصانع الأول . هذا ما يجب أن نفهمه عندما نقرأ : « فإن الله كان به عليم » .

وبعد ذلك يتكلم الحق عما يتعلق بالنساء فيقول :

﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا
وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ
تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا﴾

وساعة نرى «إن» وبعدها اسم مرفوع كما في قوله :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾

(من الآية ٦ سورة النوبة)

فلنعرف أن «إن» هذه داخلة على فعل ، أي أن ترتيبها الأساسي هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره . وبت في هذه الآية : يكون التقدير : وإن خافت امرأة من بعليها نشوزاً ، وما الخوف ؟ . هو توقع أمر محزن أو مسيء ؛ لم يحدث بعد ولكن الإنسان ينتظره ، وحين يخاف الإنسان فهو يتوقع حدوث الأمر السيئ . وهكذا نجد أن الخوف هو توقع ما يمكن أن يكون متعباً . وقوله الحق : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ، أي أن النشوز لم يحدث ولكن المرأة تخاف أن يحدث . ورتب الحق الحكم على مجرد الخوف من النشوز لا حدوث النشوز بالفعل ، وهذه لفظة بكل منا ألا يترك المسائل حتى تقع ، بل عليه أن يتلافى أسبابها قبل أن تقع ؛ لأنها إن وقعت ربما استعصى عليه تداركها وإن رأت المرأة بعضاً من ملامح نشوز الزوج فعليها أن تعالج الأمر .

ونلاحظ أن الحق يتكلم هنا عن نشوز الرجل ، وسبق أن تكلم سبحانه عن نشوز المرأة :

﴿وَالَّذِي تَخْتَفُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾

(من الآية ٣٤ سورة النساء)

ما النشور؟ عندما نسمع عن الموسيقى نجد من يقول: « هذه نغمة تشتر » أي أنها نغمة خرجت عن تسلسل النغم وإيقاعه . والأصل فيها مأخوذ من التشتر ، وهو ما ارتفع وظهر من الأرض ، والمفروض في الأرض أن تكون مبسوطة ، فإن وجدت فيها ثلثاً فهذا اسمه نشور .

والأصل في علاقة الرجل بزوجه ، أن الرجل قد أخذ المرأة مكملاً له ومودة ورحمة وأنضى إليها وأنضت إليه ، واشترط الفقهاء في الزواج التكافؤ أي أن يكون الزوجان متضاربين ، ولذلك قال الحق :

﴿ الْحَبِيبَتُ قَرِيبَتَيْنِ وَالْحَبِيبُوتُ لِقَرِيبَتَيْنِ وَالطَّيِّبَةُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

حتى الكفاءة تكون في الطيبة أو الخبيث ، فلا يأتي واحد بل امرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كي لا تتعبه ، ولا يأتي واحد برجل خبيث ويروجه بامرأة طيبة كي لا يتعبها ، لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تربحه وتقدّره

وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنها يتوافقان في الطباع والسلوك ، وفي هذا توازن ، والخبيث إن لم ينجل من العفصية ، فالحبيثة لا تنجّل منها أيضاً ، أما الطيب والطيبة فكلاهما ينجّس على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته ، فإن خافت امرأة من بعلها نشوراً أي ارتفاعاً عن المستوى المفترض في المعاملة ، في السكن والمودة والرحمة التي ينبغي أن تكون موجودة بين الزوجين ، وهي قد أنضت إليه وأنضى إليها ، فإن خافت أن يستنص عيبها بنفسه أو بالنفقة أو بإيصالها بالاحتقار ، أو ضاعت منه مودته أو رحمته ، هذا كله نشور . وقبل حدوث ذلك على الزوجة الذكية أن تتنبه لنفسها وترى ملامح ذلك النشور في الزوج قبل أن يقع ، فإن كانت الأسباب من جهتها فعليها أن تعالج هذه الأسباب ، وترجع إلى نفسها وتصلح من الأمر . وإن كانت من محلول كسب مودته مرة أخرى .

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوراً أو إعرضاً والإعراض يعني أنه لم ينشز بعد ولكنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها على الرغم من أنه يعطيها كل حقوقها . وعلى المرأة أن تعالج هذه المسألة أيضاً . والقضية التي بين اثنين - كما قلنا - وقال الله عنها :

﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكَ إِلَى بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

وقال في ذلك أيضاً :

﴿ هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أن يغطى الرجل المرأة ويغطي المرأة الرجل فهي ستر له وهو ستر لها وحماية .
ونعرف أن المرأة إن دخل عليها أبوها أو أخوها فهي تدارى أى جزء ظاهر من
جسمها ، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تغطي شيئاً .

ونعرف كل رجل متزوج وكل امرأة متزوجة أن بينهما إضاعة متبادلاً ، فقد أباح الله
للرجل من زوجته ما لا يباح لأحد ، وكذلك المرأة ، فلا يقول الرجل أى نعت أو
وصف جارح للمرأة ، وعلى المرأة أن تحافظ كذلك على زوجها ولها أن تتذكر أنها
أطلقت على عورته بحق الله ، وأعلم على عورتها بحق الله .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يمس هذا الخلاف قبل أن يقع ؛ لذلك أوجب على
المرأة أن تبحث عن سبب التنوز وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت في العمر أو
نزلت بها علة ومرض وما زال في الرجل بقية من فتوة . وقد يصحح أن امرأة أخرى قد
استهانت ، أو يرغب في الزواج بأخرى لأى سبب من الأسباب ، هنا على المرأة أن
تعالج المسألة علاج العقل والتنازل من قسمها ، فقد تكون غير ملحة وأراد هو
الزواج فلتسمح له بذلك ، أو تتنازل له عن شيء من المهر ، المهم أن يدور الصلح
بين الرجل وزوجته ، وهي مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة .

« فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً » والصلح هنا مهمة الاثنين معاً ؛ لأن
كل مشكلة لا تعدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيراً ، والذي يجعل المشكلات
صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون في العلاقة بين الرجل والمرأة ، وليس بينهما ما بين
الرجل والمرأة ، والرجل قد يختلف مع المرأة ويخرج من المنزل ويبدأ ويعود ، فتقول له
الزوجة كلمة تكسر اخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فله مشكلة قد تتعقد من تدخل
من لا يملك سبباً أو دافعاً لحل المشكلة .

لذلك يجب أن ننتبه إلى قول الحق هـ . « فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما »

وأرى درجاب الصلح بين الرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهما بمسئوليته وليتذكر
الاثنان قول الحق .

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُ فَتَقَسَّيْ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ١٩ سورة النساء)

ولا يظن رجل أن هناك امرأة هي مجمع كل الجمال والخير ؛ لأن كل حصان
الخير التي تتطلبها الحياة ، قد لا تتوافر في المرأة الجميلة . بل قد توجد في المرأة التي
ليست على حظ من الحسن ؛ لأن ذات الحسن قد تستند إلى رصيد حسنها . أما التي
ليس لها حظ من الحسن فهي تحاول أن تكون أمينة ومطبعة ومديرة وحسنة التصرف
مع أهل الزوج ؛ لأنها تريد أن تسبق لنفسها رصيد استقاء .

ولذلك نجد اللائق ليس لها حظ من الحسن هي العالية الكبيرة في حمل أعبه
تكوين الأسرة ، فلا يصح أن يأخذ الرجل الراوية الوحيدة للجمال الحسى ، بل عليه
أن يأخذ لجمال بكل جوانبه وزواياه ؛ لأن الجمال الحسى قد يأخذ بعقل الرجال ،
لكن عمره قصير . وهناك زوايا من الجمال لا نهاية لها إلا بنهاية العمر .

وقد حدثونا عن واحد من الصالحين كانت له امرأة شديدة المراس والتسلط
عليه ، وهو رجل عيب فقال لها : أه لو رأيته وأنا في دروس العلم والناس
يستشرفون إلى سماعي لقد ظن أنها عندما تراه في مجلس العلم سترتدع ، وتكون
حنونة عليه .

وذهبت لحضور دروس العلم ، وراها ، وظن أن ذلك سيورع هيبه له في قلبها ،
وماد إليها آخر النهار وقال لها : لقد رأيته ليوم . فقامت رأيتهك وباحسة
مارأيت ، رأيت كل الناس يجلس باثران إلا أنت فقد كنت تصرخ .

وحدثونا عن هذا الرجل أن الله كان يكرمه بالمجد جزاء صبره على امرأته ، وكان المريدون يرون إشرافات الله في تصرفاته ، وماتت امرأته . وذهب المريدون ولم يجدوا عنده الإشرافات التي كانت عنده من قبل . فسألوه : لماذا ؟ فقال : ماتت التي كان يكرمني الله من أجلها .

فكما أن المصنوب من المرأة أن تصبر على الرجل ، فالرجل مطلوب منه أن يصبر على المرأة . والذي يصبر عليها يؤتيه الله خيرها ، ولذلك قالوا : وإن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة حميلة وكان هو دميم الملامح ، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت . الحمد لله فقال لها : على أي شيء تحمدين الله ؟ قالت : على أني وأنت في الجنة . قال . لم ؟ قالت : لأنك رزقت بي فشكرت ، ورزقت بك فصبرت ، والشاكر والصابر كلاهما في الجنة .

ولا يظن واحد أنه سيجد امرأة هي مجمع الجمال والحسن في كل شيء ، فإن كانت متدنية المستوى في جانب مهن متميزة في جانب آخر ، فلا تصيب الاعتبار الذي فيها من أجل قصورها في جانب ما . وزوايا الحيلة كثيرة . وقتنا سابقاً : إنه لا يوجد أحد ابتلاه ، بل كلنا بالنسبة لله عيب . ومادنا جميعاً بالنسبة لله عيباً وليس فيه ابن له . وسبحانه أعطانا أسباب انفصل عن سواء ، فهناك فرد قد أخذ الامتياز في جانب ، والآخر قد نال الامتياز في جانب آخر . هذا النقص في زاوية ما ، والامتياز في زاوية أخرى ، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أي إنسان يساوي مجموع إنسان آخر حتى يتوارد لعالم

فإن وجد الإنسان شيئاً لا يعجبه في المرأة ، ووجدت المرأة شيئاً لا يعجبها في الرجل ، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة ، وأن تضم المرأة كل الزوايا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل .

والرجل الذي ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح السال ؛ لأنه يرى من الزوايا لحسنه أضعاف الزوايا التي ليست كذلك ، والذي يرمى هو من ينظر إلى المحاسن . والذي يغضب هو من ينظر إلى المقايص . والمعادل في العصب والرفضا هو من ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هـ ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن تبنى الأسرة على السلامة فيوضح لنا :

- لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظري أيها المرأة إلى أن يقع الخلاف ، فما أن قبسو البوادير فعمليكما بحل المشكلات ، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما ؛ لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته ؛ لذلك قال سبحانه . « هلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا » .

إننا في بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح ، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجموع والمواجيد العسية فقد لا يوجد ، والذي يعرف الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة في النفوس ، والتي تسرب إلى موضوعات أخرى ؛ لذلك يجب أن يكون الصلح ، ويتم بحقيقته كقول الله تعالى : « أن يصصا بينهما صلحا والصلح خير » وعندما تراضى النفوس بعم الخير على الزوجين وعلى المجتمع .

وبعد ذلك يتابع الحق : « وأحضرت الأنفس الشح وإن أحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » يوضح لنا سبحانه . أنا خالفكم وأعلم طبائعكم ومخالبكم وأعلم أنني عندما أطلب من المرأة أن تشارك عن شيء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى « الشبكة » ، أو أن تتنزل له عن لبيتها ليلا عند الزوجة الأخرى . وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس ، وكذلك يصعب على الرجل أن يشارك عن مقاييسه ، إياكم أن يستولى الشح على تصرفاتكم بالنسبة لبعضكم البعض وجاء الحق في آية وقال :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكَ إِلَى بَعْضٍ وَاتَّخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غِيبًا ٢١ ﴾

(سورة النساء)

وهنا يقول : « وأحضرت الأفس الشح وإن أحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » هناك فرق بين الحق الذي قد يتمسك بها أحد الزوجين ، والإحسان الذي يتطوع به . ويعرف ما فعله قاص فاضل عندما قال لخصمين : أحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟

فسأل واحد : وهل هناك خير من العدل ؟ فقال القاضي : نعم إنه الفصل . فالعدل إعطاء الحق فقط ، والفصل أن ينزل الإنسان عن حقه بالتراضي لأخيه .

ويسين الحق الآية . « وإن تحسوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، ومبجته ونعمالي يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التي لا توجد فيها خيرة عفسية إيمانية ، لا عند الرجل ولا عند المرأة ، ولو كانت هذه الأسر تملك الخيرة الإيمانية اسبقة وأخذت أحكام الله بحرفها لما وجدت هذه المشكلة ، إنها مشكلة التعدد .

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظاً ، لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع، والمغنون هم المرأة ، لأنها مفيدة بزواج واحد ، فليست كل امرأة مهضومة ، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة . وقد نجد امرأة قال لها زوجها : ستزواج بثانية ، ورضيت هي بذلك ، بعد أن وازنت بين أمورهما فاختارت خير الأمور .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يعطفها لرعبته عنها ، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقني ودعي أقرم على ولدي وتقسم لي فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب إلي فأقرها . إذن فالخمة في زواج الرجل من زوجة أخرى لا نعم كل النساء ، فإن أحدث الزواج العم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سروراً عند الزوجة الثانية والمرأة معنورة في ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله في أن يعدد ولم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل . والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذي في صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيع التعدد وهو المشرع الأعلى - وهو الله - الأمر بأن يعدل بين زوجاته .

لقد جمعت المجموعات لأهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا للزوجة الجديدة ، ويهمل القديمة وأولاده منها ؛ لذلك فالنساء معنورات في أن يفضن من هذه المسألة . ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله في التعدد لحدث التوازن . وحين تعرف المرأة الأولى أن حظها لن يطبع لا في نفسها ولا في بيتها ولا في رعاية أولادها . فهي تقول : « من الأفضل أن يكون متزوجاً أمام عيني بدلاً من أن يلبس نفسه في أحراض الناس » .

إذن فالذي يشير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويفرك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به . والذين يأخذون إباحة الله في التعدد لا يد أن يأخذوه

بأصوله التي وضعها الله في إطار العدالة . وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل ، فكل امرأة لها حق في البيت ، ليلة لزوجته وليلة لأخرى مثلاً ، وكان -رضي الله عنه- لا يتزوجاً عند واحدة في ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله . والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان في الطاعون ، أمر بدفن الاثنين في قبر واحد

والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وأمر بالعدالة في المستطاع ، وعلى الرجل أن يعدل زمناً ، ويعدل نفقة ، ويعدل انتماءه ، ويعدل مؤسرة ومواساة ، والرجل في كل ذلك يستطيع ، لكنه لا يستطيع أن يعدل في ميل القلب ، وهو أمر مكتوم ، لذلك قال الحق :

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَعِیلُوا كُلَّ الَمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ۝١٣﴾

أي أن العدل الحبي مستحيل . وقال النبي عليه الصلاة والسلام - (اللهم هذا نفسي فيها أملك فلا تلمني فيها ثمك ولا أملك) - يعني القلب (١)

إذن فيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسه والنزوع النفسي . والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد ، ولا يوجد تقنين يقول للرجل : « أحب فلانة » . إلا إذا أراد الحب العقل ، أما الحب العاصمي فلا . والذي يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل ، أما حب العاطفة فلا تقصير له أبداً .

وقد يحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسر الإنسان من صديق جاء بهذا

الدواء من الخارج ، لأن الدواء ميسففيه بإذن الله .

إذن «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل» ، ما هو كل الميل ؟ ويوضحه - سبحانه - بقوله : « فتدروها كالمعفة » وهي المرأة التي لا هي آيم أي لا زوج لها فتطلب الزواج ، ولا هي متزوجة فتستمتع بوجود زوج ، ويحجرها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها ، فيوضح الحق : أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا ، أو هناك ، لأن هذه المسألة ليست ملكاً لك ، ولكي أريد العدالة في الموضوعات الأخرى ، كأن تسوي في البيوتة والنفقة ، ومطلوبات أولادك ، وأن تعدل بين أرواحك في المؤاساة أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فأتانا لا أكذب به

وسبحانه حين يشرع خلفه أعلم بمن خلق ، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف يشأ عنها ميل ، وجعل له غرائز ، وحيلرات في الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على المين لما خلقه ، وبكته - جن وعلا - ينطق الميول لتتم بالبول مصالح الكون عتمة ، فحين يمسح القلب أن يحب ، يعلم سبحانه أن عبارة الكون تشأ بالحب . فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله في خلقه لما حمل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة ، وكل ما يترب عن ذلك من مشقات .

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوداً . ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة في تبيات تربيتهم . إذن فالحب له مهمة . والله لا يريد منا أن نمنع الحب لكنه يريد منا أن نحل معالجب الحب ، فنجعل للمحب مجالاته المشروعة لا أن ينطق الحب في الكون ليعربد في أعراض الناس .

إنك حين تجعل الحب موجهاً إلى خير لا يأتبك منه أو للناس شر . وعندما نظر - مثلاً - إلى دافع وعريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها في الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة في الحياة . ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف أن يتكر شيئاً أو يجترعه ويكتشفه حتى يربحنا نحن البشر ، وما فكر الإنسان في أن يستعمل البحار ليحمل عن الناس مشقت السفر ومشقات حمل الثقل . إن هذا الاكتشاف أراحت باختراع الباصحة أو القطار .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلى عريزة حب الاستطلاع فيبهي أن نجعلها

في مجامع المشروع فلا يجعلها نجساً على عورات الناس مثلاً ، وكذلك جعل الله ضريبة حب المال في الإنسان ؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل ، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يريد . كذلك غريزة الجنس جعلها الله في الإنسان ولها شعار ليحفظ بها النوع الإنساني . إنه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقاً يُلغ في أعراض الناس . إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة . واشترائع جاءت لتحمض لغرائز في مجال مهنتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة في غير المجالات التي حددها لها المنهج .

إذن قاليل أمر فطري في النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه : أنا خلقت الميل ليخدم في عبادة الكون ، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلموه في هذا الميل ، وحين تعددون الرواحات . لا أطلب منكم البعد عن كل الميل ؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلي ، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتعملوه في محاله القلبي فقط ، ولا يصح أن يتعدى الميل حد أحلكم إلى ميله القلبي .

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت ، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قلبك لتعطي من تحب خير غيره ظلياً ، وأبغض أيها العبد من شئت ، فلا يستطيع مقنن أن يقن للقلب أن يبغض أو يحب ، لكن يبغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض

ولنا الأسوة في سيدنا عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - حينما مر عليه قاتل أخيه ، ولفت نظره جليس له : هذا قاتل أخيك .

هنا قال عمر - رضي الله عنه - وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر - رضي الله عنه - . وعندما جاء هذا القاتل ليجلس عمر ، قال له سيدنا عمر . إذا أقبلت هل إلى وجهك عني ، لأن قلبي لا يرتاح لك فسأل الرجل : أو عدم حبك لي يمنعني حقاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا

قال الرجل : إنما يبكي على الحب النساء هذا عمر وهو الخليعة ، والرجل من الرعية . لكن عمر الخليعة يحاف من الظلم ، ويمثلك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليعة عمر - رضي الله عنه - فطرة الرضا لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمس حقوقه كمواطن .

إن الحق سبحانه وتعالى حينها يخلق ميول القلوب يضع أيضاً القاعدة : إياك أيها المؤمن أن تعدى ميل القلب إلى القلب ، ويكون ميل القلب كما تحب . كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالتبج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذي ينصب على شيء لا تحمكه وهو ميل قلبك . ولكن التبج يصح بك القواعد التي يسير عليها سلوكك فالبك . عليك أن تعدل في قسمه الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث . ولا تخضع ذلك لميل القلب ، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار .

ونرى بعضاً من الذين يحبون أن يظهروا بين الناس كفاهم للقرآن أو دعاة تهديد ، يركبون الموجة ضد التعدد . ويقول : قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعدد ، ويقف منه موقف الرافض له مدعياً أنه يفهم النص القرآني ، إننا نقول له : عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد ، هي ليست من التعدد في ذاته ، ولكنها تأتي من أن المسلم يأخذ بإحاطة الله للتعدد . ولا يأخذ حكم الله في العدالة . فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لا وجدنا مثل هذه الأزمة . ولذلك يقول لواحد من هؤلاء : إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل في التعدد فقال :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾

(من الآية ٢ سورة النحل)

ثم جاء في آية أخرى وقال : « ولئن تستطيعوا أن تعدلوا بين أبناء ولو حرصتم »

ونقول : إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن ، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف في هذه الآية عند قوله : (ولو حرصتم) إنما فرغ عن عدم الاستطاعة في العدل فقال : « فلا تميلوا كل الميل » إنه - سبحانه - فرغ عن عدم الاستطاعة في العدل فأمر بعدم الميل كل الميل . وتلك حكمة المشرع الأول الذي يعلم من خلق وكيف خلق . ولو أن الحق لم يفرغ على « ولئن تستطيعوا » لحاز هؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون ؛ لذلك نقول لهم انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح : عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أن أعلمه ، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل ميل وذلك باستطاعتكم . ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يسلبه .

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . وفي هذا القول أمر بالآلا يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهي المرأة التي لم يتحدد مصيرها ومسايرها في الحياة ، فلا هي مغبر روج متزوج ، ولا هي متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها ، بل عليه أن يعطيها حظها في البيوتة والعفة والملبس وحس الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفواً رحيماً » .

وقوله . « تصلحوا » دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التي جعلت الرجل يفسد في علاقته الزوجية ليقصي عليها وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة في المعاملة على ضوء ما شرع الله وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها في البيوتة والعفة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة صبية فالحق سبحانه يعمر ويرحم ، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو يهوى ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى ، ويجد الحق عفواً لما سبق ورحمياً به

وإن لم يستطع الرجل هذا ، ولا قبلت المرأة أن تنازل عن شيء من قسمها قرصية له تكن الخزفة - ها - أمراً واجباً فليس من المقبول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد ، ولا يمكن أن نربط الزوجين بمعلم الاتفاق إن كانت القلوب متنامرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا

إن الذي يقول . لا يصح أن نفرق بين الزوجين ، نقول له : كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل ؟ والرواج صنة مبنها السكنى والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترهم زوجاً على أن يعيش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترهم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟ إن التعريق بينهما في مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه ونعالي يبرق الزوج حيراً منها ويررق الزوجة خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا في واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الحديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة ، أما الذين تشبوا بمسألة عدم التفريق مع

استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام في هذا المجال . بهم يرددون ما كان عند أهل الغرب : من أن الزواج لا انفصال فيه .

إننا نرى العالم كله الآن مكل النصراني ولبيهود وغيرهم من الملل والنحل يلحاون إلى الطلاق ، لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق ، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام ، ولكن على أنه حل الوحيد لمشكلاتهم . فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جرئية من حريات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن تنبههم إلى عدم التسرع والمجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامي بأنها غير صالحة ، لأن الحق أرغم من لم يكن مسلماً على أن يغذ قضية إسلامية فهو الفائل :

﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ مَّعْيَتِهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾

وسبحانه عنده انفصل الواسع ، وهو القدر أن يرزق الزوج راحة صالحة تشبع كل مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يشبع كل احتياجاتها ويقل دماستها لو كانت دمية ، ويعمله الله صاحب عبود نرى نواحي الخير والجمال فيها . وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجاً بها وحلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشاقق إليه ، بامرأة أمينة عليه ، ويطمئن عندما يفترب عنها ن عمله ولا تملأ الهواجس صدره ، لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الخلف من الخيال

« وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ مَّعْيَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا » فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يبيع كل إنسان فسبحانه عنده كل ما يبيع كل الناس . وصليته صبح الله مليئة بالأدوية ، وبعض الخلق لا يفقهون في استخدام هذه الأدوية لملاح أمراضهم .

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيشا معاً ومما كارهان : لأبهما
افتقدا المودة ولرحمة فيما بينهما .
ومن بعد ذلك يعقب الحق بآية :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ
وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ
أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾

وسبحانه هو الذى يرمى الزوج إن افترق عن زوجته ، ويرضى الزوجة إن
افترقت عن زوجها ؛ لأنه - جل وعلا - خلق الدنيا التى لن تضيق بمطلوب الرجل أو
المرأة بعد الانفصال بالطلاق ، لله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق
الرجل امرأة هى خير مما فارق، ويرزق المرأة رجلاً هو خير مما فارقت ، فلا شيء
خرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء .

إننا كثيراً ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب
الإنسان إلى معامل التحليل ، ويقال أحياناً : المرأة هى السبب فى عدم النسل ،
أو : الرجل هو السبب فى عدم النسل ، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر ،
فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة ؛ لأن المسألة كلها
مرادات الله ، وليست أمور الحياة مجرد اكتئال أسباب تفرض على الله بل هو المسبب
دائماً فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَقِّ مَا يَشَاءُ يَبْطِلُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْتَابُهَا
لِىَسْ يَشَاءَ اللَّهُ كُورًا ۝ أَوْ يَرْزُقْهُمْ ذُرِّيًّا ذَكَرًا وَإِن تَبْتَغُوا مِنْ يَسَاءٍ عَقِيمًا

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

(سورة الشورى)

كم صورة إذن عند الخلق هذا الموقف ؟ يجب لمن يشاء إناث ، ويجب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، هي بأربعة مقادير تجري على الرجل والمرأة . وعندما يجب الله آدم من الإناث يكون سعيداً . وكذلك عندما يجب الذكور ، وعندما يجب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط . فالزوجة لمن أن يكون لها بنت . وإن يجب الخلق لأسرة حرة بين الإناث فقط ، فامرأة والرجل ينميان الابن ، وإن أعصاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التي تقر بها الميرون عادة . والحالة التي تقر بها الميرون عادة مؤخرة .

إن الحالة التي تزهد النفس فيها فالخلق يقرها إلى أوليات الهبة ، فقال أولاً : « يخلق ما يشاء » ، وبعد ذلك : « يجب لمن يشاء إناث » ثم ذكر عطاء الذكور ، ثم بأن بالحالة التي يكون العطاء فيها في القمة : « أو يزوجهم ذكراً وإناثاً »

وأخيراً يأتي بالقدر الرابع الذي يجزيه على بعض خلقه وهو : « ويجعل من يشاء عقيماً » .

ولماذا يُسر الإنسان بقدر الله حينما يجب الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يجب الله - سبحانه - الذكور والإناث . ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيماً ؟ أنتخذ أنت تأخذ القدر الذي عهوا ، وترد القدر الذي ليس من هواك ؟ إن مواقف الأربعة هي قدر من الله

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضى بها .

إنه سبحانه يخلق ما يشاء ويجعل من يشاء عقيماً ، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فانه قد يقر عينه كي أمر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور ، أو بالذكور والإناث معاً . وأقسم لكم لو أن إنساناً - أو زوجين - أخذوا قدر الله في الحقم كما أخذاء في غيره من المواقف السابقة برصاً إلا رزقهم الله ، لا أقول بسبب ونيات يرهقونهم في الحمل والتربية وغيره ، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد رباهم

غيرهم ، والذي يجعل الأزواج المنتقدين للإيجاب يعيشون في خيب ، هو أنهم في حياتهم سخطون على قدر الله - والعياذ بالله - فجعل الله حياتهم سخطاً . فهو الغافل في حديثه المسمى :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : يقول الله تعالى : (أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني بمشي ، أتته هرولة)^(١) .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول : « والله ما في السموات وما في الأرض » فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن ررق الرجل المفارق لوجهته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لها فيما دهم سبحانه الله قور العراق كحل لعدم توافق في حياتها معاً .. فهو سبحانه يعطى عن سعة للروح وعن سعة للروحة . وعليت أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل ما في السموات وكل ما في الأرض ، ثم اسأل نفسك هذا السؤال : من يقضي مصالحك كلها ؟

إنه الحق سبحانه الذي سخر أشياء ليست في طرق قدرتك ، أرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة ؟ أرغمت الماء أن يتبخر وينزل مطراً نقياً ؟

أرغمت الريح أن تهب ؟ أضربت الأرض لتقول لها : هذي ما أضعه فيك من بذر بالعصر اللازمة له والمحتاج إليها لتهج النبات ؟ كل هذا ليس في طرق إرادتك بل هو مسخر لك بأمر الله . وإن أردت الاستقامة في أمرك ، لكنت كالسحر في جعل الله لك فيه اختبار ولقلت لله : أنا أحب منهجك يا رب وما يطله مني سأنفذه قدر استطاعتي . فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج ومواعبه ، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسحور المجهور المسير .

« والله ما في السموات وما في الأرض » ، وهذا تذكير بأن كل شيء مملوك لله وفي

طاعته ، فلا نشد أيها الخليفة لله عن الكون ، فكل ما فيه بخدمك . ولتسأل نفسك . أنتعيش في ضوء منهج الله أم لا ؟ لأن الكون قد نسجم وهو مسخر لله ، ولم يحدث أى خلل فى القوانين الكونية ، وسبحانه القائل

﴿ وَأَسَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿١﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٢﴾ وَأَقِيمُوا الزُّلْزُلَ

بِالنِّصْطِ وَلَا تَحْسِرُوا فِي الْمِيزَانِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى : إن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى كون ، فالأشياء المسحورة لا يحدث معها خلل على الإطلاق ، ولكن الخلل إنما يأتى من اختيارات الإنسان لغير منهج الله

« ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، يوصح سبحانه : لقد وصينا الذين أنزلت إليهم المنهج من قبلكم ، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهي ، لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا مسجعين كالكون الذى تعيشون فيه ، ويصح كل شئ يسير منتظماً فى حياتكم ، ولم يقل الحق هذه القصيدة للمسلمين فقط لكنها قضية كبرى عامة جاء بها كل رسول : « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » .

ولم يقل شرعاً للذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ولم يقل : فرضنا ، إنما قال : « ولقد وصينا » ، وكلمة « وصية » تشعر المتلقى لها بحب الموصى للموصى « ولقد وصيت الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وتقوى الله تعنى أن تفعل أوامر الله وأن تتجنب نواهيه ؛ لحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكماً حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسحورون لفصايها المصلحة والخير .

ومن بعد ذلك يقول الحق « وإن تكفروا فإن الله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غياً حيداً » ومقابل الكفر هو الإيمان ، ومن يخرج عن الإيمان فانه غي عنه ، فلا تعتقلوا أيها المحاطون بمنهج الله أننى أستميلكم إلى الإيمان لأبى فى حاجة إلى إيمانكم ، لا ، لكنى أريد منكم فقط أن تكونوا عتمة سلباً ، مجتمعاً سلباً ، وإن تكفروا فيسطل الملك كله لله ، ويستظل حتى - ولو كنت متروكاً - فى قبضة

مرادات ربك . فليس تتحكم في موجد أو في ممت أو في مقدورات . فلكون ثابت وسليم . وجاء القرآن باللمت إلى انتظام الكون بقول الحق :

﴿ أَفَلَمْ يَسْطُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَرَقَهُمُ كَيْفَ بَيْنَهَا وَزَيْنَهَا وَمَا هُمْ بِفُرُوجٍ ①
وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَالْعِصَا فِيهَا رَوَىٰ وَثَبْنًا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ سِجٍّ ② تَنْصُرُهُ
وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ ③ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ خَشْبًا
وَحَبَّ الْحَبِيدِ ④ وَالنَّحْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نُضَيْدٌ ⑤ رِّزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا
بِهِ بَلَدَةَ مَيْمَنًا كَذَلِكَ أَنْخَرُوهُ ⑥ ﴾

(سورة ق)

وفي لحظة من اللحظات يأمر الحق كرواً من كونه ليحتل نظامه فتري الأرض المستقرة وقد قرزلت ، والتي قال عنها سبحانه :

﴿ وَأَنقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًى أَنْ يَمْيَدَ بِكَه ① ﴾

(من الآية ١٥ سورة النحل)

وسبحانه هو الذي يمكنها فيجعلها تضطرب ويحدث في موقع عيباً زراً ، فتندثر المباني التي عليه حتى تعهم أن الدنيا ليست بحكومة حكماً آلياً ، بل بحكومة بالأسباب ، وزمامها عارال في قيومية المسبب ، ونلتفت مرة إلى بعض من الزوايع من التراب وهي يعلق الميجال الجري كله بحيث لا يستطيع واحد أن ينظر من حلاله ، وهذا لمت من الله لنا يومص . لقد صممت هذه القرون بقدرتي ، ولن تخرح هذه القوانين عن طلاقة قدرتي .

ونرى بلاداً تحيا على أمطار دائمة تغدو لأرض ، فنجد الخضرة تكسو الجبال ولا نجد شيراً واحداً دون خصوبة أو خضرة أو شجير ، وقد يظن ظان أن هذه المسألة أمر آلي ، ويأتي الحق ليحري على هذه المنطقة قدر لجفاف فيسمع المطر وتصير الأرض الخصبة إلى جذب ، وتنفق وتهلك الماشية ويموت البشر عطشاً ، وذلك ليلمتنا الحق إلى أن المسألة غير آلية ولكنها مرادات مريد

وفي موقع آخر من الكرة الأرضية نجد أرضاً منبسطة هادئة يحلوها جبل جميل ،

وضجأة تتحول قمة الجبل إلى مومة بركان تلقى الحمم وتذف بالبار وتجري الناس لتتقد نفسها ، ولذلك عليها أن تعرف أن عقل العاقل إنما يتجلى في أن يختار مراداته بما يتفق مع مرادات الله ، وعلى سبيل المثال . . لم يؤت العقل البشري القدرة الذاتية على التنبؤ بالزلازل ، لكن الحمار يملك هذه القدرة .

« وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حليماً » وصدر الآية بالمقولة نفسها : « والله ما في السموات وما في الأرض » وذلك لتثبيت وتأكيد ضرورة الطاعة لمنهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون . ونجىء المقولة مرة ثانية في الآية نفسها ليثبت الحق أنه غنى ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة في الآية الواحدة ، ولكن قل : إن الحق جاء بها في صدر الآية لتثبيت معنى ، وجاءت في ذيل الآية لتثبيت معنى آخر ، سبحانه هو الغنى عن العباد :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ونجىء « والله ما في السموات وما في الأرض » لإثبات حقيقة أن يطيع العبد مخالفه ونجىء « الله ما في السموات وما في الأرض » في ذيل الآية لإثبات حقيقة غنى الله عن كل العباد . والمقولة نفسها تأتي في الآية التالية حيث يقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ

وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

ونجىء المقولة لثالث مرة لطمأنة الإنسان أن الله يضمن ويحفظ مقومات الحياة . فلن تنمرد الشمس يوماً ولا تشرق . أو ينمرد الهواء ولا يهب . أو تفسد الأرض عليك بعناصرها ، لأن كل هذه الأمور مسخرة بأمر الله الذي خلقك وقد خلقها وقدر فيها قوتك .

ولذلك يوضح ربنا . أما الوكيل الذي أكملكم وأكملكم وأغنيكم عن كل وكيل .

والوكيل هو الذى يقوم لك بمهامك وتجلس أنت مرتاح البال . والإنسان منا عندما يوكل عنه وكيلاً يقوم ببعض الأعمال بحسب الحاجة على الرغم من أن هذا الوكيل الذى من البشر قد يخطئ أو يضطرب أو يخون أو يفقد حكمته أو يرتشى ، لكن الحق بكامل قدرته يعلم أن العبد أنه الوكيل العاقر ، فلنطمئن إلى أن مقومات وجودك ثابتة ؛ فسبحانه مالك الشمس فلن نخرج عن تسخيرها ، ومالك المياه ومالك الريح ومالك عناصر الأرض كلها . وبإدام الله هو الذى هو الخلق فهو الحافظ على كل هذه الأشياء . وهو نعم الوكيل ؛ لأنه وكيل قادر وليس له مصلحة وتعالوا نقرأ هذا الحديث :

فقد ورد أن أعرابياً جاء فأناح راحلته ثم عقنها ثم صلى خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أتى راحلته فأطلق عقلاها ثم ركبها ثم نادى اللهم ارحمنى وعمداً ولا تشرك فى رحمتنا أحداً . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتقربون هذا أضل أم يعبره ألم تسمعون ما قال ؟ » قالوا : بل ، قال : « لقد حطرت^(١) رحمة واسعة . إن الله - عز وجل - خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنباً وإنسها وبهائمها وأشعر عندة نساء وتعين رحمة أتقولون هو أضل أم يعبره^(٢) . »

هو إذن كفى بالله وكيلاً وهو نعم الوكيل ، وهو يعلم عباده ويبرئ أنه - سبحانه - هو القيوم بمعنى المبالغة فى القيام ، إذ كل شيء فى الكون يحتاج إلى قائم ، لذلك فهو قيوم . ويوضح الحق لكل إنسان : أبى اجتهد فى العمل وبعد أن تعب بم ملء جفونك لأنى أنا الحق لا تلهى سنة ولا نوم . فهل هناك وكيل أفضل من هذا ؟ وكفى بالله وكيلاً ،

ثم بأتى الحق بعبثية أخرى تؤكد لنا أنه غنى عن الملئ ، فلا يكتفى أن يقول : إنه غنى وإنه خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن كثرت أياها الإنسان فالذنب عليك ، وإن آمنت بالإيمان أمان لك ، وأوضح : إياكم أياها البشر أن تعتقدوا أنكم خلقتم وشرعتم وأصبحتم لا سلطان لله عليكم . لا . فافه سبحانه يقول :

(١) حطرت : منعت وصحرت

(٢) رواد أحمد وأبو داود

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ
بِآخَرِينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ ﴿١٣٣﴾

وبعض العقادين للبصيرة من الفلاسفة قالوا . صحيح أن الله قد خلقنا ولكننا
خرجنا من دائرة نفوذه . لا ، بل سبحانه إن شاء لذهب بكم جميعاً وأن يآخرين ،
وما ذلك على الله بعزيز ، وهو القائل : « وكان الله على ذلك قديراً » .

حين نفراً ، كان « بجانب كلمة » الله « فهي لا تحمل معنى الزمن ؛ فالله قدير
حتى قبل أن يوجد مقدور عليه ، فلم يكن قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل
بصفة القدرة خلق الإنسان ، لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أخبار ، لذلك يظل
قديراً وموجود في كل لحظة ، وهو كن ولا يزال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٣٤﴾

ومادام الرسل قد أبلغوا الإنسان أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة فلم الغفلة ؟ ولم
لا تأخذ الريادة ؟ ، ولماذا نلجأ إلى صنف الدنيا فقط مادام الحق يملك ثواب الدنيا
من صحة ومال وكل شيء ، وإن اجتهد الإنسان في الأسباب يأخذ نتيجة أسبابه .
فالحق يقول :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ
مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ ﴿١٣٥﴾

ولم يقل الحق : إن « الآخرة » في مقابلة للدنيا ، وأن من يأخذ الدنيا ين يأخذ الآخرة أو العكس ، بل يريد - سبحانه - للإنسان أن يأخذ الدنيا والآخرة معاً ، فيها من تريد ثواب الدني لا تحرم نفسك بالحقيق من ثواب الآخرة . وكلعة « ثواب » فيها ملحظ : فهناك أشياء تفعل بك وإن لم تطلب منها أن تفعل ، وتتفع بعملها وإن لم تطلب من الأشياء أن تفعل . وهناك أشياء أخرى تفعل بحركتك ، فإن تحركت وسعيت وعملت فيها تعطك .

مثال ذلك الأرض ، فإن بذرت فيها تخرج الزرع ، واختلافات المس في الدنيا تقدماً وتأخراً وحضارة وبداءة وقوة وضعفاً إنما تأتي من القسم الذي يفعل الإنسان ، لا من القسم الذي يفعل للإنسان . ويسخر له ، وتقدم بعض البشر في الحضارة إنما جاء لأنهم بحثوا في الماعة والعناصر ، وأنجزوا إنجازات علمية هائلة في المامس ، فإن أردت أن تكون متقدماً عليك أن تتعامل مع العناصر التي تفعل لك ، والامم كلها إنما تأخذ حضارتها من قسم ما يفعل لها ، وهم والمتأخرون شركاء فقط فيها يفعل لهم ويسخر لصالحهم

وإن أردت الارتقاء أكثر في التحضر . فعلينا أن نذهب إلى ما يفعل ويسخر لنا وتعامل معه حتى يفعل لنا . كيف ؟

الشمس تمدنا بالضوء والحرارة ، وسنطيع أن نتعامل مع الشمس تعاملأ آخر يجعلها تفعل لنا ، مثلاً جتنا بعدسة اسمها « العدسة الامة » التي تستقبل أشعة الشمس وتتجمع الأشعة في بؤرة العدسة ، تحدث حرارة تشعل النار ، أى أننا جعلنا ما يفعل لنا يتحول إلى متفعل لنا أيضاً . ويسمون ذلك الطموح الانبعاثي . والمطر يفعل للإنسان عندما ينزل من السماء في وديان ، ويستطيع الإنسان أن يحوله إلى متفعل عندما يضع تورينات ضخمة في مسارات نزوله فينتج الكهرباء .

إذن فحضارات الامم إنما تنشأ من مراحل . المرحلة الأولى : تستخدم ما يفعل لها ، والمرحلة الثانية : ترتقى فتستخدم ما يفعل معها . والمرحلة الثالثة : تستخدم ما يفعل لها كمتفعل لها ، مثال ذلك استخدام الطاقة الشمسية بوساطة أجهزة تجمع هذه الطاقة ارتقاء مع استخدام ما يفعل للإنسان لينفعل مع الإنسان .

وأسمى شيء في الحضارة الآن هو أشعة الليزر التي نصنع شبه المعجزات في دنيا
اطلب . وكلمة « ليزر » مأخوذة كحروف من كلمات تؤدي معنى تضخيم الطاقة
بواسطة الانبعاث الاستحثاثي ، فكلمة « ليزر » - إذن - مثلها مثل كلمة « ليمتد »
فاللام من كلمة . والياء من كلمة ، والميم من كلمة ، والتاء من كلمة ، والدال من
كلمة ، وذلك لتدل على مسعى .

وترجمة مسعى « ليزر » هو تضخيم الطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثي فيه
انبعاث تلقائي هو مصدر الطاقة الذي يفعل للإنسان وإن لم يطلبه ، أما الانبعاث
الاستحثاثي فينتج عندما يحث الإنسان الطاقة لتعمل له شيئاً آخر . والانبعاث
التلقائي منمثل في شمس فتعطي ضوءاً وحرارة . وعندما جلس العلماء في المعامل
وصمموا العدسة التي تنتج هذه الأشعة أهاجوها وأثاروها وأخذوها ليصنعوا منها
هالة كبيرة . وهكذا أنتجوا أشعة الليزر التي هي تضخيم للطاقة عن طريق الانبعاث
الاستحثاثي ، ولأن العوان طويل لقد أخذوا من كل كلمة حرفاً وكونوا كلمة
« ليزر » .

إذن فالارتقاءات الحضارية تأل عن طريق تعامل الإنسان مع القسم الذي يفعل
للإنسان، واستحثاث واستخدام ما يفعل له بطريقته التلقائية ليعمل معه كأشعة
الشمس مثلاً .

وجئنا بذكر كل ذلك من أجل أن ستوضح آفاق قول الحق : « من كان يريد
ثواب الدنيا » . وكلمة « ثواب » إذن توحي بأن هناك عملاً ، فالثواب جزاء على
عمل . فإن أردت ثواب الدنيا ، فلا بد أن تعمل من أجل ذلك . فلا أحد يأخذ
ثواب الدنيا بدون عمل .

ومن عظمة الحق ولطفه وفضله ورحمته أن جعل ثواب الدنيا جائزة لمن يعمل ،
سواء آمن أم كفر ، ولكنه خص المؤمنين بثواب باق في الآخرة .

ولذلك يقال : « الدنـب متاع » . ويزيد الحق على ذلك : « فعند الله ثواب الدنيا
والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً » . ومن الحق أن يوجد طريق يعطي الإنسان
جزائين ثم يفهر همت على جزاء واحد .

وهنا ملحظ آخر : فحينما تكلم الحق عن ثواب الدنيا ، دل على أنه لا يد من العمل لأحد الدنيا ، ولم يذكر الحق ثواباً للآخرة ، بل جعل سبحانه الثواب للآتين . الدنيا والآخرة ، إذن فالذي يعمل للدنيا من المؤمنين إنما يأخذ الآخرة أيضاً ؛ لأن الآخرة هي دار جلاء ، والدنيا هي مطية وطريق وسبيل . فكان كل عمل بعمله المسلم ويعمل الله في بآله . فآله يعطيه ثواباً في الدنيا ، ويعطيه ثواباً في الآخرة .

ويذيل الحق الآية : « وكان الله سميعاً بصيراً » - إنك - ثواب الدنيا والآخرة لا يتأتى إلا بالعمل ، والعمل هو كل حدث يحدث من جوارح الإنسان ، القول - مثلاً - حدث من اللسان ، وهو عمل أيضاً ، والمقابل للقول هو العمل بالأعمال تنقسم إلى قسمين : إلى لأقول وإلى الأفعال . ولتوضح هذا الأمر نقرا قول الحق :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْصُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٨﴾ وَلَا تَكُلُونَ ﴿٩﴾ الْوَرَثَةَ أَكْلًا نَمًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وعندما سمع الأغنياء هذا القول عرفتوا سلوكهم ، ولما سمع الفقراء هذا القول ، كانوا قائلوا : نحن لا نملك ما نعطيهم به المسكين ، فكان في قوله تعالى : « وَلَا تَحْصُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء : أي حضوا خيركم على العطاء . أي أن الذي لا يملك يمكنه أن يكسب القى ليعطي المسكين ، والحض هو كلام . والكلام نوع من العمل .

والحق سبحانه وتعالى يستمر المؤمنين لينصروا دين الله فيقول :

﴿ يُؤْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

هو سبحانه أعفى الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون في المال وأسقطه عنهم ولم يحاسبهم عليه ، ولكن في الآية نفسها ما يحدد المطلوب من هؤلاء ، وهو أن ينصحوا لله ورسوله . إذن فقير القادر يمكنه أن يتكلم بعمل الخير ويذكر به الآخرين

وينصح به ، هذا هو معنى قول الحق . « وكان الله سميعاً بصيراً » فسيحانه يسمع قول من لا يستطيع ولا يحد لقدرته على سلوك ما ، وسيحانه بصير يرى صاحب كل سلوك .

إذن فلوب الدنيا يحتاج إلى عمل ، والعمل هو انفعال كل جارحة بمطلوبها ، فاللسان جارحة تتكلم ، واليد تعمل ، وكل جوارح الإنسان تعمل ، لكن ما عمل القلوب ؟ عمل القلوب لا يسمع ولا يرى . ولذلك قال الحق عن إخلاص القلب في حديث قلبي :

(الإخلاص سرٌّ من أسرارى استودعته قيب من أحببت من عبدي) (١) .

وهكذا نعرف أن نية القلوب خاصة بالله مباشرة ولا تدخل في اختصاص رقيب وعتيد وهما المكان المختصان برقابة وكتابة سيرك وعمل الإنسان ، ولذلك نجد الحق يصف ذاته في مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيف بعلم ما يدخل ويتخلل في الأشياء ، رحيم بكل شيء وقدير على كل شيء . ونجد الحديث الشريف يقول لنا :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دينا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هجر إليه) (٢) .

فالعمل يكون ماخوارج ، ومن الخواارج اللسان ، وحتى مصط هذه المسألة لفرق ما بين العمل والعمل . نقرأ وفيهم هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣)

(سورة الصف)

ونجد المقابل للقول هو الفعل . والكل عمل . وبأن يوع آخر من الأعمال ، لا هو قول ولا هو فعل ، وهو « النية القلبية » . وعندما يقول الحق : إنه كان سميعاً بصيراً ، فالمعنى أنه سميع للفون ، وبصير بالفعل .

(١) رواه أبو القاسم الفشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند صحيح ، والآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة كثيرة في هذا الباب .

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهم من أصحاب السنن

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ
شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أُولَٰئِكَ بِهَا مُلَاقَتْكُمْ
أَلْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

رسالة ينادى الحق عباده المؤمنين قائلا : يا أيها الذين آمنوا ، فكانه يقدم حثية الحكم الذى يأتى بعده ، ونحن نرى القضاء البشرى حين أن يطق بمطوق الحكم ، يورد حثيته ، فيقول : « بما أن المادة القانونية رقم كذا تنص على كذا ، حكما بكذا » إذن : فالحثيات تتقدم الحكم . وحثيات الحكم الذى يحكم به الله هي الإيمان به ، مثل قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة البقرة)

حيثية الكتابة هنا وفي أى حكم آخر هي إيمان العبد بالله رباً ، فليسمع العبد من ربه . وسبحانه لا يكلف كل الناس بالتكاليف الإيمانية ، ولكنه يكلف المؤمنين فقط . وهو يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فالمؤمن يدخل على الإيمان بقمة القسط ، فالقسط هو العدل ، والعدل أن يعطى العادل كل رضى حتى حقه . وحق الإله الواحد أن يؤمن به الإنسان ويعترف أنه إله واحد

إن قمة القسط - إذن - هي الإيمان . وملازم المؤمن قد بدأ إيمانه بقمة القسط وهو الإيمان ، فليجعل القسط سائداً في كل تصرفاته . وإياك أن تجعل القسط أمراً أو حدثاً يقع مرة وينتهى ، وإلا لما قال الحق مع إخوانك المؤمنين « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » .

ولم يقل الحق لك مع إخوانك المؤمنين : كونوا قائمين بالقسط ، بل قال : كونوا قوامين بالقسط ، أى أن المطلوب هو الاستمرارية للسلوك العادل . فصح بقول : « فلان قائم » و « فلان قوام » . ويعرف أن كلمة « قوام » هى صيغة مبالغة . وعلى ذلك يكون الأمر الإلهي لكل مؤمن : لا تقم بالقسط مرة واحدة فقط ، بل اجعله حصلة لازمة فيك ، وتنفعل القسط في كل أمور حياتك . والقسط كما علمنا من قبل في ظاهر أمره هو العدل ، وأيضاً الإقسط هو العدل .

وقد أحدثت كلمة « القسط » ضجة عند العلماء ، وقلنا تعليقا على ذلك . إن المسألة سيرة . . فقسط يقسط قسوطاً أى جار وظلم ، فإذا أذهب الإنسان الجور والظلم يقال : « أقسط فلان » أى أذهب الجور . إذن . « القسط » بكسر القاف - هو العدل الابتدائي ، لكن الإقسط هو عدل أزال جوراً كان قد وقع .

وهب أن أناساً جاموا لقاض فحكم بينهم بالعدل ، فهذا هو القسط ، وقد يستأنف أحد الطرفين حكم المحكمة الابتدائية ووجدت محكمة الاستئناف خطأ في التطبيق فأصدرت حكماً بإزالة الجور ، وهذا الحكم الذى من الدرجة الثانية اسمه إقسط . وهكذا ينتهى جدل العلماء حول هذه المسألة ، فالقسط عدل من أول درجة ، والإقسط يعنى أنه كان هناك جور فرفع ، لأنه مسبوق بهمة اسمها « همزة الإزالة » ، فيقال : أعجم الكتاب . أى أن الكتاب كان فيه عجمة ، أى كان بالكتاب شيء مستتر ونحنى عليهم نأزال ما به من عجمة وتسمى قواميس اللغة « المعاجم » ولواحد معجم أى يعطى معاني الألفاظ فيزيل خفاءها وكذلك معنى « أقسط » أى أزال الجور

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فأنتم أيها المؤمن قد فعلت بالعقل أول مرتبة في القسط ، ورددت الإيمان إلى الرب فهو المستحق له وعليك إشاعة كل القسط في كل سلوكك .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » ولا يكفى أن يكون المؤمن قائماً بالقسط فقط ، بل لابد أن تكون الشهادة لله . فإذا ؟ .

هب أن رجلاً كافراً بالله - والعياذ بالله - يقيم العدل بين الناس لكنه لا يدخل



بذلك العدل في حثية الإيمان ، فالتى بدخل في حثية الإيمان يكون قائماً بالقسط وفي
 بآله الله وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعة ولا لغاية ولا هوى
 ولا لغرض ، وإنما ليستقيم كون الله كما أراد الله ، وإلا لو حكم أحد بهوى لفسدت
 الأرض ، والحق يقول :

﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المؤمنون)

لذلك لا بد أن يكون المؤمن قواماً بالقسط وفي بآله الله ، ولذلك فالقيام بالقسط
 وحده لا يكفي ، ونحن نسمع : فلان عادل ولو أنه من ديانة أخرى غير الإسلام أو
 كان ملحداً . ونقول . هذا العادل من أى دين أو عقيدة غير الإسلام يأخذ ثناء
 البشر لكنه لا يأخذ ثناء الله ولا ثوابه ، ولذلك فالقوام بالقسط يجب أن يفعل بقصد
 امتثال أمر الله لينال الثواب من الله .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » والشاهد في العادة هو من
 يشهد لمصلحة واحد ضد آخر ، وعندما يقر الشاهد بذنب فهو قد شهد على نفسه ،
 والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجع الحكم ، والشاهد على نفسه يقر بما
 فعل ، والإقرار سبب الأدلة . وشهادة الشاهد تقدم للقاضي الدليل الذى يرتب عليه
 الحكم . وهكذا يشهد المؤمن على نفسه .

وهناك معنى آخر : أنه يشهد على نفسه ولو كانت الشهادة بجرم وبإلأ عليه ، وهذه
 المعاني من معطيات الإشاعات القرآنية ، فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار ، وقد
 لا تكون الشهادة على النفس بل قد تكون الشهادة واجبة عليه بزيادة لمصلحة غيره
 ولا يخلت فيها الشاهد من السلطان حتى وإن جار السلطان على المؤمن وأصابه بويل
 في نفسه أو ماله ، ومن الناس من أصابه ويل في نفسه أو أهله من السلطان لمجرد
 كلمة حق قيلت . فالسلطان قد لا يأخذ الإنسان بذنبه ، بل قد يأخذ أهل الإنسان
 بهذا الذنب . والحق يوصح للعبد : لا تهتم بذلك ولا تقولن سيعذبون العميال أو
 سيأخذون كل شيء ، إني أنا الموجود المتكفل بعبادى .

ويطلب الحق من المؤمنين . « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

والوالدين والأقربين ، وحين يشهد الإنسان على نفسه هلن يكون أموه أو أمه أو أحد أقاربه أعز منه .

ثم يدخل بها الحق إلى أن استحثاثت مخالفة العدالة تدخل فيها الأهواء ، وحين يرجع إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع ، فالمرجع هو هوى النفس ، ومشا الهوى أن يكون المشهود عليه غنياً فيحاف الإنسان أن يشهد عليه ، فيمنعه من غير ما .

ولذلك حلد الحق قوامه المؤمنين بالقسط والشهادة لله ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب ، ولا يصح أن يصح أحد من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه في البال ، بل يجب أن يكون البال مع الله فقط ، لذلك قال : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

وقد يقول قائل إن الهوى قد ينحاز إلى العنى طمعاً في ثرائه ، فلهذا يذكر الله الفقير أيضاً ؟ ونقول . قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمة بالفقير فيحدث الشاهد نفسه « أنه فقير ويستحق الرحمة » ؛ لذلك يحذرننا الحق من الانحياز إلى الغنى أو إلى الفقير .

ولا دخل للشهادة بثرء الثرى أو بفقر الفقير ؛ لأن العبد المؤمن ليس أولى أو أحق برعاية مصالح الناس من مخالفتهم - جل شأنه - ولذلك جاء بالخبيثة المدججة « فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أى أنك أيها العبد لم تحقق لحداً منها ولكن الله خالق الاثنين وهو أولى سبهما فليس لك أن تقيم شهادتك على الثراء أو على الفقر لأنك لست القيم على الوجود .

والذى يفسد ويشوش على العدل هو الهوى ، والمثل العربى يقول : « آفة الرأى الهوى » وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تعصد قدرتكم هل العدل وتجتنحوا بعيداً عنه . والتاريخ العربى يحنط لنا في ذاكرته حكاية رجل فاضل ذهب إلى الخديعة وقال به . أهنى من المقصاء ! فقال الخليفة : فمن يكون بلقضاء إذن وأنت العادل الذى شهد له كل الناس بذلك ؟

فقال القاضي : والله يا أمير المؤمنين لقد عرف الناس حق أن أحب الرطب - أي البلح - وبيننا أنا في بيتي وإذا بالخادم قد دخل ومعه طبق من رطب وكنا في بواكير الرطب ، ومن الطبيعي أن تكون النفس في طعة عليه مدامت تحبه ، ويتابع القاضي حكايته للخليفة : فقلت للخادم من جاء به ؟ فأجاب الخادم : إنه واحد صفته كذا وكذا فتذكرت أن من أرسل الرطب هو واحد من المتقاصين أمامي ، فرددت عليه الرطب ، ولما كان يوم الفصص في قضية صاحب الرطب ، دخل الرجل على معرفته فوالله يا أمير المؤمنين ما استويا في نظري هو وخصمه على الرغم من أني رددت الطبق . وهكذا استقال القاضي العربي المسلم من منصب القضاء .

ويتابع الحق سبحانه : « وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان ي عملون خيراً » . أن تلوا في الشهادة واللى هو التحريف . أي تحرفوا الشهادة وبعبورها ، فإن الله بما تعملون خير ، أو أن يتعرض الشخص عن أداء شهادة لأنه يخاف من المشهود عليه ، لذلك يقال : إنه حائف من المشهود عليه ؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له ، لهذا فهو يتعرض عن الشهادة ، وإن جاء للشهادة فهو يلف انكليات ويلوى لسانه بها ، لذلك يقول الحق : « وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خيراً » .

إذن فالذى يفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب ، لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف فعلمنا أن تعلم أن اليات عمل القلوب ، وبذلك صار العمل يقسم الآن أعلامنا إلى ثلاثة أقسام : قول لسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُوْلِهِ ءَالْحِكْمَةِ
الَّذِى اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَكُنُيْهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

بَعِيدًا ﴿١٣﴾

وقد يقول إنسان ما : كيف يقول الحق في صدر هذه الآية منادياً المؤمنين بالإيمان فقال : آمنوا ، وبعد ذلك يطالبهم بأن يؤمنوا ؟ ونقول : فرى في بعض الأحيان رجلاً يجرى كلمة الإيمان على لسانه ويعلم الله أن قلبه غير مصدق لما يقرب ، فتكون كلمة الإيمان هي حق صحيح ، ولكن بالنسبة لمطابقتها لقلبه ليست حقاً وتعرضنا من قبل لقول الحق :

﴿وَإِذْ جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا أَتَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾

(سورة المنافقون)

لقد شهد المنافقون أن رسول الله مرسل من عند الله ، هذه قضية صدق ، لكن الله العليم بما في القلوب يكشف أمرهم إلى الرسول فيقول :

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

لقد واضت شهادتهم بألستهم ما علمه الله . لكن القول منهم يخالف ما في قلوبهم ، فشهد الحق إنهم لكاذبون . ويعلم سبحانه كذبهم في شهادتهم ؛ لأن المصدق منهم لم يشهد صحيح الشهادة ؛ لأن الشهادة الحقة هي أن يواظب اللسان القلب . وبعض من الأعياء الذين يحاولون الاستدراك على القرآن قد عميت بصيرتهم عن الإحساس باللفظ والفهم لأسرارهم ؛ لذلك يتخبطون في الفهم فهم لا يعرفون صدق التلقي عن الله . وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، ولم يعرفوا أن كذب المدفوع لم يكن في مفارقة إن محمداً رسول الله ولكن في شهادتهم بذلك ، وكذبهم الله في قلوبهم ؛ فشهد الله ، فقد أعلنوا الإيمان بألستهم ولم تؤمن قلوبهم .

وإن أردنا أن نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة ، بأن يؤمنوا ، فهذا طلب للارتقاء

بزيده من الإيمان ، ولما في قول الحق المثل الواضح في حديثه للنبى ؛ قال الحق :
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالنَّاسُفِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَظِيمًا حَكِيمًا ﴾
 (سورة الاحزاب)

الحق هنا يقول للمتقى الأول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . « اتق الله » ، أى بأمره بالقيام دائماً على التقوى .

إذن معنى قول الحق . « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » أن الحق يحاطبكم بلغة الإيمان . ويريد أن يتصل بيمانكم بعد كلامه الحق مع إيمانكم قبل كلامه . فلا يقطع ولا يشقص خيط الإيمان أبداً . بل لا بد من المداومة على الإيمان ، وإلا يترك مؤمن هذا لشرف . فحين رأى واحد منكم منادى بوصف طلب منه الوصف بعده فليعلم أن المراد هو المداومة

وسلم أن الحق هنا يحاطب مؤمنين ومنافقين وأهل كتاب ؛ لذلك فلا بد أن تشملهم الآية : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » لأن الإنسان إن آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أن يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطوب الله إنما جاء به رسول ؛ لذلك فالإيمان بالله يقتضى أن يؤمن الإنسان برسول ، لأن مصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أن تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويديره . ولكن ما اسم هذا الإله ؟ لا يعرف الإنسان ذلك إلا عن طريق الرسول .

إن هذه أمور لا نعرف بالعقل ولكن لا بد من الإحصار بها ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جراء المؤمنين على حسن إيمانهم ، ولذلك لا بد من محبة رسول للملاحة .

إذن فلا بد مع الإيمان بالله أن تؤمن بالرسول . وملاحت أيها المؤمن قد آمنت برسوله فلا بد أن تؤمن بالكتب التى جاءت على لسان الرسول وهذه الكتب تقول لك إن هناك مخلوق لا ترهم وهم الملائكة ، والملاك يأتى بالوحى ويتنزل به على الرسول ، على الرغم من أنك لم تر الملاك فانت تؤمن بوجوده

إذن غالقمة الإيمانية هى أن تؤمن بالله ، ولازمها أن تؤمن برسول الله ، وأن تؤمن

بكتاب مع الرسول ، وأن تؤمن بما يقوله الله عن خلق لا تستطيع أن تدركهم كالملائكة . وهذا الأمر بالإيمان هو مطلوب من أهل الكتاب لأنهم آمنوا برسولهم ، ويطلب منهم أن يؤمنوا برسول الله ربما أنزل عليه

ويترك الحق سبحانه وتعالى خلفه أن يكشفوا وجوداً لكائنات لم تكن معلومة لأنهم تحدثوا بأن في الكون كائنات أبغنا الله بوجودها ولا ندركها وهم بالملائكة . إذن - فالدليل عندهم يحنهم ويدفعهم إلى الكشف والبحث

والمثال على ذلك الميكروب الذي لم تعرفه البشرية إلا في القرن السابع عشر الميلادي ، وكان الميكروب موجوداً من البداية ، لكننا لم نكن ندركه ، وبعد أن توصلت البشرية إلى صناعة المجاهر أدركناه وعرفنا خصائصه وخصائله وأنواعه ، وما زالت الاكتشافات تسمى إلى معرفة الجهد فيه ، هو جديد بالنسبة لنا ، لكنه قديم في وجوده .

ومعنى ذلك أن الله يوضح لنا . إذا تحدثت أيها الإنسان من صادق على أن في الكون خلقاً لا تدركه أنت الآن فعلياً بالتصديق ، فقبل اكتشاف الميكروب لو حدث الناس أحد بوجود الميكروب في أثناء ظلام العصور الوسطى ما صدقوا ذلك ، على الرغم من أن الميكروب مادة من مادة الإنسان نفسها لكنه صغير الحجم بحيث لا توجد آلة إدراك تدركه . وعندما اخترعنا واكتشف الأشياء التي تضاعف صورة الشيء مئات المرات استطعنا رؤيته ، فعدم رؤية الشيء لا يعنى أنه غير موجود .

فلذا ما حدثنا الله عن خلق الملائكة والجن والشيطان الذي يجري في الإنسان يجري الدم ، فهذا يجب أن يُصدق ويؤمن الكافر والملاحد بذلك ، لأنه يُصدق أن الميكروب يدخل الجسم دون أن يشعر الإنسان ، وبعد ذلك يتفاعل مع الدم ثم تظهر أعراض المرض من بعد ذلك ، وقد علم ذلك بعد أن تبين أسباب الرؤية والعلم فهذا كان الله قد خلق أجساماً من غير جسد مادة الإنسان فلماذا لم يصدق الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴿١﴾

(من الآية ١٣٦ سورة الصافات)

والمعروف أن الكتاب هو القرآن وهو عُلِّمَ عليه ، أم الكتاب الذي أنزل من قبل فسُـمِرَ أن المراد به هو جنس الكتاب أي كل الكتب التي نزلت على الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقال على « الـ » السابقة لكلمة الكتاب الثانية : « هي » الـ الجنسية والجنس كما نعلم - تحته أفراد كثيرة بدليل أن الحق سبحانه وتعالى يأتي بالمفرد ويدخل عليه الألف واللام ويستثنى منه جماعة ، مثال ذلك :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفْرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العصر)

يجد « الإنسان » هنا مفرد ، ودخلت عليه « الـ » ، واستثنى من الإنسان جماعة هم الذين آمنوا ، وهذا دليل على أن « الإنسان » أكثر من جماعة . ولذلك يقولون : إن الاستثناء معيار العموم . أي أن اللفظ الذي استثنينا وأحذفه وأخرجنا به لفظ عام .

ويطالب الحق بالإيمان بالكتاب أي القرآن ؛ فهذا أطلق كلمة « الكتاب » انصرفت إلى القرآن ؛ لأن « الـ » هنا (للعلية) ، مثال ذلك ، يقال : « هو الرجل » ، وهذا يعنى أنه رجل متفرد بآراء الرجولة وشهامتها وقوتها ، فإذا أطلقنا الكتاب فهي تعنى القرآن ؛ لأن كلمة الكتاب غلب إطلاقها على القرآن فلا تنصرف إلا إليه ، أو أنه هو الكتاب الكامل الذي لا نسخ ولا تبديل له ، فـ « الـ » هـت للكمال أما الكتاب الذي أنزل من قبل فهو يشمل التوراة والإنجيل وسائر الكتب ، والصحف المنزلة على الأنبياء السابقين .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » أي إن آمن بالله وكفر ببقية ما ذكر في الآية فهو كافر أيضاً

وكان بعض اليهود كعبداً لله بن سلام ، وسلام بن أخته ، وسلمة بن أخيه ،

وأما وأسيد ابني كعب ، وثعلبة بن قيس ، ويامين بن يمين قد ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا . نحن يؤمن بك وكتابتك وموسى والنوراء وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب وأرسل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن ويكل كتاب كان قبله » فقالوا : لا نفعل فتزلت فأمنوا كلهم^(١) .

والخطاب والبدء يشمل أيضا المنافقين . أي يأبى الذين آمنوا في الظاهر مفاقا ، أخلصوا الله واجعلوا قلوبكم مصابة لأستتكم ، فالنداء - إذن - يشمل المؤمنين ليستدبوا ويستمروا على إيمانهم ، ويضم الكافرين من أهل الكتاب ليؤمنوا بكل رسول ويكل كتاب ، وهو أيضا للمتففين ليخلصوا في إيمانهم حتى تعاقب وتوافق قلوبهم ألتتهم

إذن فمن يكفر بأي شيء ذكره الله في هذه الآية فقد كفر بالله .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » و« ضل » أي سار على غير هدى ، فعندما ينزه الإنسان عن هذه المقصود يقال : ضل الطريق ، والنسب « ضل ضلالاً بعيداً » هو من يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهلك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والغرى في متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والضلال متحولون في نقطة البداية ، لكنهم هريقان مختلفان ، فأحدهما يسير في طريق الإيمان وهو متب دائماً إلى غايته وهي رضا الله بتطبيق مطلوباته ، ويحذر أن يخالف عن أمره ، والآخر انحرف من البداية فوصل إلى متاهة الكفر .

ويقول الحق من بعد ذلك .

(١) الكشاف لجام الله الرشدي

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا ثُمَّ ءَرَادُوا كُفْرًا لَّعَنَ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ ١٣٧ ﴿

وهؤلاء هم المكفرون الذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر وقال الله عنهم .
﴿ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارُ
وَءَاكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ١٣٨ ﴿

(سورة آل عمران)

إذن ، هم حولوا الإيمان من عقيدة إلى مجرد كلمة تقال ، وكانوا في حاية الحرص
على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة . أما
قلوبهم فهي مع الكفر ؛ لذلك أرادوا أن يلبسوا في المطلق ويتلصوا به .

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَّا قُلْ لَّ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ
فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

ويعضد بهم الحق أمام أنفسهم . وبالله عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان
ولكن قلوبهم لم تؤمن ويخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاعاً عن الله : « قل لم
تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . وكانوا أسبق الناس إلى
صفوف الصلاة ، وعندما فضحهم الرسول وأوضح لهم : أنتم لم تؤمنوا ولكنكم
أسلمتم فقط ها عرفوا أن محمداً قد عرف خبايا قلوبهم بلاغاً عن الله

ولو قالوا : إن محمداً هو الذي عرف هذه الخبايا لما اقتصر اعترافهم به كرسول ،
بل دُهِبَ لها في الغنى وأرادوا أن يجعلوه إلهاً . ولكن رسول الله بحسب الأمر : وبين
هم أن الله هو الذي أبلغني ، بدليل أنه أبر أن يقول لهم : « قل لم تؤمنوا » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقر بأن هذا الأمر ليس فيه شيء من عبث بل هو مأمور بالبلاغ عن الله ربه . وفي عصرنا قال برنارد شو : إن الذين يكتذبون أن محمدا رسول من عند الله يريدون أن يجعلوه إلهاً ، فمن أين أتى بهذه لأشباه التي لم تكن معلومة في عصره . . . ٩ .

إن الناس جميعا مطالبون بالتصديق بمحمد رسولاً من عند الله ؛ لأن قال عن أشياء لا يمكن أن يقوها واحد من البشر والرسول صلى الله عليه وسلم بذاته يوضح بحسم هذا الكلام ويبين أن هذا ليس من عبثي ، لكنه من عند الله .

« قالت الأعراب أما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » وهذا كشف مخرج ومنطق لما في قلوبهم ؛ لهذا قال السامعون للآية : الحمد لله أن هناك أملاً في أن يدخل الإيمان قلوبنا . وقد دخل الإيمان في قلوبهم بالفعل لأن كلمة (ما) تعيد معنى الإيمان عنهم في الزمن الماضي ولكنها تفيد أيضاً توقع وحصول الإيمان منهم وقد حصل .

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم أسوأ ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً ، أي ماتوا على الكفر ، أو آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعيسى ، وجاء أناس آخرون آمنوا بعيسى ، وازدادوا كفراً بعدم الإيمان بمحمد ، فليس من بعد محمد صلى الله عليه وسلم استدراك .

ويخبرنا سبحانه بمصيرهم : « لم يكن الله ليغيرهم ولا ليهديهم سبيلاً » لأنهم دخلوا في الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان . ومعنى سلوكهم أنهم قصدوا الفتنة لأن الآخرين سيأخذونهم وقد أسوأ ، وسيأخذونهم وهم يكفرون ، وسيعملون ذلك بأنهم عندما تعمقوا في المسائل العقيدية كفروا وهم يفعلون ذلك ليهوتوا من شأن الإسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتِّبِ أَصْرًا بِالَّذِي أُرِيَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ السَّارِ
وَأَكْفَرُوا أَهْرَ لَعَنَهُم بِرَحْمَتِ ۝٧٢﴾

هم إذن يقصدون المعتن بظاهر الإيمان ثم إعلائهم الكفر وفي ذلك تشكيك للمسلمين ، ويكون مصير من تردة بين الإيمان والكفر ، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفرا بكون مصيرهم ما جاء في قوله . « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » فهم قد دخلوا في الخيانة العظمى الإيمانية التي يحكمها قوله الحق .

﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

(س الآية ٤٨ سورة النساء)

ويقول الحق عنهم هنا : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » . والهداية - كما نعلم - ترد بمعان متعددة . فقد يكون المقصود منها الدلالة ، فون شئت تدخل الإيمان وإن شئت لا ، ولا شأن لأحد بك . والمعنى الثاني هو المعونه ، أي يقدم لك الله ما يهديك بالفعل . وعندما تعرض القرآن لهذه المسألة قال :

﴿ وَأَمَّا نُمُودُ فَنَهَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ مَصِيعَةُ الْعَذَابِ

أَهُؤُلَاءِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فسبحانه هنا قد دهم على الهداية ، ولم يقدم لهم الهداية الفعلية لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فكان الله قد دى على المنهج الذي يوصل الخير ولير لكل الناس ، فمن أقبل بإيمان فالحق يملئه بهداية المعونه ويعاونه على ازدياد الهدى ، مصداق لقوله :

﴿ إِنَّهُمْ قَتِيَّةٌ أَمْوَارِهِمْ وَزَادَتْهُمْ هُدًى ﴾

(س الآية ١٣ سورة الكهف)

ولا يريد لهذا المثل أن يغيب عن الأذهان ، لذلك أركبه دانيا . شرطى المرور الواقف في بداية الطريق الصحراوي يسأله سائل : داخب إلى الإسكندرية عن الطريق ؟ فيدله على الطريق الموصل للإسكندرية ، هنا قام الشرطى بالدلالة ، ثم شكر الرجل الشرطى وحمد الله على حسن شرح الشرطى : ويحسن ويشعر رجل المرور بالسعادة ، ويحضر الرجل المسافر من عقبات الطريق ، ويركب معه ليشير له على تلك العقبات حتى يعاودها . أى أنه من بعد الدلالة قد حدثت المعونة . كذلك الحق يدل النمن على الإيمان وعلى المنهج ، فأنهى يؤمن به يساعده ويخفف عليه

الطاعة ، قال الحق سبحانه في شأن الصلاة :

﴿ وَإِنَّا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْغَاسِقِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

إذن نحن نجد الهداية على مرحلتين : هداية الدلالة ، وهداية الممونة .

ويريد الحق لقضية الإيمان أن تكون قضية ثابتة متصلة بحيث لا تطفو إلى العقل لتناش من جديد . فبدأ الإيمان لا يتغير في مراكب الرسائل من سيدنا آدم ، إلى أن ختمها بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
وقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَحْكُمُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الَّذِي قَدْ ضَلَلْنَا بَعِيدًا ﴾

(سورة النساء)

إذن سبحانه يريد من المؤمن أن يؤمن باللقمة العليا ، وهي الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه كتاباً ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه رسالة على لسان أي رسول . والذين يؤمنون مرة برسول ثم يكفرون برسول آخر ، أو الذين يؤمنون برسول ثم يكفرون بنسبة الصحابة أو الولد لله ثم يزادون كفراً بالخاتم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم مجال مع الهداية إلى الله ؛ لأن الإسلام جاء بالهداية الخاتمة وليس للسوء من بعد ذلك استتراك ، وليس لأحد من بعد ذلك استتراك ، ولذلك قال في أول الآية : « آمنوا ثم كفروا » . ثم آمنوا . ثم كفروا . وقال في آخر الآية : « ثم ازدادوا كفراً » أي أنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وليس هناك مجال أن ينتظروا رسولاً آخر لينسخوا كفرهم بمحمد ويؤمنوا بالرسول الجديد .

ويوضح سبحانه : لم يكن الله ليهديهم لأنهم هم الذين صرفوا أنفسهم عنه ، فلهذا لا يجمع الهداية ممن قدم يده ومثما إليه ، بل يحلونه في هدايته ، أما من ينقص يده من يد الله فلا يلبسه على الإيمان فانه غنى عنه ، وملام الله غنياً عنه فيظل في ضلاله ؛ لأن الهداية لا تكون إلا من الله . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى هداية

أخرى ولا هادى إلا هو . ولم يكن الله يهديهم سبيلاً إلى الجنة ؛ لأنهم لم يقدموا
الأسباب التى تؤهلهم للدخول إلى الجنة .

ولذلك يشرحها الله فى آية أخرى :

﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلْ سُبُلَ طَرِيقِهِمْ إِلَّا ظَرْفَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ﴾

(سورة النازعات ١٦٨ ومن الآية ١٦٩ سورة البقرة)

وهكذا نجد طريق جهنم معبداً مُدَّلاً بالنسبة لهم .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتى من أصيل فى الإيمان ، بل تأتى
من متلون فى الإيمان ، تبدل له أسباب فيؤمن ، وبعد هذا تبدل له أغيار فيكفر .
وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . فيقول الحق : « بشر المنافقين بأن
لهم عذاباً أليماً » .

ونحن نعلم أن المنافق هو الذى جمع بين أمرين : إعلان إسلام ، وإبطان كفر .
والنفاق مأخوذ من باغواء البربوع ، وهى إحدى جمحوره التى يستتر ويحتفى فيها ،
والبربوع حيوان صحراوى يحادى من يريد به شر فيفتح لنفسه بايين ؛ يدخل أمام
الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر . فإذن انتظره الرجل على باب فالبربوع يخرج
من الآخر .

« بشر المنافقين » والبشارة هى الإخبار بشئ يسر سياتى ربه بعد . وهل المنافقون
يبشرون ؟ لا . إن البشارة تكون بخير ؛ لذلك نتوقع أن ينشر المنافقون
ولا يبشرون ، ولكن الله فى أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب . فلو قال :

أنذرهم بعذاب أليم ، لكان الكلام محتملاً ، فهم - كفاهين - مستعدون لسماع الشر ولكن الحق يقول : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » وذلك هو التهمك والاستهزاء والسخرية ، وهي من معيشت البليغ على أداء مهمته البلاغية . ونسمع المفارقات أحياناً لتعطيتنا صورة أصدق من الحقيقة فإذا جئت إلى بخيل مثلاً ، وقلت له : مرحباً بك يا حاتم . ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء ؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائي أصل الكرم . وبذلك نقلت البخيل نقلتين : نقله من وضعه كبخيل ، ثم السخرية منه ؛ لأن قولك لبخيل ما : يا حاتم هو تفريع وتهمك وسخرية واستهزاء ، لأنك نقلته من وصف خسيس وحفير إلى وصف مقابل هو سام ورفيع وعظيم تخفيرا له واستهزاء به ، ومن المقارنة يبدو العارق الكبير . وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً ، وقلت مرحباً بك يا قزم . هذه هي المقارنة ، كما تقول لقصير : مرحباً يا عارذ . أو إذا جئت لطويل لتصافحه ، فيجلس على الأرض لتسلم عليك . هذه أيضاً مفارقة وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتنجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هي السخرية والتهمك .

وهذه المفارقات إنما تأتي للأداء البلاغي للمعنى الذي يريد التكميم ، فقول الحق : « بشر المنافقين » معناه . أنكم أيها المنافقون قد صنعتم لأنفسكم ما كنتم تحبون ، وكأنكم ما كنتم تحبون لأنفسكم تحبون العذاب . وما كنتم قد صنعتم لأنفسكم تحبون العذاب ، فإنا أبشركم بأنكم ستعذبون . والذي يباقي ألا يريد من ذلك غاية ؟ لذلك يصور له الحق أن عذبه هي العذاب ، فقال الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

إنك حين تريد تصعيد أمر ما ، فأنت تنقل مخاطبتك من شيء إلى الشيء المقابل وهو النقيض ، مثال ذلك : إنسان عطشان لأنه مجو أو مجو وأراد أن يشرب شراب ماء ، من الممكن أن يقول له الخارس : لا . ويجعله يئس من أن يأتي له بكوب ماء ، أما إن أراد الخارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتي بكوب ماء ويقربه منه ، فإذا من السجين يده لياحد كوب الماء فيسكب الخارس كوب الماء على الأرض هذا هو تصعيد العذاب . وحين يقال « بشر » فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً

يسر ، فإذا قال الحق : « بأن لهم عذاباً أليماً » فمعنى ذلك أن الغم يأتي مكرماً . فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً ، ثم أنهاها بالندارة .

وعلى سبيل المثال - والله المثل الأعلى - يقول الأب لابنه : استذكر يا بني حتى لا ترسب ، لكن الابن يستمر في اللعب ثم يقول الأب : يا بني لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر . ولا يأنبه الابن لكلام الأب ، ثم يأتي الامتحان ويذهب الأب يوم إعلان النتيجة ، فيكون الابن راسباً ، فيقول الأب لابنه : أعتثت لقد رسبت في الامتحان ! فقله أعتثت تسط نفس الابن ؛ لأنه يتوقع نجاح غير سر ، ويسمع بعدها لقد رسبت تعطيه الشعور بالقبض .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » ، بشر لها علاقة بالدلول الاشتقاقى ، لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه ، فإذ كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط ، وتعكس البشرة انفعالات للنفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عوس ونهم ، فالبشارة تصلح للإخبار بخير يسر ، أو بخير يجزن ويسر ، ولكنها غلبت على الخبر السار ، وحصت الندارة بالخبر الذى يجزن وتنقص النفس له .

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » . والبشارة - كما قلنا - نوحى بأن هناك حسراً ساراً ، فبأن الخبر غير سار . وكما يقول الحق في آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنه يصعد العذاب معهم :

﴿ وَإِنْ يَسْمِعُونُ يُقَالُوا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ساعة نسمع « وإن يستمعوا يقولوا اماء » نفهم أن برداً يأتي لهم أو رحمة تنب عليهم ، ولكن الإغاة التى نأى لهم هي .

﴿ كَانْتَهُن ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وسأله السامع أو القارىء هل هذه إغاثة أو تعذيب ؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب ؛ فقلبه الذى يعطى لهم كاهن يصعد الألم فى نفوسهم

والعذاب - كما نعام - يأخذ قوته من المعذب ، فإن كان المعذب ذو قوة محدودة ، كان العذاب محدوداً وإن كان المعذب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود ، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوى وهو الله فكيف يكون ؟ والعذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة ؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتعبها ، والعذاب العظيم هو العذاب الذى يبلغ القمة ، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعذب يتجلد ، وعذاب الحق يهوى قلعة متلقى العذاب فلا يقدر أن يكتم الألم ؛ لأن درجه تحمل أى إنسان منها تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم ، ومع العذاب العظيم ، نجده أليماً أيضاً ، فيكون العذاب الأليم العظيم مؤلماً للهيئة ، لكن النفس قد تكون متجلدة متأينة ثم تنهار ، حيث يكون العذاب مهيباً .

ولأن المنافقين والكمار غارقون فى المادية أثر الله وصف العذاب بأنه أليم لأن الإيلام يكون للهيئة ، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى بعض الأوصاف للمنافقين فيقول :

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَهُوا فِيهِمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ

جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

وأول مظهر من مظاهر العاق أن يتخذ المنافق الكافر ولياً له ؛ يقرب منه ويوده ، ويستمد منه النصرة والمعونة ، والمؤانسة ؛ والمجاساة ، ويترك المؤمنين . وعرفنا أن كل من الأعمال البشرية لا بد أن يحدث نهاية تُطْلَقُ منه ، ولا يتجرده العمل عن

العناية إلا في المجنون الذي يعمل الأعمال بدون أي غاية ، لكن العاقل يفعل الفعل لغاية ، وهدف يرجوه . والمنافقون يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأي غاية ولأي هدف ؟

ويكشف الحق هذه المسألة فيوضح : أنهم يتخون العزة من الكافرين ، ولذلك اتخذوهم أولياء من دون المؤمنين . وينصهم - جل شأنه - إلى جهلهم ، لأنهم أخذوا طريقاً يوصلهم إلى ما هو ضد العناية .

فماذا سيتخون العزة فليعرفوا أولاً ما العزة ؟ العزة مؤخوة من معنى مادي وهو الصلابة والشدّة . فالأرض الرّار أي الصلبة التي لا ينال منها المعول ، ثم نقلت إلى كل شديد ، فكل شيء شديد فيه عِرة . والمراد بها هنا : الغيبة والنصر ، وكل هذه المعاني تتضمنها العزة .

فيذا قيل : الله عزيز . أي أنه سبحانه وتعالى غالب على أمره شديد لا يمكن أن يقدر على محله أو مكروه أو قوته أو عقابه أحد . وإذا قيل فلان عزيز أي لا يُعَلَب ، وإذا قيل هذا الشيء عزيز أي نادر ، ومادام الشيء نادراً فهو نفيس ، والمعدن النفيسة كلها أحدثت خطتها من مدرتها وقتلتها .

وما دعمتم أيها المنافقون تطلبون العزة ، ألا تطلبونها من عنده ؟ . أتطلبونها من طاعتكم ؟ . وعندما تطلبون العزة فذلك لأنكم لا تملكون عزة ذاتية ، فلو كانت عندكم عزة ذاتية لما طلبتم العزة من عند الكافرين . وهذا دليل على فقدانهم العزة لأنهم طلبوها من مساوئهم من الأعيار ، فالنافقون شر ، والكفار بشر ، وبما أن كل البشر أعيار ، فمن الممكن أن يكونوا أعماء ليوم وأذلاء غداً ، لأن أسباب العزة هي شئ أو قوة أو جاه ، وكل هذه من الأعيار .

فأنتم أيها المنافقون قد طلبتم العزة ممن لم يزد عليكم ، وهو من الأعيار مثلكم ، ولم تطلبوها من صاحب العزة الذاتية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التي تفيدكم عن الطلب من أعيار مثلكم فلتذهبوا إلى مصدر العزة للمدى لا تناله الأعيار وهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك أوضح لهم الحق إن أردتم أن تتعلموا طلب العزة فعليكم أن تغيروا من أسلوبكم في طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتتمون عدوهم العزة وهم من أهل الأعيار ، والأغيار تبدل من يوم إلى يوم ، فإن كان الكفار أعتياء اليوم ، فغداً لن يكونوا كذلك ، ولقد رأيتم كبشر أن العنى يفتقر ، ورأيتم قوماً قد صعب ، وطلب العزة من الأغيار يعني أنكم غير أمراء ، ومع ذلك فأنتم تطلبون العزة من غير موضعها . فإن أردتم عزة حقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عرته وهو الحق سبحانه وتعالى : « فإن العزة لله جميعاً » .

وفي هذا القول تصويب لطلب العزة . ولطلب كل إنسان العزة إيماناً بالله ، سبحانه الذي يهب العزة ولا تتغير عرته : « فإن العزة لله جميعاً » . وكلمة « جميعاً » هذه دلت على أن العزة لها أفراد شتى : عزة عنى ، عزة سلطان ، عزة جاه ، فإن أراد واحد أن يعرفها ويعلمها فهي - جميعاً - في الحق سبحانه وتعالى .

والمؤمنون في عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ، وقد أسبانا الله بالعبودية له عن أن ندل لأناس كثيرين . وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لعنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح .

إذى ساعة يقول الحق : « فإن العزة لله جميعاً » فمعناها : إن أردت أيها الإنسان عزاً ينظم ويفوق كل عز فإذهب إلى الله ، لأنه سبحانه أعزنا نحن خلقه ، وعلى سبيل المثال نجد أن الحق لم يجعل الفقير يقتصر ، بل قال :

﴿ مِنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

وها يرفع الله عبده الفقير إلى عل درجات العزة العبد الفقير لا يقتصر ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء : إنك تسأل الناس ، ألا نعف ولا تسأل ؟ . فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به . وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له ، فهو يعتز بقوة هذا الكائن وهو قوة ممنوحة له من الله وقد يستردها - سبحانه -

منه . بما بالناس بالقوة اللاتناهية لله ، وكل قوة في الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عرة هي لله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا مِيعَتُكُمْ
آيَاتُ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ
حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِمْ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٦٠ ﴾

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حتى لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم ، وبذلك يحصى الله وحدة أهل الإيمان ، ويصونهم من أي تهجم عليهم ، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا ، فهامت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فلياك أن تهادن من يتهجم على الدين ، لأنك إن هادنته كان أعز في نفسك من الإيمان ، وهامت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فلتحجم هذا الإيمان من أن يتهجم عليه أحد ، فإن احترأ أحد عن الإيمان بشيء من النقد أو السخرية أو الرمي بالباطل . . فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس .

وكان المؤمنون في البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف في وجه الكافرين أو المنافقين ، فساعة يرك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو في آيات الله ، فالكافرون والمنافقون يحملون بذلك السلوك أن يجرس الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء . أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون في الإيمان . . فهذا يعنى أنهم أعز من الإيمان ، والكافرون قد يحملونها حديثاً مستمراً لسر حور الإيمان في قلوب

المسلمين أما حين يرى الكافر مؤمناً يبت ويغفر من أى حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه .

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هي إشارة إلى حكم سبق ، ونعرف أنها نزلت في المدينة ؛ فالحق يقول : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل في مكة ؛ ويقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٨)

(سورة الأنعام)

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً في البداية ، وهو الحكم الذي نزل مع الكافرين في مكة ؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين ، ولم يكن المنهج الإيمان قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين ، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين ، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم إن ولغ هؤلاء الكافرون في الدين بالباطل فتركوا لهم المكان .

وسببنا هنا في سورة النساء بذكر المؤمنين بأن حكم ترك الكافرين لحظة الدخول في الإيمان هو حكم عند مغفول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كنتم أيها المؤمنون مع أشركين عبيد الأصنام ، والحكم مستمر أيضاً في المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب . والتكليف من الله ، هو تكليف بما يهبطه احسن البشرى ؛ فالإنسان عرضة لأن يسي ، وعليه بمجرد أن يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون في آيات الله . وقد نزل في القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات الله ويسهرى بها فبيعادروا المكان ، ونلاحظ أن الذي نزل في الآية الأولى ليس سماعاً بل رؤية .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ويأتي انسياق في الآية التي نحن بصدد خواتمها : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، والمهم هو مجرد العلم سواء كان رؤية أو

سماعاً بأهم يخوضون في دين الله ، فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام في يرى ، وقد يخوضون بما يسمع ، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللعز من قور رؤيتهم لمسلم .

وقوله الحق : « فلا تفعلوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » ، يوحى أنهم إذا ما خاضوا في حديث غير الخوض في آيات الله فليقع المؤمنون معهم . وكان ذلك في صدر الإسلام ، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب ، ولا يستطيع المجتمع الإسلامي آنذا أن يتميز برحلته ، فلو قال لهم الحق عل لسان رسوله : لا تفعلوا مع الكافرين أو المشركين فوراً . لكان في ذلك قطع لمصالح المؤمنين .

وكلمة « يخوضون » تعطى معنى واضحاً جسياً ، لأن الأصل في الخوض أن تدخل في مائع . أى سائل ، مثل الخوض في المياه أو العير ، والقصد في الدخول في سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية .

وساعة نخوض في مائع فالمائع لا ينصل حتى يصير جزءاً هت وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل مجرد أن يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أن تصنع في المائع طريقاً لك . أما إذا دخل الإنسان في طريق رملٍ فهو يزيح الرمال أولاً ويفسح لنفسه طريقاً . ولا تعود الرمال إلى سد الطريق إلا بفعل فاعل ، وأنصوا من هذا المعنى وصف الأمر الباطل بأنه خوض ؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتكك ، والجبال في الباطل لا يتهى إلى نتيجة

إذن « الخوض » هو الدخول في باطل ، أو الدخول إلى ما لا يتهى الكلام فيه إلى غاية . ويقرر العلماء . لا تخوضوا في مسألة الصلوات العلية ؛ لأنه لا يصح الخوض فيها ، والكلام فيها لن يتهى إلى غاية . ولذلك يقول الحق في موقع آخر بالفؤان الكريم :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ

الَّذِي كَتَبَ الَّذِينَ حَاةَ بِهِ مَوْعِنَ يُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْلُوهٗ قُرْآنَ الْيُسُ

تُبَدُّوْنَهَا وَيُحْفَوْنَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَالًا تَلْعَسُوا أَنْتُمْ وَلَا آتَاؤُكُمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ
ذُرِّيَّتَهُمْ فِي غَرَضٍ لَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٤﴾

(سورة الأنعام)

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذي أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذي
أنزل من قبل التوراة فأخفيت بعضها وأظهرتم البعض الآخر ، ثم بعد البلاغ اتركهم
يخوضون في باطلهم

وفي موضع آخر يتكلم الحق من الخوض :

﴿يَحْضُرُ الْمُتَعَمِّقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُبَيِّنُ لَهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَزِيدُوا
إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ
أَبِيقُوا زِيَادَتِيهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾﴾

(سورة التوبة)

إذن الخوض هو الدخول في مائع ، وما دمت قد دخلت في مائع فلن تجد فيه طريقاً
مهدداً بل يحتلط المدخول فيه بالدخول عليه فلا تميز الأشياء ، وأخذ منه الخوض
بالباطل أو الخوض باللعب الذي ليس فيه غاية .

« وفخذ نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها
لا تفعلوا معهم حق يخوضوا في حديث غيره » .

وناقى الكلمه التي تهرب المؤمن ونزعه . « إنكم إذا مثلهم » أي إنكم إذا فعلتم
معهم وهو يخوضون في آيات الله تكفرون مثلهم ، لأنكم تسمعون الخوض في الدين
بالباطل ، ومن يرضى بالكفر يكفر .

لقد أعطينا الآية مرحلية أولية ، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً
ليس لأحد من المؤمنين أن يجالس لكافرين ، ولا نوالهم إلا إذا والونا ؛ لأن

الخلوس معهم في أثناء الخوص في لدين يجرثم على منافع الله ، وعلى المزمس أن ينهر أى ساحر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا صمن ينصرف من منيع الله أو ينصرف له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوص بالباطل ؛ وفي ذلك إغراء لساس على أن يخوضوا في الدين بالباطل .

كن لو أعرضنا عن ذلك مسيلنس الخارجون عن منيع الله وسيلة غير طريق الاجترأ على الدين والخوص بالباطل في دين الله ومنهجه . وفساد المجتمع إنما يأتي من أننا نرى من يخوص في دين الله بالباطل يكرمه البعض ويعطيه مكانة ومزلة .

وقوله الحق : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم نعلم منه وسيلة للإعلام البشرى هي أن يرى الإنسان معللاً أو يسمع قولاً . فإذ رأيت أيها المسلم فعلاً يشجع منيع العباد في الأرض فاعلم أن قلت خوص في دين الله بالباطل .

وقوله الحق : « فلا تفعلوا معهم » هو إيدان بالمقطعة ، فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن في منزل ، ويذهب إلى البقال ليشتري منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أى إنسان في يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غيور على دينه الذى آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يورثه في مجتمعاتهم ، ولو أن كل واحد من هؤلاء المنحرفين والموعلين في الباطل لودأوا المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً للهبوا إلى الصواب ولبحثوا عن شيء آخر ومجان آخر ياكثون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » ولا نستعظنون هذه الحياة ؛ لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كفرن أو اثنين أو حتى عشرة قرون ، بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هي صمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهى فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقي الله مسلماً في الآخرة ، والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والكافرين في جهنم ، وهذا مصير من يقلب السحرة أو الاستهزاء بدينه .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ
 قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ
 قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ
 لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (١١١)

وقوله الحق : « الذين يتربصون بكم » وصف للمنافقين ، ويتربص بفلان
 بفلان أى أن واحداً يتحفظ ليتحسس أخبار آخر ، ويرتّب حاجته منه عن قدر
 ما يرى من أفعاله ، وعرفنا هذا المعنى من قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا جيئاً قد أتى لهم فهم يريدون
 الاستفادة منه ، وإن جاء شرّ المنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم
 يعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث
 وليرتوا أمورهم على ما يحب .

« الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم » فإن فتح
 الله بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا معانم قال المنافقون : « ألم نكن معكم » ،
 فلا بد لنا من سهم فى هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً
 لقول الحق : « وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من
 المؤمنين » .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا
 ما يحدث لهم ، ولا بد لنا من نصيب . ويقول الحق على ألسنتهم : « قالوا ألم

نستعوذ عليكم ولننعمكم من المؤمنين « واستعوذ على الشيء أى حلزه وجعله فى حيزه
وملكه وسلطانه . والحق هو القائل :

﴿ اسْتَعِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المجادلة)

أى جعلهم الشيطان لى حيزه ، وقول المنافقين للكافرين : « ألم نستعوذ عليكم »
يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان فيحاول المنافقون معرفة
تفاصيل ما يتريه المؤمنون ، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور
من بأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين ثم يقولون للكافرين نحن
استعوذنا عليكم أى منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ، ويطلبون منهم الثمن

ولم الأداء النبأى للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين : « فإن كان لكم فتح »
أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فبأن بكلمة « نصيب » أى جرد شيء من القلب
المؤقتة . ثم يأتى القول الفصل من الحق : « فالحق يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل
الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » .

وحين يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرد دائما إلى أمد قد لا يطول أجل السامع
وعمره ليراه فى الدنيا ، فبأن له بالمسألة المقطوع بها ، لذلك لا يقول للمؤمن : إنك
سوف تنتصر . فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار . ولذلك يأتى بالأمر المقطوع
وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيرا مؤكدا لكل مؤمن ؛ لأن الحياة أتمه من أن
تكون شأنا للإيمان .

ويعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ألا نطلب الثمن فى الدنيا ؛ لأن الغايات
ثان لها الأغيار فى هذه الدنيا . فنعم الحياة إما أن يموت الإنسان وإما أن يموت
الإنسان . وثمن الإيمان بلى بقاء من أمنت به . إن القعدة الإيمانية تقول . من
يعمل صالحا يدخل الجنة ، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين :

﴿ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(من الآية ١٠٧ سورة آل عمران)

أى أن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، وهو قادر على إبقائها ، أما رحمة الله فلا فناء لها لأن صفة من صفاته وهو الدائم أبد . وعين يقول الحق سبحانه وتعالى : « فאלله يحكم بيبكم يوم القيامة » أى لن يوجد نقض لهذا الحكم ، لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية . وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد حكم الله على عم الرسول ، فقال فيه :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ۚ ذَاتَ لَهَبٍ ۚ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مِّثْلٍ ۝ ﴾

(سورة الد)

قول الحق سبحانه : « سيصل ناراً ذات لب » يدل على أن أما لب سيموت على الكفر ولن يهديه الله بالإيمان ، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عدد من صلابته ، ذهبوا إلى معسكر الإيمان ، فما هوذا عمر بن الخطاب ، وخالد ابن الوليد ، وحكمة بن أبي جهل وغيرهم كل هؤلاء آمنوا فما الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أن أباه لم يكن من هؤلاء ؟ ولماذا لم يقتل أبوه ؟ قال ابن أبي : إننى سأصلى ناراً ذات لب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وفئت كلمة الإيمان لكنه لم يقر ذلك وعلم الله الذى حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان .

ألم يكن باستطاعة أبى لب وروجه أن يقول فى جمع : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتم انتهاء المسألة ؟ ولكن الله الذى لا يعقب لحكمه قد قضى بكفرهم ، وبعد أن يقر الحق هذا القول الفصل فى أبى لب وروجه بأن قول الحق فى ترتيبه المصحفى ليقول ما يوضح إياكم أن تصمموا أن هذه العصية تنقص ، فسيصلى أبوه ناراً ذات لب وامرأته حمالة الحطب ، وقال الحق بعدها مباشرة :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

ولا أحد سيقدر حكم الله . .

إذن فقوله الحق : « فאלله يحكم بيبكم يوم القيامة » أى لا يعقب لحكم الله ،

فلا إله غيره يعقب عليه . « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » وهذه نتيجة لحكم الله ، فلا يمكن أن يحكم الله للكافرين على المؤمنين . ولن يكون للكافرين حجة أو قوة أو طريق على المؤمنين . وهل هذه القضية تتحقق في الدنيا أو في الآخرة ؟ ونعلم أن الحق يحكم في الآخرة التي تعطلت فيها الأسباب ، ولكنه جعل الأسباب في الدنيا ، فمن أخذ بالأسباب فتتأخر الأسباب تعطيه ، لأن مبادئ الربوبية يعطى المؤمن والكافر ، فإن أخذ الكافرون بالأسباب ولم يأخذ المؤمنون بها ، فالله يجعل هم على المؤمنين سبيلاً ، وقد يهزم المؤمنون أمام الكافرين .

والحكمة العربية تعلمت : إياك أن تعتز أن الخطأ ليس من جند الصواب . لأن الإنسان عندما يخطئ يضحك له الخطأ ، فعندما يعلم المدرس تلميذه أن الفاعل مرفوع ، وأخطأ التلميذ مرة ونصب الماعل ، فهذا يعني أنه أخذ القاعدة أولاً ثم سها عنها ، والمدرس يصحح له الخطأ ، فتنتصق القاعدة في رأس التلميذ بأن الفاعل مرفوع وهكذا يكون الخطأ من جند الصواب . والباطل أيضاً من جند الحق

فعندما يشتري الباطل في الناس يبرز بينهم هاتف الحق . وهكذا ترى الباطل نفسه من جند الحق ، والباطل هو الذي يظهر اللذعة من استثناء الصاد ، ويجعل البشر تصرخ ، وكذلك الألم الذي يصيب الإنسان هو من جند الشفاء ، لأن الألم يقول للإنسان يا هذا هناك شيء غير طبيعي في هذا المكان . ولولا الألم لما ذهب الإنسان إلى الطبيب

عين - إذن - أن يعرف ذلك كمعادنة لخطأ من جند الصواب ، والباطل من جند الحق ، والألم من جند الشفاء ، وكل خطأ يهوى إلى صواب ، ولكن بلذعة ، وذلك حتى لا ينساه الإنسان . وتاريخ اللغة العربية يحكي عن العلامة سيبويه ، وهو من يذكره عندما يلحن أحد بخطأ في اللغة ؛ يقول : « أعصب المحطىء سيبويه » ؛ لأن سيبويه هو الذي وضع النحو والقواعد حتى إننا إذا أصلنا كلمة الكتاب في عرف اللغة فالحق يصرف إلى كتاب سيبويه ؛ فهو مؤلف الكتاب

وسيبويه لم يكن أصلاً عالم نحو ، بل كان عالم قراءات للقرآن ، حدث له أن كان جالساً وعيبت عليه لجنة في مجلس ، أي أنه أخطأ في النحو وعاب عليه من حوله

ذلك ، فغضب من نفسه وحرن ، وقال . والله لأجيدن العربية حتى لا ألحن فيها وأصبح مؤلفاً في النحو .

ومثل آخر . الإمام الشاطبي - رضي الله عنه - لم يكن عالم قراءات بل كان عالماً في النحو ، وبعد ذلك جاءت له مشكلة في القراءات فلم يتعرف عليها ، فأنقسم أن يجلس للقراءات ويدرسها جيداً . وصار من بعد ذلك شيخاً للقراء . فلحمة - أي غبطة - هي التي صنعت من سيويه عالماً في النحو ، ومشكلة وعدم إهتداء في القراءات جعل من الإمام الشاطبي شيخاً للقراء ، على الرغم من أن سيويه كان عالم قراءات ، والشاطبي كان رجل نحو .

ولذلك أكررها حتى مهمها جيداً : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء والعافية .

وقد نجد الكافرين قد انتصروا في ظاهر الأمر على المؤمنين في بعض المواقع مثل أحد ، وكان ذلك للترية ؛ ففي « أحد » تحالف بعض المقاتلين من المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الهزيمة مقدمة للتصويب ، وكذلك كانت موقعة حنين حينما أعجبتهم الكثرة

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَآرِحِهَا وَرَحِبَتْ ثُمَّ لَئِنَّكُمْ لَمُدرِين﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

والشاعر العربي الذي تعرض لهذه المسألة قال :

إن الهزيمة لا تكون هزيمة إلا إذا لم تفتلح أسبابها
لكر إذا جهدت لتعرد شائياً فالحمق كل لحمق يهمل عايبها

فعندما يفتلح الإنسان أسباب الهزيمة تصبح نصراً ، وقد حدث ذلك في أحد ، هم خالفوا في إبداءة فغلبهم الأعداء ، ثم كانت درساً مستفاداً أفصح الطريق للنصر



فإن رأيت أيها المسلم للكافرين ميلاً عن المؤمنين فتعلم أن الإيمان قد تحلحل في نفوس المسلمين فلا نتيجة دون أسباب ، وإن أحد المؤمنين بالأسباب أعظمهم النتائج . فهو العاقل :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

(من الآية ٦ سورة الأنفال)

فإن لم يعد المؤمن ما استطاعوا ، أو غرّبهم الكثرة فالنتيجة هي الهزيمة عن استحقاق ، وعلى كل مؤمن أن يصح في يقينه هذا القول الرباني :

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْدِثَ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إن إعلان الإيمان بالله ليس هو نهاية أي شيء بل هو البداية ، والمؤمن بالله يأخذ جراه عن قدر عمله ويغفر الله على عمله المؤمن عندما يخطيء ، لذلك يؤدبه ويربيه - والله المثل الأعلى - نجد أن الإنسان منا قد لا يصبر على مراجعة الدروس مع أولاده فيأتي بمدرس ليعمل ذلك ، لأن حب الأب لأولاده يدفع الأب للانفعال إذا ما أخطأ الولد ، وقد بضربه . أما المدرس الخارجي فلا يفعل ، بل يأخذ الأمور بحجمها المعادي إذن فكيف أحب الإنسان فهو يتدخل بمقياس الود ويقسو أحياناً على من يرحم .

والشاعر العربي يقول :

مضى ليردجروا ومن يك حازماً فليس أحياناً على من يرحم

ومثال آخر - والله المثل الأعلى - الإنسان إذا ما دخل منزله ووجد في صحن المنزل أطفالاً يلعبون الميسر منهم ابنة وابن الحار ، وطفل آخر لا يعرفه ، فيتجه فوراً إلى ابنة يوصمه ، ويأمره بالعودة فوراً إلى الشقة ، أما الأولاد الآخرون فلن يأخذ ابن الحار إلا كلمة تأنيب ، أما الطفل الذي لا يعرفه فلن يتكلم معه

وهكذا نجد العقاب على قدر المحبة والود ، والتأديب على قدر المصلحة في النفس .

ومن لا يهتم بأمره لا يعطى لسبوكه السيء بالأ . وساعة يرى أن للكافرين ميلاً على المؤمنين فلعلهم أن قصة من قصايا الإيمان قد احتست في بقوسهم ، ولا يريد الله أن يظنوا هكذا بل بصفيتهم الحق من هذه الأحطه بأن نعصم الأحداث . فوسبها إلى أنهم لا يأحدون بأسباب الله .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ
وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ
وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يعرف واقع المنافقين أنهم يظهرون الإيمان ويبطون الكفر ، ويوضح الحق إياكم أن تطوا أن في قدرة مخدوق أن يعن شيئاً يسون علم الله ، وقد يكر إنسان بك ، وهو يعلم أنت تعلم بكمه ، فهل هذا مكر ؟ لا ؛ لأن انكر هو الأمر الذي يتم خمية بتدبير لا تعلمه ، والأصول في المكر ألا يعلم المكور به شيئاً . والمنافقون حين يظهرون الإيمان ويبطون لكفر يجادعون من يعلم خفية الصدور . وكان يجب أن يأخذوا درساً من معاملة الله بوسطة المؤمنين لهم ، فقد صان المؤمنون دم المنافقين ومأمم وأجرى المسلمون على المنافقين أحكام الإسلام ، تكن ما الذي يبينه الله هؤلاء المنافقين ؟ لقد بيت لهم اندرك الأسفل من النار فمن الأقدر - إذن - على الخداع ؟

إن الذي حقا هو من لا يخدع من يعلم أنه قادر على كشف الخداع . وكسمة « خدع » تعني مكر به مكرأ فيلدى له قولاً وفعلأ ونحى سواهما حتى ينق فيه . وبعد ذلك بعد المكر . وهناك كلمة « خدع » وكلمة « خداع » . واحق في هذه الآية لم يغفل إن الله يخدعهم ، بل قال « يجادعون الله وهو خادعهم » .

و« خداع » تعني حدوث عمليتين ، مثل قولنا : قاتل فلان فلانا . فالقتال يحدث

بين طرفين . وكذلك يقول : شارك فلان فلان . لأن مادة « فعل » تخرج إلى طرفين . لكن عندما يقول « فعل » ، فإنه يفعل يحدث من جانب واحد . واخذع بدأ من واحد ، وعندما يرى الشخص الذي يراد اخذاعه أن حصه أقوى منه فإنه يبيت له خداعاً آخر . ونسمى العملية كلها (مخادعة) ، ونقول : « اخذعه فخدعه » إذا غلبه . وكان اخذع منه . ومن إذن الذي عذب ؟ إن الذي يبيت الخداع رداً على خداع خصمه هو الغالب .

ولأن الخداع يحدث أولاً ، وبعد ذلك يتلقى (مخدوع) الأمر شييت أكبر ، فهو « اخذع » ، ولذي يعذب يقول عنه : « اخذعه » أي أزل خداعه . والله سبحانه وتعالى عاممهم بمثل ما أرادوا أن يعاملوا به المؤمنين ، فمما ففون أظهر الإيمان أولاً وأصمروا الكفر ، وأعطاهم الله ن طاهر الأمر أحكام المسلمين ، وفي الناطق قرر أن يعذبهم عذاب الكافرين بل وأشد من ذلك ، لأنهم سيكونون في اسرك الأسفل من النار .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » . وبإك أبه المسلم أن تشتق من هذه العملية اسماً لله وتقول « مخادع » ، لأن أسماء الله توفيمية أي لا تسمى الله إلا بالأسماء التي سمي بها نفسه . وسحانه يصل الفعل ، نكر لا تأخذ من هذا الفعل اسماً ، والحق يعطيا هن « مشككة » ليوضح لنا أن المنافقين يذكرون ويبيسون شر للمؤمنين ، وأنت أي المسلم نعرف أن الإنسان بما يبيت شر على قدر طاقته التي معها كبرت فهي محدودة بجانب طلاقة قدرة الله . ولندك يصح الله هذا الشر يبيت من هؤلاء المنافقين . وهم حين يذكرون بالله بطلاقة قدرته يذكرونهم أي يبتل مكرهم ويجريهم عن سوء نعتهم ، ولا يقول : « الله مكر » . والله أن يقول في انعمل المشاكل ما يشاء .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى »

إن العبادات من الأحداث هي التي تصمى على الخوارج الإيمال عن الأحداث . فإذا كنت تحب أحداث الذي تقل عليه فأنت تقب عليه بكل اشتياق وهمة ويقبسون همة اللقاء لأنها تحدد لراحة المحبة . والشاعر العربي يصف لقاء حبيبته بحبيته

لقاء الاثنين بين حنة تلهف كئيب واستعالة منة

فلحظة اللقاء تبين ما بين الحبيين من مودة ، فإن كانت المسألة بينهما عشر خطوات فهي أسرع باللهفة فيقطعان العشر الخطوات في ثلاث خطوات ، وهذا معناه تقصير زمن الابتعاد ، وكذلك تظهر الكيفية التي يتم بها السلام درجة المودة ، فقد يسلم أحدهما على الآخر ببرود أو بنصف ود ، أو بود كبير ، أو بود مصحوب بلهفة وأخذ متبادل بالأحضان ، وكذلك المدة التي يحتضن كلاهما الآخر ، هل هي دقيقة أو دقيقتان أو ثلاث ؟

إذن فالذي يبين قيمة الود : التلهف ، الكيفية ، المدة . وهذه العناصر الثلاثة أحدها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقديماً كان الذين يُتِمون بالنساء يسترون في السلام مودتهم . وفي الحصار الغريبة التي سقطت فيها قيم الأديان نجد أن الرجل يتلقى المرأة بالقبلات .

وفي بعض البلاد نجد الرجل يصافح المرأة ، فهل يصافحها بتلهف ، وهل تبادل هذه التهمة ؟ فإن وجدت الكف مقرودة وبسوطه للمصافحة فقط فهذا سلام عادي . أما إذا نوى أحدهما إصبعه السنبر على كف الآخر فعليك أن ترى أي طرف هو الذي قام بشئ أصبعه ليحتضن اليد كنها في يده ، فإن كان ذلك من الرجل فالتهمة مه ، وإن كان من المرأة فالتهمة مني ، وإن كان من الاثنين فالتهمة منيها مع ، ثم ما المدة التي يستغرقها بقاء اليد في اليد ؟

وقد يحلو لكليهما أن يتكلماً معاً - رجل وامرأة - وكان الكلام قد أحدهما منسى كل منهما يده في يد الآخر .

سلام نوعين بين حنة تلهف كيف واستعالة منة

هكذا يقابل الإنسان الأحداث ، فإن كان الحدث ساراً فالإنسان يقبل عليه بلهفة . وإن كان غير ذلك فالإنسان يقوم إليه متناً . وكان المصافحون يقومون إلى الصلاة بشغل ونكاسل : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » كأنهم يؤدون الصلاة كستار يحسون به عاقبتهم ، ويسترون بها عن أعين المسلمين . ولم يكن فيهم للصلاة

شوقاً إلى لقاء الله مثلها كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال - رضي الله عنه - طالباً منه أن يؤذن للصلاة :

« يا بلال أرحنا بالصلاة » (١) .

لأن المؤمن يرتاح عندما يؤدي الصلاة ، أم المنافق فهي عملية شاقة بالنسبة إليه لأنه يؤديها ليستر بها عن أعين المسلمين ولذلك يقوم إليها بتكاسل . وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرامون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً .

هم يقيمون الصلاة ظاهراً أمام الناس ليخدعو المسلمين وليشاهدوهم غيرهم وهم يصلون . وفي الصلاة التي يرامون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها ، يقولون فقط المطلوب قوله جهراً . كأن يقرأوا الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم في أثناء الركوع لا يسبحون باسم الله العظيم وكذلك في السجود لا يسبحون باسم الله الأعلى .

ففي داخل كل منافق تيران متعارضان . تيار يظهر به مع المؤمنين وآخر مع الكافرين . والتيار الذي مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ويذكر الله قليلاً ، والتيار الذي مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، ولا يذكر الله كثيراً .

وإذا ما حسبنا كم شيئاً يجبر به المصل وكَم شيئاً يجبره سراً ، فسجد أن ما يجبره المصل سراً في أثناء الصلاة أكثر من الجهر . ففي الركوع يقول : سبحان رب العظيم ثلاث مرات ، ويقول . سبحان رب الأعلى ، في كل سجود ثلاث مرات ، أما المنافق فلا يذكر الله إلا جهراً ، وهو ذكر قليل . ونجد اتفاقاً لا يصل فعللاً إلا إذا كان مرقباً ومسموعاً من غيره ، هذا هو معنى المراقبة . أما الأفعال والأقوال التي لا تُرى من الناس ولا تُسمع فلا يؤديها .

ولا يبرز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدأ إلا هذه المراقبة ، لأن لحق سبحانه يجب أن يؤدي المسلم كل عمل جاعلاً الله في باله ، وهو الذي لا تخفى عليه خافية . وليتنا

إلى هذه القصة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) .

وإذا كان الإنسان يحجل من أن يعيش واحداً مثله من البشر عشراً طهرياً في العالم بالذي يحاول عش الله وهو يعلم أن الله يراه ؟ وماذا يجعل ذلك العبد ربه أهون الماظرين إليه ؟

وعندما يعيش واحداً آخر واكتشف الآخر عشه فهو يعاقبه فيما يالك بعش الله ؟ ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لما حال المرائي لناس فيقول : « يا أبا بكر ما أحوف ما أحوف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله - عز وجل - يوم القيمة إذا جرى العباد بأعمالهم ذهبوا إلى الدين كنهم نواعون في الدنيا فاطفروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟ » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم

« يا مرائي ينادي عليه يوم القيامة : يا فاجر » يا فاجر : « يا مرائي » خصل صعلك وحطت أسرك فحد أبرك من كنت تعمل له ، (٣) .

إذن فالنافق إما يمدح نفسه ، هو يتعدهر ببصلاة ليراه الناس ويركبي ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ، هو يحسن ما أمر الله به ، لكنه لا يعمده الله ، ولذلك قال القرآن

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَفْعَمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْبِقُهُ يَخِصِّهُ أَفْظَمَكُنْ مَاءٌ حَقٌّ إِذَا حَاقَهُ لُزٌّ يَجِدُهُ شَبَّ رَوْحَدَ اللَّهِ عِنْدَهُ مَوْهُ حَسَنٌ ۚ وَاللَّهُ مَرِيعُ الْحَسَابِ ﴾ (٤)

(سورة الود)

وقال عن نون ثان من نفاقهم :

(١) رواه مسلم من حديث جرير

(٢) رواه أحمد والبيهقي في الشعب ، والطبراني من رواية محمود بن زيد عن رافع بن خديج

(٣) ابن أبي الدنيا (استد ضعيف

﴿كَأَلَدَىٰ نُفْحِ مَالِهِ رِجَاءَ أَن يَسُّوهُ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَكَذَّبُوهُ كَذَّبَ الصَّوْءَانِ
عَلَيْهِ تَرَابٌ مِّمَّاهُ وَإِنِّي فَتَرَكْتُكُمْ صَلَاحًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

والصفاون هو الحجر الأملس تماما وهو الذي ليس فيه خشونة ، لأن الحجر إن كان به جزء من خشونة وعليه تراب ثم سقط عليه المطر ، فالتراب يتخلل الخشونة . أما الحجر الأملس فمن فور نزول المطر يتزلق من عليه التراب . ومن يرأى المؤمنين عليه أن يأخذ أجره ممن عمل له

ويستكمل الحق وصف الحالة النفسية للمنافقين بقول :

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ
وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

والشيء المذبذب مثل المعلق في حيط فيأخذ الریح إلى ناحية لبقعة في ناحية أخرى لأن غير ثابت ، مأخوذ من « المذبة » ومنه جاءت بسمية « الذباب » الذي يذب الإنسان فيعود مرة أخرى ، فمن سلوك الذباب أنه إذا ذب عن مكان لا بد أن يعود إليه .

« مذذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » فهل هم الذين ذهبوا أنفسهم أم تلك هي طبيعتهم ؟ ولتأمل عظمة الحق الذي سوى النفس البشرية : ضى الذات الواحدة أمر ومأمور ، والحق يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْبِذُوا نَارًا﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى أن الإنسان يقى نفسه بأن يجعل الأمر يوجه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور يطيع الأمر ، ودليل ذلك قول الحق عن قابيل :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

أى أن جرء من الذات هو الذى طوع بغيره ذات قابيل لقتل هابيل فقد خلق الله النفس البشرية كمملكة متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشح ، والملكة التى تحب الأريحية إنما تطلب بناء لاس ، والى تحب الشح إنما تفعل ذلك ليعظم صاحبها أنه يملك ما يبغيه . وكلتا الملكتين تتصارع فى انفس الواحدة ، لذلك يقول الحق : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ والنفس تقى النفس ، لأن الملكات فيها متعددة . وبعض الملكات تحب تحقيق بلعة والشهوة ، لكن هناك ملكة إيمانية تقول . تذكر أن هذه الشهوات عاجلة ولكنها عطيمة المدعب فيها بعد

إذن فهناك صراع داخل ملكات الإنسان ، ويوضح لنا الحق هذا الصراع فى قوله . (فطوعت له نفسه قتل أخيه) .

لأن قابيل أراد أن يقتل هابيل بغيره الاستعلاء . وبازعته نفسه بالخوف من الإثم . لقد دارت امراودة فى نفس قابيل إلى أن سيطرت غريزة الاستعلاء فأمرت بالقتل وطوعت بقية النفس . وهذا يكشف لنا أن النفس البشرية فيها ملكات متعددة ، كل ملكة لها مطلوب . والدين هو الذى يقيم التعايش السلمى بين الملكات .

مثال آخر الغريزة الجنسية تقيم السعار فى النفس ، فيقوم الوعى الإيماني بردع ذلك بأن تقول النفس الإيمانية : إياك أن تلغ فى أعراض اساس حتى لا تلغ الناس فى أعراضك ، ولماذا لا تذهب وتزوج كما شرع الله ، ولا ترم أبناءك فى فراش غيرك ؟ لأن الغريزة مخلوقة لله فلا تجعل سلطان الغريزة يأمر ويسى .

وهكذا نرى أن النفس تضم وتشمل الملكات والغرائز ، ولا يصح أن يعدى الإنسان غريزة إلى أمر آخر ، لأنه إن عدى لشهوات فسدت الدنيا .

وعلى سبيل المثال نحن نستخدم الكهرباء التي تعطى لنا النور في حدود ما يرسم لنا مهندس الكهرباء ، الذي وضع لقطب الموجب في مجاله وكذلك القطب السالب ، بحيث تأخذ الضوء الذي يريد أو تعطى حرارة لستخدامها كقوة لإدارة آلة ، لكن لو التقى القطب الموجب بالقطب السالب على غير ما صنع المهندس لحدثت فتنة كهربائية تسبب حريقاً أو فساداً . وكذلك النقص البشرية ، إن التقى الذكر مع الأنثى كما شرع الله فإن الشرية تسعد ، وإن حدث غير ذلك فالذي يحدث في المجتمع يصير حريقاً نفسياً واجتماعياً لا حدود لآثاره المضارة ، وهكذا يرى أن النقص ليس فيها دافع واحد بل فيها دوافع متعددة .

ونجد مريزة الجوع تحرك النفس إلى الطعام ، ويستجيب الدين لذلك لكنه يوصي أن يأكل الإنسان بشرط ألا يتحول تناول الطعام إلى شره ، كما جاء في الحديث « بحسب ابن آدم لقيات يقص صلبه »^(١)

فإن طعام لبقاء النوع والإنسان يحب للاستطلاع ، فيأمر الإسلام الإنسان بأن يستطلع أسباب الله في الكون ليزيد من صلاح الكون ، وينهى الإسلام عن استخدام حب الاستطلاع في التجسس على الناس ، وهكذا تتوازن الملكات بمنهج الإسلام ، وعلى المسلم أن يعيش ملكاته في ضوء منهج الله معاشة سليمة حتى تكون النفس الإنسانية متساندة لا متعادية ، لتعيش كل الملكات في سلام ، ويؤدي كل جهاز مهمته كما أراد الله

تكن المنافق يحيا مذنباً وقد صنع ذلك بنفسه ، فقد أرحى لبعض ملكاته الحيوان على حساب منكات أخرى « مذبيبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » إن الكافر يتنازع بينه المنافق - ظاهراً - بأنه مسجوم مع نفسه ، هو غير مؤمن بالإسلام ويعمل ذلك ولكنه في حقيقة الأمر ينهار مع فطرته لنى تدعوه إلى الإيمان .

قد يقول قائل . وكيف يساوى الذي أظهر الإيمان وأبطل الكفر مع الذي أعلن الكفر ؟ ونقول . إن الكافر لم يمدح الطائفة المؤمنة ولم يقل كالمنافق إنه مع العنة المؤمنة

(١) من حديث روى الترمذي والنسائي وابن ماجه

وهو ليس معها ، بل يعلن الكافر كفره منسجماً مع نفسه ، لكن المنافق مذبذب خيس في وضعه الإنسان والرجولي .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يفضل الله فلا تجد له سبيلاً » .

والله لا يفضل عبداً بشكل مباشر ، فسبحانه يُعصم خلقه أولاً بالرسول والمنهج ، لكنه يفضل من يصبر على عدم الإيمان ، لذلك يتركه على ضلاله وصمائه . صحيح أن في قدرة الله أن يأخذه إلى الإيمان قهراً ، لكنه سبحانه يترك الإنسان لاختياره .

فإن أقبل الإنسان على الله فسبحانه يعينه على الهداية ، أما إن لم يقبل فليذهب إلى تيه الضلال . ونزير له الدنيا ويعطيه منها لكنه لن يجد سبيلاً ، فسبيل الله واحد وليس هناك سبيلان

وبذكر هذه الحكاية ، لنعرف قيمة سبيل الله . كان الأصمعي - وهو مؤلف عربي له قيمة كبيرة - يملك أدباً أدبياً تميل إلى الأساليب الحميلة من اشعر والنثر ، ووجد الأصمعي إنساناً يقف أمام باب المنزعة بالكعبة المشرفة ، وكان الرجل يدعو الله دعاء حراً « يارب : أنا عاصيتك ، ولولا أنني عاصيتك لما جئت أحلب منك المعصرة ، فلا إله إلا أنت ، كان يجب أن أخجل من معصيتك ولكن ماذا أفعل » . وأعجب الأصمعي بالدعاء ، فقال : يا هذا إن الله يعفو لك لحسن مسألتك .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَحْمِلُوا
وِثْرَ اللَّهِ عَلَىٰكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

لقد أخذ الحق على المنافقين أنهم يتحدون الكافرين أولياء من دون الله ، وكذلك أخذ المؤمنون على المدققين أنهم اتخذوا من معسكر الكفر ولياً لهم من دون الله ومن دون المؤمنين ، ولهذا غاولي بالمؤمنين ألا يصنعوا ذلك ، ويوضح سبحانه : لقد أخذنا على المدققين أنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون الله ، فرياكم أن تفعلوا مثلهم .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً »

وهذا أمر منطقي يستقيم مع منهج الإيمان ؛ لأنكم إن فعلتم ذلك . فإنما تقدمون الحجة ليعذبكم الله ، وتعلمون أن المنافق يعلن الإيمان بلسانه ويخفي الكفر في قلبه ، فكيف يكون وضع المؤمن مع الكافر مثل وضع المنافق مع الكافر ؟ ذلك أمر لا يستقيم . ومن يفعل ذلك إنما يقدم حجة لله ليعذبه

الحق سبحانه في إرساله للرسل وفي تأييد الرسل بالمعجزات وفي إرساله المصاحح المستوفية لتتطيم حركة الإنسان في الحياة ، كل ذلك ليقطع الحجة على الناس حتى لا يقولن واحد : أنت لم تقل لنا يارب كيف نسير على منهج ما ، لذلك لم يترك - سبحانه - الإنسان ليمكر بعقله ليصل بفكره إلى وجود الله ، ويكتشف أن هناك خالقاً للكون لم يتركنا سبحانه لهذه الظنون ، ولكنه أرسل لنا الرسل بمنهج واضح ، من أجل ألا يكون للناس عن الله حجة من بعد الرسل ، فلا يقولن واحد : أنت لم تنهى يارب ، والحهل بالقانون في الشرع البشري لا يعنى الإنسان من العقوبة إن ارتكب جرماً ، لكن الله لا يفعل ذلك ، فهو أكرم على عباده من أنفسهم ، لذلك يرسل الرسل ليحمل المنهج الذي يبين الحلال من الحرام :

﴿ لِيَهْدِيَكُمْ مِنْ هَٰذَا عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيِيَ مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(س الآية ٤٢ سورة الأنعام)

فلا يقولن واحد : لقد أخذنا الله على غرة . وأنتم أيها المؤمنون إن اتخضتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتفرتم إليهم ونصرتمهم فأنتم أكثر شراً من المنافقين ؛ لأن المنافق له أسباب ، وفي أعماقه حبط من الكفر وخبث من الإيمان ، والحجة واضحة عليكم أيها المؤمنون ؛ فقد أبلغكم الحق المنهج وأعلنتم الإيمان به .

فإن سمعتم غير ذلك تعطون الحق الحجة في أن بعديكم

« أتريدون أن نعملوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين هو سلطان الواضح المحيط الذي لا يستطيع أن يدفعه أحد ، فإذا ما كانت هناك حجة ، قد يستطيع الإنسان أن يقضيها ، كالحامي أمام المحاكم . لكن حجة الله هي سلطان مبين . أي لا تنقض أبداً ومن بعد ذلك يقول الحق .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نُصُيراً ﴾

ولنر دقة الترمية الإيمانية . فلم يأت الحق بفصل في كتابه عن المنافقين يورد فيه كل ما يتعلق بالمنافقين ، لا ، بل يأتى بلمحة عن المنافقين ثم يأتى بلمحة أخرى عن المؤمنين ، حتى ينفذ السامع من وضع المناق وبجبه في صفات المؤمنين ، وما يقول . « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن نجعل لهم نصيراً » . والدرك مرة تنطق بسكون الراء ، وتنطق مرة بفتح الراء ، مثل كلمة « نهر » . والدرك دائماً في نزول . والأثر اصالح يميز لنا ذلك بانقول :

« النار حركات كما أن الجنة درجات » (١) .

فالنزول إلى أسفل هو الدرك ، والصعود إلى أعلى هو صعود الدرج . وفي مصرنا نسمع مستوى سطح البحر كمقياس ، لأن اليابسة متعرجة ، أما انبحر نهر مستطرق .

ونستخدم في الأمر الدقيق - أيضاً - ميزان المياه ، وعندما تسقط الأمطار على الطرق نكتشف لنا حمل المقاول الذي رصف الطرق ، هل أتقن هذا العمل أو لا ؟ ونحن نقى دلوا من المياه في الخيام بعد تبليطه حتى يتكشف جوفه أو رداءة عمل

(١) تفسير الإمام ابن كثير .

العامل ، إذن هناك شيء يصصح شيئا آخر . والقول المصريح الشائع : « إن الذي يقوم بعمل المحارة هو الذي يكشف عامل البناء » . فلو أن الحائط غير مستو ، فعامل المحارة مضطر أن يسد العجوات والميول حتى يستوى سطح الحائط . . . والذي يكشف جودة عامل المحارة هو عامل طلاء الحائط ؛ لأنه إما أن يستخدم المعجون بكثرة ليملا المناطق غير المستوية في الحائط ، وإما أن يجد الأمر سهلا . والذي يكشف جودة أو رداءة عمل عامل الطلاء هي أشياء طبيعية مثل الغبار . والعامل الذي يريد أن يعيش هو الذي يسرع بتسليم البناء ؛ لأن العبار الذي يوجد في الجو يعيش في خط مستقيم ، وعندما يوجد جدار تم طلاؤه بمادة غير جيدة فالغبار يلتصق به ، وكأن الله قد أراد بذلك أن يفضح من لا يتقن عمله ، وكل شيء مرده إلى الله حتى يصل الخلق جميعا إلى الحق سبحانه مفسوحين ، إلا المؤمنين الذين يعملون صالحا ، فهؤلاء يسترحم الله بعملهم الصالح .

« إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن نجد لهم نصيرا » . وسبحانه وتعالى سبق أن عرض لنا صورة المنافقين المهزوزة التي لا ثبات لها على رأى ، ولا وجود لها على لون يحترمه المجتمع الذي يعيشون فيه فقال عنهم :

﴿ مَذْهَبَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَٰذَا وَلَا إِلَىٰ هَٰذَا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة النساء)
والذئبة لون من أرجحة الشخصية التي لا يوجد لها مقوم ذاتي . وسبحانه وتعالى حين عرضهم هذا العرض المشوه ، يوضح : أن جزائي لهم حق يناسب ما فعلوه .

وقد هيا الحق الأذهان ليجمعها مستعدة لقبول الحكم الذي أنزله عليهم حتى لا تلحد الناس شفقة عليهم أو رحمة بهم ، وسبحانه حين يحكم حكما فهو يضمن بقبولهم ووجدانته ألا يوجد متنازع له في الحكم . وكان من الممكن أن يقول سأجعله في الدرك الأسفل من النار . ولن توجد قوة أخرى تستلج المناق ؛ لذلك أتبع الحق الحكم بقوله : « ولن نجد لهم نصيرا » أي أنه حكم مشمول بالإنفاذ ، ولن يعمله أحد من خلق الله ، فسبحانه له الملك وحده ، وقد جعل سبحانه الملك في الدنيا لأسباب الناس أيضا ، أما في الآخرة فلا ملك لأحد ولا ملك لأحد .

﴿ لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة طه)

وبعد ذلك يتيح الحق لأقوام من المذنبين أن يعدلوا رأيهم في المسألة وأن يعملوا
إيمانهم وأن يتوبوا عما فعلوه ، إنه - سبحانه - أرحم لهم أن يرجعوا أنفسهم ويحاسبوها
فلم يخلق الباب دونهم بل قال .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا
بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٦﴾

إذن فمس الممكر أن توجد فتحة خير قد تدفع الإنسان إلى التوبة ، وحتى لا يظن
أحد أن الحكم هنا نهائي ، وذلك حتى لا يعقد الإنسان نفسه ويتورط في مريد من
الشروع ، لذلك قال : «إلا الذين تابوا» أي تاب عن نفاقه الأول ، وإذا ما كان قد
ترتب على نفاقه السابق إفساد فلا بد أن يصلح ما أفسده ويعتصم بالله ويخلص لله نية
وعصلاً . «إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله» . إذن
فشروط النجاة من الدرك الأسفل من النار هي التوبة ، وإصلاح ما أفسد ،
والاعتصام بالله ، وإخلاص دينه لله

والتوبة هنا إقلاع عن النفاق ، ولا يترك المنافق الفساد الذي صنمه نفاقه بل عليه
أن يحاول جاهداً أن يصلح ما أفسده بهذا النفاق والاعتصام بالله كيف يكون ؟

لقد عرفنا من قبل أنهم كانوا يفعلون ذلك لابتغاء العزة عند الكافرين أي أن
نفس المنافق تهنئ إلى هؤلاء الكافرين ويرغ إليهم ويعتز بشدتهم وبصلابتهم ؛
لذلك يوضح الله : انزعوا هذه الفكرة من رؤوسكم وليكن اعتصامكم بالله وحده
لأنه لا يجير أحد على الله ، واحملوا العزة لله والرجع إليه وحده .

والملاحظ أن الذي يوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان اليقين
الإيماني بالله ، لكن الحق يقول : «وأخلصوا دينهم لله» ، فلهذا أكد على الإخلاص

هنا ؟ لأن تدبير النفاق كان ينسج من قلوبهم أولاً . ونعلم أن القلب قد يذنب ، فذنب الجارحة أن تعتدي ، مثال ذلك العين تذنب حين تعتدي على محرم الآخرين ، واللسان يذنب إن تعرض بالسب أو الشتم للناس . إذن . فكل جارحة لها مجال معصية ، وهنا مجال معصية القلب هو النفاق وهو الأمر المستور إذن فقول الحق « وأخلصوا دينهم لله » جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص في التوبة عن النفاق ، والإخلاص بحمد القلب

فكان توبة القلوب غير توبة الجوارح ، فتوبة الجوارح تكون بأن تكف الجوارح عن مجال معاصيها . أما توبة القلب فهو أن يكف عن مجال نفاقه بأن يخلص . وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم يتغمسوا في النفاق . وجعل التائبين من المنافقين مع المؤمنين ، فكان الأصل في التميم وفي نيل الجراء العظيم هو الوحد مع المؤمنين « فلو شكك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً »

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه . وقد جعل الحق الجراء من جنس العمل وكان المنافقون ينافقون ليأخذوا من المؤمنين منواهر الإسلام كصون المال والدماء وليعتبرهم الجميع ظهرياً وشكلياً من المسلمين ، وهم حين باعوا المسلمين أعطاهم المسلمون ما عندهم . وعندهم تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا الدين الله جعلهم الله مع المؤمنين ، ويعطى سبحانه لأهل الإيمان أجراً عظيماً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ
وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

وسبحانه قد أوضح من قبل أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، واستثنى منهم من تاب وأصلح واعتصم بالله وأخلص ، ويتحدث هنا عن فكرة العذاب

نفسها ، ليجليها يقول : « ما يفعل الله بعذابكم » وهذا استفهام ، والاستفهام أصلاً سؤال من سائل يتطلب جواباً من مجيب . وسبحانه وتعالى يريد أن يعرض قضية موثوقاً بها فهو لا يأتي بها خبراً ، فهو القادر على أن يقول : أنا لا أفعل بعذابكم ولا أحقق لذاتي من ورائه شيئاً ، فلا استجلب به لي نفعاً ولا أدفع به عنى ضراً .

لكنه هنا لا يأتي بهذه القضية كمخبر من عنده ، بل يجعل المتنافسين يقولونها . مثال ذلك - والله المثل الأعلى - يقول واحد لآخر : أنت أهنتني . ومن الجائز أن يرد الآخر : أنا لم أهتك . وأقسم لك أنني ما أهنتك . وقد يصيف : ابغض شاعداً . وهنا نجد مراحل المسألة تبدأ بالإبلاغ عن عدم الإهانة ، ثم القسم بأن الإهانة لم تحدث ، ومن بعد ذلك طلب شاعداً عن أن الإهانة المعروفة قد حدثت .

وقد يقول الإنسان رداً عن من يتهمة بالإهانة : أنا أترك لك هذه المسألة ، فإذا قلت لك حتى تعتبره إهانة ؟ ومن يقول ذلك واثق أن من شعر بالإهانة لو أدار رأسه وفكره فلن يجد كلمة واحدة تحمل في طياتها شبهة الإهانة .

ولو كان الإنسان واثقاً من أنه أهدأ الآخر ، فهو يحاف أن يفهم الآخر دليلاً على صحته اتهامه له ، ولكن حين يقول له : ومادا قلت لك حتى تعتبر ذلك إهانة ؟ ، فعليه أن يبحث ولن يجد . وبذلك يكون الحكم قد صدر منه هو .

وإذا كان الله يقول . « ما يفعل الله بعذابكم » فهذا خطاب للجماعة كانت ستعذب . وكانت فيهم محادة لله . ورضى الله شهادتهم ، فكان هذه لفظة على أن العاصي يستحق العذاب بمصر الآية : « ما يفعل الله بعذابكم » ، ومستعد لهذا العذاب لأنه محاد لله . ولكن الله يقبل منه ومن أمثاله أن يشهدوا . وهذا دليل على أن الإيمان الفطري في النفس البشرية ، فإذا ما حزبها واشتد عليها الأمر لم نجد إلا منطق الإيمان .

ويوضح الحق للمنافقين : ماذا أفعل أنا بعذابكم ؟ فلن يجدوا سبباً خاصاً بالله ليعذبهم ، فكان النعرة الطبيعية قد استيقظت فيهم ، لأنهم سيديرون المسألة في نفوسهم .

وعلى مشراننا نحن الشر نرى أن الذى يدفع الإنسان ليمدب إنسانا آخر إنما يحدث ذلك ليشفى عيط قلبه ، أو ليثأر منه ، لأنه قد آله فيريد أن يرد هذا الإيلام . أو ليمنع ضرره عنه . والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون فى أى موقع من هذه المراتب . فإذا أدرك المناقشون هذه المسألة فطريا بدون إيمان فلن يكون جوابهم إلا الآتى : لن يفعل الله بعدينا شيئا ، إن شكرنا وآمنا .

ونستخلص من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يريد عرض قضية يثبت فيها الحكم من الخصم نفسه ، يلقىها على هيئة سؤال . وكان من الممكن أن يجرى هذه المسألة خبرا ، إلا أن الخبر هو شهادة من الله لنفسه ، أما السؤال فتكون إجابته اقارارا من المقابل وهذا يعنى أنهم كانوا عاصين ومخالين . وكأنه سبحانه قد اتهمهم على هذا الجواب ، لأن الجواب أمر بطرى لا مندوحة عنه . وهو يدير الكافر رأسه ليطش بالله ما لا يليق ، فلن يجد مثل هذا الطش أبدا .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليا ، وإن لم يشكروا ولم يؤمنوا فما الذى يناله الحق من عذابهم ؟ ونعلم أن عظمة الحق أنه لا يوجد شئ من طاعة يعود إلى الله بنفع ، ولا يوجد شئ من معصية يعود إلى الله بالضرر ، ولكنه يعبر النفع والضرر عشرين على خلق الله لا على الله - سبحانه - .

وسبحانه يريدنا طائعين حتى نحقق السلامة فى المجتمع ، سلامة البشر بعضهم من بعض . إذن فالسألة التى يريدنا الحق ، لا يريدنا لنفسه ، فهو قبل أن يخلق الحق موجود ويكل صفات الكمال له ، ويصفات الكمال أوجد الخلق . وإيجاد الخلق لن يريد معه شيئا ، ولذلك قال فى الحديث القدسى :

« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنتكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنتكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنتكم قاموا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مائة ما نقص ذلك مما عندى شيئا إلا كما يُنقص المحيط إذا أدخل البحر . » (١)

«إِنْ شِئْتَ يَرْجِعْ إِلَى اللَّهِ» . إِنْ شِئْتَ يَرْجِعْ إِلَى اللَّهِ .
ولسطر إلى الرحمة من الحق سبحانه وتعالى الذي خلق خلقاً ثم هي الخلق من
الخلق ، واعتبر سبحانه أن من يحسن معاملة المخلوقين مثله فهو طائع لله ، ويحببه الله
لأنه أحسن إلى صفة الله .

« مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِكُمْ إِذَا شُكِرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » فَإِنْ تَشْكُرُوا وَتُؤْمِنُوا فَلَنْ يَغْفَلَ اللَّهُ
بِعَذَابِكُمْ شَيْئاً . أَي فَقَدْ أَبْعَدْتُمْ عَنْكُمْ عَذَابَ اللَّهِ عَنْ اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ

وسبحانه يريد أن يعدل مزاج المجتمع وتفاعلات أفرادها مع بعضهم بعضاً ،
وذلك حتى يكون المجتمع ذا بقاء وعناء وتعايش . ويعلم أن لكل إنسان سمة
وموهبة ، وهذه الموهبة يريد أن يعيدها للمجتمع .

عسى الجائر أن يكون لإنسان ما أرضى ويريد أن يقيم عليها ساء ، وصاحب
الأرض ليس مفترض فيه أن يدرس الهندسة أولاً حتى يصمم لبناء ورسومه ، وليس
مفترض فيه أن يتقن حرفة السد ليس البيت ، وكذلك ليس مفترض فيه أن يعلم
حرفة الصلابة والكهرباء وغيرها .

وكذلك ليس من المفروض فيمن يريد ارتداء جلاباب أن يتعلم جزء الصوف من
العلم أو عزل القطر وكيف ينسجه وكيف يقوم بتفصيله وحياته من بعد ذلك ،
لا ، لا بد أن يكون لكل إنسان عمل ما ينفع الناس . إذن فكل إنسان عمل يرفع
الناس به حتى يتحقق الاستطراق للناس ، ولأن كل منا يحتاج إلى الآخر فلا بد من
إصدار التعاليم السليمة في الحياة . لأن يكون المراك هو أساس كل شيء ، لأن
المراك يصفى القوة ويذهب بها سدى ، وسبحانه يريد كل قوى المجتمع متساندة
لا متعادلة ، ولذلك قال « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِكُمْ إِذَا شُكِرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » . أما إن لم
تتشكروا وتؤمنوا ، فعذابكم تأديب لكم ، لا يعود عن الله بشيء .

ولماذا وضع الحق الشكر مع الإيمان ؟ لنعرف أولاً ما الشكر ؟ الشكر : هو إهداء
ثناء إلى المفضل من نالته نعمته ، فتوجه الشكر يعني أن تقرب من أسدى بك معروفاً .
« كَثْرَ خَيْرُكَ » ، وما الإيمان ؟ إنه اليقين بأن الله واحد .

لكن ما الذي يسبق الآخر . الشكر أو الإيمان ؟ إن الإيمان بالذات جاء بعد الانتفاع بالنعمة ، فعندما جاء الإنسان إلى الكون وجد الكون مظلماً ، ولم يقل له أحد أى شيء عن أى دين أو خالق . ألا نهو نفس هذا الإنسان إلى الاستشراق إلى معرفة من صنع له هذا الكون ؟

وعندما يأتي رسول ، فالرسول يقول للإنسان . أنت تبحث عن القوة التي صنعت لك كل هذا الكون الذي يحيط بك ، إن اسمها الله . ومطلوبها أن تسير على هذا المنهج . هنا يكون الإيمان قد وقع موقعه من النعمة . فالشكر يكون أولاً ، وبعد ذلك يوجد الإيمان ، فالشكر عرفان إحماني ، والإيمان عرفان تفصيلي . والشكر متعلق بالنعمة . والإيمان متعلق بالذات التي وهبت النعمة

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً علياً » والحق سبحانه يوضح لنا : أنا الإله وأهب النعمة أشكركم . كيف يكون ذلك ؟

لتضرب هذا المثل . والله المثل الأعلى . أنت اشتريت لابنك بعضاً من اللعب ، ولم تفعل ذلك إلا بعد أن استوفيت ضرورات الحياة ، فلا أحد يأتي باللعب لابنه وهو لم يأت له بطعام لو ملابس .

إذن قامت تائن لابنك باللعب بعد الطعام والملبس ليلاً وقت فراغه ، وهذا يعني أن لضرورات قد اكتملت . وحين تقول لابنك : إن هذه اللعبة للعب فقط ، ستأخذها ساعة تحب أن تلعب ، ونصعها في مكانها وقت أن نذاكر ، فكل شيء هنا في هذا المنزل له مهمة يجب أن يؤديها . وهذا يعني إنك كوالد تريد أن تؤدب ابنك حتى يلعب بلعبته وقت اللعب ولا يلعب بأي شيء غيرها في المنزل ؛ لأنه لو لعب بكل شيء في المنزل فلا بد من أن يكسر شيئاً ، فلا مجال للعب في التلفزيون أو في الساعة أو الساعة أو الساعة حتى لا تتعطل تلك الأجهزة

وأنت كوالد تريد أن تفرق بين شيء يلعب به وشيء يجهد به . وأشياء الجهد لا توجد إلا عند طلبها فقط ، فالمسألة لا تستخدم إلا ساعة غسل الملابس ، والساعة لا تستخدمها إلا لحظة أن نرغب في معرفة الوقت . والمسألة لا نفتحها إلا ساعة

تريد أن تستخرج شيئاً تأكله أو تشربه ، وإيواند يأتى لابن بقليل اللعب ليضع له حدا بين الأشياء التي يمكنه أن يلعب بها وبين الأشياء التي لا يصح أن يلعب بها ، فأشياء المنزل يجب ألا يقرب منها الابن إلا وقت استعياها . لكن بالنسبة للعبة فالابن يلعب بها عندما يحين وقت اللعب ، لكن عليه أن يحافظ عليها . وعندما يرتب الوالد ابنه ، ويجهده منفا للتعليمات ، ويحافظ على حاجات المنزل ، ويلعب بلعبه محافظا عليها . وإن لم يعلم الأب ابنه ذلك فقد يفسد الابن لعبه

وحيث يقوم الابن بتنفيذ تعليمات أبيه فالأب يرضى عنه ويعد به . وعندما يخرج لعبه جديدة في السوق فالأب الراضى عن ابنه يشتري له هذه اللعبة الجديدة ؛ لأن الولد صار مأموماً ؛ لأنه يعرف قواعد اللعب مع المحافظة على أداة اللعب . ويعرف أيضا كيف يحافظ على حاجات المنزل . ويزداد رضاء الأب عن تصرفات الابن ويشأ عن هذا الرضاء أن يشتري الأب لعبا جديدة . فإذا كان ذلك هو ما يحدث في العلاقة ما بين الأب والابن ، وهما مخوفان لله ، فما بالنا بالخالق الأعلى سبحانه وتعالى لذي أوجد كل المخلوقات ؟

إن الإنسان حين يضع كل المسائل في ضوء منهج الله ، فانه شاكراً وعيماً ؛ لأن الله يرضى عن العبد الذي يسير على منهجه ، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطى له زيادة . فانه شاكراً بمعنى أن الشر إن أحسنو استقبال النعمة بوضع كل نعمة في مجامع فلا تعدى نعمة جادة على نعمة هائلة ؛ ولا نعمة هائلة على نعمة جادة ، فانه يرضى عن العباد .

ومعنى رضاء الله أن يعطى البشر أشياء لوست من الضرورات فقط ولكن ما فوق ذلك . فسبحانه يعطى الضرورات لكل حتى الكافر ويعطى سبحانه ما فوق الضرورات وهي أشياء تسعد البشر

إذن فمعنى أن الله شاكراً . . أى أنه سبحانه ومعالي راض . ويشيب نتيجة لذلك ويعطى الإنسان من جنس الأشياء ويسمو عطاؤه ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿لَنْ شَكْرُكُمْ لَا يَبْدُنُكُمْ﴾

(عن الآية ٧ سورة إبراهيم)

والشكر هما موجه من العبد للرب ، والريافة من الرب إلى العبد . وإياك أيها الإنسان أن نصنع الأشياء شكلها ، مثل الطفل الذي يصون لعبته لحظة أن يرى الأب . ومن فور أن يجتفى الأب من أمام عيني الطفل فهو يفسد للعبة ، والله ليس كالأب أبداً ، فالأب قدراته محدودة ، ولكن الله هو الخالق الأعلى الذي لا تخفى عليه خافية أبداً وسبحانه شاكراً ، وهو أيضاً عليهم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحصى آذان المجتمع الإيمان من : قالات السوء ، أي من الألفاظ الرديئة ؛ لأننا نعلم أن الناس إنما يتكلم بما تسمع ، فاللفظ الذي لا تسمعه الأذن لا تجد لسان يتكلم به ، ويجد الطفل الذي نشأ في بيت مهذب لا يطق الألفاظ قبيحة ، وبعد ذلك نحىء على لسانه ألفاظ قبيحة وحيث نتساءل : من أين جاءت هذه الألفاظ على لسان هذا الابن ؟ ونعرف أنها جاءت من الشارع ؛ لأن البيئة الدائمة للطفل ليس بها ألفاظ رديئة ، وعندما يتقصي الإنسان عن مصدر هذه الألفاظ ، يعرف أن الطفل المهذب قضى بعضاً من الوقت في بيئة أخرى تسربت إليه منها بعض الألفاظ الرديئة .

إذن فاللغة هي نت المحاكاة . وما تسمعه لأذن يحكيه اللسان . ونعلم أن اللغة ليست جسداً وبيست دماً ، بمعنى أن الطفل الإنجليزي لو نشأ في بيئة عربية ، فهو يتحدث العربية . وبو أخذنا طفلاً عربياً ووضعناه في بيئة إنجليزية فسيتكلم الإنجليزية .

واللغة الواحدة فيها ألفاظ لا يتكلم بها لسان إلا إن سمعها ، وإن لم يسمعها الإنسان فلن يطق بها . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحصى المجتمع الإيمان من قالات السوء التي تعرق آذان الناس لأنها ستعطيهم لغة رديئة ؛ لأن الناس إن

تكلمت بقالات السوء ، فيكون شكل المجتمع غريباً ، وتترده فيه قالات سوء في آذان السوء ، فكأن الحق سبحانه يوضح : إياكم أن تطلق ألسنتكم بأشياء لا يحبها الله ، فليست المسألة أن يريح الإنسان نفسه فقط بنطق كلمة ، ولكن نطق هذه الكلمة سيرهق أجيالاً ؛ لأن من يسمع الكلمة الرديئة سيرددها ، وسيسمعها غيره فيرددها ، وتتوالى انقذوة السيئة . ويتحمل الوزر الإنسان الذي نطق بكلمة السوء أولاً

وقالات السوء هذه قد تكون بالحق وقد تكون بالباطل ، فإن كانت في الحق مثلاً فلن نستطيع أن نقول : إن كل الناس أهل سوء . وقد يتدبر إنسان آخر بسبب ، ويجوز أن يدعى إنسان على آخر سبباً . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي الأذان الإيمانية من ألسنة السوء ، لذلك يقول : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » ومقابلها بالطبع هو « أن الله يحب الجهر بالحسن من القول » وساعة يحك الحق المجتمع هذه الحكمة للإيمانية ، أيعالج ملكة على حساب ملكة أخرى ؟ لا

ونعلم أن النفس فيها حب الانتقام وحب الدفاع عن النفس وحب الثأر وما يروح به عن نفسه ويخفف ما يجده من العيظ . والمثل العربي يقول : « من استعصب ولم يفضب فهو حمار » . لأن الذي يستعصب ولا يعصب يكون ناقص التكوين ، فهل معنى ذلك أن الله يمع الناس من قول كلمة سوء ينفت بها الإنسان عن صدره ويريح بها نفسه ؟ لا ، لكنه - سبحانه - يضع شرطاً لكلمة السوء هو : « إلا من ظلم » ؛ لأن الظلم هو أخذ حق من إنسان بغيره . وكل إنسان حريص على نفسه وعلى حقوقه . فمن وقع ظلم على إنسان فمكاثات نفسه تغضب وتثور ، فإما أن ينفت بما يقول عن نفسه ، وإما أن يكبت ويكتم ذلك .

فإن قال الله : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » واكتفى بذلك ، لكان مجتأً للنفس البشرية وعملية الكبت هذه وإن كانت طاعة لأمر الله لأنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، ولكن قد ينفلت الكبت عند الانفعال ، وينفجر ، لذلك يضع الحق الشرط وهو وقوع ظلم . فيوضح سبحانه أننا لا أحب الجهر بالسوء من القول ، وأسمع به في حدوده الممتدة عن غيط القلوب ؛ لأن لا أحب أن أصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

وإن الغضب حرة توفد في القلب ألم نروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فليتم فإن لم يزل ذلك فليترضاً بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء^(١) .

أي أن يتحرك الإنسان من فور إحساسه بالغضب ، فيغير من وضعه أو يقوم إلى الصلاة بعد أن يتوضأ أو يغتسل ، لأنه بذلك ينقث تنفثاً حركياً لمخفف من ضغط المواجه على النفس الفاعلة ، تماماً كما يفت الإنسان صبراً عن آلة بها بخار ليخرج بعض البخار .

إذن فمن وقع عليه ظلم له أن يجهر بالسوء . والخبر له فائدتان : الأولى : أن يمت الإنسان عن نفسه فلا يكتب ، وثاني : أنه أشاع وأعلن أن : هذا إنسان ظالم ، وبذلك يمتاط الناس في تعاملهم معه . وحتى لا يندع إنسان نفسه ويظن أنه بمنجاة من سيئاته ، ولو ستر كل إنسان الظلم الذي وقع عليه لاستشرى الظلم في عمل السيئات . ولكن إياك أن تتوسع أيها العبد في فهم معنى كلمة « ظلم » هذه ، لأن الذي يتالك من ظلمك إما فعل وإما قول . وعليك أيها المسلم أن تقيس الأمر بمقياس دقيق من قدر ما وقع عليك من ظلم .

﴿ لَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكَ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يعطينا في الاستثناء إلا على قدر الضرورة . ويوضح : إياكم أن تزيدوا على هذه الضرورة ، فإن كان ظلمكم بقول فأنأ السمع . وإن كان ظلمكم بفعل فأنأ العليم ، فلا تزيد واحد عن حدود اللياقة .

وبذلك يضع الحق الضوابط الإيمانية والنفسية فأزاح الكبت وى الوقت نفسه لم يفعل باب الطموح الإيماني . لقد سمح للعبد أن يجهر إن وقع عليه ظلم لكن إن استلك الإنسان الطموح الإيماني فيمكنه ألا يجهر وأن يعفو . إذن فهناك فرق بين أمر يضعه الحق في يد الإنسان ، وأمر يلزمه به قسراً وإكراها عليه ، فمن ناحية الجهر ، جعل سبحانه المسألة في يد الإنسان ، ويحب سبحانه أن يعفو الإنسان ، لأن العفو

(١) رواه البيهقي في الشعب ، والترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله (توفد) ورواه أحمد وأبو داود .

القرآنية يتساند بعضها مع بعض . وسبحانه يقول :

﴿ اَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

فإن أباح الله لك أن تجهز بالسوء من القول إذا ظلمك أحدٌ ، فقد جعل لك ألا تجهز بل تعفو عنه ، وغالب الظن أن صاحب السوء يستخزي ويعرف أن هناك أناساً أكرم منه في الخلق ، ولا يتعب إنسان إلا أن يرى إنساناً خيراً منه في شيء . وعدم يرى الظلم أن المظوم قد عما فقد تتمجر في نفسه الرغبة أن يكون أفضل منه .

إذن فالمبدأ الإيمان : « ادفع بالتي هي أحسن » جعله الله محلاً محبباً ولم يجعله قسراً ، لأنك إن أعطيت الإنسان حقه ، ثم جعلت لأريحته أن يتنازل عن الحق فهذا إرضاء للكفر . وهكذا ينمي الحق الأريحية الإيمانية في النفس البشرية ، لأنه لو جعلها قسراً لأصلح ملكة عن حساب ملكة أخرى . ولذلك إذا رأيت إنساناً قد اعتدى على إنسان آخر ، فدفع الإنسان المعتدى عليه بالتي هي أحسن وعفا وأصلح فقد يتصيح حال المعتدى ، وسبحانه القائل : (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) .

فإذا تخادى من بعد ذلك فعل الإنسان أن يعرف أن الله لا يكذب أبداً ، ولا بد أن الخلل في سلوكك يأمر تفكر أنك دفعت بالتي هي أحسن .

قد يكون الذي دفع بالتي هي أحسن قد قال بلهجة من التعالي : سأعفو عنك ، ومثل هذا السلوك المتكبر لا يجعل أحداً ولئياً حقيقياً . لكن إن دفع حقيقة بالتي هي أحسن تواضعاً وصراحة ، فلا بد أن يصير الأمر إلى ما قاله الله . (فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) . والتفاعلات النفسية المتعاقبة يضعها الله في إطاراته واضحة وسبحانه القائل :

﴿ قَسِرَ اَعْتَدِي عَلَيْكَ قَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

وذلك حتى لا يستشري المعتدي أبشراً ، فهناك إنسان إذا تركاه مرة ومرة . يستشري ، لكن إذا ما أرقمناه عند حده فهو يسكت ، وبدلنا نرحم المجتمع من انتشاره الفساد ، ويُصعب الحق المسألة في رد الاعتداء .

ويشور سؤال : من القادر على تحقيق المثلية بعدالة ؟ . ونجد على سبيل المثال إنساناً ضرب إنساناً آخر صمعة على الوجه ، فبأية قوة دفع قد ضرب ؟ وفي أي مكان ضرب ؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتسلوية أمر صعب . وما دام الخاسر به أن اعتدى بمثل ما اعتدى به عل ، ولن أستطيع تحقيق المثلية ، ولربما زاد الأمر على المثلية ، وبعد أن كنت المعتدى عليه صرت المعتدى ، بذلك يكون العفو أقرب وأسلم .

والعمليات الشعورية التي تتألب لإنسان في التفاعلات المتضاربة يكون لها مواءمة في النفس تدفع إلى النزوع والعملية النزوعية هي رد الفعل لما تدركه ، فإن أذاك إنسان وأنتعتك واعتدى عليك فأنت تبدل جهداً لتكظم العيظ ، أي أن تحبس العيظ على شدة . فالعيظ يكون موجوداً ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط . وعلى المعتاظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقي العيظ في القلب .

﴿وَالْكَاظِمِينَ أَغْيَظَ﴾

(من الآية ١٣١ سورة آل عمران)

هذه مرحلة أولى تتبعها مرحلة ثانية هي :

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾

(من الآية ١٣٢ سورة آل عمران)

فإذا كان المطلوب في المرحلة الأولى منع العمل النزوعي ، فالأرقى من ذلك أن تعفو ، والعفو هو أن تخرج المسألة التي تعيظك من قلبك . وإن كنت تطلب مرحلة أرقى من كظم العيظ والعفو فأحسن إليه ، لأن من يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيماناً . وعندما نرى مريضاً في بدنه فأنت تعاونه وتساعدته وإن كان عدواً لك . وقتنسى عدوانه ، هي بدلتنا بالمعصاة في قيمه ؟ إنه يحتاج منا إلى كظم العيظ ، لو العفو كدرجة أرقى ، أو الإحسان إليه كمرحلة أكثر علواً في الارتقاء .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبيح أن تعتدى بالمثل ، ثم يفسح المجال لمكظم لغيره فلا تعتدى ولكن يظل السب في القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى المهور وأن نخرج المسألة من قلبنا ، ثم يرتقى ارتقاء آخر ، فيقول سبحانه : (والله يحب المحسنين) ، ومن فيه غير راغب في سب الله ؟ وهكذا ترى أن الدين الإسلامي يأمر بأن يحسن المؤمن إلى من أساء إليه .

وقد يتساءل إنسان : كيف نطلب مني أن أحسن إلى من أساء إلي ؟ والرد : أنت وهو لستما معزول عن القيوم ، فهو قيوم ولا تأخذ سنة ولا نوم ، وكل شيء برئى له وكلما صنعة الله ، وعندما يرى الله واحداً من صحنه يعتدى عليك أو يسيء إليك فسبحانه يكون معك ويحرك ، ويقف إلى جانبك لآلئك المعتدى عليه . إذن فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه في جانبك ، وتكون تلك الإساءة في جوهرها هدية لك .

وعندما نفلسف كل المسائل نجد أن الذي عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم ونار نفسه ؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، وحين يعفو فهو يجعل المسألة لله وقدرته سبحانه غير محدودة ، إن أراد أن يرد عليه ، ومعطاء غير محدود إن أراد أن يرصى المعتدى عليه . هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظنوم العاني المحسن . وهو السميع العليم بكل شيء . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنْ يُبَدُّوْا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعْفَوْا عَنْ سُوْءٍ

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيْرًا ۝١٤٩﴾

لقد عرفنا أن الحق لا يسمح لك بالجهر بالسوء من القول إلا إذا كنت مظلوماً ، وهذا يعني أن المسألة تحتل الجهر وتحتل الإحصاء ، فقال - : « إن تبدوا خيراً ، أي إن تظهر الخير ، أو تحصى ذلك ، أو تعفو عن سوء - وكل هذه الأمور من ظاهر وخفى من الأغيار الشريفة ، لكن شيئاً لا يحصى على الله . ولا يمكن أن يكون لمعفو مزية

إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لم قال . عفو . وسبحانه يعفو مع القدرة . فإن أردت أن تعفو فستحقق بأخلاق منيع الله ، فيكون لك العفو مع القدرة . ولما أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخري أو نستذل ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، ومادنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة وهذه هي المزية الإيمانية ؛ لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والناس تنظر إلى العاجز الذي يقول : إنه عفا - وهو على غير قدرة - تراه أنه استعزى ، أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منيع الله فليأخذ من عطاءات الله في الكون ، ليكون قادراً وحريراً بحيث إن ناله سوء ، فهو يعفو عن قدرة « فإن الله كان عفواً قديراً » .

وقلنا من قل : إنك إذا لمحت كلمة « كان » على نسبة لله سبحانه وتعالى كنسبة الغفران له أو الرحمة ، فعلى أن نقول : كان ولا يزال ، لأن الفعل مع الله ينحل عن الزمان لماضي وعن الحاضر وعن المستقبل ، فهو سبحانه مادام قد كان ، وهو لا تناله الأغيار ، فهو يظل إلى الأبد . ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ،
وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ
يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾

وسبحانه يريد أن يجعل من قضية الإيمان قضية كلية واحدة لا أبعاد فيها ، فليس إعلان الإيمان بالله وحده كافياً لأن يكون الإنسان مؤمناً ؛ لأن مقتضى أن تؤمن بالله يحتاج إلى رسول يبرمك أن الخلق هو الذي سخر لك الكون واسمه الله .

وأنت لا تهتدى إلى معرفة اسم القوة الخالقة لك إلا بواسطة رسول منزل من عند الله

ويعرف أن عمل العقل في الاستنتاج المعقدي عاجز عن معرفة اسم خالق الكون ؛ لأن الإنسان قد طرأ على كون منظم ، وكان من الواجب عليه أن يلتفت لفئة ليعلم القوة التي سبقت هذا الوجود وخلقته وأن الإنسان قد طرأ على وجود متكامل . وقد يسمع الإنسان من أبيه - مثلاً - أن هذا البيت بناء الأب أو الجد ، وذلك الشيء فعله فلان ابن فلان . لكن لم يسمع أحداً يقول له : (ومن بنى اسماء ؟) ولم يسمع أحداً يقول : (ومن خلق لشمس ؟) ، مع أن الناس تدعى ما ليس لها ، فكيف يُترك أعظم ما في كون الله بدون أن نعرف من أوجده ؟ .

إننا نجد الناس تؤرخ للشيء النافذ أو المهم نسبياً في حياتهم ، نجد دراسات عن تاريخ أحجار ، ودراسات عن تاريخ صناعة الأشياء ؛ تاريخ المصباح الكهربائي الذي اخترعه ادیسون وقام بتوليد الكهرباء من مصادر ضئيلة ويسيره ، باختصار ، نجد أن كل شيء في هذا الوجود له تاريخ ، وهذا التاريخ يرجع بالشيء إلى أصل وجوده وأنت إن سببت أي صعة مهما كانت مهمة أو ناعمة نكتشف أن واحداً تلقاها عن واحد ، ولم يتكرها هو دفعة واحدة

إن كل مبتكر أخذ ما انتهى إليه سابقه وبدأ عملاً جديداً إلى أن وصلت المخترعات بميلادها ، ومن يصدق أن مصباحاً يُضيء وينطفئ ويحترق يصنعه إنسان ونعرف له تاريخاً ، وبعد ذلك ننظر إلى الشمس التي لم نخف ولم تضعف ولم تنطفئ ولم تحترق ، والمصباح ينبر حيناً قليلاً يسيراً ، والشمس تنبر كوناً ووجوداً ، ألا نحتاج الشمس إلى من يكثر في تاريخها ؟

لقد سبق لنا أن قلنا : إن الإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة بعيدة عن فكرة الدين ويعيداً من بلاغ الرسل عن الخالق وكيفية الخلق يصبح الهداية ، فهو يقول لنفسه : تختلف مقادير الناس باختلاف مراكزها وقوتها فيما يفعلون ، هلك من يجلس على كرمي من شجر الحمير . وآخر على كرمي مصروع من شجر الورد ، وثالث يجلس على حصيرة .

إن الإنسان يعيش بصناعات غيره من البشر حسب قدره ومكانته ؛ فالريعي أو البدوي يشعل النار بصك حديدة بحجر الصوان ويحتفظ بالنار لمدة ليستعملها لأكثر من مرة ، وعندما يرتقى في استخدام النار يستخدم « مسرجة » ، ولما يزداد تخضرا استخدم « مصباح جاز » برجاج ولها أرقام تدل على قدرتها على الاضاءة .

فهناك مصباح رقم خمسة ، ورقمها دليل على قوتها الخافتة ، وتضاعف قوة « المصباح » من بعد ذلك حسب المساحة المطلوب إثارتها . ولما ارتقى الإنسان أكثر استخدم « الكتوب » . ولما ارتقى أكثر استخدم الكهرباء أو النيون أو الطاهر الشمسية ، فإذا ما أشرقت الشمس فكل إنسان يطفىء الضوء الذي يستعمله ، فتوردها بغنى عن أى نور . وفي الليل يحاول الإنسان أن تكون حالة الكهرباء في منزله جيدة خشية أن ينقطع سلك ما يظلم المكان . فما بالك بالشمس التي لا يحدث لها مثل ذلك .

إننا نجد الإنسان على مر التاريخ يحاول أن يرقى إلى فهم طلاقة قدرة الحق ، وإن لم يأت رسول ، أما أسماء القدرة الخالقة فلا يعرفها أحد بالعقل بل بوساطة الرسل . فاسم « الله » اسم توقيفى . فكيف يتأتى - إذن - مثل قول هؤلاء . سنؤمن بالله ونكتم برسله ؟ كيف عرفوا - إذن - أن القوة التي سيؤمنون بها اسمها الله ؟ لا بد أنهم قد عرفوا ذلك من خلال رسول ، لأن الإيمان بالله إنما يأتي بعد بلاغ عن الله لرسول ليقول اسمه لمن يؤمن به .

وهل الإيمان بالله كخوة خفية قرية مبهمة وعظيمة يكتفى ؟ أو أن الإنسان لا بد له أن يفكر فيها تطلبه منه هذه القوة ؟ وإذا كانت هذه القوة تطلب من الإنسان أن يسير على منهج معين ، فمن الذى يبين هذا المنهج ؟

لا بد إذن من الرسول يبلغنا اسم القوة الخالقة ومطلوبها من الإنسان للسير على المنهج ، وشرح لك كيفية طاعة هذه القوة فلا أحد - إذن - يستطيع أن يحصل الإيمان بالله عن الرسول ، ولا كان إيمان بقوة مبهمة . ولا يجترىء صاحب هذا اللون من الإيمان أن يقول : إن اسم هذه القوة « الله » ؛ لأن هذا الاسم يحتاج إلى بلاغ من رسول .

إذن فعندما يسمع أحداً إنساناً يقول : أن أؤمن بالله ولكن لا أؤمن بالرسول :
علينا أن نقول له : هذا أول الزلل العقلي ، لأن الإيمان بالله يقتضي الإيمان ببلاغ جاء
به رسول ، لأن الإيمان بالله لا يفصل عن الإيمان بالرسول .

والحق سبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقيّة المخلوقات ، ولا نجد
من يدعى أن آدم هو أول من عمر هذا الوجود .

وما آدم في منطق العقل واحد ولكنه عد القياس أوامد

ومن الممكن أن نقول : إن هناك خلقاً كثيراً قد سبقوا آدم في الوجود ، ولكن آدم
هو أول الجنس البشري . وعندما حلق الله علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يسير
في الوجود ، فلم يكن قد تعلم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ،
ولما استطاع - على سبيل المثال - أن يقول لآدم من أثنائه : انظر أشرق الشمس أم
لا ؟

إذن كان لا بد لآدم من معرفة الأسماء كلها من خلال معلم ، لأن اللغة بنت
المحاكاة ، لأن أحداً لا يستطيع أن يتكلم كلمة ، لا بعد أن يكون قد سمعها .
والواحد سمع من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ، وتتوالى المسألة إلى أن تصل
إلى آدم ، فمن سمع آدم حتى يتكلم أول كلمة ؟ لا بد أنه الله ، وهذه مسألة يجب
أن يحترف بها كل إنسان عاقل . إذن قول الحق في قرآنه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

هو كلام منطقي بالإحصاء الاستقرائي ، وهو قول يتمير بمنتهى الصدق .

والإنسان منا عندما يعلم ابنه الكلام يعلمه الأسماء . أما الأفعال فلا أحد يعرف
كيف تعلمها . الإنسان يقول لابنه : هذا كوب ، وهذه منضبة ، وذلك طبق ،
وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه : شرب ، معاه كذا ، وه أكل ، معناها
كلها . إذن فالخبرة الأولى للكلام هي الأسماء ، وبعد ذلك تأتي المزاولة
والممارسات ليتعلم الإنسان الأفعال

لقد ترك الحق لنا في كونه أدلة عظيمة تناسب عظمته كحالتنا لهذا الكون .
والرسول هو الذى يأتى بالبلاغ عنه سبحانه ، فيقول لنا اسم القوة . « الله » ،
وصفاتنا هي « كذا » ، ومن يطعمها يدخل الجنة ، ومن يعصها يدخل النار ، ولو لم
يوجد رسول مظل تائبين ولا نعرف اسم القوة الخالقة ولا نعرف مظلومها ، وهذا
ما يرد به على الجمعية التي تعبد الشمس أو تعبد القمر أو النجوم ونقول لهم : هل
أنتم تعبدون الشمس ؟ لعلمكم فعلمت ذلك لأنها أكبر قوة في نظركم .

لكن هناك سؤال هو . « ما العبادة » ؟ الإجابة هي : العبادة طاعة عابد لمعبود ،
فإذا علمت منكم الشمس أن تفعلوه ومادا تهتكم ومنعتكم الشمس ألا تفعلوه ؟
ويعترف عبدة الشمس : لم تطلب الشمس منا شيئا . وعلى ذلك فعبادتهم للشمس
لا أساس لها ؛ لأنها لم تحدد منهجا لعبادتها ، ولا تستطيع أن تعد شيئا لمن عبدها ،
فإنه بلا منهج لا قيمة له . وهكذا يرى أن عبادة أى قوة غير الله هي عبادة تحمل
تكديها ، والإيمان بالله لا ينصل اند عن الإيمان بالقوة الملعة عن الله إنها الرسل .

ويشرح الرسول لنا كيف ينصل بهذه القوة الإلهية ، ونشرح القوة الإلهية لنا كيفية
اتصاله بالرسول البشرى بواسطة خلق آخر خلفته هذه القوة المطلقة ؛ لأن الرسول
من البشر ، والبشر لا يستطيع أن يتلقى من القوة المعجزة الكبرى . ونحن نفعل مثل
هذه الأشياء في صناعتنا . ونعلم أن الإنسان عندما يريد أن ينام لا يرضى في وجود
ضوء في أثناء نومه ، فيشغل الليل سكنا ويتمتع بالطمعة ، لكن إن استيقظ في الليل
فهو يخاف أن يسير في منزله بدون ضوء حتى لا يصطدم بشيء ، لذلك يوقد مصباحا
صغيرا في قوة الشمعة الصغيرة ليعطى نفسه الضوء ، ونسميها « النافذة » .

ولا نستطيع توصيل هذا المصباح الصغير بالكهرباء مباشرة ، وإنما نقوم بتركيب
محول صغير يأخذ من القوة الكهربائية العالية ويعطى للمصباح الصغير ، فما بالنا بقوة
القوى ؟

إن الله جعل خلقا آخر هم الملائكة ليكونوا واسطة بينه وبين رسله وهؤلاء
الرسول أعددهم سبحانه إعدادا خاصا لتلقى هذه المهمة . إذن فالذين يريدون أن
يؤمنوا بالله ثم يكفروا برسوله نقول لهم : لا ، هذا إيمان ناقص ووضع الحق

سيحانه وتعالى الإيمان بالرسول كلهم في صيغة جمع حتى لا تفهم كل أمة أن رسولا فقط هو الرسول المنزل من عند الله ، بل لا بد أن تؤمن كل أمة بالرسول كلهم ؛ لأن كل رسول إنما جاء هل مبعاده من متطلبات المجتمع الذي يعاصره ، وكلهم جاءوا بعقائد واحدة ، فلم يأت رسول بعقيدة مخالفة لعقيدة الرسول الآخر ؛ وإن اختلفوا في الوسائل والمسائل التي ترتب عليها الارتقاءات الحياتية . وقد خلق الحق أولاً سيدنا آدم وخلق به زوجته حواء ، اثنين فقط ثم قال سيحانه :

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

كان الاثنان يعيشان معاً وأنجبا عدداً من الأبناء ، وتناسل الأبناء فصدر مطلباً لكل أسرة من الأبناء بيتاً ، وكل بيت فيه أسرة يحتاج إلى رفعة من الأرض يستخرج منها أفراد الأسرة عبرات تكفي الطعام . وكل فرد يحتاج على الأقل إلى نصف فدان ليستخرج منه حاجته للطعام . وكلما كثر النسل اتسعت رقعة الوجود بالمواصلات البدائية ، فهذا إنسان ضاقت به منطقته فرحل إلى منطقة أخرى فيها مطر أكثر ليستفيد منه أو خير أكثر يستخرجه . وتنتشر الجماعات وتعمزل . وصارت لكل جماعة عادات وتقائيد وأمراض ومعايير غير مرجوة في الجماعة الأخرى . ولذلك ينزل الحق سيحانه وتعالى رسولاً إلى كل جماعة ليعالج الداءات في كل بيئة على حدة . وسخر الحق سيحانه وتعالى بعض العقول لاكتشافات الكون ، وبعد ذلك يصبح الكون قطعة واحدة ، فالحدث يحدث في أمريكا لثمة في اللحظة نفسها في مصر . وزادت الارتقاءات . ولذلك كادت العادات السيئة تكون واحدة في المجتمع الإنساني كله ، فتظهر السيئة في أمريكا أو ألمانيا لتجدها في مجتمعنا . إذن فالارتقاءات الطمرحية جعلت العالم وحدة واحدة : آفاته واحدة ، وعاداته واحدة . وعندما يأتي الرسول الواحد بشملهم كلهم .

ولذلك كان لا بد أن يأتي الرسول الخاتم الجامع صلى الله عليه وسلم ؛ لأن لعالم لم يعد منفزلاً ، ليحاطب الجميع كله ، وهو خير الرسل ، وأمه خير الأمم إن اتعت تعاليمه . ومن صروقه إيمان رسول الله والذين معه أن يؤمنوا بمن سبق من الرسل . والذين يحاولون أن يفرقوا بين الرسل هم قوم لا يفقهون . فاليهود آمنوا بموسى عليه السلام وأرهبوه وكفروا بعيسى . وعندما جاء عيسى عليه السلام آمن به بعض ،

وعندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم آمن به بعض وكفر به بعض . ولذلك سمي الحق كفرهم بالنبي الخاتم : (ثم ازدادوا كفراً) . أى أنه كفر فى القمة ، فلن يأتى نبي من بعد ذلك . واكتمل به صلى الله عليه وسلم موكب الرسالات .

إذن فالمراد من الآية أن الإيمان فيه إيمان قمة ، تؤمن بقوة لكنك لا تعرف اسم هذه القوة ولا مطلوبات هذه القوة ولا ما أحدثته القوة من ثواب للمطيع ولا من عقاب للعاصي . ولذلك كان ولا بد أن يوجد رسول ، لأن لعقل يقود إلى ضرورة الإيمان بالله ولرس . وجاء لرس فى موكب واحد لتصفية العقيدة الإيمانية لإله واحد ، فلا يقولن واحد . لقد آمنت بهذا الرسول وكفرت ببغية الرسل والآية التى نحن بصددنا الآن تتعرض لذلك فتقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾

(سورة النمل)

ونحن نعلم أن « كفر » معناها « ستر » . والستر - كما نعلم - يقتضى شيئاً تستره ، والشيء الذى يتم ستره موجود قبل الستر لا بعد الستر . والذى يكفر بوجود الله هو من يستر وجود الله ، فكان وجود الله قد سبق الكفر به . إذن فكلمة الكفر بالله دليل على وجود الله ونقول للكافر : ماذا سترت بكفرك ؟ وستكون إجابته هي : « الله » . أى أنه آمن بالله أولاً .

« إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله هم الاحمقى » لأن هذا أمر غير ممكن ، وكل رسول إنما جاء ليصل المرسل إليهم بمن أرسله . ولذلك نجد قوله الحق :

﴿ وَمَا يَقُولُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَبَهُمُ اللَّهُ وَرُسُلُهُمْ مِنْ قَبْلِهِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

إنه حدث واحد من الله ورسوله . لذلك نجد أن الحمقى هم من يريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله : « ويقولون مؤمن ببعض ونكفر ببعض » لهُؤْلَاءِ نقول . إن الإيمان قضية كلية ، هموكب الرسالة من الحق سبحانه وتعالى يتضمن عقائد واحدة

ثابتة لا تتغير . والحق يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة النساء)

وهذا يؤكد أن قصايا العقائد إنما جاءت من نبع واحد لعقيدة واحدة فإذا - إذن - يريدون بمسألة الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض الآخر ؟ يريدون السلطة الزمنية . وكاد القائلون على أمر الدين قدعاً هم الذين يتصرفون في كل أمر ، في القضاء وفي الهندسة وفي كل شيء ، لذلك وثق فيهم الناس على أساس أنهم المخلعون عن الله الذين ورنوا النبوات وعرفوا العلم عن الله . ونجد العلوم الادرتقائية في الحضارات القديمة كحضارة قدماء المصريين كانتحيط وغيرها تلك التي مارالت إلى الآن لعلراً ، إنما قام بأمرها الكهنة ، وهم - كما نعلم - المسوبون إلى الدين . كان الأصل في كل معلومات الأرض هي من هبة السماء . لماذا إذن أخرج الشر وصنوا قوانين من وصعهم ؟ لقد فعل الشر فلك لأن السلطة الزمنية استولى عليها رجال الدين .

ما معنى كلمة « سلطة زمنية » . كان الناس يلجأون إلى رجل الدين في كل أمورهم ، ويفاجأ رجل الدين بأنه المقصود من كل البشر ، ويعمره اناس بأعضالهم ويعطونه مثل القوانين التي كانت تعطى للآلهة ، فيعيش في وضع مرفه هو وأهله ويزداد سمته من كثرة الطعام والمنعة . وعندما يأتي إليه أحد في مسألة فهو يحاول أن يقول الرأي لدى يؤكد به سلطته الزمنية ، فإذا ما جاء رسول ليلخي هذه الامتيازات ، يسرع بتكديبه ؛ ليظل - كرجل كهنة - على قمة السلطة . ولذلك قال فيهم الحق :

﴿ اشْتَرَوْا بِعَابَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

أي استبدوا بآيات الله ثمنا قليلا من متاع الدنيا . فأخذوا الشيء الحقير من متاع الدنيا وتركوا آيات الله دون أن يعملوا بها .

وعندما نبحث في تاريخ القانون . نجد قانوناً إنجليزياً وأسر فرنسياً وأرومانياً ، ونجد أن المصادر الأولى لهذه القوانين هي ما كان يحكم به الكهنة . والذي جعل

الناس تنعزل عن الكهنة هو استغلالهم للسلطة الزمنية . والتفت الشر الدين عاصروا هؤلاء الكهنة أن الواحد منهم يقضي في قضية بحكم ، ثم يقضي في مثيلاتها بحكم بخلاف ، ويغير من حكمه لقاء ما يأخذ من أجر ، فتشكك فيهم الناس ، وعرفوا أنهم يلوون لأحكام حسب أهوائهم ؛ لذلك ترك الناس حكم الكهنة ، ووضعوا هم القوانين المناسبة لهم .

إذن فالسلطة الزمنية هي التي جعلت من أتباع بعض الرسل يتعصبون لرسولهم . وإذا ما جاء رسول آخر ، فإن أصحاب السلطة الزمنية يقاومون الإيمان برسائته حتى لا يأخذ منهم السلطة الزمنية . ولذلك يعادونه ؛ لأن الأصل في كل رسول أن ينفخ أتباعه والذين آمنوا به ، أنه إذا جاء رسول من عند الله فعليكم أن تسارعوا أنتم إلى الإيمان به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ آلِ نَبِيِّسَ لَمَّا أَتَيْتُكُمْ مِنْ كُنُوبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَنْ تُنْكِرُوهُ قَالُوا أَأَقْرَضُكُمْ عَنْ ذَلِكَ كُفْرًا إِسْرَارًا قَالُوا أَأَقْرَضُكُمْ قَالُوا قَاتِلُوا أَنْتُمْ وَمِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشُّعَدَاءِ ۝١١﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا أخذ الله الميثاق من البين بضرورة البلاغ عن موكب الرسالة حتى السى الخاتم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكَفِّرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَخْلُقُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٢﴾

(سورة النساء)

أي أنهم يحاولون أن يفرقوا بين الله ورسله بأحكامهم التي كانوا يتبعون فيها أهواءهم للإبقاء على السلطة الزمنية ، من أجل أن يقيموا أمراً هويين بين ، وليس في الإيمان « بين بين » ؛ فإما الإيمان وإما الكفر . والظفر إلى كل هذه الآية بحدها في معظمها معطوفات ، ولم يسم فيها الكلام وهي في كليتها معداً ، لا بد لها من خبر ، وبكى الخبر في الآية التالية .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

ود الكافرون حقا ، مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم ، لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حق ، وكافر غير ذلك ؟ نعم . فالنبي لا يؤمن بكل رسائل السماء قد يملك بعضها من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذي يبلغه . أما الذي جاءه رسول وله صلة إيمانية به ، وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحي ، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فظبح مؤكدا . (أولئك هم الكافرون حقا) .

ونلاحظ أن الحق سعة يتكلم عن الكافرين لا يفرقهم عن الحكم وأجزاء التي ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم في النص الواحد . ولا يحيل الحق الحكم إلى آية أخرى : (أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) وقد جاءها بالجزء على الكفر ملتصقا بالكفر ، فسبحانه قد جهز بالفعل للعذاب المهين وأعدته للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوفه . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الجنة عرضت على ولو شئت أن أتاكم بقطاف منها لفعلت) (١)

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو شاء الرسول أن يأتي المؤمنين بقطاف من ثمار الجنة لفعل . فليأكلوا أن الله سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرى كم واحداً قد كفر فحمد هم عذاباً على حسب عددهم ، أو كم واحداً قد آمن فحمد لهم جنة ونعياً على قدر عددهم ، بل أعد الحق الجنة على أن كل الناس مؤمنون وهم مكان في الجنة ، وأعد النار على أن كل الناس كافرون ولهم أماكن في النار . يأتي المؤمن للأخرة ويأخذ المكان المعد له ، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن في الجنة التي سبق إعدادها لمن كفر . مصداقاً لقوله الحق

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٥) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾

(سورة المؤمنون)

(١) روى البخاري في الألفان ، وابن ماجة في الإقانة ، وأحمد

فسبحانه لم يتطرق ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذي آمن ومن الذي كفر ، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها تارة أو جنة ، بل عامل حلقه على أساس أن كل الذي يأتي إليه من ابشر قد يكون مؤمناً ، لذلك أهد لكل منهم مكاناً في الجنة ، أو أنه يكون كافراً ، فأهد لكل منهم مكاناً في النار . وبعد السؤال في الآخرة للنار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٥١ ﴾

(سورة ق)

والنار تعذب المزيد للأماكن التي كانت معدة لمن لم يدخلها لأنه آمن بالله . ويرث الذين آمنوا الأماكن التي كانت معدة من لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله ورسوله وهرق بين الله ورسوله وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، وبأنى من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله ورسوله وهم المؤمنون ، هذا هو المقابل المنطقي .

والبحرء بالمقابلات أدعى لرسوخها في الذهن . مثال ذلك عندما ينظر مدير المدرسة إلى شاخين ، كل منهما في الثانوية العامة ، فيقول . فلان قد نجح لأنه اجتهد ، والثاني قد خيب وخشل . هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الاثنين .

وهاهو ذا الحق يأتي بالمقابل للكافرين بالله ورسوله .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرَقُوا بَيْنَ
أَحَدِهِمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ
اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٢ ﴾

ويؤكد الحق هنا عن أمر واضح : هو : « ولم يفرقوا بين أحد منهم » وكلمة « أحد » في اللغة تطلق مرة ويراد بها المفرد ، ومرة يراد بها المفرده ، ومرة يراد بها المتنى مذكراً أو المتنى مؤنثاً أو جمع الإناث وجمع التذكير . وهكذا نكون « أحد » في

هذه الآية تشمل كل الرسل ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَنْفِصَ اللَّهُ نَسْرَهُمْ كَمَا فَعَلَ بِالنَّبِيِّينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَالرُّسُلِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النساء)

فكلمة أحد يستوى فيها المدكر والمؤنث والمفرد والجمع وكما قال الحق عن الذين يكفرون بالله ورسوله أو يفرقون بين الرسل : « أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذابا مهينا » . يقول الحق في هذه الآية عن الذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما » فكل مقابل قد جاء معه حكمه . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا آلَ هَارُونَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطَانًا

مُبِينًا ﴿١٥٣﴾

هذا خطأ منهم في السؤال ، وكان انقروص أن يكون : يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتابا وقد حاول المشركون في مكة أن يجدوا في القرآن ثغرة فلم يجدوا وهم أمة مصاححة وبلاغة ولسان ، واعترفوا بأن لقرآن عظيم ولكن الافة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد من الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذِهِ الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿١٥٤﴾

(سورة الزخرف)

هم اعترفوا بعظمة القرآن ، واعترفوا بعظمة القرآن مع غيظهم من نزوله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم مضطربين فكرياً ، لقد اعترفوا بعظمة القرآن بعد أن نظروا إليه . . فمرة قالوا : إنه سحر ، ومرة قالوا : إنه من تلقين بعض البشر ، وقالوا : إنه شعر ، وقالوا : إنه من أساطير الأولين . وكل ذلك رهبة أمام عظمة القرآن . ثم أخير قالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .

ولكن ألم يكن هو القرآن نفسه الذي نزل ؟ إذن . فالأفة - عدهم - أنه نزل عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك من الحسد .

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة النساء)

لأن قولهم لا يتسم أنداً بالموصوعيه ، بل كل كلامهم نُعْدَّ عن الحق ونحبط . لقد قالوا مرة عن القرآن . إنه سحر ، وعندما سأهم الناس : لماذا لم يسحركم القرآن إذن ؟ فليس للسحور إرادة مع الساحر . ولم يجنوا إجابة . وقالوا مرة عن القرآن : إنه شعر ، فتعجب منهم القوم لأنهم أمة الشعر ، وقد سبق لهم أن علفوا لمعنيت على جدار الكعبة ، لكنه كلام التخط

إذن فالسألة كلها تنحصر في رفضهم الإيمان ، فإذا أمسكتهم الحجة من تلايبيهم في شيء ، انتقلوا إلى شيء آخر .

ويوضح سبحانه : إن كانوا يطلبون كتاباً فالكتاب قد نزل ، تماماً كما نزل كتاب من قبل على موسى . وما داموا قد صدقوا نزول الكتاب على موسى ، فلماذا لا يصدقون نزول الكتاب على محمد ؟ ولا بد أن هناك معنى خفياً وراء قوله الحق : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . ويعلم أن الكتاب نزل على موسى مكتوباً جملة واحدة ، وهم كأهل كتاب يطلبون نزول القرآن بالطريقة نفسها ، وعندما ندقق في الآية نجد أنهم يسألون أن ينزل عليهم الكتاب من السماء ، وكأنهم يريدون أن يهرلوا رسول الله وأن يكون لكلام مباشرة من الله لهم ، لذلك يقول الحق في موقع آخر .

﴿أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَنَحْنُ قَعَمَاءٌ بَيْنَهُمْ وَمَبْشَرَتُهُمْ فِي الْخَبَرَةِ الْكُبْرَى
وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ فَرَجِّتِ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

الحق - إذن - قسم الأمور في الحياة الدنيا ، فكيف يتدخلون في مسألة الوحي وهو من رحمة الله : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . وهم قد سبوا التنزيل إلى رسول الله ، ورسول الله ما قال إن نزلت ، بل قال : « أنزل علي » .

ويقال في رواية من الروايات أن كعب بن الأشرف والجماعة الذين كانوا حولهم أرادوا أن ينزل الوحي عن كل واحد منهم بكتاب ، فيقول الوحي لكعب : « يا كعب آمن بمحمد » .

ويُرَدُّ إلى كل واحد كتاباً بهذا الشكل الخصوصي . أو أن ينزل الله لهم كتاباً مخصوصاً مع القرآن . وكيف يطلبون ذلك وعندهم النوراة ، ويوضح الله تسلياً لرسوله صلى الله عليه وسلم لا تستكثر منهم يا محمد أن يسألك كتاباً ينزل عليهم لأنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وطلبهم تنزيل الكتاب ، هو طلب لفعل من الله ، وقد سبق لهم العلو أكثر من ذلك عندما قالوا لموسى . (أرنا الله جهرة) . وهم يمثل هذا القول بعدوا من فعل الله إلى ذات الحق سبحانه وتعالى ، لذلك لا يستكثر عليهم مسألة طلبهم لرسول كتاب إليهم ، فقد سألوا موسى وهو رسولهم رؤية الله جهرة « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

ولحظة أن ترى كلمة « الصاعقة » تفهم أنها شيء يأتي من أعلى ، يبدأ بصوت مزعج . وقتلنا من قبل أثناء غواطرنا حول آية في سورة البقرة .

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي أَفْئِدِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾

(من الآية ١٩ سورة البقرة)

أي أنهم يضعون أصابعهم في أفئدتهم من الصواعق ، وهذا دليل على أن صوت

الصاعقة مزعج قد يحرق طيلة الأذن ، ودليل عل أن ارعاج الصاعقة فوق طانة الاسداد بأصبع واحدة ؛ لأن الإنسان ساعة يسد أذنيه يسدها بطرف الأصبع لا بكل الأصابع . وبلغ من شدة ارعاج الصوت أنهم كلما وضعوا أذانهم في أذانهم لم يمتنع الصوت المرعج .

إذن فالصاعقة صوت مزعج يأتي من أعين ، وبعد ذلك ينزل قضاء الله إما بأمر مهك وإما بنار تحرق وإما بريح تدمر ؛ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ؛ والظلم هو أن تجعل حقاً لغير صاحبه ؛ ولا تجعل حقاً لغير صاحبه إلا أن تكون قد أخذت حقاً من صاحبه . وسؤالهم هذا لو من الظلم ؛ لأن الإدراك للأشياء هو إحاطة المُدْرِك بالمُدْرَك .

وحين تدرك شيئاً بعينك فمعنى ذلك أن عينك أحاطت بالشيء المدرك وحيرته بالتفصيل ، وكذلك الأذن عندما تسمع الصوت ، وكذلك الأنف عندما تشم الرائحة ، وكذلك اللمس لمعرفة النعومة أو الخشونة ، وكذلك الذوق ليحسن الإنسان الظلم إذن فمعنى الإدراك بوسيلة من الوسائل أن تحيط بالشيء المدرك إحاطة شاملة جامعة

فإذا كانوا قد طلبوا أن يروا الله جهرة ، فمعنى ذلك أنهم طلبوا أن تكون آلة الإدراك وهي العين محيطية بالله . وحين يحيط المُدْرِك بالمُدْرَك ، يقال قدر عليه . وهي منقلب القادر الأعلى مقدوراً عليه ؟ حاشا لله . وذلك مطلق الظلم ونهايته ، فمن اجأثر أن يرى الإنسان إنساناً . ولكن لا يستقيم أبداً ولا يصح أن ينقل الإنسان هذه المسألة إلى الله ، لماذا ؟ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْآَنصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآَنصَرَ ﴾

(س الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

ومدام الله إما قادراً فلن ينقلب إلى مقدور .

ونحن إن أعطينا لواحد مسألة لحلها ، فهذا معناه أن فكره قد قدر عليها . وأما إذا أعطيناه مسألة ولم يقدر على حلها فكفره لم يقدر عليها . إذن فكل شيء يقع تحت دائرة الإدراك ، يقول لنا : إن الآلة المدركة قد قدرت عليه .

والحق سبحانه وتعالى قادر أعلى لا يتقرب مقبوراً لما خلق . « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » . وكان يكفي بعد أن أخذتهم الصاعقة أن يتأدبوا ولا يجترئوا على الله ، ولكنهم اتخذوا العجل من بعد أن حاوز الحق بهم البحر وغيره بهم تيسير عليهم وتأيداً لهم وأراهم معجزة حقيقة ، بعد أن قالوا :

﴿ إِنَّا لَمَذْرُؤُنَّ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

فقد كان البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ولا مفر من هلاكهم ، لأن المنطق الطبيعي أن يدركهم فرعون ، وآى الله سيدنا موسى إلهامات الوحي ، فقال :

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ١٦ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد لجأ موسى إلى القانون الأعلى ، قانون الله ، فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر ، ويتفرق البحر وتصير كل فرقة كالطود والجبل العظيم ، وبعد أن ساروا في البحر ، وأغرق فرعون أمامهم ، وأنجاهم سبحانه ، لكنهم من بعد ذلك كنه يتخلون العجل لها !!

هكذا قابلوا حيل الله بالكران والكفران . « ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين الذي آناه الله لموسى عليه السلام هو التسلط والاستيلاء الطاهر عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم ، وجاءوا بالسيوف لأن الله قد أعطى سيدنا موسى قوة فلا يخرج أحد عن أمره ، والقوة سلطان قاهر

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْمِيزَانِ ١٧
وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا

مِنْهُمْ مَيْشَقًا غَيْظًا ﴿١٥٤﴾

إذن اجترأهم في ابتدائية كان في طلب رؤية الله جهرة ، ثم العملية الثانية وهي اتخاذهم لعجل إلها . وبالعالم الله هؤلاء بالأوامر الحسية ، لذلك تنق الحسن فوقهم :

﴿ وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ مَوْقِعَهُمْ كَأَنَّهُمْ مُلْكٌ وَقُلْنَا لَهُمْ وَاقِفْ بِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

مثل هؤلاء لا يرضحون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فلما أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة ويقبلوا المطلوب منهم ، وإما أن يطبق عليهم الجبل ، وهكذا ترى أن كل اقتضائهم نتيجة للأمر المادي ، فجاءت كل الأمور إليهم من جهة المادة . « وقدنا ادخلوا أبواب سجدنا » . أي أن يدخلوا ساجدين ، وهذا إخضاع مادي أيضاً . وكان هذا لباب الذي أمرهم موسى أن يدخلوه ساجدين هو باب قرية أريحا في الشام . « وقلنا لهم لا نعبدوا في السبت » وسبحانه قال عنهم :

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَّتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « السبت » ها اشتقاق لغوي من « سبت » و« يسبت » أي سكن وهذا . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّوْمَ مُبَدِّئًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الفرقان)

أي جعل النوم سكناً لكم وقطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم . « ولنا لهم لا تعدوا في السبت » أي ما هم الله أن يصطدوا في يوم السبت . ويأتى يوم السبت فتأتيهم الحيات مغرية تخرج أشرعتها من زعانفها وهي تعوم فوق الماء ، أو تظهر على وجه الماء من كل ناحية ، وهذا من الابتلاءات . « ويوم لا يستنون لا تأتيهم » أي أن الأيام التي يكون مسموحاً لهم فيها بالصيد لا تأتيهم الأسماك ، ولذلك يجنأون ويصمون الحظائر الثابتة من السلك ليدخلها السلك يوم السبت ولا يستطيع الخروج منها .

لقد احتالوا على أمر الله . هكذا بين الحق سبحانه وتعالى مراغة بني إسرائيل وعمل الله بهم كل ذلك وبكنهم احتالوا وتمردوا ورتوه ، وسين يهدن الحق القوم الذين يدعوهم إلى الإيمان فسيبانه يقدر أنه حننهم ويقدر الغريزة البشرية التي قد يكون من الصعب أن تلبس لأوب داع ، فهو يدعوهم مرة فلا تستقبل ، فيعفو . ثم يدعوهم مرة فلا تستقبل فيعفو ، ثم يدعوهم مرة فلا تستقبل فيعفو . وأخذ الله عليهم العهد الوثيق المؤكد بأن يطيعوه ولكنهم عصوا ونقضوا العهد ، وبعد ذلك يقول لنا الخبر لتعلم أن الله لا يبل حتى تملوا أيها البشر . فسيبانه يقول من بعد ذلك :

﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ وَيَكْفُرُهُمْ ثَابِتُ اللَّهِ
وَقَتْلِهِمْ لَا يُبَيِّدُ بَغْيَ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ
بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ (١٥٥)

لقد بنقضوا كل المواثيق والأشياء التي تقدمت . ومعنى الميثاق هو العهد المؤكد الموثق . ونقص الميثاق هو حله ، وهذا ما يستوجب ما يهددهم الله به ، وكفروا بآيات الله التي أنزلها لنؤيد موسى عليه السلام ، وقتلوا أنبياء الله بغير حق . وادعوا - تعليلاً لذلك - أن قلوبهم غلف لا تسمح للدعوى الإيمانية ، أي أن قلوبهم معقدة معطاة أي جعل عليها علاماً ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ولا يدخل فيها ما هو خارج عنها . وأرادوا بذلك الاستسراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ولا يدخل فيها إيمان . ومسوق أن تقدم مثل هذا في قول الحق

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله
عَنْ قُلُوبِهِمْ وَعَنْ سَمْعِهِمْ وَعَنْ أَبْصَارِهِمْ غَشَاةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾

(سورة التوبة)

ونقول : أهى القلوب خلقت غلماً . . أى أن القلوب خلقت مخنوماً عليها بحيث لا بدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الدين فعلتم الختم وأنتم الذين صنعتم العلاف ؟

وسبحانه أوضح فى آتى سورة البقرة أنه جل وعلا الذى حتم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . فاختتم على القلب حق لا يتعرفوا إلى الدليل ، لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد . والختم على الأسماح والأبصار هو الختم على آلات إدراك الدلائل السبب على وجود الحق الأعلى ، فمقر العقائد مخنوم عليه وهو القلب ، ومضروب على الأذان وعلى البصر غشاوة ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوير هؤلاء ؟ لا ، لأنه إذا كان هذا طبيعة التكوين فلماذا حصمهم الله بذلك التكوين ؟ ولماذا لم يكن الذين اختلفوا مخنوماً لا على قلوبهم ولا على أسماحهم ولا على أبصارهم ؟

غير أن الواحد منهم يبرر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول : « خلقتى الله هكذا » وهذا قول مريب وكاذب ؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ، لأن الله أعزى الشركاء عن الشرك ، فمن اتحد مع الله شريكاً فهو للشريك وليس لله . إذن فاختتم بجهه كتيبة للكفر

وقدلت آيات سورة البقرة الحثية : أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأن الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وهنا فى آية سورة النساء : « وقولهم قلوبنا غلبت بن طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . فالكفر جاء أولاً ، ول ذلك رد على أى إنسان بقول : « إن الله لا يهديى » ولا يلتفت إلى أن الله لا يهدى من كفر به ، وكذلك الماسق أو العالم ، والمثال الأكبر على ذلك إسم الذى كفر أولاً ، وبعد ذلك تركه الله لنفسه واستغنى عنه .

ولما هنا وقفة لقطبة مع قوله الحق . « فيما بقضهم » لأن المهم السطحي لأصول الأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت « ما » هنا ؟ وبعضهم قال : إن « ما » هنا رائدة . ونقول . إياله أن تقول إن فى كلام الله حرماً رائداً ، لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ويكون فضولاً وزائداً على الحاجة ولا فائدة فيه ، ولكن عليك أن تقول : « أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف » ، خصوصاً ونحن فى هذا العصر نعيش

كأمة بلاعتها مصشوعة ، ولا غلك اللساد العربى المطبوع . ولولا أننا تعلمنا لعربية لما استطعنا أن نتكلمها . أما العربى المصصح الذى نزل عليه القرآن فقد كان يتكلم اللغة العربية دون أن يجلس إلى معلم ، ولم يثلق العلم بأن الصاعل مرفوع والمنعول منصوب بل تكلم اللغة بطبيعتها وملكته .

أما نحن فعيش فى زمن مختلف . وطمت علينا المعجمة وامتلات أذاننا باللحن ، وصرنا نُعلم أنفسنا قواعد اللغة العربية حتى نتكلم بأسلوب صحيح .

وقد جاءت القواعد فى اشحو من الاستنباط من السليقة العربية الأولى التى كانت بغير تعليم واستقرأ العلماء الأساليب العربية فوجدوا أن الفاعل مرفوع والخى يُرفع بالألف ، وجمع المذكر السالم يُرفع بـ « الواو » ؛ وهكذا أهدنا انقواعد من الدين لا قواعد لهم بن كانوا يتكلمون بالسليقة وبالطبيعة والملكة .

لقد سمع العربى قديماً ساعة نزل القرآن قوله الحق : « فيها نقصهم » وم يتنبه واحد منهم إلى أن شيئاً قد حوج عن الأسلوب الصحيح ، ونعلم أن بعضاً من العرب كانوا كافرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصدقون القرآن ، وبو كانت هناك كلمة واحدة تخرج عن المألوف فى اللغة لصرحوا بها وأعلوها . ولكن القرآن جاء بالكلام المعجز على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبيّنهم به ، موصحاً : جئت بالقرآن معجزة تعجزون عن محاكاته ؛ مع أنكم عرب وفصحاء

والمحدثى يحاول دائماً أن يتصيد خطأ ما ، ولم يقل واحد من العرب إن فى القرآن لئناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب انقراض يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق : « فيها نقصهم » هى فى الأصل : ينقصهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه ، وهـ ما ، جاءت هنا لماذا ؟ قال بعض العلماء : إنها « ما » زائدة ، وهى زائدة للتأكيد . ونكرر ، إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لقد جاءت « ما » عت لمبنى واضح . والحق فى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وقد لولا : إن أصل العبارة « ما جاءنا بشير » ، وإن « من » جاءت رائدة حتى يتسوى اللفظ . ويقول : لو أن العبارة جاءت كما قالوا ما استقام المعنى ، ولإيضاح ذلك أضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - عندما يقول واحد : « ما عندي مال » فهذا بغير أن يكون عند اقاتل مال ، ولعل لديه قلدا من المال القليل الذي لا يستأهل أن يسميه مالا . ولكن إذا قال واحد : « ما عندي من مال » فالمعنى أنه لا يملك المال على إطلاقه أى أنه مفلس تماما ، ولا يملك أى شيء من بداية ما يقال إنه مال . إذن « ما جاءنا بشير » ليست مثل قوله : « ما جاءنا من بشير » . فالمعنى أنه لم يأتهم أى رسول بشير أو نذير من بداية ما يقال إنه رسول .

إذن فقولہ الحق : « فيما نقصهم ميثاقهم » أى سبب نقص الميثاق فعلمنا بهم كذا . لماذا إذن أثار العليم هذه الفسحة ؟ السبب فى ذلك هو وجود ما بعد « الباء » وقبل المصدر ، أى أنهم نقصوا العهد بكل صورة من صوره ، فنقص العهد والميثاق له صور متعددة هـ (ما) هنا استفهامية جاءت لتتبع أى على أية صورة من صور نقص ونكث لعهد لعابهم ؟ لعابهم لكثرة ما نقصوا من العهود والمواثيق . والحق قد قال :

فَمَا نَقِصَهُمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَعْرِحَةً وَقَوْمَهُمْ
قُلُوبُنَا غَلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٠﴾

(سورة النساء)

وم يقل : فيما نقصهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقومهم قلوبنا غلف ، طبع الله على قلوبهم . فوجود « بل » يدلنا على أن هناك أمرا أضربا عنه . فمن يقول : جاءني زيد بل عمرو أى أن الفاعل قد أخطأ ، فقال : « جاءني زيد » واستدرك نفسه فقال : « بل عمرو » . وبذلك نفى مجيء زيد وأكد مجيء عمرو .

والحق قال : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » كان المقصود فى الأسلوب العادى أن يقول : « بكفرهم ويقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم » . ولكن سبحانه لم يقل ذلك لحكمة بالغة . وحتى تعرف تلك الحكمة فلنبحث عن المقابل لـ « طبع الله على قلوبهم » ، المقابل هو « فتح الله على قلوبهم بالهدى » .

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم . (فيها مفصّلهم ميثاقهم وكفرهم
بآيات الله وقتلهم الأنبياء بعير حق وقولهم قلوبنا غف بل طبع الله عليها) .

وهكذا يرى عظمة القرآن الذي يأتي بالمعنى الدقيق ويجب أن نذكر فيه وتذكر كل
كلمة منه .

الحق - إذن - يقدم الأسباب لما صنعه بهم بالحيثيات ، من مفصّلهم للحيثيات ،
وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم للأنبياء بعير حق ، لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى ،
بل طبع الله على قلوبهم بالكفر . فوجود « بل » دليل على أن هناك أمراً قد نعى وأمرأ
قد تأكد . والأمر الذي نفاء الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر
الذي تأكد أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر . وفي آية أخرى قال عنهم .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُفَّ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُونَ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة البقرة)

فقلوبهم ليست غلماً ، ولكن هي لعنة الله لهم وإبعادهم لهم وطردهم واستغاثهم
عنهم ؛ لذلك تركهم لأنفسهم فعلبت عليهم الشهوات ولما دلى الحق الآية
بقوله : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » ؟ لأن المقصود به عدم إعلاق باب الإيمان على إطلافه
أمام هؤلاء الناس ، وهو - كما عرفنا من قبل - « صيدنة الاحتمال » فقد بعث واحد
من هؤلاء إيمانه الذي خبأه في نفسه . فكيف يجد الفرصة لذلك إن كان الله قد قال
عنهم جميعاً « طبع الله على قلوبهم » ؟

إن الذي يَرَّحَبُ في إعلان الإيمان منهم لا يجد الباب معنوحاً ، ولكن عندما يجد
الحق قد قال . « فلا يؤمنون إلا قليلاً » فهو يعلم أن باب الإيمان معنوح للجميع .
وبعد ذلك يقول الحق

﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِّمَ بَهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ (سورة البقرة)

ويقول قاتل : ألم يقل الحق من قبل إن « كفرهم » هو سبب من أسباب طبع الله

على قلوبهم ؟ وأقول . إياك أن تقول إن هناك كلمة في القرآن مكررة لأن الذي يتكلم هو الله سبحانه وتعالى الذي لا ينسى شيئاً ، ولا يكرر من غير داع ، والكفر أيضاً على درجات ، مرة يكون الكفر بالله ، ومرة يكون الكفر بآيات الله ، وثالثة يكون الكفر بالرسول ، ورابعة يكون الكفر ببعض النبين ، وخامسة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية .

إذن فالمراد بالكفر شق . والكفر في الآية السابقة كان كفراً بآيات الله ، أما كفرهم في هذه الآية فالخوف بشرحه . « وبكفرهم » وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ، لقد كفروا بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم ، هذا كفر بآيات الله وبرسول من عند الله

وقوله الحق . « وبكفرهم » هو عطف على « بقصصهم » وعن « كفرهم بآيات الله » وعلى « قتلهم الأنبياء » وعلى « قولهم قلوبنا غلف » . ونلاحظ هنا أن الحق لم يذكر الباء التي جاءت في أول الآية السابقة حين قال « فيما بقصصهم ميثاقهم » .

وهذا يدل على أنك أمام مناهج الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى . فقد كان يكفي ارتكابهم لأى واحدة من هذه الأفعال المذكورة لكي يقطع الله على قلوبهم ، ولكنهم ارتكبوا كل الأفعال المذكورة مجتمعة ، ولم يرتكبوا فعلاً واحداً منها . وهذا دليل على أن الله لا يتعبد بعينه ، ولا يتصيد ويختال بوقعهم في الكفر ولكن يحسن العاد إلى الإيمان .

لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة : بقصصوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وادعوا أن الله طمع على قلوبهم .

وحين جعل هذه الأفعال لأربعة جريمة واحدة فهذا فضل ورحمة منه .

وبعد ذلك يذكر لهم جريمة أخرى « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » وهنا نجد أنه سبحانه قد سارى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة ، لأنهم اعترضوا على رسالة وبرة عيسى عليه السلام وهو نبى من أولى العزم

من الرسل بأشياء قد تكون صعباً لأسباب التي فتت بعصر الناس فيه ، لقد خلقه الله خلقاً خاصاً فسحائه خلق الناس جميعاً من آدم عليه السلام الذي صورته الله من حين لم تنفخ فيه الروح ، وجاء الخلق من التزاوج

أما عيسى عليه السلام فقد خلقه الله بطريقة خاصة ، فكيف كفروا به وكيف يتهمون أمه مريم عليها السلام وهي التول ؟

ومن الجائز أن تُتهم المرأة وترعى وتوصف بكل شيء . كذبه ، سارقه ، أو دميعة ، لكن الاتهام في لعرض لا . والحق ها يحدد موصوعين للكفر : قولهم البهتان عن مريم وهو كفر باقته ، وكفرهم بعيسى الذي جاء بميلاد عن غير طريقة الميلاد العادية على الرغم من أن هذا تكريم له ولذع لليهود الذين غرقوا في المادية حتى إسم قالوا : (أربا الله جهرة)

بل إن الحق رزقهم برزق غيبى لا يعرفون أسابه في التيه رزقهم بالماء والسوى ، ولم في لون القسدة وطعم العسل الأبيض وهو شيء يقع على أوراق لشجر في بعض النباتات ، والسلوى طائر يشبه السماء ، وكانوا يأخذون الماء من الأشجار ويجمعونه ويأكلونه رزقاً بأنهم ولا يرزقونه ولا يتصور في لكنهم كانوا لا ، نحن نريد أن نزرع نباتاً ينمو من الأرض ولا تنتشر الغيب ، لأن الغيب قد يضرنا عليه .

﴿ فَادْعُ كَارِبَكَ بِحُجْرٍ لَّأَيَّمَانِئْتُ الْأَرْضُ مِنْ نَفْسِهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

هم - إذن - لا يتقنون بما في يد الله ، ويريدون الأمر المادى ، ولذلك يلمتهم الحق سبحانه وتعالى لفئة قسرية ، ويأتى بأمر ينقص قانون المادة من أساسه ؛ وهو ميلاد عيسى عليه السلام بأسلوب غير تقيدى ، والإنسان يأتى إلى الدنيا من أب وأم ، ويأتى الحق بعيسى مخلوقاً من أم دون أب ، فانتقضت المادية ، وهم كهاتين غفلوا عن الخلق الأول :

﴿ قَمَرِينَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ حَقِّ جَدِيدِ ﴾

(سورة ق)

إذن فلماذا الفتن في عيسى عليه السلام ؟ لقد نقص أمامهم الأساس التقليدي المادي لمجيء الإنسان إلى الدنيا من ذكر وأنثى ، وجاء عيسى عليه السلام من أم دون أب . ليثبت سبحانه علاقة القدرة وأنه جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر مسبباً فعليهم أن يأخذوا الأسباب ، أما سبحانه وتعالى فهو مسبب الأسباب وخالقها وهو القادر - وحده - على إيجاد الشيء بمتعينة كل الأسباب .

ونعلم أن قضية الخلق دارت على أربعة اتجاهات ، إما أن يشأ الشيء من وجود الشئيين ، هذه هي الصورة الأولى . وإما أن ينشأ الشيء من عدم وجود الشئيين وهذه هي الصورة الثانية . وإما أن ينشأ شيء من وجود الشيء الأول وعدم وجود الشيء الثاني ، وهذه هي الصورة الثالثة ، وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثاني مع عدم وجود الشيء الأول ، وهذه هي الصورة الرابعة .

تلك هي الصور الأربع لوجود شيء ما ولم يشأ الله أن يجعل الخلق - وهو الإنسان لمكرم الذي سخر له الحق كل ما في الكون - على نحو واحد ، حتى لا يقول أحد : إن السببية مشروطة للوجود .

بن المسبب هو المشروط في الوجود بدليل أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، وخلقنا جميعاً نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم .

هذه هي القسمة الفعلية الواضحة ، فليست المسألة عنصرية موحدة ، ولكن قيمة واقتدار واحد و قدرة الحق تتجلى أيضاً أمامنا حينئذ تكون الأسباب موحدة كالآب والأم . لكن يشاء سبحانه أن يكون الإنسان عظيمين فهو العائل

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَنَرًا

لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ ۝ أَوْ يَرْجُوهُمْ ذُكْرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾

(سورة الشورى)

إذن فليست المسألة مدبر أسباب توجد ، بل مسبب يريد أن يوجد ، وأراد الحق

ن يكون عيسى عليه السلام بهذه الصورة ليلفت بني اسرائيل لعلمهم بحرحون من صلاتات المادية ، فأوجده من أم حنون أب ، فكان هذا آية على طلاقة قدرته ، ولكن اليهود استنصلوا هذه المسألة استقبالا على غير مراد الله ، فكذبوا عيسى ، وقد حدث التكذيب من قبل أن يتكلم عيسى بالإنجيل . ووقضوا أمام رسالته بعنف ، والذي يدلنا على أنهم قوم كذابون ، هو رغبتهم في استمرار السيطرة الدينية لهم ، وكان عندهم شريعة تقتضي الرجم للرانية ، فلماذا إذن لم يتهموا مريم بالزنا عندما ولدت عيسى ؟ ولماذا لم يعاقبوها حسب شريعة التوراة ؟ ولماذا ينظروا إلى أن عيسى عليه السلام بالإنجيل ليفولوا : يا فاعل يا ابن الفاعلة . كان انتظارهم دليلا على أن ميلاد عيسى عليه السلام كان آية بيّنة صدعتهم وصدتهم عن ذلك ، فقد نطق عيسى عليه السلام بعد ميلاده ولم تتكلم مريم قط ، لأن ما حدث أمر فوق منطقها ، وجهزها الله لهذا الموقف ، وأمرها بالصمت عندما يسألون ، وأن يشير إلى المولود انذى في المهد :

﴿ فَأُشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٨ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ؕ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٢٩ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْعَصَاةِ ۝٣٠ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ ﴾

(سورة مريم)

وانهروا اتبهاراً فنت فيهم لقوى ، فقوى الخصومة ساعة ترى هذا لا تجد إلا الانبياء ، فالخلق أبلج ، والباطل الخنج . إذن كان الأمر يدهم وفي توراتهم أن من يزن يرحم ، فلماذا لم يرحموا أم عيسى إذن ؟ . لابد أنهم صدموا بعوه جعلت موازين حقدهم تختل ، للعجزة الباهرة هي كلام عيسى ابن مريم في المهد . (إلى عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) وجعلت المباحاة أقوى الأقوياء فيهم ينهار ، وتخور قواه .

هذا من ناحية اليهود ، فمادا عن ناحية بعض أتباع عيسى عليه السلام ؟ . إن صبيّا يتكلم في المهد هو معجزة بكل المقاييس ، فكيف تحلو كتبهم من قول عيسى في المهد . « إني عبد الله » وكان لابد أن تكون الكلمة مدروسة بعناية ، وألا تسيء وحفظ جنود الله سبحانه وتعالى الكلمة ، التي تؤكد بشرية عيسى عليه السلام . وعندما نقول هذا الكلام فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد ، ولكننا فقط

نريد أن يتضح منطق الإيمان في عقول المسلمين ، أما آباء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يمتثلون ، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا ، ولا يجرؤ أحد أن يعيب به .

« ويكرمهم ونوعهم على مريم مهناً عظيماً » ونحن كمسلمين نستنكف أن نقول ما قالوه من بهتان عن مريم النور ، والبهتان هو الكذب الشرس . فهناك لون من الكذب قد يكون مقبولاً ، ولون من الكذب غير مقبول : فأن يقول لاني عن رجل ورج ، إنه شرب الخمر ، والقاتل يعلم أنه كاذب ، فهذا كذب ثقيل شرس ، يتحبر ويتعجب من يسمعه ، وهذا هو البهتان . ولم يستع ويمتنع اليهود حينما رموا مريم - الصاهرة بأمر الله - بالبهتان مع أنهم علموا أن لمريم سابقة خير واستقامة .

لقد كان ماضي مريم باصعاً ، عاشت في المحراب متنبلة لمن خلقها ، لذلك يصف الحق هذا البهتان بأنه عظيم ، لأنه جرح مريم في عرضها ، ولو رجعوا إلى تاريخهم قبل ميلاد عيسى من مريم لوجدوا أن كل واحدة من بنات بني إسرائيل كانت تستشرف أن يكون النبي المولود بعد موسى من نبطها . وكانوا يعرفون أن النبي القادم من بعد موسى ستنله عدراء ، وأبلغ بنو إسرائيل سائهم بكيفية مجيء النبي القادم عيسى ابن مريم ، تماماً مثل قضية البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ومن رحمة الله بمريم نفسها أن الله جعل لها التمهيدات التي تثبت لها أمام نفسها أنها بريئة ، وأن العملية كلها قد تمت « كن » من الله ، لم يجعل الله المسألة سرّاً عن مريم فتحمّل بأمر قوله . « كن » دون أن يدري ، لا بل أراد سبحانه أن تكون عملية مادية . وجاء الملك لمريم وتمنع فيها بالحمل . وعرفت هي السبب مادياً بالملث والتمنع حتى لا تتهم نفسها أو تشك بأن شيئاً قد حدث لها وهي نائمة أو غير ذلك .

لقد أراد الله المسألة على تلك الصورة ليحفظها أمراً يقطع الشك لديها ، وهي التي بشرت به - إيماناً لها - عندما كانت صغيرة قبل البلوغ وجاءها زكريا وهو الكميل لها والذي يأتيها بالطعام ويدخل عليها المحراب فوجد عندها الورق وما لها .

(أنى لك هذا) أجابت :

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

لقد نطقت مريم البتول من قبل . « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ومن لحساب أن يكون للمرأة زوج لترزق بأولدها ، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ومن العجيب أنها في هذا القول نهبت زكريا إلى قضية كانت في بؤرة شعوره : ولذلك يقول الحق

﴿ هَآؤُنَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾

﴿ نَدَّاهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَبَيِّنًا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي ظُلْمٌ وَقَدْ بَلَغْتُ الْكِبَرَ وَأَمْرَانِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد شجعت مريم زكريا على أن يدعو ربه ، وتلك سلسلة تمهيدية ليطمش إحساس مريم أن ولادتها لعبسى عليه السلام إنما جاءت بـ « كس » وجاء لها الحق بفاكهة الصيف في الشتاء ، وعندما قالت لسيدنا زكريا : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » تب ودخل من هذا الباب ، فدعا ربه على الرغم من علمه أن امراته عاقرة ، وأنه بلغ من الكبر عتيا ، ومفهوم لنا معنى قول الرجل عن نفسه إنه بلغ من الكبر عتيا ، أى أنه لم يعد يملك القدرة على الإنجاب . وهذه المصبة تعطينا سبقا قرآنيا لكثير من قصايا العلم .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة مريم)

هذا القول هو أشبه بمذكرة تمهيدية لبلوغه من الكبر عتيا . ريثبت العلم الحديث أن العظام هي آخر وعاء لتغذية الإنسان ، فإن امتنع الإنسان عن الطعام فالدهون التي في جسده تغذيه . وإن امتنع الماء عن الإنسان وهو المكوّن لتسعين في المائة من ورنه يمتص الإنسان الماء من خلايا الجسم والعضلات واللحم . ولذلك يقال في المثل

العرب : سنة أذابت الشحم ، وسنة أمست اللحم ، وسنة نحت العظم

فكان البداية تكون التغذية من الشحم ومن بعد ذلك من اللحم ومن بعد الشحم واللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم وهذه هي التي جاءت على لسان سيدنا زكريا . (قال رب إني وهن العظم مني) . فأحر غرن للتغذية لم يعد به ما يمكن أن يستمد منه زكريا طاقة الإنجاب .

وما الذي يغذيه العظم من الجسم ؟ إنه يعنى المخ ، وهو السيد الأعلى الذي يدير كل جارحة في الجسم ، وتعمل كل جارحة في خدمته ، ويعيش المخ بطبيعة الحال كل عمره في خدمة الجوارح ، يرتب لها قدرات العمل والتفكير والإحساس والسلوك ، ومادام المخ موجوداً ، فكل شيء يتم تعويضه

ولذلك يحاولون - الآن - تعريف الموت طبيياً ، فيقولون : لا يحدث الموت مادامت خلايا المخ حية ، فإذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . ومن عجيب الأمر أن سيد الإنسان له مكان في أعلى الجسم إنه هو المخ ، داخل الجمجمة ، أما لنوات فسيده في الجنور . وإن لم تجد الجنور مياها تذيب بها العناصر في الأرض فالتبات يأخذ غذاءه من ابورق ، وبعد أن يذبل الورق يأخذ النبات غذاءه من الفروع الصغيرة . وعندما تذبل تلك الفروع وتجف ولا يتخذ النبات ولا شيء بعض الماء للجنور . وكذلك المخ بالنسبة للإنسان

فكان مريم شجعت سيدنا زكريا عندما قالت أمامه (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فدعا سيدنا زكريا الله أن يرزقه بالولد ، فجاءه الولد . وهذه القصة نطقها بها مريم ونمت نحررتها في سيدنا زكريا . وبعد ذلك جاءها البشير بميلاد المسيح عيسى ابن مريم .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِشِرْكَائِكَ كَلِمَةٌ مِّنْ أَمْرِهِ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَاجِعْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾

كيف يصوغ لقرآن هذه الصياغة ، وكيف تقول هي .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد كانت سيدتنا مريم البتول تحس الاستقبال عن الله ، فساعة سمعت أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، عرفت أن نسلها يعني أنه بلا أب وعرفت أن الحق سبحانه مانسه إليها إلا لأنه لا أب له .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْشَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ ١٣٧ ﴿

ونلاحظ ان الآية تبدأ بواو العطف على ما قبلها ، وهو قوله الحق :

﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهُمْ وَيُكْفِّرُهُمْ يُعَاقِبُ اللَّهُ أَصَابَتِ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ يَغْتَرِ حَقٌّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُمَّتْ بِهِمْ لَخَبِثَ أَفْئِدَتُهُمْ فَكَفَرُوا بِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ١٣٦ ﴿
وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بِهَتْنًا عَظِيمًا ﴾ ١٣٧ ﴿

(سورة النساء)

ويمعطف سبحانه على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وأكثر ما يلحش في هذا القول هو كلمة « رسول الله » ، فهل هي هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللامحاجة المطلقة ، ولو قالوا : إنهم قتلوه فقط لكان الجرم أقل وطأة ، ولكن إن كانوا قد عذبوا أنه رسول الله وقتلوه

فهذا جرم صعب للغاية . أو أن كلمة « رسول الله » هنا في هذه الآية ليست من مقولهم الحقيقي وإنما من مقولهم التهكمي .

وأضرب المثل لأوضح هذا الأمر . . . كان يأتي شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتى له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماسته : لقد ضربت الفتى القوي فيكم . إذن قد يكون قولهم : « رسول الله » هو من قبيل التهكم ، أو أن كلمة « رسول الله » هنا هي من قول الحق سبحانه وتعالى مصفاً إلى نوعهم ليبشع عملهم

« وقولهم : « إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطاً أو موصوفاً بقوله : « رسول الله » لنعلم بشاعة ما فعلوه ، عيسى ابن مريم رسول الله على رغم أموتهم ، وخاصة أن الكلام في مجال إنكارهم وجحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآيات الله ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدي مهمته وجاء بكلمة « رسول الله » هنا كمقدمة ليلتفت الدهن إلى أن ما قالوه هو الكذب

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه » . وكلمة « وما صلبوه » هنا هي لتوضيح أن مجرد ظلمهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشبهون ذلك ويعسونه للناس ، وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، فقد قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك ، وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بحبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب . ويقطع الله عنهم هذا الأمر ، فيقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وقد لفتنا سبحانه من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح تم استقبالها من بني إسرائيل بضجة ، فعلى رغم علمهم خبر مجيء المسيح بالميلاد من غير أب ، وعلى رغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف أن يكون لأية واحدة منهم شرف حمل المسيح ، وعن رغم ذلك قالوا الهتان في مريم التي اصطفاها الله وكذلك كان لمائة امرأة ضجة

واقتران الضجعتين : ضجة الميلاد وضجة الوفاة معاً في رسالة لسيد المسيح يدلها

على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية ، فمساءة يتكلم العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لا بد أن يستشعر الإنسان أن الأمر قد جاء على غير سنة موجودة ، ومساءة يبلعنا الحق أن نرى إسرائيل يتوا اليه لقتل عيسى ابن مريم ، وأن الله رفعه إليه تكون المسألة قد جاءت أيضا بقضية مخالفة ، ولا بد أن نصدق ما يبلعنا الله به ، وأن يتذكر العقل أن الميلاد كان مخالفاً ، فلماذا لا تكون الهبة مخالفة أيضاً ؟

وكما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من عبراني ، لا بد أن نصدق أن الحق قد رفعه في النهاية وأخذ ، فلم يكن الميلاد في حدود تصور العقل لولا ملاح الحق لنا ، وكذلك الرقة لا بد أن تكون مقبولة في حدود بلاغ الحق لنا . والميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم كل منهما عجيبة . وإن فهمنا العجيبة الأولى في الميلاد فنحن نعتبرها تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟ وإن حدثنا الحق أن عيسى ابن مريم خرج من الحياة بأمر عجيب فنحن لا نستعجب ذلك ، لأن من بدأ بعجيب لا عجب أن ينتهي بعجيب .

وسبحانه وتعالى حكم وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وكلمة « شبه لهم » هذه هي دليل على هوج المحلولة للقتل ، فقد ألقى شبهه على شخص آخر وذلك دليل على أنه المسألة كانت غير طبيعية ، ليس فيها حزم الثبوت من المترشحين للقتل . ونعلم أن الطواريق وأتباع سيد عيسى كانوا يلصقون رهوسهم ويدعون سماتهم ، ولذلك قال الحق لنا : « ولكن شبه لهم » أي أنهم قد شبه لهم أنهم قتلوه .

واختلفت الروايات في كلمة « شبه لهم » ، فمن قائل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل نحوقة ، والنحوقة هي باب في باب ، وفي البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفي هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأتراء ، وفي سقف البيت توجد فتحة وكوة اسمها (روزنة) أو (باروطة) .

فلما طلبوا عيسى دخل النحوقة ، ودخل خلفه رجل اسمه « تطيانوس » وعندما

رأى سيدنا عيسى هذا الأمر الهمة الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القوم « تطيانوس » خرج عليهم قائلو : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم لشبه بين « تطيانوس » وعيسى ، وألقى الله شبه عيسى على « تطيانوس » فقتلوه . أو أن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الخواريون وقال لهم عيسى : أيكم يُنتقى عليه شبهى وله الجنة ؟ فإذا إذن يريد الخواري نفسه أكثر من الجنة ؟ رقد عيسى عليه السلام للجائزة الكبرى لأى مؤمن ، وقبل واحد من الخواريين هذه المهمة ، ويقال له « سرخس » . فألقى شبه المسيح عيسى عليه ، فقتل اليهود « سرخس » .

وقالوا : إنه حينما عرف بعض الدين دهبوا لقتل عيسى أنه رفع ، خافوا أن تقتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد يتقم الناس من الذين أرادوا قتله . ولذلك جاء القنلة يتحصى وقتلوه وألقى على هذا القنلة شبه عيسى وأعلن القنلة أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم . أو أن القنلة هو واحد من باعوا نبي الله عيسى لليهود ، وما رأى المشهد ووجد المترهبين بعيسى يدخلون على الخواريين وفيهم عيسى وسأل المترهبون الخواريين : أيكم عيسى ؟ فتبقت ملكة التوبة في نفس الذى رضى بعيسى وقاده تأنيب الضمير عن خيانة الرسول إلى أن يقول : « أنا عيسى » . ولم يتصور المترهبون أن يجب إنسان على قوتهم « أيكم عيسى » . إلا وهو عيسى بالفعل ؛ لأن مشاهد المترهبين يوحى أنهم سيقبلون عيسى وقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تشك . أو أن واحداً باع عيسى لقاء ثلاثين دهباً وتشابه عليهم فقبلوا الوشى ، ولم يظفروا بعيسى ابن مريم . ونحن كمسلمين لا هم اهتماماً كبيراً بتلك الروايات . فانهم أنهم قالوا قتلنا عيسى . وصلبناه

وقرئت الذى نزل على رسولنا صل الله عليه وسلم قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وقال الحق لنا : إنه رفع عيسى إليه ، وانتهت المسألة بالنسبة لنا ؛ لأننا كمؤمنين لا تأخذ الحزبيات الدينية أولاً فإن صدقها أم لا ، لا . نحن نؤمن أولاً بمَنَزَل هذه الحزبيات وصدق من بعد ذلك كل ما جاء به سبحانه . وهو قال ذلك فأتانا به وانتهت المسألة .

إن البحث في هذا الأمر لا يعنيننا في شيء ، وكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ويدلنا هذا القول على عدم ثبوت القتل من شخصية القتل ، وهو أمر متوقع في مسألة مثل هذه ، حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا نرى ذلك في أية حادثة تحدث مع وجود أعداد كبيرة من البشر وأحبيهم مفتوحة ، وعلى الرغم من ذلك تختلف فيها الروايات بل وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ومع ذلك تختلف الروايات ، فما يالنا بوجود حادثة مثل هذه في زمن قديم لا توجد به كل الاحتياطات التي نراها في زماننا ؟ إذن فاصطرب الآراء والروايات في تلك الحادثة أمر وارد ، وكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه » .

فعيسى باق ، لأن الحق لم يأت لنا بخبر موت عيسى . ويبقى الأمر على أصل ما وردت به الآيات من أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى ابن مريم . وكمسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ، لأن المبدأ - مبدأ وجود بشر في السماء - قد ثبت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد حدثنا صلى الله عليه وسلم أنه خرج به إلى السماء ، وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى ، إذن فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض وهو لا يزال على قيد الحياة الشربة المادية إلى السماء أمر وارد . والخلاف يكون في المسألة الزمنية ، لكنه خلاف لا ينقص مبدأ ، سواء صعد وبقي في السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً . فإن حاول أحد أن يشكك في هذه المسألة نقول له : كل أمر قد يقف العقل فيه يتنوله الحق سبحانه وتعالى تناولاً موسعاً . فمسحاه نحلق رحيم لا يورد نصاً بحيث يتوقف العقل أمامه ، فإن قبل العقل النص كان بها ، وإن لم يقبله وجدت له منسوخة ، لأنه أمر لا يتعلق بصلب العقيدة .

فهب إن إنساناً قال إن عيسى لم يرفع بل مات ، فما الذي زاده من العقائد وما الذي نقص ؟ ذلك أمر لا يضر ولا ينفع . ومثل ذلك الإسراء ، جاء فيه الحق بالقول القرأى :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِرَبِّهِ لَبَّا لِمَنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي

بَرَكًا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُمْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

(سورة الإسراء)

ولم يقل الحق أى قول فى أمر المعراج ، لأن الإسراء آية أرضية ، انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . ونعلم أن رسول الله لم يذهب إلى بيت المقدس قبل الإسراء ، بدليل أن كفار مكة أرادوا إحراج الرسول فقالوا له . كيف لنا بيت المقدس . وهم وانفون من عدم ذهابه إليه من قبل . وكان فى الطريق فوافى لهم رآها صلى الله عليه وسلم ، ووصف صلى الله عليه وسلم بيت المقدس وقال لهم عن أخبار قواعدهم . وجاءت القوافل ممتة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن كان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم آية أرضية يمكن أن بقلم عليها الدليل . ولذلك جاء بها الحق صريحة فقال : (سبحانه الذى أمرى بعينه ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

لكن المعراج لم يذكره الحق صراحة ، فممكن يكن من قريش ولا من أهل الأرض من رأى سيرة المسيح ، ولم يكن لأحد من أهل الأرض القدرة على أن يصف طريق المعراج .

إذن فالآيات التى يقف فيها العقل يتناولها القرآن تناولاً موسعاً رحمة بالعمول ، لأن الإنسان إن اعتقد بها فهذا أمر جائز ، وعدم الاعتقاد بها لا يؤثر فى أصل العقيدة ، ولا فى أصول التكليفات ، ومدارها التصديق . ومادام الحق سبحانه وتعالى قد هوى رسوله أن يعطينا أحكاماً إن عملنا بها جئنا الله الثواب ، وإن لم نعمل بها نالنا العقاب ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، فكيف لا يفوضه فى أن يقول لنا بعضاً من الأخبار ؟

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - وذكره البخارى فى صحيحه أنه قال

«والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً . فيكسر

الصليب ، وقلل الحزير ، وبضع الحربة ، وبقيض اناء حتى لا يقله أحد . وحتى تكون السحرة لواحدة حراً من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة . اقرأوا إن شئتم : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم انقامه يكون عيهم شهيداً (١)

هذه أخبار احبارها بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا يوجد قصة عممية نقف مستعصية امام عقول المسلمين خاصة أن البعض قد يقول إن الحق سبحانه قد قال

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ مَطْعُوكَ مِنَ الْآبِ كَفَرُوا﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

وقد شرح من قل في حواشرنا سورة آل عمران كل الشرح هذه المسألة . فإنا إن علينا أن ننته إلى « واو العطف » بين « متوفيك » و « رافعك »

ومن قل إن « و » العطف تقتضي الترتيب ؟ إن « واو العطف » تقتضي الجمع فقط تقريباً « جاءني زيد وعمرو » ، هذا يعني أن زيد جاء مع عمرو أو أن زيد جاء أولاً ، أو أن عمراً جاء أولاً وبه زيد ، ف « الواو » لا تقتضي الترتيب ، وإنما مقتضاها الجمع فقط

لكن إن فإنا « جاءني زيد وعمرو » فزيد هو الذي جاء أولاً وشبه عمرو ، لأن « الفاء » تقتضي الترتيب ، أما « الواو » فتأتي لطلق الجمع ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وسبحانه قل . « إن متوفيك ورافعك إني » هذا لصرح من جمع لا يدل على أن التوفى قد تم قبل رفع ، وذلك أن الحق سبحانه أمر في القرآن آيات تدل على مثل هذا ، كقوله الحق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِسْحَاقَ وَإِبْرَاهِيمَ﴾

(من الآية ٢ سورة الأعراف)

سبحانه أحد الميثاق من محمد صلى الله عليه وسلم وجمع معه سيدنا يوحنا وإبراهيم . فهل هذا الجمع كان قائماً على الترتيب ؟ لا ؛ لأن يوحنا متقدم حتماً في

المركب لرسالي وسبق سيدنا رسول الله سنوات طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون .
إذن فـ «الولو» لا تقتضي التقريب في الجمع . ولماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر
الرفع ؟ جاء الحق بذلك ليشرح عيسى أن الوفاة أمر مقطوع به ، لكن الرفع مجرد
عملية مرحلية .

أو جاء قوله الحق . «إني متوفيك ورافعك إلی» ؛ لأن الإنسان المخلوق لله مكون
ومركب من مادة وني داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن يعطي حياة إنسان ما ،
فهو يقبضه بدون سبب وبدون نقص في الشئ ، ويموت حسب أهله ، أما إذا ما ضرب
إنسان إنساناً صرية عنيفة على رأسه فانه صرير أيضاً يموت ، لأن الروح لا تحل في
جسم به عطب شديد .

إذن فالحق أوضح لعيسى : أنا آخذك إلی ورافعك متوفياً وليس بحسدك أي نقض
لبنيتك أو هدم لما أو لبعضها ، بل آخذك كاملاً فـ «متوفيك» تعني الأخذ كاملاً
دون نقض للبنية بالقتل .

ونحن - كما عرفنا من قبل - نفرق بين لقتل والموت . فالموت هو أن نقض الروح
حذف الألف ، أما القتل فهو هدم للبنية فتزهد الروح ، والدليل على ذلك أن الحق
في كتابه الكريم قال .

﴿أَقْرَبُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

إذن فعيسى قال بنو إسرائيل . إني قتلوا عيسى ابن مريم كذبهم الحق وقال :
« وما قتلوه وما صلبوه » . ورفعه الله إليه كاملاً ، وسبحانه وتعالى يقول : (وما قتلوه
وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لعمى شك منه ما لهم به من علم
إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) . ويوضح الحق سبحانه وتعالى : لم يتفقوا أنهم قتلوا
عيسى ابن مريم ، لكنهم شكوا فيمن قتل ، فلم يعرف المترصدون لقتله أقتلوا عيسى
أو تطيانوس أو صرخس ؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نعى سبحانه ما قتل عيسى

ابن مريم قال : « وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك من ما لهم به من علم إلا اتباع
الظن » . والنسبة الأولى المذكورة هنا هي الشك ، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران
والنسبة الثانية هي اتباعهم للظن ، وهو نسبة راجعة . لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم
شكاً ثم انقلب ظناً .

ويسمى الحق ذلك بعلم يقين « وما قتلوه يقيناً » وسبب حانه ينفي بذلك أنهم قتلوه
يقيناً ، واليقين - كما نعلم - هو الأمر الثابت المعقود في الوقع والأعماق بحيث
لا يظلمو إلى الدهر ليناقتش من جديد أو يتغير ، وله مراحل هي : مرحلة العلم ،
واسمها علم اليقين ، ومرحلة العين ، واسمها عين اليقين ، ومرحلة الحقيقة ،
واسمها حق اليقين .

وعندما يخبرنا واحد من الناس أن جزوا من نيويورك اسمه « مانهاتن » وأن
مانهاتن هذه هي جريمة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة ، وهما ناطحات
سحاب ، وجاء هذا الخبر مني لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير نيويورك ،
فيمبر مضمون الخبر عنده علماً متيقناً : لأن الذي أخبر به موثوق به . وإن جاء آخر
ووجه بلسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولي السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك ،
هنا تحول الخبر من « علم اليقين » إلى « عين اليقين » . وإن جاء ثالث وصحب
السامع إلى قلب نيويورك وطاف به في كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو « حق
اليقين » .

وأسمى أنواع اليقين هو « حق اليقين » . وقبلها « عين اليقين » ، وقبل « عين
اليقين » « علم اليقين » . وحينما عرض سبحانه المسألة قال

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَرَّ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ﴾

(سورة التكاثر)

هو سبحانه يعطينا علم اليقين ، ويصدق المؤمنين بهذا العلم قبل أن يروه ،
وصيري المؤمنين وهم على الصراط السار وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الدين
يروون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق ، لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل

النار ، وهلاك من يدخل النار ولا يدخل الجنة والكافرون بالله هم الذين سيروا
الحجيم حق اليقين . ويأتى « حق اليقين » فى موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۖ فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ ۖ وَتَصْلِيَةٌ بِهِمْ ۖ ﴾
إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿١٥﴾

(سورة الواقعة)

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحجيم ويصل الحجيم ويعاقب من عذابها حق
اليقين . إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم : « وما قتلوه يقيناً » يصدقه
الدين لم يشاهدوا الحادث ، نصديق علم يعنى لأن الله هو المقاتل . والذين راوا
الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا فى ذلك . وأما من باشر عملية القتل
لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين . والذى حدث هو
ما على .

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١٥٨)

لقد رفع العزيز الذى لا يغلبه أحد عن الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذى
لا يبال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم ، فإله غالب عن
أمره ، وهو العزيز بحكمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ ﴾
وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

وه إن ، هنا هى « إن » النافية ، وهى غير « إن » الشرطية . واليكم هذا المثال
عن « إن » النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق :

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنْ آمَنُوا إِنَّمَا أَمَهُمْ إِلَّا الَّذِينَ وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

بصحيح الحق هنا الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الذين يظاهرون من نساءهم بقول الواحد منهم لزوجته : « أنت عن كظهر أمي » ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا أَمَهُمْ إِلَّا الَّذِينَ وَلَدْنَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَعْيُنُهُمْ وَالَّذِينَ يَلْقَوْنَ صَوْرًا مِنْ الْقَوْلِ وَرُورًا ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

ليوضح سبحانه . ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم . و « إن » في هذه الآية التي نحن بصدد خواصرتها الآن معنا هي « وإن » النافية .

كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته . وهذا شرح لمعنى « إن النافية » . وقد يقول قائل : ما حكمة الصياغة في هذه الآية ؟ فلاية بها أكثر من ضمير ، مثل قوله الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وعلى من تعود « به » ؟ وعلى من تعود الماء في آخر قوله « موته » ؟ هل هو موت عيسى أو موت أى واحد من أهل الكتاب ، فالمذكور عيسى ، ومذكور أيضاً أهل الكتاب ، فيصح أن يكون القول كالاتي :

لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن عيسى ، ويصح أيضاً . لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب ، ولأن الضمير لا يعرف إلا بمرجعه ، والمرجع بين الضمير فإن كانت هناك ألفاظ سبقت . فكل منها يصح أن يكون مرجعاً ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه كقول الحق :

﴿ وَمَا يُعْمَرْ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة طه)

والمعمر هو الإنسان الذي طعن في السن ، ولا ينقص من عمر هذا المعمر إلا كما أراد الله ، والماء في « عمره » تعود إلى بعض من المعمر . ذلك أن كلمة « معمر »

مكونة من عنصرين هما « ذات الرجل » و« عمر الرجل » ، فلما عاد الصمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو . وما يعمر من صمير ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير . وماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان ؟ مثل قوله الحق :

﴿ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا ﴾

(من الآية ٢ سورة الرعد)

هنا نجد مرجعين : « السماء » و« العمدة » فعلى أى منها تعود الهاء الموحدة في كلمة « ترونها » ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السموات ، أو للمرجع الثاني وهو « العمدة » ؟ يصبح أن تعود « الهاء » إلى السموات . . أى خلق السموات مرتفعة فائضة بقدرته لا نستند على شيء وأنتم تظنون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمدة أى بغير العمدة لئى نعرفها ولكن رفعها الحق بفوايين الحاديه . أو رفع السموات « بغير عمد ترونها » أى أن العمدة مخفية عن رؤية البشر وهكذا يصبح أن يُنسب الصمير ويعود إلى أحد المرجعين .

والآية التى نحن بصلدها ، نجد أنه قد تقدم فيها شيان هما المسيح وأهل الكتاب ، وفيهما صميران اثنان . فهل يعود الصميران على عيسى ، أو يعودان على أهل الكتاب ؟ أو يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب ؟ وأى منها الذى يرجع على عيسى ، وأى منها الذى يرجع على أهل الكتاب ؟ أو أن هاتك مرجعاً ثالثاً م يذكر ويعلم من السياق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحد أن الصميرين قد يرجعان إلى المرجع الثالث ، أى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذى بشر بحبيشه عيسى ابن مريم ، وتواتر الأحاديث عن أن عيسى بوشك أن ينزل فيكسر الصليب ويقتل الخمرير ، وسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولماذا التقى النصارى مع اليهود في مسألة الفحل والصلب ؟ هم معدورون في ذلك ؛ لأن الحق لم يأت ببيان فيها تشدد وتوله « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » يدل على أنهم معدورون إن قالوا ذلك . ولكن كان الواجب أن يتمردوا على مسألة الصلب هذه ، إن كان فيه ألوهية أو جزء من ألوهية ، وكان من الواجب أن يحفوا مسألة الصلب ويأتى الإسلام ليبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة ويعين أتباع عيسى على تبرئته منها

ولكن لم يلتفت أتباع عيسى إلى قول الإسلام في هذه القضية « ولكن شبه لهم » وكان يجب أن يلتفت إليها أتباع المسيح . وحين يقص الحق كل ذلك فهو يحكم من بعد ذلك حكماً إلهياً : (بلى رفعه الله إليه) النصارى يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب . وحين المسلمون يقولون بالرفع ولا صلب ، رفعه الله إليه وسيزل . وحكمة ذلك أنه لم يوجد رسول من الرسل السابقين فتن فيه قومه فحموه بعضاً من إله أو إلهاً فلم تسكت السماء عن ذلك ، فرفعه سبحانه وسيزله ليسه هذه القضية ، وبعد ذلك يجرى عليه قسر الله في خلقه وهو الموت .

إن الدين يقوم في هذه المسألة يجب ألا يقفوا ، لأن مسألة سيدنا عيسى عليه السلام بدأها الله بحياة حرق التواميس لأنه وكّد من أم دون أب . فإن كنتم قد صدقتم العجيبة في الميلاد ، فلماذا لا تصدون العجيبة في مسألة الرفع ؟

وإن قل واحد منا : لقد مات عيسى عليه السلام . تقول . ماذا تقولون في نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أصدق إلى السماء معروجا به إليها ؟ ألم يكن رسول الله حياً بقانون الأحياء ؟ نعم كان حياً بقانون الأحياء . وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة وجيزة في السماء ثم نزل إلينا ، إذن فاسألة في أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حي ثم ينزل إلى الأرض وهو حي ليس عجيبة .

واخلاف بين رفع عيسى وصعود محمد صلى الله عليه وسلم بالمعراج خلاف في المدة . وهذا لا يتخص المبدأ ، فاللهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته ، وظل فترة من الزمن بحياته ، إذن فمسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد في شريعتنا الإسلامية . وتأكيد هذه المسألة بقول الحق :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الساء)

السامع السطحي لهذه الآية قد يقول : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ، وأقول : لا . لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم ، وليس الإيمان المراد لله ، آمنوا به إلهاً أو جزءاً من إله وهو ما يسمى لديهم بالثالوث - الآب والابن وروح القدس - ولكن الله يريد أن يؤمنوا به رسولاً وبشراً وعبدًا .

وإذا قال الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » فمعنى هذا : ما أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

والضمير في قوله : « إلا ليؤمنن به » يرجع إلى عيسى . والصمير الآخر الموجود في « قبل موته » قد يرجع إلى عيسى أي قبل موت عيسى ولن يموت عليه السلام المنة الحقيقية التي تنهى أجله في الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودعه ليقول لهم : أنتم مخطئون في أنكم أنكرتم بشارتي بمحمد الخاتم ، وأنتم مخطئون في اتهامكم لأمي ، والدليل على خطئكم هو أنني جئت مبشراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبدالله ، وهأنذا أصلي حلف واحد من أمة ذلك الرسول . فليس يأتي عيسى - عليه السلام - بشرى جديدة بل ليصلى تحلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وحين يصنع عيسى بن مريم ذلك ، ماذا سيفعل الذين آمنوا به ؟ لا شك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن كل كتاب من الدين عاشوا في المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبداً قبل أن يموت ولو في غيبوبة النهاية عندما تبلغ الروح الخلقوم وتتردد في الخلق عند الموت . فقد أصبح أن تكون الآية عامة « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ويعود الصمير فيها إلى كل كتاب قيل أن يموت

إن النص البشري لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويخلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة ، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق ، انتهى كل شيء يُبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين ؛ ولا تبقى إلا القصصيات بحققها وصدقها ويعينها ، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة ، ويراجع الإنسان مهم نفسه في هذه اللحظة ، ويقول : أنا اتعبت هوى نفسي ولكن أينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه ؟ لا ؛ لأن مثله في ذلك مثل إيمان فرعون ، فقد قال حين أدركه الغرق

﴿ حَقَّقْ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَنَىٰ أَلَمْ تَكُنْ أَن تَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي عَاسَمْتَ بِهِ رَسُولَ رَبِّهِ إِذْ

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

فسمع صوت الحزن في تلك اللحظة :

﴿ أَتَعْنَى وَتَدَّ عَصَبَتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ١١ ﴾

(سورة يونس)

فلم يتسع فروع لحطة الخرق بالإيمان .

ويقول - سبحانه - :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ
الْفَسْنَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ هُكْمًا أَوْسَطُكَ أَعْتَدَتْ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٥ ﴾

(سورة النساء)

ويذيل الحزن الآية : « ويوم القيامة يكون عبيهم شهيداً » وهذا يؤكد أن عيسى
عليه السلام سيشهد على من حاصروا نزوه في الدنيا ، وسوف يشهد يوم القيامة على
الذين ادعوا له بالالوهية .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ إِنِّي مُرْسِلُكَ إِلَيْ مَرْيَمَ هَآؤُنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأُتِي النَّهْجَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ بِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ
تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ أَعْلَمُ الْعُيُوبِ ١٦ ﴾

(سورة المائدة)

ويعلو الحزن سبحانه الكلام عن فطاح اليهود فيقول :

﴿ فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمَا عَلَيْهِمْ طَيْبَتِ
أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ١٧ ﴾

هو سبحانه يوضح أن تحريم بعض الطيبات على بني إسرائيل جاء نتيجة لمواقف
بعضهم الله ، لقد ارتكبوا ما ارتكبوا من دنوب كبيرة وظلموا أنفسهم وظلموا

غيرهم ، وصموا عن دين الله ، بمعنى أنهم لم يدخلوا في الإسلام .

وتستمر الحثيات للتحريم لبعض الطيبات لتد على هذين الموقفين :

﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴾

وأى ظلم يتحدث عنه الحق في قوله : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ؟ . الظلم معناه أن يحكم واحد لغير ذى الحق بحق ، وقمة الظلم أن يحكم واحد بأن لله شريكاً ، ولذلك قال سبحانه .

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وحثيات حكم الله بتحريم أشياء كانت حلالاً لبني إسرائيل متعددة . وحين يحرم الله شيئاً فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة للمحظول ؛ فالمحرم قليل ، وبقي ما لم يذكره الله إنما يدخل في نطاق الحلال .
مثال ذلك قوله الحق .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْنٍ ثُمَّ نُرْسِلُكُمْ وَلِيَّامٌ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْقِيَمِ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّمُ نَفْسًا إِلَّا وُسْطَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ مَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ

ذَاقُرْبَنَ وَيَمْهَدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذِكْرَكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَنُوكُمْ تَذَكُّرُونَ ﴿١١١﴾

(سورة النحل)

يورد الحق هنا المحرمات وهي أشياء محددة محدودة ، أما النعم كلها فحلال . ومن هذا الأمر نفهم اتساع مدى رحمانية الحق بالخلق ، فقد وهبنا الكثير والكثير من النعم التي لا تعد ولا تحصى ولم يحرم إلا القليل . ونحريم القليل جاء لتبقي كل نعمة في محالها .

إذا قال إنسان : حرم الله هذا الشيء لأنه صلب بقول : ما نقوله جائز ، ولكن ليس لصبر هو سبب الحكم لكل المحرمات ، فقد يحرم سبحانه أمراً لتأديب قوم ما . - والله المثل الأعلى - نرى المستول من تربية أسرة قد يحرم على ولد فيها لونها من الطعام أو جزءاً من مصروف اليد ويكون المقصد من ذلك هو العقوبة .

ولماذا استحق بنو إسرائيل عقوبة التحريم ؟ لقد جاءوا من خلف مهبج الله وأحلوا لأنفسهم ما حرم الله . وما داموا قد راغوا فأحلوا ما حرم الله فالخلق يرد عليهم لقد اجتأتم على ما حرمت فحللتموه ، ومن حقى أن أحرم عليكم ما أحللت لكم قبل ذلك ، حتى لا يفهم الإنسان أنه يتحلله لنفسه ما حرم الله قد أخذ شيئاً من وراء الله فلا أحد يمكنه أن يقلب الله . ولذلك يحرم سبحانه عليه شيئاً من حلاله

والتحريم إما أن يكون تحريم تشريع ، وإما تحريم طبع أو فطرة أو ضرورية . نجد الرجل الذي أسرف على نفسه في تناول محرقات كالخمر - مثلاً - يحرم الله عليه أشياء كانت حلالاً له ، ويقول له الطبيب : تمراً كبذك وصار من السموم عليك أن تأكل صنوفاً كثيرة من الطعام والشراب . وهكذا يرى ظلم الإنسان لنفسه ، وكيف نتج عنه تحريم أشياء كانت حلالاً له .

ومن أسرف على نفسه في تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً فأكله موق ما تدعو به الحاجة ، نجد منة الله الكونية نقول له . لقد أخذت أكثر من حنك . وعطلت في جسك لقدرة من حسن استخدام السكر فصرت مريضاً ، إياك أن

تتناول السكريات مرة أخرى ، ويشتهى المريض السكر والخلوى ويمتلك القدرة على شرائها ، ولكنها محرمة عليه ، وكان الحق سبحانه وتعالى يقول له : يظلم منك لنفسك حرمت ما أحللت لك .

وأخر يملك الثروات والخدم والمزارع الشصعة ، ويقوم له الآخرون بطحن العلال ، ويأمر بأن يصنعوا له الخبز من أنقى أصناف الدقيق الخالي من أية قدر من « النخالة » ، ويصنعون له الخبز الأبيض ، ويأكله يسيراً الاتباع يصنعون لأنفسهم الخبز من الدقيق الأقل نقاوة ، فتقول له ستة الله : ستأكل الخبز المصنوع من نخالة بأمر الطبيب علاجاً لأمعائك لأنك أسرمت على نفسك في أكل الخبز المصنوع من أنقى أنواع الدقيق وليأكل رعابك وهالك الخبز المصنوع من أصغر ألوان الدقيق ، فبظلم منك حرمت ما أحل لك .

وعندما نرى إنساناً قد حُرِمَ من نعمة من نعم الله التي هي حلال له ، نعلم أنه قد حلل لنفسه شيئاً حرمه الله عليه ، أو أسرف في استعمال حق أحله الله له ، ولا أحد منا يملك من رقابة الله . إذن فالتهريم قد يكون بالشرع ، إذا كانت العقوبة لتهريم من الشرع ، وقد يكون محرماً بالطبع والنظرة إن كان في الأمر إسراف من النفس .

ولقرأ دائماً هذه الآية . « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » وكذلك الذين يأخذون مالاً بالربا ، لقد أخذوا الربا ليزيد مالهم ، لماذا يريدون المال ؟ أتريدون المال لذات المال ، أم لهدف آخر ؟ صحيح أن المال ورق ، لكنه رزق غير مباشر ، لأنه يشتري به الأشياء التي يستمتع بها الإنسان ، وهي الرزق المباشر . وقبلنا قديماً : هب أن إنساناً في صحراء ومعه جبن من ذهب لكن الطعام انقطع منه ، وجبل الذهب في مثل هذه الحالة لا ينفع ، بل يصبح رغبة الخبز وكوب الماء في تلك الحالة أغلى من الذهب . والذي يريد مثله بالربا ، أيريد تلك الزيادة من أجل المتع ؟ سبحانه يحق ذلك المال ويذهب في كوارث .

ومن أراد أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتي أجله فعليه ألا يبيع لنفسه أي شيء .

حرمة الله . وبذلك يظلم متمتعاً بنعم الله عليه . فالخلق هو القاتل : (وما ربك بظلام للعبيد) .

الإنسان - إذن - هو الذي يظلم نفسه مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَنَفْسُهُ يُظْلِمُونَ ١٠١ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا ظلم اليهود أنفسهم فعهرم الله عليهم طيبات أحلت لهم . ومن لدى نقل الأمر الطيب إلى أمر غير طيب ؟ . إنه الإنسان . ولكن هل نقل ذات الشيء أو حكم الشيء ؟ . لقد نقل حكم الشيء ، فجعل الشيء المحرام شيئاً حلالاً « بظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » .

كيف يكون باستطاعتهم الصّد عن سبيل الله ؟ لقد ظلموا أنفسهم وأحدوا الربا ونكّلوا أمور نجعلهم في ناحية الضلال وفي جانب الباطل ، وليت الأمر وقف عند هذا بل أرادوا أيضاً ضلال غيرهم ، وهذا هو معصمون الصّد عن سبيل الله . وجعلهم هذا الأمر أصحاب وزر آخر فوق أوزارهم ، فلم يكتفوا بضلالهم بل تحمّلوا أوزار وضلال غيرهم .

﴿ يَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ الْأَوْزَارِ الَّذِينَ يُصَلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ١٠٢ أَلَسَاءَ مَا يَزُرُّونَ ١٠٣ ﴾

(سورة النحل)

وقد يسمع متشكك هذا القول . فنتساءل : كيف يناقض القرآن بعضه فيقول .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ١٠٤ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ونقول : إن لكل وزر طريقاً وحساباً ، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل به أحداً غيره ، ولكن إن حاول إضلال غيره فهو يتحمل وزر هذا الإضلال .

ويقول الحق في تكملة ظلمهم لأنفسهم : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكدهم

أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ، وقد تعرضنا للربا من قبل . وقد أخذوا الرشوة ، وهو أكل مال الناس بالباطل ، وكذلك السرقة ، والغش في السلم ، كل ذلك أخذ مال من الناس بخير حق ، وما أخذ بخير الحق فهو باطل ، وأعد سبحانه لهم سبقاً عذاباً أليماً . ولكل إنسان مقعدان : مقعد من الجنة إن قدر إيمانه ، ومقعد من النار إن قدر كفره ، ولا مجال للغش بإمكان ازدحام الجنة أو ازدحام النار ، فقد خلق الله مقاعد الجنة على أساس أن كل الناس مؤمنون ، وجعل مقعد النار على أساس أن كل الناس كافرون .

ولذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْآخِرَ دُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١)

(سورة المؤمن)

وحيث يتبوأ المؤمن مقعده في الجنة بورثه الله المقعد الآخر الذي أعد له للكافر ، فقد كان للكافر قبل أن يكفر مقعد في الجنة لو اختار الإيمان . وقد أعد الحق العذاب الأليم لهم أي الشديد إيلاهم ، وهو مهين أيضاً أي أن في قدرته قهر أي إنسان يتجلده للشدة ، فلا أحد يقدر على الجلود أمام عذاب الله .

وهل هذا هو كل ما كان من أهل الكتاب ؟ ألم يوجد في أهل الكتاب من كان يدير مسألة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم في عقله ، ويبحث في القضايا والسمات التي جاءت مبشرة به صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل ؟ كان من بينهم من فعل ذلك ، ويورد الحق سبحانه وتعالى التاريخ الصادق ، فيستثنى من أهل الكتاب الراسخين في العلم فيقول :

﴿ لَكِن الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أُولَئِكَ مَنُّونِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

إذن لم يعمم الله أسعكم على أهل الكتاب ، الذي سبق بكفرهم وظلمهم لأنفسهم وأخذهم الربا وغير ذلك ، بل وضع الاستثناء ، ومثل لذلك « عبدالله بن سلام » الذي أدلر مسألة الإيمان برسول الله في رأسه وكان يعلم أن اليهود قوم بُهت

فقال لرسول الله : إن أومن بك رسولاً ، والله لقد عرفتك حين رأيتك كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد .

ويقول الحق عن مثل هذا الموقف : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . ولا أحد يتوهم معرفة ابنه ، كذلك الراسخون في العلم يعرفون محمداً رسولاً من الله ومبلغاً عنه ، والراسخ في العلم هو النابت على إيمانه لا يتزحزح عنه ولا تأخذه الأهواء والنزوات . بل هو صاحب ارتقاء صفاتي في اليقين لا تشوبه شائبة أو شبهة .

« لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، وقوله الحق : « بما أنزل إليك » هو القرآن ، وهو أصل يُرد إليه كل كتاب سابق عليه ، فحين يؤمنون بما أنزل إلى سيدنا رسول الله ، لابد أن يؤمنوا بما جاء من كتب سابقة .

والملاحظ للنسق الأسلوب سيجد أن هناك اختلافاً فيما يأتي من قول الحق . « والمقيمين الصلاة » فقد بدأ الحق الآية : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة » .

ونحن نعلم أن جمع المذكر السالم يُرفع بالواو وينصب ويُجر بالياء ، ونجد هنا « المقيمين » جاءت بالياء ، على الرغم من أنها معطوفة على مرفوع ، ويسمى علماء اللغة هذا الأمر بكسر الإعراب ، لأن الإعراب يقتضي حكماً ، وهنا نلتصت لكسر الحكم . والأخذ العربية التي نزل فيها القرآن طُبِعَتْ على الفصاحة تنبيه لحظة كسر الإعراب .

لذلك فساعة يسمع العربي لحناً في اللغة فهو يفرح . وكلنا يعرف قصة العربي الذي سمع خليفة من الخلفاء بخطب ، فلهن الخليفة لحنه فصرّ الأعرابي لأذنيه ، أي جعل أصابعه حلف أذنيه يديرهما وينصيهما ليسمع جيداً ما يقول الخليفة ، ثم لحن الخليفة لحنه أخرى ، ههب الأعرابي واقفاً ، ثم لحن الثالثة فقال الأعرابي : أشهد أنك وليت هذا الأمر بفصاء وقلو . وكأنه يريد أن يقول : أنت لا تستحق أن تكون في هذه المكانة .

وعندما تأتى آية في الكتاب الذي يتحدى الفصحاء وفيها كسر في الإعراب ، كان على أهل الفصاحة أن يقولوا . كيف يقول محمد إنه يتحدى بالفصاحة ولم يستقم له الإعراب ؛ لكن أحداً لم يقلها ، مما يدل على أنهم تنبهوا إلى السر في كسر الإعراب الذي بلغت به الحق كل نفس إلى استحضار الوحي بهذه القضية التي يجب أن يقف الدعن عندها : « والمقيم الصلاة » .

لماذا ؟ لأن الصلاة تضم وتشمل العباد الأساسي في أركان الإسلام ؛ لأن كل ركن من الأركان له مدة وله زمن وله مناط تكليف . فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفي أن يقومها المسلم مرة واحدة في العمر ، والصوم شهر في العام وقد لا يصوم الإنسان ويأخذ برخص الإفطار إن كانت له من واقع حياته أسباب للأخذ برخص الإفطار . والزكاة يؤديها المرء كل عام أو كل زراعة إن كان لديه وعاء للزكاة . والحج قد يستطيعه الإنسان وقد لا يستطيعه . وتبقى الصلاة كركن أساسي للمسلم . ولذلك نجد هذا القول الكريم :

﴿ مَا مَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا آتَيْنَاكَ مِنَ الْمُحْصَلِينَ ۝١٧ ﴾

(سورة المدثر)

وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة وهي واضحة ، ومن الجائز ألا يستطيع المسلم إقامتها كلها بل يقيم فقط ركتين اثنين ، كالشهادة وإقامة الصلاة . ونحن يقول الحق : « والمقيم الصلاة » . بلغت كل مؤمن إلى استمرارية الودادة مع الله ؛ فهم قد يوثقون الله شهراً في السنة بالصيام ، أو يوثقون بإيتاء الزكاة كلما جاء لهم عطاء من أرض أو من مال ، أو يوثقون الله فقط إن استأصلوا الذهاب إلى الحج . وبالصلاة يؤدّ المؤمن ربه كل يوم خمس مرات ، هي - إذن - إعلان دائم لولاء

لقد قلنا : إن الصلاة جمعت كل أركان الدين ، ففيها نقول : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ونعلم أننا نذكر بالمال ، والمال فرع العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، والإنسان حين يصلّي يتركى بالوقت . والإنسان حين يصلّي يصوم عن كل المحللات له ، هي الصلاة صيام ، ويستقبل المسلم البيت الحرام في كل صلاة فكأنه في حج

إذن فحين يكسر الحق الإعراب عند قوله : « والمقيم الصلاة » إما جاء ليعتدنا على أهمية هذه العبادة . ولذلك يقولون : هذا كسر إعراب بقصد المدح . فهي منصوبة على الاختصاص ويخص به الحق المقيم الصلاة ، لأن إقامة الصلاة فيها دوام إعلان الولاء لله . ولا ينقطع هذا الولاء في أى حال من أحوال المسلم ولا في أى زمن من أزمان المسلم مادام فيه عقل .

ويقول الحق من بعد ذلك . « والمؤتون الزكاة » والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، كأن كل الأعمال العبادية من أجل أن يستديم إعلان الولاء من العبد للإيمان بالله . والإيمان - كما نعلم - بين قوسين ، لقوس الأول . أن يؤمن الإنسان بقيمة الإيمان وهو الإيمان بالله . والقوس الثاني : أن يؤمن الإنسان بالنهاية التي نصير إليها وهي اليوم الآخر . ويقول سبحانه جزاء هؤلاء : « أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » هو أجر عظيم ، لأن كل واحد منهم قد شذ عن جماعته من بقية أهل الكتاب ووقف الموقف الثابت والرافض المتمرد على تدليس غيره ، ولأنه فعل فلك ليعين صدق القرآن في أن الإعلام بالرسول قد سبق رجاء في التوراة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ
مِنْ قَبْلِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَأِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ

رَبُّنَا وَهَارُونَ وَصَلْتَيْنِ وَعَائِينَ دَاوُدَ

زَبُورًا ﴿٢٢٣﴾

ونعلم أن الحق حينما يتكلم ، يأتي بصميم التكلم . وصميم التكلم له ثلاثة أوجه ، فهو يقول مرة . « إنا » ومرة ثانية . « إني » وثالثة يخاطب خلقه بقوله : « نحن » . وهنا يقول . « إنا أوحينا إليك كما أوحينا » . ونشاهد في موقع آخر من القرآن الكريم قوله الحق :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وفي موضع ثالث يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِتُونَ ﴾ ﴿١﴾

(سورة الحجر)

لأن الذكر يحتاج إلى صفات كثيرة ومتنوعة تتكاتف لتسهيل الذكر وحفظه . وحين يخاطب الله خلقه يخاطبهم بما يحل مواقع الصفات من الكون الذي يعيش فيه والكون الذي يعيش فيه يمتلئ بالكائنات التي تخدم الإنسان ، وهذه الكائنات قد احتجت إلى الكثير لتيسر للإنسان الكون قبل أن يوجد الإنسان ، وذلك حتى يأتي إلى الكون ليحدث نعم الله له ؛ فالإنسان هو الذي طرأ على كون الله .

هذا الكون الذي صار إلى إبداع كبير احتاج إلى صفات كثيرة لإعداده ، احتاج إلى علم عن الأشياء ، وإلى حكمة لوضع كل شيء في مكانه ، ولقبسة تبرزه ، وإلى غنى بخرائنه حتى يفيض على هذا الموقع بحير يختلف عن حير الموقع الآخر ، وساعة يكون العمل مُتطلباً مجالات صفات متعددة من صفات الحق ، يقول سبحانه : « إنا » أر « نحن » . وعندنا يأتي الحديث عن ذات الحق سبحانه وتعالى بقول : « إني أنا الله » . ولا تأتي في هذه الحالة « إنا » ولا تأتي « نحن » .

والحق هنا يقول . « إنا أوحينا إليك » أي أنه أوحى بمنهج ليصير الإنسان سيداً في

الكون ، يصون نفسه والكون معاً ، وصيانة الكائن والكون تقتضي علماً وحكمة وقدره ورحمة ، لذلك فالوحي يحتاج إلى صفات كثيرة متآزرة صنعت الكون . ورحمة من الله بخلقه أن جعل لهم مدخلاً فيقول على سبيل المثال :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة طهر)

هو الذي أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خلقه أي دخل في هذا ، لأن الماء لما يتخردون أن يدري الإنسان ، ولم يعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة . وعرفنا كيف يتكون السحاب من البحار ، ثم يرسل المطر من بعد ذلك . إذن لا دخل للإنسان بهذا الأمر ، لذلك يقول الحق : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً » . ربأت من بعد ذلك إنصاف الحق للخلق ، فيقول : « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . ولم يقل : « فأخرجت » . بل أنصف الحق خلقه وهم المتحركون في نعمه بالعقول التي خلقها لهم ، فسيحانه بقدر عمل الخلق من حرث وبلد وري وظلك حتى يخرج الثمر .

إذن الأسلوب القرآني حين يأتي بـ « إن » يشير إلى وحدة الذات ، وحين يأتي بـ « إنا » يشير إلى تجمع صفات الكمال ، لأن كل فعل من أفعال الله يقتضي حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدره وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزاً وإدلاً وقهلاً ورحمة ، لذلك لا بد من ضمير التعظيم الذي يقول فيه النحويون : « نحن » و « ما » للمعظم نفسه . وقد عظم الحق نفسه ، لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون . ولذلك نجد بعض العارفين الذي لمحوا جلال الله في ذاته وجماله في صفاته يقولون :

فسبحان رب فوق كل مظنة . . تعالى جلالاً أن يحاط بذاته إذا قال « إني » ذاك وحدة قدسه . . وإن قال « إنا » ذاك حشد صفاته

وعندما ننظر إلى هذه المسألة ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى أنصف خلقه لعلمهم بعرفونه ، فجعل لهم إيجاد أشياء وخلق أشياء . وحين يتعرض سبحانه لأمر يكون له فيه فعل ويكون له أقدره سبحانه من خلقه به فعل ، فهو يأتي بنون التعظيم لأنه سبحانه . هو الذي أمدهم بهذه القدرات .

وحين أوجد الحق خلقه من عدم ، جعل خلق من خلقه إيجاداً ، ولكن هالك فرق بين إيجاد المادة ، وإيجاد ما يتركب من المادة . فقد خلق سبحانه كل شيء من عدم ، ولكن جعل خلقه أن يخلقوا أشياء لكن ليست من عدم . وما صنّ سبحانه وتعالى عليهم بأن يذكرهم بلفظ الخلق فقال :

﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التيسر)

لكنه سبحانه وتعالى جعل من خلقه خالقين ، لكن الخالقين من خلقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كونوا مركباً من موجود في مواده . فآخذوا من مواد خلقها الله فركبوا وأوجدوا . والإنسان الذي صنع كوب الماء لم يثنى الكوب من عدم محض وإن كانت « الكلية » في الكوب غير موجودة جزئيات إيجاد الكوب موجودة ، فالرمل موجود في بيئات متعددة ، وموجود أيضاً ما يصهر الرمل ، والمقل الذي يأخذ تلك العناصر ، ولفكر الذي يصنع من الرمل عجينة ، ومصمم الآلات التي تصنع هذا الكوب موجود . إذن فقد أوجد الإنسان كوباً من جزئيات موجودة . فالعارق - إذن - بين خلق الله وخلق خلق الله ، أن الله خلق من عدم محض ، لذلك وصف ذاته بقوله : (تبارك الله أحسن الخالقين) .

فانتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات الله ولم تخلقوا من غير مخلوق لله ، وهو سبحانه وتعالى أحسن الخالقين . وكما أنصف الحق خلقه بأن نسب لهم خلقاً ، فلا بد من أن يصف نفسه بأنه أحسن الخالقين . وأيضاً إن خلق الخلق - كما قلنا وأنا لا أزال أكررها تستقر ثابتة في الأدهان - بحمد الشيء على ما أوجده عليه ، فيخلقون الكوب ليظل كوباً في حجمه وشكله ولونه ، ولكنهم لم يخلقوا كوباً ذكراً وكوباً أنثى ليجتمعاً معاً وينشأ أكواباً صغيرة تنمو وتكبر ، ولكن الله ينفع بسر الحياة في كل شيء بوجوده ، لذلك هو أحسن الخالقين .

ولو نظرت إلى كل شيء في الوجود لوجدت فيه سر الذات الفاعلة ، فلو نظرت إلى ذات نفسك ، لوجدت لك وسائل إحراك ، لوجدت لك سمعاً ، ولوجدت لك عينا ، ولوجدت لك أنفاً وللسا وذوقاً ، ولكن لبعض الآلات تحكم في اختيارك ، فأنت حين تفتح عيبك ترى وإن لم ترد أن ترى تغمض عيبك . ولكن إذا أردت

ألا تسمع ، أنتستطيع أن تجعل في أذنك آلة تقوى « لا أسمع » ؟ وأنت تفتح فمك لتأكل وتندون ، ولكن أنت لا تفتح أفك لتشم . أنت غمد يبك لتلمس . وقل لي بالله أى انفعال لك أن أردت أن تضحك ؟ ما الآلة التى فى بدنك تحركها لتضحك ؟ أنت لا تعرف شيئاً إلا سبباً متبراً يضحك ، لكنك لا تعرف ما هى الآلات التى تعمل فى جسمك لتضحك . وكذلك حينما يبكى ما هى الآلات التى تعمل فى ذاتك لتجعلك باكياً ؟ أنت لا تعرف . ولذلك جعل الله الإضحاك والإبكاء مع الإيمان بالحيلة ، والعدم بالموت جعل ذلك له سبحانه وتعالى

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَكُ وَأَبْكِي ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَّتٌ وَأَحْيَا ۝﴾

(سورة النجم)

جعل الحق فى ذاتك الإنسانية أشياء تفعل ولكنك لا تعرف بأى شيء تفعل ولا بأى شيء تفعل . والأذن ليس لها ما يسمعها من السمع ، لذلك لا يأمرك الحق ألا تسمع أى شيء ، ولكن الأثر الصالح يأمر : (لا تسمع إلى القيلة) .

لم يقل الأثر الصالح « لا تسمع إلى قيلة » لأن الإنسان لا يستطيع أن يسمع أذنيه عما يسور حوله ، لكنه يستطيع ألا يسمع بالأل يلقى بأذنيه إلى ما يقال . إذن فقد جعل الحق التكليف فى مقدور اختيارات المسلم ولذلك قال :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

غَيْرِهِ ۝﴾

(من الآية ٦٨ سورة الانعام)

واستخدم هنا كلمة « رأيت » لأن المسلم لا يملك شيئاً يسد به أذنيه حتى لا يسمع حديث الدين يخوضون فى آيات الله ، لكن أمر الله الذين يسمعون ذلك أن يسروا بعيداً معرضين عن هؤلاء الخائفين . وسبحانه يوضح لنا ما همى عنا ، وكل شيء فى الكون وإن كان ظاهره أنه « يعنى » ، لكنه فى الحقيقة هو متهور لما يفعل لمرادات الله بأمر الله . ولذلك يقول العارفين بالله . من جميل إحسانه إليك أن فعل ونسب إليك .

فسبحانه وتعالى الذى يفعل كل شيء ، وليس على الإنسان إلا ترجيه الآلة

الماعلة ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان حين يكون قوياً لا يمكنه أن يعطى قوته للضعيف ، فلا أحد منا يقول للضعيف : حد قدرأ من قوتي لتساعدك عن التحمل ، بينما يوضح الله للضعيف عملياً : تعالى إلى أعطت من مطلق قدرى قدرأ من القوة لتعمل .

إذن القوة في المخلوق لا يعطيها أبداً لمثله ، بل يعطى أثرها . مثال ذلك عندما لا يستطيع شخص أن يعمل شيئاً ثقیلاً ، فيأتى آخر قوياً ليحمله عنه ، والقوى بعمله إنما يعدى أثر قوته للضعيف ، لكنه لا يستطيع أن ينقل قوته إلى ذات الضعيف ليحمل الشيء الثقيل .

والله لا يعدى أثر قوته فحسب ولكنه يمج ويعطى قوة إلى كل ضعيف يلجأ إليه وإلى كل قوى أضعف . وسبحانه يتفضل بالحنى والسعة لكل عنى وفير وبرحمته إلى كل رحيم ، ويقدرته لكل قادر ، وبحكمته لكل حكيم . إذن فكل هذه مستمدات من الحق سبحانه وتعالى . هذا هو كلامنا في « إنا » .

وحين يتكلم الحق قائلاً « أوحينا » فهو سبحانه يأتى بصيغة الجمع . وما الوحي ؟ قال لعلماء الوحي : إعلام بخفية ، لأن وسائل الإعلام شتى ، وسائل الإعلام هى التى تنقل قولاً بقوله المبلغ فيعلم السامع ، أو هو إشارة يشير بها فيفهم معناها الرأى . وهذه علامات ليست بحفاء . بل موضح . وعندما يقول : « أوحينا » فهو يعنى أنه قد أسمع ، ولكن بطريق خفى . وحين تطلق كلمة « وحي » يكون لها معانٍ شتى ، فكل إعلام بحفاء وحي . لكن من الذى أوحى فى حفاء ؟ ومن الذى أوحى إليه فى خفاء ؟ وما الذى أوحى به فى خفاء ؟ نجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى أحسن الوجود ، وقال عن الأرض وهى الجهاد :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا هَآ ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أُنْحَارَهَا ۖ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۖ ﴾

(سورة الزلزلة)

أى أن الحق قد ضبط الأرض على مسافة زمن قيام القيامة ، فتحدث عندئذ

- والله المثل الأعلى - نحن نقدر العمر الافتراضي لما نصنع لينتهي في وقت محدد . إذن فقد أوحى الله للجهااد وهي الأرض

ويترك لنا سبحانه في صناعة المخلوقين ما يقرب لنا صفة الخلق ، فعندما يريد الإنسان أن يستيقظ في الثالثة صباحاً ، وهو وقت لم يعد فيه هذا الإنسان على الاستيقاظ ، فهو يضبط المنبه ليصدر عنه الجرس في الوقت المحدد ، كأد الإنسان بهذا العمل قد أوحى للمبه ، كذلك الحق صمغ الأرض وأوحى لها في الوقت المحدد ستفجرين بحكم تكويني لك . ويوحى الحق إلى جسم الحيوان .

﴿وَوَحَّى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٦٨)

(سورة النحل)

هذا إعلام بخفاء من الله للنحل فقد جعل الله في تكوينها الغرضي ما يؤدي إلى ذلك وهماك فرق بين التكوين الغرضي والتكوين الاختياري ، فالتكوين لغرضي يسير بنظام آلي لا يعمل عنه ، أما التكوين الاختياري فيصح أن يعمل عنه

ومثال آخر على الآلية نجد الحاسب الآلي المسمى العقل الإلكتروني ويقوم الإنسان بتحرير المعلومات فيه ، وهذا الحاسب الآلي لا يستطيع أن يقول لو اضع المعلومات فيه : لا تقل هذه الحقيقة ، ولا يستطيع أن يمنع عن إعطاء ما فيه لمن يطلب هذه المعلومات إن كان يعرف كمية استدعائها . فلا اختيار للحاسب الآلي .

ويختلف الوضع في لعقل البشري الذي يتميز بالعمرة على انتهاء المعلومات ويعرف كيف يدلي بهذه المعلومات حسب المواقف المختلفة ، ويتحكم بوعى فيها يجب أن يُستَروفيها لا يجب ستره ، بل إن العقل البشري قد يكذب ويلون المعلومات . وهو قادر على تغيير الحقائق والتحكم فيها ، بينما الحاسب الآلي المسمى بعقل الإلكتروني لا يقدر على ذلك ؛ لأنه يدلي بالمعلومات حسب ما تم « برمجته » ، وتخرجه ووضعه فيه ، وهكذا يرتقى الإنسان في المكر

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ، أعطى لكل كائن الغرائز التكريرية التي

تناسبه ، أعطى الإنسان القدرة على الاختيار بين البهلات ، أما بقية الكائنات فقد أخذت حكم الغريزة . والكائن الذى يسير بحكم الغريزة لا اختيار له ، ولذلك تسير كل أموره مستقيمة بناموس ثابت .

ونرى هذا الأمر بوضوح فى حكم فهر السموات والأرض والكواكب التى لا اختيار لها ؛ فهى تسير حسب القوانين التى وضعها الله لها ، وكذلك النبات . فالإنسان قد يزرع شجرة فتتعمق بالتسخير الفرسى الذى وضعه الله فيها ، وتنتد الشعيرات من الجذور فى باطن الأرض ؛ لتمتص - بتسخير الله لها - بعض العناصر المحددة فى التربة ، ويستفح نبات ما بمادة معينة قد لا تصلح لنبات آخر .

ويأتى علماء النبات ليعملوا فى حقن دراسات لحو النباتات ، وقد يكون بعضهم ضعيف الإيمان بالله ، أو أن قدرات الخالق لا توجد فى بؤرة شعوره دألي . فيقول : إن النبات يتغذى حسب خاصية الأنابيب الشعرية . وخاصية الأنابيب الشعرية - كما نعرفها - هى صعود السائل إلى الأنابيب التى تكون الواحدة منها لا يزيد قطرها واتساعها على قطر الشعرة . ويصعد فيها السائل إلى ما فوق سطح الإناء . وكل سائل فى أى إناء إنما يأخذ استطرافاً واحداً . وعندما نضع الأنابيب الشعرية فى قلب هذا الإناء ، فالسائل يصعد داخل هذه الأنابيب فوق مستوى الإناء ؛ لأن الضغط الجوى داخل الأنابيب يختلف بالنسبة لحجم المياه عنها فى داخل الإناء . وظن العلماء أن النبات يتغذى بهذه الطريقة .

ويقول هؤلاء : كيف هذا والسات يختار عناصر معينة من السائل ؛ بينما الأنابيب الشعرية يصعد فيها الماء بكل العناصر الموجودة فى الماء ؟ . إنك أيها العالم الذى ظن بالله من بؤرة شعورك قد تدعى أن الطبيعة هى التى تفعل ذلك ، ولا تلتفت إلى حقيقة وضحة وهى أن النبات يتغذى بالتسخير الربانى الخاص بعضاً من العناصر الموجودة فى التربة ، لا بخاصية الأنابيب الشعرية .

وصدق القول الحق :

﴿ مَٰجِئِمْ أَنَّم رَّبِّكَ الْأَعْلَى ۝ ١ ۝ الَّذِى خَلَقَ مَسْوًى ۝ ٢ ۝ وَالَّذِى قَدَّرَ لَهُدًى ۝ ٣ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

مُسَبَّحَاتِهِ الَّتِي قَدَّرَ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى احتِيَاجَاتِهِ . ويقول الحق أيضاً :

﴿ يَسْقَى زَيْتًا وَحَدِيدًا وَيُقَصِّلُ تَعْصَبًا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة الرعد)

إذن فمُسَبَّحَاتُهُ يوحى لكل نيات بخاصية تكوين غريزي تختلف عن النيات الأخرى ؛ لذلك نجد الفلاح يضع شجرة الفلفل بجانب عود القصب ، بجانب شجرة الرمان ، فنجد الفلفل يهرج وله مذاق حريف ، والقصب له مذاق حلو ، والرمان له مذاق فيه الحلاوة والحموضة ؛ إنه يختلف عن القصب وعن الفلفل ؛ وهذا الاختلاف لم يتم بخاصية الأنابيب الشعرية . ويقول آخر : هذا الاختلاف إنما حدث بظاهرة الانتحاب الطبيعي . ويقول : ماذا لا تقول الانتحاب الإلهي وتشرح ؟ .

إذن فالوحي هو إعلام بحقاء ، وقد يكون مطموراً في تكوين الشيء بحيث إذا جاء وقته يتم عمل ، تماماً مثلما يلقى جرس المنبه في الميعاد المحدد . والوحي إلى الحيوان يتحدد في قوله الحق :

﴿ وَوَحَّى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

يَعْرِشُونَ ﴾

(سورة النحل)

ومن العجيب أن العالم الأمريكي الذي رصد حياته لدراصة النحل في أطواره وأصنافه وأجنته وبيئاته ، قال : أول إنتاج للنحل كان في الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان في الخلايا التي عثر عليها في الجبال وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله في الشجر العالي الذي لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البيوت والبيوت والخلايا وي عرشون . ولم يهرأ هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التي جاءت به ، لكنه درس بصدق البحث التجريبي ، وخرج بالنتيجة نفسها التي جاء بها القرآن . وفي كل وقت و زمان نجد عبداً من الكافرين يكتشف أشياء تؤيد وتؤكد قضية الإيمان عند المؤمنين . أما الوحي بالسنة للإنسان فيأخذ أشكالاً أخرى ، يقول الحق .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَلَإِذَا خَضَتْ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾

(من الآية ٢٠ سورة النضر)

ولم يأت إلى أم موسى رسول يوحى إليها . لكن الأمر قد استقر في ذهنها ، وقد تعب العلماء كثيراً ليقربوا معنى الوحي لأذهانتنا ، فقالوا عنه . إنه عرفان بجده الإنسان في نفسه ولا يعرف مصدره ، ومع هذا العرفان دليل أنه من الله . ولذلك لا يطلب العقل عليه دليلاً . والذي يصدق على هذا هو أننا سمعنا قول الحق : «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم»

وبالله عليكم ، اجمعوا الدنيا كلها وقولوا لامرأة : إن خفت على ابنتك فإلقيه في البحر ، هل تصدق الأم ذلك ؟ لا يمكن ، لكن أم موسى أخذت هذا الأمر كعضية مسلم بها ، فساعة دخل الإجماع من الله إلى قلبها ، أو الإعلام بحفاء إلى وجدانها آمنت به ، وما دام الإعلام من الله فلا شيطان يراسمه ، بل يدخل إلى النفس فتستقله استئصال اليقين والإيمان بلا مناقشة . وألقت أم موسى بابنها بعد أن أرضعته . وأراد الله أن يطعمها . فأوضح لها : أنا أصدرت الأمر إلى البحر ليلقي الرضيع إلى الساحل . وأصدرت الأوامر ليلتقطه اسدو فرعون . وأصدرت الأمر أن يقوم بيت فرعون بتربيته .

وبعد ذلك هناك وحي للحرارين . يقول الله

﴿وَإِذَا أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ إِسْمَؤِيلَ وَرَسُولُهُ قَاتِلُوا ۖ آمَنُوا وَآثَرَهُ بِأَنَا

مُتْلُونَ ﴿١١١﴾﴾

(سورة المائدة)

وهناك وحي للملائكة كقول الحق .

﴿وَإِذَا يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيُّ مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَانِي فِي قُتُوبِ

الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعَبَ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

الوحي يتعلم ويشمل - إذن - كل أجناس الوجود بطريقة نحوية عند عالم حفي

عنا ، وهم الملائكة ، وعالم ملحوظ لنا ولأمثالنا مثل الخواصين ، ومثل أم موسى .

وساعة يقول : « أوحينا » ينهنا إلى أن الإعلام بخفاء أمر غير مقصور على الله ؛ ذلك أن الشياطين يرحلون إلى أوليائهم :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَنِّدُوهُمْ وَإِنَّ لَهُم مَّا يَشْتَرُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

ويقول أيضاً عن الشياطين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَبَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن الوحي هو إعلام بخفاء ، وليس الأمر مقصوراً على الحق سبحانه وتعالى ، بل يصح أن يكون الوحي من الله ، أو من الشياطين ، أو من جنود الشياطين .

وقد يكون الوحي إلى الجهاد وإلى الحيوان وإلى الملائكة وإلى الإنسان .

وعندما نحدد معنى الرحي فإننا نقول :

الرحي في اللغة إعلام بخفاء من أي - سواء أكان من الله أم من الشياطين - ولأي ما - سواء للأرض أو للحيوان أو للإنسان - وفي أي - سواء في خير أو شر - .

وكلمة « وحي » تصلح لأي معنى من هذه المعاني بحيث إذا أطلقت انصرفت إليه . ولكن في المعنى الشرعي لا تطلق إلا على الإعلام بخفاء من الله لرسوله ، ومثل ذلك حدث لمعنى الصلاة ، فالصلاة معناها الدعاء ، وهناك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والصلاة المكتوبة هي الأقوال والأفعال ، وأخذ

الشرع معنى الصلاة واصطلاح على أن كلمة الصلاة حين يطلعها المعنى تصرف إلى الأقول والأفعال المحصورة المبتدأة بالتكبير والمحتمة بالتسليم .

وفي هذا المعنى الشامل للصلاة نجد سيدنا عمر - رضي الله عنه - وقد دخل عليه حذيفة فسأله : كيف أصبحت ؟ أجاب حذيفة : أصبحت أحب الفتن وأكره الحق وأصل بغير وصوه وفي في الأرض ما ليس لك في السماء . وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا علي بن أبي طالب لكان لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة

وسأل علي عمر : ما يخصبك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا فقال علي - كرم الله وجهه - : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتن ، أي يحب ماله وولده ، فالحق قال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وهو يكره الموت والموت حق ومن مينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟ وهو يصل بعمر وصوه على ليس صلى الله عليه وسلم ، وله في الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لك في السماء .

إذن فقد أخذ حذيفة الفتن على معنى مخصوص ، وكذلك الموت ، والصلاة . وضرت هذا نكثل لأفروق بين المعاني الشرعية والمعاني اللغوية

وبوضح الفارق بين معنى الوحي الاصطلاحي ومعنى اللغوي ، المعنى اللغوي للوحي هو . إعلام بحفاء من أتى لأتى بأي . والوحي بمعناه الشرعي . إعلام بحفاء من الله لرسوله . وكل الألوان الأخرى من الوحي نأخذها بالمعنى اللغوي .

وقوله الحق ها في الآية التي نحن بصدد ها : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح » . و « أوحينا » ها قد جاءت للإعلام بحفاء من الله لرسوله ونعلم أن صفات الكمال للحق سبحانه وتعالى هي صفات الكمال المطلق وكل الحق مقدورون لقدرته سبحانه . ولا يمكن لأحد أن يتصل اتصالاً مباشراً بالأعل المطلق . ولا يستطيع أحد أن يتحمل ذلك حق الرسول . ولذلك يأتي الحق بنوديين من الملائكة ليأخذوا منه ليعطوا للرسول . ويسبق ذلك إعداد الرسول لهذه المهمة .

إذن فامسألة تمر بمراحل تصفية ، الأعلى يعطى للملائكة ، والملائكة يعطون للمصطفى من الخلق ، والمصطفى مصنوع على عين الله ليتلقى الوحي ، ومن بعد ذلك يعطى الرسول لغيره من البشر . وكل ذلك لتقريب مسافات الالتقاء . وعلى رغم تقريب مسافات الالتقاء تحصل المرة من آخر مرحلة حين يستقبل من أدنى مرحلة ، فحين يستقبل لرسول الوحي من ملك تحدث له هزة . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن أول لقاء له مع الوحي :

(حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذني فغطى حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطى الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطى الثالثة ثم أرسلني . فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم)^(١)

وكان جيبه يتقصد عرفاً ، ورجب فزاده ودخل على روجه حديجة بنت خويلد فقل . « زملون زملون » فرملوه حتى ذهب عنه الروع . وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ فهذا الملك جبريل متصل بشعر هو محمد بن عبدالله ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ، وذلك حتى يتكيف لاستقبال من الملك .

لكن أنظروا هذه الرغبة المتعبة ؟ لا ، إن الوحي يتر لمرة وتذهب عنه مناعبه فيشتاق الرسول إليه ويصير قادراً على تحمل مناعبه ، مثل نفص الجبين بالعرق ، ومثل الثقل في الحركة حتى إذا جاءه الوحي وهو على دابة فهي تنط وتثن ، وإن جاءه الرعى وهو جالس وقعدته على فخذ واحد من الصحابة ، فيكاد ثقل الرسول يرض عظام الرجل ويكسرها ، كل ذلك من المتاعب تحدث للرسول في أثناء الوحي ، لأن تغييراً كبيراً يحدث في بدنه صلى الله عليه وسلم ليتأكد أن الكلام الذي يتلقاه ليس كلاماً عادياً ، لكنه كلام قد جاء بإعجاز ، وأنه من عند الله

(١) روى البخاري من حديث عائشة أم المؤمنين

لقد كان للوحي صلة صلة كصلة صلة الجرس . وكأن هذا الصوت إعلان أن زمن وسعة الوحي قد جاءت فاستعد لها يا رسول الله . وعندما تعب رسول الله صلى الله عليه وسلم في البداية ، كان من رحمة الله به أن جعل الوحي يفرغ عنه ، فيشتاق صلى الله عليه وسلم للوحي بسبب حلاوة ما أوحى إليه ، ويجعله هذا الشوق مستشرفاً لمتاعب . وعندما هز الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خصومه : رب محمد ودعه ونجاءه . ولم يتذكروا أن لمحمد رباً إلا في هذه المسألة بعد أن اتهموه بالكذب ولم يمتلكوا الدكاء حتى يعبروا عن هذا الأمر بتعبير لا يتناقض مع موقفهم السابق . وحين رأى الحق الإجهاد الحاصل لرسوله جعل الوحي يفرغ ، حتى تبقى حلاوة ما يوحى به ويذهب التعب ويشتاق رسول الله إلى ما يوحى إليه .

إن الشوق وتلك المحبة يجعلان رسول الله لا يشعر بوطأة الألم المادي البشري ، والإنسان منا حين يذهب إلى حبيب له يسير في الشوك والوحل ولا يبالي . إذن فنور الوحي كان لتربية الشوق في نفسه صلى الله عليه وسلم ليستقبل الوحي ، ولتنبه كل منا حين يقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ رَأَوْا خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ ﴾

(سورة الفتح)

أي ان ما سيأتي لك من بعد ذلك سيترك . ويقول الحق بعدها .

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ ﴾

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ ﴾

(سورة الشرح)

وحيث عرض الحق هذه المسألة بهذه الكيفية أراد أن يبلغنا : لا تظنوا أن رب محمد - كما يقولون - قد جفاه ، لا ، بل يعلمه ليستقبل أكثر مما جاء من قبل ، فسنن الكون أمامكم ، لكن كرههم أعمى أبصارهم وبصيرتهم ، ويقول سبحانه :

﴿ وَالْأَنبِيَاءُ إِذَا مَجَىٰ ۙ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا نَلَىٰ ۖ ﴾

(سورة الفتح)

وسبحانه يقسم بما شاء على ما شاء . والضحى هو ضحوة النهار وهي عمل الحركة

والكدح والجهد والجهد والتعب ، والليل محل الراحة والسكون .

كأن الحق يوضح : نكم إن نظرتم في آية الكون لوجدتم أن الله قد جعل الضحى للكدح والليل لنسكن فيه ، وفتر الرسمى هو سكون ليعلوه محمد نشاطه في حركة الوحى الجديدة ، هو الحق - سبحانه - يقسم : « والضحى . والليل إذا سجي . ما ودعك ربك وما قلى » أجيء الليل بعد النهار ضمن من الله على الناس بالنهار ؟ لا ، إك الليل عصاء من الله يسكنوا وليستقبلوا النهار الجديد .

وانزل سبحانه الآية التي نحن بصددها خراطونا عنها حينما سأل اليهود النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة)

فيأمره الحق أن يوضح : أنا قد أوحى الله إلى كما أوحى إلى الرسل السابقين ، فهل أنتم شككنتم في وحى الله لموسى ؟ أم شككنتم في وحى الله لمن سبق موسى ؟ صحيح أنكم شككنتم في مسألة عيسى ، لكن لنضع الأمر الذي تكذبون فيه جاساً ولناخذ ما أنتم مصدقون به ، فيقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » .

إذن فأت يا محمد لست بدعاً في هذه المسألة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » وهم العلماء على هذه المسألة مروراً سريعاً ، لكننا نقف عندها ونقول : قد يوحى هذا القول أن أول وحى كان لنوح . والحقيقة أن الوحى الأول كان لأدم من قبل ، لكن هك فارق بين الوحى لأدم والوحى للأنبياء من بعده .

ومثال ذلك نوح ، فنوح طرأ على أمته وكانت أمته موحدة ثم جاء هو إلى هذه الأمة مبشراً ونذيراً . أما آدم عليه السلام فقد طرأت عليه أمته ، لذلك لم يرسله الله بمعجزة ، فهو أب للجميع . والأبناء يقتلون الآباء ، بل حتى أبناء الملائكة يقتلون آباءهم . وقد أوحى الله لأدم وقال له : (فلما يأتيكم منى هدى فمّن تبع هدى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإرسال الهدى لأدم هو عجيء الوحى إليه .

ولماذا جاء نوح في هذه الآية أولاً ؟ لأن نوحاً عليه وعلى بيته الصلاة والسلام قد

طراً على أمته ؛ لذلك احتاج إلى وحى وإلى معجزة . وأرسل الله نوحاً إلى الناس كافة ؛ ليعموم الموضوع ، فسم يمكن هناك من البشر غيرهم . لكنّ محمداً صل الله عليه وسلم أرسله الله للناس كافة ؛ لأن الإسلام هو الدين الخاتم . وكان قوم محمد موجهين . وكذلك كان غيرهم موجوداً .

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ». لَمَّا قَالَ الْحَقُّ : « وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » أَيُّ مَنْ بَعْدَ نُوحٍ ؟ ، وَلَمَّا قَالَ : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ » وَذَكَرَ أَسْمَاءَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَعْدِ إِبْرَاهِيمَ ؟

يقول العلماء : هنا عطف خاص على عام لزيادة التنبيه على شرف هؤلاء ،
 « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس
 وهارون وسليمان وأنتا داود زبوراً » ، وكان الحق يقول : حين يأسلك اليهود
 - يا محمد - أن تنزل عليهم كتاباً من السماء قل لهم : إن الله أوحى إلى كذا أو كذا إلى
 الأنبياء السابقين ؛ فليست بدعاً من الرسل . وحتى لو أنزل إليهم محمد كتاباً في
 قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا : هذا سحر ميين ، كما قل :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلْيُسِّوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا

تکثیر ایمنی (۱)

(سورة الأنعام)

فالتجرب يريد الإصرار على الإنكار فقط . وليست المسألة جدلاً في حق وإثما هي
لحاج في باطل .

ويتابع سبحانه وتعالى أسماء الأنبياء الذين أوحى الله إليهم : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » . فنلاحظ أنه جل وعلا ذكر الوحي عاماً ؛ لكنه حينما جاء لداود ذكر اسم كتابه « الزبور » ولم يأت في الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين مثل نزول التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ؛ لأن ما جاء به داود في الزبور أمر يجمع عليه كل الشرائع ، وهو تحميد الله والثناء عليه فلم توجد في الزبور أية أحكام .

وقد يقول قائل : إن عيسى أيضاً لم تنزل عليه أحكام في الإنجيل . ونقول : لأن الإنجيل يلتحم بالتوراة ؛ وجاء بالوجدانيات الدينية وكانت التوراة موجودة قبله وفيها الأحكام . ولذلك فمن عجيب أمر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أنهم على رغم اختلافهم في قضا الأمور وهي مسألة عيسى وأم عيسى ، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا ويسموا الكتابين « العهد القديم » و« العهد الجديد » ، ويعتبروهما كتاباً واحداً يسمونه الكتاب المقدس .

وما معنى « الزبور » ؟ المادة كلها مأخوذة من « زَبَرَ البثر » ، فعندما يقوم الناس بحفر بثر ليأخذوا منها الماء ، يحافون أن يسهال التراب من جوانبها عليه فتطمس البثر ؛ لذلك يصنعون لجوانب البثر بطانة من الحجارة ، وفي العربية المصري يشهد بأنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .

وكلمة « زَبَرَ البثر » تؤدي معنى كل عملية لإصلاح البثر ؛ ثم أخذ الناس هذه الكلمة في معانٍ مختلفة ، سمو العقل « زَبَرٌ » لأنه يعقل الأمور . وإذا كان السباح من الحجارة يعقل التراب من البثر ويصمه ، فكذلك العقل يحمي الإنسان من الشطط وليضبط الإنسان حريته في إطار مسئوليته ليفكر ، ويعقل الغرائز عن المكائ بالإنسان إلى الشتات والضلال . ويغفل الناس في بعض الأحيان في فهم معنى « العقل » ؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على المارب للأفكار دون انتظام أو مسئولية ، ونقول : افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا
لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا ﴾

والرسل الذين ذكرهم الله في الآية السابقة ليسوا كل الرسل الذين يحب الإيمان

بهم تفصيلاً فحسب ، فكما علموا في الأهر الشريف يجب أن يؤمن بحسنه
وعشرين رسولا وقد نظمهم بعض الشعراء في قوله :

في تلك حجتنا بهم ثمانية
من بعد عشر وبنو سبعة وهمو
إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا
دو الكفل ، آدم ، بالمختار قد ختموا

وفي سورة الأنعام نجد قوله الحق :

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ أَسْمَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٥١ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ٥٢ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ٥٣
وَلَتَعْمَلُنَّ فِي السَّعَىٰ وَيُؤْتَىٰ ذُرِّيَّتُكَ أَكْثَرًا ٥٤﴾

(سورة الأنعام)

وفي هذه الآيات ثمانية عشر رسولا ، وبالإضافة إلى سبعة هم إدريس وهود
وشعيب وصالح ودو الكفل وآدم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، هم إذن
حسة وعشرون رسولا ذكرهم الله ، لكن الآية التي تسبق الآية التي نحن بصددنا لم
يذكر الله كل أسماء الرسل وذكر أسماء بعض الرسل في سورة الأنعام وبعضهم في
سورة هود وبعضهم في سورة الشعراء ، ويقول الحق -

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّا نَقْصُصُهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ
اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ١٣٣﴾

(سورة النساء)

أي أن الخمسة والعشرين رسولا ليسوا كل الرسل الذين أرسلهم الحق إلى
الخلق ، فقد قال :

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

أى أنه قد قص علينا أعلام الرسل الذين كانت أعينهم لها كثافة أو حيز واسع أو لرسولهم معهم عمل كتيب ، ولكن هناك بعض الرسل أرسلهم سبحانه إلى مائة ألف أو يزيدون مثل يونس عليه السلام :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١١٧﴾

(سورة الصافات)

وكان العالم قديماً في انعزالية ، ولم يكن يملك من وسائل الالتقاء ما يجعل الأمم تندمج . وكان لكل بيئة داءاتها ، ولكل بيئة طابع مميز في السلوك ، ولذلك أرسى الله رسولا إلى كل بيئة ليعالج هذه الداءات ، ولا يذكر الداءات الأخرى حتى لا تشتغل من مجتمع إلى مجتمع آخر بالأسوة . وحين علم الحق معلمه الأزلي أن خلقه بما أقدرهم هو سبحانه على الفكر والإنتاج والبحث في أسرار الكون سينكرون وسائل الالتقاء ، ليصير العالم وحدة واحدة ، وأن الشيء يحدث في الشرق يعلمه الغرب في اللحظة نفسها ، وأن الداءات ستصبح في العالم كله داءات واحدة ، لذلك كان ولا بد أن يوجد الرسول الذي يعالج الداءات المجتمعة ، فكان صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم والرسول الجامع والرسول المانع .

﴿وَوُسْلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَوُسْلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ

اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝١٢٨﴾

(سورة النساء)

ويتكلم الحق سبحانه عن تاريخ السوات مع قومهم بكلمة « قصصنا » ولذلك حكمة ، فالقصص معناه أنه لا عمل في الأحداث للرسول ، بل تأتي الأحداث في السياق كما وقعت . وسبحانه يعلم أولاً أن خلقه سينكرون فأسمه « فن القصص »

ومن العجيب أنهم يسمونه من القصص ، ويسج المؤلفون حكايات خيالية أو حكايات ليس لها واقع . وعندما يأتون إلى التاريخ الواقع يزيد المؤلف جزءا من الأحداث أو يضيف من خياله أشياء ، ويقولون هذه متطلبات إثنان من القصص ،

ويعرّمون أنفسهم من أمانة النقل . ولذلك يأتي الحق ليوضح لنا أن القصة الخاصة بالرسول وبغيرهم في القرآن قصص واقعية ، حقيقية ، حدث فعلاً .

وكلمة « القصص » مأخوذة من قص الأثر أي أن يسير مع القدم كما تذهب ، فلا نذهب هنا ولا نذهب هناك . وحكايات الأنبياء في القرآن واقعية . ومن رواية الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يرويه الحق لخلقهم ليسيروا على المنهج . وما يرويه الخلق بعضهم لبعض للتسلية أو غير ذلك . وبعد روايات الخلق نردحهم في بعض الأحيان بخيال البشر ، مثل روايات جورجى زيدان عن الإسلام والأنبياء ، وعندما سألوه لماذا أضف من عنده إلى الواقع ، أجاب الإجابة التقليدية : فعلت ذلك من أجل الحكمة القصصية .

ويجب أن نميز ونفرك بين روايات الخلق وقصص الحق ونضمه في بؤرة الشعور حتى لا يدخل أحد من خياله على قصص القرآن ما ليس فيه ، وحتى لا يأتي واحد ذات يوم ويقول : إن كل القصص واحد . فمن في القرآن ليس أمام مؤلف ، بل أمام الخالق الأعلى الذي يروى لنا ما يعلم . وسبحانه علم لزلأ ما سيدور في كونه ، لذلك قال :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَنِيمِينَ ﴾

(سورة يوسف)

وسبحانه قد قص على الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن أحسن القصص ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعالج أجناس العالم التي توزعت على جميع الرسل من إخوانه ، وما دام عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل من إخوانه ، فلا بد أن يوضح سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده : أنه حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت دأائم ذلك المجتمع هي كذا وكذا . ومحمد صلى الله عليه وسلم - كما نعلم - موكّرٌ إليه علاج كل أجناس البشر وكذلك أمته من بعده ، ولابد أن يعرفوا أخبار كل المجتمعات والرسل . (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن العالين) .

إن كلمة « قصص » تدل على أن حكايات حركة العقيدة التي كانت مع كل لرسول . والتاريخ - كما نعلم - هو ربط الأحداث بزمانها ، عمرة يجعل الحدث هو المؤرخ له ، ثم تأتي بأشخاص كثيرين يدورون حول الحدث . ومرة يجعل الشخص هو الأصل والأحداث تدور حوله . فإذا قلنا كلمة « سيرة » فنعني أننا جعلنا لشخص هو محور الكلام ، ثم نلحق الأحداث حوله . وإن أردنا لحدث ، يجعل الحدث هو الأصل ، والأشخاص تدور حوله .

مثال ذلك : عندما تأتي لتكلم في حدث الهجرة ، يجعل هذا الحدث هو المحور ، ويدور كيف هاجر رسول الله ومعه أبو بكر ، وكيف هجر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ، وبذلك تكون الهجرة هي المحور وكيف دلو الأشخاص حول هذا الحدث التحليل .

ومثال آخر : عندما نروي سيرة من السيرة ، مثل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، تجعل النبي صلى الله عليه وسلم محور الحديث والتاريخ ، ويدور كيف ظهرت الأحداث في حياته .

إن تلخيص وقصص الرسل تكون هي المحور وينتقل الأحداث التي مرت عليهم ، لأن الرسائل هي تلك التي أتت الناس بنتائج السيرة ، تنقسم إلى قسمين : قسم نظري يريد الحق أن يعلمه الحققة بواسطة الرسول ، وهو القسم العلمي ، فتدث قصايا يجب أن يعلموها . وقسم عملي ، لأن الحق يريد من خلقه أن يعلموا ويريد منهم - أيضاً - بعد أن يعلموا أن يطوعوا حركة حياتهم على ضوء ما علموا . فليست المسألة رقابية علم ، ولكنها مسئولية تطبيق ما علموا في أمور « الفعل » ولا تفعل » ولو كانت المسألة أن يعلم الحق فقط ، لكان من الممكن أن نقول : ما أيسرها من رحلة .

لقد وجدنا كفار قرش عندما طلب الرسول منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، قاموا بذلك ولو كانوا يعلمون أن مجرد كلمة يقال نفاقها لكنهم عرفوا مطلوب الكلمة ، وعرفوا أنه لن توجد سيئة ولا عبودية ولا أوامر لأحد غير الله ، ومعنى ذلك المساواة المطلقة بين المباد

إذن فكل تكليف من السماء إنما نزل ، والقصد من العلم به هو العمل به ، أي
توطيف العلم تطبيقاً ، فلا قيمة لعلم دون عمل . وعندما يبلغ الرسول القوم : هذا
هو الحكم ، ومطلوب من كل واحد منكم أن يطويع حركة حياته على ضوء هذا
الحكم . ونجى الأحكام دائماً في طاقة البشر .

وهناك أناس قد علموا وعملوا وهذه هي قصصهم ، هذه قصة فلان وقصة
علان . فاقصص بعضنا اجانب العمل المطلوب للمنج ، ولذلك قصص لنا حق
قصص الرسل في القرآن . وبلغنا الحق بالنسب الإيماني ، وبلغنا النسب المعترف
به عند الأنبياء ، فيحكى قصة نوح عليه السلام ، عندما أوحى إليه بضرورة أن
يصنع السفينة ، وسخر قومه منه ، وبعد أن صنعها جاءه الأمر الإلهي بأن يحمل فيها
من كل زوجين اثنين . ويوصل الحق : . . .

﴿ وَيَضَعُ الْمَلَكُ نُكُتًا مَرَّةً عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ تَحِيْرًا مِثْلَ قَالٍ إِذْ تُسْعِرُونَ
قَوْمَهُ تَحْرِيمًا كَمَا تُسْعِرُونَ ﴿٢٨﴾ قَوِّفْ تَعْلُوْتٌ مِّنْ يُأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّبِيْنٌ ﴿٢٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُوْرُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ
إِلَّا قَلِيْلٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة هود)

قوله الحق « إلا من سبق عليه القول » كان يجب ألا تمر على فطنة نوح ، ذلك لأنها
تضمن أن هناك أناساً من أهله لم يؤمنوا ، فيقول لابنه :

﴿ وَبَادَىٰ نُوحٌ أَبَاهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَنْبُوْهُ أَرْكَبُ مَعَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِيْنَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة هود)

وكان الرد .

﴿ قَالَ سَعَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَّعِصْنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

فقال نوح :

﴿ قَالَ لَا عِصْمَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة نوح)

وبعد أن غرق ابن نوح وابتلعت الأرض مائه ، نادى نوح ربه فقال :

﴿ رَبِّ إِنِّي آتِيكَ مِنْ قَبْلِ وَإِنْ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة نوح)

نحن - إذن - أمام لفظة قصصية في قصة نوح - يلتفتنا بها الحق إلى مسألة بنوة الرسالات ، عابدة هنا منهجية - ومن يتبع النبي هو الذي يكون من نبيه - ومن لا يتبع النبي فليس من نبيه ؛ لذلك قال الحق - (يا نوح إنه ليس من أهلك) فاعلم النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبي - وشرحها لنا رسول الله صل الله عليه وسلم حينما قال من سليمان العيسى :
(سليمان منا أهل البيت)^(١) .

ولم يقل : إن سليمان عيسى ، أو إنه من سليمان ، لكنه قال : إنه من أهل البيت - وقد أوضح الحق ذلك في قصة ابن نوح (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح)

وعاصر في معنى « ليس من أهلك » بعض الخائفين بالخوف وقالوا : إن أم ابن نوح قد عصب السوء ، ولهذا نقول استصغروا ربكم وانظروا إلى حبيبة الحكم

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة نوح)

يجب فتية الأبناء للأباء من الأنبياء نسبة عمل لا نسبة دم ولا نسبة عن رواج أو معاد ، أما النبي قالو السوء في امرأة نوح فعلمهم أن يستصغروا الله ، فالحق

١ رواه الحاكم في المستدرک والطبرانی في المعجم عن عمرو بن موف

سبحانه منزّه عن التدليس على رسوله . وهب أن أم الولد قد فعلت ذلك . معاذ الله .
لها ذنب الولد حين تصير أمه إلى هذا ؟ لا تدخل للولد بذلك ، لكن قول الله : « إنه
عمل غير صالح » يدل على أن ثبوت البتة الإيمانية يكون بالعمل فقط .

ولنتظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله وعشيرته . . فعن أبي هريرة
رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتكم الأقربين ، جعل النبي صلى الله
عليه وسلم يدعو بطون قريش بطنا بطنا : يا بني فلان أنقلوا أنفسكم من النار حتى
انتهى إلى فاطمة فقال : يا فاطمة ابنة عمك انقلني نفسك من النار لا أملك لكم من
الله شيئا غير أن لكم رحماً سابها بيلها) (١) .

ويضرب الله المثل في الزوجات : فيقول .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَالِحِينَ فَتَمَنَّاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِثِينَ ﴾ (١)
(سورة التحريم)

وليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ، لكن نستدل على أن الرسول وإن
كان رسولا ليس له من القدرة على أن يقهر زوجته وامرأته على عقيدة ، فهي تملك
حرية الاعتقاد ، فلا ولاية هنا للرجل على المرأة في العقيدة حتى إن ادعى الألوهية ،
كفروهون مثلاً يقول الحق عن امرأته :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي
الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

(سورة التحريم)

هذه اللفظيات تدلنا على أن قضية الإيمان لا يجمع فيها النسب أو الزواج . فالابن
هو العمل الصالح ، والحينية في ذلك قول الحق عن ابن نوح : « إنه عمل غير
صالح ، فلم يذكر ذات الابن ولكنه ذكر العمل .

ولكل نبي قصة يذكرها الحق ليوضح المنهج في أخلاق الناس . وبأن الله بالمثل في

(١) رواه الإمام أحمد . رواه مسلم في الإيمان ، والبخاري في الأمب ، والترمذي في الطهارة والنسب في الوصايا

لصطفى الأخيار الذين اصطفاهم الله هداية الناس مثل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ابتلي به - سبحانه - في أول حياته بالإحراق في النار . كان إبراهيم شاباً نزل بالأمل في الحياة ، فماذا كان من إبراهيم ؟

أراد الحق مجازة إبراهيم من النار وتركهم يشعرون منه ويصدمونه في قلب النار . لم تحترق السماء بنظم النار ، وكل ذلك لتكون حجة الحق واضحة ، وحتى يكون يد الله كاملاً هؤلاء الكافرين . إن إبراهيم عليه السلام لم يهرب منهم ، ولم تحترق السماء ، بل ظلت النار داراً يعطّل سبحانه ما موسى النار حين دخلوا إبراهيم إليها

(روى عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم حين فوديه يلقيه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانه رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك شريت لك قال - ثم رموه به في المنجنيق من مغرب شامع فاستقبله جبريل قال يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا فقال حمز بن قيس قال ربه ، قال حسبي من سؤالي عذمه يحالي فقال الله : يا غر كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)^(١)

وفي هذا عيظ ودحض لمكر الذين يكررو إبراهيم إفتد يعطى الحق في التخصيص لقراى لكل لجمع من حيلة كل رموز العبر ويستفيد منها ، لتكون بحق خير أمة خرجت للناس ، لأننا أخذنا تجارب كل رسول وجمعناها سبحانه لنا في حياتنا

ولقد ابتلى الحق إبراهيم في أول حياته في نفسه ، وابتلاء في آخريات حياته في نفسه ، وجميع إبراهيم في الابتلاء الأول حين كانت حياته أهم بالنسبة إليه من كل شيء ، وسبح يتقدم في الس ، فمن المفروض أن تكون كل حياته لمن بعده من أبناء قبيليه الله في ابنه . لم يقل له : إن ابنك سيصوت وحيث بالصبر . ولم يقل : إن واحداً سيقتل ابنك وعليت بالصبر بل يأمره ببيع ابنه ، تلك عمة (ابتلاء) لأنه لم يأت برحمة مباشرة كالبحث في القلب أو الكلام من وراء حجاب أو رسول له الله ملكاً يلفقه ما يريد ، بل بولها صامية (قال يا بني إني أرى في المنام أني

(١) تفسير القرطبي وذكر سجد بن كثير في تفسيره والخشوي في التفسير

أفبُحِك) . ويقول إبراهيم لابنه المسألة كما رآها في المنام . والرقيا عدد الأنبياء حق

وقد يقول قائل : ولماذا لم يرد إسماعيل عن أبيه بأن هذه المسألة هي مجرد رؤيا ؟ ولماذا لم يأخذ إبراهيم ولده عن غرة دون أن يقول له ؟ .

ونقول : إن إبراهيم من مرط وشسة حنانه وحبه لابنه أثر أن ينال الابن الثواب العظيم والجزاء الجليل بأن يقتل ويقدم حياته امثالاً لأمر الله ، فقال إبراهيم :

﴿ يَبْنِي لِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وها هوذا قول إسماعيل :

﴿ قَالَ بَنَيْتُ أَعْمَلَ مَا تَوْصَرْتُ سَمِعْتُكَ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ولم يقل إسماعيل لأبيه : « افعل الذبيح » ولكنه قال : « افعل ما تَوْصَرُ » أي أن إسماعيل لم يأخذ الكلام على أنه كلام من أبيه ، بل اخذهُ كَأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ . ولو أخذهُ أبوه على غرة قد يتحرك قلب الابن غيظاً على أبيه وحقداً عليه فيعتدى على الأب ، وهنا نجد حنان الأب على الابن جعله يخبره بالأمر الآن من السماء ، والشأن في حنان الأب على الابن أن ييسر له كل أمور حياته . أما حنان الحنان فهو تيسير كل حير بعد عنته ، لذلك لم يشأ إبراهيم أن يحرم إسماعيل من الامتثال لأمر الله ، فينال الاثنان معاً شرف الامتثال لله . وأعطاه كل الحنان في الزمان الأبقى والزمان الأخلد في الدار الآخرة ، حتى تعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد منا إلا الامتثال لفضائله وقدره ، ويقول الحق :

﴿ قَلْبًا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾

(سورة الصافات)

هذا شرف الامتثال في تسليم لله . . ففي البداية أسلم إبراهيم أمره لله ، وعندما عرض الأمر على ابنه سلم الابن أمره لله ، فقال الاثنان منزلة الشرف في التسليم لأمر الله . ونجح الاثنان في الاختيار ، فقال الحق :

﴿وَتَلَبَّثَهُ أَنْ يَنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴿٢٠٠﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَبُكَ تَجْرَى الْمُنْجِبِينَ ﴿٢٠١﴾﴾

(سورة الصفات)

لقد أنقذ الحق إبراهيم ودينه من مسألة الدج ، وهذا يقول دائماً لا يرفع
نصاء من الله على خلقه إلا أن يستسلم الخلق للقضاء ، والدين يطولون أمد
لقضاء على هؤلاء هم الذين لا يمرضون به ، واتحدى أى إنسان أن يكون الله قد
جرى عليه قضاء مرض فمرضى به ويعتبر أن ذلك صفة الحق ، ولا يرفع الله هـ
لمرضى فالإنسان بالصحة يكون مع صفة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله

فقد حدثنا أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله عز
وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعصى . قال : يا رب كيف أمرضك
يا رب المصلين ؟ قال أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت
بك لو عدته لوجدته عندى ؟) (١)

من إذن يجرؤ على الزهد في صفة الله ؟ وعندما يعرف المريض أنه في مرضه الذي
يتألم به هو في صفة الله لاستحى أن يقول : آه ، ، ونكنا لا نطلب من المريض
لا يقول : آه ، ، ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى الله ويقول ، ولكن عافيتك أوسع
١٠

وقول الحق : (فلي أسلما وتله لتجيب) هذا القول يطلنا على أن القضاء لا يرفع
لا بالرضا به ، فإن رأينا واحداً قد استمر معه القضاء فنعلم أنه لم يحى ولم تلت عليه
لحظة رضى فيها بالقضاء ولم يرفع الله القضاء فقط عن إبراهيم ، ولم يعد إسحاق
نقط بذيح عظيم ، بل بشر الله إبراهيم بولد آخر هو إسحاق

﴿وَفَرَّغَتْهُ يَاسْتَحَقُّ بَيَاتٍ مِنَ الْبَنِينَ ﴿٢٠٢﴾﴾

(سورة الصفات)

وها هي ذى نقطة أخرى مألها من القصص القرآنى مع سيدنا موسى ، لتبين
إذا يصح التهج الإلهى من المتع به ، وحدثت هذه القصة في وقت تهيئة سيدنا

(١) من حديث أبي هريرة روى مسلم في صحيحه في كتاب البر

موسى للرسالة ، حدثت هذه الواقعة وهو ذاهب إلى شعيب ، ولم يكن رسولاً بعد ، مما يدل على أن نظرية الإيمان كانت موجودة عنده ، وأن الله قد صمعه على عبده ، لقد ورد ماء مدين ووجد الفئتين تئودان وتهدران الماشية عن الماء ، فهذا دار بينه وبينها من حرار ؟ . وكيف كانت رؤيته لهما أولاً .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبْرَأَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢٢)

(سورة القصص)

وفي قول المراتبين : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبرأ شيخ كبير » قدر من المبادئ ، فخروجها من البيت سببه أن الأب شيخ كبير ، ومع أنها في ضرورة وخرجتا للعمل فلم تنس واحدة منهما أنها أئمة يجب أن تحترم أنوثتها فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء » أى أنها ستسقيان من بعد أن يذهب الزحام من الرجال حول البئر . إذن فقد أخذتا بتنا شعيب الضرورة في حجمها ولم تتخذ إحداهما من الضرورة حجة لإهدار الأنوثة والتزامم للوصول إلى البئر . فلماذا حدث من موسى ؟ . (فسقى لهما) .

تلك المهمة الإيمانية التي وجدت في موسى قبل أن يصير رسولاً ، وذلك ما يوضحه لنا الحق حتى لا يقول إنسان . كيف أكون مثل رسول من عند الله ؟ .

كان المهمة الإيمانية التي وضفتها تلك اللقطة القصصية توظف مسئولية كل مؤمن بيسلك مثل هذه السبوك . فعندما يرى امرأة قد خرجت عن محيط بيتها لأى عمل ، عليه أن يقضى لها حاجتها حتى ترجع إلى بيتها وذلك دون أن يتحد من ذلك قوينة ووسيلة إلى أمر يبرل بهمة وينال من مروءته . ولو انتشرت بيت تلك المهمة الإيمانية لما وجدنا امرأة في الطريق إلا للضرورة . لقد أوضحت لنا تلك اللقطة القصصية حرص المرأة على موضعها وموقعها من السر ، فتقول واحدة من المراتبين لأبيها شعيب بعد أن استقدمه ليجريه أجر ما سقى لهما :

﴿ يَنَاتِ اسْتَفْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مِّنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة القصص)

كان لمرأة لا يمن لها أن تتحرك في الكون هذا الملون من الحركة بواسطة ، ويسمع
شعيب وهو الرجل العاقل لابتته فكيف يستأجر رجلاً وعنده ابتتان ، ففكر شعيب
ويعثر على الحل الصحيح بقطعة إيمانية ، فاستدعى موسى ويقول له

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ مِثْلَ مَا نُمُنُّ لَكَ إِذْ جِئْتَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

(سورة القصص ٢٧)

وفي مثل هذه الحالة سيكون موسى منزوعاً برأيه ومُحرماً عن الآخرى

وهذه اللقطات القصصية نلتفت إليها لنستفيد منها المعنى الإيمانية . وهذا هو
أولاً مع موسى وقد ناداه الحق بجعله رسولاً ، ولما جاءه النفس الإيمانية وهي
تنطق بمهمة الرسالة ، إن موسى يرغب في أن يكون نذيراً برسالة كاملة ، لذلك
يطلب من الحق أن يرسل معه أخاه هارون

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لَئِنْ نَادَا رَبِّي بِعَذَابٍ مُّهِينٍ ﴾

﴿ يَكْفُرُونَ ﴾

(سورة القصص)

هو يشرح مع هارون برسالة لأنه خبير على السجاح في دهره لأن سببه تقبل
برقة وثقة وترجع في النطق من أثر الجحيرة التي أصاب بها لسانه وهو صغير ، والرسالة
تحتاج إلى بيان وبلاغة فيطلب مساعدة أخيه ولم يستكف ذلك . فما بالك بما هو حادث
وحاصل في أيامنا ، حين يختار الحكام رتباً للوزراء فلا يطلب معونة الأكفاء ، بل
قد يخشى أن يكون له نائب له كفاءة عالية هو كفاءته

واللقطات القصصية في القرآن تعلمنا الكثير ، وأراد الحق أن يثبت به للأمة
المحمدية ثقة المنهج الإيماني ، فإدام قد أرسل لك مهنياً لتعلمه ، فهو يطلب منا أن
نطبق هذا المنهج ونوظفه في حياتنا . وليس ذلك بدعاً ، بل هو موجود في قصص
الرسول الذين عيّنوا المنهج فطبقوه في دوائهم أولاً ، لأن الأمة أن تعلم العلم
ولا يطبقه

وفي زماننا يقال ويشاع إن التعليم الديني في المدارس لا يأتي بشيء طيبة في سلوك

الطلاب ويقول لمن يرددون ذلك : أنتم لا تفهمون طبيعة التعميم الديني ؛ فتعليم الدين لا يمكن أن يتساوى مع تعليم الجغرافيا أو الهندسة وغيرهما من العلوم ؛ لأننا عندما نعلم طالباً الهندسة فهو يستطيع أن يكون عالماً متفوقاً فيها ويأخذ المعطيات والنظريات ويتفوق في المجال الهندسي ، ولكن لم نطلب منه أية نظرية هندسية أن يعدل سلوكه في الحياة بأن ترشده في السلوك اليومي : افعل كذا ولا تفعل كذا .

فالنظريات الهندسية لا تتدخل في حياة الطلاب ، لكن الطالب عندما يتعلم الدين إنما يتعلم أن يفعل الأمر الديني ، ولا يفعل الأشياء المنهي عنها . والصعب في التعليم الديني هو التطبيق العملي . وعندما لا يرى التلميذ التطبيق العملي من الدين يعلمونه الدين أو من الأسرة ، فإنه لا يتعلم الدين ، فيقال للطلاب : الدين يهي عن الكذب ، لكن الطالب يجد الكذب سلعة رابحة في المجتمع . ويقول الدين له : الصلاة عماد الدين وتنتهي عن الفحشاء والمنكر ، ولا يجد الطالب من يصل أمامه أو يجد من يصل ولا يقيم عمارة الدين باتباع ما تأمر به الصلاة من هي عن المنكر ، إذن فشل التعليم الديني لا يأتي من ناحية غياب المعلم ولكن من عدم وجود التطبيق العملي للسلوك الديني .

ويعود للفصل القرآني جاء الفصل ليوضح لنا التطبيق للجانب النظري من الدين ، وظنُّهُ الرسل على أنفسهم . وأنتم يا أمة الإسلام لستم أقل من أحد ، بل أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وعليكم أن تأخذوا الخير الذي حدث في موكب الرسالات كلها وتطبقوه في ذواتكم

هذا هو معنى قوله الحق : «ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك» . وقد جاء لنا القرآن بعيون القصص حتى تأخذ منها لقطات العبرة ويقول قائل : ومن هو الرسول ؟

يقول العلماء هناك رسول وهناك نبي وأقام بعضهم مشكلة حول هذا الأمر ، فقال بعضهم كل رسول نبي ولا عكس ونقول لأصحاب هذا الرأي : لو نظرنا إلى المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لأرحنا أنفسنا جميعاً ، فالقرآن يقول :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾

إذن فالنبي أيضاً مرسل من الله ، وعمل ذلك فكلامهما - النبي والرسول - مرسل من عند الله ، لكن يوجد فرق بين أن يرسل الحق تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأغنياء وأحكامه تكون موجودة في الرسالة السابقة عليه ، وبين أن يأتي إنسان مصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء في الرسائل السابقة ، فالأنبياء أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه . هذا هو الزائد مهمه رسول

إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحق الأنبياء ليكونوا الأسوة المبدئية فيطبقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم ، وهذا أمر لا يأتي في الأمم التي لها سجل في التكابر مع الرسل

وبذلك نجد أن اللجنة دفعت بني إسرائيل إلى التصاغر بأنهم أكثر الأمم أنبياء صحيح أنهم أكثر الأمم أنبياء لكن علينا أن نعرف أن النبوات والرسالات إنما تأتي لتشفي الناس مما بهم من داءات ، فعندما نقول عن إنسان أنه أكثر الناس تردداً في الأطباء ، فمعنى ذلك أن أمراضه كثيرة ، وكذلك بنو إسرائيل كانت دوائهم كثيرة وكثرة الرسل إليهم لا ترفع من منزلتهم ، بل تدل على كثرة أمراضهم

إذن فالرسول والنبي كلامهما مرسل ، والفرق أن الرسول معه تشريع سيلا ليعمله ويعتبه ، والنبي مرسل للتطبيق ، فإن جئنا بمعنى الرسول اصطلاحاً ، في المعنى إليه بشرع يعمم به وأمره الله بتطبيقه ، وهذا الحق الألهي . وكلم الله موسى تكليماً ، ولأنك أن موسى كان من هؤلاء الذين الذين سمعهم قوله الحق ، و أوحينا ، ولما سأل أن يسأل فيقول : ولما دعى الله موسى بقوله « وكلم موسى تكليماً » ؟ .

ونقول : الروح الذي يوحى الله به لأنبيائه هو الروح الاصطلاحي الشرعي الذي نتكلم عنه دون الروح المسمى الذي سبق أن أفضنا فيه . والحق سبحانه وتعالى قد بين الطريقة التي يخاطب بها أنبياءه المصطفين لأداء رسالتهم إلى خلقه فقال

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ

بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾

(من الآية : ٥١ سورة الشورى)

إذن ، فطريقة التقاء الحق بالأنبياء ؛ إما أن تكون بالوحي ، وإما أن تكون من وراء حجاب ، وإما أن تكون بإرسال رسول كجبريل عليه السلام . فإذا ما نظرنا إلى الآية وجدنا أن الوحي ينقسم إلى ثلاثة أقسام . وحي شخصي ، وكلام من وراء حجاب ، وإرسال رسول ، وكل هذه الأقسام الثلاثة تدخل في إطار الوحي ، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً .

أي ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا إلهاماً وقلناً في القلب ، أو بكلمة « من وراء حجاب » وهو كلام من الله يسمعه الرسول ، لكنه لا يرى المتكلم وهو الله . أما الوحي بواسطة الرسول ، فهو نزول جبريل إلى الرسول بما أوحى به الله .

فإذا ما نظرنا إلى قوله الحق : « وكلم الله موسى تكليماً » فكأنه سبحانه قد خصه بهذه العبارة ليدل على أنه أوحى لموسى بطريقتين ، أولاً : بالطريق الذي أوحى به إلى غيره من الأنبياء ، ثانياً : بالطريق الخاص وهو كلام الله الذي بدأ به موسى بالوحي المقدس .

وقوله الحق : « تكليماً » يدفعنا إلى التساؤل : لماذا جاء الحق بالمصدر هنا ؟ لأن مطلق الوحي بأي وسيلة سواء الله كلاماً ، إذن فالفتح في الرُّوح كلام ، والكلام من وراء حجاب كلام ، وإرسال الرسول بالوحي كلام . والكلام هو ما يدل على مراد المتكلم من المخاطب ، بدليل أن الله سمى الوحي في صوره الثلاث كلاماً « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » .

والخلفه في الوحي إما أن يكون خفياً في الأسلوب ، أي لا يسمعه أحد غير الرسول ، وقد لا يسمعه الرسول ويكون بقذف الكلام في رُوح الرسول وقلبه وهو يؤدي مؤدى الكلام أي الدلالة على ما في نفس المتكلم الذي يريد نقله للمخاطب .

أما أن يقول الحق إنه تكلم مع موسى ، فهذا نقل من الخفاء إلى العلن ، أو سل الحق رسولاً بالكلام الوحي به . وحيث قال سبحانه : « وكلم الله موسى تكليماً » إنما يجهل إلى أن الوحي لموسى ليس من الكلام الذى قسمه الحق إلى قوله وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، لأن له قال فى كلامه لموسى : « وكلم الله موسى تكليماً »

ووقت العباد هنا وقفة عظيمة وقالوا : كيف يتكلم الله إدب ؟ ونقول : إن كل صعب لله ويوجد مثله خلقه إنما نأخذ بالسبب لله في إطار (ليس كمثله شيء) فإن است إن الله وجوداً وللإنسان وجوداً ، وجود الإنسان ليس كوجود الله ، وإن بنا ' إن الله علي ، والإنسان علياً ، فعدم الإنسان ليس كعدم الله ، وإن قلنا إن الله ، قدير ، وللإنسان قدرة ، فضعف الإنسان ليست كضعف الله ، وإن قلنا ، إن الله ، سواء على العرش وللإنسان سواء على الكرسي ، فامتواء الله ليس كامتواء الإنسان ، وإن قلنا أن تخط كل صفة من صفات الله التي يوجد مثلها في البشر في إطار قوله

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الشورى)

وبذلك ينتهي الخلاف كله في كل ما يتعلق بصفات الحق .

فالحق له يدان وبه وجه ، ولكن لا يمكن للإنسان أن يصور يد الله كيد البشر ، نأخذها في إطار ليس كمثله شيء ، وكذلك وجه الله ، وماذا نأخذ بصفات الله ، إطار ليس كمثله شيء ، فلا داعي للمبركة الطحينة بين العلماء في الصفات وفي بويل الصفات ، ولا داعي أن ينقسم العلماء إلى عالم يؤول الصفات وعدم لا يؤول ، داعي أن يتروى عالم إن يد الله من قدرته فيؤول ، وعالم آخر لا يؤول ويقول : ' إن الله يدأ ريسكت . ويقول للعالم الذي لا يؤول قل إن الله يدأ وهي باسم قوله . « ليس كمثله شيء » وإذا كنا نحن قد عرف في علمنا أن الأشياء تختلف مواسمها في الناس باختلاف الناس ، فلا بد من أن نعرف أن الله لا مثل

وهي سبيل المثال : يتلقى الإنسان دموعاً مائدة صلبة قرية ما ، فيقدم له الزمان

طعام تناسب مقام لقرية ومنصب لقيادة فيها ، ويتلقى الإنسان دعوة لمائدة محاط مدينة فيقدم له طعاماً يناسب مقام المدينة ومنصب القيادة فيها . ويتلقى الإنسان دعوة رئيس لدولة فيقدم له طعاماً يناسب مقام الدولة وهيئة منصب القيادة فيها ، إذن لا تتساوى مائدة طعام العملة في قرية مع مائدة طعام المحافظ مع مائدة طعام رئيس الدولة ، فإذا كان في البشر يوجد الشيء الواحد وهو ملون بالون مقامات المحبوبين فكيف لنا بمقامات الخالق ١٩ « ليس كمثل شيء » .

وإذا كان الحق قد أخبرنا أنه كلم موسى تكليماً في قصة الوادي عندما آتس موسى ناراً وذهب إلى النار . فقال الحق :

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْطَعْ تَعَلِّيكَ إِنَّكَ بِأَنوَادِ أَمْعَدَسِ طَوًى ۝ وَأَنْ أَحْضَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُرْحَمِي ۝ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُخَرِّى كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۝ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَيُتْرَكَ ۝ ﴾

(سورة طه)

قال له الحق كل ذلك ، وبدءاً مبيحده بالكلام . وبعد ذلك جاء لموسى الوحي على طريقة مجيء الوحي للأنبياء .

والحق سبحانه وتعالى أوحى إليه صلى الله عليه وسلم عن شق ألوان الوحي . فقد جاء الوحي لرسول الله إلهاماً ، وجاء الوحي لرسول الله من وراء حجاب ، وجاء الوحي لرسول الله من خلال رسول .

ومثال الوحي إلهاماً هو الحديث القدسي ، وكذلك التشريع السوي الذي تركه لك الرسول صلى الله عليه وسلم . ومثال الوحي من وراء حجاب هو التكليف بالصلاة ، فلم تفرض الصلاة بواسطة جبرين ، بل فرضت من الله مباشرة .

ولا أدخل في نقاش لا حدودي منه حول أحين فرض الحق على رسوله الصلاة كلمه وسمع منه رسول الله ، أم أن رسول الله قد رأى الله وهو يتكلم معه لا داعي

بمخصوص في أمر لم يغير الله من كبريته ، والأدب مع الله يقتضي ذلك قال تعالى
« ولا تقف ما ليس لك به علم »

وإن القرآن لم يثبت بأية طريقة من طرق الوحي إلا بإرسال رسول ، فكل وحي
القرآن جاء بواسطة جبريل ، فلم تأت أية بالتمخ في الروح إنما جاء بالتمخ في
الروح الحديث القدسي : لأن التمع في الروح قد يتصور واحد أنه خاطر من البحر أو
أمثال ذلك . وجاءت كل الآيات القرآنية بواسطة جبريل ، بمقدمات بدنية ، ويجدد
بغير كراهي في نفس رسول الله فلا يشك أبداً في أنه جبريل وأراد الحق أن يكون
الوحي بالقرآن بطريقة لا شك فيها

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع صوتاً كصلصلة الحرس ، وبعد ذلك
يتمدد جبين الرسول هزاً ، وينقل جسم رسول الله حتى إن كان على دابة فهي تنط
وتس وينقل عليها وتكاد أن تس بطنها الأرض وإن كان رسول الله يلاحظ محله
فخذ أحد الصحابة ، فيكاد أن يرمى فخذ الصحابي ، وذلك علامات مادية كورية ،
لا يمكن أن يحدث فيها ليس .

ولقد قالوا من قبل استناداً إلى ظاهر قوله

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

فَتُنَجِّىَ بَيْنَتِكَ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْلُغَ وَخَرَّيْ ۖ ﴿١٥﴾ ۝

(سورة طه)

لو لم يرسل الحق الرسول لكان لهم حجة . ويقول للملأه : نعمهم هذه المسألة
حتى يوضح لكم أنكم تختلفون في أمر كان يجب عليكم ألا تختلفوا فيه . أيا العقل
يعلم الإنسان مطلوب الله منه ؟ أم أن العقل يهدي إلى وجود حجة أو عمل خلقت هذا
الكون وتديره ؟ وما اسم هذه القوة ؟ وما مطلوب هذه القوة ؟ . أيعرف العقل
بواب من يتبع للمهج وهجاب من يخرج من المنهج ؟ كل هذه أمور لا يعرفها
العقل ، فالعقل حجة في الإيجاد بقوة عليها فوق ذلك الكون وهي التي تخفقه وتديره
تديره ، أما الرسول فهو مبلغ بمطلوبات المنهج واسم القوة التي أرسلت والشرائع
التي يجب أن يسير هي عدما الإنسان ، إذن فليس هناك خلاف بين الرايين

وأسأل : من الذى اكتشف الكهرباء ؟ . إنه العقل البشرى الباحث وراء أسرار الله فى الكون ، ولا أحد يجهل هذه المسألة . وكذلك أسأل ، من أول من تكلم فى السبية ؟ إنه أينشتاين . وإن سألتنا : من أول من تكلم فى الجاذبية الأرضية ؟ . إسحاق نيوتن ، وكل واحد اكتشف شيئاً فى الكون صرنا نعرفه . والذى صمم توليد الكهرباء التى تنير وتطهى وتدير بها المصانع ، وجعل من سوق الكهرباء صناعة رائجة تعمل فيها القنود المالية لشترى الإنسان مصابيح تنير حيزاً محدوداً ، ومصانع تعمل فى خدمة الإنسان .

أيها الله عليكم تعرفون اسم مصمم مولدات الكهرباء ومصمم ومكتشف المصباح الكهربائى ، ولا تدرون اسم من خلق الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم . ولم يَدْعُ أحد لنفسه صناعة الشمس ، ولا يوجد ابتكار فى الكون إلا ومعلوم من أبدع هذا الابتكار . فالذى صنع المصباح إنما يتبره حيزاً محدوداً مهما كبر ضوء المصباح ، وبعد محيط دائرى معلوم يتلأهى الضوء ويصير الأمر إلى ظلمة ، فما بالنا بالشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف نهار .

إن خلق الشمس يحتاج إلى قدرة تناسب خلقها ، ونحتاج إلى حكمة تناسبها ، وليس لهذه الشمس محيط من الزجاج يتكسر وتغيره مثلما تفعل مع المصابيح . كان لابد للعقل البشرى أن يفهم أن هذه الكائنات التى فى الكون لها صنائع تناسبها . ولا يمكن أن يكون صانعها من الخلق وسكت من حقه فى صناعة هذه المعجزات ، ونحن نرى بعضاً من الناس فى بعض الأحيان تدعى ملكية ما ليس لها ، فإذا ما جاء الخالق وأبلغنا بواسطة الرسل بصناعته للكون ولم يوجد له مُعارض ، فهل هذه الأشياء والكائنات من خلقه أو لا ؟ . إنها من خلقه إلى أن يوجد له معارض .

هذه هى مهمة العقل أى أنه يتلصق إلى القوة التى تخلق وتسير أمر هذا الكون ولا يغنى العقل عن الرسل ، ولكن العقل يؤمن فى القمة الإيمانية بأن هناك قوة مبهمة عالية تناسب عظمة هذا الكون الذى طرأ عليه الإنسان ، ولا يعرف اسم القوة ولا يعرف مغنوب القوة فى « اعمل » ، ولا لا تفعل » ، ولا يعرف العقل ماذا ادخرت القوة من ثواب للمحسن وعقاب للمسيء . لذلك لابد من وجود رسول .

إن الحقبة - إذن - تكون من شقين : الشق الأول الخاص بالطفل هو في الإيمان بالقوة العليا المبهمة ، والشق الثاني الخاص بالمرس هو الإيمان بالبلاغ من الله اسم وصفة ومطوب وجرحه ، هكذا يرى فانفقوا أيها العلماء ولا ضرورة للخلاف

أقول ذلك حتى لا يتبادى الذى يتصيدون لمين الله وأصيب . اتفقوا أيها العلماء على أشياء محددة لأنكم تشعرون الناس بهذه الخلافات ؛ فالرسول هو الحقبة في الأسماء التى لا تدخل للطفل فيها

ومعرب تاريخياً أن آفة الفلسفة أنها تضع وتتحل عدداً حقيقاً من المجالات لتبحث فيها ، وكانت الفلسفة قديماً هي أم العلوم مجتمعة ، فالتدسة كانت فرعاً منها ، وكذلك كل الرياضيات ، وأيضاً المواد العلمية كالكيمياء والفيزياء وكذلك أصول اللغات .

لكن عندما رأى العلماء أصحاب التجارب العملية أن الفلاسفة يدخلون في مناهات نظرية ولا يدخلون إلى مجال التجارب العملية التطبيقية ، تركوا الفلسفة وأسروا العلوم التجريبية منعقدة من الفلسفة . وأنتج العلم التجريبي لنا كل هذه الاختراعات والاكتشافات المعاصرة التى تسهل علينا الحياة ويستفيد منها

لقد ظل الفلاسفة على حناهم يبحثون في النظريات بعيداً عن مجال التجارب لعملية التطبيقية . ولا تنتهي مدرسة فلسفية بمدرسة أخرى ؛ لأنهم يحتفلون حيث لجهن طبيعة مسيطرة على الغيب الذى يبحثون عنه ولا يمكن الاهتداء أبداً إلى أسرار لغيب ، إنه الغيب يبلغ به الرس

والثال لدى امر به دائماً وأكرره حتى يستقر في الأذهان . لنفترض أنا مجلس في حجرة ثم حق الجرس ، هنا تستوى عقولنا جميعاً في أن طارقاً بالباب ، ولا يختلف في هذا الأمر . لكن عندما ندخل في تصور من الطارق ؟ يقول واحد : « الطارق رجل » وثاني يقول : « الطارق امرأة » وثالث يقول : « الطارق رجل شرطة » ورابع يقول : « صديق لنا » وخامس يقول : « بشير » وسدس يقول : « نذير » ، يحدث لك لايتا دخيلاً إلى مناهات التصور . وأقول : هذه لأصور لا تترك لمعلم ، هو

أودتم راحة أنفسكم لامتتم بالتعقل ، تعقل أن هناك ظاهراً بالباب ، ثم فتركون
لظطرق أن يعلن عن نفسه ويقول لكم : أنا فلان واسمى كذا وصغنى كذا وجنت
إنكم من أجل كذا ، وبذلك تنقض جميعاً .

لكن الملاسفة أدخلوا التصور في التعقل . ولا يمكننا أن نعرف اسم الخالق
بالعقل أبداً ولا مطلوبه . بل لابد أن ينبع من نفسه ، فإذا انشغل العقل بأن هذا
الكون العظيم لابد له من قوة خالقة ، فلماذا لا تبلغنا من نفسها ؟ . وإذا ما جاء
رسول من أجل أن يحمل النور الوجودي الذي يعيشه البشر فبلغنا أن القوة الخالقة
اسمها الله . هنا أراح الحق النفس البشرية بما كانت تتمنى أن تعرفه ، ومن عقل
العاقل أن يهرح بمجيء الرسول ويستشرف إلى السماع عنه ، لأن الرسول إنما جاء
بحمل اللعز الشاغل للنفس البشرية من تفسير من خلق الكون هذه الدقة ، وما هي
مطلوبات هذه القوة ؟

ويجسم الرسول الخلاف عندهم ويحل اللعز الشاغل للبيال . ولذلك نرى الإمام
علياً - كرم الله وجهه - أمام سؤال من أحدهم :

- اعرفت محمداً بربك ؟ أم عرفت ربك بمحمد ؟ .

فأجاب الإمام عليّ وكان باب العلم . لو عرفت ربى بمحمد لكان محمد أوثق
عندى من ربى ، ولو عرفت محمداً برى لما احتجت إلى رسول ، ولكنى عرفت ربى
برى وجاء محمد فيلغنى مراد ربى منى .

هكذا حدد لنا سيدنا عليّ المسألة . فاعقل العطرى يؤمن بقوة مهمة وراء هذا
الكون من التي خلقت وهى القوى رزقت وهى التي أمدت بقيوميتها وقدرتها ، وبعد
ذلك تحيىء الرسل من أبص تعريفنا باسم القوة ومطلوبها منا .

والذين يختلفون حول دور العقل في الحقيقة ودور الرسول في الحقيقة ، عليهم ألا
يتوهوا في متاهات نحن في غنى عنها ، لأن العقل لا يمكن أن يكون الحقيقة بمجرد ،
والرسول إنما هو مبلغ عن القوة ، وقد يقول قائل : إذن لابد لكل رسول من
رسول ، وقد يبلغ الفيلسوف الطريق المسدود

لكن عندما يعلم أن الحق قد أصبح كل رسول عن عبده منصوباً ليبلغ ، وحمل
سبيل المثال نجد سيدنا محمد بن عبدالله استطاع أن يصنع أمة في ثلاث وعشرين سنة
ليمتد خيرها إلى يوم القيامة ، فعل عبده عليه وسلم ذلك مبدئاً عن الله ليخلص
أمة إلى كريمة من الطيب والابتعاد عن العمل الخبيث ، وخلق الله عبداً على خلق
عظيم وهكذا نعرف أن الحق قد أراح العقل من صروجه البحث عن اسم القوة
المخالفة ومطربها فأرسل الرسل
ويقول الحق من بعد ذلك

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا﴾

نعرف أن الإشارة تكون بأمر سلوي يأتي من بعد ، والندارة هي إخبار بأمر سيء
يأتي من بعد ، والمعرض سبحانه لا يقبل ، وأحكم سبحانه وضع كل شيء في
موضعه ، لماذا ؟ لأن الرسل يشرون ويهدون بأن هناك جنة وفارا وحساباً ، فإنهم
أن تظنوا أن الذي كثر بقاؤه عن أن يصنع شيئاً لنفسه ، والله عزير وعنى من خلقه
هيباً

ونعلم أن الحق لا يحرم سلوكاً إلا بتصر ، وقيل أن يعاقب فهو يضع القواعد التي
لا يصح الخروج عنها ، حين يقول الحق : « وكان الله عزيراً حكيماً » فمرته وحكمته
هي التي أتاحت لنا أن نعرف منهجه ، ويقول الحق من بعد ذلك

﴿لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ

يَعْلَمُوهُ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٣١﴾

وساعة سمع : لكن ، فمعنى ذلك أن هناك استدراكاً . وقوله الحق : « لكن الله يشهد » نأخذ منها بلاغاً من الحق . خصوصاً يا محمد لا يشهدون أنك أهل لهذه الرسالة ، ويستدرك الله عليهم ويوضح لهم أنه سبحانه هو الذى خلق الإنسان وهو أعلم بقانون صيائته . ومنهج الله إلى البشر بواسطة الرسل هو قانون صيانة ذلك الإنسان .

وإذا كان أهل الكتاب لا يشهدون بما أنزل الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وينكرون ما فى كتبهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم كرسول خاتم ، فإن الله يشهد وكفى بالله شهيداً

لقد أنزل القرآن بعلمه ، وهو الذى لا تغشى عليه خافهة ، وهو الذى خلق كل الخلق ويعلم - وهو العليم - ما يصلح للبشر من قوانين . ولما أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيائتها لتزدى مهمتها كما يسقى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان ، هو سبحانه الذى وضع له قانون صيائته بدفعه . « لا تفعل » . ولذلك يقول الحق :

﴿الَّذِي يَعْلَمُ مَنْ حَقَّ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٣١)

(سورة الملك)

ونجد الإنسان ما يذهب سعته إلى عمل إصلاح الساعات يكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بحالنا الإنسان . إن الميث الذى يوجد فى العالم سببه أن الناس قد استقلوا خلق الله لهم ، ولم يدع أحداً أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أن يقتنوا قوانين صيانة للإنسان خروجه عن منهج الله

ونقول : دعوا خالق الإنسان ، يصنع لكم قانون صيانة الإنسان بدفعه .

ولا تمنعوا وإن أردتم أن تُشرعوا ، فتشرعوا في صوة منهج الله ، وإن حدث أثر عطش في الإنسان فلهذه إلى قانون صيانة الصانع الأول وهو القرآن ، لأن المتأصب إذا تابع من أن الإنسان ينتمي في بعض الأحيان أنه من صفة الله ، ويحاول أن يصح نفسه قانون صيانة بعهد من منهج الله ، والذي يريد متأصب الإنسانية هو أن يعود إلى قانون صيانتها الذي وضعه الخالق تبارك وتعالى

« لكن الله يشهد بما أُنزل إليك أنه من ربه بعينه والملائكة يشهدون » والملائكة تشهد لأنها كانت شرف أن يكون المبلغ لرسول الله منهم وهو جبريل عليه السلام ، وهم أيضاً الذين يحسون حسابات العمل الصالح أو العاصد للإنسان ويكتبون في صحيفته ، وهم كذلك الذين حملوا ما في الفوح المحفوظ وسعوا ما أمر به بسلطه وهم يعرفون الكثير « وكفى بالله شهيداً » لماذا لم يقل الله هنا وكفى بالله وبالملائكة شهدوا ؟ ، لأن الحق سبحانه وتعالى لا يأخذ شهادة الملائكة تعريراً لشهادته

وبعض لا يأخذ شهادة الملائكة تعريراً لشهادته الله ولا كانت الملائكة أوثق عنده من الله وصيغته يزرخ شهادة النفس وشهادة الملائكة ، لكنك يا رسول الله تكفيك شهادة الله

ومن بعد ذلك يقول الحق

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

إن كُفر الكافر إنما يعود عليه ، وهو يملك الاختيار بين الكفر والإيمان ، لكن إذا قصد الكافر هجره عن الإيمان فهذا ضلال متعمد ، فقد حصل في نفسه ، وهو يحاول أن يضل هجره ، قلده لا يحسن وروه فقط ولكن يحسن أوزار من يضلهم وكيف يكون الصدد من سبيل الله ؟ ، بمحاولة أهل الضلال أن يجمعوا آيات الطدى

من أن تصل إلى أدن التام ، فيقولوا ما رويه الحق عنهم

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذِهِ الْقُرْآنِ وَالنَّعْوِ بِكُمْ تَغْيِرُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة نصبت)

ولو فهموا معنى هذه الآية ما دأوا ما جاء فيها ، فقومهم « لا تسمعوا هذا القرآن وانعوا فيه » أي اصنعوا صحفة تشوش على سماع القرآن ، وهم قد علموا أن هذا القرآن عندما يصل إلى الأسماع فإنه يطلع الهداية ، ولو كان نصرا غير مؤثر لما دأوا ذلك ، إذن هم يعرفون بأنهم يُغَيَّرُونَ عندما يصل صوت القرآن إلى آذان البشر المدعوين إلى الهداية

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً » كان يكفي أن يقول الحق « قد ضلوا » ، لكنه جاء بالمصدر التأكيدي « قد ضلوا ضلالاً بعيداً » أي إنه الضلال بعينه ، وهو فوق ذلك ضلال بعيد .

وعندما ننظر في كلمة « بعيد » ، نعرف أن الشيء البعيد هو الذي يسهو ويبين مصدره مسافة زمنية طويلة ، والذي يصل نصارى ضلاله أن يسهو بانتهاء حياته ، لكن الذي يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتد ، أي أن الضلال سيأخذ في هذه الحالة زمناً أكثر من حياة المصل ، ويسوان الضلال عن نصيبين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلال ممتداً

والضلال المعروف في الماديات الشرية هو - عن سبيل المثال - أن يسير الإنسان إلى طريق فيصل إلى طريق آخر وقصارى ما يصل فيه هو أن يذهب إلى مقبرة - أي صحراء - ولا يجد ماء ولا طعاماً فيموت . لكن نصال المصل يجعل ضلاله يأخذ زمن الدنيا والآخرة وبذلك يكون ضلاله ممتداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

لَهُمْ وَلَا يَلْبُدُهُمْ طَرِيقًا ﴿١٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

والحديث هنا يبدأ من الكفر والظلم ، إن الذين كفروا وظلموا ، والكفر هو ستر الوجود الأعل ، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشرى لا يؤدى هم متاعاً ولا مساعدة في حياتهم الدنيا ، وبدلت يكونون قد ظلموا أنفسهم . ومن بعد ذلك يقودهم هذا المنهج إلى عذاب الآخرة . والذى كفر ستر وجود الله وحرم نفسه بستر بوجود الأسمى من المنهج الذى يلقى به الله إنه بذلك قد صل صلاتاً بعيداً وسبحانه القائل

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ رَبِّي مُبْتَغِي هُدًى لِّي أَتَّبِعْ هُدًى قَلَا يَصِلْ وَلَا يَمُوتِ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة طه)

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق

﴿لَسْ يَبِيعْ هُدًى قَلَا حَرْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْكُمُونَ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

والذى يأخذ بهوى نفسه ويمتدح البشر فإن له معيشة حبكاً ضيقة شديدة ولا يظن ظان أن الذى يأخذ ويتناول الأمور بهواء حد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها ، لا ، لأن الذى يعمل ذلك قد يروح مره لكنه يقابل التعب ويمعش فيه ولا يتك عنه من بعد ذلك ، وهكذا يظلم نفسه

وقد يقول قائل لقد ظلموا أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظان ومظلوم فمن هو الظالم ومن هو المظلوم ؟ كل واحد منهم الظالم وكل واحد منهم المظلوم ، لأن الإنسان مركب من ملكات متعلجة ، ملكة شهوات تريد أن تطلق إلى الشهوات ، وملكة فهم تريد أن تحفظ الإنسان نفسه ويسير على صراط القيم المستقيم

وفى حاله من يكفر ولا يتبع منهج الله إنه يترك المرحلة ملكة الشهوات أن تظلم

ملكة القيم ، والإسلام إنما جاء لبولرى بين الملكات لتساند فى النفس الشرية ،
فلا يطفى سبال ملكة على سبال ملكة أخرى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَخْشَفُكُمْ وَلَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ بِغَيْرِكُمْ وَلَا لِيَذِيبَكُمْ ۖ إِلَّا تَكْرِيهًا ۚ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١٦٨﴾

(سورة النساء)

هذا هو حكم الحق فى الذين يكفرون وظلمون أنفسهم ، لن يالوا معفرة الله
وليس امامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ
مِنْ رَبِّكُمْ فَطَاعُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ۝١٧﴾

فبعد أن وصف لنا - بإيجاز محكم - سلسلة المعارك التى نشأت بين الرسول واليهود
مرة ، ومرة أخرى بينه وبين المشركين ، وها هو ذا سبحانه يخاطب الناس جميعاً ،
ليصفى مركز منهج الله فى الأرض ، فيقول مسهاً كل الناس . لقد جاءت رسالة محمد
عليه الصلاة والسلام نصفية لكل الرسالات التى سبقت ، وعلى الناس جميعاً أن
يميزوا ، ليحتاروا الحياء الإيمانية الجديدة ؛ لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان ،
البرهان الذى يرجع ما هو عليه صلى الله عليه وسلم عن ما هم عليه ، والنور الذى
يهدىهم سواء السبيل

لقد كان الناس قبل رسول الله على بلبل وعمل لعداين ونحل شتى ، فجاء البرهان

إن الإسلام قد جاء ناسحاً وخالفاً . والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدله ، بلا حجة لأحد أن يمسك بشيء مما كان عليه . وجاء محمد بالنور الذي يهدي للإنسان إلى سوره السبيل ، وهذه تعصيه عقديّة شامدة ، أو كما يقولون « دعامة أوكازيون إيمان » تتخلص به البشرية من كل ما يشوب عقائدتها ، وتنبأ موعده جديده .

و يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، ولحق هو الشيء الثابت لدى لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف ؛ لأن الحق صدق له لون واحد ، فلو ، رأيتكم جميعاً حديثاً واحدة ، ثم جاء كل واحد منكم بإخبار بها يخبر صدق قس فتلعب رواية الحادثة من واحد لآخر . أما إن مولت نفس بعض الناس لم أن تريدوا في الحادثة فكل واحد سيحكى الحادثة على لون يختلف عن بقية الألوان ، وقد سافر خيال أحدهم في شطحة الكذب ويسترسل فيه .

إذن فالذي لا يتغير في الحق هو أن يحكى جميعاً الرواية الواحدة بصدق ولو كانوا الأيمن الناس ، لكن إن مولت نفوس بعضهم الكذب وحسنت له وأعرت به 'ختلفت الرواية ؛ لأن لكذب مشاع أوهام ولا حقيقة له . ولحق سبحانه وتعالى أصبح لنا . لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما حتم به من أي لون ، سواء في العقديت أو في العباديات أو في الأخلاق أو في السلوك .

ستجئون كل شيء ثابتاً لأنه الحق .

و صرنا الحق سبحانه وتعالى لنا مثلاً في هذا الحق .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ اشْتَعَاءً حَبِيرٌ وَمِنْ ثَمَرِهِ رُبٌّ مِثْلُ شَجَرِ النَّخْلِ أَنفُثَ لَهَا نَسِيلًا غَيْرًا مِثْلِ السَّيْلِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

كل ما يؤخذ ماء على قدر حجمه ، وساحة ينزل بسبيل من الخيال يحمل معه راب و العش والأشياء التي لا تروم لها ، وهو ما نسجه « الريم » وهو الرُبْد . وكذلك الحديد أو لحنس أو الذهب الذي يصنع منه حل أو أقواس ناع ، وعندما يضع هذه المصنوع في النار ، نجد الرُبْد يفر على سطح هذه المصنوع

عندما يصهر ، وتسمى هذه الأشياء الخبيث . ويوضح الحق لنا كيف يصرب الحق والباطل .

﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيدَّهَبُ حَيَّاهُ وَأَمَّا مَا يَمْسَعُ لَنَاسٍ فَيَكُونُ فِي الْأَرْضِ﴾

(س الآية ١٧ سورة الرعد)

ومهما حلتطت بالحق أشياء فهو كحق يبعد ويترد هذه المفاتيح والحث وسحبها عنه فإن علا الباطل يوماً على الحق فلنعلم أنه علو الزبد الذي يذهب جفاء مرمياً به ومطروحاً ، وسبطل الحق هو الحق . وسبحانه يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فامسوا خيراً لكم » . والإيمان هو اعتناق العقيدة بوجود الإله الأعلى ، والسلاح عنه بواسطة الرسل ، وأن للحق ملائكة ، وأن هناك بعثاً بعد الموت ، وحسباً . ويقتضى الإيمان أن تعمل العمل وفق مقتضياته وذلك هو اختيار الخير ، ولنعلم جيداً أن الإيمان لا يفصل عن العمل

ومادا يحدث لو لم يؤمن الناس ؟ ها هوذا الحق يقول : « وإن تكفروا فإن الله ما في السموات والأرض وكان الله عليهما حكيماً » وسبحانه غنى ، وسبطل كونه الثابت - نظرية القهر والتسخير - هو كونه ، ولن يتغير شيء في الكون بكفر الكافرين ، سوى سحق الكون عليهم لأنه مسخر لهم ؛ لأن الكون ملك لله ، ولن تتغير السماء ولا النجوم ولا القمر ولا المطر ولا أي شيء .

ويقول لث . لو نظرت إلى الدنيا لوجدت الفساد فيها ناشئاً عما فعلته وأحدثته يد الإنسان على غير منهج الله ، أما الشيء الذي لم تدخل فيه يد الإنسان فهو لا يفسد ، ولم تر يوماً الشمس وقد عصيت عن الشروق أو الغروب ، وكذلك القمر لم تتحل حركته ، وكذلك النجوم في الأملاك ، وتسير الرياح بأمر خالقها ، وكل شيء في كون متظم الحركة ، اللهم إلا الأشياء التي يتدخل فيها الإنسان ، فإذا كان قد دخلها بمواصفات منهج الله فهي منسجمة مع نفسه ومع الكون ، وإن دخلها بغير مواصفات منهج الله فلن تستقيم ، بل تفسد .
ولذلك قال الحق

﴿وَلَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مَا يَصْرِفُونَ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا يُفْسِدُونَ﴾

(س الآية ١١ سورة الرعد)

إن الأمر العسير إنما يأتي من داخل نفوس البشر عندما يصلون عن مهب الله ،
 بذلك نقول أشكى الناس أزمة سوء ٩ لا ، لأن الشمس ليست في متناولنا ،
 كذلك لم يشك الناس أزمة هواء ، لكنهم يشكون أزمة طعام ، لأن الطعام يهب من
 أرضي ، فإذا أكل الإنسان مثلاً فلا يعمل ، وإنما أن يعمل ويخرج ثمراً يأكله
 منهم ويضو ويخلوا ولا يعطوه لغيرهم ، وهذا سبب من أسباب العباد الثاني .
 الكون

وحاء الحق هم بما يمكن أن يكون فتعاً يدخلون فيه بالإيمان بمنهج الرسول
 فأنتم ، ويكفرون عن أخطائهم مع أنبيائهم ومع محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول
 سبحانه

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ
 وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى
 ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ
 وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ
 انْتَهُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ
 أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 وَكَفَى بِالْقَوْمِ كَيْلًا ﴿١٧١﴾

يبدأ الحق بأمر موجه لأهل الكتاب: لا تغلوا في دينكم ، والغلو هو الخروج عن
 حد الاعتدال في الحكم ، لأن كل شيء له وسط وله طرفان ، وعندما يمستك شخص
 رغباً مطلب منه ألا يكون هناك إفراط أو تفريط . وقد وقع أهل الكتاب في هذا

المأرق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون الإفراط وتفريط ، لقد كفر اليهود بعيسى واتهموا مريم بالزنا ، وهذا غلو في الكفر ، وغالى النصارى في المحب لعيسى فقالوا : إنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، وهذا غلو ، ويطلب الحق منهم أن يقفوا من أمر الدين موقف الاعتدال : « لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

إن أمر المنهج لا يحتاج إلى غلو ، ولذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله بالدين الوسط الذى يضع كل أمر في نصابه . وشرح لنا بإخبارات النبوة وإلهامها ما سوف يحدث للإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، وقد حدث ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالحوارج كفروا علناً ، والمشرعون بالنشيع قالوا : إنه سبى ، وبعضهم زاد في الإصراف نجعله إلهاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى - كرم الله وجهه - :

« إن فيك من عيسى مثلاً . أبغضته اليهود حتى يهتوا أمه ، وأحبه النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له » .

وكما قال سيدنا على - كرم الله وجهه - : « ألا وإنه يملك في اثنين . محب يقرظني بما ليس في ، ومبغض يحمله شتان على أن يهتني ، ألا إنى لست بنبي ولا يوحى إلي ، ولكنى أصعب بكتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتي فيما أحيتكم وكرهتكم » (١) .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم علماً أن المحب الذى يغالى في حبه ليس مع حق وكذلك الكاره الميغض ، فالذى يحب علماً يغلو جسد منه إلهاً أو رسولاً ، والذى أبغض علماً جعله كافراً . وكذلك النصارى من أهل الكتاب جعلوا إله عيسى فأحبوه بعلو وجعلوه إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، فيقول لهم الحق : « لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » . وقوله الحق : « عيسى ابن مريم رسول الله » رد على خلو اليهود الذين رفضوا الإيمان بعيسى ، وقالوا في عيسى وأمه الیهتان العظيم .

وقوله الحق عن عيسى ابن مريم : « رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح
به » رد عن علو التصاري الذين يصيرون هذا أو جعلوه ابتداء أو ثالث ثلاثة ، فسمي
عليه السلام هو ابن مريم وعندهما بشرها به الحق وقالت : «

﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۚ ﴾

(من الآية ١٧ سورة آل عمران)

قالت ذلك بعطنة الصنعية التي جعلتها نبيه إلى آدم لم يمسسها بشر ، وبإدغام الحق
به سبه إليها فليس له أب ، صولده عيسى دون أن يمسسها بشر ، ويوضح سبحانه
ذلك عندما يقول : « إني لمسح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم
روح منه » ، فسمي روح من الحق ، لأنه سبحانه قال : «

﴿ فَصَفَّحْنَا مَاءَ زُجْجٍ ۖ ﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنبياء)

وما معنى « كلمته » ؟ ، هذا القول يدل على أن الروح صفت ثم جاءت كلمة
كن ، التي قال عنها سبحانه

﴿ إِذَا صَوَّيْنَا لِلْإِنسَانِ أَشْأَهُ فَقَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة آل عمران)

لقد احتج وجود عيسى إلى أمرين : « روح » و « كن » ، والشبهة عند التصاري
ردوا إلى أن عنصر الذكورة لم يلمس مريم ، وقالوا : « ما دام الله قد قال إن عيسى
روح منه فهو جزء من الله ، ونسوا أن كل شيء من الله ، وسبحانه القائل :

﴿ وَخَرَّجْنَاهُ نَجْمًا مِّنَ الْأَرْضِ وَمَا فِي الْأَرْضِ حَيْثُ يَشَاءُ ۚ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الحجر)

فهو هذا يعني أن « الأرض » قطعة من الله وكذلك الشمس ؟ لا ، فإذا كانت
تشبهه قد جاءت من هباب عنصر الذكورة مع وجود عنصر الأنوثة لكان من الواجب
نظفياً أن تكون الشبه في آدم قبل أن تكون الشبه في عيسى ، لأن آدم جاء من غير
كورة ولا أنوثة ، فلا أب له ولا أم له ، لقد قال القرآن بمتهى البساطة ومتهى
لوسح

﴿إِذْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ لَمَّا كَتَبَ آدَمُ حَقَّهُ، مِنْ رَبِّهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ مَكُنْ فَيَكُونُ ۝﴾

(سورة آل عمران)

ولا يملك أحد القيد على فضل الله ووسعه ، ومسألة آدم كانت أدق ، لكن الله بمعضله يساوى بين خلق عيسى وخلق آدم ، وهذا هو التلطف في الجدل . وأحبرن سبحانه عن عيسى أنه جاء بأمر منه ، وقال في آدم :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

إذن مادم قد احتاح إلى الأمرين نفسيهما ، لكن ، ، رد المعض فيه من الروح ، ، وعندما ننظر إلى هذه المسألة نجد أنها لا بد أن تتعرض لقضية خلق آدم ، حتى يعرف كيف تسلسلت مسألة الخلق ، سواء أكان الخلق ملائكة أم خلق آدم أم خلق حواء أم غيرهم من الخلق ، كذلك خلق عيسى . لقد كان خلق آدم غيباً عن آدم ، وليس لأدم نفسه ولا لمن جاء بعده أن يتكلم كيف خلق ، لأن هذه مسألة لا دخل لأحد بها ، ويقول لنا الحق محذراً من أن نستمع إلى قوم يقولون بغير ذلك عن الحق فقال :

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ حَقِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ بِمُحْذَرَةٍ مِنَ الَّذِينَ

عَصَدُ ۝﴾

(سورة الكهف)

ولا يمكن - إذن - أن نستمع إلى هؤلاء الذين اقتصروا أن أصل الإنسان فرد أو غير ذلك ؛ لأن الذي يتكلم عن الخلق يعبر عنهم من عند الله ، فهو يتكلم في أمر لم يشهده . والخلق الأول أمر لا يمكن أن يدخل للمعمل التجريبي ؛ لأن المعمل التجريبي إنما يحلل مواد موجودة بالمعمل . إذن فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل . ولم يكن هناك أحد مع الله ساعة خلق خلق ليقول لنا كيف تم ذلك . وعلمنا هذه المسائل بإخبار الخالق لنا فهو الأعلم بها ، وإخالفنا أخبرنا أنه خلقنا من ماء وتراب وطين وحمأ مسنون ومصلصال كالصغار ، وسحدثنا بذلك في آيات متعددة . والذين يريدون أن يكذبوا القرآن يقولون . إن القرآن لم يأت بخبر واحد عن خلق

المخلوق ، فمرة تحول إلى المخلوق كان من ماء ومرة كان من تراب ، ومرة كان من طين ، ومرة كان من صلصال

ونقول : أحيان يتكلم الحق من مراحل المخلوق فهو في هذا تصد ؟ أصل الحق ماء ، خلطه الحق بتراب ، وبعد وصع للماء على التراب حمار الإنسان طيناً ، ثم إذا بركتنا الطين إلى أن يجتم ، يصير حماراً مسنوناً ، وبعد ذلك يصير صلصالاً ، ومن بعد ذلك خلق من خلق آدم ، إذن فكل شيء تكلم به سبحانه في خلق آدم إنما يتم مع كل الآيات التي جاءت من هذا المخلوق . وهو القائل عن آدم

﴿ هَٰذَا سَوِيَّتِي وَمَعَتِّي فِي رَوْحِي ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وبعد صنع الله القالب الذي يشبه التمثال الذي مره ، ولكن نقصه الحركية الحية ، فخلق النضج في الروح بكلمة : كن . إذن نحن محتاج إلى روح وإلى كلمة . والروح عنصر وجودي وعندما تختلط بالقالب تحدث الحياة ، ولا بد من حد ذلك من الإرادة بكلمة : كن . ولذلك نجد الإنسان قد يصح نفس خلقة الإنسان الكيافية لكنها لا تصير إنساناً ، لأن الأمر ينقص الإذن ببلاده الإنسان

وصدقة يتكلم الحق من خلق آدم وهو أمر لم نشهده ، فذلك من رحمته بنا ، يترك لنا سبحانه في الكون دليلاً على صدقه من خلق آدم ، فإذا كنا لم نشهد خلق الحياة فنحن نشهد نفيس الحياة وهو الموت ، الذي يحدث فيه أولاً خروج الروح ، من بعد ذلك يتفتح الجسم كأنه الحمار المسنون ، ثم يتغير الماء ، وبعد ذلك يتحول إلى تراب . هذه هي مراحل الموت التي تبدأ من خروج الروح وتصلب الجسم إلى يوم ثم يتغير الماء ، وينتهي العنصر في الأرض

ولذا كنا لم نعرف كيف بدأت الحياة ، فنحن نعرف كيف انتهت الحياة أمامنا الأمر المشهدي ، ويجعل سبحانه أمر انتهاء الحياة أمامنا دليلاً على صدقه في إحصاءنا الحياة وكيف بدأت ، لأن نقص الحياة يكون بالموت ، ونقص أي شيء إنما يتم على عكس طريقة بئانه . وآخر أمر دخل في الإنسان هو الروح ، ولذلك فهي أول ما يخرج من الإنسان عند الموت . وبعد ذلك يتصلب الجسم ، وبعد ذلك يصير رمة هي الحمار المسنون . وبعد ذلك يتغير الماء وينتهي أخيراً التراب .

وقد حللوا الإنسان حديثاً . فوجدوا فيه عناصر كثيرة ، ثم حللوا طينه لأرض الخصبة التي يخرج منها الررع الذي يقات منه الإنسان ، فوجدوا هذه لطينة مكونة من هذه العناصر .

ومن العجيب أن العناصر المكونة للإنسان هي نفسها المكونة لطين التربة الخصبة ، مما يدل على تأكيد الصديق في أن الله خلقنا من طين ، وجعل استبقاء حياتنا مما يخرج من هذا الطين بعناصره المختلفة ، حتى يجد كل عنصر من الطين كل عنصر من الوجود الإنساني . ولما قاموا بتحليل الإنسان مفارياً بتحليل التربة وجدوا أن أصحهم عنصر في تكوين الإنسان هو الأوكسجين وسبته على ما أذكر سبع وستون بالمائة ، وبه عنصر الكربون ، وسبته على ما أذكر تسع عشرة بالمائة ، إلى أن تنتهي العناصر المكونة للإنسان والتربة إلى المجهيز وسبته ثقل عن واحدة بالمائة ، وأهم هذه العناصر هو :

الأوكسجين ، الكربون ، الهيدروجين ، النتروجين ، الكلور ، الكبريت ، الكالسيوم ، والفوسفور ، والنتاسيوم ، الصوديوم ، الحديد ، اليود ، والسيلوز ، والمجنيز . هذه هي أهم وأكثر العناصر المكونة لتكوين الإنسان وهي العناصر نفسها الموجودة في تركيبة الطين وبعضها عناصر مكونة للمركبات العضوية وبعضها عناصر غير عضوية وبعضها عناصر وظيفتها ثابتة ومعروفة . ويسأل أهل الذكر في تفاصيل ذلك .

وبطبيعة الحال فالذين قاموا بتحليل التربة وعناصر الإنسان لم يكونوا علماء دين ، ولم يكن في باهم إقامة الدليل على صدق الله في القرآن ، ذلك أن بعضهم يجهل مسألة القرآن كلها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أجرى على لسان رسوله حديثاً يشرح لنا حقيقة إثبات صحة كل ما فيه ولو جاء على لسان رجل فاجر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) (١) .

سبحانه - إذن - أراد أن ينصر الدين بالكافرين ، وجعل بعضاً منهم يهدون إلى أشياء لو أنهم علموا أنها مستحلم فضايأ الهدى ما أعلنوها . ومن حكمة الله أن جعل الكافرين غير قادرين على إغمال نصرة الدين ، وجعل سبحانه بعضاً منهم يهدون

(١) رواه البخاري في الجهاد والفتن ، ورواه مسلم في الإيمان ورواه أحمد ، والترمذي في السيرة .

الذين هم أنوفهم . ويريد أن تأخذ من هذه المسألة فيها حقيقة ، يتم ما ينطبع
والسبحه ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان الأول من طين ، وهناك آية أخرى قال
عنها الحق

﴿ فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وآية ثالثة قال فيها سبحانه

﴿ كُنْ مَسْكُونٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة آل عمران)

إذا فخلق آدم احتاج إلى أمرين : النفخ من روح الحق ، والأمر ٣ كن ، وهو
الأمرين أنفسهما في مسألة خلق عيسى ، روح من الحق ، وكلمته التي ألقاها إلى
مريم ، وهذه دليل صلق لقوله الحق

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة آل عمران)

وحي قد قص لنا أنه خلق آدم من طين وصنع القلب وسواه بيديه

﴿ قَالَ يَتْلُو آيَاتٍ مَا مَعَكَ لَوْ تَسْجُدُ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيمَانِي لَأَبْهَتَ أَكْثَرُ مَنْ

الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ إِنَّ خَيْرَ مَنَّا خُلُوفٌ مِنْ نَارٍ وَنُفُثٌ مِنْ حَبَرٍ ﴾

(سورة ص)

فإذا كان الميكال الذي خلقه الله ونفخ فيه الروح ، وجدت فيه الحياة ثم تناسل
السل من آدم ، إلى أن تقوم الساعة ، فهل عيسى حل الصورة التي جاء بها يكون
مراً عسيراً على الله ؟ لا . وسأجبه أسحب آدم أول ذرية له ، ألم يخرج لحظتها حيوان
سوى من آدم إلى البويضة في رحم حواء ، وأراد به الله ميلاد أول منسل من آدم وهو
جزء من آدم ، وهذا الحيوان المنوي له مادة وله حياة ، ومادته معروفة ، وحياة هذا
الحيوان المنوي هي التي تسمح له بالحركة لتلقيح البويضة ، هذه المادة مخلوقة من
آدم ، والحياة التي فيه من روح آدم ، وآدم نفسه خلقه الله بيديه ، وهذا إثبات أن
الحيوان المنوي هو جزء مما خلقه الله بيديه وهو آدم ، وفي الحيوان المنوي حياة مما نصحه

الله من روحه ، وانتقل إلى رحم حواء وأخصب البويضة وولدت حواء ، واستمر ميلاد حيوانات موية حية تخصب بويضات حية ليستمر الخصب والنسل والأحماد .

إننا إذا سلسلنا نسل آدم إلى أن تقوم الساعة ، فكل ذرة من ذرات من يوجد آخر لدنيا مكونة من شيء به خلق من خلق الله في الغالب ، وفيه شيء من نفخ الله في لروح ، ولم يطرأ عليه موت أبداً ؛ فلو طرأ عليه موت أو فناء لما صلح أن ينجب مثله . وهكذا نعلم أن كل واحد فيها به جزء من الغالب الذي صنعه الله بيديه ، وفيه جزء من نفخ الروح .

وأكرر المثل الذي أضربه دائماً ليستقر في أذهان الداشة ؛ لو جئنا يستيمتر مكعب من سائل ملون مركز ، وأضفناه إلى لتر من الماء ، ثم أخذنا قطرة من لتر الماء سنجد بها جزءاً ضئيلاً من السيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا هذه القطرة وأضفناها إلى برميل من الماء فوصير في البرميل جزء من السيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا من البرميل قطرة من الماء ، وأضفناها إلى البحر فإن جزءاً من السيمتر الملون يصير بالبحر . إذن فكل سل آدم - إلى أن تقوم الساعة - فيه جُزْءٌ - من آدم عليه السلام .

ونلاحظ أن كثيراً من المفكرين والمنفعين في الغرب صاروا يبتعدون عن فكرة بنوة عيسى الله . وعندما يدخلون في نقاش حول هذه المسألة يقولون إنها بنوة حب . وإذا كانت المسألة بنوة حب ، والله يحب جميع عباده ونصبر نحن مثل المسيح ونصير المسيح مثلاً . فخلق كلهم عيال الله ، والحديث القدسي يقول :
(الناس كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم بعبادته) (١) .

ولو أخذنا هذا لقول بالدقة التجريبية العملية نجد أن هذا القول صدق وحق ، لأننا جميعاً قد صبرنا من قدرة الله وإرادته وكل منا فيه شيء من صنع الله منذ بداية خلق آدم ، إذن هو بشر مثلنا ويتميز عنا بأن السماء اختلته رسولا . أما القول بالثالوث فبعضهم يقول : نقصد بالثالوث ثلوث الصفات . وهل ثلوث الصفات

ثانٍ فيه إضافات ؟ كالقول : بالآب والابن والروح القدس ؟ ثل يوجد أب إلا إذا وجد ابن ، ولن يوجد ابن إلا إذا وجد أب .

إننا نعلم أن هناك حقائق ثابتة وهناك حقائق إضافية ، فالإنسان يكون ابناً أولاً فهو ابن بالنسبة لوالده ، وهو أب بالنسبة لابنه ، وكل هذه صفات إضافية ، وصفات الحق يُفترض فيها أنها تجمع لا أن تكون إضافية ، وعندما يقال : الآب والابن والروح القدس ، فهذا القول لا يحمل صفات إلهية ، بل صفات إضافية ، وحاول بعضهم أن يقول : إن فائدة الكتاب يوجد فيها التثليث ، لأنكم تقولون بسم الله الرحمن الرحيم ، أنتم تفتشون القرآن بثلاث صفات هي الله والرحم والرحيم ، قلتم لهم : نحن نقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا نقول : بسم الله والرحم والرحيم .

وما الذي يجعل الحق يُنجب ابناً منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة ؟ ثم يتروك مسيحائه الأزمان السابقة على ميلاد المسيح محرومة من ميلاد ابن له ؟ لماذا يتروك الله الأزمان كلها بدون ابن له ، ويختص البشرية بابن له منذ حوالي عشرين قرناً فقط ؟ ثم ما المدة الزمنية التي شرفها الله بآبته بأن أوجده فيها ؟

أتكنى ثلاثة وثلاثون عاماً فقط - وهي عمر المسيح - لتشريف البشرية بوجود ابن الله ؟ وإذا يحرم الله - إذن - بقية الأزمان من هذه الخلقة إلى يوم القيامة من هذا الشرف ؟

وسأل أيضاً لماذا يريد أي كائن إنجاب ابن ؟ إنه يرغب ذلك ليهض استبداد الحياة ، لأن الإنسان يعرف أنه سيموت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الموت والحياة وهو الباقي أبداً ، وليس في حاجة لاستيفاء حياته في أحد من البشر ، وذلك لنا ذلك في سورة الإخلاص .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَكَرَّ سِكْرُ لَهُ ۝ كَعَمِّ أَحَدٍ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

وهم يقولون: «إله واحد»، ومرة أخرى يقولون: «إله أحد». وواحد لا تساوي «أحد» والدارسون لفظة والمنطق يعرفون أن هناك شيئاً اسمه «الكل» وشيئاً اسمه «الجزء» وشيئاً اسمه «الكل» وشيئاً اسمه «الجزء».

«فالكل» يطلق على ماله أفراد مثل للإنسان: كماله ومحمد وعلي، «والكل» يطلق على ماله أجزاء، مثال ذلك الكرسي نجده مكوناً من أشياء: كالخشب والفراء والمسامير وغير ذلك من مراد. فالكرسي - إذن - «كل» لأنه مصنوع من مواد كثيرة. وحقيقة الخشب تختلف عن حقيقة المسار، لذلك فالكرسي «كل» لأنه مكون من أشياء كثيرة مختلفة الحقائق. ولا يصح أن نطلق على أي شيء من مكونات الكرسي اسم «كل» فلا نقول: «المسار كرسي» أو «الخشب كرسي» لأن الكرسي يطلق على مجموع الخشب والمسامير والفراء والطلاء في شكل وترتيب معين.

ومثال آخر، كلمة «إنسان» وهي كلمة تطلق على كثيرين، ولأن الحقائق متعينة نطلق على الإنسان كلمة «كل».

ويصح أن نطلق على أي كائن يتمتع بالصفات الملتقى عليها للإنسان لقب إنسان، فنقول محمد إنسان وزيد إنسان، وعلي إنسان «فالكل» له أجزاء، ولله كل جزئيات، ويكون الكل شيئاً واحداً ولكنه ذو أجزاء، فقد يكون عندنا كرسي واحد. ولكن لهذا الكرسي أجزاء.

وهل نقول على الحق سبحانه وتعالى أنه «كل» أو «كل»؟ لا نقول على اسم الحق «كل» أو «كل»؛ لأنه اسم لا يطلق على كثيرين فليس كلياً لأنه واحد، وليس له أجزاء؛ لأنه أحد، وليس له أفراد لأنه واحد. فلا يقال له سبحانه وتعالى «كل» أو «جزء» أو «كل» أو «جزئ»، فلو كان كلياً لكان - كما قلنا - له أفراد ولو كان «كلًا» لكان له أجزاء، ولكن الله واحد لا أفراد له، وأحد لا أجزاء له.

ولذلك يرد القرآن على أي فائل بغير هذا، يقول:

﴿قُلْ حُوَّاهُ أَحَدٌ ۝١﴾

ويقول أيضاً

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا وَحْدَهُ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة البقرة)

وقد قلت كل ذلك لنفهم قوله الحق

﴿يَتْلُو الْكِتَابَ لَا تَجِدُ فِيهِ دُبُرًا وَلَا تُقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا السَّبِّحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ آفَاقَهَا إِنَّ مَرْيَمَ وَرُوحَ رَبِّهِ فَطَمِرُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَمَنًا خَيْرٌ﴾

(من الآية ١٧١ سورة البقرة)

وقوله الحق: «انتهوا» أي انصروا على كليات الباطل، و«خيراً لكم» أي تمسكوا
بالحق، وفي قوله: «انتهوا» خيراً لكم، تحلية وإبعاد لكليات الباطل، «ناخذ
لك من قوته» (انتهوا) وتحلية لكليات الحق وناخذها من قوله «سمعته»
خيراً لكم

ويقول الحق: «إنا الله إله واحد» أي أنه سبحانه لا أفراد له، ويضيف
سبحانه أن يكون له ولد، «ومباعدة سمع كلمة «سبحانه» منهم أن تنزيهه
باب الخلق»

ولذلك نجد كلمة «سبحانه» تأتي في الأمور بحجية التي يقف عليها الحق،
في الرغم من وجود كفار في هذا الوجود، وعلى الرغم من وجود محترقين على الله في
العالم، وعلى الرغم من وجود من يمتنون البشر بالعباد الألوهية، إلا أن إنساناً
حده لم يجرى على أن يقول لمعتوق كلمة «سبحانك» ولذلك يقول الله عز وجل
سبحانك أيضاً في سبحانك «كذلك لم نجد أحداً من أي مله أو عقيدة أو دين قد
من نفسه باسم «الله» وهو سبحانه يتحدى به حتى الكفرة والملاحدة أن يسمى
بما لا يسمي أي مسمى وبالله هل يوجد واحد من المتبرجين الكافرين
حي أبنا له «الله»؟

حتى هذه لم توجد ؛ لأن هذا الكافر غير واثق أنه على حق . ومن الجائز أن يفعل ذلك فمحدث له كارثة . ولو كان هناك كافر واحد مؤمن بما يقول بأنه لا إله لهذا الكون لسمى أباً له « الله » . لكن أحداً لا يجترئ على هذه :

﴿مَنْ تَعْبُدْ لَهُ تَعْبُدْ﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وكان هذا التحدي موجوداً من قبل أن تنزل هذه الآية . فإذا عن الذي جاء بعدها برمن ؟ وهل اجترأ أحد على أن يسمى أباً له « الله » ؟ لم يجترئ أحد على هذه أيضاً على الرغم من أنهم يسمون بكل شيء ؛ وكان عبدنا في القرية واحد أطلق على ابنته اسماً طويلاً عجبياً . لقد سماها « ورد انتشي في دندشة روح الفؤاد والمثلك وفا » وهو حر في ذلك ، لكن لم يجترئ أحد على الإحلاق أن يسمى أبه « الله » ، وهذا دليل على أن الملاحدة والكفار على باطل . ويخاف أي منهم أن يجترئ على هذه المسألة ، ويتحدى الحق بسبعائك ويتحدى بالذات « الله » ، ولذلك فليقل كل واحد « سبعائك » وهو مطبش ، « ولا تقال إلا لك » ، واستقرتوا وتتبعوا المدائح التي قبلت للناس جميعاً ، أقال واحد من البشر لواحد من البشر « سبعائك » ؟

ما قالها أحد قط . وهكذا يتحكم الله في أمر الإنسان اختياره فيه ، ولا يبرز إنسان على إطلاق هذه الأسماء على أحد من البشر . إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض « ووالود » كما يعلم يكون عما في السموات أو عما في الأرض ؛ فكيف يكون له وملكه ، وهو ابنه ؟ إن هذا الادعاء لا يستقيم أبداً ، ولذلك بذل الحق الآية : « وكفى بالله وكيلاً » ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا

لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ

عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

مصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر بشجن الله عليه بصوته له ، وسبحانه
عند أراد أن يتجلى على نبيها الخاتم صلى الله عليه وسلم ويسرى به إلى المسجد
الاقصى ، قال

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ تَبَتَّلَ مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)
وم يقر : « سبحان الذي أسرى برسوله » ولكنه قال « سبحان الذي أسرى
بعبد » ، لأن « العبودية » عطية علوي من الله ، فكان سيدنا محمداً صلى الله عليه
وسلم عندما تنهى قى العبودية لله نال تنهى الخير ، فمن إذن يستكشف أن يكون
عبداً لله لا يستكشف المسيح ذلك ، وكذلك الملائكة لا تسكشف أن تكون عبيداً
له . « ولا الملائكة المقربون » وهمون ذلك ارتقاء في النقي ، مثالياً يظنون فلاح
لا يستطيع شيخ الخير أن يقف أمام ولا العبدية

إذن فالملائكة في المخلوق أحسن من البشر . ولذلك قال الحق « من يستكشف
المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال بعض المعبداء إن خواص
البشر أصل من خواص الملائكة ، وهوم الملائكة أفضل من خواص البشر والأصل في
اللعنات أن توضع الألفاظ أولاً لمعنات ، ثم تنتقل من المعنات إلى المصوبات ،
لأن إلف الإنسان في أول تكون المتركات له إذن يكون بالحس ، كما قال الحق .

﴿وَأَنَّهُ تُخَوِّجُهُمْ مِنْ طُورٍ أَمَّيَّتٍ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَحَصَّلَ لَكَ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكَ تَشْكُرُ﴾

(سورة النحل)

إذن ما دام سبحانه قد قال « لا تعلمون شيئاً » فإلى يأن من بعده إما يأن
بوسيلة لتعلم ، وهي خواص السمع والابصار والقدرة على تكوين الخبرة . ومثال
لك عندما ندوس في الفقه موضوع العصب . والعصب هو أن يأخذ أحد حق غيره
هراً وعلائية ، وهو غير المروة التي يأخذها السارق حمية . وغير الخطف : لأن
خطف هو أن تمتد يد لشئ من أمام صاحبه ويجري الخطاف بعيداً ، أما
بنصب فهو الأخذ حوة .

وكلها - العصب ، والسرقه ، والخطف - هي أخذ لغير الحق . والنصب مأخوذ من أمر حصى هو سلاح الجلد عن الشاة . وُسِّيَ أخذ الحق من صاحبه غصباً ، كأنه أخذ للجلد . ونقل المعنى من المحسنات إلى المعنويات . وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق : «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون» . «يستنكف» مثلها مثل «يستفهم» ، ومثل «يستخرج» .

إذن فهناك عادة اسمها «نكف» ، و«النكف» عملية حشية تتمثل في أن يرمي الإنسان دعة العين بأصبعه . ولنفرض أن إنساناً يعلم أن له كرامة في البيت وجاء له طرف ضيق جعله يبكي ، فدخل عليه ابنه أو زوجته ، فهو يحاول إزالة الدمع بأصبعه . «واستنكف» معاًها أزال «النكف» . والنكف معناه أن يزيل الدمع بأصبعه . وإزالة الدمع بالأصبع تعني أن صاحب الدمع يستكبر أن يراه أحد باكياً لأنه مقهور على أمر قد كان ، وهذه العملية لا تحدث إلا عندما يريد الإنسان أن يستر بكماله عن أحد .

وانتقلت هذه الكلمة من المعنى الحسي إلى أي مجال فيه استعمال ، مثلها يستنكف إنسان أن يسير في طريق إنسان آخر ، أو أن يجلس مع آخر ، أو يجلس في مقعد أقل من مقعد آخر .

وبشرح ذلك المعنى الدارج بأن المسيح لا يجد غضاضة أن كان عبداً لله ، ولا يستكبر على ذلك بل هو يشرف به . والملائكة المقربون أيضاً تشرف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم وليس لهم حمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله . وهي عبودية ليست لمن يستذل ، لكنها لمن يُعزَّز ، وليست عبودية للذي يأخذ ولكنها للذي يعطي . والذي يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون .

ويضيف الحق : «ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، المستنكفون ؛ أو الذين على طريقة الاستنكاف ، ومن يشجعهم على ذلك ؛ كل هؤلاء يصيرون إلى جهنم» .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فِيَوِّضُهُمْ أَجْرَهُمْ وَزَيِّدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا
الَّذِينَ اسْتَكْفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٧٧)

لماذا م يات الله بشرط الآية الثاني الذي يتحدث عن المستكبرين والمستكبرين مقدمه
على شرط الآية الاول ؟ ، ولماذا لم يواصل الحديث عن الذين استكفرو واستكبرو
لمستكمل ما جاء بشأنهم في الآية السابقة ويبين كيف ان مصيرهم إلى العذاب حيث
لا يخلصون من دون الله وبأ ولا نصيراً ، ثم بعد ذلك يتحدث عن الذين آمنو وعملوا
الصالحات ؟

ذلك أن الحق مداعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلاء
الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فهناك أولاً ثواب الطائعين ليستشرف إليهم الخارجون عن
طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حشرة الخارجين عن المنهج أشد
والضد يظهر حبه الضد .

لقد قال الحق : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيؤويهم أجورهم ويزيدهم
من فضله » وعلم أن الأجر على العمل لماذا الفضل إذن ؟ لقد عرفنا من قبل أن
العمل جند فيه حديث شريف

(من يعمل أجراً عنده الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولأننا إلا أن
يتضمن الله بفضل ورحمة ، فاستحووا وقاربوا ولا يتمين أحدكم الموت ، إما محسب

فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسينا فلعله أن يستتب (١) .

والحق قد قال :

﴿ قُلْ يَعْصِي اللَّهَ وَرَحْمَتَهُ فَيُزِيلْ ذَلِكَ عَنَّا كُرْهُا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يوس)

وفطن الناس إلى ذلك فقالوا : « لهم بالفضل لا بالعدو » ، لأن الفصل هو الذي يعطيا المازل المتميزة ، وقد يضيحنا العدل

ويقول الحق مرة أخرى عن هؤلاء الذين استكفوا واستكبروا : « وأما الذين استكفوا واستكبروا فاعلمهم عذابا أليبا ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا »
أي أنهم لن يجدوا من يسمع لهم عند الله ، ولا من ينصرهم ولا أحد يقادر أن يرد عنهم العذاب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا

إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿٧١﴾ ﴾

ولبرهان هو الإعجاز الدال على صدق المبلغ الأخير عن الله ، وهو الحجة لدايمه .

وقد يقول قائل : ما هو البرهان وما هو النور ؟ . ونعلم أن كل رسول يأتي بمعجزة تثبت صدق بلاعه عن ربه قد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسول المنهج يلاغ من الله ؛ مثال ذلك أن معجزة سيدنا موسى كانت العصا لكن منهجه هو لتوراة . إذن فالمعجزة هي البرهان على صدق الرسول فيما بلغ عن ربه ، وقد

(١) رواه البخاري في كتاب الطب - وارقى - ومسلم في المناقب ، وابن ماجه في الزهد والدارم في الرقائق .

لا يكون للمجرة صلة بالهيج ، فهي على السلام كانت معجزة إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وصبحه الإسجين .

أما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو النبي الخاتم فقد تجلت معجزة في أنها عين منجبه ، إنها القرآن ولم تنقص المجرة عن المنهج ، لأنه رسول عام في الناس كافة وإلى أن تقوم الساعة . هذا هو البرهان أما د النور فظ جده أيضاً من أمر حسي ، لأن النور ينعش الإنسان من أن يتعثر في مشيه أو أن يخطيء الطريق أو أن يخطئ بالاشياء فيؤذيها أو يوديها . إذن النور الموجود في القرآن هو حقائق القيم ، أما نور الله في الماديات فهو أمر معروف لنكاته

ومن بعد ذلك يقول الحق

﴿ فَأَمَّا الْدِّينَ ءَامَنُوا بِاللّهِ وَاعْتَصِمُوا بِهِ .

فَسَكِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَتِنَا وَفَصِّلْ وَبَيِّنْ لَهُمُ الْآيَاتِ

مِرْكَطًا مُّسْتَوِيًّا ﴿١٧٥﴾

لقد آمنوا بالله واعتصموا به ، ما معنى الاعتصام ؟ قديماً كان الرجل عندما يقع في هوة يصرح لبيجده إنسان خارج الهوة بيده ، وهذا هو الأصل في الاعتصام ، أو يمسك الإنسان بمن ينقذه من هأويه أو كوارثه ، ولحق يعطى الأسباب ، وإذا جاءت الشمس وسار فيها إنسان فقد أحسنه الله الشجرة يستظل بها . وإذا ما برد المطر فيمكن أن يستتر منه بظلة ، وإذا عيش إنسان فانه يعطيه سبب لأحد كونه ماء ، ونعائل هو الذي يذكر عند كل سبب من أوجد الب

بإيالك أيها المؤمن أن يفر بالأسباب ، لأن عدم الاعترار بالأسباب يجرى الإنسان عنصم تأتية أمور في طهرها شر ، فإدام مجرب عليك هو الله فهي خير بالتأكيد ، لكنك لا تعلم .

وما أصل علم الإنسان في كثير من المسائل ، فالإنسان قد بحسب أمرا أنه هو
الحسن ، فيظهر له بعد حين أنه السوء ، وقد يعتبر إنسان أمرا هو السيئ ، فيصير له
بعد حين أنه الحسن ، ولا يوجد واحد من إلا وفي حياته أشياء كان يصبا خيرا ، وإد
بها شر ، أو كان يظنها شر وإد بها خير ، وأشر هو ما يأتيه الإنسان لنفسه بعمله ،
أما لأمر التي تقع على الإنسان بحكمها تأتي على مقتضى علم الله لا على مقتضى
هو الشر

إنما بعد من يقول : إني أدعو الله بكذ ولا سبحانه في . ويقول : إني بدعو
بأشياء تنفها خير لك ؛ لكن الله يعلم أن هذه الأشياء ليست هي خير ، لذلك
لا يعطيها لك ، فإن كنت مؤمنا بالله ومعتصما به فأنت تهمس لنفسك : لي في هذا
الأمر مدخل أم لا مدخل لي فيه ؟ إذا كان لك فيه مدخل فاللوم على نفسك وإن
كان الله قد أحرا عبيك بهر خير لك والله حكمة في ذلك

وحطى من الدنيا سواء لأبي
رضيت بحكم الله في العسر واليسر
فإن أقبلت كان الجزاء على الجا
وإن أدبرت كان الجزاء على الصبر

« فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة من وفصل ويهديهم إليه
صراطا مستقيما » ومداموا قد آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم صراطه المستقيم ،
وعاقبة الهداية وثمرتها صراطها وبينها قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ هَتَدُوا رَادَّهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۚ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

وقال لك الرسول صلى الله عليه وسلم :

(من عمل بما علم ورثه الله جلّم ما لم يعلم) (١)

أي يصير مأمورا عن العلم ، لأن العلم الذي أحده عن الله وطّعه في حكمة غيره ،

(١) يؤمنون في الدنيا ، عاهد الله أن لا يردنهم إلى الدنيا ، وروى البيهقي في الأدب المفرد والترمذي في المعجم
والصحيح والمصنوع للشوكلي

لم يدخره أو يعطله ويحثهم الحق سبحانه ويمدح سورة النساء بقوله

﴿يَسْتَفْهِمُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ
إِنْ أَمَرْتُ أَهْلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا يَصِفُ
مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا
أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّشَايِمَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً
رَجَا لَا وِثَاءَ فَبِذَلِكَ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَفْهَمُوا وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

ولا يستعبد هو طلب الفيا ومعناها إرادته معرفة حكم شرعي لله في أمر لا نجد
الوسائل عليها له فيه وكان الصحابة يستفتون رسول الله ، مع أنه صل الله عليه
وسلم قال لهم

(فتروني ما تركتكم في شيء من ذلك من كان قبلكم بكثره مواسم واحتلافهم على
أخباراتهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء
فدعوه) ^(١)

وجاء القرآن في كل من الآيات « يسألونك » كأن الحق يعلمنا أن الصحابة
أرادوا أن يسألوا أنهم أحبوا معج الله فلأرادوا أن يسألوا حياتهم كلها على منهج الله ، وبو
كأنوا قد كرهوا منهج الله فسألوا ، لقد وجدوا أن الإسلام قد جاء ، ووجدوا أشياء في

الجاهلية وأقرها ، ووجد أشياء قام بتغييرها ؛ ولم يرد الصحابة أن يصنعوا الأشياء على أنها امتداد لصنع الجاهلية ، بل أرادوا أن يصنعوها على أنها حكم للإسلام ؛ لذلك جاءت أسمهم الكثيرة . والمنوى تكون في حكم . والسؤال يكون في حكم وفي غير حكم . وهم يطلبون الفتوى في الكلالة ، ودقة القرآن في إيجاز السؤال . يستعثونك قل الله يفتيكم في الكلالة ، وقد تقدم من قل الحديث عن الكلالة

﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إلا أن السى تقدم هذا كان عن الصلة من ناحية الأم ، وسؤال جابر بن عبد الله كان عن الصلة من ناحية الأب

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال :

(مرضت مرضاً فأتاني النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وهما ماشيان فوجداني أغشى عليّ ، ففرضاً النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم صبّ وضوءه عليّ فأفقت فإذا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقلت يا رسول الله كيف أصنع في مالي ؟ كيف أنصفي في مالي ؟ فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية الميراث) (١)

وفي رواية أخرى عن الإمام أحمد فقلت : إنه لا يرثني إلا كلالة ، فكيف الميراث ؟ فأمر الله آية العرائض . وبعض العلماء قال : إن كلمة « كلالة » مأخوذة من كلال النعب ، لأن الكلالة في الشرع هو من ليس له ولد ولا والد ، والإنسان بين حياتين ؛ حياة يعولها والد ، وعندما يكبر ويصعب تصير حياته يعولها ولد ؛ لذلك فالمدى ليس له والد ولا ولد يعيش مرمقاً ؛ فليس له والد سبق بالرعاية ، وليس به ولد بحمله في الكبر ؛ لذا سمي بالكلالة .

وبعضهم قال : إنها من الإكليل ؛ أي التاج . وهو عيط بالرأس من جوانبه والمقصود به الأقارب المحيطون بالإنسان وليس لهم به حصة أصل أي من الآباء ، أو من أدى أي من الأبناء .

« إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فيها نصيب ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » أي إن الكلالة هي أن يموت أحد وله أخت شقيقة أو أخت من أم فهي ترث النصف ، وإذا ماتت هذه الأخت ، لأخ يرثها سواء أكان شقيقاً أم أخاً لأب . وإن ترك الرجل كلالاً أختين أو أكثر فهما الثلثان مما ترك ذلك الأخ . وإن كان له إخوة من رجال وسواء ، فهي هود ، قول الحق : « وإن كانوا إخوة رجالاً وساء فتذكر مثل حظ الأنثيين » أي أن تذكر من الإخوة مثل حظ الأنثيين .

ويعظم الحق الآية : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم »

أي أنه ليس يبين أحكامه خشية أن يصيب القوم الضلال . وقد عظم سبحانه أولاً بكل سلوك ، وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما يجمع الناس جميعاً . وبذلك انتهينا بحمد الله من حواشرنا في سورة النساء



سُورَةُ الْمُنَافِقَةِ

ستقبل الآن سورة المائدة التي تن سورة النساء في الترتيب المصحفي . وسلم أن العرب له ترتيبان ، ترتيب نزل ، وترتيب مصحف . وربما يحلو لبعض الناس الذين يحاولون أن يأخذوا من الإسلام شيئاً أن يقولوا لماذا لم يرتب القرآن حسب نزوله بحيث يبدأ بأول آية نزلت منه ، وينتهي بأخر آية نزلت فيه ؟

ونقول نزل القرآن لا كتاب منبج فقط ، لكنه منبج ومعجزة ، ورسالته صل الله عليه وسلم جامعة لجميع الأمم في جميع العصور إلى أن تقوم الساعة ، لأنها جامعة وماتعة على يأتي بعد الرسول رسول ؛ لذلك يتفرد صل الله عليه وسلم بمعجزة تبقى بقاء رسالته إلى أن تقوم الساعة ، ويمتدح يعطى كل أفضية الحياة إلى أن تقوم الساعة

وكان الرسل يرسلون إلى أمم مخصوصة في أمكنة مخصوصة لزمان مخصوص ؛ لأن العالم كان في شبه انحرال لعدم وجود الآلات التي تيسر الالتقاء بين الناس ، وشاء الله سبحانه أن يحتم الرسالات برسالة محمد صل الله عليه وسلم لتكون على موعد مع رشد العقل البشري في أن يجعل العالم كله وحدة بحيث إن ظهر داء في الشرق فهو ينتقل إلى الغرب في الوقت نفسه ولذلك يجب أن يكون العلاج والمعالج واحداً .

أما رسولا صل الله عليه وسلم فقد انفراد بمعجزة تبقى ، وتظل موجودة مع المنهج ، يستطيع كل متبع لرسول الله صل الله عليه وسلم أن يقول منبج الإسلام هو القرآن ومعجزة نبي الإسلام هي القرآن ، لكن لو جاءت المعجزة على طريفة وطريقة ونمط المحزات السابقة لإخوانه السابقين من الرسل لانتهت بانتهاء زمانها بحيث تصبح خبراً وتاريخاً ، ونحن نعلم أن البحر قد انشق لموسى نعرفه خبراً ونحن لم نشهد مشهداً ، ونعرف أن عيسى عليه السلام أبرأ الأكمه والأبرص وأحب الموز بإذن الله ، ولكننا لا نرى ذلك الآن إلا خبراً ، ولولا أننا تؤمن بالقرآن ، وهو الذي فصر علينا مثل هذه الأمور ربما كنا نتوقف فيها

والذين يقولون إن لإعجاز كنن للبلاغة وللمصاحفة وللمصطفى وللبياك وأمة العرب أمة بيان يقول . لقد فامت هذه المعجزة ما كان لدى العرب من بلاغة ومصاحفة وأعجزهم وأعجمهم القرآن ، وعندما نقلنا المنهج إلى الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان أو إلى الإيطاليين أو إلى أية أمة من العالم ظل المنهج على إعجازه .

وهكذا يرى أن الله قد أراد أن يكون في القرآن جانب يظن معصراً بكل الأقوام وهي المعجزات التي لا تختلف فيها اللغات ولا تختلف فيها الأمم ، وهي المعجزات العقلية ، بمعنى أن يحبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمة الأمة ، وهو الأمم ، يعرف له نشاط في علم ولا مشاهد في ثقافة ، ويدان بأشياء تتحقق بعد معنى العزوة ويعرف بها مدعى لا يؤمنون بأنه جاء بها من عند الله

لقد حاول بعضهم أن يرموه محمداً إلى مرتبة الألوهية ، ذلك أنه قال بأسياء منه أربعة عشر قرناً وتتحقق الآن ، لا يقوها إلا عالم بما يكون في كونه ، ويكنهم عرفوا أن رسول الله أفقر ببشرته وهو بالمنهج مواكبا للأحداث ، ويرى بالمعجزة في مسائل الكونيات التي تشترك فيها كل الأمم والتي لا تختص بمعه دون بقية

مرل المنهج يحكم العالم من أمة أمة ، ثم ترقى إلى وضع وسن قانون أو دستور وأما تعود من حيث فقد كانت أمة من الرُحل وسكان الصحراء لم يجمعها قانون واحد ، بل كان لكل قبيلة قانون ، وكل بطر قانون ، ولكل أسرة في كل بطر قانون . وجاء الرسول مبعوثاً من عند الله إلى الأمة الأمية ليحييها لها معنى يعطى كل أمة الحياة إلى أن تقوم الساعة . وإذا ما فرغ قوم من قصة من قصايا مجتمعاتهم لا يجيبون حلاً لها ، لا حلاً يرونه من إله يوحى لنا أنه إنما أن يتعاقب مع ما جاء به الإسلام . وإنما أنه لا يخرج عن إطار الإسلام وأحكامه

وإذا كان القرآن في الأحكام قد جاء حسب الأحداث التي وقعت ، فهذا من إرادته حتى لتعبر من برل فيهم القرآن . وسجد في القرآن أسئلة سينرخصها رسول الله ، وكثرة الأسئلة التي تعرضها رسول الله تعتبر من الظواهر الصحية في الإيمان ، لأن الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان أحكام بأشياء أرادوا - كم هذا - إقامة حياتهم على ضوء المنهج الذي عثفوه ، ولم يكونوا كمن إسرائيل الذي قال رسول الله في شأنهم

(إنما أمرت أن يدين بقرة ولكنهم لما سجدوا شئد الله عليهم ، وأيم الله لو أنهم لم يستنوا لما بُيت لهم آخر الأبد)

أى لو لم يقولوا (وإنا إن شاء الله ل مهتدون) . لما اعتدوا إلى تلك البقرة .

وهناك أشياء أقرها الإسلام كما كانت في أجمالية لأنها أمور عقلية ومنطقية ؛ لأن الإسلام لم يأت ليبرين نظماً حاصرها ، وإنما جاء ليزيل الفساد فقط . أما الصالح بطبيعته فليبق . وإن لم يكونوا قد اعتدوا إليه فالإسلام بشرح لهم الأمر ؛ لذلك كان لابد أن ينزل نص فرأى لكل أمر كبير في حياتهم ، وحين يحىء النص القرآنى بعد أن تتصلبه الأحداث ، يتمكن في القلوب . وضرباً مثلاً لذلك :

هب أن رجلاً لديه صندوق أدوية بالمنزل ، وطراً على بعض أهله حالة صحية تستدعى دواءً معيناً ؛ ولأن الرجل لا يعرف موضع هذا الدواء ، فإنه يبحث محتويات الصندوق جميعاً ليهتدى إلى الدواء المطلوب ، وقد يمضى وقت طرهل ولا يهتدى إلى ما يريد . لكن لو أن هذا الرجل لا يملك أى دواء بالصندوق ، وأصاب ابنه صداع يسير فإنه يطلب أن يشتروا له قرصاً من الأسبرين من الصيدلية . فهذا القرص قد جاء حالة الصداع وعلاجها وانتهى الأمر .

إذاً فعندما يأتى الخلل عند وقوع الحادثة فهو تثبيت لليقين . وقد يكون الخلل موجوداً في القرآن . لكنه يغيب عنهم ولا يستطيعون الوصول إليه . ولهذا ترك الحق الأحداث تجري وجعلهم يلتفتون ويتجهون إلى السبيل لتجدهم بالخلل . ويأتى الخلل عند الحادثة فلا يصير في الأمر خلاف أو تعب . لذلك كان لا بد أن يكون للقرآن نزول حسب الأحداث ، وحين تتم الأحداث ويتم المنهج بعد ثلاث وعشرين سنة من بدء نزول القرآن يشاء الله سبحانه أن يكون ترتيب القرآن ترتيباً مصححياً .

إن كلا من الترتيب المصحفى والترتيب النزولى يعطى معجزة للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فيه سور طوال ، وآيات كثيرة ، ويعلمه جبريل . الحق هذه الآية بالمكان الفلانى . ويطرأ النسي هذه الآيات في الصلاة ويزيد عليها الآيات الجديدة ، وتتجل عظمة الرسول حين يعلى بالآيات ويزيد عليها بما نزل عليه ، وتلك مسألة مقصودة . ويقف رسول الله صلى الله عليه وسلم لنصلاة معتمداً على أن الذى أنزل عليه القرآن قال له .

﴿ سَفَرُكَ فَلَا تَمْسِكْ ﴾

(سورة الأعراس)

وعندما يقرأ الرسول وهو يقرأ الذي نزل عليه في اليوم معه متصلاً بما نزل عليه من عام قبل ذلك ، وتلك معجزة بكل المقاييس ، لأن الفرد العادي إذا تكلم في موضوع ما نثر دقائق ثم يسأله أي مرد من بعد ذلك ساعة هل تسمح بإعادة ما كنت تقول صد ساعة ؟ - فإنه لن يستطيع أن يتذكر بالحروف والمعاني ما قاله من قبل . لكن ها نحن أولاء أمام رسول يأمر صحابته أن يكتبوا ويأمر الخافضين للقرآن أن يحفظوا ، ثم يقف في الصلاة ليقرأ الآية التي نزلت من عام ملحقة بآية نزلت بعدها بستة أشهر ملحقة بآية نزلت بعدها بشهر ، ملحقة بآية نزلت بعدها بالأمس . وكان هذا قليلاً حتى أن أمر هذه القرآن ليس بيد محمد ، بل بالمررب محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي رب حروف القرآن ليقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم معداً لقوله الحق

﴿ سَفَرُكَ فَلَا تَمْسِكْ ﴾

(سورة الأعراس)

ويأتى جبريل كل عام ليرتب مع محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ويدارسه في رمضان . ويأتى جبريل في رمضان الآخر في العام الأخير من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرتب عليه القرآن مرتين

هذه فالمسألة ليست برول قرآن مصعب ، ولكن برول القرآن ثم ترتيب القرآن على صورة تحالف وحالة والمبصرة التي نزل عليها . فلو كان القرآن قد ترتب حسب المروء ، لقال بعضهم إنه مجرد تعبير عن مواقف مختلفة . لكن الحق أراد أن يعيد ترتيب القرآن ليكون معجزة أيديهم . فالقرآن ليس بأمر محمد صلى الله عليه وسلم وكل حرف نزل بهذا الترتيب مقصود به إثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبلغ بالقرآن ، مما كان لعقل بشري أن يرتب هذا الترتيب . بل ربه الذي أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه الله - سبحانه - ومعاني جل شأنه

وهكذا جاءت سورة المائة بعد سورة الباء في الترتيب المصحف ، وعندما نظر إلى سورة المائة ، نعم أولاً ما معنى المائة ؟ إن الحوا على الطعام والشراب

أو الطعام نفسه ، وقد سميت بهذا الاسم لأن عيسى عليه السلام دعا ربه أن ينزل مائدة من السماء بعد أن ألح الخواريون عليه بأن ينزلها الله لفضل سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام .

﴿ تَبٰرَكَ رَبُّنَا عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝۱۱۵﴾

(من الآية ١١٥ صورة المائة)

ويجدر الحق المناسبة الجميلة بهذا سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ لَا مَيْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرُ مَجْحِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَتَحَكَّمُ مَا يُرِيدُ ۝۱۱۶﴾

البداية - إند - عن ضرورة الوفاء بالعقود وتحسين تناول بيعة الأنعام وسورة المائة - كما نعلم - جاءت في الترتيب المصحفي بعد سورة النساء التي تتضمن الكثير من العقود الإيمانية ، فقد تضمنت سورة النساء عقود الإنكاح والصدقات والوصية والذين والميراث ، وكلها أحكام لعقود ، فكان الحق سبحانه وتعالى من بعد سورة النساء يقول له لقد عرفتم ما في سورة النساء من عقود ، يحافظوا عليها وأوفوا بها

وسحط أن سورة البقرة جاءت بعدها سورة آل عمران ، وفي كليهما حديث عن الماديين من اليهود ، وصورة النساء والمائدة تواحه أيضا المجتمع المدنى بالمدينة بعد أن كان انقراض يمكنه يوجه مسأله تربية وعرس لعقيدة الإلهية الواحدة والسوات وقد حذمت سورة البقرة وسورة آل عمران مسأله العقيدة المهجبة والأنبياء ، وسورة النساء تتضمن حسم العقيدة الحكيمية

وهو نحن أولاء آدم سورة المائة التي يقول فيها الحق : يا أيها الذين آمنوا أوفوا

بالمعقود ، والحق يحاطب المؤمن بالاسم الموصوف ، ولم يقل يا أيها المؤمن ، وهذا يدل على أن الإيمان ليس أمراً عاجزاً يمر بالإنسان فترة من الزمن ، ولكن الإيمان أمر يتجدد بتجدد الفعل حتى ينعقد المؤمن الأحكام التي جاء بها العقد الإيماني ، وحين يتوجه الحق بحطابه للمؤمن أمراً ، إنما يؤكد له أنه لا يقتصر على أحد حياته ليكلفه ، وإن كان سبحانه كرم للعالمين قد خلق الخلق وأوجد الوجود وسخره لخلق .

الله - سبحانه وتعالى - لم يستخدم هذا الحق ليأمر البشر بالإيمان ، بل دعا الناس جميعاً أولاً إلى الإيمان ، فمن آمن يرسل إليه التثنية والتكليف ويكون القول الحق ، يا أيها الذين آمنوا ، أي يا من آمنتم بالله إلهاً ، والإله لا يبدل له من صفات تتناسب الألوهية ، كسلالة القدرة وجله والحكمة والفهم ، وسبحانه لا يكلف من لم يؤمن به ، بل يدعو من لم يؤمن إلى الإيمان ، ولذلك نجد أن كل آيات الأحكام تبدأ بالقول الحق ، يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم ، لأن لكل إيمان تبعه

يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، ويعرف أن اللمعة بها سرية أفعال ، قد أوفوا ، على سبيل المثال فيها « وفي » والمصارع هو « يمين » ، وفي أفعالها « أوفوا » وفي « حسب المراحل المختلفة قوة وصحماً وكثرة وقلة ، مثال ذلك قوله الحق

﴿ وَابْرَأْهُمْ الَّذِي وَفَّى ﴾

(سورة النجم)

وقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بالكثير من الإحسان

﴿ وَإِذْ أَيْتَنَّا لِلْإِبْرَاهِيمَ رَأْيَهُمْ نَحْمِلُ فَأَتَيْنَاهُمُ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولا بد أن يكون قوله الحق : « وبرايمم الذي وفى » شرحاً لما قام به إبراهيم من مواجهة الاعتلاء ، فالتوفية هي الإتمام . والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أي عليكم يا من آمنتم بالله أن تنموا العقود ، والنتيجة إما أن يطلاق إلى الأمراد وشملها فلا ينقص فرد ، وإما أن يلتصق إلى الكميات فلا تختل كمية ، هذه من التهام . وقد يأمل إنسان بكل أصول الكتاب ويقرأها ، ويكون قد وفى قراءة كل الأجزاء ، ولكن الحق يريد أن يتقن الإنسان تنمية كل جزئية في كتاب التكليف

ومبجانه طلب ما أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وأن تؤتي الزكاة وأن تصوم رمضان وأن تنحى البيت إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، وقد يؤدي شخص كل هذه الأعمال وبذلك يكون قد قام بأداء الكليف ، لكن هناك إنسان آخر يؤدي كل جرثية بتأامها فلا يختصر شيئاً منها بل إنه يوفيها بلا تدليس .

واحق هنا يخاطب المؤمنين : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود : أي أما أمام الإيمان ، وه عقد . وشرحنا معنى الإيمان ، أما العقد فهو العلاقة الموثقة بين طرفين ، وكل كل طرف أن يلتزم بما عليه وأن يأخذ ماله . وسمى العقد عقداً ؛ لأن العقد هو الربط ، أي شيء لا ينحل من بعد ذلك . ولذلك تسمى ما يستقر في مواجيد الناس ونفوسهم «عقيدة» . لأنها الأمر المقنود ، وليس الأمر الطارئ الذي يأتي اليوم ويتسبى غداً . والشئ المقنود في نظر الفقه هو الأمر الذي لا يطفو على العقل ليبحث من جديد ، بل إنه مستقر وثابت في القلب . ويلزم مبجانه بالوفاء بالعقود . والعقود كما نعلم هي جمع لـ «عقد» وبالإسلام عقود كثيرة ، تبدأ بالعقد الأول وهو عقد الدر .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ إِنَّا كُنَّا بِكَ مُخْلِطِينَ وَمُنْفِطِينَ ۖ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ويريد مبجانه الوفاء بهذا العهد الأول فلا يأتي الإنسان ساعة التطبيق ويقر منها ، ثم تأتي إلى عهد الاستخلاف في الأرض وبه استخلف فيها آدم ودرته من بعده ، وإليك أن تظن أنك الأصل في الكون حين تدوم لك الأسباب وتذهب لك بعض الوقت . لا تظن أن الأشياء قد دانت لك بمهارتك أنت فقط ، وحين تبدر الضرر في الأرض وتروى الأرض ما علم أن الزرع ينبت بتسخير الله أرضه لك .

ولياك من الظن لحظة تركب المهر أنك الخيال افارس الذي روض المهر ، لا ، إنه تسخير الحق للفرس . وسجد الفرس في بعض الأحيان يجمع ليقع الفارس من فوق ظهره ، لعلنا ننتبه إلى الجزئية التي لا يصح أن تغيب عنا ، فلو لم يدل الله الخليل لما استطعنا أن نركبها

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّغْيَظِنَا أَنْبِيَاءَ مُنْعِمًا بِهَدْيِهِمْ فَأَتَوْهُم بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴿٧٦﴾
وَدَنَسْنَاهُمْ فِئْرًا رَّكَوْتَهُمْ وَمَتَّعْنَا بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴿٧٧﴾﴾

(سورة يس)

وعلى المؤمن أن يتذكر أيضا أن الحق سبحانه ذيل الجمل لصاحبه ، وجعل الطير الصغير يأمر الجمل فيرقد على الأرض ، يوضح عليه الأحوال الثقيلة ، ويأمره فيقوم أم إن واجه الثعبان أو الحية فهو لا يمرز على تدليلها ، وهذا نعمت من الحق لمخلوق لقدرته المطلقة ، فقد ذلل لهم الكبير ، وأمرهم أصغاب ذلك من الثعبان حتى الحسم الصغير .

﴿وَدَنَسْنَاهُمْ فِئْرًا رَّكَوْتَهُمْ وَمَتَّعْنَا بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴿٧٦﴾﴾

(سورة يس)

ومن التدليل بأن دسوخ فيه الكائنات للإنسان ، فالخيار عند الفلاح يحصل السكاد للأرض من ثقباض الضلالت الإنسان والخير والى ، ولا ينطق الخيار معترضا ، وبأن الفلاح يبرئ في حياته ويصير شيخا مدخر ، فبأمر أن يستنجم الخيار ، ويشتري له السرج يركبه وهو ذاهب للقاء للمور في المركز ، ولم يحصل الخيار في الخالتين إنه التدليل

إنك أن تظن أن مهندتك وحدها أي لإنسان هي التي ذللت الكائنات ، فلو اعتمد الأمر على المهارة وحدها ، لدلل الإنسان البرعوث الصغير الذي يهاجم في أي وقت ، وقد برعوت ذلك البرعوث الصغير حيوان الليل ، وقد تمهر أسرة بأكملها من أجل قتل برعوث الواحد

﴿مَصْعَبَ أَنْطَابٍ وَالْمَعْرُوبِ﴾

(من الآية ٧٣ سورة حج)

ولذلك أمرنا الحق أن نقول قبل البدء في أي عمل « بسم الله الرحمن الرحيم »
إنك أن تقبل على العمل بقوتك وحدها فالعمل إنما ينفع لك لأنه سبحانه قد حطمه لك ، وأنت تبدأ العمل باسم الله لأنه سبحانه الذي استخلفك وأعطى لك الكائنات للدلة

ثم هناك ذلك العهد الذى قال فيه الحق لأدم :

﴿ قَنْ أَتَّبِعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشُكُّ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

والعهد الذى قال فيه الحق :

﴿ قَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَرْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

وهذا عهد لكل البشر ، والمسلمون عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العفة بأن ينصروه ويمنعوا عنه ما يأمرون عن أنفسهم وعاهدوا الرسول فى الحديثه .

إن الحق سبحانه يأمر بالوفاء بكل العقود ، وكل ما نتج عن فطنة العقائد وهو الإيمان بالله ؛ فما جاء من الله الذى أمست به يعتبر عقداً أنت شريك فيه ، لأن العقد يكون دائماً بين طرفين ، ولم يرغم الله أحداً على الإيمان به ، ولكن الإنسان يؤمن بالله اختياراً ، ومادام المزمع قد آمن بالله من طوع اختياره ، فلا بد أن يتبع منهجه

ومن آمن هو الذى يذهب إلى الحق قائلاً : يارب إن ما تأمر به سأفعله وهذا اعتراف بالعقد . وكتابة أى عقد إيمان هو تسمية لهذا العقد والتوقيع مع الله ، وبذلك يشترك العبد مع الله فى هذا التعاقد ، لأن إيمان العبد بالله يجعله طرفاً فى العقد . والإله يشرع له ، وينفذ العبد التشريع ليتلقى الجزاء الأولى

العقد إذن قد يكون بين العبد وربه ، أو بين العبد وخلق الله اسلوبين له ، أو بين العبد ونفسه ، لكنهم أعتدوا على العقد الذى بين الإنسان ونفسه اسماً هو « العهد » وهو النذر ، كأن ينذر العبد الصيام أو الصلاة ، ويجب على العبد تنفيذ ما نذر به مادام عاهد الله على ذلك . والعقد الذى بين العبد وغيره من البشر وكذلك العقد بينه وبين نفسه إنما يتبعان من العقد الأساسى وهو العقد الأول . إنه الإيمان بالله .

إذن فقول الحق : « أولوا بالعقود » أى نفذوا ما أمر الله به حلالاً ، وامتنعوا عن

إنها بهيمة لا تفهم . وليعرف أن لم تخلق لتفهم مسائل الإنسان ، لأنها مسخرة له وقد يتعلم هو منها

ودليلنا أن الله امتن على بعض المصطفين من خلقه بأن علمهم منطلق الطير ، فقد حرّ في نفس الملهد أن رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وهو الطائر فقد فهم أن السجود لا يكون إلا لله الواحد القهار لا للشمس ، وهكذا نرى الإنسان يتعلم الكثير من أخلاق الحيوانات وهاداتها ، ولذلك نجد هولة تربية الحيوانات يتعرفون على طعام هذه الحيوانات بعد أن يتتبعوها ويعرفوا ماذا تأكل ، وعن أي شيء تبتعد ، والفلاح يقدم البرسيم للجاموس ولا يقدم له النعناع ، لأنه رأى الجاموس وهو حرّ لا يأكل النعناع بل يأكل البرسيم ، وقال الحق على لسان النمل :

﴿ أَذْهَبُوا مَسَكَنَكُمْ لَا يَخِطُّكُمْ مَلِيَمٌ وَجَنُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

نحن إذن الذين لا نفهم لغة النمل ، ونجد البهيمة محكومة بالغريرة ، لكن الإنسان يملك العقل ، لكنه يغشى عقله بالهوى .

وقول الله : « أحلت لكم » دليل على أن الذي أحلها ، جعل التحليل لها في التفسير بدليل أن الحبل إن التف حول رقبة جاموسة أو رقبة خروف وقبل أن يفتق نجد الحيوان يمد رقبته ، فيقول الناس : لقد طلب الحلال ، فتأمر الجرار . وكأنه - وهو الحيوان - يطلب الذهب لينتفع الناس به ، وكأنه يحس بالخساسة إن ضاع لحمه بلا فائدة ، وهذا دليل على أنه مدلل ، أما الحيوان غير المحلل فمن العجيب أنه لو حدث معه ذلك لما عد رقبته .

والأنعام هي المذكورة في قوله الحق :

﴿ تَحْسِبُ أَرْوَاحَهُمُ النَّفْسَ الْبَاطِنَةَ الَّتِي فِي بُحُورِهِمْ وَمِنْ أَلْسِنَتِهِمْ لَمَنْ تَقُولُ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وكذلك قول الرحمن :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آتَىٰ آتَىٰ وَيَسَّرَ آتَىٰ﴾

من الآية ١٤٤ سورة الأنعام

أيها ثمانية أزواج ، ثم احق رسول الله صلى الله عليه وسلم الطيب وحرر الوحش . ولم يحرم ، لا كل ذي ناب كالسباع وكل ذي غلب من الطير ، ولو لم يقيد الله هذا التحليل لانصراف بدون قيد ، ولأساس إلى أنفس بأكل الميتة والموتودة والمترية ولكن احق بقدا من ذلك وحرم عليه تنكح الأشباه الضلوة

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » إذن فمن حق الله عليكم أيها المؤمنون أن يوفوا بالعقود ، لأنه قدّم لكم الكون بكل أحسنه وكل عناصره لخدمكم وأحلّ أقرب الاجناس إلى الإنسان لما فيه من حياة وحس وحركة ، فلهذا « غير محرم » وأنتم حرّم إن الله يحكم ما يريد ، ولو لم يضع الحق ذلك التشريع لأكمل الإنسان - وهو محرم - بهيمة الأنعام ، وقد حرم سبحانه الصيد في أثناء الإحرام ، وكذلك وحرّم الحرم - كما يعلم - مركزه الكعبة ، وحول الكعبة مسجد .

وتختلف مناطق الإحرام وتسمى بمناطق المكاني ، فليقارن المكاني بالحج والعمرة من كان غرضه الحرم (هو المحرم) وذلك للمتنوعة من المدينة وهي (أبار على) ، وبطرحه وهي الآن (ربيع) للمتنوعة من مصر والشام المغرب ، (وبنملم) للمتنوعة من بحيرة ، (وقرّة منازل) للمتنوعة من نجد اليمن وسجد الحجاز ، (وخاب عرق) للمتنوعة من لشرق والغرفة وعبره

أما مميزات المكاني للحج من مكة فهو مكة نفسها ، أما مميزات العمرة فمكاني من بالحرم هو الخروج لأدى الحلق وهي الجمرة ثم التعميم (مسجد عائشة) ثم الحديبية

والميزات الزماني للحج شوال وهو النصفه وعشر لوال من ذي الحجة ، أما مميزات العمرة : زمانى فهو جميع السنة إلا إذا كان محرماً بالحج أو بحمرة أخرى أو كان ذلك من المنع لاشتغاله بالرمى واللبث فتمتص الإحرام بها والتعميم والجمرة والحديبية ، تلك هي حدود الحرم والصيد في حدود الحرم حرام ، في كل زمان ومن كل إنسان ، أما غير الحرم ، فالصيد حرام لمن كان محرماً فقط ، وغير بالحرم من حقه للصيد

وبذلك يؤدب الحق سبحانه وتعالى خلقه ويجعلهم على ذكر دائم لمنهج حياتهم في مكان ويقول لهم : الصيد محرم في هذا المكان ، والطعام والشراب محرم في هذا الرمان ، كصوم رمضان . وهذه الشهور عندما كسبتمون اثنا عشر شهرا . أربعة منها حُرِّم . توالفلة وذوالحجة والمحرم ورجب .

وفي الميقات يحرم الصيد على الحاج فقط ، وهذا انضباط إيمان . وعندما يأتي الإنسان إلى الميقات فهو يحرم ، أى يعبر وصحة ويلبس لباساً خاصاً بالحج ، يلبسه كل الناس ليكون الكل مواسية ، لأن الناس إنما يتميزون بهدايتهم وحيثاتهم ، فيأمر سبحانه أن يطرح الإنسان هذا التمايز من فور الإحرام . وما كان من الخلال أن يفعله المسلم قبل الميقات وقد منعه الإسلام منه لا يجرؤ على أن يفعله بعد الميقات والإحرام .

ويستطيع المسلم قبل الميقات أن يعلق ويتطيب ويصطاد ويقطع من الثمار ، لكنه ما إن يبدأ الإحرام يمتنع عن ذلك حتى يستعد لما يشعش أحياته بالوجود مع المنعم لا مع العنة ، هذا هو التهيؤ للدخول إلى بيت المنعم ، ولذلك يضيغ المسلم النعمة على جانب ليقى مع المنعم . ويمنح الإنسان أن يصيد في الحرم محرماً كان أو غير محرم ليشعر الكل أن الحرم لله فقط . وتستعد كل النفوس للقاء المهيبة ويمتنع الإنسان من أول الميقات عن أشياء كثيرة بدنية من الصيد والاستمتاع بالحقوق الزوجية ، ثم يدخل منطقة يحرم فيها الصيد على كل الناس كرمز للمهابة

ويحج المسلم في حياته مرة واحدة كأداء للمفريضة ، وفي كل مرة تحج وتفصد بيت ربك يوضح الله لك فيها . لا تشغل بالنعم لأنك ذاهب إلى المعص ، ويحج سبحانه بلحج كل الذنوب . « غير على الصيد وأنتم حُرِّم » فإن أردناها محرمين فهي صحيحة ، وإن أردناها للحرم فهي صحيحة ؛ لأن الصيد محرم في منطقته ، الحرم للمعاج أو لغيره .

ويديل الحق الآية : « إن الله يحكم ما يريد » وسبحانه بدأ الآية بقوله « يا أيها الذين آمنوا » هكذا نرى أن التديل متطابق يتفق به آخر الآية مع صدرها ، لأن الله حين يخاطب المؤمنين الذين آمنوا به ، فمن لوازم الإيمان أن يتفقدوا حكم الله الذي

أمور به ، وملازم المؤمن قد آمن بالله ، لما ظلمته إلى ما يريد ، الله من أحكام ليعلمه لكن عسوية الآية قد تجعل واحدا يمزج حجر الآية عن صدرها ، وجهه في التشكيك في الإسلام ، فيقول : إن الله يقول إنه يحكم ما يريد ، وقد لواد من الناس من يؤمر ومن لا يؤمر ، فكيف يقول : يحكم ما يريد ، ، يبي لا يؤمر الكل ؟

ويقول : لا نعرف حجر الآية عن صدرها ، لأن الله إنما يحاطب في هذه الآية من أمر به رباً ، ومن آمن بالإله يصمد ويقصد ويتجه إلى ما يريد الله من حكم ليعطيه ولا يعتقد أحد أن الكافرين يخرجون عن إرادته سبحانه في قوله : إن الله يحكم ما يريد ، والذي نورد على حكم الله يقتضيه المنطق أن يظل متمرداً على حكم الإله

لكن المتمرد على حكم الله التكليم الشرعي لا يجر ولا يملك أن يكون منظم مع نفسه ، فإن حكم الله عليه بالضعف فليقل للضعف لا ، ، ليس أصعب وأقوى لا أحد يملك من مثل هذا الأمر شيئاً المتمرد يأخذ ذلك الموت وهو غير مريض ، لماذا إذن يصنع غرور المتمرد إزاء الموت ؟

إذن هناك أمور يخضع فيها الإنسان - كل إنسان - لحكم الله وخضوع الإنسان لحكم الله في بعض الأمور أقوى من خضوع المؤمن له ، لأن المؤمن حين آمن بالله يستقبل الموت - على سبيل المثال - كحكم من الله ، أما المتمرد الذي لا يهمل ولا يؤدي أي أمر تكليمي ، ويتمرس للأخبار بما فيها موت ، فهو يعال من كل ذلك مشقة واحدة تقوى حدة استقبال المؤمن للأخبار أو الموت

إذن فتقوله الحق : إن الله يحكم ما يريد ، هو قضية عامة ، لأن الذي نورد على حكمه سبحانه فيها له فيه اختيار ، كان من الواجب أن يكون منطقياً مع نفسه ، يصمد على حكم يحريه الله عليه ، وذلك بعكس كثير من الأحكام بوصفية منها لا تسمى على هذا التمرد ، ويكون هنا حكم الله أقوى ، لأن المتمرد لن يجرؤ على الرد على أمر الله ، فلا يظن ظان أن الله جعل للاختيار في العبد حلاقة ، لكنه جعل للاختيار في العبد تقيداً ، وبالمقدرة القاهرة حلاقة ، فإن تمرد متمرد على الإيمان ، لن يجرؤ على التمرد في أشياء أخرى إذن فالله يحكم ما يريد

ومن بعد ذلك يقول الحق .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ
الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا أَمْثِلَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ
يَنْفُرُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
وَلَا يَحْرِمَكُمُ شَيْئًا قَوْمِ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ أَنْ تَعْبُدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٢٩﴾

بداية هذه الآية تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » وهي تأتي بعد
آية أحلت أشياء ، كان الحق يقول للعبد : مادمت قد أعطيت فانا أمتع عك ؛
أعطيتك أشياء وأمتعك أشياء . وسبحانه حين يحظر على الإنسان شيئاً ويمنع منه ؛
فهو يعطى هذا الشيء لآخر مؤمن ، ومادام الأمر كذلك فلا يستطيع ولا يصح أن تنظر
إلى الشيء المسلوب منك فقط بل انظر إلى المسلوب من غيرك بالنسبة لك .

وعلى سبيل المثال حين يأمرك الحق : « لا تسرق » ، فأنت شخص واحد ، وفريد
سبحانه حريتك بهذا الأمر ، وفريد في الوقت نفسه حرية كل الناس بالنسبة إليك
وعندما تقدر الأمر بالنسبة لنفسك تجد أنك المستفيد أساساً ؛ لأن كل الناس مستطيع
حكم الله بالآلا يسرقوا منك شيئاً ، وفي هذا خدمة لكل عبد . وهب أن واحداً
سرق ، إنه من يستطيع أن يسرق من كل الناس ولو سرق ألف من الناس شخصاً
واحداً فما الذي يبقى له ؟

وحين يأمر الحق العبد ألا ينظر إلى محارم غيره ، فظهر الأمر أنه تفهيد لحرمة

العدو ، لكن الواقع أنه سبحانه قد حرّك الناس كلها من أجل هذه العبد ، وأمرهم ألا يظفروا إلى محارم غيرهم

إذن ساحة موى أيها المسلم غيباً أمر به الله ، فلا تصبب دمه على حلق ، ولكن صبب الدم أيضاً على كل الناس بقلبك لك . وبما يقول الحق : «يا أيها الذين آمنوا لا تحلو شعائر الله » أي لا تجعلوا شعائر الله حلالاً . والشعائر هي معالم الدين كلها . ويقول « هذه الدونه شعائر السر » معنى ذلك أن إذا رأينا شعيراً يعرف البعد ، وكذلك أعلام النور ، فهذا عدم لضمير ، وذلك علم لا لجلل ، وثالث علم لضمير ، وكل يحافظه في مصر - على سبيل المثال - تضع بنفسها شعيراً وعلماً ، إذن فالشعير هو العلم الذي يدل على الشيء . وشعائر الله هي معالم دين الله المتكررة في « أصل » و« لا تعمل » زمان ومكان ، عقائد وأحكام

لكن الشعائر غيبت على ما سمعته مناسك الحج ، وأول عمله في مناسك الحج هي الإحرام ، أي لا نهمل الإحرام . ومن شعائر الحج الطواف ، فلا تحل شعائر الله ، ووجب عنيت أن تطوف حول البيت ، وكذلك السعي بين الصفا والمروة ، ولوقوف بعرفات ، ورمي الجمر ، كل هذه شعائر الله التي أمر ألا يجعلها المومنون ، أي أمر - سبحانه - ألا ينهكوا فيها ؛ لأن هذه الشعائر هي الضابط الإجمالي . وأن ينظر إلى أن أمر الله لكل حاج لم يحرم بالإحرام هو أمر بالعزلة بعض الوقت عن النعمة ؛ لأن الإنسان يذهب للحج في رحله إلى المنعم . وأن الإنسان يقر ملائمة الملابس موحدة ولا يتجامل فيها أحد من أحد ، لأن الناس في الحياة اليومية تتعاضد بينهم ، وتذل الملابس على مواقفهم الاجتماعية . وعندما يصنعون جميعاً ملابسهم ويرتدونها بلباساً موحداً ، تكون السنة المعبرة هي إعلان الولاء لله

وكذلك عندما يأتي الأمر باللباس يقتص الإنسان شعرة منه سواء أكان عظيمياً في مجتمعه أم فقيراً ويرى الناس جميعاً ويتفكر بعضهم إلى بعض فيجعلون أنهم على سواء على الرغم من اختلاف منازلهم وأدوارهم وتكون دلة الكبير مساوية لدلة الصغير . وذلك لضابط إيمان لا بين الإنسان والمساوي له . ولكنه الانضباط مع التكون كله ، يكن اجناسه . فالشجرة بجانب الحرم محرم على كل إنسان أن يقطعها أو يقطع جزءاً منها . وكذلك يأمس الباب في الحرم ، وكذلك الحرم والحيوانات وأيضاً يأمس

الإنسان ، لأن الجميع في حرم رب الجميع ، وتلك مسألة تصنع وعشة وروبة إيمانية في النفس البشرية . وتكون فترة الحج هي فترة الانصاف الإيماني . وتتوافق فيها كل أجناس الوجود . فالإنسان يتساوى مع الإنسان ولا يمتس الحيوان وكذلك النبات ، ويبقى الجهاد وهو خادم الجميع من أجناس الكون ، لأن الحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الحيوان ، والجهاد يخدم الكل ، وهو خادم غير محلول . ويصنع اسحق حماية للجهاد في الكعبة نفسها ، فيأمر الناس باستلام الحجر الأسود أو بتقبيله إذا تيسر ذلك أو بالإشارة إليه .

هذا السيد العلي - الإنسان - على النبات والحيوان يلتزم إلى جهاد فيعطيه ويرقره ، فالذي لا يستطيع تقبيل الحجر الأسود عليه تحته بأن يشير إليه بيده ، حتى يكون الحج مقبولاً منه ، لذلك يترحم الناس للدهاب إلى الحجر الأسود ، وهكذا يكون أجداد مصوناً في بيت الله الحرام . ويعوضه الله بأن جعله مسكاً ، وجعله شعيرة وجعل الناس تودحهم عليه وتقبله فيما لا يقبل الإنسان الحيوان أو النبات ، لكنه يقبل أجداد آدم الأجناس . وهذه قمة التوازن الوجودي . فالإنسان المختار المتعالي على الأجناس يسهب صاعراً لتقبل أو استلام الحجر الأسود بأمر الله .

ويرجم الإنسان حجراً آخر هو رمز إبليس ، وذلك حتى يعرف الإنسان أن الحجرية ليست قيمة في حد ذاتها ، ولكنها أوامر الأمر الأعلى ، حتى لا يستغنى ذهن الإنسان تعظيم الحجر ، فالحاج يقبل حجراً ويرجم ويرمي حجراً آخر

ويا أيها الذين آمنوا لا تحبوا شعائر الله ، لأن الله جعل الشعائر لتحقيق الانضباط الإيماني ، وبقاء ذكر الاستحلاف لله فلا يدعى أحد أنه أصيل في الكون ، بل الكل عبدة لله . والوجود كله هو سلسلة من الخدمة ، فالإنسان يخدم الإنسان ، والحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الإنسان والحيوان ، والجهاد يخدم الكل ، لكن لا أحد أفضل من أحد ، بل الجهاد نفسه مسبح بحمد الله ، وقد لا يسبح الإنسان .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

وهذا الأمر بعدم إخلل شعائر الله جعل كل شميرة تأخذ حقا من التقدير والاحترام ، ولا يظن ذلك أن شعيرة من الشعائر ستأخذ لخاصة تقديساً ذاتياً ، بل كله تقديس موهوب من الله وبه الله

« لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، أي لا تحلوا الشهر الحرام ، أي حديكم أن تحرموا هذا الشهر الحرام ، فقد جعله الله شهراً حراماً لمصلحة الإنسان ، ويحمي به سبحانه عزة وكرامته الإنسان أمام عدوه ، يحمي التكبر نفس الضعيف أمام القوى القوي القادر على القتال قد تهو به إلى أن يتوقف عن الحرب فترة يلتقط فيه الأنفاس ، ولو فعل ذلك لكان إصلاً لتدخل أمام الخصم ، ولتلت يأن الحلو برمان يقول فيه أنا حرمت الحرب في الأشهر الحرم هنا يقول المقاتل لعدوه الله القتال في الأشهر الحرم ، وتلك حماية للإنسان ، وليدوي لثة الأمن والسلامة والطمأنينة ، فقد يمشق الإنسان القوى السلام من بعد ذلك

لماذا إذن جاء الحق هنا بشهر الحرام بينما نحن نعرف أن الأشهر الحرم أربعة ؟ إن حرمنا إلى الأشهر الحرم كجس هي تطلق على كل شهر من الشهور الأربعة ، وإد اعنبر الشهر الحرم أشهر الحج وهي شوال ودو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة ، فالحق صحيح ويعرف أن لأشهر الحرم أربعة ، ثلاثة متصلة ، وهي ذو القعدة ودو الحجة والحرم وواحد منعزل هو رجب ، وسبحانه وتعالى يعلم أن كل عمل من الأعمال لا يد له من زمان ولا يد له من مكان ، فحين لا يوجد حدث ، لا يوجد زمان ولا مكان ، ولم يأت الزمان والمكان إلا بعد أن أحدث الله في كونه شيئاً ولا يقول واحد : متى كان الله ولا أين كان الله ، لأن «حق» و«أين» من محوقات الله وجعل سبحانه لكل حدث زماناً ومكاناً ، وكذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليحمي عزة الناس ولجعل لهم من تشريعه الرحيم ستاراً يستتر فيه ضعيفهم ، ويرجع فيه قويم لهم يرفعون ويرجع عن غبه وظلمه فالوجد أماكن حرمة ، وأزمته حرمة ، والأماكن المحرمة هي التي عند الحرم

﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾

(س الآية ٩٧ سورة آل عمران)

حيث يؤمن الإنسان أخاه الإنسان إذا ما دخل الحرم وكذلك في الزمان جعل سبحانه لأشهر الحرم

لقد أخذ الحق الحدث بلزمان والمكان وكان اقوى قديماً بحارب ويقترّب من النصر وعندما يهل الشهر الحرام يستمر في الحرب ، ثم يعلن أن الشهر الحرام هو الذي سيأتي بعد الحرب ، ولذلك يأمر سبحانه بعدم تغيير زمان الشهر الحرام ؛ لأن الله يريد بالشهر الحرام أن يهيئ شعار الحرب .

وبعد ذلك يقول الحق « ولا الهدى » والهدى هو ما يهدي إلى الحرم ؛ وهو جمع هدية ، وهاء من يقدم للكعبة هدية ، ومجموع الهدايا تسمى هدياً . وهدى الحرم إنما جعله الله للحرم ؛ فالحرم قديماً كان بوادٍ غير ذي زرع ، ولم تكن به حيوانات كثيرة وكانوا يأتون بالهدى معهم عندما يحجون ، لذلك حرم الله الاقتراب من الهدى لأنها هدايا إلى الحرم . والحجيج أفواج كثيرة ، وعندما يأتي أناس كثيرون في وادٍ غير ذي زرع يحتاجون إلى طعام ، ولا يصح أن يجعل المؤمن الهدى لعبير ما أهدي إليه ، فقد يشترك إنسان صاحب معه الهدى إلى أكل اللحم وهو في الطريق إلى الكعبة فيدسحه لياكل منه ؛ وهذا العمل حرام ، لأن الهدى إنما جاء إلى الحرم ويجب أن يُهدى ويقدم إلى الحرم . وعمل الإنسان أن يصون هدى غيره أيضاً

« ولا الفلاند » وهي جمع « قلادة » والقلادة هي ما تعلق بالرقبة . وقديماً كان الدامب إلى الحج يحاف من الهدى أن يشرده ، لذلك كانوا يضعون حول عنق الهدى قلادة حتى يعرف من يراه أنه « هدى » ، داهب إلى الحرم . والهدى الأول هو الهدى العام الذي لا قلادة حول عنقه ، والفلاند تعبر عن الهدى الذي توجد حول رقبته قلادة وتدل عليه وتكون علامة على أنه مهدي إلى الحرم ، وقد يكون الهدي حتى عن استحلال الفلادة التي حول رقبة الهدى حتى لا تصيح الحكمة . ولحق سبحانه وتعالى حين يعبر بعبارة ما فهو يعبر بعبارة تؤدي المعنى ببلاغة .

وكانوا قديماً عندما لا يجدون قلادة يأخذون لحاء الشجر وقشره ويقطعون منه قطعة ويربطونها حول رقبة الهدى ، وذلك حتى يعرف الناس أن هذا هدى داهب إلى الحرم . ويصن سبحانه اقتنيات الواقد إليه لا من الموت العادي ولكن يطعمه من اللحم أيضاً ، ويجعل ذلك من ضمن الماسك . أليس هو من دعا هؤلاء الناس إلى الحج ؟ أليس هؤلاء هم صيوف الرحمن ؟!

إن الإنسان ما يعوم بدبح الديائح لصيوفه ، فما بالنا ما نحن الأعلى سبحانه

وتعدي ؟ لذلك جعل الهدى طعاماً لهيروه وتردحم الس في عبي وعرفات يكثر لا حلودها ، ولا يد أن يكرمهم الله بالك وأطيب الطعام ، والفقر يذهب من الدبح ويأخذ من اللحم أطييه ويقوم بتجميعه في هواء والشمع ويجريه يطعمه من طويده وهو ما يعرف ويسمى بالقديد . والحق سبحانه وتعالى يأق بالحقكم بطريقه ما مشهور البلاغة ، فهو يحرم حتى قلاده الهدى أن يلمسها أحد

ويصون سبحانه ؟ ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلاند ولا آمين ألهيت الحرمه يتنونه فضلاً من ربيهم ورضواناً ، أي لا نعو أنما دلهيت من ييب الله الحرمه ولا تصلوهم عن السيل ، فهم وعد الله وقد جاء هذا القول قبل أن يسر الحو قوله

﴿ إِنَّمَا أَنُشِيرُكَونَ نَحْسَرُ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة

وكان خير السدعي محجون بيت الله المحرم من قبل روي هذه الآية ، فلم يكر الحكم قد صدر وتسامل هل لكانرون بالله يبنون فضلاً من الله ؟ نعم بفضل الله يصر الجميع حتى الكافر ، لكن رضوان الله لا يكون على الكافر والفصل من التجارة التي كانوا يتاجرون بها ، ومفضل الله موجود حتى في أياما هد على الكفر أيضاً

لكن كيف يتأق رضوان الله على الكافر ؟ إنه رضوان الله لتوهم في معتقدتهم فهم يعتقدون أنهم يعملون ذلك برضاء الله ونجى دقة الفرائ حين يقول : فضلاً من ربيهم ورضواناً ، ، فهم يقل فضلاً من الله ورضواناً ، لأن العبد المؤمن هو من يختص بتعهد التكليف الإيمانية

والله عطاء عطاء الربوبية ، فهو المولى الذي استدمى إلى الكون المؤمر والكافر وسبحانه - سحر الأسباب لكل ، هذه هو عطاء الربوبية ، والشعر تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية فيتمثل في : اقل ، وه لا تعمل ، . ويقول الحق : لا يتنونه فضلاً من ربيهم . إذن فجناتها المنهج الإيمان - اقل ولا تعمل - ليست في باهم ومن بعد ذلك يقول الحق ، : وإذا حللتم فاصطادوا ، أي إذ انتهى الإحرام ، وبعد أن يخرج الحاج من الحرم ويتحلل من إحرامه فمن حقه أن يصطاد

ولذلك قال الحق لرسوله

تصنيف

أما حين يرى الكافر أن المؤمن لم يعتد امتثالاً لأمر الله بذلك ، عندئذ يرى أن الإسلام أعاد صياغة أهله بما يحقق لهم السمو النفسى الذى يتعالى عن الضعف والحققد والعصية ، ويعبر الأداء القرآنى عن ذلك بذقة ، فلم يأت الدين ليكبت عواطف أو

عزّوا ولا يحمل الإنسان أفلاطونياً كي يدعوا ولم يقل اكتسبوا بفضلكم ، ولكم
أوضح لنا أي لا يحملكم كرههم ويفضهم على أن تصدوا عليهم فسبحان
لا يجمع الشان ، وهو البغض ، لأنه مسألة عاطفة

فسبحانه يعلم أن مع ذلك إن يكنت المؤمنين وكأنه يطلب منهم لأمر المحال
لذلك فالبغض من حرية الإنسان ولكن إياك أن يحملك البغض أو الكره على أن
تحتسب عليهم

وبرى سيد عمر بن الخطاب عليه قاتل أخيه ويدبر الخطاب ، بقول له أحسنهم هـ
قاتل ويد ، فيقول عمر : وهذا أصعب به وقد هداه الله إلى الإسلام ، فإذا كاد
الإسلام حب الكفر ألا يجب دم أخ لعمر ؟ ولكن عمر - رضي الله عنه - يقول لقاتل
أخيه :

عندما تراه يخ وجهك عني . فان ذلك لأنه يعرف دور العاطفة ويعرف أنه
لا يجب قاتل أخيه ، فقال قاتل أخى عمر ، وهل عدم حبك لى بمعنى حقاً من
حقوقى ؟ فقال عمر . لا بل تأخذ حقوقك كلها هناك قاتل أخى عمر
لا صبر ، إن يكنى عى أحب الساء فالإيمان هو الذى مع عمر من أن يتنقم من
قاتل أخيه

ولا يجرمكم شأن قوم أن يحدوكم عن المسجد الحرام ان تحتلوه ، أى أنه
سبحانه لا يمنع مواجيد المؤمنين ووجدانهم وصياتهم ولوجهم لى تفعل بالبغض
والكره ، لأنه يعلم أن ذلك لا يطبقه الإنسان ، لأنها أمور عاطفية والمواظف
لا يقس لها بتشريع . ولكن اعدوا أن هذه المواظف لا يبيح لكم الاعتداء

وهكذا يتدخل الإسلام فى الحركة الإنسانية ليعمل الإنسان أمراً أو يتجنب فعل
أمر ما ، فالإسلام لا يتدخل إلا فى النزوع وهى تعبیر عن مرحلة لاحقة للإدراك
الذى يسبب للإنسان المعاصرة محبة أو كراهية ، ثم يمر الإنسان عن هذه العاطفة
بالنزوع ، لأن مظاهر الشعور ثلاثة إدراك ، وجدان ، وبروع ، حين يمشى
إنسان فى مكان فيه أهله ويرى المودة هناك إدراك ، ولا يجمع الإسلام هذا

الإدراك . وعندما يعجب الإنسان بالوردة ويحبها هذه حرية ، لكن أن تمتد يده لتقطف الوردة فهذا ممنوع .

إن التشريع لا يتدخل في العممية الروحية فقط لا في محال واحد وهو ما يتعلق بالمرأة . إن الإسلام يتدخل من أولى المراحل من مرحلة الإدراك . فالرجل حين يرى امرأة حيلة هذه إدراك ، وعندما يشغل قلبه بحبها عهد واحد ، لكن أن يقترب منها الإنسان فهذا نزوع

لنفسه راف لحق بالرجل أن أمره أن يعص البصر من البداية ، لأن الإنسان لن يستطيع مطلقاً أن يفصل بين الإدراك والوجدان والروع . فكأن من الإدراك والوجدان يصعد تفاعلاً في التركيب لتكبرى للرجل . فيما أن يعف الإنسان نفسه ويكت أحاسيسه ، وإما ألا يعف في أعراض النفس ، لذلك يحرم التشريع الإنسان من أول الأمر حين يأمره بعض النصرة

﴿ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَعْصُونَ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْصِينَ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ

(سورة النور)

هنا يتدخل الشرع من أول مرحلة الإدراك ، فعنده لا يمكن فصل الزرع عن الواحد ، لأن رؤية المرأة تحدث تفاعلاً كسائياً في نفس الرجل ، وكذلك الرجل يحدث تفاعلاً كسائياً في نفس المرأة . أما الوردة فلا تحدث مثل هذا التفاعل . ويستطيع الإنسان اقتناء وهرية للوردة .

إنه فإراد أن الحق سبحانه وتعالى لم يجمع المؤمنين أن نجيش عوطه البشرية بالعص والكره ، لأن ذلك يصعد مطلوب للإنسان . وبعض من أعداء الإسلام يقول آيات القرآن تنص على : لأنه يقول

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَدُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

«أَنَّهُمْ أَوْ أَيَّاهُمْ»

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

والسبب الإيمان يمنع ذلك

ويقول القرآن في موضع آخر

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ يُرِيدُونَ عِزَّ اللَّهِ وَلَهُ الْعِزُّ كُلُّهُ وَمَنْ يَرِيسْ إِلَهُ سِوَاهُ اللَّهِ فَقَدْ طَعَنَ عَلَى اللَّهِ وَصَدَّحِبَّهُ فِي اللَّهِ

مَعْرُوفًا﴾

(من الآية ٥٠ سورة المائدة)

والذي يتمنى جيداً يعرف أن المعروف يصعبه الإنسان مع من يجب ومن لا يجب . أما الود فهو عمل القلب ، وهذا ما نرى عنه الله بالعبادة للبشرى به ، أما المعروف فالتسليم مطالب أن يصعبه حتى بالنسبة لمن يكرهه

« ولا تجرمكم شأن قوم أن يملوكم من السجود والحرام ، إذن فالجنى لم يحمى النفس ولكنه مع السجود المترتب على الشأن ولو وجد سبب من الأسباب كم حدث في صحاح الحديثية وبعد ذلك الأمر « وتعلموا على البر والتقوى »

وهذه الآية هي التي تجعل مسألة الإيمان قضية عالمية ، وكلمة « تعاون » هي وزد « فاعمل » ، والتعاون هنا من اثنين ، مثلاً نقول « تشرك » ، « هي نفسى اثنين » كأن نقول تشرك زيد وعمر أو « شارك زيد عمر » أو شارك عمرو زيداً وكلاهما متساو . اللهم إلا تخليب واحد بأن يأخذ فاعلاً مرة ومفعولاً مرة ثانية ، والفعل في هذه الحالة فاعل ومفعول في آن واحد ، والمفعول أيضاً فاعل في الوقت نفسه

ومثال ذلك قول « قاتل فلان فلاناً » أى أن الاثنين اشتركوا في قتال أى معاملة وساعة يأخذ اثنان في فعل واحد ، فهناك فاعل ومفعول . وهناك فرق بين أن تقول : « لمر فلاناً » هاتفتوب هنا لمر بواحد بالمعنى الآخر

راجع أصله ومخرج أحاديثه الدكتور محمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

وهذا يختلف عن القول : تعاون مع فلان ، أى أن تشاركاً معاً في المعاونة .
ومسائل الحياة أكثر من أن تستوعبها موهبة واحدة . فانت حين تبني بيتاً تحتاج إلى من
يحفر الأساس ويبنى الجدران . ومن يصنع الطوب ومن يصنع الأسمنت ومن يصنع
الحديد ، ولا يستطيع إنسان واحد أن يتعلم كل هذه الحرف ليبنى بيتاً ، لكن التعاون
خصص لكل إنسان عملاً يقوم به ، فهناك متخصص في كل جزئية يحتاج إليها
الإنسان في حياة الملاهي ، والطب ، والصيانة وغيرها من أوجه احتياجات
الحياة ، والحق يأمر : « وتعاونوا » ليسير دولاب الحياة ويستفيد الإنسان من كل
المواهب لقله إغلاصه في أداء عمله ، « وتعاونوا » هي أن تأخذ بشيء فيه تتفاعل ما ،
ومعنى الشيء الذي فيه تتفاعل أنه يوجد « معين » و « معان » .

ولكن المعين لا يظل دائماً معينا ، بل سيتقلب في يوم ما إلى أن يكون مُعانا ،
والمعان لا يظل مُعانا ، بل سيأت وقت يصير فيه مُعينا ، وهذا هو التفاعل الذي تحتاج
إليه القضية الحياة التي شاءها الله للإنسان الخليفة في الأرض والمطالب أن يعبد الله
الذي لا شريك له ، وأن يعمر هذه الأرض . ولا تتأتى عمارة الأرض إلا بالحركة
فيها ، والحركة في الأرض أوسع من أن تتحملها الطاقة النفسية لفرد واحد ، بل
لا بد أن تتكاتف الطاقات كلها لإنشاء هذه العمارة .

إننا حين نبني عمارة واحدة نستخدم أجهزة كثيرة لطاقات كثيرة بداية من المهندس
الذي يرفع مساحة القطعة من الأرض ويرسمها ، وإن شاء الترقى في صنعته يصنع
نموذجاً مجسداً لما يرحب في بنائه ، وبعد ذلك يأتي الحافر ليحفر في الأرض ، ثم من
يضع الأساس ، ومن يضع الحديد . ومن يصنع « الخرسانة » المسلحة .

ثم يأتي من يرفع البناء ، ومن يقوم بالأعمال الصحية من توصيلات للمياه
والمجاري ، ثم يأتي من يصمم التوصيلات الكهربائية ، وهكذا تتعاون طاقات كثيرة
لبنائه واحد ، ولا تتحمله طاقة إنسان واحد .

إذن فالتعاون أمر ضروري للاستخلاف في الحياة . ومدام الاستخلاف في الحياة
يفتضي من الإنسان عمارة هذه الحياة ، وعمارة الحياة تقتضي ألا تفسد الشيء الصالح
بل تزيده صلاحاً ، وحين يقول الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على

الإثم والعنوان ، أى أنه يريد كونه عامراً لا كونه عبثاً ، والشئ المصالح في ذاته بما
على صلاحه ، إذن ضرورة الحياة تتطلب منا أن نتصون على الخير لا على الإثم

والبر ، ما هو ؟ الخير هو ما اطمأنت إليه نفسك ، والإثم ما حاك في صدر
وخشيت أن يطلع عليه أحد ، فبإذن إليك أمر تريد أن تفعله وتخاف أن يرا
غيرك وانت ترتكبه فهذا هو الإثم ، لأنه لو لم يكن إلهاً لأحييت أن يراك الناس وأن
تفعل ذلك ، إذن قوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإ
والعنوان » هو أمر لكل جماعة أن تتعاون على الخير ، وهذه مناسبة لأقول لكم
جماعة :

تعاونوا معاً بشرط ألا تجعلوا جمعياتكم نشاطاً ينسب إلى غير دينكم ، مثال ذلك
الجمعيات المسماة بـ « الروتاري » أو « الماسونية » ، ويقال : إن نشاطها خيرى
ونقول : كل جمعية خيرية على العيون والرأس ولكن لماذا تكونونها وانتم تظنون لم
الغرب ؟ لماذا لا تصنعون الخير باسم دينكم فيعرف العالم أن هذا خير قادم من بلاد
مسلمة ، والخير كل الخير ألا تأخذ هذه الأسماء الأجنبية وتظننها على جمعياتكم
لا يظن ظان أن الخير يصنعه غيرنا ، وإن كان لئلا تأخذوا مطلقاً على العمل الخيري
للعمل من خلال الدين الإسلامي ، ولنعلم كل إنسان أن الدين طلب من أن تكون
كل جمعية للخير ، وهذا ما يجب أن يستقر في الأذهان حتى لا يأخذ الظن الخاص
كل من يصيه غير من هذه الجمعيات بأن الخير قادم من غير دين الإسلام

إننا مكلفون بنسبة الخير الذي نقوم به إلى ديننا ، لأن ديننا أمرنا به وحشاً عليه
وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيراً إلى القيم حتى يتسرف من الخارج ، بل في دينه
الإسلام ما يديننا جميعاً من كل هؤلاء ، وإذا كنا نعمل الخير ونقدم الخدمة الاجتماعية
لنفسنا فليدنا سميها هذا الاسم وننسبها إلى قوم آخرين ، ولنقرأ جميعاً قول الحق
سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢٠)

(سورة هود)

فمن الإنسان منا أن يعمل الخير وهو يعلن أن الإسلام يأمره بذلك ، ولا يـ

عمل الخير إلى « الرونتاري » أو غير ذلك من الجمعيات . فنسبة الخير من المسلم إلى جمعيات خارجة عن الإسلام حرام على المسلم ؛ لأنه تعاون ليس الله ، والحق يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو يريد ما أن نبقي الخير وأن نمنع المظلم ، وعلى كل ما أن يعرف أنه لا يستطيع وحده أن يقيم كل أمانة الخير .

وقد نسال الفقير صاحب الثوب الواحد من أين أتى برغيف الخبز ، فيشير إلى بقال أعطاه هذا الرغيف . وبلغت إلى أن الله قد سخر هذا البقال أن يأتي بالخبز ليشتري منه كل الناس ، ويتصدق ببعضه على الفقير . وهذا تيسير لأمره الله . وعندما نذهب إلى المحبز ، نجد أن الدقيق جاء إلى المخبر من المطحن ، وفي المطحن نجد عشرات العمال والمهندسين يعملون من أجل طحن الدقيق الذائب للمحبز ليخبزه واحد ، ويخبزه آخر ، ويخبه ثالث .

ويجب أن نلتفت هنا إلى قدرة الله الذي سخر بعضا من المولدين الذين فكروا في خير أنفسهم واشتروا هذه الآلات الضخمة للمطحن وإنتاج الخبز ، وهي آلات لا يستطيع الفرد أن يشتريها بمفرده ، لارتفاع ثمنها وثأل من الدول الأجنبية ، وتلك الدول فيها من المعامل والعلماء الذين يدرسون الحركة والطاقة من أجل تصميم هذه الأجهزة ، ليأكل الإنسان رغيفا واحدا .

هذه هي مشقة الحق من أجل أن تنظم كل حركة الحياة ؛ فالرغيف يعرضه البقال ، وحمل فيه الخباز ومن قبله الطحان ، والمعجان ومن استورد الآلة ؛ ومن صممها ، وشاركت فيه المدرسة التي خدمت المهندس الذي صمم الآلة ؛ كل ذلك عمل فيه تعاون من أجل خدمة رغيف الخبز ، على الرغم من أن الإنسان منا لا يهكر في رغيف الخبز إلا ساعة أن يجرع .

إذن فحركة الحياة كلها تم بناؤها على التعاون . لكن ماذا إن تعاون الناس على الإثم ؟ إنهم إن فعلوا ذلك يندمون الخير ؛ لأن التعاون على الإثم إنما يبدأ من كل من يمين على أمر يخالف أمر الله ، وأوامر الله تنحصر في « افعل » و « لا تفعل » ، ما ليس فيه « افعل » و « لا تفعل » فهو مباح ، إن شئت فعلته وإن شئت لا تفعله .

والذى يأمر بتطبيق « اعمل » ويحزم الأمر مع « لا تفعل » ويبى عنه ويحرم من يفعله هو متعاون على البر والتقوى

ومن يحمل ضد ذلك ؟ يتعاون على الإثم والمعدوان ؛ لأنه ينقل الأعمال من دائرة « اعمل » إلى دائرة « لا تفعل » . وينقل النواهي من « لا تفعل » إلى دائرة « اعمل » ؛ هذا هو التعاون على الإثم

وقوله الحق . « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والمعدوان » صوب عبارة الكون وصيغ مع العصاد في الكون فالذى يرتقى والذى يسفل عملية الرثوة ، وهو الوسيط والسير بين الرشى وإعرشى ويسمى الرثش والذى يحمل الحجر والذى بدلس ، كل هؤلاء متعاونون على الإثم والمعدوان ، حتى البواب الذى يجلس على باب عبارة ويصمم أن بها شقة تدار لأعمال مشروعه ويأخذ ثمن ذلك هو متعاون على الإثم

يقول لكل هؤلاء - إياكم أن تعتنوا بـ يدوه عليكم فعل الإثم ؛ لكن لسطر مصير كل مسكهم هل يترك الله أمثالكم ذوب أن ينهى الواحد منهم حياته بمأساة ، حتى امرأة التى استترعت الناس بجهاها ، تنتهى حياتها بالفضك من العيش ثم لا تجد مأوى إلا بقلوب الرحيمة التى لم تفتش بهذا الحمال ولم تمنع به في الحرام ؛ لأن الرجل ينظر إلى امرأة أهلته عن الإثم سيتذكر كل المصائب التى جادته منها يحكمها

لقد أراد الحق بهذا عدالة في الكون ليستقيم ، وكل من يأخذ شيئاً من إثم يكتوى بنار هذا الإثم في الحياة ، وكل فرد فيكم مطالب بعمل حصر وإحصاء لذلك الذى جاءه من غرقه وحلاله ويكتبه ، والعرش الذى جاءه من حرام وبعد ذلك يقوم بعمل حصر وإحصاء تلكوارث التى أصبته وكم كلفه من مصائب

إنه لو حصل ذلك لوجد أن الكوارث تأخذ كل الحرام ويجوز على المال الذى كسبه من حلال ولا تختلف هذه المسألة أبداً ولا يتركها الله للأخرة ؛ فسبحانه يريد أن يعيد نظام الكون ، وإلا كيف يشهد من لا يؤمن يوم الحساب قدرة الله على إجراء التوازن في كونه ؟ إن الحق أراد الحساب في الدنيا حتى لا يعيد من لا يؤمن يوم الحساب في كون الله .

إن كل معرود صوب يرى مصير معرود مسبقه . كذلك الذين يمتنعون بشركات الإثم في هذه الدنيا يجب أن يعطوا إلى نفوسهم قبل أن يموتهم الأوان ، المعذور فقط هم الأبطال الذين لا نضج لهم ولا حراية ، لأنهم يعيشون من أموال الإثم . لكن ما إن يبلغ الولد الرشد وكذلك البنت ثم ترى مالا يتدفق عليها من مصدر غير حل ، عليها أن تستحي من شراء « فستان » من هذا المال أو أن تأكل منه لقمة خبز ، وليفطن الإنسان أن الله قد أباح للإنسان أن يسأل عن مصدر المال حتى لا يأخذ لنفسه من المال الموبوء الخبيث . وأن يسأل الإنسان الصدقة خير من أن يصرف على نفسه مالا موبوءا . ولن يترك الحق مثل هذا الإنسان سائلا أبداً .

وليكتب كل واحد منكم هذا القول الكريم أمامه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وليجعلها مبرأناً يرن بها صبور الذين يراهم في الكون ، حتى ولو كانت صورة سائق اتاكسي الذي يدلس على رجل وامرأة في طريق مظلم ويأخذ أجراً على هذا ، ليحسب هذا الرجل النقود التي ستأتى من هذا الباب ، وليحسب النقود التي ستخرج على ألم فيه ، أو ألم فيس يرعى من ولد أو بنت

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وصور العدوان شقي يعانى منها المجتمع وتهزه بعنف ، عدوان على الرقت لأن الإنسان يأخذ أجراً على العمل ولا يقرم به ، وعدوان يضر به إنساناً بأن يأخذ حقه أو أن يرتشى ، كل ذلك عدوان . وحتى يصير المجتمع مجتمعا إيمانياً سليماً لا بد أن يحافظ على قضية الاستخلاف في الأرض ، وأن يعلم أن هذا يقتضى عمارة الكون وعدم الإفلاس فيه .

« ولا تعاونوا على الإثم والعدوان وانترو الله إن الله شديد العقاب » فكان هذه المخالفات السابقة التي تحدث هي نتيجة عدم التعاون على البر ، ونتيجة التعاون على الإثم والعدوان ، وهذه المخالفة عقاب شديد ، أما التقوى فمعناها أن نفعل ما أمر به الله أن نفعله ، وأن نتقى عما نهى الله عنه ، فلا ننفل فعلاً من دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » وكذلك العكس . وبذلك نجعل بيتنا ريوماً الجبار وقاية .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً ، فيقولون . بعض من آيات القرآن تقول : « اتقوا النار » ، وبعض الآيات تقول :

« اتقوا الله » فهل النار وقاية ؟ وهل الله وقاية ؟ وهؤلاء لا يفهمون أن « اتقوا » تعني اجعل بينك وبين ما يؤذيك وتضيق ، فـ « اتقوا الله » تعني اجعل بينك وبين غضب الله وقاية وهي الذموم التي يفتنها الإنسان بتفريط أوامر الله بـ « العمل » والامتناع لنواهي الله بـ « لا تفعل » .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية ، فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

ويذهل الحق الآية « إن الله شديد العقاب » بأن ما يجعل الناس يتهاونون ويتعطلون على البر ويعتزلون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعهم رادعاً ، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحسن المجتمع أفراده من الإثم . وإن صار المجتمع وهيئة إجماع لقاطع المخالفين وأشعرهم بأنهم متهودون ، وساعة يرى أمثال هؤلاء الناس أنهم متهودون من المجتمع الإيماني فهم يرجعون إلى المذبح الحق .

فما يفرى الناس على الجرائم الكبيرة إلا تهاون المجتمع في الحرام الصغيرة وللملئح يلتفت الحق أنه لن يترك الأمر كما تركه بعض من خلقه ، لأن الخلق قد يجاملون وقد لا يفتقروا أمام ما يفعله بعضهم من أثم ، لكن الله شديد العقاب ، سيأتي العقاب في وقت ليس للفرد فيه جاء من مال أو حسب أو سبب يحصيه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع في أن تتعطل على الإثم فسلوكك أن تخاف الله ، لأن عقابه شديد

وكيف يأتي العقاب إلى المذنب ؟ لا نعرف ، لأننا لسنا آفة ، وسجد العقاب يشتمل إلى المذنب في نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما اعتقه من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس لمعالجة نفسه ، أو يعالج من يجب . ويجنود غضب الله قد لا تتأخر للأخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها وهذه هي شدة العقاب

وبعد ذلك يأتي الحق بأمر يحرم أشياء بعد أن حلل الله أشياء في قوله « أحلت لكم بهيمة الأنعام » . فقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين تخصيصها لما أحل من الأنعام . فقد حلل الله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر

اثين . وأحق الرسول بها الغباء وبقر الوحش ، وكل ذات أربع من حيوان البحر ،
وكان قول الله : « إلا ما بئل عليكم » مؤدناً بأن هناك تحريماً قانعاً مبالغاً ، وبين الحق
بالقرآن ما يحرمه الله :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ
لِغَيْرِ اللَّهِ يَدُهُ وَالْمُسْخَرَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيعَةُ
وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ
تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْوَاجِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَمُسُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْرٍ فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾

الآية تبدأ بقوله : « حرمت عليكم الميتة » ، ويلاحظ أن البدلية فعل ماضي
للمجهول . عن الرغم من أن الفاعل في التحريم واضح وهو الله . وإما بفتح سبجانه على
أحد . فالإنسان نفسه اشترك في العقد الإيمان مع ربه فالقرمه - سبجانه - والعبد من
جانبه التزم ، لذلك يقول الحق : « حرمت » ، حرما سبجانه كإله وشاركه في ذلك
العبد الذي آمن بالله إياها .

والميتة هي التي ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للميتة ، أي
ماتت حتف أنفها ، فذهاب الحياة له طريقان . طريق هو الموت أي بدون نقض
بسة ، وطريق بنقض لبسة ؛ فعندما يموت الإنسان كائناً آخر يمنع عنه النفس وفي هذا
إزهاق للروح بنقض شيء في البسة ؛ لأن النفس أمر ضروري ، وقد يرهق الإنسان

وحا آخر يصره بالوصاى ، لان الروح لا تحل إلا فى جسد له مواصفات خاصة

لكن هناك جوارح يمكن أن يبقى الروح فى لحسم هربا ، والمثال على ذلك اليد ، قطعت ، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب بجزء مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مزال حيا ، وأقصى مدة حياة المخ دون هواء سبع دقائق فى حالات نادرة . فما أن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث بلوى . ولذلك رف الأطباء الموت الإكلينيكى بأنه توقف المخ . إذن فهناك موت ، وهناك جن ، فى كليهما ذهب لروح

وفى الموت تذهب روح أولاً ، وفى القتل تذهب الروح بسبب نقص الية لينة هى التى دعيت منها الحياة بدون نقص الية ، ومن رحمه الله أن حرم الميتة ، بها حانت بسبب لا يراه فى عضو من أعضائها ، حتى لا يأكلها بدانها

وكذلك حرم الدم ، وهو السائل الذى يجرى فى الأوردة والشرايين ويعطى الجسم نفسه والحرارة وينقل الغذاء ، ولذا لم يجالان فى الحريك ، فهو يحمل الفضلات من كل والرتة ، وهناك دم يقى يحمل الغذاء ، والأوعية الدموية بها لونان من الدم فاسد ودم صليح . وعندما نأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصليح ويكون فيه فاسد النوع الذى لم يخرج منه الشوائب التى فى الكلى والرتة ، وبذلك يسمونه الدم مسروح ، أى اجارى ، وكانوا يأخذونه قديما ويألون به لأمعاء الدبائح ويقومون به ويأكلونه .

وهناك دم غير فاسد ، مثال ذلك الكبد ، فهو قطعة متوحدة ، وكذلك الطحال ، سبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أحببت لكم ميتتان وفمان ، فاما ميتتان فالكبد والطحال ، واما فمان فالكبد والطحال)^{١١٦} .

إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم ، لكن إذا جتا لدم المسروح فهو لم . والحكمة فى تحليل السمك والجراد هى عدم وجود نفس سائله بها ، فليس

(ربه أحمد وابن ماجه والدارقطنى

في لحمها دم سائل ، وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم . من يوجد فقط عند الأغشية التي في الرأس ولا يوجد في شعيراته . وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه ، وكذلك الجراد .

ويأتي بعد ذلك في سلسلة المحرمات : ولحم الخنزير . ولا يقولن مؤمن : لماذا حرم الله لحم الخنزير ؟ لقد فحب العلم إلى كل مبحث ليبرف لماذا حرم الله الميتة وكذلك الدم حتى عرف العلماء أن الله لا يريد أن ينقل داء من حيوان ميت إلى الإنسان ، وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة « كالبولينا » وغيرها

ولكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خافية . والقرآن قد نزل على رسول أمي في أمة أمية لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد ، وطبق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأن الله الذي أما به إلهاً حكيماً هو قائلها ، وهو يريد صيانة صناعته ؛ وكل صانع من البشر يضع قواعد صيانة ما صنع . ولم نجد صانع أثاث - مثلاً - يحطم دولاب ملاس ، بل يجده باذلاً الجهد ليكمل الصنعة ، وعادام الله هو الذي خضعنا وآمننا به إلهاً ؛ فلا بد لنا أن نعتد ما يأمرنا به ، وأن نتجنب ما نهانا عنه ، ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم ، وغبة في لزيد أسباب الإيمان بالله ومن أجل أن برد على أى فصولي مجادل ، على الرغم من أنه يس من حق أحد أن يجادل في دين الله ، لأن الذي يرغب في الجدال فليجدل في القمة أولاً ؛ وهي وجود الله ، وفي البلاغ عن الله بواسطة الرسول ؛ فإن اقتنع ، فعليه أن يطبق ما قاله الله . فالدين لا يمكن أن نبحثه من أذنايه ، ولكن يبحث الدين من قمته . ونحن ننقد أوامر الله . ولذلك نجد أول حكم يأتي لم يقل الحق فيه . يا أيها الناس كتب عليكم كذا ، ولكن سبحانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا » أي يا من آمنتم بى خلد الحكم منى

وأكرر المثل الذي ضربته سابقاً : أنس ما عند الإنسان صحته ، فإذا تعرضت صحته للاختلال فهو يدرس الأسباب ؛ إن كان يرهقه الطعام يختار طبيياً على درجة علم عالية في الجهاز الهضمي ، ويكتب الطبيب الدواء ، ولا يقول المريض للطبيب : أنا لن أتناول هذا الدواء إلا إذا قلت لى لماذا وماذا سيفعل هذا الدواء .

إذن فالعقل مهمته أن ينتهي إلى الطبيب الذي اقتنع به ، وما كتبه الطبيب من عالم فمليك تميدها ، وكذلك الإيمان بالله ، فإقدام الإنسان قد أس بالله إما فعله أن ينفذ الأوامر في حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، والمريض لا يناقش طبيباً ، فكيف يناقش أي إنسان ربه : « لم كنت على هذا ؟ »

والطبيب من البشر قد يخطئ ، وقد يتسبب في موت مريض ، وعندما يشك في بؤره طبيب عامستدعي عدداً من الأطباء لاستشارة كبيرة ، ونفذ أوامر الأطباء ، لا يجرؤ أحد أن يناقش الله سبحانه وتعالى بل نقول كل لوامرك مطاعة

إننا نعد أوامر الأطباء فكيف لا نعد أوامر الله ؟ إن الإنسان يضع ثقته في البشر لخطائهم ، ولا يمكن - إذن - أن تملو على الثقة في رب السماء ، لذلك فالمعتقلون هم الذين أخطوا أوامر الله وطعوه دون مناقشة ، لأن العقل كالمطبخ يوصل الإنسان إلى نية السطو ، ولكن لا يدخل معك فيه ، وحين نسمع من الله فأننا نصد ما أمر

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » وقد أثبتت التحليلات أن لحم خنزير دودة شرعية ودودة حنزوية وعدداً آخر من الديدان التي لا يقهرها علاج .

والحرمات من بعد ذلك « وما أهل لعير الله به » أي رفع الصوت به لعير الله نفوسهم باسم اللات والعزى عند ديبه ، ولا يقال عند ديبه « الله أكبر » باسم الله ، لأن الإنسان منتم في الكون الذي يعيش فيه بالأحاسيس التي طرأ عليها ، لقد جدد الإنسان هذه الأحاسيس في انتظاره لتجدد لأنه خليفة الله في الأرض ، والحيوان « روح ولكنه يقل عن الإنسان بالتفكير ، والنبات تحت الحيوان ، والجماد أقل من النبات وساعة يأخذ الإنسان لخدمة هذه المسخرات ، عليه أن يذكر الخلق لنعم ، وعندما يذبح الإنسان حيواناً ، فهو يذبحه بإذن الأكبر من الإنسان والحيوان الكون كله ، يذبحه باسم الخالق .

إن هناك من ينظر إلى اللحم قاتلاً ، أن لا أكل لحم الحيوانات لأن لا أحب الذبح لحيوان شعقة ورحمة ، لكن أكل النبات . ويعمل أن لا يذبح ما في النبات من حياة كنت تقتح من أكله ؟ لقد ثبت في عصرنا أن للنبات حياة ، بل وللمهيد حياة أيضاً ، لك عندما نعت حصوة من الصوان أو أي نوع من الأحجار ، طأت تعاند بدخات

المطرفة ما في تلك الخسوف من تعاقب الجريئات المتهاككة ، وقد تفعل ذلك وأنت لا تدري أن فيها حياة .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية 14 سورة الإسراء)

والصالحون من عباد الله يعرفون ذلك ويناديون أهلهم وتعاليمهم مع ما سواهم من المخلوقات جميعا - حيوان أو جماد - هل أنها مسبحة لذلك لا يمتنعون الأشياء ولا يجتنبونها معها دقت وحفرت وإنما ينطقون معها حتى لو ذبحوا حيوانا فإنهم يرحمون ذلك الحيوان فلا يشحذون ولا يبنون السكين أمامه ولا يفسحون حيوانا أمام حيوان آخر فضلا على أنهم يطعمون ويشفون ما يريدون ذبحه لأنهم يعلمون أنه مسبح ولكنهم فعلوا فيه ما فعلوا لأن الله أباح لهم ذلك ليستدبروا حياتهم بأكمله فهم أهل تكليف من الله أما ما عداهم فهم أهل تسخير .

« وما أهل لغير الله به » تشرح لنا أن الحق هو الذي حلل لنا أن نأكل من الذي له حق وحركة ، كالحيوان الذي يتعلم للإنسان فيذبحه ، ولا بد للإنسان أن يعرف الشكر لوأهب النعمة ، « بسم الله الله أكبر » تؤكد أنك لم تذبحه إلا باسم من أحله لك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا غَمَلًا يُذِيبُهُمْ رَبُّهُمْ يَوْمَ يَبْعَثُ رَبُّهُمْ سَكِينًا ﴾

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْ سَكِينَتِهِمْ وَيَسَّارَتُهُمْ يَأْكُلُون ﴾

(سورة يس)

إذن فالأكل من ضمن التذليل ، وعندما تذبح الحيوان لا بد أن تذكر من ذللك ذلك . ويحرم الحق أكل المنخنة ، أي الحيوان الذي مات خنقا ، لأن قوام الحياة ثلاثة : طعام ، شراب ، هواء ، وهذا من حكمة الخالق الذي خلق الصنعة ورتب الأمر حسب الأهم والمهم ، فالإنسان قد يصبر على الجوع إلى ثلاثين يوما ، لأن ربنا سبحانه وتعالى قدر لك - أيها الإنسان - ظروف الأغيار ، فجعل في جسمك مخزونا لزمن قد تفجوع فيه ، وجعل للإنسان شهوة إلى الطعام ، وغلبا لا يأكل الإنسان ليسد الرمق فقط ، ولكن بشهوة في الأكل .

إن ربنا يوضح لنا : أنا أحترم شهوتك للطعام ، ولتأخذ حركتك الضرورية لها

من الطاقة ، والرائد سيجزى في الجسم كدهون ولحم ، فإن شاء يوم لا تجد فيه طعاماً أعدت من الدهون المحرونة طاقه لك ، وهذه من دقة الصنعة ، وإن علمتها بسبب صحتها الإنسان إذا ما فرغ منها الوقود فإنها تقف ولا تسير ، أما صنعة الخلق فهو لا تقف إن توقفت الطعام ين تستمر إلى ثلاثين يوماً ، وربما حتى على الإنسان قلب إنسان آخر فأحضر له الطعام ، وربما استحال الإنسان ليخرج من مأزق عدم وجع الطعام

إن للربة العربية وصفت الشدة والعمز فكانت « ستة أذابت الشحم ، وسد أذهبت اللحم ، وسد عمت العظم » أي أن الأمر درجات ، فالإنسان يتنقى من دهته ثم من لحمه ثم من عظامه ، ويصير الإنسان على الماء مدة تقارب ما بين ثلاثة وعشرة أيام ، حسب كمية المياه المحرونة في الجسم ، أما الهواء فلا يصير عنه الإنسان إلا بمقدار الشهيق والزفير ، فإن نجس الهواء عن الإنسان مات ، فالنفس هو أم ضرورة للحياة ، ولذلك نجد من حكمة الحق سبحانه أنه لم يملك الهواء لأحد ، لا أحداً لو امتلك الهواء بالسبب لإنسان آخر فقد ينجس عنه الهواء لحظة فخطب فتنهى من الحياة

والدقة العربية فيها من الصنعة ومن دقة الأداء ما يدل على أن هناك أسراراً لدمعان ، تنقضي عند شيء ما ، فمثلاً إذا قلت : نفس ، أو نفس ، أو نفسي ، مع أنها ثلاث كلمات مكوّنة من مادة واحدة هي « النون والفاء والسين » ، النفس هم اتصال الروح بمادة خضاً للحياة بها ، ويلهم ربنا النفس فجورها وتقواها والنفس وهو الريح تدخل وتخرج من فم وأنف الحي حتى الرنة حال التنفس ولا تدوم الحياة إلا به ، ولماذا أساس الحياة هو النفس فيجب ألا تكون حياتاً إلا من أجل نفس ، ويجب أن تحترم خلق الله لك وألا يكون سبك في الدنيا إلا من أجل نفس ، ولا نفس إلا بالإيمان

وفي الدقة العربية أمثلة كثيرة لما يسمى بلجناس ، فنحن نسمى الأكل في الحياء « وجبة » ، ونسمى المستوية « واجبا » ونسمى دقة القلب « الرقيب » ، ولندة حينما نريد الشراء أن يفتنوا جاء واحد منهم بلقطين منهنين ولكل منها معز مختلف لقال

رحلت عن الدليل لكم أسير وقلبي في محبتكم أسير

فأسير في الشطر الأول بمعنى أمشي ، وأسير في الشطر الثاني من البيت بمعنى مأسر ومفيد .

فالمسخرقة إذ هي التي صرع عنها النفس ، وما دام صُرع النفس أوصلها إلى الحق فهي إلى الموت ، فلماذا جاء ذكرها مرة أخرى بعد آية ؟ لقد جاء ذكر المسخرقة لأن الإنسان قد ينحرقها بالذبح ، فإن سال منها دم ، وطرعت فيها عين أو تحرك إصبع فهي حلال . أما إن لم ينحرقها الإنسان وذبحها ولم يسيل منها دم فهي حرام ، ويحرم الحق الموقوفة ، وهي البهيمة التي يتم ضربها بأي شيء إلى أن تصل للموت ، وهي قد ماتت ، تنقض بية وكذلك المتردية التي وقعت من ارتفاع حتى ماتت ، وكذلك « النطيحة » أي التي سطحها حيوان آخر إلى أن ماتت « وما أكل السبع » وهو ما يلفي من أكل السبع من لحم ما افترسه من حيوان مأكول ، « إلا ما دكيتكم » ، والذكاة هي الذبح الذي يسيل منه الدم وتأتي بعده حركة من المذبوح . والمقصود بقوله « إلا ما دكيتكم » هو المسخرقة والموقوفة والمتردية والنطيحة ، فإن أدركها الإنسان وذبحها وسال منها دم وصدرت منها حركة فهي حلال

هذا هو رأي علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وهو معنى الإيمان وابن عباس - رضي الله عنه - وهو خبر الأمة قال - أيضا - في قوله الحق : « إلا ما دكيتكم » هو استثناء لغير الميتة والدم ولحم الخنزير ومقصود به المسخرقة والموقوفة والمتردية والنطيحة . وهذا يوضح لنا أن هناك حيوانات شرسة قد لا يقرى الإنسان عليها . وأحيانا قد يقتل الإنسان عليها فيقوم بتكثيرها بالحيال ، وأحيانا يضربها بألة لتحمل وتضعف قليلا ويملكها الجزر ليدبحها .

وبلاحظ أن الحق لم يحدد الحيوان من الجسم الذي أصيبت فيه الموقوفة سواء أكان البطن أم الرأس أم الظهر ، فالحيوان انضروب ربما بالحجارة قد ثاق الأجزاء في الرأس أو البطن أو الظهر ، فمن الجائز أن يضرب الإنسان الحيوان الشرس ليستطيع أن يدبحه .

والحجة عندنا في التحليل أو التحريم هي : يسيل منها الدم ساعة الذبح أم لا ؟

وعمل يصبر عن جسمها حركة ولو طرفة عين ؟ فإن توافر ذلك في الديبحة فهو حلال ، وهكذا يعرف أن قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الثلاثة الأو وهي الميتة والدم ولحم الخنزير ومعها ما أهل لغير الله به لأنه محرم بطبيعة الإلهام العقلي .

« وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما دبح على أنصب » ويحرم على ما أكده السبع إلا إذا كان الحيوان الذي أكله السبع لم يمت واستطاع واحد أن يديهجه السبع الشرعي . وسببانه يحرم ما لم يذبح بالأسلوب الشرعي ، فلا يحل ذبح معظم بيوت والدي ذبح عن النصب ، أي للذبح على الأحياء المنصورة كالأسنام و حرام ، والكلام هنا عقلي ، والتحريم هنا معلوم عقلي

و « النُصْب » من الألفاظ التي وردت مراراً ووردت جمعاً « نُصْب » هو جمع ، مثلها بجميع كلمة « حنظل » و « نخل » وفي هذه الحالة يكون مقرو « نصاب » و مرة تكون « نصب » معروفاً ، مثلها مثل « نُصْب » وهو الحبل وجمع « أنصب » أي حبال ، وفي هذه الحالة يكون جمع « نُصْب » هو « أنصاب »

والنُصْب هي حيلة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الديان تقريباً للأله . والتحريم هنا بسبب عقلي مثله مثل تحريم ما أهل لمير الله به ، أي أهل لغير الله فيه شرك بالله فافتقد ذكر الله الذي نزل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان في الجنس والحركة وغير ذلك . وكذلك أيضاً ما دبح على نصب محرم لأن النصب غير واجب ولا معط ، والواجب أن يتقرب إلى الواحد الواجب

« وأن تستقسموا بالأزلام » واستقسم أي طلب القصة ، وكانت القصة بعض الأحيان عمدة مخرجة فيريدون إلصاقها بمعبرهم ، وهنا يقال : « إن الأزلام هي التي أمرتني » . والأزلام هي قدح من الخشب مكتوب عن بعضها : « أمر » ربي » ومكتوب على البعض الآخر : « هناك ربي » وبعض من هذه القداح عمل بقذ كتابة وكان المشرك إذا أراد السفر فهو يذهب إلى سائر الكعبة أو الكاهن ، ويحرم السادن أو الكاهن الأزلام من الكيس ، ويحرك القداح ويختار ، بشرط بقاءها ، فإن لم عليه « أمر » ربي » يسافر إلى المهمة التي يريدتها ، وإن لم يقرأ عليه ووجد غملاً هو بعيد الكثرة ، فإن وجد « هناك ربي » لا يسافر

ونسأل : من هو الرب الذى أمر ؟ هل هو الرب الأعلى ، أو الرب الذى كانوا يعبدونه ؟ وأى إله كانوا يقصدون ؟ إن كان المقصود به الإله الأعلى ، فمن أبراھم أن الله أمر بهذا السفر لوسى عن ذلك السفر ؟ إن ذلك كذب على الله وإن كان الذى أمر هو الرب الذى يعبدونه ، فهذا أمر باطل من أساسه ، إذن « استنقسم » أى أنه طلب حفظه ونسنت بواسطة القداح . وكان الاستقسام يتم فى مسائل الزواج لو عدم الزواج ، والكلام هنا فى هذه الآية عن الأكل ، فالسابق عن تحليل ألوان الصعام فلماذا هذا الاستقسام ؟

من هذا نعرف أنهم كانوا فى الجاهلية يتخضعون للون من الاستقسام بالألزام ، كانت عندهم عشرة قداح وكان يكتبوا عليها أسماء ، فواحد على سبيل المثال مكتوب عليه « الفذ » وعليه علامة واحدة . أى أن لدى يسحب هذا القدح يأخذ نصيباً واحداً ، أما المكتوب عليه « النوم » فيأخذ نصيبين ، والمكتوب عليه « الرقيب » يأخذ ثلاثة أنصباء ، والمكتوب عليه « المجلس » يأخذ أربعة أنصباء ، والمكتوب عليه « المنفر » يأخذ خمسة أنصباء ، والمكتوب عليه « المسبل » يأخذ ستة أنصبة ، والمكتوب عليه « المعلن » يأخذ سبعة أنصبة ، والباقي ثلاثة أنواع مكتوب على كل واحد منها إما « المنيع » وإما « السفيح » وإما « الوغد »

وعندما يقومون بذبح الجمل كانوا يقسموه إلى ثمانية وعشرين نصيباً بعدد الأنصبة التى بناها الأشخاص السبعة الأوائل ، أما من خرج لهم « المنيع » أو « السبح » أو « الوغد » فلا نصيب لهم ويدفعون ثمن الذبيحة .

إذن فقول الحق : « وإن تستقسموا بالألزام » أى أن مسألة طلب القسمة بواسطة الألزام هو أسلوب مجحف وحرام ، وهو لون من اليسر ، والاستقسام بالألزام خلاف القرعة ، فالقرعة تكون بين اثنين متساويين ولا يريد أحدهما أن يظلم الآخر ، فيخرجوا الموى من الاختيار .

مثال ذلك : إنسان من البشر يملك بيتاً ، وغرض كل منهما ليعمل فى القسمة ويدرجان إلى القرعة بأن يكتب كل منهما اسمه فى ورقة ثم يضعها الورقتين فى إناء ضيق ويحضر طفل صغير لا يعرف المسألة ويغمض عييه ويشد ورقة من الاثنتين ، فيأخذ كل واحد النصيب الذى حددته القرعة .

ومثال آخر ، الرجل المتزوج بأكثر من واحدة ، عليه أن يفرغ بين النساء إن أراد معجبه إحداهن في سفر ، والفرقة هنا حق لا تعصب واحدة من الزوجات ، وحق ' يكون الهوى هو الحكم ، وبذلك يخرج من دائرة لوم من لا يخرج فرقتها .

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فعندما أراد صلى الله عليه وسلم ألا يكسر خاطر أي واحد من الأنصار عده هاجر إلى المدينة ، وتطوع كل أحد من الأنصار إلى أن يتزوج رسول الله في بيته ، وحاول كل واحد أن يمسك برمام ناقة وأن يجمعها نقف أمم بيته ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

(عنوا سبلها دنيا مأمورة)^(١)

فعندما غيب الناقة وتقف عند أي بيت لم يقول أحد إن المني أثر فلاناً على لاني . جعلها الرسول في يد من لا يقدر أحد على أن يخالفه عليه ، وكذلك الاستحارة غير الاستقسام . إذن فالاستقسام بالأزلام هو المحرم شرعاً ؛ لأنها جملة غير مناسة وهي طائفة ، ووردت في سياق ألوان الطعام

ويقول سبحانه عن كل تلك الألوان من المحرمات : **إِنْ أَرَبْتُمْهَا فَفَسِقٌ** ، فلكم فسق ، والفسق هو الخروج عن الطاعة والممان - كما علمنا من قبل - مأخوذة من محسات ، لأن إلف الإنسان في أول قدر كانه بالمحسات ، فهو يرى ويسمع ويشم ، بعد ذلك تأمل الأمور العقلية

وأصل الفسق هو خروج الرطبة عن قشرتها ، هالبلعة عندما ترتطب تكمس ثمرة داخل القشرة وتخرج منها عندئذ يقال : **فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ** ، أي خرجت من ثمرتها ، وكذلك من يخرج عن منهج الله يسمونه فسقاً ، تماماً مثل الرطبة ، وفي رواية أخرى أن شرع الله سياج يحيط بالإنسان ، فإذا خرج عن منهج الله تكون فاسقاً . ولذلك أيق المسلم أن يخرج عن شرع الله ؛ لأن الرطبة عندما تخرج عن قشرة فالذياب يحوم حولها ويصيبها التريب وتذاتها النفس ، فكأن دين الله كإطار يهي الإنسان بالإيمان

(١) غير أنبوه لار هنام ، ولعرجه بر كثير في الهدية والهدية ، وهر سعد في الطبقات الكبرى

وهذه الأحكام كلها تبني قضية الدين ، قضية عقدية في الألوهية ، قضية البلاغ عن الألوهية بواسطة الرسالة وأحكام تنظم حركة المجتمع بالعقود والأمانات والأمكحة وغيرها ، كل هذه الأحكام تصنع هيكل الدين العام . وقد مر هيكل الدين العام بمرحلتين . المرحلة المكبة وكان كل هدفها التركيز على العقيدة والإيمان موحدانية الله والنبوات والبلاغ عن الله ، وبعد ذلك في المرحلة المدنية جاءت سورة النساء وسورة المائدة لتتكلم عن الأحكام

وبالعقيدة والبلاغ عن الله وبالأحكام يكتمل الدين ؛ لذلك يقول الحق : « اليوم ينسى الذين كفروا من دينكم » كأن الكافرين كان لهم أمل في أن يحبطوا هذا الدين وأن يبطلوه وأن ينقضوه ، وكذلك المزمعون بأديان سابقة أو يكتب سابقة كانوا يحسون أن بطراً عن القرآن الأفعال التي مارسوها مع كتابهم من النسيان والترك والتحريف ، ومسحاته هو القائل عن أصحاب الكتب السابقة :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المائدة)

إذن فقد أرادوا أن ينسى المسلمون - أيضاً - خطأ من القرآن ، لكن الحق يخبر بأنهم ينسوا أن ينسى المسلمون خطأ مما ذكروا به ؛ لأن الصحابة حفظوا القرآن في الصدور وكتبوه في السطور ومن لسان الرسول مباشرة . ولم يحدث مثلها حدث مع الرسل السابقين . فقد تم تسجيل هذه الكتب المنزلة عليهم بعد ثلاثة أو أربعة قرون ، بل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن من فور نزول كل نجم من الآيات ، وكان يأمر بوضع الآيات بترتيب معين .

إن على الذين كفروا أن يعلموا من أن ينسى المسلمون خطأ مما ذكروا به وهؤلاء القوم من أهل الكتاب لم ينسوا خطأ مما ذكروا به فقط ، بل أيضاً حاربوا الكتاب عن مواضعه وكنتموا ما أنزل الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَتَرَوْنَ بِهِ كُفْرًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ

مَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

وهم يشعرون أن يكتم المسلمون ما أنزل الله ، يدعون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بحكم في شيء ، ثم يخبر الله ذلك الحكم ، فلا يستحي رسول له أن يبلغ . أن الحكم الذي قلته لكم قد خبره الله لي . وهل يستنكف أن يعدل الله ؟ وهذا دليل على أمانة البلاغ من الله ، لذلك يشعرون الكافرون بالروايات المختلفة من ، يسمي المؤمنون خطأ ما ذكرو به ، لأن تسجيل القرآن كان أمينا بصورة لا تحايل ، وظل القرآن مكتوباً في سطور ومحمولاً في الصدور .

والحق يعلى عن يأس الكفار من شركاء وأهل كتاب بقوله : « اليوم يشعرون الدين مرو من دينكم » يتصور لأن المراحل التي مرت بالكتب السابقة لن تمر بهذا الدين قد توجه أهل الكتاب أن الإسلام سيمر بما طرأ عليهم ، وظن بعضهم أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب من ترك لدينهم وهدارته . وكذلك ظن من كعاد قريش أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب ، فقد كانت يدهم التوراة وهم مع تلك لا يسمعون كتابهم ، فبعد الحق على كل هؤلاء اليوم تشعرون الدين كفروا من دينكم »

وقوله : « اليوم » يعني الزمان الذي مضى والرمز المستقبل ، فقد أتم الله دين الإسلام ورضيه لنا وفضل مكة للمسلمين ودخل الناس في دين الله أفواجا . وصار لقرآن مكتوباً ومحمولاً . وبذلك نأكد يأس الكافرين وشركاء أن يسمي القرآن أو يكتم القرآن ، لأن من أنزل عليه الكتاب ، كان إذا جاء أمر يخلق به فهو قوله . وعندما مال غيب المسلمين ذات مرة إلى تربة المسلم الذي سرق وأن تلصق نهمة باليهودي البريء ، هنا يرد من القرآن قوله

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَمَا أَرَدْنَاكَ اللَّهُ وَلَا نَكُنْ نَفْعًا يَمِينٍ

نَصَبًا ۝ ١٥ ﴾

(سورة النساء)

لقد أمر الحق أن يكون النبي هو الحكم العدل حتى ولو كان حاكماً ضد مسلم . يأمر الحق ورسوله أن يستغفر الله إن كان قد ألم به عاظراً أن ينصر المسلم الخائن على ليهودي الذي لم يسرق ، إنها سياحة دين الإسلام

« اليوم يشس الذين كفروا من دينكم » . ولقد تم دين الله ودخل الناس إلى الإسلام أهواجا ولن ينسى القرآن ولن يكتم انقرآن أحد ولن يحرف القرآن أحد . ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتفاء ونحرير ، أو الإتيان بأشياء أخرى والقول والزعم بأنها من عند الله ، وهي بيت من عند الله . إذن فقد يشس الدين كفروا من أن يزيد المسلمون في دينهم ولن توجد بين المسلمين تلك المالب والعيوب التي ظهرت في الأقوم اسابيه

« اليوم يشس الدين كفروا من دينكم » فقد يشسوا من أن يعطب الإسلام ، بل إن الإسلام سيغلب . وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأتى الله إلا أن ينم موره

« اليوم يشس الدين كفروا من دينكم فلا تخشوهم » وقد حكم سبحانه ألا يأتي امر يحقق لأعداء الإسلام الشبهة به ، أو أن تتحقق لهم الفرصة في انكسار الإسلام ، فلا تخشوهم أيها المسلمون لأنكم مصورون عندهم ، وس تدخلوا في أسباب الخيبة التي دخلوا فيها . وعليكم أيها المؤمنون بحسبة الله .

ولو أراد أحد تعير شيء من منهجه سبحانه فسيلقى العقاب ، وسبحانه لا يعير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فكتتب الله معكم وترك فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجه ، فإن خالفتم المنهج فستلقون العقاب ، كما هزم الله المسلمين في أحد أمام المشركين لأنهم خالفوا المنهج . فما نفعهم أنهم كانوا مسلمين مسويين للإسلام بينما هم يخالفون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فلا خشية من المسلمين لأعدائهم ولكن الخشية تكون لله ، فإن خعنتم معادوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله ومادام سبحانه هو الأمر لا تخش أعداء الله لأنه ررع في قلوبهم اليأس من أن ينسى المسلمون المنهج ، أو أن يتريدوا في الدين ، أو يكتسوا الدين ، فهم لا يعرفونه ولا يزيدون فيه . إذن فالمحب كل الميت ألا تطبقوا منهج الله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » والإكمال هو أن يأتي الشيء على كماله ، وكمال الشيء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه . وقد أتم الله استمرار النعمة بشهام المنهج

لقد رضي الحق الإسلام ديناً للمسلمين ، ومندم وهي سبحانه الإسلام صبيحاً ،
 وبياكم أن يرتفع رأس لقول : استترك عن الله ، لأن الله قال : « أكملت »
 فلا نقص ، وقال : « أحب » فلا زيادة ، وعندما يأتي من يقول : إن التشريع
 الإسلامي لا يناسب العصر ، رد : إن الإسلام يناسب كل عصر ، وبأنك أن
 تستترك عن الله ، لأنك يمثل هذا القول تريد أن تقول : إن الله قد عمل عن كذا
 وأريد أن أصوب الله ، وسبحانه قال : « أكملت » فلا يزيد ، وقال : « أكملت »
 فلا استترك ، وقال : « ورصبت » فمن خالف ذلك فقد حُلب رصده على رصا
 ربه .

إن السائل سبحانه هو أعلم بمحلقه تمام العلم ، ويعلم جل وعلا أن الحق يد
 أعيان ، وقد تفرأ عليهم ظروف تجعل تطبيق المنهج بحدوده حسيراً عليهم أو متعبداً
 فلا يرؤ لهم أن يترخصوا هم ، بل الذي يرحص ، فلا يقول أحد : إن هذه
 مسألة ليست في طاقتنا فباعتنا عدم نحن أن هناك أمراً ليس في طاقة المسلم فقد
 خففه من البدايه ، ومادام دوى أعيان ، وصاحب الأعيان يتقل مرة من قوة إلى
 ضعف ، ومن وجود إلى عدم ، ومن عزة إلى ذلة ، لذلك قدر سبحانه أن يكون من
 مؤمنين بهد المنهج الكامل من لا يستطيع القيام لموضع أو تخمصة ، فرحص لنا
 سبحانه وتعالى : « فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم »

إذن فاسم قد ذكر أن شيئاً من الأعيان قد يطرأ عن النفس البشرية ، ومندم
 استقام الحياة يتطلب القوة ، والإنسان قد يمر بمخمصة وهي المجاعة التي تب
 الضمور في البطن ، هنا يرحص الحق للجائع في مخمصة أن يأكل الميتة أو ما في
 حكمها بشرط الاضطرار لاستبقاء الحياة ، فلا يقول واحد من مهبل لمثال

أنا مضطر لأن أتعامل مع البنك بديراً لأن أريد أن أتناجر في مائة ألف جبه وليس
 معي إلا ألف جبه وهذا ما هو حادث في كل الناس هنا أقول لا عليك
 بالنجدة في الألف التي تحمكها ولا نقل أن مضطر للتعامل في الربا ، والمضطر هو الذي
 يعيش في مجاعة وإن لم يعمل ذلك يموت أو يموت من يعوز ، وقد رخص الشرع
 للإسنان الذي لا يملك مالاً أن يطرخص من الزاين إن لم يجد من يقرضه فيشترى دواء
 أو طعاماً أو شيئاً يضطر إليه لنفسه أو لمن يعوز ، والإثم هنا يكون على الجرايم ،
 لا على الضرر لأنه مضطر

ولدت فإن أحيى : فمن اضطر في محمصة غير مصحف لإثم ، أي أنه كاره للإثم وإن ذهب إليه . ويدل على ذلك دفع الضرورة . لدرجة أن رجاء الشريعة قتلوا . إن على الإنسان لمضطر 'لا يأكل من الميتة أو ما في حكمها ما مضى الذي يتبع ، بل يأخذ أقل لطعم الذي يسك عليه رقبته ويبقى حياته فقط . فإذا كان يسير في الصحراء فعليه ألا يأخذ من الميتة أو ما في حكمها ، إلا قدر ما يسيراً لأنه لا يجد شيئاً يتفوت به .

إذن معنى اضطر في محمصة شرط أن يكون غير مصحف لإثم ، أي لا يكون مثلاً إلى الإثم موحده ، فعليه ألا يأخذ إلا على قدر الضرورة . ومما على قدر الضرورة فهو ليس محمل معه من هذه الأشياء محرمة إلا ما يقيم أوده ويمسك روحه . وانضطر هو من عدم الأسباب البشرية . ومحمده وتعالى قد بسط أسبابه في الكون ومد يد به إلى خلقه ، وأمر الأسباب استجيب لهم مؤمنين كذبوا أو كافرين ، فالتدبير يورع ويحسن التدبير والبر والحرث والله يعطيه ، والذي يتبع عطية كتاجر يتبع بحارته وترتد أرباحه .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَرَدُّ لَهُ فِي سَرَّيْنِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا فَلْيَ سَئِرْ ۖ

يَتَّبِعْ

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

إن عطية لأسباب هو عطاء الربوبية . والمضطر هو من فقد أسبابه . ويدل على ذلك عيب المضطر إذا دعاه . وقد يقول قائل ، إني أدعو الله ولا يجيبني . ويقول إنك غير مضطر لأنك تدعو . على سبيل المثال - بأن نسكن في قصر بدلاً من لشقة نرى تسكبها ، وأن ندعو بأن يعطينا الله سيارة فاخرة وأن نتحدث وسببه مواصلات عادية . المضطر - إذن - هو الذي فقد لأسباب ومهمات الحياة .

﴿ مَن يُجِبْ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ۖ

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وقد صرنا من قبل المتن - والله المثل الأعلى - بتاجر يسئورد بضائع تصنف من الخارج في صناديق ثقيلة تحمها السيارات الصحمة ، ويقوم أحد العمال أمامه بحمل صندوق صحم ، فغلب الصندوق العامل . وهنا يقع التاجر ليسد العامل

هذه هي المسألة في الجن البشري ، إذن فلا يردّ واحد أسباب الله من بعد ويقول من بعد ذلك : يارب أعق ، لأن الله في تلك اللحظة يوصح للعبد : إن عندك سبباً ومادامت أسبابي موجودة ، فلا تطلب من داني إلا بعد أن تنته أسباب من عندك ، لذلك يجب للمفسر أن يحدد بقدر الذي يردّ به السوء عن نفسه

، فمن اضطر في نفسه غير معانف لآثم فإن الله غفور رحيم ، ومادم سبحانه قد رخص لنا ذلك ، فما الداعي أن يدين الآية بمعرفته ورحمته ؟ ولهم أن الإنسان يأخذ العفر مرة على أنه ستر العقاب عنه ، وقد يكون العفر ستر الذنب عن العبد لأن الله رحيم . وهذا ما يشرح لنا ما قاله الحق لرسوله

﴿يُخَفِّرْكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبٍ﴾

(من الآية ٢ سورة النجم)

فمبطله يعفر بستر العقاب ، ويقدم العفر بستر الذنب فلا يمارفه الإنسان ويعول الحق بعد ذلك

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ تَطَيُّنٌ
وَمَا عَمَّيْتُمْ مِنْ مَخَاجِرٍ مُكَلِّبِينَ تَعْمُونَ مِمَّا عَلَّمَكُمُ
اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ
وَأَنْقُوا لِلَّهِ فِي اللَّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

بعد أن بين الحق ما حرم وما أحل ، بعد أن أحل غير محصور ، بل المحصور هو المحرم ، لأن الحق حبيب حرم عشرة أشياء ، فإن هذه الأشياء بعسره بسبب هي كل الموجودات في الكون ، فلو جردت في الكون كثيرة . وسبحانه وتعالى حين خلق آدم وجعله يتأمل ويكائن للعلاقة في الأرض . فسر في هذه الأرض مصبرات استبقاه الحياة بذلك النوع

والاستبقاء نوعان . استبقاء حياة الذات للإنسان ، واستبقاء حياة نوع الإنسان ، واستبقاء حياة الذات تكون بالنفس والشراب والطعام ، واستبقاء حياة النوع تكون بالإنكاح والناسل .

إذن يوجد بقاءان لاستمرار الخلافة البقاء الأول : أن تبقى الحياة وذلك بمقوماتها ، والبقاء الثاني . أن يبقى نوع الحي وذلك بالكثرة . وحتى تبقى الحياة ويكثر الإنسان لا بد من وجود أشياء وأجاس تخدم الإنسان وتعطيه الطاقة . وطماننا سبحانه وتعالى على الرزق حينها قال :

﴿ قُلْ أَشْكُرْ لَكُمْ فَرُوحَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ بُيُوتًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاقٍ مِّنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا ۚ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّاعِلِينَ ۝ ثُمَّ أَسْرَجَ فِي السَّمَاءِ وَيْهِ دُخَانٌ مُّصَدَّقٌ ۚ وَلِلْأَرْضِ أَتْبَاعًا مُّطَوَّعًا أَوْ مَكْرُهَا ۚ قَالْنَا أَتَيْنَا حَاطِينَ ۝ ﴾

(سورة صافات)

وهو بذلك يخبرنا بأنه قدر في الأرض أقواما ، وقدر هذه الأقوات للإنسان الخليفة في الأرض ، لخصيت الإنسان هذه الحياة ، ويبقى الإنسان نوعه بالإنكاح . وحين يعد المعد السم اتى وفرما له الحق يحمدها لا يحمي . ولم يحول الإنسان على طول تاريخه أن يحسب ويحمي نعم الله في الأرض ، لأن الإقبال على الإحصاء يكون نتيجة المظنة بالقدر على الإحاطة بالنعم . وقد عرف الإنسان بداية أنه لا يقدر على الإحاطة بنعم الله ، فلم يجرؤ أحد على أن يحدها . ولذلك قال الحق سبحانه

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۚ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة إبراهيم)

وقد استخدم « إن » وهي للأمر المشكوك فيه . إذن فهي نعم كثيرة لا نقدر على إحصائها . ونسأل . أيقول الحق لنا النعم المحللة أم الأشياء المحرمة ؟ وما أن المحلل كثير لا نهاية له ، وما أن المحرم محصور ، لذلك يورد لنا الأشياء المحرمة . وقد بين لنا الحق عشرة أشياء محرمة من النعم . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى

حيثما نكلم عن عدم قدرة الإنسان على إحصاء نعمه سبحانه وتعالى قال في آية

﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعَمَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٢٩﴾

(سورة ابراهيم)

وهناك في آية أخرى

﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعَمَةَ رَبِّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢٥﴾

(سورة النمل)

وظاهر كلام النامس يقول إنها صبريات تفاد وتنكر ، ولكننا نقول يجب أن نشبه إدراك النعمه محتاج إلى من يعينها وهو المتبهم ، ومن تعطي له وهو المنعم عليه . إذن فمهر أمام ثلاثة عناصر - معمة ، ومبهم ، ومنعم عليه - أما من جهة النعمة وأفرادها فليس يقتض الشرح على حصائلها لأنها طرف المصير . ومن جهة المنعم فهو غفور رحيم . ومن جهة النعمة عليه فهو ظلم كفار . لماذا يأن الله لنا مثل هذه الحقائق ؟

فيه سبحانه لو عايننا بكبرنا وجحدونا وظلمنا لمنع النعمة ، ولكن استبداه نعمته الله علينا بفضل منه ورحمة لأنه نشأنا حتى ونو كنا ظالمين وكما كفارا ؛ لذلك كان من اللازم أن يأتي هاتين الآيتين ، فمن ناحية النعمة لم يفسر على حصرها . ومن ناحية المنعم فهو غفور رحيم . ومن ناحية المنعم عليه فهو ظلم كفار . ولذلك فعندما يرتكب الإنسان ذنب فإن أهل الإيمان يقولون له لا تيأس ، تربت هو ، هو ، إنه غفور رحيم . ولذلك لا يستعجل أيها العبد أن تطلب من ربك ثبنا على الرعم مر معصيتك ، فانه غفور رحيم . وعندما ننظر إلى مقومات الأشياء ، فإننا نعرف المقوم الأساسي

لكي هناك مقومات تخدم المفهوم الأساسي . ومثال ذلك نحن نأخذ القمح ونلونه ، ونصنع من حبوب القمح دقيقا لنصنع منه خبزا . ويحتاج القمح إلى مقومات كثيرة حتى يخرج من الأرض . وهو مقوم أساسي - إن القمح يحتاج إلى ري منتظم وحرث وخلاف ذلك ، إذن فالله خلقنا فخلقنا فخلقنا هذه الأشياء ، ومادام قد قدم لنا كل هذه الأشياء ، فعلمنا أن نسمح بحالهم . وهو قد أوضح : وإياك أن تظن أن كل ما خلقت من خلقي فأننا نحمله بك ؛ لأن قد أخلق مخلقا ليس من طيعته أو

تتناوله ، وليس من طبيعتك أن تتناوله ، ولكن لهذا المخلوق عمل فيها تناوله كالحرث والري والتسميد للقمح ، إنها وسائل وأسباب للحصول عليه . فإذا ما قال قائل : مادام هو سبحانه قد خلق هذه المحرمات فلماذا حرمها ؟

ونقول : هذه الأشياء ليس لها عمل مباشر عليك ولكن لها عمل آخر في الكون وإذا كنا نحن البشر نصنع آلة ما ، ويقول المخترع لنا : قد صنعت هذه الآلة - على سبيل المثال - لتدار بالديزل ، وآلة أخرى تدار بالبخار ، والبزير أنواع ، ولو جئنا للآلة التي تدار بيسرين ووضعنا لها سرلارا ، ما الذي يحدث لها ؟ إنها تفسد ، هذا في المجال البشري فما بالنا بمخالق البشر ؟

لقد صنع الحق صمته وهو الإنسان ووضع المواصفات التي تسير هذه الآلة ، علينا أن نحقق لتعاليمه حتى لا نفسد حياتنا فلا نخرج عن تلك التعاليم ، لأنك عندما تخالف وتخرج عما وصعته لصنعتك من نظام ، فالآلة التي من صماعتك تفسد .

وفي حياتنا آلاف الأمثلة . فالدي صبح الكهرباء ووضع العلامات للأسلاك السالبة والأسلاك الموجبة ، لأخذ الصوت أو الحركة . وإذا ما حدث خطأ في هذه الوصلات الكهربائية ؛ تفاجأ بحدوث قطع في الكهرباء ، وقد تحدث حرائق نتيجة شرارة من الاتصال الخاطئ .

إذن فكل تكاثر ونجاة من كل سالب وموجب أي ذكر وأنثى لا بد أن يكون على مواصفات من صمعه وإلا يحدث قطع ودمار ، فإن تروجنا بشرع الله ورسوله ، استقامت الحياة ، وإن حدث شيء على غير شرع الله ، تشتعل الحرائق في الكون .

ولذلك نحمد العجب أمامك عندما تشهد عقد قران ، نحمد وفي الزوجة وهو مبسم مشرح بوجه الدعوات للناس لأن شابا جاء يتزوج ابنته ويقدم الحلوى ، لكن لو كانت هذه العروس تجلس في المنزل وحاول شاب أن يتلصص لرؤيتها ، فما الذي يحدث في قلب والدها ؟ إنه يفس من الصيق والحضب والتوتر ومن الذي يتلصص لأنه ذهب إلى الفتاة بغير ما أحل الخالق . لكن عندما يديق الלב ويحطبها من أبيها ،

فالآب يمرض ، فقد جاء في الأثر (جدد الحلال بعد المبر)

ومحمد الأب ينتقل من موقف العبرة إلى موقف المرح يوم وفات بنته ، وبدهم
الأم صباح اليوم التالي لبرهاف لترى حاله يتها وتطمش ، حل الآية سعيدة أولا
إذن فلا يقول أحد إن الله خلق أنبياءه فلهذا حرمها ؟ لأن الله خلق تلك الأشياء
وفع عمل فيها أحل ، ومما سمعنا أنه قد جعل هذه الأشياء عملاً في أحل - فب
لك دخل إلا بالحلال

ولذلك يقول الحق رداً عن تساؤل المؤمنين : يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل
لكم الطيبات ، أي أن كل طيب قد حسنه الله ، وكل حيث حرمه الله ، فلا تقوس
هذا طيب فيجب أن يكون حلالاً ، وهذا حيث فيجب أن يكون حراماً ، ولك
قل ، هذا حلال فيجب أن يكون طيباً ، وهذا حرام فيجب أن يكون حيثاً ، وإذا
أن تحكم أولاً بأن هذا طيب وهذا حيث ثم تبقى هل ذلك التحريم والتحليل
فأنت لا تعرف مثلاً يعرف حالفك من كيمه وحدوى ترتيب الأشياء بالنسبة لك
حق لا تقع في دائرة الدين يستطيع المسائل الضارة : كهؤلاء الذين يادرو
المخدرات والسموم والخمور ، بل يجب أن نحرم من فهم ما أحل الله فسر
طيباً ، وترخص ما حرم الله لأنه حيث ، فلا يظن أبداً أن كل طيب ظاهرها مما
لك ، لأن هذا الشيء الطيب في ظاهره قد يكون حيثاً .

وعليك أن تترك تمهيد الطيب والحيث مخالفتك ، فهو أذى بك وبالناس لك
لما أنت فتصرف الشيء الطيب من تحليل الله له ، ويعرف الخبيث من تحريم الله له
والحكم ما يكون للتكليف ، فالله هو الذي خلق ، والله هو الذي يعلم الصالح
للإنسان فليسأل إن لم يست المصالح ، ولكنها إرادة الخالق لتلك العناصر ، ه
التي قدر مهيدي

اخلاصة إذن في هذا الموضوع هي أن الحق أحق للمؤمن الطيبات وكل شيء
أحسده الله يكون طيباً ، وكل شيء حرمه الله يكون حيثاً ، فلا ينظر أحد إلى الأمر
البشرية التي يقول بعضها هي شيء إنه طيب فيكون حلالاً ، وإن ذلك الشيء حيث
فيكون حراماً ، فأنت ومحمد من البشر لا يعرفون ترتيب الأشياء ولا فائدة

ولا مضرتها بالسبب لث . والدليل . أن البشر يتدخلون في بعض الأحيان في تحريم أشياء بالسبب لمعضهم البعض ، فنجد الطبيب يقول للمريض أنت مريض بالسكر فلا يصح أن تتناول اشروبات والسكريات .

فإذا كنا نسمع كلام الطبيب وهو من الشر ، أفلا يحذر بما أن يستحي وستمع لأمر الخالي ؟ بل تنجاس ونسأل : لماذا حرمت علينا يارب الشيء العلا ؟ وقد يغفل الطبيب بكن الله لا يمكن أن يخطئ . فهو رب المأمون علينا ، فما أحله الله يكون أطيب وما حرمه يكون الخبيث ، وهذه قضية يتعرض لها أناس كثيرون ، مع سبيل المثال نسمع من يستشهد الاستشهاد الخاطيء وفي غير موضوعه بقول الحق .

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ويقول : إن علي يأخذ كل وقتي . ولا فسحة عندي لإقامة الصلاة ، والله لم يكلفنا إلا ما في الوسع . ونقول : وهل أنت تقدر الوسع وتبني التكليف عليه ؟ لا عليك أن تسأل نفسك : أكلفك الله بالصلاة أم لا ؟ فإذا كان الحق قد كلفك بالصلاة ، وغيرها من أركان الإسلام فهو الذي علم وسع الإنسان في العمل . ويجب أن تقدم التكليف أولاً لتعرف طاقة الوسع من بعد ذلك . وكذلك أسأل نفسك عما حلله الله وأعرف أنه طيب وما حرمه الله فهو خبيث

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » وإذا سألكم عن تلك الطيبات ؟ عرفنا أنها غير ما حرم الله ، فكل غير محرم طيب ، أو أنهم سألوا عن أشياء سيكون الجواب السابق هو الإجابة الطبيعية ها ، وقدم الله الإجمال الذي سبق أن شرحته . وبعد ذلك يكون المستول عنه في مسألة الصيد بالكلاب ، فجاءهم بالبيان في مسألة الصيد بالكلاب . وكانت تلك مسألة مشهورة عند العرب في الجاهلية ، وكذلك صيد الطيور . فقال . « قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح » فقد وضع الحق القضية العامة أولاً ، ثم خصص بعد ذلك .

لقد كانت مسألة صيد الجوارح موضوع سؤال من عدي بن حاتم - رضي الله عنه - عن الصيد بالكلاب والطيور . وعلمنا أن نحسن الفهم عن القرآن بحسن

عهم عن نصر ، فالحق يقول ها « أحل لكم الطيبات وما حرمتم من الخوارح »
 من الكلاب واليهود والنصارى إلى اصطاد بواسطتها هي المخلقة بنا لأن علمناها
 صيد ؟ لا « أحل لكم الطيبات » هي صيده منتهية وبعد ذلك فيها كلام جديد
 هو « وما علمتم من الخوارح مكاييد تعلمونها بما علمكم الله فكنوا بما أمكن
 بديكم »

إذاً ما الذي أحل هو ما أمكن ما علمت من الخوارح ، وليست الخوارح التي يعلمها
 الإنسان ، أي أن الحق أحل لنا الطيب وأكل ما أمكن علمنا الكلاب التي علمناها
 صيد . وهـ الخوارح « مفردة » جوارح « جمعها » كاسب « ، ولذلك يسمى أبيه
 نوارح ، وحيوتها جورح ، ودنانها حورح ، لأنها تكسب بها مدرجات فالعين
 مارجة تكسب المرنى ، والأذن جارجة تكسب السمورج ، والأنف جارجة تكسب
 للشموم ، واللسان جارجة لأنها تكسب بها المموس . ويقول الحق سبحانه وتعالى
 ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِإِذْنِهِ وَيَعْلَمُ مَا تَرْتَبِئْنَ بِهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

وهـ ما حرمتم « أي ما كسبتم » إدى فالجارجة هي الكاسية . وهو الحق
 وما علمتم من الخوارح « مقصود به الحيوانات التي يعلمها كيف تصطاد بنا ،
 سميت جوارح ، لأنها كاسبه لأصحاب الصيد . فالإنسان يظننها لتكسب به
 صيد ، أو أنها في الغالب تخرج ما اصطاده . وكلا المعين يصبح ويصير

ولأصل في ما علم الإنسان من الخوارح هو الكلاب ، والحق بالكلاب غيرها مثل
 اليهود والنصارى والصقور . والحق قال « وما علمتم من الخوارح مكاييد تعلمونها
 ما علمكم الله » أي ما بدلتكم من جهد في تدريب هذه الخوارح للصيد ، فالإنسان
 يظن الكلب أو الصقر ليصطاد ، لكنه يقوم - أولاً - بتدريب الحيوان على ذلك .

ومثال ذلك - عندما يقوم مدرب الفهود بتدريب كل فرد من الألبان المختلفة ،
 كذلك مدرب « السرك » الذي يقوم بتدريب الأسود وبعينه ، يهد الفيل الصخم
 قف بأربعة أرجل عن اسطوانة فطرف متر واحد ، وذلك كله ممكن بالتدريب بما
 بدكم الله وأعلمكم أيها البشر وبما أعطاكم من طوب الببال وسعه خيره

وننتبه هنا إلى نقطة هامة : إن الإنسان يقوم بتدريب الحيوان على ألعاب ومهام مختلفة ولكن الفيل - من سبيل المثال - لا يقدر على تدريب ابنه الفيل الصغير على الألعاب نفسها وهذا هو الفارق بين الإنسان والفيل ، فابن الإنسان يتعلم من والده وقد يتفوق عليه ، لكن تدريب الحيوان مقصور على الحيوان نفسه ولا يتعداه إلى غيره من الحيوانات من الجنس نفسه أو الذرية فلا يستطيع الحيوان الذي درّبه ورؤسته وعلمته أن ينقل ذلك إلى ذريته وسله فلا يستطيع أن يعلم ابنه .

وكلمة « مكلب » تعني الإنسان الذي يعلم الكلاب ويدربها على عملية الصيد . وقال البعض : إن « مكلب » أي الرجل الذي يفتي الكلاب ، لكننا نقول : إن الإنسان قد يفتي الكلاب لكنه لا يقوم بتدريبها ، إذن المكلب هو الذي يحترف تدريب الكلاب ، ومثله مثل سائس الخيل الذي يدرب الخيل ، فالحصان يحتاج إلى تدريب قبل أن يمتطيه الإنسان أو قبل أن يستخدمه في جر العربات .

ولما ذكر الله « المكلين » ولم يذكر مدرّبي الفهود ؟ . لأن الغالب أن الكلب شبه مستأنس ، أما استئناس الفهد فأمر صعب بعض الشيء . وه « مكلين » تعني المنظمين لتعليم الكلاب عملية الصيد . ويعرف معلم الكلاب أن الكلب قد تعلم الصيد بأنه إذا ما أغراه بالصيد فإن الكلب يذهب إليه . وإذا ما زجره المدرب فهو يرجع من الطريق . وإذا ما ذهب الكلب إلى الصيد بعد تعليمه وتدريبه وأمره المدرب أن يحمل الصيد ويأتي ؛ فالكلب بطبع الأمر . ويأتي بالصيد سليماً ولا يأكل منه . فهذه أمارة وعلامة على أن الكلب تعلم الصيد ويمكن تلخيصها في هذه الخطوات : إذا أرسلته للصيد ذهب ، وإذا رجّره انزجر ، وإذا استدعيته جله ويأتي بالصيد سليماً لا يأكل منه . فإن أكل الكلب من الصيد فهو غير معلم ؛ لأنه أمسك الصيد على نفسه ، ولم يمسكه على صاحبه . ولذلك حلد الحق عملية الصيد بقوله عن الحيوانات التي تؤدي هذه المهمة : « بما أمسكن عليكم » .

ومن ضمن عملية التدريب هناك إطار إيماني ، فالتدريب الفعّال هو عملية يعلمها المكلّب للكلب ، أما الإطار الإيماني فهو ذكر اسم الله عن الصيد : « واذكروا اسم الله عليه » وذلك حتى يكون الصيد حلالاً ، ولا يقع في دائرة « ما أهل لغير الله به » . وإذا ما هجم الكلب على الصيد وقتله ، يكون الصيد حلالاً ، إن كان

يَوْمَ تَقُورُ قُلُوبُهُمْ ذُكِّرُوا وَلَمْ يَمَّا إِلَيْكُمْ ﴿٢٩﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

إذن هم لم يتبينوا أنهم ناموا ثلاثمائة عام وتسعة أعوام إلا بعد أن سألوا، وكذلك من يموت فهو لم يدري كم مات إلا يوم البعث . لو أنه سبحانه سريع الحساب أى أن له حساباً قبل حساب الآخرة ، وهو حساب الدنيا . فعمداً يرتكب العبد المخالفات التى هى عنها الله ، ويأكل غير ما حلل الله ، فهو سبحانه قادر على أن يهزى العبد في الدنيا في نفسه بالأمراض أو التمثب أو المرض النفسى ، ويقف الأطباء أمام حالة حائرين ويقولون الحق : « إن الله سريع الحساب » يصح أن تكون السرعة في الحساب في الدنيا ويصح أن تكون في الآخرة .

أو أنه سبحانه سريع الحساب بمعنى أنه يحاسب الجميع في أقل من لمح البصر ، فالبعض يظن خطأ خاطئاً أنهم سيقفون يوم القيامة في طابور طويل ليتلقى كل واحد حساباً لا : هو سبحانه يحاسب الجميع بسرعة تناسب طلاقة قدرته . ولذلك عندما سئل الإمام على - كرم الله وجهه - : كيف يحاسب الله كل الناس في وقت واحد ويقال إن مقدوره كنصف يوم من أيام البشر ؟ فقال الإمام على : فكما يرزقهم جميعاً في وقت واحد هو قادر على حسابهم في وقت واحد .

فسبحانه لم يجعل البشر نقف طابوراً في الرزق ، بل كل واحد ينهض وكل واحد يأكل ، وكل إنسان يسمى في أرض الله ليأكل من فضله . ولا أحد يقدر على أن يحسب الزمن عن الله ؛ لأن الزمن إنما يحسب على الذى يحدث الحدث وقدرته عاجزة ، لذلك يحتاج إلى رسم .

إننا عندما ننقل حجراً متوسط الحجم من مكانه فإن ذلك لا يكلف الرجل القوى إلا بعضاً من قوته ، لكن هذا العمل بالنسبة لطنس صغير يحتاج إلى وقت طويل ، مما بالنسبة للإنسان والكون ؟ وما بالنسبة للفاعل الذى هو قوة القوى ؟ هو لا يحتاج إلى زمن ، وهو سريع الحساب بكل المعاني .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
إِنَّمَا أَتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْتَفْحِينَ
وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ
عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

سبحانه يبدأ الآية بتكرار الأمر السابق . « اليوم أحل لكم الطيبات » وأما
حق يؤكد على أن الإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمر الطيب إلا من روية أنه حلال
من الله

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن كيفية سؤل انحلال ، وأسباب التعامل مع
الصيد فإن هنا لوقفة ، سبحانه يقول « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم
وطعامكم حل لهم » فهل كل طعام أهل الكتاب هو الطعام الذي يكون من جسر
الختير . لا ، بل الحلال من طعام أهل الكتاب هو الطعام الذي يكون من جسر
ما حلل الله لكم ، ولا يستطيع أن يستكشف الإنسان من أنه طعام أهل كتاب ، لأن
الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل من الإنسان الذي ارتبط بالسوء ارتباطاً حقيقياً
كللمن ، ومن ارتبطوا بالسوء وإن اختلف تصورهم لله ، يريد سبحانه أن يكون
بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميعاً بالسوء ، ويجب أن يعاملوا على قدر
ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسوء

إليك أن تقول بمقاطعة أهل الكتاب لا ، ولكن انظر إلى طعامهم فإن كان من
جس الطعام المحلل في الإسلام فهو حلال . ولا يصح أن تنح واحد من أهل
الكتاب من طعامك ، لأن الله يريد أن يثب شيئاً من الألفة يتناسب مع الناس
الذين سبق أن السوء ما تشريع فيهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا في تصوره .

وضرب لنا - سبحانه - المثل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى أول مجيء الدعوة الإسلامية ، واجهت معسكرا ملحدا يعبد النار ، ولا يؤمن بالإله وهو معسكر فارس ؛ ومعسكرا يؤمن بالإله وهو معسكر لروم ؛ كانت هنالك قوتان فى العالم : قوة شرقية وقوة غربية . وعندئذ يأتى رسول يأخذ الناس إلى طريق الله ، فلا بد أن يكون قلبه وقلوب المؤمنين معه مع الذين آمنوا به وبهج ورسالة ، ولا يكون قلبه مع الملاحنة الذين يحدون غير الله .

ولتر العظيمة الإيمانية فى الرسول عليه الصلاة والسلام سجد الدين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أولى عنده م يكفرون بالله . ولذلك عند قامت الحرب بين فارس والروم كانت الغلبة أولا لفارس . وكانت عواطف الرسول والدين آمنو معه مع الروم ؛ لأنهم أقرب إلى معسكر الإيمان الوليد وإن كانوا يكفرون بمحمد فقد كانوا يؤمنون بالله ، وأن هلك منهجا وهلك يوم بعث ، ولذلك يصرها الحق مثلا فى القرآن لمطينا عدة لفظات ، وأولى هذه اللفظات هى أن المسلمين فى جانب من عدة راحة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ آتَى غَلَبَتِ الرُّومُ ۝١ قَدْ أَتَى الْأَرْضَ فُصْمٌ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سِيْفٌ ۝٢ فِي بَيْتِ سِنِينَ ۚ إِنَّهُ أَكْبَرُ مِّنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٣ بَنَصْرٍ ۚ إِنَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٤ ﴾

(سورة الروم)

وتبدأ هذه الآيات بخبر عن هزيمة الروم ، ثم نبوءة من الحق بأنهم سيفضون فى بضع سنين . ويوم نصرهم سيفرح المؤمنون بنصر الله . وتنظر القوة الإسلامية التى جاءت لتؤسس دينا واسعا جامعا مانعا إلى معركة بين دولتين عظميين كلتيهما على أنصى ما يكون من لرقى الحضارى ، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم وتحزب - القوة الإسلامية - لأن الفرس قد غلبت . فى الحق بالحبر اليقين وهو سَنُفَلِّتِ الروم .

ويقال من الذى يستطيع أن يحكم فى نهاية معركة بين قوتين عظميين ؟ إنه حكم لا يستغرق يوما ، حتى ولو كان قائله عرف أن هناك مددا دائما للقوة التى ستنتصر ،

إنه حكم يستغرق بضع سنين فمن الذى يستطيع أنه يتحكم في معركة يستعد بعد بضع سنين ؟ لا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجاوز بهذا الحكم وهو لا يعرف استعدادات كل قوة رحيم قواتها وأسلحتها ، لكن الأمر بأن كه موثق من الله

﴿ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَظِيمٍ مَقِيلُونَ ① ﴾ فِي بَعْضِ سِنِينَ

(سورة التوبة)

وهذا كلام موثق ، لأنه قرآن مسطور يقرأ المؤمنون تعبطاً وعندما سمع أيوب الصديق هذه الآية ، قال : لقد أتممت رحلتي وأنا بأن الروم منتصر بعد ثلاث سنين وطالبه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجد مدة الزمان لأن الله قال : وفي بضع سنين ، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس، أي بكر - رضى الله عنه - خرابه في الخطر وماته في الأجل فجعلت حالة قلوبهم (باقة) إلى تسع سنين كان هذا الأمر قد لقي الوثوق الكامل من المؤمنين ، لأن سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر .

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ، الذين يؤمنون بكتاب ويؤمنون ومن هنا بعد الحق بحال لنا مطامعة أهل الكتب حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بآله ويمسح السيف . « وعلّم الذين أوتوا الكتاب حل لكم وحملكم حل لهم » .

ولوضح الحق سبحانه ذلك في آيات أخرى حينما قال

﴿ لَا يَنْتَظِرُ اللَّهُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَقْنِئُوا فِي الدِّينِ وَلَا يُخْرِجُوهُمْ مِنْ دِينِهِمْ أَنْ تَبْرَهُمْ وَتَقْطِعُوا إِلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ① ﴾ إِنْ يَنْتَظِرُ اللَّهُ مِنَ الَّذِينَ قَنَئُوا فِي الدِّينِ وَأَتْرَجُوهُمْ مِنْ دِينِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ②

(سورة التوبة)

فسيحانه يريد أن نوازن في أسلوب تعاملنا فلا نساوي بين ملحد مشرك ومؤمن
بصلة السماء بالأرض وإن كفر برسول الله . وإن يكون هناك قدر محدود من التواصل
الإنساني فالذي يحل للمؤمنين من طعام أهل الكتاب هو الذي يكون حلالاً في
منهج الإسلام . ويجب أن يتبه المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تلحلها
الحجور وعليه الامتناع عن كل ما هو محرم في ديننا وليأكل من طعامهم ما هو حلال
لدينا فلا يشرب المسلم خمرًا ، ولا يأكل المؤمن لحم الخنزير .

والطعام كما نعلم وسيلة لاستبقاء الحياة . وها هوذا ينتقل إلى استبقاء النوع وهو
التناسل ، فقد أحل الله لنا أن نتزوج من بناتهم « والمحصنات من المؤمنات
والمحصنات من الدين أولوا الكتاب من قبلكم إذا آتينهم أجورهن أجورهن مخصص غير
مساكين ولا متحدين أحداً » .

والمحصنة لها معيار : وهي إما أن تكون الحرة في مقابل الأمة ، وإما أن تكون
المتزوجة ، لأن الإحصان يعنى الوقاية من أن تحلط اختلاطاً غير شريف . وكانت
الحرة قديماً لا تفعل الفعل الصحيح . وكان الغناء مقصوراً على الإماء ، لأن الأمة
لا أب لها ولا أح ولا عائل ، وهي مُهَنَذة الكرامة . ولذلك نجد أن هذا زوجة
أبي سفيان عندما سمعت عن الرما من رسول الله صلى الله عليه وسلم تساءلت .
يا رسول الله أو تزل الحرة ؟! كان الحرة لم تكن تزل في الحاملية ، لأن الحرة تستطيع
أن تمنع عكس غيرها

والمحصنة أيضاً هي المتزوجة . ويساوي الحق بين المحصنة من المؤمنات والمحصنة
من أهل الكتاب ، والمراد هنا الحرة العقيمة وبشرط وصح المهر لكل واحدة منهن .
وبعض العلماء يقول : عندما تزوج مسلمة يكفى أن تسمى لها المهر ، لأن الدين
الواحد يعطى الأمان السهوى ، أما الرواج من كناية فيجب أن يحدد الإنسان المهر
وأن يقرره وأن يوفى بذلك فالإتياء هو أن يسمى الإنسان المهر ويقرره ويشهد عليه
الشهود ويستطيع أن يجعل الإنسان المهر كله مؤخر . والشرط أن يكون الرجل
محصناً أى متعصفاً

ويحدد الحق : « غير مسافحين ولا متحدين أحداً » أى صدائق لهم دون رواج ،

الصبح هو الصبب والمرأة البهي هي من يسمح معها أي رجل ، واخذن هي
المخلقة أو المشيئة دون رواج ، واخذن كذلك يطلق من الذكر كما يطلق من
لأننى . ولعلك أن تفكر في أمر إقامة علاقه رواج متبه ، بل لا بد أن يكون الإقبال
على الزوج بية الرواج التائيسى لا الزوج الاستمتاعى .

ويقول الحق من بعد ذلك . « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة
من الخاسرين » ، لأن فائدة الإيمان أن يستقبل المؤمن الأحكام من أمس به هذا
بعدها . ومن سترت شيئا من أحكام الله التي آمنت بها فقد كفرت بالإيمان . والحق
' يضرب أن يكفر الناس جميعا ' لأنه هو الذى خلق الخلق بداية وهو متصف بكل
صفات القدرة والكمال

إذن فالعالم كله لا يضرب إلى الله شيئا ، فقبس أن يخلق الله الإنسان كانت كل
صفات الكمال موجودة لله . وكل ثمر الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على
(إنسان) فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التي شرعها الله له ، وستر حكما منها فكانه
مربصية الإيمان . وإن أنكر جبرية من جبريات الإيمان ، فهذا ثوب من الكفر ،
بالحق من يفعل ذلك أن يقول . « إن هذه الجبرية صحيحة ولكن لا أقدر على
سي »

في هذه الحالة يكون الإنسان مؤمنا عاصيا يستغفر الله أو يتوب ، أما الكفر
لا والكفر بالإيمان يؤدي إلى حبط العمل وهذا دليل على أن الحق يخاطب إنسانا
يتم في بعض الأشياء ولا يلتزم في البعض الآخر وهذا يوضح الحق للإنسان إن
أثبت من خير أو أمثالك سيذهب بثوابه ويحبط جزاءه ما تمتع تنفيذه من أحكام
له ، وجاء الحق بكلمة « حبط » التي تدل على أن العمل بطل وجذب دعائها
يعود فالناتية حين تأكل طعاما لم ينضج بعد وإن كان من جسد ما تطعم مثل
برسيم في بدايته ويسمى « الربة » ، هذا البرسيم عندما ترعى فيه البهائم
يذث لها لتصبح في البطر وغوت

والعرب تسمى هذا البناء الحباط . فالحبط إذن هو انصاخ البطن في المأثية التي
كل أكلا غير مناسب ها . ويظهر صاحبها أن قد سمعت بها هي قوت في الواقع .

وكذلك يكون العمل عن غير ما شرع الله . والحق بدأ قصابا الإيمان في هذه السورة بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا بِالْعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

فكل عقد إيماني يتعلق بالوحدانية لله وبالبلاغ عن الله ، وكل عقد عقد بين المؤمنين بعضهم بعضا ، وكل عقد عقد الإنسان بينه وبين نفسه ، هذه العقود مطلوب الوفاء بها ، ومن يكفر بهذه الأشياء فقد حبط عمله . وحبط العمل يأتي نتيجة أن الإنسان أسى عمله ونحته بهذا اللون من الكفر وظن أنه عمل عملا صالحا . لكن العمل يحبط تماما كما تذهب الهمة ترى شيئا لا يتناسب معها فيتضع بهتها . فيخيل للرأى أن ذلك شيع وأن ذلك عافية ، ثم لا تبث أن تنق وتموت . كذلك عمل الذي يكفر بالإيمان ، يقطن أنه عمل شيئا ولكن ذلك الشيء متلف له . والآيات القرآنية تكلمت عن هذا المعنى كثيرا ، فالحق يقول عن الكافرين بالله :

﴿ اتَّخَذُوا كَسْرًا بِفِيْعَةٍ يَتَّخِذُونَ الْمَائِدَاتِ مَائًا حَتَّى إِذَا حَادُّهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

ويعلم أن السراب هو شيء من انعكاسات الضوء يخدع الرأى السائر في الصحراء فيظن أنه ماء ، ويسير إليه الإنسان فلا يجد ماء ، هكذا يكون عمل الذي يكفر بآيات الله . إنها أعمال تبدو متوهمة النفع . وقول الحق سبحانه : « ووجد الله عنده » أى أن مثل هذا الإنسان يفاجأ بوجود الله ، كأن مسألة وجود الإله لم تكن بخياله من قبل ، والإنسان لا يأخذ أجره إلا لمن عمل له . فهل عمل الواحد من هؤلاء الله حتى يأخذ منه أجرا ؟ لا . لم يعمل الله ، ولذلك نجد أن بعض السطحين في التهم يقولون : كيف لا يجزى الله الجزاء الحسن هؤلاء العلماء الذين اخترعوا العلاجات للأمراض ، والعلماء الذين ابتكروا الأشياء التي تنفع الناس ؟ كيف لا يحسن الله جزاءهم في الآخرة ؟

ونقول : لقد فعلوا ذلك ولم يكن الله في بالهم ، كان في بالهم الإنسانية ، وقد أعطتهم الخلود في الذكرى وأقامت لهم التماثيل ومنحتهم أوسمة ورضعت بهم

المؤمنات لتحبهم هم قد عمرو لناس فأعطاهم الناس . وهؤلاء الكافرون يقدمهم في العلوم : مسحرون للإنسان المؤمن : فالؤمن يستفيد من الكهنة ، يستمع بها ، مستمعون يقرأ القرآن والعلم والذكر . ويستفيد مسلم من الطقوس يذهب بها إلى الحج وزيارة المدينة المنورة ، ويستمتع بها كذلك في شئون دنياه ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب حتى لا يكرهوا أدله وعالاه عن غيرهم . وإحقق يسبح علم الكفار للمؤمنين ، ولا يناب الكفار عن هذا بعمل من الله . ولست يقول الحق من أعينهم مرة

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّنْهُمْ كَمَثَلِ كَثَابٍ يَرْجِعُ بِحَسَبِ الْقَطْعَانِ مَا هُمْ عَنْ إِذْ جَاءَهُمْ بَيِّنَةٌ شَرْقًا وَوَعَدَ اللَّهُ عَذَابَهُمْ عَذَابًا جَدِيدًا ۝ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾

(سورة النور)

ومرة أخرى يقول الحق

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُنزِلُهَا بِحَسَبِ مَا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ الْكَافِرُونَ ۝ وَمَا كُنَّا عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مُنْصِفِينَ ۝ ﴾

(سورة إبراهيم)

وهو هو سبحانه وتعالى يقول

﴿ قُلْ هَلْ حَسِبْتُمْ بِالْآخِرِينَ عَمَلًا ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي آخِرَةِ الدِّينِ وَهُمْ يَعْسُوبُونَ ۝ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُنْصَفُونَ ۝ وَلَئِنْ لَمْ يَنْفَكُوا عَنْ آلِهَتِهِمْ الْوَيْدِيقِ وَالْعِزِّيقِ وَنَحْوِهِنَّ الْأَشْجَارِ أَذْهَبَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ لَمَّا كُنُوا فِيهَا مُنْصَفِينَ ۝ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالإنسان الذي يستر الإيمان بفضله أو كلفه . هو إنسان حابط العمل ، وهو في الآخرة من الخاسرين ، لأن النجاح في الآخرة نتيجة لعمل الدنيا . وما دام قد عمل خير الله في الدنيا فلا بد أن يكون من الخاسرين في الآخرة

وقوله الحق : وهو في الآخرة من الخاسرين : يوضح لنا ضرورة ألا نخدع ونعمر

بنا لأن بعضاً من الكافرين يكسب بعضاً من الشهرة واجله والثروة نتيجة احتراعاتهم ، فكل ذلك أمور قانية ، وهم مستسلمون لسنة الله ، ولما أن يفوتهم النعيم ولما أن يفوتوا النعيم واحبات الخلق يكون في الآخرة ، والكافر وإن أخذ شيئاً من الكسب في ظاهر هذه الحياة الدنيا فهو حاسر في الآخرة .

وبعد ذلك ينتقل الحق ليربط لنا كل قضايا الدنيا رباطاً واقعياً . فبعد أن يتكلم عن مقومات الحياة وعن مقومات الوجود بالإنكاح وغيره ، بوضع : كل هذه نعم أعطيتها لكم وأريد أن أحد بأيديكم بعد أن يستحكم فصل هذه النعم عليكم ، لتلتفتوا بصاحب كل هذه النعم هو سبحانه يريد أن يأخذنا من مشاغل الدنيا لتلقى النعم وحتى تلقى أيها المسلم الإله النعم - سبحانه - فلا بد أن تعد نفسك لهذا اللقاء ، لأنها ليست مسألة طارئة ، فلا بد من الإعداد الروحي والإعداد البدني والإعداد المكاني والإعداد الرماني .

إن الإعداد البدني يكون بالطهارة . والإعداد الرماني هو مواقيت الصلاة . والإعداد المكاني هو وجود مكان طاهر لإقامة الصلاة وإعداد اتجاهي بتحديد وجهة الصلاة إلى القبلة . وهذه كلها مواصفات تهيئ النفس البشرية للوقوف بين يدي من أنعم على الإنسان بكل النعم . ولذلك يقول : إن الصلاة إعلان استعداد الولاء الإيمان للمخلوق المجدد المعظم ، فهو الذي خلق من عدم وأمد من عدم ، وقد فرص الحق سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات في اليوم ، ليقطع على الإنسان سبيل الخلة عنه . وإذا ما أراد الإنسان أن يلتقي الله في الأوقات التي بين الصلوات ، وأراد أن يعلى استعداد الإيمان وهو يقوم بأي عمل غير الصلاة فليذكر الله ، لأننا نعرف القاعدة الشرعية القائلة :

[ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب] .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصلح فهو يحتاج إلى قوة واقوة تتولد في الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن عملية صناعة الطعام أمر واجب وكل ما يترتب على ذلك عملية واجبة . ولذلك عندما يأكل واحد ويقول : لويد أن أنقطع للعبادة وأعزلي حركة الحياة . لنقل له . افعل ذلك بشرط واحد هو ألا تتعبد بحركة متحرك واحد

الحياة ، ولا تتناول أي طعام ، ذلك أن الرقيب الذي يقدمه لك إسان هو من مل بشر كثيرين م ينقطعوا عن الحياة ولنفس أيضاً فاد، يرتلى هذا الحجاب ؟
 نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، هناك من رزع القطر وآخر حنح هذا القطر
 البت حونه إلى عول رابع مسجه وخامس قام بتفصيل هذا الجنب ، وتظهر إلى
 خلف كل واحد من آلات وإياك ان تتم بحركة واحد مشعول بالأسباب
 تمت قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة

إن الشغل بالأسباب عباده ، لأن العبادة لا تتم إلا به . وما لا يتم الواجب إلا به
 واجب ولذلك فتعلم المهارات المفيدة لمحبة هو فرض كفايه ، والفرض
 واجب على الإنسان أحد اثنين إما فرض عين وهو الأمر المكلف به العبد ولابد
 يؤديه ولا يجوز أن يؤديه أحد بياة عنه ؛ كالصلاة ، وإما فرض كفايه وهو
 لا يتم الواجب إلا به لذلك كان واجباً ، فكل من يريد الصيام

لذلك لابد من تسييم العمل ، فهذا يرجع وهذا يصح ، فلا بد من راحة
 سح ولا بد من إقامة المظاهر ولا بد من إقامة الأفراد ولا بد من مهنيين
 يعمون هذه الآلات . وكل ذلك أمور تسهل للإنسان أن يمتلك القوة لأداء
 صلاة ؛ وأن يقف بين يدي الحق ليؤدي الصلاة . إند نكل ذلك أمر واجب ، وهو
 من كفايه . أي أنه فرض إند قام به البعض سقط عن الباقيين ، وإن لم يتم به
 فمنا يكون الإثم على الجميع

ومثال آخر هو الصلاة على الميت من فرض كفايه ، من يصلي عن الميت فهو
 أي عنه ، وإن لم يصلي أحد على الميت يكون الإثم على كل مسلم ، وهكذا نسح
 من الإثم . وكل الأعمال التي لا يتم الواجب إلا بها فهي واجب ، ولذلك فهي
 من كفاية ، إند قام به البعض سقط الطلب عن الباقيين ، وإن لم يتم به البعض
 إثم عن الجميع

وما موفى في الأمر في هذا ؟ . على وفي الأمر أن يمرض الضيام بفرض الكفاية
 ، أحد الناس ، وإلا تمطلت الواجبات التي يقول عنها إنها واجبات قلبية
 من يذهب المسلم إلى السوق فلا يجد حبراً ؛ يصعب ولا يملك الفكاك من

المجاعة ؛ ولن يقدر على الصلاة أو العمل بسبح أو يجتهد ادحاراً يكفيه أن يحج
إدب ما لا يتم الروح إلا به فهو واجب ، لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حياً
حننا على أداء الصلاة في يوم الجمعة يقول

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بُدِئَ صَلَاتُكَ يَوْمَ أَخْمَلِهِ فَاسْتَعِزَّ بِدِكْرِ اللَّهِ وَدُرِّ السَّيِّئِ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكَ إِذَا كُنْتَ تَعْبُرُ ۝ ٢٩٤٧ ﴾

(سورة الجمعة)

هو سبحانه يحرجنا من العمل إلى الصلاة ، ولم يحرجنا إلى الصلاة من فراغ ،
لندفع إلى دقة أداء القرآن حين يقول الحق : « ودرو سبيح » وحين يدر الإنسان
البيع ، فهو يدر الشراء من ماب أولى ، لأن سبيح والشراء وجهان لعملية واحدة
والخلاص فقط أن المشتري قد يشتري السلعة وهو كاره لأن يشتري ؛ لأنه يسهك
مقوده فيما يشتريه ، أما الشئ فيريد أن يحصل على من البيع فوراً ، وعالمنا ما يحصل
على ربح من وراء ذلك ، وثلاث هي قمة الكسب فكسب الرارح - على سبيل
المثال - يأتيه بعد شهر من الزراعة وكسب الموظف يأتيه أول الشهر لكن اباتع
يحصل على الكسب فوراً ولذلك يفرح الحق أن يدر سبيح إذا سمع مداء الصلاة
يوم الجمعة ، ومادا بعد انتهاء الصلاة ؟

ها هو ذا الحق يقول

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْشُرُوا فِي الْأَرْضِ وَاسْتَعِينُوا بِمُضِيِّ اللَّهِ وَذَكُّوا اللَّهَ كَثِيرًا
تَعْبُرُ تَعْبُرُ ۝ ٢٩٤٨ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فلا يقول أحد أنه مقطع طوال حياتي بالصلاة فلن يستطيع أحد أن
يذهب إلى الصلاة عام يكن يملك مقومات حياته ومقومات حياته تعصى أن
يضر الإنسان في الأرض ولا بد أن يتنقى الإنسان من فضل الله ، إذن ،
فالسعي في الأرض هو عبادة ؛ لأن ما لا يتم الروح إلا به فهو واجب ويريد الحق
سبحانه وتعالى ألا يعزل قضية تتعلق بمقومات الحياة طعاماً وإسكناً عن الصلاة
فيأتي الحق سبحانه وتعالى بشروط لوصوه استمداً للصلاة بعد أن يتحدث عن

مكافئ المحرمين الأطعمه وتحريم بعضها ، وبعض من أحكام السكاح ، وذلك لعرف
 ، مسئوليات الإيمان كلها مترابطه ، فلا يصح أن يمرر عسلاً ويقول: هذا عمل
 منى وذلك عمل غير تعبدى

وانزلون عندما يضعون الكتب في المقه ويحسون اقتساماً في هذه الكتب
 عبادات وأقساماً للمعاملات ، فهذا التقسيم تقسيم تصيحي تأليفي ، لكن كل
 يطلبه الكون لينتج فهو عبادة خالصة هذا الكون ، بدليل أنه قال : « عاشوا إلى
 كراثة وذروا البيع » وهذا أمر وينلوه أمر آخر « مد نصيب الصلاة فانتشروا في
 لأرض »

إن الإنسان لا ينفذ أمراً ويهمل أمراً آخر ، ولكن عليه بمقتضى الإيمان أن يعد
 لأمرين معاً ، فإن تأخر الإنسان في أى من الأمرين فهو مذنب ، لذلك يجزى
 سبحانه - من يعد الحديث عن النعم التي أنعم بها علينا - بما أحل لنا من بهيمة
 لأنعام ، ويحس عينا من الزواج من محرمات ، ما هوذا يدخلنا إلى رحابه
 الاستعداد للصلاة لأنه واجب كل النعم ، ويأمرنا بالاستعداد للصلاة وأن يعد كل
 أحد منا نفسه لها

وهذا الإعداد يؤهل المسلم بيقنى الحق فقال

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
 فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا
 بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ
 جُمُوعًا فَأَظْهَرُوا وُجُوهَكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً وَإِنْ
 أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْعَاطِلِ أَوَلَّعْسَنُ الْيَسَاءِ فَلَمْ يَجِدْ مَاءً

فَنِيْمُوا صَعِيْدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَاَيْدِيكُمْ
مِنْهُ مَا يُرِيْدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيْدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُوْنَ ﴿٦﴾

سبحانه يا من لا يموت ولا يموت . إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا بد لكم من تنميد
عملية الوضوء .

وتعرض الآية إلى الأركان الأساسية في الوضوء وقد يلتبس الأمر على بعض
الناس ولا يستطيع أن يميز بين مس الوضوء وأركان الوضوء ؛ لأن السن تقتضي أن
يفسل الإنسان يديه ثم يتمضمض ، ثم يستنشق الماء وهكذا . هذه هي المس التي
تنتج بالأركان الأساسية للوضوء .

وبناءً على أركان الوضوء الأساسية بقوله : « فاغسلوا وجوهكم » والغسل
يطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك والمسح هو التمس بالماء
لبسب العضو ولا ينظر منه الماء ؛ إنه مجرد بلولة بالماء . والحق سبحانه وتعالى حينما
تكلم في هذه الآية عن الوضوء ، تكلم عن أشياء تعمل وعن شيء يمسح . فالأمر
بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرفق والرجلين إلى الكعبين . والأمر بالمسح
يشمل بعض الرأس والغسل قد يكفي مرة أو اثنتين أو ثلاثاً ليتأكد الإنسان تماماً
من الغسل ، ولكن إذا كانت المياه قليلة يكفي أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة وأن
يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة .

إن الزيادة على المرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مستحسن لا واجب وغسل الوجه
معروف تماماً للجميع ، فالوجه هو ما به المواجهة والمواجهة تكون من حيث الشعر
إلى الذقن ، وتحت منتهى الحية وهما العظامان اللذان تثبت عليهما اللسان السفلي ،
هذا في الطول ، وفي العرض يشمل الوجه ما بين شحمي الأذنين ولا أحد يختلف في

تحميد الوجه ، ولذلك أطلق الحق الوجه وبم يمينه بعمية ، فلم يقل أفضل وجهك ، كذا إلى كذا ؛ ولكنه أمر بغسل الوجه ، فلا اختلاف في مدلول الوجه لهذا الجميع . والكل متفق عليه ، هذا إذا ما بدأنا بفروض الأساسية لكن إذا ما بدأنا بالسؤال فمن يغسل الكفين إلى الرسغين أولا ثم تتمضمض ويستنشق .

وبعض العارفين بالغ يعرفون عن هذه المقدمات التي هي من الممنوع ، إنها لم تأخذ اعتبارا ؛ لأن تعريف الماء هو : السائل الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، وإذ تعبر أي وصف من هذه الأوصاف يكون السائل قد خرج من المائية . فباعتبار تلك الماء يديك مستطمش على لون الماء ، وتعرف أنه لا لون له ، وعندما تتمضمض فأنك تطمش إلى أنه لا طعم له ، وعندما تستنشق فأنت تطمش على أن الماء لا رائحة له . وبذلك تطمش في أن الماء الذي تستعمله في الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف في أن يبدأ في عمل المطلوب من أركان الوضوء التي يطلبها الله ، وبسنة تقيمت هنا هي الأركان الحكمة هي أن توفر للإنسان الثقة في الماء الذي يتوضأ منه . وبعد ذلك يغسل الإنسان الوجه من صابت شعر الرأس وتحت متتهن عليه وذلك طولا وما يو شحمتي الأدين عرضا

وبعد غسل الوجه قال الحق : « وأيديكم إلى المرافق » وبمر الحق هنا الآية بتحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق ، أي أنه زاد خفية لم توجد في الوجه ، ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق ؛ لأن اليد تطلق في اللغة ويراد الكعب ، مثال ذلك في حكم الحق عن السارق والسارقة

﴿ فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وتطلق اليد أيضا ويراد بها الكعب والساعد إلى المرافق . وتطلق اليد أيضا ويراد بها إلى الكعب . فليد ثلاث إطلاقات . وبأن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الخسب به إلى المرافق ؛ لأن البعض كعبه فقط ، وغسل البعض يديه إلى المرافق ولغسل البعض يديه إلى الكعبين ؛ ولأن الحق يريد غسل اليد على وجه واحد محدد لذلك قال : « وأيديكم إلى المرافق »

إذن فمساحه يريد الحق شيئا محديدا ، فهو يأمر بالأسلوب الذي يجلده تحديدا يقطع

الاجتهاد في هذا الشيء . وكلمة «إلى» تحدد لنا الغاية ، كما أن «من» تحدد
الابتداء ، ولكن هل تدخل الغاية هنا أم لا ؟ هل تدخل المرافق في الغسل أم لا ؟
إن «إلى» قد تدخل الغاية مرة أخرى لا تدخل الغاية

فمثال إدخالها الغاية قوله تعالى :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

هل أسرى الحق برسوله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى وم يدخله ؟
لا أحد يعقل ذلك . إن «إلى» هنا تقتضي أن تدخل الغاية ؛ لأن الرسول صلى الله
عليه وسلم كان قد ذهب إلى المسجد الأقصى بمراد الإسراء إليه والدخول والصلاة
فيه . ويقول سبحانه :

﴿ثُمَّ أَيْمَنُوا بِالصِّيَامِ إِلَى الْبَيْتِ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

فهل يدخل الليل في الصيام ؟ لا ، لأننا لو أدخلنا الليل في الصوم نصلي في
الصيام وصل أي نصل الليل بالنهار صائمين . إذن فمع «إلى» تحدد الغاية تدخل
مرة ، ونجدها لا تدخل مرة أخرى . ويختلف بعض العلماء حول المرفق هل يدخل
في الغسل أم لا ؟ وصار في عموم الاتفاق أن يدخل المرفق في الغسل احتياطياً ؛ لأن
أحدًا لا يستطيع تحديد المرفق من أين وإلى أين . ونعرف أن هناك احتياطات
للتعقل ، فمرة نحتاط بالاتساع ومرة نحتاط بالتضييق .

مثال ذلك عندما نصلي في البيت الحرام . ونحن نعرف أن الكعبة بناء واضح
الجدران ، وبجانب جدار من جدران الكعبة يوجد الحطيم وهو حجر إسماعيل وهو
جزء من الكعبة يحيطه قوس . وعندما يصلي إنسان حول الكعبة ، هل يتجه إلى
الحطيم أم إلى بناء الكعبة ؟ لأنه مقطوع بكعبيته ، والاحتياط هنا احتياط بالتقص ،
فتوجه إلى الكعبة وهي البناء العالي فقط ، ولكن عند الطواف . فإننا نطوف حول

الكعبة والحطيم ، أى إن الاحتياط هو يكون بالزيادة ؛ لأننا إذا ما طعننا حق م وراء المسجد فهو طواف حول بيت الحرام

إذن فالاحتياط يكون مرة بالقص ومرة يكون بالزيادة ، وفى محال الوضوء يكون غسل المرافق هو احتياط بالزيادة ؛ ذلك أن « إلى » تكون العناية بها مرة واحدة ، وم تكون العناية بها عبر فاحلة .

ثم يقول الحق سبحانه ونعاني من بعد ذلك « وامسحوا برءوسكم » لأسلوب هنا يختلف ؛ فالمطلوب هو المسح كان المطلوب أولاً هو العسل للوجه ع انطلاقه ؛ لأنه لا خلاف على الوجه ، ثم غسل يمين يلى لمرافق ، وتم لمزيد العا لأن الحق يريد العسل لليدين على دون يقطع الحنك ولا اجتهد فيه . ويقول الحق « امسحوا برءوسكم » مثلاً قال « غسلوا وجوهكم » لما كان هناك خلاف لك لو قال « امسحوا برءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم فذلك البعض يحدد ولو قال « امسحوا برءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم قد يوجد خلاف لأن لمزيد الرمح هسير وشاق

لمادة إذن اختار الحق هنا هذا الأسلوب « امسحوا برءوسكم » مع أن فى الآ أساليب كثيرة ، منها أسلوب مجرد عن العناية ، وأسلوب موجود به العناية ، وهذا الأسلوب لا هو مجرد ولا هو موجود به العناية ؟ وقال الحق « امسحوا برءوسكم » ونأ أن يبحث عن كيميه استعمال حرف (الباء) التى تسبق « رءوسكم » . إن « الباء » فى اللغة تأتى بمعنى كثيرة قال ابن مالك فى الألفية

بالباء اسمى وعد عوصى لصى

ومثل « مع » و « من » و « عن » بها انط ومقصود بها أن يعطى الحرية بالمشروع ؛ لأن الباء تأتى لمعان كثيرة ، للاستعما مثل : كعبت بالقلم ، ولتصية لفعل اللارم نحو ذهبت بالمريض إلى الطبيب وللتعويض مثل اشريت القدم بعشرين جديها ، والالتصاق نحو مررت بعالمه ، ونأى بمعنى « مع » مثل بعندك اليب بأثائه أى مع أثائه ، وبمعنى « من » مثل شرب بماء النيل أى من ماء النيل ، وبمعنى « عن » مثل قوله تعالى « سأ سائل بعذاب واقع » أى عن عذاب واقع ، ونأى أيضاً بنظرية نحو ذهب [

فلا بالليل أى فى الليل ، وتكون لليلة نحو : باجتهاد محمد منح الخاتمة أى بسبب اجتهاده ، إلى غير ذلك من المصاحبة نحو : مسح محمد ربك ، أى مسح مصاحبا حمد ربك .

إن الذى يقول : امسحوا بعض رءوسكم ولوشعره ، فهذا أمر يصلح ويكفى وتسعفه الباء لغة ، والمسح يفتى الإلصاق ، والآله الماسحة هى اليد . وهناك من يقول : تأخذ على قدر الأداة الماسحة وهى اليد أى مسح مقدار ريع الرأس .

إذن كل حكم من هذه الأحكام يصح لتمام تنفيذ حكم مسح الرأس ، وبأن الله يريدنا على لون واحد لأوضح ما أراد ، فإن أراد كل الرأس لئال : امسحوا رءوسكم ، كما قال : فامسحوا وجوهكم ، وإن كان يريد غاية محدة ، لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين . ومما سمعناه قد جاء بالباء ، والباء فى اللغة تحتل معانى كثيرة ، لذلك فمن ذهب إلى واحدة منها تكفى ، لأن أى غاية محتملة بالباء أمر صحيح

والأمر هنا أن يفهم كل منفذ لحكم محتمل ألا يخطئ الحكم الآخر . بل عليه أن يقول : هذا هو مقدار فهمي لحكم الله . والله ترك لنا أن نفهم بمدلول الباء كما أرادها فى اللغة . وقد خلقت الحق أيها الإنسان مقهورا لأشياء لا قدرة لك فيها ، كحركة الحوارج ، وكالأشياء التى تصيب الإنسان كالنوت .

إن هناك أشياء أنت مخير فيها ، ولذلك كان تكليف الحق لك مبنيا على هذا : هى أشياء يقول لك : « اعمل كذا » أو « لاتعمل كذا » وفى أشياء أخرى يترك لك حرية التصرف فى أداثها . وذلك حتى يتسق لتكليف مع طبيعة التكوين الإنسانى . فلم يصب الله الإنسان فى قالب حديدى . ولنا فى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة ، هذ الرسول الذى أوكل إليه الحق ليضاح كل ما همض من أمور الدين ، فقال له الحق .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الْفُرْقَانِ الَّذِي يَصِفُ الْحَسَنَاتِ وَالَّذِي يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ الْقَوْمِ الَّيْسُ مَا تَرَى إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة البقره)

وحينها كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين فى غزوة الأحزاب التى قال عنها الحق :

﴿ هَبْ لَكَ أُسْلِيَ تَتُؤْمِنُونَ وَذُرُونَا لَا شَيْدَ ﴾

سورة الاحزاب

هذه الحركة كانت فسيحة ، حرك الحق فيها الريح وتغرى فيها اعداء الإسلام ، يرف الحق الاحزاب ورجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى انثية . وكان من بروض أن يرتاح المؤمنون المقاتلون لكن قيل أن يخدموا ملابس الحرب جاء من إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لو قد وصعت السلاح يا رسول الله ؟ نعم : فقال حبريل فيها وصعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن من طيب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد بهم عبرك يوم قد أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مؤدنا فاعد في ناس . « لا يصيب أحد العصر إلا في بني قريظة فلدرك بعضهم العصر في طريق ، فقال بعضهم لا يصل حتى تأتيه ، وقال بعضهم بل يصل لم يرد منا ذلك كره للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يفت أحدًا منهم »^(١)

هي مسألة كبرى إذن . والتزاما بامر النبوة عرج الصحابة إلى مواقع بني قريظة . نادت الشمس مغرب وهم في الطريق ، وانقسموا إلى قسمين ، قسم قال : متعب شمس ولم يصل العصر فلتصمه قبل أن يعيب الشمس . وقال القسم الثاني : لقد ربا النبي ألا يصل العصر إلا في بني قريظة ، وإن يصيبه إلا هناك وإن خابت شمس . وصل القسم الأول ولم يصل القسم الثاني

وعندما ذهبوا إلى المشرق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا له الأمر لم يبه على أي جانب منهم شيئاً ، وأقر هذا ، وأقر ذاك . وتلك لحظة النبوة ، طاب لي الله عليه وسلم يعلم أن كل حدث من الأحداث ينطبع زماناً وينطبع مكاناً ، ليس صلوا نظروا إلى عنصرية الرمي ، وخافوا أن تغرب الشمس قبل ذلك ليس لم يصلوا نظروا إلى عنصرية المكان فلم يصلوا العصر إلا في مواقع قريظة وأقر رسول الله الأمرين معا

إن هذا يشنا على أن هناك أشياء يركها الحق قصداً دون تحديد فاطح لأنه يجب ، أي لون ، مثال ذلك أن فعل من مسح ربه رأسه في الوضوء جائز ، وفعل من مسح رأسه كلها جائز ، وجاء الحق بالياء الصالحة لأي وجه من وجوه مسح الرأس ،

(١) روى البخاري في صلاة الخوف وروى البخاري

وكذلك شأن الخلافات في الأمور الاجتهادية وإذا كانت الدفعة الشرعية بهول
ولا اجتهاد مع النص فهذا لا يكون ، لا مع النص الذي لا يحتمل الاجتهاد

وليس كل التشريع هكذا ، لأنه سبحانه أوضح ما لا يحتمل الاجتهاد ، وأوضح
ما يحتمل الاجتهاد ؛ وحسبما كتف الله عبده الإنسان بتكليفات ، يكلفه في يتناسب
وتكوينه ، وفي أن تكوين الإنسان فيه أشياء هو مظهر عليها فهناك الأحكام التي
لا اختيار له فيها ، وهناك أمور اختيارية ، وما وصل إليه اجتهاد هو حق وصواب
يحمل خطأ ، وما وصل إليه غيره خطأ يحمل الحق والصواب . ولكن ما وصل إليه
طرف من الاجتهاد حق لأن النبي صلى الله عليه وسلم صواب من حصل العصر قبل
أن يصل إلى أرض بني فريضة ، وصواب كذلك من حصل للعصر بعد أن وصل إلى
موقع بني فريضة فالرسول - صلى الله عليه وسلم - اعتبر فعل كل طريق منهما
صواباً

ويقول الحق من بعد الأمر بمسح لرأس ، « وأرجنكم » وكان سياق النص
يقضي كسر اللام في « أرجنكم » ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على عمل لوجه
واليدين وغير معطوفة على « برءوسكم » وهذا يعني أن الأرجل لا تدخلان في حيز
المسح ، إنما تدخلان في حيز غسل

ويشأن الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على آخره المصرح بمسحه ،
ولكنها معطوفة على الأعمدة المطلوب غسلها ولم يأت الحق بالمصرح في جانب
والمعقول في جانب ليدل على أن الترتيب في هذه الأركان أمر تعبدى والإلتزام
بالمعصوم معاً والمسح معاً ، ويجدد الحق أيضاً غسل الرجلين إلى الكعبين
« وأرجلكم إلى الكعبين » وأرجل تطبق على القدم ، وتطبق على الساق إلى
أصل لمجد ويريد سبحانه غسل الرجلين محدوداً إلى الكعبين

وحتى نعلم أن هذه مسائل تعبدية ، عرفنا أن اليد تطبق على الكعب ، ومن
أطراف الأصابع إلى الكعب يطبق عليه « يد » أيضاً ، والمرفق في اليد هو الحد
الوسط ، وه الكعبين هو الحد الأول في الساق ، لأن الوسط بعد الساق هو
الركبة إذن ترتيب المسألة في اليدين كف وساعد وعصا ، والمرفق في وسط
اليد ، وفي الرجلين يقف الأمر عند الحد الأول وهو الكعبين هي - إذن - مسألة تعبدية
وليست مسألة قياسية

ويعين الحق لنا أنه إذا أراد أسراً بدقه فهو يحدته بلا مدخل أو خلاص . أما إذا جاء من غير واضح فهو إذن منه سبحانه أن يجتهد فيه يشعر أن لنا بعض الاختيار في من ما تصدنا الله به ، وكله داخل في مراتب الله ، لأن إيراد النص شاملاً لكل مهمات هو إذن بهذا المفهوم وإذن بذلك المفهوم

« فاعلموا وجوهكم وأيديكم إلى الرفاق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى كعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا » إن الوضوء شرع لعدم الجنب أي أنه لم يحدث دناءة أصغر . وهناك فرق بين إخراج ما ينقض الوضوء وهو ما يؤدي ، وبين إخراج نجس ، فإنزال المني أو حدوث الجماع يفتي الطهارة بالاغتسال . ومعلوم أن ناساً حين يستمتع بغيره ، أو يستمتع برأيه ، أو يأكل شيء هو محدود بوسيلة استمتاع به ، أما الاستمتاع بالجماع فلا يعرف أحد بأى عضو أدركه لذته . وهي سائلة معقدة إلى الآن . ولا يعرف أحد كيف تحدث ، مما يفك حل أن جميع هرات تكون الإنسان مشتركة فيها . وما دام الأمر كذلك فالطهور يقتضي أن يغسل نساء كل جسمه

« وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الماء فامسحوا بوجوهكم »

وقد يقول قائل . أليست « لا تمسح النساء » كالحياة ؟

ويقول : إن الذي يعني هو حكمك أنك يوضح لنا ما يوجب من المياه ، لأن الحق سبحانه لا تسقط عن التكليف أبداً ، لذلك لم يكلمه بشيء قد لا يجده ، فقد يجد الإنسان المياه ، وعليه إذن بالتيمم ، لأن الصلاة عبادة لا تسقط أبداً عن كلف حتى في حالة مرضه الذي لا يستطيع أن يحرك معه أي عضو من جسمه ، ما صح سبحانه للمريض أن يصلي جالساً ، أو مستلقياً أو يصل بالإيماء برأسه ، أو بل بأعصاب يديه ، وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على ، لأن فرض الصلاة عبادة لا تسقط أبداً عن الإنسان مادام فيه عقل

إننا نعرف أن الصلاة هي الركن الوحيد من أركان الإسلام الذي يتطلب ستامة ، فيكفي المرء أن يقول الشهادة مرة واحدة في العمر ، ويسقط الصوم عن

الإنسان إن كان مريضاً ، وعطشاً ، أو يؤديه في أوقات أخرى إن كان مريضاً مرضاً مؤقتاً أو عن سفر . وقد لا يؤدي الإنسان الزكاة لأنه فقير ، وكذلك الحج لا يجب على من لم يملك الاستطاعة من مال أو عافية ، ولا تبقى من أركان الإسلام غير الصلاة فإنها لا تسقط أبداً .

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها ؛ لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحي ، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل الله لجبريل : « قل للنبي التكليف بالصلاة » بل استدعى الله النبي صلى الله عليه وسلم إليه وكلفه بالصلاة .

وقلنا من قبل - والله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان أن يقدم أمراً لمرءوسه ، فالموضوع قد يأخذ دوره في الأوراق اليومية التي تنزل منه إليهم . أما إذا كان الموضوع مهماً فهو يتصل بالفائد التنفيذي للمرءوسين ويوضح مدى أهمية الموضوع ، أما إذا كان الموضوع غاية في الأهمية والرئيس يستدعي الفائد التنفيذي للمرءوسين ويبلغه أهمية الموضوع . إذن فكمية إنزال التكليف تكون على قدر أهمية الموضوعات في عالمنا - إذن - بركن استدعى الله فيه محمداً إلى لسماء ليكلمه به ؟

وقد رأينا أن بعض التكليفات تحيي إلى رسول الله بالإلهام أن يفعله ، وبعضها جاء بالوحي من جبريل أن يفعله ، أما الصلاة فقد فرضها الله عندما استدعى محمداً إلى لسماء إلى الرقيب لأعل وفرض الله عليه الصلاة بالمباشرة ، وعلى أمة محمد أن تؤدي هذا الفرض خمس مرات في اليوم ، ولا تسقط أبداً . ولذلك جعلها الحق فارقة بين المسلم والكافر ، إن المسلم ساعة أدان الصلاة يقوم إلى الصلاة ، وهي استدعاء من الخالق لمن خلقه ليحضر في حضرته كل يوم خمس مرات . وأنت حر بعد ذلك ألا تبرح لقاء ربك ؟ ولا يعمل الله حتى يعمل العبد .

وإياكم أن تجعلوا للزمان مع الله تحطيظاً ؛ فتقولوا : هذا للعمل والضرب في الأرض ، وذلك لذكر الله ؛ فمع ضربكم في الأرض لتستقوا من فضل الله ، إياكم أن نسوا الله ؛ لأن ذكر الله أمر دائم في كل حركة يفصدها الإنسان لعناية هذا الوجود ، وقد أراد الحق ما بوجودنا أن نعبد وحده لا شريك له .

﴿ وَإِنْ تَحْدَثُوا خِلَافًا فَلَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢٨٤ ﴾
 مِنَ الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ تُنْفِرُونَ فِيهَا فَاسْتَعِزُّوا بِاللَّهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ
 مُجِيبٌ ﴿٢٨٥﴾

(سورة هود)

إذن فكل ما يؤدي إلى هجرة الكون والارتقاء به هو أمر عبادي ، والحق سبحانه
 وتعالى يربط « العبادة » الاصطلاحية في اللغة بحركة الحياة كلها ، ويحدد مثالا لذلك
 حيا نكلمنا في سورة البقرة عن الأسرة كما جدد في قوله تعالى

﴿ لَا حِجَابَ عَلَيْكُمْ إِذْ طَلَقْتُمْ نِسَاءَكُمْ مَا لَكُمْ تَحْسَبُهُمْ أَوْ تَحْسَبُونَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ وَمَنْ جُنِبَ
 عَنْ الْمَوْسِمِ فَعِدَّتُهُ وَعَلَى الْأَقْدَامِ فَعِدَّتُهُمْ شَتَّى بِالْمَعْرُوفِ حَقٌّ عَلَى الْمُتَحَيِّينَ ﴿٢٨٦﴾
 وَإِنْ طَلَقْتُمْ نِسَاءكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَسْتُمْ مِنْ فَرَسَةٍ فَمِنْ مَعْرِضٍ مِمَّا فَرَسْتُمْ إِلَّا
 أَنْ يَتَمَوْا أَوْ يَحْمِلُوا أَلْفًا يَبِيبُ ۚ فَحَقُّهُنَّ الْأَسْكَاكُ ۚ وَلَنْ تُعْمَرُوا مِنْهَا فَيُفْرِقُوا وَلَا تُلْجَأُوا
 إِلَى مَعْمَلٍ يَنْصُرُكُمْ إِلَّا أَنْفُكُمْ وَمَنْ يَتَعَمَّوْا يَصِرْ ﴿٢٨٧﴾

(سورة البقرة)

ذلك امر الدنيا ومصالح الأسرة ، وهو كلام في شئون تنظيم الأسرة ، ثم يفتت
 من بعد الكلام في تنظيم الأسرة إلى أمر يقول عنه إنه العبادة وهو قوله الحق

﴿ حَنِيمٌ عَلَى الصَّالِحِينَ وَالْعِزَّةُ الْوُسْطَى وَقَوْمًا لَهُ فِتْنَيْنِ ﴿٢٨٨﴾ فَإِنْ يَخْتِمْ فَرَجًا
 أَوْ تَزَوَّجَ فَمَا أَسْتَخِرْكُمْ فَاتَّخِذُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْكُمْ مَا لَكُمْ تَحْسَبُونَهُ ﴿٢٨٩﴾

(سورة البقرة)

ثم يعود بعد ذلك إلى شئون تنظيم الأسرة فيقول سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بُرْهَانَ رَبِّهِمْ يُدْعَوْنَ إِلَى زَوْجٍ وَصِيَّةٍ لَأَزْوَاجِهِمْ مَتْنًا إِلَى الْخَيْرِ عَمِيرٍ
 مُتَرَجِّحٍ ﴿٢٩٠﴾

(من الآية ١٢ سورة البقرة)

إذ قد أخرجنا من كلام في نظام الأسرة إلى الصلاة ، ثم عاد بنا مرة أخرى إلى نظام الأسرة حتى تتداخل كل الأمور لتكون عبادة متهاكة متحدة فلا تقول . « هذه عبادة وتلك ليست عبادة » ، وأيضا ؛ لأن الكلام في الصلاة وسط كلامه عن أمور الأسرة يسها : إذا دهرت إلى الصلاة فرعا هذأت الصلاة من شرة غضبك ومحاسن وترلت عليك سكية بعينك الألسن الفصل بيك رويي روجك .

في هذه السورة - سورة المائدة - صنع الحق معا مثلها صبح في سورة البقرة ؛ ليعبد أن تكلم في أشياء وقصص عليا أمر النعمة ، ها هوذا يدخل بنا إلى رحاب المنعم ، إلا إنه سبحانه لم يدخلنا على المنعم إلا تهته طهورية . طهارة أعضا ؛ كالوضوء بأن نغسل الوجه ونغسل اليدين إلى المرفقين ونمسح على الرأس ونغسل الرجلين إلى الكعبين . وأحكم في أشياء وترك لاجتهاد مدخلا في أشياء ، أحكمها في ثلاثة ؛ غسل الوجه ، وغسل اليدين إلى المرفقين ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، لكنه حينها تكلم عن الروس لم يقل . « امسحوا رؤوسكم » ، ولا : « امسحوا ريع رؤوسكم » ، ولا « امسحوا بعض رؤوسكم » عما يدل على أن للمجهود أن يفهم في « الباء » ما تبيحه اللغة من « الباء » إذن أعطانا الحق أشياء محكمة وأشياء للاجتهاد . وبعد طهارة الأعضا يذكرنا بطهارة البدن من الجنابة

وملغمت إلى الكلام الذي تقدم حيث أورد الحق فيه ما أحل لنا من بهيمة الأنعام من طعام وشراب ، ثم تكلم في النكاح حتى أنه وسع لنا دائرة الاستمتاع ودائرة الإنسال بأن أباح لنا أن نتزوج الكنائيات ، وفي هذا توسيع لرقعة الزواج فلم يقصر الزواج على المسلمات .

ولما كان الطعام الذي أحله الله ينشأ عنه ما يخرج منا من بول وغائط ، والنكاح الذي أحله الله يغير كيميائية الجسد ؛ لذلك جعل الله الوضوء لشيء ، والجنابة لها شيء آخر ؛ فمن الطعام ينشأ الاختثان ، ومن الجماع أو خروج المنى ينشأ الحدث الأكبر ؛ فكان ولا بد بعد أن يتكلم عن طهارة الأعضا في الحدث الأصغر أن يتكلم عن التطهير الكلي في الحدث الأكبر ؛ فقال : « وإن كنتم جنبا فامسحوا » .

الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن نستديم اتصالنا به ولم يشأ أن يجعل الوسيلة للصلاة بأمر الماء فقط ؛ لأننا قد نفقد الماء وقد يوجد الماء ولا نقلق على استعماله ؛

فلم يشأ الحق أن يقطع الصلة بأن يجعل الوسيلة الوحيدة للتطهر هي الماء ، فأوجد وسيلة أخرى . فإن فقدت الماء أيها الإنسان فلا بد أن تدخل إلى لقاء الله سية تطهر آخر وهو التيمم . هذا أمر لا يفقده من عاش على الأرض . إحد عندنا تطهر بالماء وعندنا تطهر بالتراب . لذلك يقول سبحانه :

« وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْ يَمْسَسْكُمْ الْمَاءُ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا » فإن كان الإنسان مريضاً لا يقدر على استعمال الماء ، أو كان على سفر ولا يجد الماء ، أو جاء أحد من الغائط ، أى من قضاء الحاجة في مكان عريط وهو الرطى ، المتحضر من الأرض ، وكانت العرب قديمي تفعل ذلك حتى لا يراهم أحد ويكونوا في ستر ، رجالاً أو نساء ، وحتى بعد ملامسة النساء . إن لم يجد الإنسان بعدها ماء فالتيمم هو البديل ، وإياكم أن تقولوا إن الماء هو الوسيلة الوحيدة للتطهر ، فقد جعل للماء أيضاً خليفة وهو التراب . والتراب أوسع دائرة من الماء . فكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يديم علينا نعمة اللقاء به . ولكن يديم علينا نعمة اللقاء به جعل للماء - الذى يكون محصوراً - خليفة وهو التراب وهو غير محصور .

ولا نريد أن ندخل في متاهات الخلاف عن الطهارة من ملامسة النساء ، بين اللبس والملامسة ، باللمس لا يقتضى المقابلة ، أما الملامسة فتقتضى المقابلة . واقتضاء المقابلة ينقل المسألة من مجرد اللبس إلى معنى آخر هو الجماع .

وفي حالة الجنابة وعدم وجود الماء فالتيمم هو البديل « فتيمموا صعيداً » وه الصعيد ، هو ما صعد على وجه الأرض من جنس الأرض بحيث لا تدخله صناعة الإنسان كالتراب والحجر ، لكن الطوب الأحمر (الأجر) الذى نصنعه نحن فليس من الصعيد الصالح للتيمم ، لأن صنعة الإنسان قد دخلت .

والأركان المفروضة في طهارة الأبعاض أربعة ، أما طهارة الجسم فهي طهارة واحدة تشمل كل الجسم . وفي حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعداداً للصلاة عوضاً عن الوضوء بمسح الوجه واليدين ، وكذلك في الطهارة من الجنابة . وتلاحظ أنه سبحانه جاء بالمسح في الوضوء على بعض من الرأس كإبراهيم متقدم ، وذلك حتى يكون لنا إلف بالمسح حينما تيمم .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » وجعل الحق الطهارة بالماء أو التراب إزاة للحرج ، فالإنسان الذي لم يجد ماء صيقع في الحرج بالتأكيد ، لأنه يريد أن يصل ولا يجد وسيلة للطهارة . وإذا كان عنده القليل من الماء لشرب فهل يتوضأ أو يستديم الحياة ويُبقي على نفسه بشرب الماء ؟ . ولا يريد الله أن يُقت حلقه ولا أن يوقعهم في الحرج . بل خفف عليهم وجعل عنصر التراب يكفي كبديل للماء . « ولكن يريد ليظهركم » .

ولذلك أن تفهم أن الطهارة هي للتنظيف ، لأن معنى الطهارة لو اقتصر على التنظيف لكانت الطهارة بماء فقط ، ولهذا إذن تمسح وجوهنا بالتراب ؟ إن هذا يوضح أن الطهارة غير النظافة ، فلو قال قائل : سأنظف نفسي بماء الكولونيا . نقول له : لا . ليس هذا هو المطلوب . والله لا يطلب نظافة بهذا المعنى ، ولكن يطلب التطهير . والتطهير يكون بشرط من تدخل عليه . وهو الله سبحانه . وقد وضع الحق لذلك أمرين : إما بالماء وإما بالتيمم بالتراب . فالطهارة تجعل المرء صالحاً يستقبل ربه على ضوء ما شرع به . والذي يضع الشرط لذلك هو الله وليس أنت أيها العبد . ومسحانه قد أوضح أن العبد يكون طاهراً بالماء أو بالتراب ، وبهذه الطهارة يكون صالحاً لاستقبال الله له . وأعاد الله الإسناد في قوله منه إلى أصل إيجاده وهو الماء والتراب .

« ولستم نعمت عليكم » والإنسان ممنور بنعم كثيرة . فهو أن إنساناً غاب عنه أبوه لكن خير الأب بهلك كل يوم من مال وطعام وشراب ووسائل تربيته ، وبذلك يأخذ الإنسان نعمة العلية من وجود أب له . ومع ذلك يشاق هذا الإنسان المستمتع بنعمة والده الغائب إلى أن يكون مع والده ، هذا هو تمام النعمة بين الأب والابن وكلاهما مخلوق لله ، فما بالنا بنiam النعمة من الخالق لعباده ؟

إن العبد الصالح يتمنى أن يرى مَنْ أنعم عليه ، لذلك وضع الحق شرط الطهارة للقاءه . وعندما يحضر الإنسان لحضرة ربه بالصلاة ويكبر : « الله أكبر » فهو منذ تلك اللحظة يوجد في حضرة الله . وإذا كانت الميوضات تتجلى عل الإنسان من نعمة مخلوق مثله سواء أكان أخاً أم أباً أم قريباً وهي نعمة مادية يراها الإنسان سواء أكانت طعاماً أم شراباً أم لباساً . فما بالنا بفروضات المتعم الخالق الذي أنعم عل

الإنسان ، إنها فيوضات من غيب ، فكرمه لك غيب كالاعتدال في المراج والعافية
ورضا النفس وسمو الفكر .

إذن قوله الحق : « ولستم بحمته عليكم » أي أنكم عشنم قبل ذلك مع نعمة المنعم ،
وسبحانه يدعوكم إلى لقاء المنعم ، ذلك تمام النعمة . وأضرب هذا المثل - والله المثل
الأعلى - إنا نجد الابن ينظر إلى هدايا الأب العائب ويقول : أنا لا أريد هذه الأشياء
ولكني أريد أبي .

إن تمام النعمة - في المستوى البشري - أن يرى الإنسان انعم عليه وهو إنسان
مثله ، أما تمام النعمة على المخلوق من الخالق فيستدعي أن يتطهر الإنسان بما حده
له الله وأن يصل فيلقى الله .

« ولستم بحمته عليكم لعلكم تشكرون » ساعة نسمع : أنا فعلت ذلك وذلك
لعلك تشكر ، فهذا يعني أنك إن فعلت ما أمرك به فستجد أمراً عظيماً والأمر
الطبيعي يقتضي أن تشكر عليه كأن ما فعله الله للإنسان يوجب عند الإنسان نعمة
أخرى لا يمكن أن يستقبلها إلا بالشكر ، مثلها قال الله :

﴿ وَأَلْقَى نَجْمًا مِّنْ طُورٍ أَهْمَكُنَّ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة النحل)

إن السمع والأبصار والأفئدة هي منافذ الإدراك . ومادام الحق قد خلقنا ولا نعلم
شيئاً ، وجعل لنا أدوات الإدراك . وأوضح : أنا خلقت لك هذه الأدوات للإدراك
لعلك تشكر ، أي تلمح آثارها في نفسك بما يرى عندك ملكة الإدراك للمدركات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيقَاتَهُ الَّتِي

وَأَتَقَكُم بِمَا إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

والإنسان أن يسأل . وما هو الذكر ؟ . الذكر هو حفظ الشيء أو استحضاره ، فإذا كان حفظ الشيء فهو حفظ لذاته ، لكن الاستحضار يكون لمعنى الشيء . إذن فهناك فرق بين حفظ الشيء واستحضار الشيء ، هذا هو معنى الذكر . وقد يكون الذكر بمعنى القول ، لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أن تستحضره . ولذلك نجد في تكوين الجهاز العصبي الأعلى ذاكرة ، وحافظة ، وخيلة .

ومن عجب أمر التكوين الخلقى أن تمر أحداث على الإنسان في زمن مضى ولا يذكرها الإنسان لمدة طويلة تصل إلى سنوات ، ثم يأتى للإنسان طرف من تدامى المعاني فيذكر الإنسان هذا الشيء الذى حدث منذ عشرين عاماً .

إذن فالشيء الذى أدركه الإنسان منذ عشرين سنة على سبيل المثال لم يذهب ، ولو ذهب ما ذكره الإنسان ، لكنه غاب فقط عن الذهن عشرين عاماً أو أكثر ، فلما تداعت المعاني تذكره الإنسان . ومعنى ذلك أن هذا الشيء كان محفوظاً عند الإنسان وإن توارى عنه منذ طويلة .

فالذاكرة - إذن - معناها أن يستدعى الإنسان المحفوظ ليصير في بؤرة شعوره . مثال ذلك : حدث وقع بين إنسان وآخر منذ أكثر من عشرين عاماً ، ونسى الإنسان هذا الحادث ، فلما التقى بصديقه ، وجلسا يتذاكران الماضى تذكر الصديق الحادث الذى حدث له منذ أكثر من عشرين عاماً .

إذن فالحادثة لم تذهب من الذاكرة ، ولكنها محفظة موجودة في حواشي الشعور البعيدة ، وكلما بعد الإنسان في الزمن يبدو وكأنه نسى الحادثة ، لكن عندما يأتى تداعى المعنى فالحادثة تأتى في بؤرة الشعور . فإذا ما جاءت في بؤرة الشعور من حواشي الشعور حيث مخزن الحافظة ، يتذكرها الإنسان وهذه هي قوة الخالق جل وعلا .

وفد يسجل أحدنا على شريط تسجيل بعضاً من الكلام ومن بعد ذلك يجب أن يسجل كلاماً آخر على الشريط نفسه فيسمح الكلام الذي سجله أولاً ، ولكن ذاكرة الإنسان تختلف ، فماعة تأتي المسائل في بؤرة شعوره فالإنسان يتذكرها وإذا ما جاءت مسألة أخرى بعدها فلا بد أن تترجح لمسألة الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ لأن بؤرة الشعور لا تستقبل إلا خاطراً واحداً ، فإن شغلت بؤرة الشعور بخاطر آخر فهي تحفظ الخاطر الأول في حواشي الاحتفاظ . ولا يسمح خاطر خاطراً آخر . فإن أراد الإنسان أن يستدعي الخاطر القديم ، كان ذلك في مقدوره ، وهذا هو لفارق بين تسجيل الخلق وتسجيل المخلوق .

وبعد ذلك نجد أن التذكر يكون للمعان ، فالذي يحزن في ذاكرة الإنسان ليس أجراماً ، فهو كانت أجراماً لما وسعها الخ . ولهذا فالمعان لا تزاحم فيه ، بل تتراكم بحيث إذا ما جاء تداعي المعان فالإنسان يتذكر ما يريد أن يذكر ، وذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان الخ من صنع الخالق الأعلى . ومادامت للمعان ليس لها حيز فالإنسان يقدر على حفظها في الذاكرة

الإنسان قد يجلس ليتذكر أسماء الجبال في العالم فيقول : من جبال العالم قمة « إفرست » ، وجبال « الهيمالايا » ، وجبل « أحد » وجبل « ثور » . وساعة يتذكر هذه الأسماء فهو يتصور معانيها ، فالموجود في ذهن الإنسان معان هذا الكلمات وليس أجرام هذه الكلمات ؛ لذلك فلا تزاحم أبداً في المعان بل تظل موجودة ومخزنة في الذاكرة وحاشية الشعور .

ولياكم أن تفهموا أن إنساناً يملك من الذكاء ما يحفظ به الشيء من مرة واحدة : وآخر أقل ذكاء يحفظ بعد قراءة الشيء مرتين ، وثالثاً يحفظ من ثلاث مرات لا ؛ لأن الإنسان يملك ذهناً كألة التصوير يلتقط من مرة واحدة ، لكن لو أخذ الإنسان صورة لمكان وجاء شيء بظيب عدسة الصورة فهو بعيد التصوير ، وكذلك الذهن إن أراد الإنسان أن يلتقط لقطة لشيء ما يستقر في بؤرة الشعور وفي بؤرة الشعور شيء آخر ، فالشيء لا يستقر في الذهن ، بل لا بد من قراءة مضمون النقطة مرة ثانية ليؤكد الإنسان المعلومات لتنطبع في بؤرة الشعور .

ومثال ذلك الطالب الذي يدخل ساحة المدرسة التي يُعقد بها الامتحان . وقبل أن

يدق جرس الامتحان بخمس دقائق يلقى له واحد من زملائه ويقول له هل ذاكرت الموضوع الفلاني . فيقول الطالب : لآلم استذكره . فيقول الصاحب . هذا الموضوع سيأتى مه سؤال فى الامتحان . فيحفظ الطالب كتابا ويقرأ فيه هذا الموضوع لمرة واحدة . هذا لطالب فى هذه اللحظة لا يتذكر ماذا سيأكل على العشاء هذا اليوم ، أو من سيقابل . بل يعرف أنه بصدد أمر فرسته صيفة ، ويركز كل دهبه لىستقبل ما يقرأه . وفى لحظة واحدة يحفظ هذا الموضوع . وإذا جاء الامتحان ووجد السؤال فهو يهيب عليه بأفق التفاصيل . وقد نجد طالبا آخر جالس لآيام يحاول استدكار هذا الدرس بلا طائل .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، شريطة ألا يستقبل الإنسان ما يقرأه أو يسمعه من معلومات والذهن مشغول بأشياء أخرى . والدليل على ذلك : أن الإنسان قد يسمع القصيدة مرة واحدة أو يسمع الخطبة مرة واحدة فيحفظ من القصيدة أكثر من بيت ، أو يحفظ من الخطبة أكثر من مقطع ؛ لأن ذهن الإنسان فى تلك اللحظة كان حائيا فالتقط الأبيات التى حفظها ، وكذلك الخطبة ، أما بقية أجزاء القصيدة أو الخطبة فقد يكون ذهنه شرد إلى أشياء أخرى . ولذلك يحاول الإنسان أن يكرر الاستماع والإصغاء والقراءة أكثر من مرة ليهيئ ويعد بؤرة الشعور ، فيحفظ الإنسان ما يريد .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، أما الذاكرة فهى تتذكر أى تستحضر المعانى التى قد تختفى فى الحافظة ، ولا شىء يصعب فى الحافظة أبدا ، بحيث إذا جاء الاستدعاء طفت المعانى على السطح . كأن استطاعت الإنسان فى نعم الله لا تنسى أبدا . وهى موجودة عند الإنسان ، ولكنها تريد من الإنسان أن يستدعيها من الحافظة ويطلبها .

ولنردقة الأداء القرآنى . « واذكروا نعمة الله عليكم » سبحانه يقول هنا « نعمة » مع أن نعم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أن يأتى بالمفرد ولم يأت بالجمع . وذلك ليس للإنسان أن أية نعمة فى أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أن يذكرها الإنسان ؛ فعم الله كثيرة ، ولكن لتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هى نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع . وكل نعمة من هذه النعم تستحق من الإنسان أن يذكرها دائما ، ولا تطرد نعمة نعمة أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟

ولو تعمّن الإنسان في كل نعمة لاحتاجت إلى أن يتذكرها دائماً ، لو أن النعمة اسم للجنس كله ، لأن المفرد يطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها تطلق على كل فرد من أفرادها مثل محمد وعلي وخالد .

ركلمة « النعمة » قد تُنسب إلى سببها كنعمة سببها مروءة ولحد من البشر ، وهي محدودة بمقدار الأثر الذي أحدثته . لكن نحن هنا أمام نعمة المسبب وهو الله ، ولا بد أن تناسب نعمة الله جلال وجمال عظمته وعظائمه

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به » « واثق » تفتضى أمرين : فالإنسان طرف الاحتياج والمقر والأخذ ، والرب صاحب الفضل والمُعطاء والغنى ، إنه هو الربوبية وأنت العبودية ، وهو الحق القائل :

﴿ وَأَوْفُوا بِمِيثَاقِي أُوفٍ بِمِيثَاقِي ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

إذن فـ « واثقكم » تعني التأكيد من طرفين ؛ لأن « واثق » هل وزن « فاعل » ، ولا بد في « فاعل » أن تكون من اثنين . ومثال ذلك « شارك » تقولها لاثنين أو أكثر ، فنقول : « شارك زيد عمراً » وكذلك « قاتل زيد عمراً » . وحين يقول الحق : إنه « واثق عياده » أي أنه شاركهم في هذا الميثاق وقبله منهم . لكن أي ميثاق هذا ؟

ونحن نعرف الميثاق الأول الذي هو ميثاق اللز :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

وهو ميثاق العطرة قبل أن توجد النفس وشهواتها . وبعد ذلك ميثاق العقل الذي نظر به الإنسان إلى الوجود واستطاع أن يخرج من تلك الرؤية بأن الوجود محكم ومنظم وواسع ، ولا بد لهذا الوجود من واجد وهو الله . وبعد ذلك ميثاق الإيمان بالله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما عرض منهج الإسلام آمن به بعض

الاسم ، أى أخذ منهم عهداً على أن يتعدوا مطنوبات الله ، ألم يأخذ الرسول عهداً في العفة حين قالوا له :

خذ لنفسك ولربك ما أحسبت فتكلم - رسول الله صلى الله عليه وسلم - تلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال : « أطيعكم على أن تسمعوا عما تسمعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال . معكم والذي بعثك بالحق لنمنعنك عما تمنع منه أئزنا فبايعنا يا رسول الله فحس أبناء الحرب وأهل الخبرة (الصلاح) ورشاهما كاهراً من كاهراً^(١) .

وحدث هذا - أيضاً - عند بيعة الرضوان تحت الشجرة . إذن فسمى « واثقكم به » إما أن يكون العهد العام الإيماني في عالم الدر ، وما أن يكون العهد الإيماني الذي جاء بواسطة الرسل .

« وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » وحين يؤمن الإنسان يقول سمعت وأطعت ، وهكذا تنتهي مسألة التعاقد ويتبع الحق ذلك بقوله : « واثقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » واثقوا أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالمطوب منا أن نلتحم بمنهج الله إلتحاما كاملا ، وعليها كذلك أن نجعل بيننا وبين صفات غضب الله وقاية . وعرفنا أن قوله الحق : « اتقوا الله » متساو مع قوله : « اتقوا النار » ، وقد يقول قائل وهل للذر أوامر ونواه ؟

ومقول : أحسن المهم عن ربك واجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، فالنار جند من جمود الله . وسبحانه يوضح : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأن الحق له صفات جلال هي الخبوت والانتقام والقهر ، وللحق صفات جمال هي العز والرحيم المعنى ، الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجلال ، إذن فلجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جمود صفات الجلال ومنها النار .

وقلت من قبل . إن الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغنا أنه في الليلة الأخيرة من رمضان يتجلى الجبار بالمعمر والطرة السعجة تسأل : ولماذا لم يقل : يتجلى الغفار

بالمغفرة ؟ ذلك أن (الجار) صفة من صفات الجلال التي تقتضي معاقبة المذنب ، والذنب متعلق بصفات الجلال لا بصفات الجمال ، إذن فالمنطق يقتضي أن يقف المذنب أمام شديد الانتقام ، لأن المقام يناسب صفات الجلال ، ولكن علينا أن نتذكر جيدا أن الله يرعى العنان للمذنب لعله يتوب ، وأن الله يفرح بتوبة عبده وأن رحمته تغلب غضبه .

ويذيل الحق الآية : « إن الله علیم بذات الصدور ، والتقوى - كما نعلم - لا تنشأ من الأفعال المحسنة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضا في الأحوال الدخيلة المضمرة . ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة فالخقد ، الحسد ، التيهت ، المكر ، كل ذلك صفات سيئة ؛ فليأكم أن تقولوا إن التقوى للمدركات فقط ؛ بل للمحسنت أيضا . وعمل القلوب له دخل في تقوى الله . ومن بعد ذلك يقول الحق :

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلّٰهِ
شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ
قَوْمٍ عَلَٰى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ
لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُوْنَ

إن الحق - كما علمنا - حين ينادى المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » إنه سبحانه لم يقتحم على الناس تصرفاتهم الاختيارية لمتهجه ، بل يلزم ويأمر من آمن به ويوجب عليه ؛ فيوضح : يا من آمنت بي إنها حكمتا قادرا حذ مهجى . ولكن الحق يقول : « يا أيها الناس » حين يريد أن يلفت كل الخلق إلى الاعتقاد بوجوده ، أما من يؤمن به فهو يدخل في دائرة قوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا النداء يقتضي بأن يسمح المؤمن التكليف من آمن بوجوده .

ونعلم أننا جميعا عبيد الله ، لكن ليسا جميعا عباد الله . وهناك فرق بين « عبيد » و « عباد » . فالعبيد هم المرغمون على الفهر في أي لون من ألوان حياتهم ، ولا يستطيعون أن يذبحوا اختيارهم فيه . قد نجد متمرد يقول : « أنا لا أؤمن بالله » ولكن هل يستطيع أن يتمرد على ما يقضيه الله فيما يجبره الله عليه قهرا ؟ فإذا مرض وادعى أنه غير مريض فيما الذي يحدث له ؟ أيجري واحد من هؤلاء المتمردين على ألا يموت ؟ لا أحد يقدر على ذلك .

إذن فكل عبد مقهور لله ، وكلنا عبيد الله يستدعينا وقتنا يريد ويجري علينا ما يريد بما فوق الاختيارات . أما « العباد » فهم الذين يأتون إلى ما فيه اختيار لهم ويقولون لله : لقد نزعنا من أنفسنا صفة الاختيار هذه ورضينا بما نقوله لنا « الفعل كذا » ود لا تفعل كذا » . إذن فالعبيد مقهورون بما يجبره عليهم الحق بي يريد ، والعباد هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضاه ، إنهم أسلموا الوجه لله . فهم مقهورون بالاختيار ، أما العبيد فمقهورون بالإجبار .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله » و « قوام » صفة مبالغة والأصل فيها قائم ، فإن أكثر القيام نطلق عليه كلمة « قوام » . ومثال ذلك رجل لا يحترق النجارة وجاء بقطعة من الخشب وأراد أن يسد بها ثقباً في باب بيته ، هذا لرجل يقال له : « ناجر » ولا يقال له : « نجار » ، ذلك أن تخصصه في الحياة ليس في النجارة وكذلك الهاوي الذي يخرج بالسنارة إلى البحر ، واصطاد سمكتين ، يقال له : « صائد » لكنه ليس صيادا ، لأن الصيد ليس حرفته .

إن الحق يطلب من كل مؤمن ألا يكون قائما لله فقط ، ولكن يطلب من كل مؤمن أن يكون قواما ، أي مبالغ في القيام بأمر الله . والقيام يدلله القعود . وبعد القعود الاضطجاع وهو وضع اجنب على الأرض ثم الاستلقاء ، وبعد ذلك ينام الإنسان . ونحن أمام أكثر من مرحلة : قائم وقاعد ومستلق ، ونائم . والنائم ليس عليه تكليف . والمستلقي هو المستريح عن ظهره والحق يقول .

﴿ مَا ذُكِّرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾

أى اجعلوا الله دافعاً على بالكم ، فالإنسان يملك فى حاله الطبيعية نشاطاً يمكنه أن يقوم ويقعد ، فإن قيل : قام فلان بأمر القوم ، أى أنه بذل كل جهد لإدارة أمور الناس ، والقيام فى حركات الناس أصعب شئ . ومسحاه لا يريد ما أن نكون قائمين فقط ، بل يريد أن نكون قوامين . ومادما قوامين فليس تخلو لحظة من قيامنا أن نكون لله : لا توجها . لا نفعا ، لأن أية حركة من أى عبد لا تعيد الله فى شئ ، فالله خلق خلقه بجموع صفات الكمال فيه ، ولم يشئ خلقه له صفة جمال أو كمال جديدة . وعندما يؤدى الإنسان أى عمل لله فهو يؤديه طاعة وتقرباً لله . وإذا أراد الله من المؤمنين أن يكونوا قوامين لله ، عندئذ تكون كل حركات المجتمع الإيماني حركات رباتية متساندة متصاعدة . وإذا كنت حركات المجمع الإيماني متساندة فسوف تكون النتيجة لهذه الحركة سعادة البشرية ، فالإنسان إذا ما كان قوام فهو قوام لنفسه وللآخرين

والمراد أن يكون مساومين على قيامنا فى كل أمر لله . ولا تعتقد أيها المزمع أنك تعامل خلق الله ، إنما تعامل الله الذى شرع لك ليضمن لك ويضمن منك ، فانت إن طولت بالأمانة ، فقد طولت كل الناس بالأمانة فيما هو خاص بك لا بعيرك ، وحين يهلك الله عن الحياة فقد أمر خلق الناس جميعاً بالانتهاء عن الحياة لك .

إذن إن نظرت إلى تكليفات الله لوجدتها لصالحك أنت . فلا يفتن طان أن الدين إنما جاء ليوقف أمام نفسه هو ، فالدين وقف أمام النفس لدى الناس جميعاً ، فحين يأمرك : ألا تمد يدك إلى مال غيرك فأنت واحد من الناس ، وفى هذا القول أمر موجه لكل الناس : لا تمسوا أيديكم إلى مال فلان لتسرفوه . فانظر إلى أن الحق حين شرع عليك شرع لك . ولذلك يجب أن يكون كل قيامك لله سبحانه . ولذلك يظهر الحق سبحانه وتعالى فى بعض خلقه أشياء وأحداث تفهم الناس أن الذى يعمل لخلق الله مسلوب النعيم ، والذى يعمل لله يكون موصول النعيم ، فنجد الواحد من الناس يقول : « لقد فعلت فلان كذا وكذا وكذا وأبكرنى » نقول له : أنت تستحق لأنك صنعت له ، ولكنك لو صنعت لله لكملك الله كل أمر . ولذلك يقول الحق عن هؤلاء الذين صنعوا لله :

﴿يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْصَرًا﴾

(من الآية ٣٠ سورة آل عمران)

إذن فنلزم يجب أن يوضح حركة قيامه وسعيها ؛ بمعنى أن يجعل كل حركته لله ؛ فإن كانت كل حركته لله ، فإله سبحانه لا يضيع أحراً من أحسن عملاً . والخاسرون هم الذين يعملون للناس ؛ لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً وربما تخلوا عنهم وربما أضربت وحملت قلوبهم الصنن والحق لم أحسن إليهم ، وري تحولوا إلى أعداء لهم ، فالمصروع له الجميل قد يعطيه الله بعضاً من الجاه ، وحين يلقي صانع الجميل بعد ذلك قد تتبادل نفسه وتبدل ، ونرى في بعض الأحيان واحداً يخلص بين الناس وقد أخذته العرة ، ثم يدخل عليه إنسان كان له فضل عليه ، وساعة يره يكره وجوده في مجلسه ، ويتمنى ألا يحدث هذا اللقاء ، وإذا ما لقيه بعد ذلك في طريق فهو يشيح بوجهه ؛ لأن الذي صنع الجميل يسبب حرجاً له ، ويجعل نفسه تتصعق ، وهو يريد أن يتكبر على الناس . إذن والله يوضح أعمالوا لله ؛ لأنه لا يضيع عنده شيء . واعلموا أن الله رقيب عليكم رلى يضيع عمل عنده

وعندما سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١) .

أستطيع أنت أي الإنسان أن تصبح في إنسان آخر ما يسره أمامه ؟ أنت تسيء إلى الآخر من وراء ظهره . فليأذا إذن يسمى الواحد منكم إلى الله بالعصيان ، وهو الناظر إليكم جميعاً ؟

إذن حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن تحسن معاملة نفسك وغربك فعليك أن تحتسب كل عمل لك عند الله فقد سخر لنا حتى كل الوجود وأعدنا كل مقومات الحياة ، وأوضح لكل واحد منا ما عيذى اجعل كل قيامك لله ؛ ولا تكن قائماً فقط ولكن كن قواماً . بمعنى أنه مادامت فيك بقية من العافية للعمل فاعمل ، ولا تعمل على قدر حاجتك فقط ، ولكن اعمل على قدر طاقتك ؛ لأنك لو عملت على قدر حاجتك فإن الذي لا يقدر على العمل لن يجد ما يعيش به .

إذن فاعمل على قدر طاقتك لتسع حركتك للناس جميعاً . ويكون العائن من

عملك لغريك . وحين يقول سبحانه : « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » يعنى انما
نضيق مجهودنا هباء ، بن توجه لمجهود للعمل ونقوم به لوجه الله ، لانه سبحانه
لا ينسى أبداً جزاء عبده ، وهو الذى يرد كل جميل . إنه - سبحانه - يقول :
« هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »

ويقول أيضا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصِغُ أَعْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة التوبة)

وحيث يكون الواحد منا قواماً لله يكون قد استغل حركة وجوده لخير خلق الله ،
وهذا العمل مطلوب منك . ولا يكفى أن تكون حركتك محصورة في ذلك ، بل يجب
أن تمتد أيضا حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل . وكذلك توجه للعمل من تحفته
نفسه أن يتحرف . وحين تكون قواماً لله فهذا أمر حسن ، وعليك أن تحاول إقناع
عيرك بأن يكون قيامه لله بأن تكون شاهداً بالقسط والعدل . وحين تكون شاهداً
بالقسط والعدل لا يتبادى ظلم في ظلمه . فالذى يجعل الظالم يشتد ويستشري ظلمه
ومخافته شره هو أنه يجد من يدلسون على العدالة ويسترون وتخفون العيوب ويتخاذعون
الناس .

لكن لو وجد الإنسان الذى ينير الطريق أمام العدالة بما وجد ظلم . لكن الظلم
يجب من يدلس عليه ، فيقول لنفسه : إن فلاناً ارتكب جريمة مثل جرمي ونل
البرائة . وتدلّس الشهادة يتودى إلى غراب المجتمعات . ولو أن المجتمع حينما يرى
أن شهادة أفراده هي شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كل فرد في المجتمع إذا هم
بظلم يرتدع قبل أن يفعل الظلم ، ولكن الظالم ينال عقابه ويصير مثالا لا يرتدع
غيره . والمؤمن مطالب أولاً بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أن يشهد بالقسط
والعدل لإصلاح غيره .

وكلمة « القسط » تأتى منها اشتقاقات كثيرة ، وهي من الألفظ التى قد تدل على
العدل وقد تدل على اجور ، وهي من الألفاظ التى نستعمل في الأمر وفي نقيضه .
وهذه من محاسن اللغة . ويتطلب ذلك أن يحسن السامع الكلمة ويعترف على
معناها بما يتطلبه السياق

« قَسَطَ » معناها « عدل » . والفعل المضارع لما هو يقسط والمصدر « قِسْطًا » ، ومرة يكون المصدر « قُسُوطًا » . والمصدر هو الذي قد يحول المعنى من العدل إلى الجور . فالقسط بمعنى العدل . وقَسَطَ يَقْطِطُ قُسُوطًا . أى جار وظلم . هنا نجد الفعل يأتي بالمعنى وضده ؛ حتى يمتلك السامع اليقظة والفطنة التي تجعله يعرف التمييز بين معنى العدل ومعنى الجور .

وحين نقول « أقسط » فإنها بمعنى عدل ، وهنا نتنبه إلى ما يلي : أن هناك فرقاً بين عَدَلَ بأتى من أول الأمر وذلك هو القِسط ، وهناك حكم ظالم يحتاج إلى حكم آخر يزيل الظلم . وذلك الذى نستعمل له « أقسط » أى أزال الظلم ، مكان جوراً كان موجوداً وأزاله الحكم . فالقِسط - إذن - هو العدل الابتدائي . ولذلك نسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّا الْقَاسِمُونَ فَكَفَرُوا لِيَهْتَمَّ حَقًّا ﴾

(سورة الجن)

والقاسمرون هنا هم الظالمون ، فالقسط هنا من قسط يقسط قُسُوطًا .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها يقول الحق : « شهداء بالقسط » أى شهداء بالعدل . واللباقة في السامع هي التي توجه اللفظ إلى معناه المراد من خلا السباق ، فالسامع للقرآن يفترض فيه الأريحية اللغوية بحيث يستطيع أن يفرق بين المثني والمشابه له من شيء آخر . إذن فهناك قسط وأقسط ، قسط بمعنى عدل ، وأقسط بمعنى أقم القسط بإزالة الجور . والقسوط معناه الجور .

والحق يقول : « إن الله يحب المنسطين » وه المنسطين ، هي جمع « مُسْطٍ » من : أقسط أى أزال الظلم والجور ، إذن فالذي يرجع المعنى هنا سياق الكلمة ومصدرها . وقد يراد بالكلمة المعنى المصدرى . والمعنى المصدرى لا يختلف باختلاف منطوقه ، فهناك : « رجل عدل » ويقال : « امرأة عدل » . ويقال : « رجلان عدل » ، ويقال : « امرأتان عدل » ، وه رجال عدل ، وه نساء عدل . إذن فإن لرحنا بالكلمة المصدر فهي لا تنضير في المفرد والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث . والقرآن الكريم يقول :

﴿ وَصَّعُ أَمْوَازٍ الْأَقْطَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنعام)

وهناك قول آخر :

﴿ وَزَبُوا بِالْقِطَاسِ الْمُنتَفِيمِ ﴾ (١٨٩)

(سورة الشعراء)

وفي الريف المصري نجد أن التاجر يصنع لنفسه الموازين من الأحجار ، فيعير قطعة من الحجر بوزن الكيلو جرام ، ويعير قطعاً أخرى لأجزاء الكيلو جرام ، ومن كثرة الاستعمال وملازمة الحجر يعرف التاجر أن الحجر يتآكل ، لذلك يعيد وزن الأحجار لقي يستعملها في الميزان كل فترة متقاربة من الزمن . ويقال : إنه يعير الأوزن . وسمى القسطاس ؛ فالقسطاس هو الذي تعير به الموزين ، فإذا صح الإنسان شيئاً للميزان مما يتآكل أو يتأثر باللمس فيجب عليه أن يعيره كل فترة حتى لا يظلم أحداً ولو بمقدار اللبسة الواحدة . ولئلك يقول الحق : « ذككم أقط عند الله » . « أقط » هنا معناها « أعدل » . فموازين الله غير موازين البشر ، فموازين الشر قد يحدث فيها اختلاف . ويرى بعض التجار ينقصون الميزان بأن يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخدع ، لكن الحق هو العادل الحق . وهو صاحب الميزان الأعدل وهو القائل : « ذككم أقط عند الله » .

جاءت هذه الآية لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصغر حكماً ، وهو حكم صحيح وعادل بقواعد البشر ، فأوضح الحق له الحكم الأقط ، صحيح أن عدلك يا رسول الله لا يدخله هوى ولا يميل به غرض أو شهوة . ولكن العدل عند الله أكثر دقة وله مطلق الدقة . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم بمنطق القسط البشري في أمر زيد بن حارثة وكان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عبداً لحديجة - رضي الله عنها - وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة علم أهل زيد بخبر انتطافه وبهجه كعبد وكف آل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجهأ أهل زيد إلى رسول الله وطالبوا بإتيهم . ورفض زيد أن يعود معهم وأراد أن يهني مع رسول الله ، وأراد رسول الله أن يكرم زيدا الذي فضله على أبيه وأهله مصداقاً لقول الله :

﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

(من الآية ٦ سورة الأحزاب)

لذلك كان لا بد للنبى صلى الله عليه وسلم أن يقدر زيد بن حارثة ، فأعتقه ودعاه « زيد بن محمد » تكريماً له ، على عادة العرب في تلك الأيام . لكن الله يريد أن يذى مسألة النبى :

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

وأجرى الله الأحداث ليصحح مسألة النبى لكل العرب ، وكان بداية تطبيق ذلك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويترن القول الحق :

﴿أَدْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

لم ينف الله القسط عن محمد ، ولكن الأقسط يأتى من عند الله . ويطلب الله خاطر زيد بعد أن عاد إليه اسمه الفعل منسوباً لأبيه لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافى الله زيدا بأن يجعل اسمه هو الاسم الوحيد في الإسلام الذى يذكر في القرآن ويتعبد المؤمنون بتلاوته إلى أن تقوم الساعة :

﴿فَبِمَا نَحْنُ زَيْدٌ مِّمَّا وَطَرًا﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

لقد صار اسمه في القرآن يتلوه المسلمون إلى قيام الساعة . وى ذلك كل السلوى . إذن له « أقسط عند الله » جاءت في محلها ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طالب منا أن يكون قيماننا مبالغاً فيه ، أى ألا نترك فرصة لعمل الخير وأن نبالغ في الدقة في أداء العمل ، وأن نعمل في المجتمع بأن نكون شهداء بالقسط . وبذلك يأخذ كل إنسان حقه فلا يقدر قوى أن يظلم ضعيفاً ، لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

ولياكم أن تدخلوا الهوى في مقاييس العدل . وحب أن المسألة تتعلق بعلوكم أو بخصومتكم فالعدل هنا أكثر أهمية وأكثر وجوباً .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فتعدلوا عليهم ، فمن له حق يجب أن يأخذه . ونعرف القصة التي حدثت ، عندما سرق مسلم درع مسلم آخر وأراد السارق وأهله أن يلبصقوا التهمة بيهودى وأن يجرى نفسه ، ولكن الله أنزل قرآناً :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَادَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَافِينَ

غَصَباً ۝١٥٩﴾

(سورة الباء)

أى لا تكن يا محمد لصالح الخالفين غصباً للبراء . وقوله الحق هنا : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا ، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم ، وبغض المؤمن إذا حله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو ، لأن الله سبحانه يحب المؤمن لو أدخل الهوى والبغض في إقامة الميزان العادل . فتحكيم البغض والعداء والهوى يكون لصالح الخصوم ! لذلك لا يحملنكم أيها المؤمنون شنآن - أى بغض - قوم على ألا تعدلوا .

ويضيف الحق : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » والعدالة حين تُطلب مع الخصم هي تقرب لملك الخصم لأنه خالف الإيمان . ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه : إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أن يقول الحق ولا بد أن عقيده تجعل منه إنساناً نوباً ، وأن فيه الذى أمره بذلك هو نعم الدين .

إذن ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تفرعه لأنه ليس مزمناً ، لكن لو رأى خصمك أنك قد جُرت ولم تنسحب إلى الحق ، فأنت بذلك تشجعه على أن يبقى كافراً ؛ لأنه سيخرف أنك تتبع الهوى . أما إذا رآك وأنت تقف موقفاً يرضى الله مع أنه خصم لك ، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التي آمنتم بها هي الحق ، وأنك تقيم الحق حتى في أعدائكم . وهكذا يفرح الخصم المحدى نفسه ، وقد بلغته ذلك إلى الإيمان .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » أقرب إلى أى تقوى ؟ أقرب إلى تقوى المؤمن ؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيماً للعدل والحق ، فقلعه

يرتدع ويعاود نفسه ويقول : إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البعض وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أنني عدو له .

ولنا في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة ، فقد جاءه رجل غريب يسأله طعاماً أو بيتاً ، فسأله إبراهيم عن دينه . فوجده كافراً ، فلم يحب مسأله . وصار الرجل بعيداً ، فأنزل الله سبحانه على إبراهيم وحياً : أنا قبلته كافراً بي ومع ذلك ما قبضت نعمتي عنه . وسألك الرجل لقمة أر بيت ليلة فلم يجبه . وجرى سيدنا إبراهيم خلف الرجل وسنوفه . فسأل الرجل سيدنا إبراهيم : ما الذي حدث لتغير موقفك ، فقال سيدنا إبراهيم : إن ربي عاتبني في ذلك فقال الرجل : نعم الرب إله يعاتب أحابه في أعدائه ، وأمس الرجل

وهذا يوضح لنا معنى « أقرب للتقوى » فقد صار الرجل الكافر أقرب للتقوى . إذن : فاللعن النفس الذي يهيب خصمك أو من يفضك أو من بيتك وبينه شأن ، حين يراك أثرت الحق على بغضك له ، يجعله يلتفت إلى الإيمان الذي جعل الحق يعلم الأقوى ويعلم ويفهره ، ويصير أقرب للتقوى . وأيضاً من يشهد بالقسط هو أقرب للتقوى .

ويذكر الحق الآية بقوله : « راتقوا الله إن الله خير بما تعملون » فهو - سبحانه - الخبير بما تعمل . وإياك أيها المؤمن أن تصنع ذلك لشهرة أن يقال عنك إنك رجل حكمت على نفسك . ولكن اعمل من أجل الله حق وإن كان الموقف يستحق منك الفخر .

إن كثيراً من الناس يحكمون بالظلم ليشتبهوا بين الناس بالعدل ، كيف ؟ لنفرض أنه قد عرضت عليك قضية هي خصومة بين ابنك وابن جارك : الشجاعة الأولى تفرض أن تحكم لابن جارك وهو غير محق على ابنك . لكن الشجاعة الأقوى أن يكون الحق لابنك وتحكم له ، أما إن حكمت لابن جارك - وهو غير محق - ففنى هذه الحالة تكون قد حكمت بالظلم لشتهر بين الناس بالعدل !

يجب أن يكون الحق أعز عليك من ابنك وابن جارك ، وإياكم أن تعملوا أعمالاً

ظاهرها عدلٌ وداخنها رياءٌ ؛ لأنَّ عدم أن لكل جراحة من الجوارح محالاً تؤذي فيه
وحيمتها ؛ فاللسان أداؤه ووظيفته القول ، والأذن معها أن تسمع ، والأفم أداؤه أن
يشم ، ويجمع لجميع العمل فاعمل بما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلاً
قال تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْنَعًا عِندَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾

(سورة الصف)

إذن دسول محبة اللسان ، ونفس محبة رؤية الجوارح ، ولائذ يجمعهم العمل
ومن بعد ذلك يقول الحق

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾

وعندما تأمل كلمة « وعد » تجد ناز ، وتأثر أيضاً كلمة « أوعد » و« وعد »
وكذلك أوعد إذا لم يقترب بالموعود به ، تكون وعد لغيره ، و« وُعد » لنشر وبكر
لو حدث غير ذلك وحش بالموعود به ، فالإنسان متساوياً ، فيصح أن تقول « وعدته
بالخير » ويصح أيضاً أن تقول « وعدته بالشر » لكن إن لم تذكر المنعق ، فإن
« وعد » تستعمل في الخير و« أوعد » تستعمل في الشر وإشاعر يقول

وَأَيُّ إِنْ أَوْعَدْتَهُ لَوْ وَعَدْتَهُ
لُخْلِفَ إِيمَانِي وَمُنْجَزُ مَوْعِدِي

وحيث يقول : « وعد الله » فهذا وعد مطلق لا إحلال به ، لأن الذي يفخ بالوعد
هو الإنسان الذي تعثره الأعبار ؛ فقد يأتي ميعاد نوافء بالوعد ويهد الإنسان نفسه في

موقف عاجز أو موقف لمتعب قديماً ، لكن ساعة يكون الله هو الذي عهد قسبها له
ابدى لا تداحله الأعباء ، بل هو لدى يجرى لأعباء ، لذلك يكون وعده هو الوعد
الخاص الذي لا توجد قوة أخرى تحول دون أن ينفذ الله وعده أما وعد البشر فقد
تأني قوة أخرى تعطل هذا الوعد .

« وحده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم معمرون » سبحانه وتعالى يوضح أن
معمرون لكن عباده ولا يختص فقط الصالحين الورعين بل إنه يوجه حديثه إلى هؤلاء
الذين ارتكبو المعاصي هم تسوا ، فلهم معفرة ، لأن ذرة المسدة مقدم على حب
المصلحة ؛ ذات قد تكون جانب وياي وحظ جهة اليمين ليقدّم لك تداحة ، وفي
المنحلة نفسها نبي تمتد يدك لتأخذ التداحة تلتفت لتجد إنساناً آخر يريد أن
يصفحك ، أي اتجهات سلوكك تغيب^٩ . لا بد أنك ستزد على من يصرفك أولاً
والحق يريل لدروب أولاً بالمعصرة ويحده سبحانه وتعالى يأتى بأشياء تمتت القلب
فهو يقون .

﴿ قَن رُحْرَح عِي السَّارِ وَذَجَلِ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَرَّ ﴾

(في الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

الخطوة الأولى للمور هي الرحلة عن الدار ، والخطوة التالية بعد ذلك هي
دحوّل حنة مسجده يمح المسدة ويقدم دفعها ودرأها على جلب المسدة ؛ لذلك
يقول الحق بذاتة « لهم معمرون » والإنسان ما سعدة تأتي له الخواطر يفكر في أشياء
يصدق إليها ، وهناك أشياء يخاف منها ويشغل لذهن أولاً بما يخاف منه ، يخاف من
المسدة ، يخاف من عدم تحقيق الآمال إذن ذرة المسدة مقدم على جلب المصلحة .

« هم معمرون وأجر عظيم » وكل أجر عن عمل يأخذ عمره بقدر حيرة ارمى ،
فأجر الإنسان عن عمله في الدنيا يذهب ويروى ، لأن الإنسان نفسه يذهب في
الموت ، أما أجر الآخرة فهو لبقى أبدي ، وهو أحر لا يفوت الإنسان ولا يفوته
الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

وعين يتكلم الحق عن معنى من المعاني يتعلق بالإيمان ونعمل الصالح نكون

النفس متعلمة ؛ لأن هناك تأملاً في الخير وترهيباً من الشر ؛ لذلك يتبع الحق هذه الآية
بآية أخرى فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١٠ ﴾

وعين سمع قوه . « أصحاب الجحيم » تنزل النفوس رهبة من تلك الصحبة
التي برأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم وتعني الارتباط معاً ، وألا يترك أحدهما
الأخر ، كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيم نفسها
في اشتياق لهم وللجحيم يوم القيامة عملان ، العمل الأول : الصحبة التي
لا يقدر الكافر على الفكك منها ، والثاني لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك
منها . ويقول الحق عن النار :

﴿ يَوْمَ تَقُولُ لِحَبِيبَتِي هَلْ أَتَيْنَاكَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ١١ ﴾

(سورة ق)

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٢ ﴾

والذكر - كما عرفنا - يعني استحضار شيء إلى الذهن ؛ لأن الغفلة تطرد على

الإنسان وعيه ألا يستمر فيها . وبعض أهل الإشراق والسطح يتلاعبون بالمواجيد النفسية فيقول واحد منهم : يعلم الله أني لست أذكره . وحين يسمع الإنسان مثل هذا القول قد يوجه لصاحبه التائب والفد المهيئ ، لكن القائل يحل الأمر التحليل العرفاني فيكمل بيت الشعر بالشطر الثاين :

« إذ كيف أذكره إذ لست أنساه » .

وهذا ترتاج النفس ، ويقول الحق ها أيضاً : « نعمة الله » ولم يقل : « نعم » لأن كل نعمة على امفراد تستحق أن يشكر الله عيها ؛ فكل نعمة مفردة في عظم وصحامة تستحق الشكر عليها ، أر أن نعمة الله هي كل فيضه على خلقه ، فامضل النعمة أنه ربما ، وسبحانه يقول . « اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » وما دام قد جاء بـ « إذ » فالمراد نعمة بخصوصها ؛ لأن « إذ » تعني « حين » فالحق يوضح . اذكروا نعمة الله عليكم في ذلك الوقت الذي حدثت فيه هذه المسألة ؛ لأنه جاء بزمس ويطلب أن نذكر نعمته في هذا المرقف ، إنه يذكرنا بالنعمة التي حدثت عندما هم قوم يسط أيديهم إليكم

وهناك « قبض » لليد و « بسط » لليد . والبسط المتطور أن ترى النعمة وفي الآية تكون النعمة هي كف أيدي الكافرين ، ذلك أن أيديهم كانت ممدودة بالسوء والشر ولو وقفنا عند بسط اليد ؛ لظنا أنه سبحانه قد جعل من أسباب خلقه معبراً للهم علينا أي أن نعم الله تعبر وتصل إلينا عن طريقهم وبأيديهم ، لكن هذا ليس مراد من النص الكريم ؛ لأننا حين نتابع قراءة الآية ، نعرف أن كف أيديهم هو النعمة ، هؤلاء القوم أرادوا أن يسطوا أيديهم بالإيذاء ويقولون عن بذاة اللسان : « بسط لسانه » ويقولون أيضاً : « بسط يده بالإيذاء » .

ونعرف أن الحق جاء بـ « إليكم » أو « عنكم » وكلاهما فيه ضمير يعود على المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فالمؤمنون ملحمون بمنهج النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا هم قوم أن يسطوا أيديهم إلى رسول الله ، فهي ذلك إساءة للمؤمنين برسول الله ؛ لأن كل شيء يصيب رسول الله ، يصيب المؤمنين أيضاً . وكانت هناك واقعة حال في زمن مقطوع وسابق، فهل يعني الحق سبحانه وتعالى بحادثة بني

الضعيف ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين النصر معاهدة ألا يعينوا عليه حصون الإسلام وإذا حدث قتل من جهة المسلمين فعلى بني النصر المعاونه في الدية . وكان السبي قد أُرسل مسلماً في سرية فقتل اثنين من المعاهدين خطأ ، فهدلوا بديّة لنفتيلين . وم يكن عند السبي ، مأل فلذهب إلى بني النصر كي يساعدوه بديّة الفتيلين ، فقللوا له : « مرحبا » بطعمك وسقيك وبعد ذلك تعصيك ما تريد ، ثم سلطوا واحداً ليرمي لرسول بحجر فصعد الرجل ليلقي على الرسول صحرة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاعد إلى جانب جدار من بيوتهم فأخبر الحق رسوله فقام حارجاً ، ولم ينتظر شيئاً .

« إاد هم قوم أن يسلطوا ليكم أيديهم فكيف أيديهم عنكم » لقد أخبر الحق بيته بما يبيتون قبل أن يتمكنوا من الفعل . و « اهتم » هو حديث النفس ، فإذا ما خرج إن أول خط الزرع عدلك هو المصد ، و « اهتم » هو الشيء الذي ينبغي على فكر الإنسان في نفسه ويكون مصحوباً بهم

وفي اللغة الدارجة نسمع من يقول : « أنا في هم وغم » ، لأن « اهتم » هو الأمر الذي لا يبارح النفس حديثاً ويسبب الهم . فالهم هو العدو الذي لا يقدر أن يقهره أحد ، لأنه يتسرب إلى القلب ، أما أي عدو آخر فالإنسان قد يدفعه ، ونعرف عن سيدنا لإمام علي - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - أنه كان مشهوراً بأنه الملقى ، فهو نستحق في الشيء فيحبيب عليه ، لدرجة أن سيدنا عمر نفسه يقول : « قصية ولا أنا حسن لها » أي أنها تكون قضية معصية إذ لم يوجد أبو حسن لها فيحبها ، وكان سيدنا عمر يستعيد من أن يوجد في مكان لا يوجد به سيدنا علي . وعندما عرف الناس عنه ذلك تساءلوا : من أين يأتي هذا الكلام ؟ فجاءوا بلعن وانتظروا كيف يخرج منه . فقالوا : إن الكون متسع وفيه أشياء أقوى من كل الأشياء ، وقوى تتسلط على قوى ، وحاولوا الاتصاف على شيء أقوى من كل الأشياء ، فقال واحد لحمل هو أقوى الأشياء . وقال الآخر : لكننا نقطع منه الأحجار بالحديد . وببها هم يسلسلون هذه السلسلة جاء سيدنا علي فقالوا له : يا با احسن ما أشد جنود الله ؟ .

فأجاب سيدنا علي - كرم الله وجهه - كأنه يقرأ من كتاب بدليل أنه عرف جنود الله وعرف الأقوى وحصر عددهم ، وقال سيدنا علي : أشد جنود الله عشرة .

وكان اشعل بهذه المسألة من قبل ، ودرسها .

قال : يجال الروابي والحديد يقطع خيال ، واسار تذيب الحديد ، والماء يغمي اسر ، واسحاب السحر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع لسحاب ، وابن آدم يعلب الريح يستر دائره أو الشيء ويضي حاجته ، والسكر يعيب ابن آدم ، واليوم يعلب السكر ، وهم يعلب سوم ، فأنشد حمود الله اللهم ولا يمسكنا أن نمر على كلمة اهم في القرن إلا أن نستعرض مواقف في كتاب الله وأهم موقع من مواقعها نتعرض له من أسئلة الكثيرين في رسائلهم وفي لقاء تلامذتهم هو مسألة يوسف عليه السلام حين قال الحق سبحانه وتعالى بخصوص المراودة امرأة العزيز له :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهٖ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ولحق هذه أسألة ، فالدليل يستبعدون عن سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأمر ، يستبعدون عن صاحب العصمة أن يفكر في نفسه ، وإن كان التفكير في النفس لم يبلغ العمل التروعي فهو محتمل . بل قد يكون التفكير في الشيء ثم عدول النفس عنه أقوى من عدم التفكير فيه ، لأن شغل النفس بهذا الأمر ثم الكف يعني مقاومة النفس مقاومة شديدة . ولكمهم يحبون ويعظمون - أيضا - سيدنا يوسف عن أن يكون قد مر بحاطره هذا الأمر فضلا على أن يوسف - عليه السلام - لم يكن قد أوصل إليه أي أنه لم يكن رسولاً آنذاك .

الآية تقول .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهَ وَهَمَّ بِهَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

أي أن امرأة العزيز هي التي بدأت المراودة ليوسف عليه السلام فمن تم تروع إلى العمل ؟ لا ، لأن التروع إلى العمل يقتضي أن يشارك فيه سيدنا يوسف إذن به هم به أي صارت نجب أن تصعب العمية التروعية وجاء الخاتم من سيدنا يوسف . وبالنسبة للمراودة وهو سيدنا يوسف ، قال الحق

﴿وَقَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ونضرب لذلك مثلاً حتى نفهم هذا ؛ إذا قال لك قائل . أزورك لولا وجود فلان عندك ، هذا يعنى أن القائل لم يزرك ، وبالقياض نجد أن يوسف عليه السلام رأى البرهان فلم يمم . فمن أراد أن يتز يوسف حتى عن حديث نفسه بقول : الأمر بالنسبة لها أنها همت به ، وحتى يتحقق الفعل كان لا بد من قبول هذا الأمر ، وحصار الامتناع لك ليس من جهته بل جاء الامتناع من جهته . وهو قد همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

لذا جاء الحق . بأنه همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه ؟ جاء الحق بذلك الحكاية ليدلنا على الحكمة في امتناع يوسف عن موافقته على المرافعة ، فلم يكن ذلك من وجود نقص طبيعى جسدى فيه ، ولولا برهان ربه لكان من الممكن أن يحدث بينها كل شيء . وأراد الحق أن يخبرنا أن رجولته كاملة وفحولته غير ناقصة واستعداده الحسى موجود تماماً ، والذي منعه من الإتيان لها هو برهان ربه ، إنه امتناع دينى . لا امتناع طبيعى . وبذلك يكون إشكال الفهم لمسألة الهم عند امرأة العزيز ويوسف قد وضع نغماً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددنا . «إد هم قوم أن يسلطوا إليكم أيديهم» وكلية «قوم» إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان وكما أوضحنا من قبل نحدد الإنسان إما أن يكون قائماً وإما أن يكون قاعداً وإما مصططحاً وإما مستلقياً وإما نائماً . ونحدد أن الراحة من مقدار هذه المسألة ، فالنائم هو الذى يتعب أكثر من الآخرين ، لأن ثقل جسمه كله على قدميه الصغيرتين ، وعندما يقعد فإن الثقل يتوزع على المقعدة . وإذا اصططحج فرفعة الاحتيال تنسج . ولذلك يطبقونها على الرجال فقط ؛ لأن من طبيعة الرجل أن يكون قواماً ، ومن طبيعة امرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة . فالقوم هم الرجال ، ومقابل القوم هما «النساء» . إذن فالنساء ليس من طبيعتهن القيام .

والشاعر يقول :

وما أدري ولست إخال أدري

أنوم آل حصن أم نساء

وحين يقول الحق : « إدم هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم » فمعنى ذلك أنه لم يكن هناك نساء قد فكرن في أن يؤدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجد هنا أيضاً أن السط مجال تساؤل ، هل السط يعنى الأذى أو الكرم ؟ .
والحق يقول .

﴿ وَلَوْ سَـَٔىَ اللَّهُ الرِّقَّ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

هذا (في مجال العطاء) أما في مجال الأذى فالحق يقول على لسان ابن آدم لأخيه :

﴿ لَيْسَ بَسَطْتُ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَمَّا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة المائدة)

والأيدي لا تطلق إلا إذا أرموا حركة زرعية تترجم معنى في النفس سبق أن مرّ على العقل من قبل ، فمد الأيدي يقتضي التبيت بالمكر ، وهكذا يعرف أن القوم قد بسطوا أيديهم إلى رسول الله والمؤمنين

وعندما ننظر في التريخ المحدث مع أحداثه ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ

وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكُورِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

أي أنهم قعدوا للتبيت . ونحن لا نعرف ذلك السبب إلا إذا اعتدت الأيدي للحمل ، فقد مكروا وبشروا للشر وأرادوا أن يشتموا رسول الله أي أرادوا تحديده إقامته بحبسه أو تقيده أو إسماعه بالجراح حتى يوهنوه ويعجزوه فلا يستطيع الهوس والقيام أو يقتلوه أو يخرجوه من بلده . بإثباته ومنعه فلا يرح ، أو يخرجوه من المكان كله أو يقتلوه ، فإذا كان المرقف ؟

لقد هو أن يسطوا إليه أيديهم . ووسط اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يؤذى المزمير كلهم ، لأنه لا يستقيم أمر المزمير إلا برسول الله ، فلو بسط الكفار أيديهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لكان معنى ذلك بسط أيديهم على الكل .
ويأتى التاريخ المحدثى بأمور يبسط فيها الكافرون أيديهم بالأذى إلى رسول الله وإلى المؤمنين ويكف الله أيديهم ويحرمهم أى يجاريهم على ذلك بالعقاب .

والمكر - كما نعلم - هو الشجر الملتف بعضه على بعضه الآخر حيث لا يعرف أى ورقة تسمر من أى جذع أو فرع . والمكر فى المعانى هو التبييت و إخفاء . وهو دليل ضعف لا دليل قوة . فالأقوياء يواجهون ولا يبيتون ؛ ولذلك يقال : إن الذى يكيد لميره إنما هو الضعيف ؛ لأن الإنسان الواضح الصريح القادر على المواجهة هو الأقوى . ونجد النعص يحمل ضعف النساء دافعا لهن على قوة المكر استنادا لقول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

والى قول الحق

﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ مَظْلُومٍ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

فلا يكيد إلا الضعيف ومن لا يقدر على المواجهة فهو بيت ، ولو كان قادراً على المواجهة لما احتاج إلى ذلك . وقد يكر البشر ويبيتون بخفاء عن غيرهم ، لكنهم لا يقدررون على التبييت بحياء عن الله ، لأنه عليهم بحفايا انصدور . وأمر الحق فى التبييت أقوى من أمر الحق ؛ لذلك نجد قوله سبحانه

﴿ وَبِمَكْرٍ اللَّهِ وَبِمَكْرٍ اللَّهِ وَبِمَكْرٍ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْمُكَرِّمِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

ولنحفظ أن تبييت الله خير . وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعلم أعداء الإسلام أنه بعد هذا التبييت لن تنالوا من رسولي ، لن تنالوا منه بكل وسائلكم سواء أكانت تعذيب لقومه أم تبييتا له . وعلى الرغم من أنهم يبتوا كثيرا ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من بيته في مكة إلى المدينة وهم نائمون :

﴿ فَأَعْيَبْنَاهُمْ لَمَنَّهُمْ لَابِيَهُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة يس)

ونجد العجب في كف أيدي الكافرين عن رسول الله فكل أجناس الوجود قد اشتركت في عملية كف أيدي الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت تلك لأجناس جمادا أم نباتا أم حيوانا أم إنسانا ، فكل رسول الله التراب وهو جماد فأغشى به الكافرين ، وصار التراب من جنود الله .

وما هي دي أسماء بنت أبي بكر تحمل الطعام لهم في الغار وهي ترعى النعم ، والأغنام تجد الحشائش فترعها ونزول الأثر الذي أحدثه ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اشترك النبات في كف أيدي الكافرين عن رسول الله ، وكذلك الأغنام وهي من الحيوان ، وكذلك فرس سراقه التي ساعدت وعاصت قوائمها في الأرض ، ثم الحماة التي بنت عشها على العار ، وكذلك المنكبوت الذي يبى بيته على الخار ، ورضخت كل جنود الله لأمر الله فشاركته في عملية كف أيدي الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأعجب من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد كف أيدي الكافرين بالكافرين ، فالرسول الذي جاء ليهدى الحق ويسير بهم إلى النور من الظلمات ، سجد الذي هداه في طريقه إلى المدينة هو أحد الكفار . وهكذا نرى أن هداية المعاني تستخدم هداية المادة ، والرسول هو الحامل هداية المعاني يستخدم هداية المادة ممثلة في ذلك الكافر . ونعرف أن من جنود الإسلام في دار الهجرة كان اليهود - برغم أنوعهم - ألم يقولوا للأوس والخزرج : سيأمن من بينكم نبي نتبعه ونقتدكم معه فقل عاد وإرم ؟ فلما سمع الأوس والخزرج أن نبيا ظهر في مكة ، قالوا : هذا هو النبي الذي توعدتنا به

اليهود ، فلا يسبقكم إليه ، فبقوا إليه وأسلموا ويأبىوه ، فقد ورد أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مبثته ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجعلوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون عليها بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك ونخبرونما بأنه مبعوث ونصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جئنا بشيء نعرفه وما هر بالذي كنا نذكر لكم^(١) .

ثم كانت المدينة داراً لهجرة .

هكذا نرى أن الباطل يختم الحق ، والكفر يختم الإيمان ، فلما هوذا عبيد الله بن أريقط - وكان كافراً - يضع نفسه كندليل للرسول وصاحبه أثناء الهجرة ولا ينظر إلى الجمل الذي رصده قريش لمن يأتيها بمحمد . هكذا نجد أن كف الأيدي كانت له صور كثيرة

وقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشياء ومواقف رآها الصحابة ، وشأت به خوارق من الحق سبحانه وتعالى تؤيد صدقه ، وشاهد تلك الخوارق بعض الصحابة ولا نقول عنها معجرات ، لأن معجزة الإسلام إلى قيام الساعة هي القرآن . ولكن رسول الله لم تقل حياته من بعض المعجزات الكونية مثل التي حدثت لمريم من الرسل . وأرادها الحق لا للمسلمين عموماً ولكن شاهدها بعضهم كما شاهدها بعض الكفار ، لأن رسول الله كان في حاجة إلى أن يؤكد له الله أنه رسول الله . فلما هوذا سيدنا جابر بن عبد الله يقول :

« كان بالمدينة يهودى وكان يسكن في ثمري إلى الجنداد ، وكان لجابر الأرض التي بطريق رومة فجعلت^(٢) فخلاً^(٣) أما فجاعت اليهودى عند الجنداد^(٤) ولم أجد منها شيئاً ، فجعلت استنظره^(٥) إلى قابل فبأى فلعب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق مروياً عن ابن عباس .

(٢) فجعلت : أي فافتقرت الأرض من الزيل ، وفي رواية ففعلت أي خلقت ما كان موجوداً منها من العمر

(٣) فخلاً : أي ثأثر السلف علماً .

(٤) الجنداد : (بكسر الجيم وفتحها وباللهم المصحة ويحذف إماماً) ومن قطع ثمر الثفل

(٥) استنظره : أطلب منه أن يهتدى

فقال لأصحابه : امشوا تنتظروا جابر من اليهودي ، فجاءوني في سخل فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يكلم اليهودي فيقول : أبا القاسم لا أنظره ، فلما رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - قام فطاف في السخل ثم جاءه فكلمه فلن ؛ فقامت فجئت بفيل رطب فوضعت بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - فأكل ثم قال : أين هريشك يا جابر ، فأخبرته فقال : أقرش لي فيه هريشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئت بقبضة أخرى فأكل منها ثم قام فكلم اليهودي فلن عليه ، فقام في الرطاب في السخل الثانية ثم قال يا جابر ، جدد واقض ؛ فوافيت في الجدد فجعلت منها ما قضيت وفضل منه فخرجت حتى جئت النبي - صلى الله عليه وسلم - فبشرته فقال : أشهد أن رسول الله ^(١) .

مثال آخر : كان الماء قليلاً عند قوم من الصحابة فيمض رسول الله يده في الماء ويشرب كل الناس وهل يمرؤ أحد من الذين رأوا تلك المعجزة أن يجادل فيها ؟ طعناً لا ، لكن هل هذه المعجزة لنا ؟ إن وثقنا قيمنا أخبر قلن نستكثر على الله أن يكثر الماء لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن نحن نعلم أن الله قد تكفل بحفظ القرآن ليكون هو المعجزة الباقية فقال تعالى : « إنا نعمن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد ثبت أن رسول الله جمع قليلاً من الزاد ودعا ما شاء الله أن يدعو وأطعم به جيشاً . والذي عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم له أن يصدق تلك المعجزات أو لا يصدقها ، ولكن على المؤمن الذي عدم مقام ومكانة الرسول عند ربه ، أن يصدق تلك الحوارق متى ثبت ذلك بطريق يقيني قطعي ، ولذلك لا ضرورة لإقامة الجدل مع هؤلاء الذين يذكرون المعجزات الكونية . ونقول لهم : ليس أحدكم مسئولاً بهذه المعجزات ، أنت مسئول بمعجزة القرآن فقط . والحوارق التي وقعت إما أن تكون بغرض تثبيت رسول الله مصداقاً لقوله الحق .

﴿ لَسَيِّتَ بِهِ قَوْلَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة التوبة)

وأما أن تكون لتثبيت أصحاب رسول الله ، فقد كانت الأحوال تمر عليهم وتزلزلهم :

﴿مَتْلِكِ آبِلَى التَّوَسُّونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (٣١)

(سورة الأحزاب)

وكان لا بد أن ترسل السماء لهم آيات لتثبيت أقدامهم في الإيمان

والخلاصة أن كل الخوارق الكونية التي حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المقصود بها عامة المسلمين ، ولكن المقصود بها من وقعت له أو وقعت أمامه ، ونعوض بذلك أى نزاع حول تلك الخوارق ؛ لأن المعجزة الملزمة للجميع هي كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد همم بالأنهى كثير من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم ترد امرأة من اليهود أن تسمه وكف الله يديها ؟ وحكاية بنى النضير الذين أرادوا أن يلقوا عليه الحجر ، فقدم قبل أن يلقى مندوب بنى النضير الحجر عليه صلى الله عليه وسلم .

وما هوذا صفوان بن أمية له ثار عند رسول الله من غزوة بدر يستأجر حمير ابن وهب الجهمي ويقول له : اذهب إلى المدينة واقتل عمداً وعلّ دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيال أواسيهم ما بقوا .

ويذهب حمير إلى المدينة ويدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا حمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأخسوا إليه . وكان له ابن أسير لدى المسلمين . قال : فما بال سيفي في عنقك ؟ فقال : فبحها الله من سيوف أهل أضئت عنا شيت ؟ قال : أصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم . بل نعمت أنت و صفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين عليّ وعيال عدي لخرجت حتى أقتل عمداً فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين فقال حمير . أشهد أنك رسول الله قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي .

وهذا أمر لم يحصره إلا أنا وصقوان ، والله إن لأعلم ما آتاك به إلا الله ، والحمد لله الذي هدانا للإسلام (١) .

ومثال آخر - ما رواه سيدنا جابر - رضي الله عنه - في غزوة ذات الرقاع : قال جاء رجل يقال له عورث بن الحارث فقام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده فاحد رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : (ومن يمنعك مني) ؟ فقال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكرن مع قوم يقاتلونك . فغل سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس (٢) .

وعندما سمع الرجل لأول مرة أن الله هو الذي يمنع الرسول منه وقع السيف من يده ، ذلك أن ذرات الكفر في الرجل تزلزلت وعاد إلى إيمان المعطرة ، وعندما أمسك النبي بالسيف وسأل الرجل : من يمنعك مني ؟ لم يقل الرجل : هبل ، أو اللات ، أو العري ، فالرجل يعلم أن مسألة الأصنام كذب في كذب ، ولو كان مؤمناً بألمته لقال أحد أسماؤها . وعندما تزلزلت ذرات الكفر في كبانه عاد إلى المعطرة الأولى التي لا تكذب أبداً . وإن كذب الإنسان على الناس جميعاً لا يكذب على نفسه . وكلمة والله ، هي التي زلزلت كفر الرجل وأعادته إلى الحق .

وفي معركة بدر نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسدده يساً أبه عبدالرحمن كان مع الكفار ، وبعد أن أسلم أبه بفترة جلس الولد مع أبيه يتسمران ، فقال الابن : لقد رأيتك يوم أحد فصدت (٣) . عنث فقال أبو بكر : لكنني لو رأيتك ما صدت عنك (٤) . فقد رأى ابن أبي بكر والده ولم يقتله ، ولا شئت أن مقاربة نفسية باطنية فكرية قد حدثت بين معزة أبيه وبين مكانة هبل أو بلث المحاربة ، وعرف ابن أبي بكر أن والده أمضى بكثير من تلك الأحجار . ولكن

(١) السجدة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير

(٢) البيهقي عن جابر في البداية (١٤٠٤)

(٣) صدقت منك أمرضت منك

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة عن أيوب وأخرج الحاكم عن أيوب نحوه

أما بكر حينها يقول . ولو كنت رأيتك لقتلتك ، فالمقارنة النفسية هنا تكون بين الإيمان بالله وبين الابهس ، ومن المؤكد أن الإيمان يغلب في نفس أبي بكر . وكل من أبي بكر وابنه كان مطعياً مع نفسه .

ومثال آخر : « عن جابر بن عبد الله أنه حزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - قل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم - قفل معه فذكرتهم القائلة - شدة الحر في وسط النهار - في وجر كثير المضاء - شجر عظيم له شوك - فنزل رسول الله ، وتفرق الناس في المضاء يستظلون بالشجر ونزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت شجرة فعلق بها سيفه ، قال جابر : فتمنا نومة فلذا رسول الله يدعو فنجئنا فإذا عنده أعرابي جالس فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن هذا اختط سقي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال لي : من يمنعك مني ؟ فقلت له : الله - فها هو ذا جالس ثم لم يعاقبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - » (١) .

ولماذا حدث ذلك ؟ لأن العطرة المستلزمة بدون تدخل من أحد تنصح بالإيمان . وما نحن أولاء برى الصحابة في العهد الأول حينما اضطهدوا في مكة وهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة ؟ هل ذهبوا إليها خط عشواء ؟ أو ذهبوا لتحطيط سوي كريم ؟ لقد درس النبي أولاً الأرض التي تصلح لاستقبالهم ويقبلهم فيها أهلها كمهاجرين ودرس النبي لوضاع الجزيرة العربية ووجد أن قريش تتمكن من كل قبيلة في الجزيرة العربية عندما يأتي موسم الحج ، لذلك لن توجد القبيلة التي تحمي المهاجرين فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملك لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » (٢)

(١) رواه البخاري في التاريخ وحسنه ابن إسحاق بعد قوله (الله) فخرج جبريل في صدره فوقع السيف من يده فأمسك النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال : من يمنعك مني . قال - لا أحد - وحسنه الواقدي أنه أسلم ورجع إلى نومه فمعه به خلق كثير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق

سُورَةُ النَّجَاشِيِّ

○ ٢٩٩٣ ○

وبالقمل ذهب المسلمون إلى الحبشة مهاجرين . وحاولت قريش أن تسرد المسلمين من أرض النجاشي . وأرسلت قريش بعثة لاستردادهم ورفض النجاشي . وسمع النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم أنه النبي الذي بشر به الإنجيل . ولاشك أن النجاشي قد أسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي عندما مات . وكان إسلام النجاشي مكافأة له من الله ؛ لأنه حمى المؤمنين بالله وبرسوله عنه . وما أعظم المكافأة التي نالها النجاشي أن يموت على الإسلام وأن يصلى عليه سيدنا رسول الله صلاة الغائب .

إن كل هذا من كف أيدي الكافرين عن المؤمنين وعن رسول الله ، وس أجل أن يثبت الحق للجميع أن المؤمنين على حق وأن الله لن يخذلهم ، فلا يحطربال المؤمنين أن عدوهم أقوى منهم ؛ فافقه أقوى من خلقه . « فكف أيديهم حكم » وكف أيدي الكافرين عن المؤمنين لأنه - سبحانه - يعد المؤمنين ليكونوا حلة منهجه إلى الخلق ولذلك يجب أن يداوم المؤمنون على تكاليف الإيمان وتقوى الله ليكف الله أيدي الكافرين عنهم ، فلا يتغلب كافر على مؤمن في لحظة من اللحظات إلا إذا كان المؤمن قد انحل عن شيء في مبعج الله ؛ لأن الحق لا يقول قضية قرآنية ثم يترك القضايا الكونية التي تحدث في الحياة لنسخ هذه القضية القرآنية . لقد قال :

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَاهُمْ الْقَلِيلُونَ ﴾

(سورة الصافات)

إذن فعندما ترى جنداً من المسلمين قد انهزموا فلتعلم أنهم قد انحلوا عن منهج الله فتخل الله عنهم ، بدليل أن بعضاً من المسلمين ساعة لم يتعلموا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبهم الكفار ، فافقه لا يغير سته من أجل أناس نسبوا إليه ولم ينفذوا تعاليم منهجه والحق يقول :

﴿ إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُخْرِجْ أَعْدَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

إنك إن انتسيت إلى الإسلام فيجب أن تنسب إلى الإسلام بحق ، وإن رأيت
المؤمنين قد دخلوا معركة وانهمزوا فليحت مصدر تخليهم عن منح الحق ، فصحانه
يقول :

﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ قَدْ وَهَّوْا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا
صَعَّفُوا وَمَا اسْتَكْبَرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّالِّينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
أَهْمِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا رَحِمْتَ الْغَافِلِينَ ۝١١٧
فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ تَوَّابٌ أَلَدُنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١١٨﴾

(سورة آل عمران)

لقد أصاب القتالين مع النبي شيء ، فلم يصعبوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق
أن يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر صحتهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ،
فيما فعل الله لهم ؟ . نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة
والله يحب المحسنين . وكل ذلك السلوك الإيمان الذي يقى من الهزيمة وكيد العدو ،
هو من تقوى الله ، حتى يظل المؤمنون في معية الله . وعندما يكون المسلم في معية الله
لا يجرؤ خلق من خلق الله أن ينال منه . وننظر إلى الهجرة كمثال لذلك ، ل نجد أن
سيدنا أبا بكر كان حريصاً على حماية النبي صلى الله عليه وسلم . فمن أنس بن
مالك قال : « لما كان ليلة الغار ، قال أبو بكر : يا رسول الله دعني فلدخل قبلك
فإن كانت حية أو شيء كانت لي قبلك . قال : ادخل ، فدخل أبو بكر فجعل
يلتصم يديه فكلما رأى جحراً جاء بشربه فشبه ثم ألقاه الجحر حتى فعل ذلك شربه
أجمع ، قال : فبقي جحر موضع عقه عليه ثم لدخل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، قال : فلما أصبح قال النبي صلى الله عليه وسلم « فإين ثوبك
يا أبا بكر ؟ » فأخبره بالنبي صنع لرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم
اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة » فلوحي الله تعالى إليه « إن الله قد
استجاب لك » (١) .

ويرى أبو بكر الكفار وهم يهرون أمام الغار فيقول لرسول الله . « لو أن أحدهم

نظروا تحت قدميه لأبصرنا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك يا أبا بكر
بأثنين الله ثالثهما » (١) .

وفي ذلك رد كامل ، لأن لاثنين في معية الله ، وما دام المؤمن في معية من لا تتركه
الأبصار فلن تتركه الأبصار ، كيف ؟ . نحن لا نعرف كل أسرار الله ولكنه القادر
الأعلى .

وفي حياة البشر نجد الطعم الصغير قد يخرج بمفرده فيصيبه خبره من الأطماع
بالصرور ، ولكن إذا خرج لطفل مع عاتيه ، مع أبيه مثلاً أو مع أخيه الأكبر ،
فالأطماع لا يقتربون منه ، فما بالك ونحن جميعاً عيال الله ؟ وماذا يحدث عندما تنتشبت
بمعية الله ؟ . إذن فتقوى الله هي التي تجعل المؤمن في معية ربه طوال الوقت . ومن
يريد للمؤمن بسوء فلا يجد الله يحمي المؤمن . وبذلك الحق الآية : « وعلى الله
فليتوكل المؤمنون » . وإياكم أن تقولوا : إننا لا نعد أو هذه . إنك مسئول أن تعد
ما تقدر عليه وتستطيعه وأترك الباقي لله :

﴿ وَاعْبُدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَنَاطِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ويقول التاريخ الإجماع لنا إنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . وقد
يقول قائل : هذه المسألة مادية تحتاج إلى عدد وعدد . ورد : إن الحق قد طالب بأن
نعد ما نستطيعه لا غرق ما نستطيعه . وهو سبحانه عنده من الجند اللطيف الخفي
الدقيق الذي لا يرى :

﴿ سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

وما دام الله قد ألقى الرعب في قلوب الأعداء فامسألة تنتهي ولا تغلج حُدد أو
حُدود . ويكون التوكل على الله بعد أن يعد الإنسان ما يستطيعه وهو الاستكمال المأمال
للنصر ، ولنعلم أن التوكل غير التواكل . إن المتوكل على الله يقتضي أن يعلم
الإنسان أن لكل جارحة في الإنسان مهمة إيمانية ، أن تطبق ما شرع الله ، فلا أدن
تسمع ، فإن سمعت أمراً من الحق فأنت تنفذه ، وإن سمعت الدين يلحسون في

آيات الله فانت تعرض عنهم . واللسان يتكلم ، لذلك لا تنقل به إلا الكلمة الطيبة ، فلكل جراحة عمل ، وعمل جراحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولتذكر أن السعي للقدم ، والعمل لليد والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ، لأن التوكل الحقيقي أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل لا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذي لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ويمتيز ثم تهب عليه عاصفة أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة الإحباط . واحذر إهمال الأسباب ، أو أن تهتك الأسباب ، لأنك إن أهملت الأسباب فانت غير متوكل بل متواكل . تنقل عمل القلب إلى الجوارح . وإذا قال لك واحد : أنا لا أصنع بل أتوكل على الله ، قل له : هيا بر كيف يكون التوكل . واحصر له طين طعام محبة وعندما يمد يده إلى الطعام ، قل له : اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

ويجعل الحق سبحانه وتعالى من قصص الرسل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبييناً للإيمان وتربية للأسماء وأثناء لها ، حتى لا يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يفعله اليهود أو المشركون ، فإني كان قد حدث معك - يا محمد - شيء من هذا الإنكار والإيلام ، فقد حدث لكثير من تلك الأحداث مع الرسل من قبلك ، فيقول سبحانه .

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾

يُذَكِّرُ الحق هنا رسوله باليثاق الذي أخذه من بني إسرائيل . وقد يكون المقصود هو ميثاق الذر أو يكون المراد باليثاق ما جاء في قوله تعالى :

﴿وَلَمَّا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾

(سورة آل عمران)

أو أن يكون المراد باليثاق هو ما بينه بقوله سبحانه :

﴿خَلُّوا مَاءَ أَنْهَارِكُمْ يَقْوَرُ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه : «وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً» وشر «التكتيك» الذي أراعه الحق ، فهو لا يجمع أجناس الخلق المختلفة على واحد من نوع منها ، لأن ذلك قد يعرض الدعوة لعصبية ، واختار سبحانه اثني عشر نقيباً على حشد الأسباط حتى لا يقولن سبط . كيف لا يكون لي نقيب ؟ . وحسم الله الأمر ، ولم يجعله محلاً للتراع ، فجعل لكل سبط نقيباً منهم . والنقيب هو الذي يدير حركتهم العقديّة والدينيّة . ومساءة سميع كلمة «نقيب» معرف أنها من مادة «النون و القاف والباء» ، «النقيب» هو إحداث فجوة لها عمق في أي جسم صلب .

إن اختيار الحق لكلمة نقيب ، يدل على أن النقيب الصادق ينبغي أن يكون صاحب عينين في منتهى البفظة حتى يختار لكل فرد المهمة التي تناسبه ويركز على كل فرد بما يجعله يؤدي عمله بما ينفع الحركة الكاملة . وبذلك يكون كل فرد في السبط له عمله ومكانه المناسب . ولا يتأتى ذلك إلا بالنقيب ، أي معرفة حالة كل واحد وميوله فيضعه في المكان المناسب .

إذن فالنقيب هو المنتخب الذي لا يكفي بظواهر الأمور بل يتجسس ليخبر ظروف وأسباب كل واحد . واختار الحق من كل سبط نقيباً ، ولم يجعل لسبط نقيباً من سبط

أحر حق يمع السيطرة من سيط على سيط ، ويمنع أن يكون النقيب على جهالة بمن يريد حركتهم من الأسباط الآخرين

و نحن سسمع في حياتنا اليومية وصفاً لإنسان : فلان له مناقب كثيرة ، أى أن له فضائل يذكرها الناس ، كأن على صاحب الفضائل ألا يتباهى بها بنفسه بل عليه أن يترك الناس لينقوا عن فضائله ، ولذلك كانت كنوز الأرض وكنوز الحيوانات مدفونة تحت عليها ، أما ما يظهر على سطح الأرض فتذروه الرياح وعوامل التعرية ولا يبقى منه شيء .

إذن فكلمة « نقيب » في كل مادتها تدور حول الدخول إلى العمق ، لذلك تصف الرجل الفاضل : فلان له مناقب أى إن نقيب وجدت له فضائل تذكر ، وقد أعطاه الله موهبة الخير ولا يتعالم بها ، بل يدع أساسهم الذين يحكمون ويذكرون هذه الصفات ومن نفس المادة « النقيب » أى أن تعطى المرأة وجهها .

وقوله الحق : « إني معكم » يعطيهم حصلة إيمانية ، فلا يظن أحد أنه يواجه أعداء مع الله بذاته الخاصة بن جموعة الله فلا يصعب أحد أو بين مادام مؤمناً ، وكما قال الحق :

﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وبعد أن يعد المؤمنون ما استطعوا فليتركوا الباقي على الله . وجاء أيضاً قوله : « وقال الله إني معكم » أى أن كل نقيب على سيط ليس له مطلق التصرف ، ولكن الله يوضح : « أنا معكم وسأظهر كيف يدير كل نقيب هذه المسائل » أى أنه سبحانه وتعالى مطلع على واقعكم ، فليس معنى الولاية أن يكون للوالي مطلق التصرف في جماعته ، لا ، لأن الله نقيب . وقوله الحق : « إني معكم » تلك على أن من وى أمراً فلا بد أن يتابعه ويؤيده .

وبعد ذلك قال : « ولئن أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزومتهم وأقرضتم الله قرصاً حسناً لأكثرن حكمكم سيئاتكم » . وه لئن « تضم شرطاً ونفساً ، كان الحق يقول : وعزوني لئن أقمتم الصلاة وعلمتم كذا وكذا ليكون الجزاء أن أكثر

حكم السيئات . ودلت « اللام » على القسم ، ودلت « إن » على الشرط فهي « إن » الشرطية .

والقسم - كما نعلم - يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً ، فالواحد مما يقول للعتاب : « إن تذاكر تصحح » . والواحد منا يقول « والله لأفعلن كذا » ، و« الله » هي القسم . و« لأفعلن » جواب انقسم المؤكد باللام . وحين يأتي القسم في جملة بفردة فجوابه يأتي ، وحين يأتي الشرط بفردة في جملة فجوابه يأتي أيضاً . ولكن ماذا عندما يأتي القسم مع شرط ؟ هل يأتي جوابان : جواب للشرط وجواب للقسم ؟ . عندما نجد هذه الحالة فانظر إلى المقدم منها ، هل هو القسم أو الشرط ؟ ، لأن المقدم منها هو الأهم ، فيأتي جوابه ، ويقضى عن جواب الثاني والمتقدم هنا هو القسم ، تماماً مثل قولنا :

- لئن قام زيد لأقومس ، وهذا يكون الجواب جواب القسم ، أما إن قمنا : إن قام زيد والله أكرمه ، فالجواب جواب الشرط ، مقدم الشرط على القسم . هذا إن لم يكن قد تقدم ما يحتاج إلى غير كالمستند أو ما في حكمه ، فإن جاء الخبر أي المحتاج إلى الخبر فالشرط هو المرجح ، أي المرجح أن يأتي بجواب لشرط ومحدد جواب القسم ؛ لأن الشرط تأسيس والقسم تأكيد . وابن مالك في الألفية يوضح هذه القاعدة :

واحد لم يأت اجتماع شرط وقسم

جواب ما أعترت فهو ملتزم

وإن توالي وقيل ذو خبر

فالشرط رجح مطلق بلا حذر

والقسم قد تقدم في هذه الآية ، لذا نجد الجواب هنا جواب القسم ، وهو : « لا كفرن عنكم سيئاتكم » .

وقوله الحق . « أقمت الصلاة » يوضح أن الإقامة تحتاج إلى أمرين : فروض تؤدى ، وكل فرض فيها يأخذ حقه في القيام به . وبعد ذلك « وآتيت الزكاة » وفي كتب الفقه نضع الصلاة ، والزكاة في باب العبادات . وجاء التقسيم العقلي لتسهيل إيضاح الواجبات ، لكن كل مأمور به من الله عبادة ؛ لأن العبادة هي أن تطيع من

تعبد في كل ما أمر به ، وأن تجتنب ما نهى عنه ، فكل أمر إلهي هو عبادة .

وقلنا من ليل : إن الحق سبحانه قال :

﴿ إِذَا بُدِئَ الصَّلَاةُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

هنا نجد أمراً تعبدياً أن نترك البيع إلى الصلاة ، وأمر تعبدياً ثانياً أن نتشر في الأرض ابتغاء لفصل الله بعد انقضاء الصلاة ، وأي إحتلال بالأميرين ، إحتلال بأمر تعبدى : فأت مأمور أن تتحرك في الأرض على قدر قوتك حركة تكفيك وتفيض عن حاجتكم ليهم هذا الصانع على غيرك

وقوله الحق : «وأماكم برسلي وعزيموهم » أى أن ينصف الإيمان في القلب فلا يظلم الأمر بعد ذلك لماقشته ، وأن تعزروا الرسل ، أى وقروهم ونصروهم ، والعز في اللغة معناه المنع ، ولكن المنع هنا مراد به أن يمنع الناس عن رسول الله من يريد به سوء ؛ فإن أراد أحد من لأعداء السوء برسول من الله فيمنع المؤمنين هذا العدو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنت في حياتك إن كان لك حبيب أراد أن يظلمك ، وكنت لا تدركه لأنه بعيد عنك فانت تسمى أن تأخذ صاحبك وتحميه من أن يظلمه العدو . لكن إن كان العدو أمامك فانت تصد عن حبيبك فالعز هو المنع ، أى أن تمنعه من عدوه وتحول بينه وبينه ، أو تمنع عدوه من أن يظلمه بشر . والرسول بالنسبة للمؤمنين به تكون حياته أعلى من حياتهم ، هي أثناء المنع قد يصاب أحد المؤمنين ، وفي ذلك تعظيم للرسول ونصرة له ونوqير .

نقول ذلك حتى نرد على الذين يتصيدون ويقولون : علماء المسلمين لا يتمقون عن شيء ، فمرة يقولون : إن « عزيموهم » معناها « نصروهم » ، ومرة أخرى

يقولون : إن « عززتموهم » معناها « منعموهم » . ونقول : كل المعاني هنا ملثمية ، فالعز هو الرد والمنع ، إما بمنع العدو عن الرسول ، وإما أن يمنع الناس الرسول من أن يباله العدو ، أو الاثنان معاً ، ويجوز أيضاً أن يكون معنى « عززتموهم » هو نصرتموهم . وكذلك يجوز أن يكون معناها « وقرتموهم » ، لأن التعظيم والتوقير هما السبب في نصرة الإنسان للرسول .

وبعد ذلك يقول الحق : « وأقرضتم الله قرضاً حساً » . ويدبر الحق له سياسة المال ، سواء للواجد أو لغير القادر ، فالواجد يوضح له الحق لا تجعل حركة حياتك على قدر حاجتك ، بل اجعل حركة حياتك على قدر طائتك ، وتخذ منها ما يكفيك ويكفى من نعول ، والباقي رده على من لم يقدر . ولو جعل كل إنسان حركة حياته على قدر حاجته ، فلن يجد من لا يقدر على الحركة ما يعيش به . ولنذكر جيداً أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلَتِهِمْ مَعْشُورَاتٍ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾

(سورة المؤمنون)

وحسب قال سبحانه : والذين هم للزكاة فاعلون ، ليس معناها مجرد أداء زكاة ، بل نعى أن ينحركوا في الحياة بفرض أن يتحقق لهم فائض يخرجون منه الزكاة ، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يعمل ليقوت نفسه ويقوت من يعول وليس في بآله الله ، أما مريد المؤمن فهو يعمل ليقوت نفسه ، ويقوت من يعول ويبقى لديه فائض يعطيه للضعيف ، فكان إعطاء الضعيف كان في بآله ساعة النمل . وهذا هو المقصود بقوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾

(سورة المؤمنون)

أي أن كل فعل للمؤمن يُقصد منه أن يكفيه ويكفى أن يزكى من . وهناك حق آخر في المال مير الزكاة ، بأن يسد به إلى الأمر ما يحتاج إليه المجتمع الإيمان بشرط أن يقيم إلى الأمر كل شرع الله .

والزكاة هي إخراج المال على نحو مخصص ، أما الصدقة فهي غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة . وهناك القرض ، وهو المال الذي تتعلق به النفس ، لأن الإنسان يقلعه لغيره شريطة أن يرده ، ولذلك قيل إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقرض لا يفترض إلا عن حاجة ، أما الذي تصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة ، وأيضاً لأن نفس المتصدق تخرج من الشيء المتصدق به ولا تتعلق به ، أما الذي يقدم القرض منه متعلقة بالقرض وكلما صبر عليه مال حسنة ، وكلما قدم نظرة إلى ميسرة لهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

فالحق يريد أن تعيش حركة الحياة بالكثير . وكيف يقول سبحانه : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، وهو الراجح لكل النعم » وكيف يهب الحق للإنسان النعم ، ثم يقول له : أقرضني ؟

هو سبحانه وتعالى يحترم حركة الإنسان وعرقه مادام قد ضرب في الأرض وسعى فيها ، فمال الإنسان ، ولكن أحبا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ويعتبر سبحانه هذا قرضاً من الإنسان لله . ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبائه . بما أنك تلحق من مصروف يذك فاعط أحاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرصاً عندي ، صحيح أن العائل هو الذي أعطى المال لكل من يعول ، فما بالنا بالذي أوجنت جميعاً ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟ لقد وهب كل ما نعمة عمله واعتبر تلك النعمة ملكاً لصاحبها . ويعتبر فوق ذلك إقراض المحتاج إقراضاً له .

ويصف الحق القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه من ، أو منفعة تعود حل للقرض وإلا صار في القرض ربا . ولنا الأسوة الحسنة في أبي حنيفة حينما كان يجلس في ظل بيت صاحب به . واقترض صاحب هذا البيت من أبي حنيفة بعض المال . وجاء اليوم التالي للقرض وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفت أن يكون ذلك لونا من الربا . فقال صاحب البيت : لكك كنت تقعد قبل أن تقرضني . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وانت المتفضل هل بظل بيتك فأحاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بامال .

والقرض الحسن هو الذي لا يشوبه من أو أدنى أو منفعة ، ولأن القرض دين ، وضع الحق القواعد

﴿ إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَ يَدَيَّ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالخو يحصى المقرض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدين مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك في الحياة ليسد هذا الدين ، ويستعيد المجتمع من حركته أيضاً

وعندما يكتب المقرض هذا أمر دافع للسداد وَحَثُّ عَيْبِهِ لكن إن لم يكتب المقرض فقد يأتى طرف من الظروف ويتناسى المقرض . ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة في أى أزمة ، فيريد الخو أن يديم الأسباب التي تتداول فيها الحركة ، ولذلك يقال في الأمثلة العامة : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله . ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الخو

﴿ وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتَبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

وفي ذلك حمية للنفس من الاغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنَّ أَمِنْ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ فَلَئِنَّ الَّذِي أَوْثَقْنَاهُ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

وهكذا يحصى الله الحركة لاقتصادية ونجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ارحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دين ، فقال لنصحابة صلوا على أحبكم لكنه لم يصل على الميت . وتساءل الناس لماذا لم يصل رسول الله على هذا الميت وما ذنبه ؟ كأن رسول الله أراد أن يعلم المؤمنين عن دين المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حمزاً للناس ودفعاً لهم إلى أن يبرئوا دمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين . وقال .

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها ، أتلفه الله » (١)

فأدام قد مات وهو مدين وليس عنه ما يسد الدين ؛ فربما كان لا يبرى رد الدين ، وأن نفسه قد حدثته بالأمر الذي

(١) رآه البخارى ومحمد من حديث أبي هريرة

وفي فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو يساه ، ثم لا يمر بذهن لدى أقراص أن فلاناً عديم ، بل وقد تبغ الحساسية بالذي قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يخرج . وتيق أن الله قد قدف هذا الخاطر في نفس المقترض لأن المقترض يريد أن يسدد القرض . أما إن تحرك قلب الدائن على بلدين ، وجلس يفكر في قيمة الدين ، فليعلم أن عبد الذي اقترض بعض ما يسدد به الدين ، أي أن المدين عنه لقدرة على لوفاء بالدين أو يبعثه ، ذلك أن الله لا يخرج من يهد ويجهد في السعي لسداد دينه .

« وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . وقد يقول قائل . كان السياق اللفظي يقتضي أن يفوز : « أقرضتم الله إقراضاً » ؛ لكن استحق جاء بالقرض الحسن ؛ لأن الإقراض هو العملية الخادئة بين الطالب للقرض والذي يقترض وسبعانه يضع القرض الحسن في يده ، ولما أن نتصور ما في يد الله من قدرة على العطاء . ومثل ذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾

(سورة نوح)

وه أنبتكم « نمر من عملية الإنبات ، والأرض تخرج نباتاً لا إنباتاً فمرة يأتي الله بالعمل ، ويأتي من بعد ذلك بالمصدر من الفعل ؛ لأنه يريد به الاسم « وأنت » يدل على معنى ونشأ الله لكم منها نباتاً .

وهكذا قال الله من القرض « وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم » وفي ذلك جواب للفهم ، ومن بعد ذلك يقول سبحانه : « ولأدخلنكم جنت تجري من تحتها الأنهار » وقد تكلمنا من قبل كثيراً عن الجنة . ويذلل الحق الآية الكريمة بقوله : « فمن كمر بعد ذلك مكم فقد ضل سواء السبيل » ألم يكن الذي كفر من قبل ذلك قد ضل سواء السبيل ؟ بلى ، إنه قد ضل فعلاً ، ولكن الذي ضل بعد أن جاء ذكر تلك النعم ولثواب فيها فالضلال أكثر . وكلمة « سواء » نقرأها في القرآن ونراها في الاستعمالات اللغوية ؛ كمثل قوله الحق :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾

(من الآية ١١٣ سورة آل عمران)



وسواء معاه وسط ، ومتساوون . والمعاني ملتقية ؛ لأنه عندما يكون هناك وسط
فمعنى ذلك أن هناك طرفين . ومادام الشيء في الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما
يقول: وسط ، فهذا يقتضي أن نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية . ولذلك
يجب أن نشه إلى أن كثيراً من الألفاظ تستعمل في شيء وفي شيء آخر ، وهذا
ما يسمى بلشترك اللفظي . أي اللفظ واحد والمعنى متعدد ، مثال ذلك قوله
الحق :

﴿ قَوْلُوا وَجْوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

والشطر هو الجهة . والشطر هو النصف . النصف هو الجهة بمعنى أن توجه إنسان
ما إلى الكعبة يقتضي أن يكون الإنسان واقفاً في نقطة هي مركز بالنسبة لدائرة الأفق .
وهذه النقطة بالنسبة لمحيط الأفق تقصع كل قطر من أقطارها في المنتصف تماماً .
إذن عندما يقول: الجهة ، نقول : صدف ، وعندما يقول النصف . نقول :
صدفت

« فقد ضل سواء السبيل » ، وإث قرآن قد نزل على أمة تعيش في البداية وطرقها بين
الجبيل ، وقد يكون الطريق متبداً من ناحية ، وقد يكون الطريق بين هلاوتين . وقد
يكون الطريق بين جبلين ، ومن يأخذ بالأحرط فهو يمشي في الوسط . ولذلك قال
الإمام علي - كرم الله وجهه - اليمين والشمال مضلة وخير الأمور الوسط ؛ لأن
الإنسان قد يتجه يمينا فيقع . أو يتجه شمالاً فيقع ؛ أو تقع عليه صحرة . ونجد
الوالد ينصح ابنه فيقول له : امش ولا تلتفت يمينا أو يسارا واتجه إلى مقصدك .
ونجد الحق يصف الطريق الذي يمشي عليه المؤمن يوم القيامة :

﴿ قَاطَعٌ قَرَاءٌ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾

(سورة الصافات)

وسواء الجحيم هو نقطة المنتصف في النار ؛ أي أنه لا يستطيع الذهاب يمينا أو
شمالاً ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فِيمَا تَقْضِيهِمْ فَيُسْقَوْنَ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا

قُلُوبُهُمْ قَسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَلَا تَرَا
تُطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ
وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

وساعة يقول الحق « ميثاقاً » فالميثاق يتطلب الوفاء فهل دعوا بهذا الميثاق ؟
لا ، لقد نقضوا الميثاق فلعنهم الله ، وليس هو الطرد والإبعاد ، ولحق في ذلك
يقول « فيها نقضهم ميثاقهم لعناهم » أى سبب نقضهم الميثاق لعنهم الله ، لقد
أثار وجود « ما » هنا بعض التفسيرات ، هناك من العلماء من قال : إنها زائدة ،
وهناك آخرون قالوا : إنها « صلة » ولكن الزيادة تكون عند الشر لا عند الله
ولا يمكن أن يكون بالقرآن شيء « رثد » لأن كل كلمة في القرآن جاءت لمقتضى حال
يحنم أن تكون في هذا الموضع . فها هو ذا الحق يحرنا بما وصى به لقمان ابنه .

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

(سورة الشورى)

في الآية الأولى لم يورد « اللام » لتسق « من » ، وفي الآية الثانية أورد « اللام »
تسبق « من » ، وليس ذلك من غير التفتيش في العبارات ، فقوله « واصبر على
ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » دعوة للصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم
فيها . كالمريض ، أو موت أحد الأقارب ، وهذه الدعوة للصبر تأتي هه كمرء
وتسليه ، أما قوله الحق : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » فالدعوة للصبر
هنا مع العمران تقتضى وجود غريم يسبب للإنسان كربة

هنا يطلب الله من المؤمن أن يظفر لمن أصابه وأن يصبر . وما دام هناك غريم ، فالنفس تكون متعلقة بالانتقام ، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى ؛ فليس في الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود غريم فهو يحرك في النفس شهوة الانتقام ، ولذلك يؤكد الحق سبحانه وتعالى إن ذلك لمن عزم الأمور . ويقول سبحانه في موقع آخر :

﴿ مَا يَنْتَظِرُ مِنْ بَشِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة مائدة)

وعندما يقوم المحقق بإعراب « بشير » فهم يقولون : « إنها فاعل مرفوع بضممة مقدرة على آخره منع من ظهورها حركة حرف الجر للرائد ، إنه الضعف طويل ، ولا يوجد حرف رائد ، فالإنسان يقول : ما عندي مال . وهذا القائل قد يقصد أنه لا يملك إلا القليل من المال لا يمتد به . وعندما يقول الإنسان « ما عندي من مال » فهنا نرى أنه لا يملك أي مال من بداية ما يقال له مال ولذلك فهنا ليست زائدة ، ولكنها جاءت تسمى لمقابلة « ما جاءنا من بشير » أي لم يأت لنا بداية من يقال له بشير .

وما هو ذا قول الحق :

﴿ فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة آل عمران)

وقد يحسب البعض أن « ما » هنا حرف زائد ، ولكننا نقول : ما الأصل في الاشتقاق ؟ إن الأصل الذي يشتق منه هو المصدر . ومرة يأتي المصدر ويراد به الفعل ، كقول القائل : « صرباً ريذاً » أي « اصرب ريذاً » . ويجيء المصدر هنا قول مقصود به الفعل ، وكذلك قوله الحق : « فيما نقضهم ميتاتهم لئلاهم »

وما دام النقص مصدراً فمن الممكن أن يقوم مقام الفعل . وما دام المصدر قد قام مقام الفعل فمن الخاطئ أن يأتي فعل آخر ، فيصبح معنى القول : فيما نقضوا ميتاتهم لئلاهم . إذن « ما » تدل هنا على أن المصدر قد جاء تداً عن فعل . وبقيت « ما » لتدل على أن المصدر من الفعل المحذوف ، أو أن « ما » جاءت استهتامية للتعجيب . أي فبأي نقض من ألوان وصور نقضهم للنهض لئلاهم ؟ وذلك لكثرة ما نقضوا من الجهود على صور وألوان شتى من النقض للنهض .

وقوله الحق : « فبما عَصَوْهُمِ بِمَا نَهَوْهُمُ لَعَنَهُمُ » . والنقض هو ضد الإبرام ، لأن الإبرام هو إحكام الحكم بالأدلة . والنقض هو حل عناصر القضية ، كأن العهد الموثق الذي أخذ الله عليهم قد نقضوه . ونحن نسمى العقيدة الإيمانية عقيدة ، لماذا ؟ لأنها مأخوذة من عقد الشيء بحيث لا يظنوا لينافس من جديد في الدهن . كذلك الميثاق إنه عهد مثبت ومؤكد . وعندما يتقصونه فهم يقومون بعلمه ، أي أنهم أخرجوا أنفسهم عن متطلبات ذلك العقد وجاء الدهن لأنهم بقصوا الميثاق

« وجعلنا قلوبهم قاسية » وهم عندما نقضوا المواثيق ، طبع الله على قلوبهم ، لأنه لم يطبع على قلوبهم بديلة ، فقد كفروا أولاً ، وبعد ذلك تركهم الله في عيهم وصلاتهم وطبع على قلوبهم قساة فيها من كفر لا يخرج ، والخارج عنها لا يدخل إليها . وه قاسية ، تعني صلبة رغبها شدة . والصلابة مذمومة في القلوب وليست مذمومة في الدفع عن الحق ؛ لأننا نقيس كل موجود على مهمته . فعندما يكون كل موجود على مهمته يكون كل الكون جميلاً . مثال ذلك ؛ نحن لا نقول عن الخطاف خطأً به إنه أعرج ، فالخطاف لا بد له من العرج ، لأن ذلك العرج مناسب لمهمته ، إذن فعرج الخطاف استقامة به . وكذلك الفسوة غير مذمومة شريطة أن تكون في محلها . أما إن جاءت في غير محلها فهي مذمومة . إن القلوب القاسية مذمومة ، لأن الحق يريد للقلوب أن تكون لينة :

﴿ ثُمَّ تَلَيَّنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الزمر)

والفسوة مأخوذة من النفس وهو الصلب الشديد ، ويعرف أن الدنانير كانت تضرب من الذهب والدرهم تضرب من الفضة . وعندما يفحصها الصيرفي قد يخرج واحد منها ويقول هذا ريف أو رائف لأنه قد سمع ريفها ، أي صلبة في الواقع أم لا ؟ . وعندما تكون صلبة يقال لها درهم قسوة .

إن الذهب يرن والفضة لينة . فعندما نقول . إن هذا ذهب عيار أربعة وعشرين أي ذهب ليس به نسبة من المواد الأخرى التي تجعله قابلاً للتشكيل ، لأنه عندما يكون ذهباً صامياً على إطلاقه فلا يستطيع الصائغ أن يصوغ منه الحل ، لذلك يخلطه بالصائغ بمعدن صلب ، حتى يعطيه المعدن درجة الصلابة التي تتيج له

تشكيل الحل منه . وتختلف نسبة الصلابة من عيار إلى عيار في الذهب وكذلك الفضة . والمصنوعات المصنوعة من عيار مرتفع من الذهب ليست عرضة للتداول ، كالسبائك النعمية .

وإذا ما دخل المعدن الصلب إلى الذهب أو الفضة جعلها قاسية ؛ أي صلبة . الصلابة - إذن - فيها يناسبها مضمومة وفيها لا يناسبها مدمومة كصلابة لقلوب وقسوتها .

ويقول الحق : يعرفون الكلم عن مواضعه . مثل ذلك نقلهم أمر الله الذي طلب منهم أن يقولوا « حطة » فقالوا « حطة » وسوا حطاً مما ذكروا به ، وكانت وسائل النسخ في الكتب التي سبقت القرآن هي نسيان حط مما ذكروا به ، والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكن على باهم . فلو كانت كتب المنهج على باهم لظنوا على ذكر منه ، كما أنهم كتبوا ما لم يسوه ، والذي لم يسوه ولم يكتبوه حرقوه ولووا ألسنتهم به . وبالنسبة الأمر اقتصر على ذلك ، ولكمهم جاءوا بأشياء وأقاريل وقالوا إنها من عند الله وهي ليست من عند الله :

﴿ قَوْلَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ قَلِيلًا قَوْلًا لَّهُمْ ثُمَّ تَمَّا كَتَبَتْ عَلَيْهِمْ رَوَيْلٌ لَهُمْ تَمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

(سورة البقرة)

هي أربعة ألوان من التعمير ، النسيان ، والكتم ، والحريف ، ودمر أشياء على أنها من عند الله وهي ليست من عند الله .

ولنا أن نتأمل جمال القول الحكيم : « ونسوا حطاً مما ذكروا به » فهم على قدر كبير من السوء بدرجة أنستهم الشيء الذي يأتيهم بالحفظ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات بمحمد عليه الصلاة والسلام وكتابتها ، ولو كانوا قد آمنوا بها ، لكان حطهم كبيراً ؛ ذلك أنهم سوا أمراً كان يعطيهم جزاء حسناً ، إذن فقد جثوا على أنفسهم ؛ لأن الإسلام لن يستعيد لو كانوا مهتدين أو مؤمنين وانفسار عليهم هم ، ولم يدعهم الله ويتركهم على سيئاتهم ليكون هم بذلك حجة ، بل أراد أن يذكرهم بما نسوه . وكان

مفتحي ذلك أن ينصبروا أنفسهم بأن يعودوا إلى الإيمان ؛ لأن الحق ذكرهم بما نسوا ليحققوا لأنفسهم الخط الحصيل . وقد برأه أنهم تركوا ذلك عامدين معرضين عنه معجلين له عن قصد .

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أن خيانتهم لك يا رسول الله ولأنبيائك ولمنح الله الحق في الأرض ستتوالى ، ولا أدل من ذلك مما حدث منهم ضد رسلهم أنفسهم مع أنهم من بنى جلدتهم ومن عشيرتهم ، إسم من بنى إسرائيل مثلهم ، فما بالك بسى جاء من جسس آخر ليقتحم عليهم سطنتهم الزمنية ؟

إذن فخيانتهم لله متصورة و « خائنة » بمعنى « حيانة » مثلها مثل « فائنة » وهى القيلولة أى المسافة الزمنية بعد الظهر ، ومعناها : قال يقيل أى نام وسط النهار أو « خائنة » أى « نفس خائنة » . أو « خائنة » مثل امرأة خائنة ، أو « خائنة » مانعة كما تقول « راو » و « راوية » ونحن نعنى رجلاً ، أو نقول « جماعة خائنة » .

إذن فالكلمة الواحدة هنا مستوعبة لكل مصادر الخيانة منهم ، رجل أو امرأة أو جماعة أو كل هؤلاء . ولذى يتكلم هنا هو رب العالمين ، ويتكلم للعرب وهم أهل فصاحة ، إنه أداء يعوى عال

ومن مرط دقة القرآن وصدقه يأتى الحق بقوله « إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ » طبقاً لفانور صيانة الاحتمال . حين يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين له موقف اليهود منه ، ألا يُحتمل أن يرجد قوم من اليهود يخليهم المهم لسميق فيمكررا في أن يؤمنوا بهذا الرسول ، ويهدثوا من شراسة ظنهم به ؟ وقد فكر بعضهم وأعلن الإسلام

وهؤلاء القوم عندما يسمعون أحكم الله على اليهود أجمعين ، ألا يقولون : وما لنا

تدخل في هذه الزمرة ، وبمكر في أن ننطق بالإيمان ؟ فكأن قوله : « إلا قليلا منهم » صان قانون الاحتمال أن يكون إنسان منهم فكر في الإيمان . ومن فكر في الإيمان فسوف يجد قوله الحق : « إلا قليلا منهم » وسيرى هذا الإنسان في نفسه أن القرآن دليل نزل على نور . وقد كان وأعلن قليل منهم إسلامه ، وماذا يكون مرقعه صلى الله عليه وسلم بعد أن يخبره الحق : بأنك مستعرض مستقبلا لخيبنتهم ؟ ألا يترك ذلك نفسية رسول الله صلى الله عليه وسلم ولخوصبين عليهم ، فإذا فعل اليهود خاتمة فلا بد أن يتنعموا منهم ، وتطيقا للفاعلة الأساسية في رد العدوان بأن من يعتدى عليك فاعتد عليه .

لم يشأ الله - سبحانه - أن يترك الموقف لعواطف البشر مع البشر بل قال : « فاعف عنهم وصفح إن الله يحب المحسنين » والعمو هو كي تقول : فلان عفى على أثاري ، أي أن آثارك تكون واصحة على الأرض وتأتي الريح لتمسحها فتعفى على الأثر والأمر بالعفو أي امح الأثر لنسب فعلوه والخطيئة التي ارتكبوها عليك أن تعتبرها كأنها لم تحدث ، ولكن أظلل أثرها باقيا عند رسول الله ؟ لا ، فالأمر بالصفح يأتي وهناك فرق بين أن تمحو الخطيئة وتبقى أثرها في نفسك ونظن في حانة من العبط والخقد .

والحق هنا يأمر بالعفو أي إزالة أثرها وأمر بالصفح أي أن تخرج أثر الخطيئة من بالك ؛ لأن الإنسان منا له مراحل ؛ المرحلة الأولى بعد أن يرتكب أحدهم ذنب في حقه ، فلا يقابل العدوان بمثله ، وهذا هو العفو ، والمرحلة الثانية ألا يترك أثر هذا الذنب يعمل في قلبه بل يأتي الصصح حتى لا يشتعل قلب المؤمن شيء قد عفا عنه ، والمرحلة الثالثة . فرصة مفتوحة لمن يريد أن يساوي في مرتبة الإحسان وتوقى اليقين والإيمان بأن يحسن الإنسان إلى من أساء إليه . وهذه المراحل لثلاث يوصحها قوله الحق :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة آل عمران)

وعملية الإحسان مع المسيء أو المعتدى . هي عملية منطقية مع انفس الإنسانية ؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية ، ولكنك أيها الإنسان لا تشرع

لنفسك ، إنما الذي يشرع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية . والخالق يقول لك . لو علمت ما قدمه لك من أساء إليك لأحسنت إليه . لأنك إن أسأت إلى خلق من خلق الله فالذي يثأر ويأخذ الحق لمن أساء إليه هو رب هذا المخلوق . ويأتى الله في صف الذي تحمل الإساءة .

إذن لإساءة العدو لك جعلت الله في صفك وفي جانبك ، ألا يستحق ذلك اسمى أن شكره ؟ ألا تقول لنفسك القول المأثور : ألا تحسن إلى من جعل الله في جانبك . إذن هذا هو التشريع : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان هنا خرج بالترقى الإيماني عن مرحلة :

﴿ فَمَن آتَىٰ عَدُوَّكَ عَدُوًّا فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ يَحْسِبْ مَا آتَيْنِي عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

والإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما فترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ، واحسن الذي يدخل في مقام الإحسان هو من يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه ونعرف قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ آتَيْنَ مَا أَغْنَيْنَهُمْ رَبُّهُمْ ۖ إِنَّهُمْ هَكَذَا قَبِلَ ذَٰلِكَ الْحَسَنَ ۝١٦﴾

(سورة الداريات)

ما المنى جاء بالإحسان هنا ؟ وتكون الإجابة :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾

(سورة الداريات)

وهل يكلف الله خلقه ألا يهجعوا إلا قليلاً من الليل ؟ لا . فقد كلف الله المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه حر بعد صلاة العشاء ، وبه الحق أن ينام إلى الصبح ، فإن سمع أذان الصبح فليقم إلى صلاة الصبح . لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه فيزيد من صلواته في الليل . ويصيب الحق مذكر لنا بصعوبات المحسنين .

﴿ وَإِذَا لَأَعَارَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾

(سورة الداريات)

أكلف الله الخلق بأن يستغفروا بالأسحار؟ لا . بل إن الرسول يجب على رجل سأل عن العروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة ، فقال الرجل : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أضح إن صدق »^(١)

ويصف الحق في استكمال صفات الحسين :

﴿وَلِيَّ أَمْوَالِهِمْ حَقُّ لِّسَائِلٍ وَالْمَحْرُومِ ۝١٥﴾

(سورة التوبة)

ولم يحظ أن الحق هام يقل : « حق معلوم » إنما قال : « حق للسائل والمحروم » فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحس فللسائل والمحروم في ماله حق غير معلوم . وذلك ليسبح سبحانه المجال للطموحات الإنسانية ، فمن يزد في العطاء فله رصيد عند الله . ولحق يقول : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » لأن الإحسان إليهم يبيح فيهم عريضة العرفان بالجميل ، فيستل ذلك الإحسان الحق من قلوبهم ، ويتحون آدابهم وقبوعهم لكلمة الحق .

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

(من الآية ٢٤ سورة قصص)

لأن العداوة لا تشتد إلا إذا وجد مؤجج لها من عداوة في المقابل فعندما تعامل عدوك بالخصي ولا ترد على عداك بالعدوان فكم من الزمن يصبر عدو لك ؟ إنه اعتدى مرة وسكت أنت عليه ، واعتدى ثانية وسكت أنت عليه لا بد أنه يهدئ من نفسه .

إذن فالعداوة لا تتأجج إلا إذا قبسها عداوة أخرى . ولذلك نرى ما حدث في المعركة التي قامت بين فرعون وسيدنا موسى عليه السلام حين أواد الله أن يجعل العداوة لا من جهة واحدة ولكن من جهتين اثنتين لتكون معركة حامية : لأن العداوة لو كانت من جهة واحدة لهذا الطرف المعتدى :

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرِيمًا﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

هل هم التغطوه ليكون عدواً ؟ لا . بعد التغطوه ليكون قرة عين . ولكن قدر الله سبق . كان الأمل في أن يصير موسى قرة عين آل فرعون ، ولكن الله أراد أن يقوموا بربته ، ثم يصير من بعد ذلك عدواً لهم . وهكذا يتضح لنا أن تدبير السماء فوق تدبير الأرض . وموسى السامري مثلاً رثته السماء بواسطة جبريل ، وولدت له أمه منقطعا في الصحراء ، فكان جبريل ينزل عليه بما يضعه إلى أن كبر ، وموسى ابن عمران ذهب إلى فرعون ليريه ، لكن موسى السامري - الذي رياه جبريل - صار كافراً ، وموسى بن عمران الذي رياه فرعون أصبح رسولاً إلى بني إسرائيل . وكلا القدرين أرادهما الله ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا لم تصدق في طريق حناينة
فقد كذب الراجي وغاب المؤمل
فموسى الذي رياه جبريل كافر
وموسى الذي رياه فرعون مرمل

كان آل فرعون قد قاموا بتربية موسى بن عمران ليكون عدواً لهم لا قرة عين . والعداوة تكون من جهة موسى لفرعون ، ونجى العداوة من فرعون موسى ، فيقول الحق :

﴿ مَا قَدَفَيْهِ فِي آيَةِ مَبِيلِهِ أَلَيْمٌ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوُّهُ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة طه)

هكذا صارت العداوة من طرفين . والحق سبحانه وتعالى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصطحب عن الخيانات التي تحدث منهم ، لعل الوعي الإيمان يستقيظ فيهم ، ويقولون : لم يعادنا بمثل ما عاملناه به ، ويعترفون به نبياً رحيماً رؤوفاً كريماً ، ولا يقفون في وجه دعوته . لكن أياهم والعمو والصمغ هما كل التعليمات الصادرة من الحق إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ لا . فقد أمر الأمر الإلهي بمراحليات متعددة ، فالرسول يستقطب النفس الإنسانية بأن يستعبد بها بالإحسان ، فإن لم يستعبد بها بالإحسان فلا بد أن يشمر النسي عن الساعد ويفعل ما يأمره به الله ، ولنقرأ قوله الحق :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ مَّيِّدٍ يَمَنَّكَ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِيْدِ أُنْسِهِمْ يَنْ

بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاصْبِرُوا وَأَصْغُرُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ ﴿١٠٩﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

إذن فهناك أمر خفي هو :

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه قد أمر بأن يتركهم الرسول مع الصفح والعفو لمرحلة قادمة يأتي فيها الأمر بتأديبهم . وهذه عملية إنسانية فطرية عرفها العربي الجاهل وحررها قبل أن يأتي الإسلام ، فقد كان العربي يحسن إلى عدوه مرة وثانية وثالثة ، وعندما يجد أن الإحسان لم يثمر ثمرته ؛ يقاتل العدو ، وكما قال الشاعر

أناة فإن لم تنص قدم بعدها

وعبداً فإن لم ينص أعنت حرائمه

من الحلم أن تستعمل الحزم دون

إذا لم يح بالحللم ما أنتت عارمه

وقال الشاعر :

وقلب القوم إخوان

من قوماً كالذي كانوا

وأضحى وهو حريصان

فإذا والطيت غضبان

وتفجيع وادمان

عذا والزق ملان

من لا يمنحهم إحسان

مل لئلا إذهبان

صفحما من بني ذهل

عسى الأيام أن يرجع

فلما ضرع الشر

مشينا مشية الطيت

بضرب فيه تأبيم

وطعن كغم الزق

وق الشر نجاة حبيب

وبعض الحلم عند المحب

ومثل ما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود ، حدث مع لنصارى وأورد

الحق سبحانه وتعالى هذا فقال :

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّهُ أَخَذْنَا
مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا
بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

لقد قالوا إنهم نصارى . وأخذ الحق الميثاق منهم ، إما ميثاق الدر وإما ميثاقهم
لنبيهم عيسى ابن مريم ، فسوا حظاً مما ذكروا به وتركوا ما أمرهم به الإنجيل
وبغضوا الميثاق ، لتفرقوا في عدااء ملحوظ برفق شتى ، وجاء أمر الله كما وعد :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا
يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ
الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ
مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

كان الحق سبحانه وتعالى يعطيهم الفرصة والعلل حتى لا يقولن واحد منهم . لم
يلمني عي رسول شيء . وهناك فترة لم يأت فيها رسول . وما هوذا رسول من الله
يأتي حاملاً لمهج متكامل . وبجاء ابرسول يسحهم ويعطيهم فرصة لتجديد ميثاق
الإيمان . وهم قد أخذوا من كتبهم بعض الأحكام مثل الرجم والربا ، وقال بعض
من بني إسرائيل في الربا ما ذكره القرآن عنهم :

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ﴾

(من الآية ٧٥ سورة آل عمران)

أي أنهم أقروا الإقرار بالربا لمن هم عي غير دينهم ، ولكن لا ريب في تعاملهم

مع أبناء دينهم . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلم الشمل وأن يجمع أيديهم مع يده ، لأنه نبي انتظره ولهم في كتبهم البشارة به . وأن يقف الجميع المؤمن أمام موجة الاتحاد في الأرض حتى يسيطر نظام السماء على حركة الأرض ؛ لذلك قال الحق : « قد جاءكم من الله نور » . ومعنى ذلك أن كتابهم لبعض منهج الله قد صبح ظلمة في الكون . ومادامت قد حدثت ظلمانية في الكون ، وخاصة ظلمانية القيم ، إذن فالكون صبر في حاجة إلى من يبرره الطريق . ويعرف أن النور هو ما نتيقن به الأشياء.

وحين يعرض الحق لنا قصة النور الحسى يريد أن يأخذ بيدنا من النور الحسى إلى النور المعنوي ؛ فالنور الحسى يبذل ظلام الطريق حتى لا نصطدم بالأشياء أو يقع في هوة أو مكسر شيئاً ، لكن عندما يحمل الإنسان نوراً فهو يمشى على بية من أموره . والنور الحسى يجمع من تصادم الحركات في المخلوقات ، حتى لا تبذل الطاقة ، فتبذل الطاقة يرهى الكون ولا يتم إنجاز ما .

إن الشمس في أثناء النهار تضيء الكون ، ثم يأتي القمر من بعد الشمس ليلقى بعضاً من الضوء ، وكذلك النجوم بمواقعها عهدي الناس في ظلمات البر والبحر . وجعل الله هذه الكائنات من أجل ألا تصطدم الحركة المادية للموجودات ، فإذا كان الله قد صبح نوراً مادياً حتى لا يصطدم مخلوق بمخلوق ، فهو القادر على ألا يترك القيم وأعماله ولموازين بدون نور ، لذلك خلق الحق نور القيم ليهدي الإنسان سواء السبيل . فإذا كان الكافر أو الملحّد يتساوى مع المؤمن في الاستفادة بالنور المادى لحماية الحركة المادية في الأرض ، ولم نجد أحداً يقول: أنا في غير حاجة للانتفاع بالنور المادى ، ويقول لنكافرين والملاحدة . مادمت قد انتفعت بهذا النور فكان يجب أن تقولوا : إن الله نوراً في القيم يجب أن نتبعه . ويلخص المنهج هذا النور - « افعل ولا تفعل » .

فالمسج - إذن - نور من الله . ولتقرأ :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يأخذ بيدنا في الطريق بالنور المادى الذى يستفيد منه الكل ، سواء من كان

مؤمنا أو غير ذلك ، ويضرب سبحانه لنا مثل النور .

﴿ مَثَلُ نُورِهِ ، مِثْلَ شَوْكَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والمشكاة هي الطاقة التي توجد في الجدار وهي غير النافذة ، إنها كوة في الجدار يوضع فيها المصباح الزيتي أو الكبروسيفي ، وتوجد في المباني البدائية قبل أن يخترع الإنسان المصابيح الكهربائية والثريات . ولا تتجاوز مساحة الكوة ثلاثين سنتيمترا ، وطولها أربعون سنتيمترا ولا يريد عمقها على خمسة عشر سنتيمترا ، أما الحجرة فمساحتها تريد أحيانا على ثلاثة أمثال في الطول والعرض والارتفاع .

ويتحدث الحق عن الكوة لفظ ولا يتحدث عن الحجرة . وأي مصباح في لكوة قادر على إنارة الحجرة . ولسته إلى أن هذا المصباح غير عادي ، فهو مصباح في زجاجة . ونعرف أن المصباح الذي في زجاجة هو من الارتقاءات الفكرية للبشر . فالمصباح قديما كانت بدون زجاجة وكان يخرج منها ألسنة من السناج ، الهباب ، الذي يسود ما حوله ، فالسناج أثر دخان السراج في المصباح وعيره . وقد ينطفئ المصباح لأن الهواء يهب من كل ناحية ، ثم وضع الإنسان حول شعلة المصباح زجاجة تحمي النار وتركز النور وتعكس الأشعة وأخذ المصباح من الهواء من خلال الزجاجة على قدر احتياج الاشتعال

﴿ مِثْلَ شَوْكَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

أي أن النور من هذا المصباح أشد قوة ، لأن الزجاج يعكس أشعة المصباح وتنتشر الضوء في كل مكان . والزجاجة التي يوجد فيها هذا المصباح ليست عادية .

﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والكوكب نفسه مضيء ، وتكون الزجاج كالألماس هذا الكوكب الدرّي في ضيائه ولمعانه . والمصباح يوجد من ماذا ؟

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

وهذا ارتفاع في إضاءة المصباح من زيت شجرة زيتون ، والشجرة غير عادية

﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

فهى شجرة يتوافر لها ألق انواع الاعتدال :

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

ذلك هو من قدرة الله في نور لكويبات المادية ، ولدت فليس من المعقول أن يترك القيم والمعنويات بدون نور . فكما اعتدى الإنسان في الماديات فينبى أن يمتن إلى قدرة الحق في هداية المعنويات ، بدليل أن الله قال .

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

يهدى الله بنور القيم والمنهج والمعاني من يريد . وقد يمتدى الملمح بنور الشمس المادى إلى الماديات ولكن بصره أعمى عن رؤية نور المنهج والقيم / لذلك يوضح سبحانه أن هناك نوراً إلهياً هو المنهج . وضرب هذا المثل ليوضح المعاني العينية المعنوية بالمعاني الحسية . ونحن على مفاديرنا نستضيء ، فالفقر أو الهدائي يستضيء بمصباح غارى صغير ، والذى في سعة من العيش قد يشتري مولداً كهربياً وكل إنسان يستضيء بحسب قدرته ولكن عندما تشرق الشمس في الصباح ما الذى يحدث ؟

يطمس الإنسان تلك المصابيح ، فالشمس هى نور أهداه الله لكل بنى الإنسان ، ولكل الكون . كذلك إذا فكرنا بعقولنا فيما يبر حياتنا فكل ما يفكر بقدرة عقله . ولكن إذا ما نزل من عند الله نور فهو يغنى عن كل نور آخر . وكما نعمل في الماديات نعمل في المعنويات :

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والذى يدلنا على أن النور الثانى هو نور القيم الذى يكشف لنا بضره ، افعل ولا تفعل ، أن الله قال بعد ذلك :

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءُ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النور)

ولو بحثت عن متعلق لجار والمجرور لم تجده إلا فى قوله (فى بيوت أذن الله أن ترفع) كأن النور على النور بأن من مطالع الهدى فى مساحته فهى بيوت لله تقبل عليها ليفرض منها نور الحق على الخلق .

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءُ بَعْضُهُنَّ بِالْعُدْوَةِ الْوَاحِدَةِ﴾

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

(سورة النور)

وكلمة « لا تلهيهم تجارة » لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . ولكن الله على بال المؤمن دائماً ، عندما يكون الإنسان على ذكر لله فالله يعطيه من ماله .

إذن يا أهل الكتاب قد جاءكم انور ، ويبر لكم الرسول كثيراً مما تختلفون فيه . وتسامح عن كثير من خطاياكم ، ويريد أن يجرى معكم تصفية شاملة . فعليكم أن تلتفتوا وتنبهوا وتعذّلوا من موقفكم من هذا الدين الجديد . ولتبهنوا ماذا يريد الله بهذا المنهج . والله قد ضرب المثل بالنور ، وهذا النور يهتدى إلى « افعل ولا تفعل » . ومن الذى يقول لنا إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول ، ومن الذى يدلنا على أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله ؟ الذى يدل على صدقه هو قول الله :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بِرَهْنٍ مِّن رَّبِّكَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ نُورًا مُّبِينًا﴾

(سورة النساء)

بالذى جاء أولاً من ربكم هو ابرهان عن أن رسول الله صادق فى البلاغ عن

الله ، ولعلنا أن الكتاب قد جاء بالنتيج والقرآن يتميز بأنه البرهان على صدق النبي وهو المسيح النوراني ، لأن البرهان هو الحجة على صدق الرسول في البلاغ عن الله .

ونعرف البرهان في حياتنا التعليمية أثناء دراسة مادة هندسة عندما نقابل تقريباً هندسياً فتأخذ المعطيات وبعد ذلك ننظر إلى المطلوب إثباته . ونعيد النظر في المعطيات لتأخذ منها قوة للبرهنة على إثبات المطلوب . وإن كانت المعطيات لا تعطى ذلك فنحن ننتج إلى خطوة أخرى هي العمل على إثبات المطلوب . وهذا الكون فيه معطيات ، وهو كون محكم ، ونلمس إحكامه فيها لا دخل حركتنا فيه :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْفِي سَاءَ أَنْ تَدْرِكَ الْغَمْرَ وَلَا الْبَلُّ سَائِقُ الْعُلَّامِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

كون موزون بالسماء والأرض وحركة الرياح وغير ذلك ، وتلك الأمور التي لا تدخل للإنسان فيها نجد القوانين فيها مستقيمة تمام الاستقامة وكلها فإن أراد الإنسان أن يأخذ المعطيات من الكون ، فليأخذ في اعتباره النظر إلى الأمور التي للإنسان دخل فيها وسوف يجد أنها تتعرض للفساد ، لأن الهوى في البشر له مدخل في هذه الأشياء . لكن الخالق الأعلى لا تطوله ولا تتناوله أمور الهوى . ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾

(سورة الرحمن)

علا السماء تنطبق على الأرض ، ولا كوكب يزاحم كوكباً آخر . ويبين لنا الحق كيفية السير بنظام الكون .

﴿ أَلَا تَنْظُرُونَ فِي الْمِيزَانِ ﴾

(سورة الرحمن)

إن أردتم أن تكون حركتكم منتظمة فانظروا إلى ما بأيديكم دخل فيه واصنعوه كصنع الله فيها ليس بأيديكم مدخل فيه .

﴿ وَأَقِيمُوا الزُّنْنَ وَالْقِسْطَ وَلَا تَحْسِرُوا فِي الْمِيزَانِ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن كنتم معجبين باتزان الكون الأعلى فذلك لأنه مصروع بنظام دقيق . وإذا كان الحق قد وصع لنا نظاما دقيقا هو المنهج بـ « افعل كذا ولا تفعل كذا » فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعت المنهج ، وتصرفت في حياتك بمنهج الله ويكون الميزان معتدلاً . إذن فقد أعطانا الحق معطيات عندما ينظر الإنسان فيها نظرا فطريا بدون هوى فيها تأخذ بيده إلى الإيمان . وهذه الكائنات امروية لا بد لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها ولم تأت هي من بعد خلق الإنسان . ولا أحد من البشر يدعى أنه صاع هذا الكون .

إذن لا بد من لبحث صم صاع هذا الكون الدقيق ، والدعوى حين تسلم من المصنف ، أتكون صادقة أم غير صادقة ؟ تكون صادقة تماما . والله هو الذي قال إنه خلق السماء والأرض والكون . ولم يأت مدع آخر يقول لنا : إنه الذي خلق . إذن ثبت الأمر لله إلى أن يوجد مدع ، ربيع توالى الأرملة وتطاولها لم يدع ذلك أحد

وكان لا بد أن تكون مهمة العقل لبشرى أن يفكر ويقدر الدفن ليتعرف على صانع هذا الكون ، وكان لا بد أن يتوجه بالشكر لمن جاء ليحل له هذا اللغز

وقد جاءت الرسل لتحل هذا اللغز ولتدلنا على مصدوب خلق فطري ، ولو أننا سلسلنا الوجود لوجدنا أن الإنسان هو سيد هذا الوجود ؛ لأن كل الكائنات تعمل وتجه في خدمته . وأجناس الوجود كلها نعرفها التي تخدم الإنسان هي الحيوان ويتميز عنه الإنسان بالعقل ، وهناك جس تحت الحيوان هو النبات فيه النمو ، وهناك جس أدنى وهو الجهاد . وكل هذه الأجناس مهمتها خدمة الإنسان . والجهاد ليس هو لشيء الجاهل ، بل الهواء جهاد والشمس جهاد والثرية جهاد ، وكل ذلك يدرس مهمته في الوجود لخدمة الأجناس الأعلى منها ويستفيد الإنسان منها جميعا والحيوان يستفيد من الجهاد وكذلك النبات يستفيد من الجهاد ، والحيوان يستفيد من النبات والجهاد ، والمحصلة النهائية لخدمة الإنسان

أليس من اللائق والواجب - إذن - أن يسأل الإنسان نفسه من الذي وهبه هذه الحكمة ؟ فإذا جاء الرسول ليحل هذا اللغز ويبلغنا أن الذي خلق الكون هو الله وهذه صفاته ، ويبلغنا أن هذا المنهج جاء من الله ويحمل معه معجزة هي دليل صدق

البلاغ عن الله ، وهي معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول ابشر أن
يأتوا بمثل معجزته . إذن فلا بد أن يؤمن كل البشر لو صدقوا الهم وأخلصوا النية .

ما هو البرهان إذن ؟ البرهان هو للمعجزة الدالة عن صدق الرسول في البلاغ عن
الله هذا البلاغ عن الله الذي بحث عنه العقل الفطري وآمن أنه لا بد أن يكون
موجودا ، لكنه لم يتعرف على أنه « الله » . إن الرسول هو الذي يبلغنا عن اسم
الخالق ، وهو الذي يقدم لنا المنهج

إذن فمجيء الرسل أمر منطقي محتمة الفطرة ويحتمه العقل . ولذلك أنزل الحق
النور العبدى ، أنزل - سبحانه - المنهج ليحصى المجتمع من الاضطراب ، ولذلك
يقول الحق :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المائدة)

إذن فالدين جاء من الله لينتجس في الأمور التي تختلف فيها الأهواء ، فحسم الله
التزاح بين الأهواء بأن انفرد سبحانه أن يشرع لنا تشريعا يلتقي فيه أهواؤنا ، ولذلك
يقول صلى الله عليه وسلم . « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت
به » (١) .

أي أن تتحد الأهواء تحت مظلة تشريع واحد ، لأن كل إنسان إن انفرد بهواه ،
لا بد أن نصطلم ، ولا نزال نكرر ونقول : إن خلافاً البشر سواء أكانت على
مستوى الأسرة أم الجماعة أم الأمة أم العالم ، جاءت من اختلاف الأهواء ، ولكن
الاشياء التي لا تدخل للأهواء فيها فالعالم متفق فيها تماما ، بدليل أننا قلنا . إن
المعسكر الشرقي السابق والمعسكر الغربي الخالي اختلافاً سياسيتين نظريتين ، هذا
يقول : « شيوعية » ؛ وهذا يقول : « رأسمالية » .

إنه لا يوجد معمل مادي كى يدخل فيه الشيوعية أو الرأسمالية ونرى ما ينفعنا .
إنها أهواء ، لذلك تصادما في أكثر من موقع ، وانهمزت الشيوعية وبقيت آثارها تدل

عليها . لكن الأمور المادية العملية . لم يختلفوا فيها . ويقول الكلمة المشهورة .
« لا توجد كهرباء روسي ولا كهرباء أمريكي » . « ولا توجد كيمياء روسي
ولا كيمياء أمريكي » ؛ فكل الأمور الخاضعة للتجربة والمعمل فيها اتفاق ،
والخلاف فقط فيها لمتخلف وتضطلم فيه الأهواء .

فكان الله ترك لنا م في الأرض لتعامل معه بعقولنا المخلوقة له ، وطاقتنا
وجوهرات المخلوقة له ، ويوضح : إن التجربة العملية المادية لن تعرفكم بل
ستجتمعون عليها . وسيحاول كل فريق منكم أن يأخذ ما انتهى إليه الفريق الآخر
من التجارب المادية وليرتصصها ، ولوسرفها ، أما الذي يضركم ويضر مجتمعكم
فهو الاختلاف في الأهواء . وليت الأمر يقتصر على الاتفاق في المبادئ والاختلاف
في الأهواء ، لا ، بل جعلوا مما اتفقوا عليه من التجارب المادية والاختراعات
والابتكارات وسيلة قهرية لفرض النظرية التي خضعت لأهوائهم . فكأننا أسدنا
لمسألة . . أخذنا ما اتفقنا فيه لفرض ما اختلفنا عليه .

إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا كل هذه المسائل كي نستقيم لحياة ، ولا تستقيم
الحياة إلا إن كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي يحسم في مسائل أهوى ، ولذلك حتى
في الريف يقولون : « من يقطع عصمه الشرع لن يبل منه دم » ، لأن الذي يقول
ذلك مؤمن ، أي أن الحكم حين يأت من أهل فلا عضاضة في أن نكون محكومين بمن
خلقنا وخلق لنا الكون ، وتدخلت السماء في مسألة الأهواء ببلهيج : الفعل هذا
ولا تفعل هذا ، لكن ما ليس فيه أهواء أوضح سبحانه : أنتم ستعقون بها غصبا
عنكم ، بل ستسرقونها من بعضكم ، إذن فلا خطر منها .

إن الخطر في أهوائكم . ولذلك اذكروا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في
أمهات المسائل التي يترتب عليها حسن نظام المجتمع كما يريد الله كان - عليه الصلاة
والسلام - يتحمل هو التجربة في نفسه ، ولا يجعل واحداً من المؤمنين به يتحمل
التجربة ، فمسألة التبيي حين أراد ربنا أن ينهيها حتى لا يدمي واحد آخر أنه ابنه وهو
ليس أباه ، أنهاها الله في رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْسَ لَكَ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الاحزاب)

وفي مسألة الماديات والأهراء يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: إن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلحقون فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شيباً، فمر عليهم فقال: «ما لنخلكم» قالوا: قلت كذا وكذا قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١). إنه - صلى الله عليه وسلم - تركهم لتجربتهم.

السبب - إذن - لا يتدخل في المسائل التجريبية؛ لأنه سبحانه وهب العقل ووهب المادة ووهب التجربة، ورأيت رسول الله يتراجع عما اجتهد فيه بعد أن رأى غيره خيراً منه كمن يثبت قضية عامة هي أن المسائل المادية العملية الخاضعة للتجربة ليس للدين شأن بها فلا تدخلها في شئوننا، فلا نقول مثلاً: الأرض ليست كروية، أو أن الأرض لا تدور. فما لهذا بهذا؟ لأن الدين ليس له شأن بها أبداً، وهذه مسائل خاضعة للتجربة وللمعمل والبرهان والنظرية، بل دخل الدين ليحمينا من اختلاف أهوائنا، فالأمر الذي نختلف فيه يقول فيه: «افعل كذا ولا تفعل كذا بحسب» والأمر الذي لم يتدخل فيه به أحد ولا تفعل «أوضح لك: سواء فعلته أم لم تفعله لا يترتب عليه فساد في الكون، وحلوا راحتكم فيها لم يرد فيه «افعل ولا تفعل»، وأوجبوا أنفسكم واختلفوا فيه؛ لأن الخلاف البشري مسألة في الفطرة والجبلة والحلقة.

وهنا يقول: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين»، والنور «أهو الكتاب أم غيره؟». وفي آية أخرى يقول:

﴿يُنَايِئُ النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ نُورًا مُّبِينًا﴾

(سورة النساء)

وهذا الفون يدل على أن النور هنا هو القرآن وجمع بين أمرين؛ برهان - أي معجزة - ونور يهتد به لنا سبيلنا.

«فأمروا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا» والإيمان بالله مسألة تصبغية مرحلية. «الله» هو قمة الإيمان ورسوله «هو المبلغ عن الله» لأنه جاء لنا بالنور. إلا أن أهل الشطح يقولون: النور مقصود به النبي صلى الله عليه وسلم، ونقول: نحن لا نمانع

(١) رواه بسطم وأحمد وابن ماجه.

أنه نور ، وإن كان النص يحتمل أن يكون عطف تفسير ، وحتى لا ندخل في متاهة مع بعض من يقولون : لا ليس الرسول نوراً ؛ لأنه مأخوذ من المنة وسنجد من يرد عليهم بحديث جابر : ما أول ما خلق الله يا رسول الله ؟ قال له : نور بيث يا جابر

فمن جابر بن عبد الله قال : قلت يا رسول الله بأي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال : يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدره حيث شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوج ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جوى ولا إنسى (١) .

وحق لا ندخل في مسألة غيبية لا تسوى الأذهان في استنباطها ونقتن بعضنا . ويقول فلان كذا ويقول علان كذا . هنا نقول من تجل له أن رسول الله نور ، نور ، فليعرفها هو ولزمها . وليس من المقروض أن يقع بها أحداً كي لا ندخل في متاهة ، وعندما يتعرض أحد لحديث جابر - رضى الله عنه - نأل : أهو قال : أول خلق الله بيث يا جابر أم نور نبيك يا جابر ؟ قال الحديث : نور نبيك ولم يقل النبي نفسه الذي هو من لحم ودم ، فمحمد صلى الله عليه وسلم من آدم وآدم من تراب ؛ لذلك ليس علينا أن نتناول المسائل التي لا يصل إليها إلا أهل الرياضات المتفوقة ، حتى لا تكون فتنة ؛ لأن من يقول لك : أنت تقول النور هو رسول الله ، ونقول : على العين والرأس ، فرسول الله نور ولا شك ؛ لأن النور يعنى ألا نصطلم ، وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج كي ينير لنا الطريق ، والقرآن منهج تطليق ، والرسول منهج تطليق ، فإن أخذت النور كي لا نصطلم ، فالحق يقول :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

إذن نستأخذ بالمنهج النظري الذي هو القرآن ، ونأخذ بالمنهج التطليقي .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » « وا ميين » أى محيط بكل أمر وكل شيء مصداقاً لقوله الحق :

﴿ مَا قَرَّبُنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

أى مما تختلف فيه أهوازكم ، ومثل الإمام محمد عبده ، وهو فى باريس : أنتم تقولون « ما قرطنا فى الكتاب من شيء » فكم رغباً فى أردب الدقيق ؟ فقال : انتظروا : واستدعى خبازاً وسأله : كم رغباً فى أردب القمح ؟ فقال له : كذا رغب فقالوا له : أنت تقول إنه فى الكتاب فقال لهم : الكتاب هو الذى قال لى :

﴿ فَسَلُّوا أَسْمَاءَ إِلَىٰ كَرِيٍّ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النحل)

إن قوله « ما قرطنا فى الكتاب من شيء » أى مما تختلف فيه الأهواء أو تفسد فيه حركة الحياة فى الأرض . فربما هو - سبحانه - جعل أناساً متخصصين فى الموضوعات المختلفة .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يعنى : يا أهل الكتاب انظروا إلى أن هذه فرصتكم لنصفي مسألة العقيدة فى الأرض ونهى الخلاف الذى بين الدينين السابقين ونرجع إلى دين عام للناس جميعاً ، ولا تبغى فى الأرض هذه العصبية حتى تتساند الحركات الإنسانية ولا تتعاند ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النجم)

نظر كيف يجمع الإسلام بين أمرين متناقضين : فلم يجيء الإسلام كى يطبع الإنسان ليكون شديداً ، لأن هناك مواقف شتى تتطلب الرحمة ، ولم يطبعه على الرحمة المطلقة لأن هناك مواقف تتطلب الشدة ، فلم يطبع الإنسان فى قالب ، ولكنه جعل المؤمن يفعل للمحدث ويقول الحق :

﴿ أَدْلِيْهِ عَلَى السُّؤْمِنِينَ أُعِزِّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

أى لا تقل إنه طبع للؤمن على أن يكون ذليلاً ولا طبعه ليكون عزيزاً ، بل طبعه ليكيف نفسه التكيف الذى يتطلبه المقام ، فيكون مرة ذليلاً للمؤمن وعزيزاً على الكافر . وقال الإسلام لنا :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

أى لا بد أن تعرف الطرفين أولاً ، ثم تحدد ، لأن الوسط لا يعرف إلا بتحديد الطرفين ، فاليهودية بالمت فى المادية ، والنصرانية بالفت فى الروحانية والرهبانية :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الحديد)

وعندما سئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث قل : « أنا لم أبحث مورثاً » ، لأنه جاء ليحدد الشحنة للطاقات الدينية ، ويرغم الخلاف العميق بين اليهودية والنصرانية جاء أهل الفكر عندهم ليضعوا العهد القديم والعهد الجديد فى كتاب واحد ، ومع ذلك فقد جاء من اعتبر الإسلام عصياً عنيفاً عليهم على رغم أن الإسلام ليس خصماً إنما جاء ليمنح الناس حرية الاختيار ، وعندما ننظر إلى المنهج المادى والمنهج الروحانى نجد أن اليهود أسرفوا فى المادية وقالوا :

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَرَى أَفَّهَ جَهَنَّمَ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

لقد أسرفوا فى المادية لدرجة أن المسألة المتعلقة بقومهم حينما كانوا فى التيه وأنزل دبت عليهم المن والسلوى ، وه المن ، كما نعرف طعام مثل كرات بيضاء ينزل من السماء على شجر أو حبر ينمقد ويحف جفاف الصمغ وهو حلو يؤكل وطعمه يقرب من عسل النحل ، وجاء لهم الحق بالسلوى وهو طائر يشبه الدجاج وهو السباق فقالوا :

﴿ لَنْ نُصِبرَ عَلَى طَعَامٍ وَحِيدٍ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إسأ يريد ما تخرجه الأرض من ثقلها ، والذي دعاهم إلى غلوهم فى الأمر المادى أنهم قالوا : قد لا يأنى المن ، وقد لا نستطيع صيد الطير ، نحن نريد أن نضمن

الطعام . إذن فالغيبات بعينة عنهم وهم قد أسرفوا في هذه المادية وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعدل هذا النظام المادي المتطرف فانزل منهجية روحانية متمثلة في منهج عيسى عليه السلام ، وشحنهم بمواجيد دينة ليس فيها حكم مادي ، كي تلتحم هذه بتلك ويصير المنهج مستقيماً ، لكن الخلاف ديب بينهم ، فكان ولا بد أن يأتي دين جديد يجمع المادية المتعقبة الرزينة المتأنية ، والروحانية المقسطة التي لا تفريط فيها ولا إفراط ، إنها الروحانية المتنقلة من السماء دون استداع دين يأتي بالاثنتين في صلب دين واحد فقال ك .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
مُضْجًا يَتَتَفَعُونَ فُضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النح)

وهذه كلها قيم تعبدية فيكون هؤلاء ماديين وروحانيين في آن واحد ويتابع الحق :

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

كان الله ضرب في التوراة مثلاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : يا من أسرفتم في المادية سيأتي رسول ليعدل ميزان الحقائق والتشريع ، فتكون أمة مخالفة لكم تماماً . فأنتم ماديون ونوم محمد ركب سجد ، يتتفعون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود . كي : ما فقدتموه أنتم في منهجكم سيوجد في أمة محمد ويقول الحق :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَصَكْرَةٍ أُتْرِجَ شَطَعُهُ فَعَلَرَدُّ فَاسْتَفْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ
يُعِجِبُ الرَّاغِبُ لِيُعِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فمثالهم في التوراة ما فقد عند اليهود ، ومثالهم في الإنجيل ما فقد عند النصارى . إذن فدين محمد صلى الله عليه وسلم جمع بين القيم المادية والقيم الروحية فكان ديناً وسطاً بين الاثنتين فقال . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » أي

انتهزوا الفرصة لتصححوا أخطاءكم ولتستأنفوا حياة صافية تربطكم بالسما والباطن
يجمع بين دين قبي يتطلب حركة الدنيا ويتطلب حركة الآخرة .
ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ يَهْدِي بِإِذْنِ اللَّهِ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ١٦ ﴾

وما دام الله هو الذي يهدي فسيحانه منزله عن الأهواء المتعلقة بهم . وهكذا تضمن
أن الإسلام ليس له هوى لأن آفته من يشرع أن يذكر نفسه أو ما يجب أن
ما يشرع ، فالشرع يشترط فيه ألا يتبع بما يشرع ، ولا يوجد هذا الوصف إلا في الله
لأنه يشرع للجميع وهو فوق الجميع

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه ، إن من
اتبع رضوانه يهديه الله لمسبل السلام ، إذن ففيه رضوان متبع ، وفيه سبل سلام
كمكافأة . وهل السلام طرق ومسبل ؟ . نعم ؛ لأن هناك سلام نفس مع نفسها ،
وهناك سلام نفس مع أسرها ، هناك سلام نفس مع جماعتها ، هناك سلام نفس مع
أمتها وهناك سلام نفس مع العالم ، و سلام نفس مع الكون كله ، وهناك سلام نفس
مع الله ، كل هذا يجمع السلام . إذن فسبل السلام متعددة ، والسلام مع الله بأن
تنزه ربه أيها العبد فلا تعبد معه إلها آخر ، ولا تلمن به أحدا آخر . أي لا تشرك
به شيئا ، أو لا تقل : لا يوجد إله .

ولذلك نجد الإسلام جاء بالوسط حتى في الطينة ؛ جاء بين ناس تقول :
لا يوجد إله ، وهذا نفي ؛ وناس تقول : آفة متعددة ؛ الشر له إله ، والخير له إله ،

والظلمة لها إله ، والنور له إله ، والهواء له إله ، والأرض لها إله !!

إن الذين قالوا بالآلهة المتعددة : استندوا على الحس بطاى ونسى كل منهم أن الإنسان مكون من مادة وروح ، وحيث تخرج الروح يصبح الجسد رمة ؛ ولم يسأل أحدهم : نفسه ويقول أين روحك التي تدير نفسك وجسمك كله هل تراها ؟ ، وأين هي ؟ . أي في أنفك أم في فمك أم في بطنك أين هي ؟ ، وما شكلها ؟ . وما لونها ؟ . وما طعمها ؟ . أنت لم تدركها وهي موجودة . إذن مخلوق لله فيك لا تدركه فهل في إمكانك أن تدرك حافله ؟ . إن هذا هو الضلال . فلو أنك إله لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً قدرت على تحريكه بصرك ، ولماذا لم قدرت على تحريكه بكون بصرك قد قدر عليه ، ولا يتقلب القدر الأعلى مقدوراً للأدنى أبداً

وحينما أراد الله أن يدل على هذه الحكاية قال :

﴿وَيَوْمَ تُنْفَخُ أَفْئِدَةٌ ثَبِيرُونَ ﴿٧١﴾﴾

(سورة النازعات)

انظر في نفسك محمد روحك التي تدير جسديك لا تراها ولا تسمعها ومع ذلك فهي موجودة فيك ، فإن تخليت عنك صيرت رمة وجيفة ؛ لمخلوق لله فيك لا تقدر أن تدركه ، أبعد ذلك تريد أن تدرك مَنْ خَلَقَ ؟ إن هذا كلام ليس له طعم ! والاتجاه الآخر يقول بالآلهة متعددة ؛ لأن هذا الكون واسع ، وكل شيء فيه يحتاج إلى إله بفرده ، فيأتي الإسلام بالأمر الحق ويقول : هناك إله واحد ؛ لأنه إن كان هناك آلهة متعددة كما يقولون ، فيكون هناك مثلاً : إله للشمس وإله للنساء وإله للأرض وإله للبهائم وإله للهواء ، حيث لا يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزاً عن أن يدير ويقوم على أمر آخر خير مما هو إله وقائم عليه ولشأن بينهم خلاف وشقاق يوضح ذلك قوله تعالى :

﴿لَتَنَبَّ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون ، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات ، وبمسم الحن فيقول :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَاسْتَفْعَوْا إِلَيْكَ ذِي الْعَرْشِ مَجِيلاً ۝١٧ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه : (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا) .

إذن فالنواميس التي تراها أيضاً محكومة بالإله الواحد ، ويأتى الرسول ليقول لك : هناك إله واحد ، ويلغى رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا إله إلا الله ، ود لا إله ، نفت أنه لا آلهة أبداً . ويعدها قال : إلا الله . وهذه من مصلحة الإنسان حتى لا يكون دليلاً وحاضماً وعبداً لإله الشمس أو لإله الهواء أو لإله الماء . وقال الحق :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا مَسْلُماً لِرَجُلٍ مَلَّ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۝١٨ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فربما يريد أن يريتنا من « الحيلة » ، والوهم والاضطراب والتردد . إنه إله واحد ، وعندما يحكم الله حكماً فلا أحد يناقضه ، وسبحاته يهدينا بما يشرعه لنا ، لأنه سبحانه ليس له هوى فيما يشرع ، لأن معنى الهوى أن تجعل الحركة التي تريدنا خالصة لك في شيء ، والله لا يحتاج إلى أحد لأنه خلق الوجود كله قبل أن يخلق المخلوق ، وليس لأحد من خلق - منها أول من العلم ورجاحة العقل أن تكون له قدرة أو أى دخل في عملية الخلق أو تنظيمه .

« يهتدى به الله من اتبع رضوانه » ، مادام قد اتبع رضوانه فبهديه إلى سبل السلام ، إذن فإن هناك هدايتين اثنتين يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، وقال في آية أخرى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَزَلَّهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٩ ﴾

(سورة محمد)

فإياك أن تظن أن التقوى لن تنال ثوابها وجزءها إلا في الآخرة ، لأنه كلما فعلت أمراً وتلذذت وجدت أثره في نفسك ، تصل نهد أمورك خفت عن نفسك ، فلا ترتكب السيئة في غفلة من الناس ، قلبك لا يكون مشغولاً بأى شيء ، ويمينا



المؤمن في سلام مع نفسه ابداً . إذن فسبل السلام متعددة : سبل السلام مع الله ،
سبل السلام مع الكون كله ، سبل لسلام مع مجتمعه ، سبل السلام مع أسرته ،
سبل لسلام مع نفسه .

ويقول الحق :

﴿وَأَن مِّنَّا صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فهناك سبل سلام وسل صلال .

وفي هذه الآية يقول الحق : « وخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، والظلمات هي محل الاضطدام ، وعندما يخرجهم من الظلمات إلى النور يرون الطريق الصحيح الموصل إلى الخير ، والطريق الموصل إلى غير الخير وعندما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست منعاندة ، ولا يوجد صدام ولا شيء يورثهم بغضه وشحناء ، أو المراد أنه يهديهم إلى الصراط المستقيم وهو الجنة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ
ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ
أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَوَمَنْ فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا يَدِينُهُمَا يُخْلِقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

وقال سبحانه من قبل :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فمن اتبعوا اليعاقبية قالوا شيئاً ، والصراية قالت شيئاً ، والملكانية قالت شيئاً ثالثاً ، فجاء بالقصة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » .

ويأتى قوله سبحانه : « قل » ، رداً عليهم : « فس يملك من الله شيئاً » أى من يمنع قدر الله أن ينزل من جعلتموه إلهاً ، إن أراد أن يملك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » .

لقد ذهبوا أن الله هو المسيح عيسى ابن مريم وفى هذا اجتراء على مقام الألوهية المنزهة عن التشبيه وعن الحلول فى أى شيء . وفى هذا القول الكريم بلاغ لمؤلف أن أحداً لا يستطيع أن يجمع إهلاك الله لعيسى وأمه وجميع من فى الأرض فهو الحق الملك الخالق للسموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء كما يريد . فإن كان قد خلق المسيح دون أب ، فقد جاءنا البلاغ من قبل بأنه سبحانه خلق آدم بدون أب ولا أم ، وخلق حواء دون أم ، جلت عظمتة وقدرته لا يعجزه شيء . إن عيسى عليه السلام من البشر قابض لعنائه ككل البشر .

« والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء » جده اسحق هنا بالسياء كنوع حلوى والأرض كنوع سفلى ، وقوله : « يخلق ما يشاء » يرد على الشبهة بإيجاز دقيق : « يخلق ما يشاء » ، لأن العنة جاءت من ناحية أن عيسى عليه السلام مُمِرٌ فى طريقة خلقه بشيء لم يكن فى عامة الناس ، فأوضح الحق : لا تظنوا أن الخلق الذى أنطقه يشترط أن تكون هناك ذكورة وأنوثة ولقاح ، هذا فى العرف العام الذى يفترض وجود ذكورة وأنوثة ، وإلا لكان يجب أن تكون الفتنة قبل عيسى فى آدم ؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم . إذن فالذى يريد أن يقتضى بأنه من أم دون أب ، كان يجب أن يفترض فى آدم لأنه لا أب له ولا أم . ويوضح لهم : الله يخلق ما يشاء فلا ينحتم أو يلزم أن يكون من زوجين أو من ذكر فقط أو من أنثى فقط .

إن ربنا سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة فى أن يخلق ما يشاء ، وقد أدر خلقه على

القسمه العقبيه المنطقية الأربعة . إما أن يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أن يكون بعينها مثل آدم ، وإما أن يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كهمس عليه السلام ، فأدار الله الخلق على القواعد المنطقية الأربعة كي لا تفهم أن ربنا يريد مواصفات خاصة كي يخلق بل هو يخلق ما يشاء . والدليل على ذلك أن الزوجين يكونان موجودين مع بعضهما ومع ذلك لا يَنْجَبُ منها ، فهل هناك احتمال أكثر من هذا؟!

﴿قُلْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَأَا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتَأَا وَيَجْعَلُ مِمَّنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً ۝﴾

(سورة الشورى)

إذن فللسألة ألا يُنص على ربنا عناصر تكوين ، لا ، بل هي إرادة مُكوِّن لا عصرية مُكوِّن . إنه « يخلق ما يشاء » ، ومشيئته مطلقة وقدرته هامة . ولذلك لا بد أن يأتي القول : « ووافه على كل شيء قدير » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ اللَّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ

الْمَصِيرُ ۝﴾

وهل كل اليهود قالوا : نحن أبناء الله ؟ هل كل النصارى قالوا : نحن أبناء الله ؟ لا . فبعض من اليهود قال : إن عزيراً ابن الله وبعض النصارى قالوا : إن

عيسى ابن الله ، وجاء مسيحة الكذاب وأدعى النبوة ، وكان كل أهل مسيحة يقولون : نحن الأنبياء ، أى منا الأنبياء حتى أنصار سيدنا عبد الله بن الزبير أبى غريب ، قال أنصاره ، نحن الحبييون أى نحن أتباع أبى الزبير الذى هو أبو غريب ، فكانوا ينسبون لأنفسهم ما لغيرهم . فمعنى « نحن أبناء الله » يعنى : نحن أشياع العزيز ، الذى هو ابن الله ، ونحن أشياع عيسى الذى هو ابن الله . هذه نأخذها دليلاً من القرآن ، نعرف قصة مؤس آل فرعون :

﴿ وَقَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّي أَشْكِكُ الْقُرْآنَ وَتُفْسِدُ الْعِلْمَ وَتُهْلِكُ الْأَرْضَ ﴾

(سورة غافر)

والقوم جماعة . بالله أكان القوم كلهم ملوكاً ؟ لا ، فالذى كان ملكاً هو فرعون فقط . لكن مادام فرعون هو الملك ، فيكون كل الذين كانوا أتباعاً وأنصاراً له ومن شيعته ملوكاً لأنهم يعيشون في كتف ودرعاه الملك . وأيضاً قال لليهود ، « وجعلكم ملوكاً » ، ولذلك عندما أرادوا أن يحددوا معنى « ملك » قالوا . إن « الملك » هو الرجل الذى عنده دار واسعة ومبها ماء يجرى ، وواحد آخر قال : « الملك » هو الذى يكون عنده حياة رتيبة وعنده من يخدمه ولا يشغل بخدمة نفسه في بيته ، وفي الخارج يخدم نفسه . وقال آخر : من عنده مال لا يخرج للعمل الشاق ، فهو ملك ، ولذلك قال سيدنا الشيخ عبد الحليل عيسى في هذه المسألة : لا تستعجبوا ذلك فالأميون ينطقون ولباسهم يقولون : هذا ملك زمانه ، أى رجل مرتاح لا يعمل أصلاً شاقة وعنده النقود يصرفها كما يريد . إذن فأبناء الله يعنى ليس

كلهم أبناء ، ولذلك قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قل » ردأ عنهم : « فلم يعد بكم بتوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » ، وستدخلون في مشيئة المخفرة .

« يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ، ولن تخرجوا عن المشيئة الغافرة أو المشيئة

المعدية ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير .

ويقول الحق نصفية للمسألة العقيدية في الأرض :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ
عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ
وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

ورسولنا هو محمد صلى الله عليه وسلم وبين لكم - يا أهل الكتاب - ما اختلفتم فيه
أولاً وما يجب أن تلتقوا عليه ثانياً ، وما زاده الإسلام من منهج فلما جاء به ليناسب
أقصى الحياة التي يواجهها إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء رسول الله صلى الله عليه
وسلم على فترة من الرسل ، ومعنى الفترة : الانقطاع . وفترة من الرسل أى على ركن
انقطعت فيه الرسائل ، وهى الفترة التى بينه صلى الله عليه وسلم وبين أخيه عيسى
عليه السلام ، وقام الناس بحسابها فقال بعضهم : إنها سنائة سنة وقال البعض :
خمسةائة وستون عاماً . ولا يهمنا عدد السنين ، إنما الذى يهمنا هو وجود فترة انقطعت
فيها الرسل ، اللهم إلا ما كان من قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقُرْآنِ إِذْ جَاءَهُمُ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَبَّوْا بِأُتَالَيْهِمْ فَرَّسَلْنَا إِلَيْهِمُ مُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا تُكْذِبُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أُنْزِلَ إِلَيْكُمُ
الْكِتَابُ عَلَى ثَلَاثِينَ إِلَافَ ثَلَاثِينَ لَيْلٍ أَوْ سَبْعِينَ لَيْلَةً مُتَوَاتِرَةً أَلَا تُخْشَعُونَ ﴾

(سورة يس)

هؤلاء المرسلون أهم مرسلون من قبل الله بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه

وسلم ؟ أم هم مرسلون من قبل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية ؟ . وقد كفر الناس أولاً بهذين الرسولين ، فعززهم الحق بثالث .

وقال الناس هم :

﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥)

(سورة يس)

وهنا قال الرسل

﴿ قُلُّوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (١٦)

(سورة يس)

فما الفرق بين « إنا إليكم مرسلون » وبين « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ؟ . إن الأخبار دائماً تلقى من التكلم للسامع لتعطيه خبراً ، فإين كان السامع خالي الذهن من الخبر ، ألقى إليه الكلام بدون تأكيد . وأما إن كان عنده شبه إنكار ، ألقى إليه الكلام بتأكيد على قدر إنكاره . فإين زاد في حاج الإنكار يزيد له التأكيد . فأصبح القرية أرسل الله إليهم اثنين فكتبوهما ، فعززهما بثالث ، وهذا تعزيز رسالي ، فبعد أن كانا رسولين زادهما الله ثالثاً ، وقال الثلاثة :

﴿ إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة يس)

صحيح ثمة تأكيد هنا لأن الجملة إسمية ، وسبقتها « إِنْ » المؤكدة ، فلما كذبوهم وقالوا لهم : « ما أنتم إلا بشر مثنا وما أنزل الرحمن من شيء » وكان هذا الحاجة منهم في الإنكار فإذا يكون موقف الرسل ؟ أيقولون : « إنا إليكم مرسلون » كما قيل أولاً ؟ . لا . إن الإنكار هنا معنى في اللجاجة والشدّة ، فيأت الحق بتأكيد أقوى على ألسنة الرسل :

(ربنا يعلم) .

وذلك القول في حكم القسم ، هذا هو التأكيد الأول ، والتأكيد الثاني :

(إنا إليكم لمرسلون) .

وكما تعلم « إن » هنا مؤكدة ، واللام التي في أول قوله : « لحرسون » لزيادة التأكيد . وحين تأتي كلمة تنور على معاني متصلة ، فالمعنى الجامع هو المعنى الأصل ، وكذلك كلمة « فترة » ، فالفترة هي الانقطاع . فإن قلت مثلاً : ماء فاتر أى ماء انقطعت برودته ، فإلزام مشروط فيه البرودة حتى يروى العطش . وعندما يقال : ماء فاتر أى ماء فتر عن برودته ، ولذلك يكون قولنا : « ماء فاتر » أى ماء دافئ قليلاً ، أى ماء انقطعت عنه البرودة المرغوبة فيه .

ويقال أيضاً في وصف المرأة : في جصها فتور أى أنها تغص الطرف ولا تحمق بعينها باحتراء . بل منخفضة الطرة . إذن فالفترة هي الانقطاع . ولقد انقطعت مدة من الزمن وَخَلَّتْ من الوحي ومن الرسل . وكان مقتضى هذا أن يطول عهد العلة ، ويطول عهد انقراض المسيح ، ويحش أهل الخير في ظمأ وشوق لحجى منتهج جديد ، فكان من الواجب - مادام قد جاء رسول - أن يرهف الناس آذانهم لما جاء به ، فيوضح الحق أنه أرسل رسولاً جاء على فترة ، فإن كنتم أهل خير فمن الواجب أن نلتبسوا ما جاء به من منهج ، وأن نرهفوا آذانكم إلى ما يجيىء به الرسول صلى الله عليه وسلم لسماح مهمته ورسالته .

وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والعذر فلا يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » فقد جاءهم - إذن - بشير وجاءهم نذير . والبشير هو المعلم أو المخبر بخير يأتي زمانه بعد الإخبار . ومادام القادم بشيراً فهو يشجع الناس على أن يرغبوا في منهج الله ليأخذوا الخير . ولا بد من وجود فترة زمنية يمارس فيها الناس المنهج ، ولا بد أيضاً أن توجد فترة ليبارس من لم يأخذوا المنهج كل ما هو خارج عن المنهج ليأتى هم الشر .

مثال ذلك قول الأستاذ : بشرُ الذي يذاكر بأنه ينجح . وعند ذلك يذاكر من الطلاب من يرغب في النجاح ، أى لا بد من وجود فترة حتى يحقق ما يوصله إلى ما يشر به . وكذلك لندارة لا بد ما من فترة حتى يتجنب الإنسان ما يأتي بالشر .

« قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » . وعجىء « أن تقولوا » إيصاح بأنه لا توجد فرصة للتملل بقول : « ما جاءنا من بشير ولا نذير »

ويقول الحق : « فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » وسبحانه وتعالى القدير أبداً . فقد جعل الخلق يطرأون على كون منظم بحكمة وبكل وسائل الخير والحياة على أحسن نظام قبل أن يطرأ هؤلاء الخلق على هذا الكون ، فإذا ما طرأ الخلق من هذا الخير ، أتركهم الخالق بدون هداية ؟ لا . فسبحانه قد قدر على أن يوجد خلقه كلهم ، ويعطي لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم .

ألا يعطي الحق الخلق إذن ما يحفظ لهم قيمهم ؟ .

إنه قدر على أن يعطي رزق القوت ورزق المبادئ والقيم وأن يوفى خلقه رزقهم في كل عطاء . وإرسال الرسل من جملة عطاءات الحق لعلاج القيم . ثم يرجع ثانية إلى قوم موسى ولكنه في هذه المرة يجعل التكلم رسوهم :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا
وَأَتَّخَذَ لَكُمْ مَاءَ الْيَمِّ بُرًى فَذَكِّرُوا أَحْدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾

وساعة نسمع « إذ » فاعلم أنها ظرفية تعني « حين » ، كأن الحق يقول . اذكرو حين قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم . ويقول الحق لرسوله ذلك لأن هذا اللون من الذكر يعبر الرسول صل الله عليه وسلم على تحمل ما يتعرض له في أمر الدعوة والرسالة سواء من ملاحدة أو من أهل كتاب .

إن الحق حينها قال : « وإذ قال موسى لقومه » أي اذكرو يا محمد ، أو اذكرو يا من تتبع عمداً ، أو اذكرو يا من تقرأ القرآن إذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . ولا يقول موسى لقومه : « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التي أنعم الله بها عليهم ، وذلك - والله المثل الأعلى - كما يقول الواحد منا لولد حلق : اذكر ما فعله والدك معك . ولا يقولن

الواحد ما قلت إلا وقد بدرت من الابن بواجب لا تتناسب مع مقدمات النعم ومقدمات الفضل عليه . فكان قوم موسى قد أزهقوه وتحمل منهم الكثير ؛ لدرجة أنه قال لهم هل سبيل الزجر ما قد يجعلهم يفيقون ويتبهرن ويفطنون إلى ذكر نعمة الله عليهم ، ومعنى ذكر النعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهي .

« وإذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، وعرفنا أن « النعمة » يقصد بها الجنس والفراد بها النعم كلها ، أو كان كل نعمة على أفرادها حلقة وجذوة أن تذكر وتُشكر ، والدليل على أن النعمة يراد بها كل النعم أن الله قال :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

ومادام عدد النعمة لا نستطيع معه أن نعرف إحصاءها ؛ فهي نعم متعلقة . إذن فالفراد بالنعمة كل النعم لأنها اسم جنس .

« وإذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وذكر النعمة يؤدي إلى شكر النعم ويؤدي أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصى من أنعم ، وبجعلنا نستحي أن نأخذ نعمته لتكون معينا لنا على معصيته . « اذكروا نعمة الله عليكم » وهي نعم كثيرة لخصوا بها ، ألم يخلق الحق لهم البحر :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

ويعد أن ضرب الماء بالعصا :

﴿ فَأَنفَلَقَ فَمَا كَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالظَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

فقد صار الماء السائل جبالاً وضرب لهم الحجر ؛ بأمر الله فأنفجرت منه المياه :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتبين القدرة مجالات تصرفها ، فقد ضرب مرسى البحر فصار كل فرق كالطود العظيم ، وكان الماء صار صغراً . وضرب موسى الصخر فتنبجرت المياه . إنها عجائب القدرة . ألم يظنكم بالنيام ؟ ألم ينزل عليكم في الليل المن والسلوى ؟ وكل هذه النعم ألا تستحق الذكر والشكر ؟ والاستحياء من أن تعصوه أو أن ترهقوا الرسول الذي جاء لهدايتكم ؟

إن كل هذه انعم تستحق الشكر ، واشكر ذكر . اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ، وكلما أدركتهم غفلة فإن الحق يرسل لهم نبياً كآسوة سلوكية . ولم يقضب عليهم ولم يقل : أرسلت لهم رسولا واثنين وثلاثة وأربعة . ولم يتدوا ، بل كلما عصوا الله واستعصت دأءاتهم أرسل لهم رسولا ، مثلهم في ذلك مثل المريض الذي لا يضر عليه عائلته بطبيب أو بطييين أو ثلاثة أو أربعة ، بل كلما لاحظ عائلته شيئا فإنه يرسل له طبيباً . وفي ذلك امتنان ، لأن الله أرسل إليهم كثيراً من الرسل . وكان عليهم أن يعلموا أن دعاءهم قد كثرت وصار مرصهم مستعصياً ؛ لأنه لو لم يكن المرض مستعصياً ؛ لما كانوا في حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأميـاء . ومع ذلك رحمهم الله وكلما زاد دأؤهم أرسل لهم نبياً .

ولم يكف الحق بأن جعل فيهم أنبياء ؛ بل قال . « وجعلكم ملوكاً » وليس معنى ذلك أنهم كلهم صاروا ملوكاً ؛ ولكن كان منهم الملوك . « والملك » كلمة أخذت اصطلاحاً سياسياً ، فكل إنسان مالك ما في حوزته ؛ مالك لشويه ، أو مالك اللقمة التي يأكلها ، أو مالك البيت الذي ينام فيه ، لكن الملك هو الذي يملك ويملك من ملك .

إذن فكل واحد عند القسرة أن يملك شيئاً ويملك من ملك يكون ملكاً ، فرجل عند رعيان يقومون برعى القطعان من الماشية التي يملكها ، وعنده أناس يعملون في المنزل وأناس يعملون في المزرعة ، وعنده أكثر من سائق ، وعنده أناس كثيرون يأمرون بأمره ولا يدخلون عليه إلا بإذنه ولا يتكلم في لقائهم أى حرج أو مشقة ، هذا الرجل لا بد أن يكون ملكاً . إذن فقد أعطاهم الحق نعمة وفيرة .

والنبي صلى الله عليه وسلم يحدد الملكية الواسعة التي تحدد الفرد تحديداً إيمانياً

فقال : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده ، عندئذ قوت يومه فكأنما
حيزت له الدنيا بحذافيرها » (١)

ومادام قد حيزت له الدنيا بحذافيرها بهذه الأشياء فهو ملك . وقد أعطاهم هذه
المسائل أى جعلهم ملوكاً . « وأناكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، أى أنه سبحانه
أعطاهم ما لم يعطه لأحد ممن حوهم ، روالى عليهم ذلك المعطاء ، ألم يعط
- سبحانه - نبي الله سيدنا سليمان وهو من بني إسرائيل مُلكاً لا ينبى لأحد من
بعده ؟ تلك الواقعة لم يقلها موسى عليه السلام لأنها حدثت من بعد موسى بأحد
عشر جيلاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَنْقُورِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ
لَكُمْ وَلَا تَرْلَوْا وَعَلَىٰ أَذْيَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٢)

وهذا بلاغ من موسى بما أوحى الله به إليه ، ومتى حدث ذلك ؟ نعرف أن صلة
بني إسرائيل بمصر كانت منذ أيام يوسف عليه السلام ، وعندما جاء يوسف بأبيه
وأخوته وعاشوا بمصر وكرنوا شيعة بني إسرائيل ، ومكن الله ليوسف في الأرض
وعاشوا في تلك الفترة . والعجيب أن المس القرآني للأحداث التاريخية فيه دقة
متناهية ، ولم نعرف نحن تلك الأحداث إلا بعد مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر .
فعندما جاءت تلك الحملة صحبت معها بعثة علمية . وكانت تلك البعثة تنقب عن
المعلومات الأثرية ليتعرفوا على سر حضارة المصريين ، وسر تقدم العرب الفتيمة ،
الذي سبق أوروبا بقرون ، وأخلقت منه أوروبا العلوم والفنون ، في حين صار هذا
العالم العربى إلى غفلة .

إن العرب المسلمين هم الذين اخترعوا أشياء دخل لها العالم الغربى ، ويحكى لنا

التاريخ عن هدية من أحد ملوك العرب إلى شارلمان ملك فرنسا وكانت الساعة دقاقة ، وظن الناس من أهل فرنسا أن بهذه الساعة الدقاقة شيطاناً . وفكرة تلك الساعة أن العالم الذي صممها وضع فيها إناء من الماء به ثقب صغير تنزل منه القطرة بثقلها على شيء يشبه عقرب الساعة ، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن . وكانت الساعة تسير بنفطة الماء وكان ضبطها في متهى الدقة . وحين رآها الناس في بلاط شارلمان ملك فرنسا ظنوا أن بداخلها شياطين . وهذا نموذج من نماذج كثيرة لا حصر لها ولا عدد تدخل في نطاق قوله الحق :

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ وَيَنْتَهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ اللَّهُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فصلت)

وحينما جاء الفرنسيون إلى القاهرة كان معهم تلك البعثة العلمية ومعهم مطبعة ، وعرض هؤلاء العلماء الفانوس السحري ، وجعلوا الناس البسطاء يذهنون من تقدمهم العلمى . واستمرت تلك الحملة بعروض أقرب إلى « الأكروبات » . وكان عمل العلماء هو البحث عن سر حضارة المصريين والمسلمين ، لأنهم يعلمون أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى مصر بالإضافة إلى حضارة المصريين القدماء .

لقد كانوا يعرضون ألعابهم السحرية العلمية بدرب الجماهير ، وذلك حتى يبهير الناس بالحضارة الفرنسية . وكان علماءهم في لوقت نفسه يكتشفون ما نقش على حجر رشيد ، وهو الحجر الذى اكتشفه ضابط فرنسى شاب اسمه شامليون ، وعمل هذا الحجر كتب الكلمات الميروغليزية . واستطاع شامليون أن يفصل أسماء الأعلام الميروغليزية ومن خلال ذلك استطاع أن يصل إلى أبجدية تلك اللغة . وكان الله أراد أن يسخر الكافرين بمنهج الله ليؤيدوا بمنهج الله .

إن في كل لغة شيئاً اسمه « منطق الأعلام » ومثال ذلك أن يوجد اسم رجل أو أمير أو إسان ، فهذا الاسم مكون من حروف لا تتغير ، مثال ذلك ماخذه من اللغة الإنجليزية ؛ كان اسم رئيس وزراء إنجلترا في وقت من الأوقات هو « تشرشل » هي كلمة إذا ترجمناها ترجمة حرفية لم تدل على صاحبها ولم تعرفنا به لأننا عندما ترجمها نكتفى بكتابة الاسم بالحروف العربية بدلاً من اللاتينية .

إذن بالأعلام لا يتغير نطقها .

وكشف شامليون عن الحروف التي لم تتغير . واهتدى إلى فك طلاسم جروب اللغة الهيروغليفية ؛ فعرف كيف يقرأ المكتوب على حجر وشيد ، واستطاع أن يقسم لنا بدايات اكتشاف تاريخ مصر القديمة . واستطاع أن يقرأ اللغة المرسومة على ذلك الحجر .

ولنا أن نرى عظمة القرآن حينما تعرض للأفدين . تعرض لحادٍ وتعرض لثمود وتعرض لفرعون . تعرض لتلك الحضارات كلها في سورة القمر ، فقال سبحانه ونعالى :

﴿ وَالْقَمَرِ ① وَلَيْالٍ عَشِيرِ ② وَالشَّجِ وَالرَّزْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغِيرِ ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدَىٰ جِبْرِ ⑤ الرَّزْكَيفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ ﴾

(سورة القمر)

إِرَمَ ذات العباد هي التي في الأساطير - في الجزيرة العربية - ولم نكتشفها بعد ، ولم نعرف عنها حتى الآن شيئاً ، وهي التي يقول عنها الحق :

﴿ أَلَيْسَ لِّمُخَلِّقِ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ⑧ ﴾

(سورة القمر)

ثم يتكلم بعدها عن فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ⑨ ﴾

(سورة القمر)

والأهرام أقامت بالفعل على أوتاد ، وكذلك السلالات المصرية القديمة والمعابد . وغيرها من العجائب التي يهت الناس في مختلف العصور .

﴿ أَلَيْسَ لِّمُخَلِّقِ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ⑩ ﴾

(سورة القمر)

ثم جاء بحضارة ثمود .

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوُدِ ⑪ ﴾

(سورة القمر)

وقد رأينا هذه الحصارة التي كان الناس أثناءها ينحتون البيوت في الصخر ، كما رأينا حصارة مصر . وحصارة عاد هي التي لم نرها حتى الآن ، ولا بد أن تكون مطمورة تحت الأرض . ونعرف أن الهبة الرملية الواحدة عندما تهب في تلك المناطق تطمر القافلة كلها ، فما بالنا بالقرون الطويلة التي مرت وهبت فيها آلاف العواصف الرملية ، إذن لابد أن تنقب كثيراً لنكتشف حصارة عاد . والحق تكلم عن حصارة مصر القديمة فقال : (وفرعون ذى الأوتاد) ، وعندما تكلم عن موسى عليه السلام ، تكلم - أيضاً - عن المعاصرين له وكان أحد هؤلاء الفراعنة ، فقال سبحانه لموسى ولأخيه هارون عليهما السلام :

﴿ أَذْمَبْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ عَلِيُّ ۖ ﴾

(سورة طه)

ويذهب موسى إلى فرعون حتى يخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون . وإذا ظلمهم فرعون ؟ نحن نعرف أن كل سياسة تعقب سياسة سابقة عليها تحاول أن تطمس السياسة الأولى ، وتعذب من تعمروا السياسة الأولى ، وتلك قضية واضحة في الكون . وهذا ما يتضح لنا من سيرة سيدنا يوسف الذي صار وزيراً للمعزى ودها أباه وأمه وشيعته إلى مصر ، ولم تأت سيرة فرعون في سورة يوسف .

وعندما تكلم القرآن على رأس الدولة ن أيام يوسف قال :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُورَىٰ بِهِ ۚ ﴾

(من الآية ٥١ سورة يوسف)

لم يقل الحق : « فرعون » على الرغم من أنه قال قبل ذلك عنه إنه : « فرعون » وأيام موسى ذكر فرعون ، لكن في أيام يوسف لم يأت بسيرة فرعون إنما جاء بسيرة ملك . وعندما جاء اكتشاف حجر رشيد ، ظهر لنا أن فترة وجود يوسف عليه السلام في مصر هي فترة ملوك الرعاة أى الهكسوس الذين غزوا مصر وأدخلوا السلوك من المصريين وحكموهم وصاروا ملوكاً ، وسمى عصرهم بعصر الملوك

وقال القرآن : (وقال الملك أتورى به) . ولم يأت بذكر فرعون . وعندما استرد الفراعنة ملكهم وطردوا ملوك الرعاة ، استبد الفراعنة بمن كانوا يقدمون الملوك وهم بني إسرائيل . هكذا تتأكد دقة القرآن عندما ذكر فرعون لأنه كان الحاكم أيام موسى ، لكن في زمن يوسف سعى حاكم مصر باسم الملك . وتلك أمور لم نعرفها

الإحديثاً ولكن القرآن عرفنا ذلك . وكانت تحتاج إلى استنباط . وهي تدخل ضمن الآيات التي لا حصر لها في قوله الحق :

﴿ سَتَجِدُنَهُمْ فِي الْأَقْصَى وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فسبحانه ونمالي بعد أن أهد موسى بالآيات وأعرق فرعون ، هنا قال لهم موسى :

﴿ يَنْتَظِرُوا أَذْيُكُمُ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ

فَتَقْلَبُوا وَخَسِرِينَ ﴾

(سورة المائدة)

فقد انتهت المهمة بتخليص بني إسرائيل من فرعون ، وخلصوا أهل مصر من فرعون . وكانت الدعوة للدخول الأرض المقدسة وكلمة الأرض إذا أطلقت صارت علماً على الكرة الجامعة . ووردت كلمة « الأرض » في قصة بني إسرائيل في مواضع متعددة لمواقع متعددة .

فها هو ذا قول الله في آخر سورة الإسراء :

﴿ وَغُلَّتْ مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُومُ الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

فهل هناك سكن إلا الأرض ؟ إن أحداً لا يقول : اسكن كذا إلا إذا حدد مكاناً من الأرض ، لأن السكن بالقطع سيكون في الأرض ، فكيف يأتي القول : « اسكنوا الأرض » ؟ والشائع أن يقال : اسكن المكان الفلاني من المدن ، مثل : المنصورة أو أربحا ، أو القدس . وقوله الحق : « اسكنوا الأرض » هو لفظة قرآنية ، وما دام الحق لم يحدد من الأرض مسكوماً خاصاً ، فكانه قال : ذوبوا في الأرض فليس لكم وطن ، وانساحوا في الأرض فليس لكم وطن ، أي لا توطن لكم أبد ، وستسيحون في الأرض مقطعين ، وقال سبحانه

﴿ وَقَطَعْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

وحين يأل القرآن بقضية قرآنية فلنبحث ألبتتها القصايا الكونية أم عارضتها ؟
القضية القرآنية هنا هي تقطيع بني إسرائيل في الأرض أما ، أي تفريقهم وتشتيتهم
ولم يقل القرآن : « أدبناهم » بل قال : « قطعناهم » وتبعد أنه جعل بينهم أوصالا
ولكنهم معزلون في البلاد . وعندما نراه في أي بلد نزلوا فيها نجد أن لهم حيا مخصوصا ،
ولا يلبثون في المواطن أبدا ، ويكون لهم كل ما يخصهم من حاجات يستقلون بها ،
فكانهم شائعون في الأرض وهم مقطعون في الأرض ولكنهم أمم ، فهناك « حارات »
وأماكن خاصة لليهود في كل بلد .

حدث ذلك من بعد موسى عليه السلام ، لكن لماذا كان الأمر في أيام موسى ؟ قال
لهم الحق . « ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » أي بعد رحلتكم مع
فرعون اذهبوا إلى الأرض التي كتبها الله لكم ونلاحظ هنا أن كلمة « الأرض
المقدسة » فيها تمييز وتحديد للأرض .

ولكن ما معنى « مقدسة » ؟ المائدة كلها تدل على الطهر والتطهير . فـ « قُدُس » أي
طهر ونزه ، ومقدسة بمعنى مطهرة . والألفاظ حين تأتي تتوارد جميع المائدة على معنى
متلاقية . ففي الريف المصري نجد ما نسميه « القفس » أو « القادوس » وهو الإناء
الذي يرفع به الماء من الساقية ، وكانوا يستعملونه للتطهير ، فالقادوس في الريف
المصري هو وعاء الماء النظيف . وعندما يقال : « مقدسة » أي مطهرة .

إن من أسماء الحق « القُدوس » ، ويقال : « قُدُس الله » أي نزه ، فالله ذات وليست
كذات الإنسان ، وله سبحانه صفات منزهة أن تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له
أفعال ، ولكن قدسه وطهره منزهة أن تكون كأفعالك . فذات الحق واجبة الوجود
وذات الإنسان محنة الوجود ، لأن ذات الإنسان طرا عليها عدم أول ، وطرأ عليها
عدم ثاني ، وهو سبحانه واجب الوجود لذاته ، والإنسان واجب لغيره وهو قادر
سبحانه أن ينهي وجود العبد . والله حياة للإنسان حياة ، لكن أحياتك أيها الإنسان
كحياة الله ؟ لا .

إن حياته سبحانه منزهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنت
قادر قدرة محدودة وله سبحانه طلاقة القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ؛
لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدود له .

إذن فصفاته مقدسة ، ولذلك فعندما تسمع أنه سبحانه سميع علیم فليس سمعه كسمعنا ، وله فعل غير فعلنا . وعندما يقول الحق : إنه فعل ، فعليه منزّه عن التشبيه بفعل البشر ؛ لأن البشر من خلق الله ، وفعل البشر معالجة ، ويكون للعقل بداية ووسط ونهاية ويفرغ من الأحداث على قدر الزمن . ونحن نحمل الأشياء في أزمان متعددة ويحتاج من يحمل الأشياء إلى قوة . ولكن فعل الحق مختلف ، إنه فعل بـ « كن » لذلك قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّ مِنْ لُجُوبٍ ۝۱۸ ﴾

(سورة ق)

أي أنه سبحانه وتعالى منزّه عن التعب ، فهو يقول . « كن فيكون » ولذلك قلنا في مسألة الإسراء-إننا يجب أن ننسب الحدث إلى الله لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى نعرف أن الذين عارضوا رسول الله في مسألة الإسراء كانوا على خطأ ، فقد قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها في ليلة ١٩

إن رسول الله لم يدع لنفسه هذا الأمر ، لأنه لم يقل : سریت من مكة إلى بيت المقدس « حتى تقولوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهر وتدعى أنك أتيتها في ليلة » .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أسري بي . أي أنه صلى الله عليه وسلم ليس له فعل في الحدث . والفعل إذن لله . وما دام هو من فعل الله فهو لا يحتاج إلى زمن ؛ لذلك كان يجب أن يفهموا على أي شيء يحترسون . ولكننا نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ، لأنه سيأتي أناس من المتحذلقين للعاصرين ويقولون : « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم : بالله لو قال محمد للعرب : أنا سریت بروحي أكانوا يكذبونه ؟ تماماً مثلما يقول لنا قاتل : « أنا كنت في نيويورك الليلة ورأيتها في المنام » فهل سيكفيه أحد ؟ لا . إذن لقد كذب العرب لأنهم فهموا أنه أسري به بمعنى كامل . . أي كان الإسراء بالجسد والروح معاً ، بدليل أنهم قارنوا فعلاً بفعل ، وحدثاً بحدث ، ونفلة بنفلة ، وقالوا قوهم السابق . لقد جاءت هذه المسألة لتخدم الإسلام .

إذن فـ « قلوبس » يعني مطهر ومنزه . وساعة ترى شيئاً مخالفاً لقضية العقل الرنة

بفعل الله ، ولا تقره بفعلك أنت أيها العبد ؛ لأن العمل يتناسب مع قوة الفاعل طرداً أو هكسا . فإن كان الفاعل صاحب قدرة قوية . فزمه أقل . مثال ذلك : نقل أردب من القمح من مكان إلى مكان ، فإن كان الذي يحمل الأردب طعلاً فلن ينقل الأردب إلا قدحاً بقدح ؛ وإن كان رجلاً ناصباً سينقل الأردب « كيلة بكيلة » . وإن كان صاحب قوة كبيرة قد ينقل الأردب كله مرة واحدة . إذن فالمرن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً . فإن كثرت القوى قل الزمن . وهات أي فعل بقدرة الله فلن يستغرق أي زمن

إذن قدس الله في كل شيء . والأرض المقدسة هي المطهرة ، وذلك بإرادة الحق سبحانه ، فمما كلفه أراد سبحانه أن تكون بقعة من لأرض هي الحرم ، لا يتم فيها الاعتداء على حيد أو نبات أو اعتداء بعضهم على بعض ، وهل ذلك كلام كوني أو كلام تشريعي ؟

﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ كَلِمَاتٍ حَرَامًا آمَنُوا﴾

(من الآية ٦٧ سورة العنكبوت)

لو كانت للسألة إرادة كونية ، فكان لا بد ألا يحدث خلل أبداً وألا يعتدى أحد على أحد . وما الفرق بين الكون والتشريع ؟ إن الكون يقع لأنه لا معلوم في الأمور القهرية ، فالخن يريد أن يكون عبداً طويلاً القائمة ، فتلك إرادة كونية تحدث ولا تدخل للعبد بها . ولكن إن أراد الحق أن تكون طائعا مصلحاً ، فتلك إرادة تشريعية . والإرادة تكون تشريعية فيها إذا كان للمريد اختيار ، يصحح أن يفعلها ويصحح ألا يفعلها ، لكن الإرادة الكونية هي فيها لا إرادة للإنسان فيه وواقع على رعم أنف الإنسان .

والله سبحانه وتعالى يريد الحرم آمناً . وتلك إرادة تشريعية لأنه حدث أن أهيج فيه أناس ولم يأمنوا . ولو كانت إرادة كونية لما حدثت أبداً . لذلك فهي إرادة تشريعية ، فإن أطمنا ربنا جمعك الحرم آمناً ، وإن لم نطمع فالذي لا يطيع صبيح فيه الناس وفزعهم ويضيقهم . فمراد الله عز ومطلوبه شرعاً « أن يكون الحرم آمناً » .

ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، فهل هذه الأرض المقدسة كتبها الله لهم

كتابة كوبة أو كتابة تشريعية ؟ إن كانت كتابة كوبة نكأن من اللارم أن يدخوها ولكنه قال :

﴿فَلَهَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾

(س الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن هي إرادة تشريعية وليست إرادة كوبة . فإن أطاعوا أمر الله وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة فإسهم يأخذونها ، وإن لم يطيعوه فهي محرمة عليهم . إذن فلا تناقص بين أن يقول سبحانه . إنه كتبها لهم ، ثم قوله من بعد ذلك : إنها محرمة عليهم ، لقد كتبها سبحانه كتابة تشريعية . فإن دخلوها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها واستبسلوا ووثقوا أن وراءهم إلهاً قوياً سيسانددهم ؛ فإسهم سيدخلونها ، أما إن لم يفعلوا ذلك فهي محرمة عليهم .

﴿يَنْقُومِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ تَكْرَ وَلَا تَرَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَبِرُوا عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾

(سورة المائدة)

وجاءت الأرض هنا أكثر من مرة .

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ﴾

(س الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

وعرفنا مراد ذلك القول والدقة هنا أنه سبحانه جاء بأمر السكن في الأرض لبني إسرائيل أي في الأرض عموماً ومكرماً عليهم أن يكونوا قطعاً ومشردين

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَوِيعًا﴾

(س الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

أي أنه سبحانه يجمعهم من كل بلد ويحيىء بعد ذلك وعد الآخرة الذي جاء في أول سورة الإسراء :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

(سورة الإسراء)

لأن الحق حينها قال :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه وتعالى يدخل بيده الآية المسجد الأقصى في مقدسات الإسلام .
وأوضح الحق لهم : يا أيها اليهود أنتم ستعيشون في مكان بعهد من رسولي ، ولكنكم
ستفسدون في المكان الذي تعيشون فيه وميتحملكُم القوم مرة أو اثنتين وبعد ذلك
يسلط الله عبداً له يحوسون حلال دياركم وشرنوبكم من هذه البلاد .

والحق يبلغنا : نحن أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم ما سيحدث لهم مع الإسلام :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا ۖ فَلَمَّا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكَ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا
خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝﴾

(سورة الإسراء)

وبعض الناس يقولون : إن هذا كان أيام بختنصر ، ويقول لهم : انهموا قول
الحق : « فلما جاء وعد أولاهما » وكلمة « وعد » لا تأتي لشيء يسبق الكلام بل
الشيء يأتي من بعد ذلك . إذن فلم يكن ذلك في زمان بختنصر . « إذا » الموجودة
أولاً هي ظرف لما يُستقبل من الزمان ، أى بعد أن جاء هذا الكلام . ثم هل كان
بختنصر يدخل ضمن عباد الله ؟ . إن قوله الحق : « عباداً لنا » مقصود به اليهود
الإنسيون ، وبختنصر هذا كان فارسياً مجوسياً .

وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله بعد العهد الذي أعطاه
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجلاهم . وهل هي تقتصر على هذه ؟ يقول
سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكَ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ

الْبَيْتِ رِكَانًا وَعَدًا مَّقْصُورًا ﴿٣٠﴾

(سورة الإسراء)

ولنا أن نسأل : وهل لم يفسد بنو إسرائيل في الأرض إلا مرتين ؟ لا ، لولا أنهم لم يفسدوا في الأرض سوى مرتين ، لكان ذلك بالقياس إلى ما فعلوه أمراً طيباً ، فقد أفسدوا أكثر من ذلك بكثير . ولا بد أن يكون إفسادهم في الأرض المقصودة هو الفساد الذي صنعوه بالأرض التي كانت في حضنة الإسلام ، ومبجته قد قال : « بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأمر شديد » فإدام يوجد « عباد الله » محالوا الإيمان وأعدوا العدة فلا بد أن يتحقق وعد الله ، لكن إذا ما تحلل الناس عن هذا الوصف ، فعل الناس الذين يعانون من إفساد بني إسرائيل أن يتلقوا ما قاله الله :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَلَكْرُةً عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الإسراء)

تكان الكثرة لا ترد إلا إذا كان القوم المؤمنون على غير مطلوب الإيمان . فهذا ما تسأل بعض المؤمنين : ولماذا نجعل يا الله الكثرة لبني إسرائيل ؟ تكون الإجابة : لأنكم أيها الناس قد تختلفتم عن مطلوب العبودية الخالصة لله . وماضنا قد تختلفنا عن مفهوم « عباد الله » فلا بد أن تحدث في تلك السلسلة العويطة التي نعرفها من عنوان بني إسرائيل . ونس الآن في مواجهة اليهود في مرحلة قوله الحق :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَلَكْرُةً عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فلذا كنا عباداً لله فلم يتمكنوا منا . والله سبحانه وتعالى حينما يتكلم بفضية قرآنية فلا بد أن تلي القضية الكونية مصسقة لها .

ولو استمر الأمر بلون كوة من اليهود علينا ، بينا نحن قد ابتعدنا عن منهجنا وأصبح كل تبع هواه ، لكانت القضية القرآنية غير ثابتة . ولكن لا بد من أن تلي أحداث الكون معابقة للقضية القرآنية . ولذلك رأينا أن بعض العارفين الذين نعتقد قريهم من الله حينما جاء أحدهم خبر دخول اليهود بيت المقدس سجد لله .

فقلنا : « أتعبد الله على دخول اليهود بيت المقدس » ، فقال : نعم . صليق وينا

لأنه قد قال : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » هكذا قال الحق ، وهل يكون دخول لثاني مرة إلا إذا كان هناك خروج من أول مرة ؟ . لقد حمد ذلك العارف بالله ربنا لأن قصصها القرآن تتأكد بالكوبيات ، فإذا ما قال الحق :

﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فليت المسألة أنهم لكونهم يردوا لا يعطيهم الله الكُرَّةَ ولكن القضية هي أننا عندما نكون عبداً لله حفيقة . . اعتقاداً وسلوكاً . . قولاً وعملاً فنقتصر عليهم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَا كُرْأً كَثْرًا نَفِيرًا ﴾

(سورة الإسراء)

وهم أعياء لأنهم يديرون معظم حركة المال في العالم المعاصر . ولأنهم جميعاً في الجيش المدافع عن دولتهم . وذلك معنى بنين وأكثر نفيراً . النمبر هو ما يستمره الإنسان لتجسده ، لأن قوة ذاته قاصره عن العمل . واليهود ليسوا قوة ثانية بمفرده دولتهم ، ولكن وراءهم أهم قوى في العالم المعاصر

إذن فقولته الحق .

﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا كُرْأً كَثْرًا نَفِيرًا ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

ثم بعد ذلك يحسم الله فضيحه ويقول لليهود :

﴿ إِنَّا أَنْتُمْ أَحْسَنُ لَأَنْتُمْ وَأَنْتُمْ فَلَهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وهل تستمر الكرة بارب ؟ .

لا . فلها هوذا الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْهِرُوا رُجُومَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

كأن الحق يعطينا البشارة بأننا سننصر ؛ ويكون الانتصار مرهونا بتنفيذ القاعدة التي شرعها الله بأن نكون عباداً لله حقا ، عندئذ سيكفل الله لنا تنفيذ وعده لليهود :

﴿ لِيُسْهِرُوا رُجُومَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وأشرف ما في الإنسان هو الرجاء ، وعندما نكون عباداً لله سنسوه وجوههم ، وفوق ذلك :

﴿ وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ حَكَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلْيُتَبَرَّكُوا مَا عَمِلُوا تَقْوِيًّا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

ولم يأت الحق بذكر المسجد من قبل ، فلها هوذا قوله الكريم :

﴿ وَقَصَبْنَا لَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَنُفَيْدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَمَنَّ عُلُوَّ

كِبَرِهِ ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِنَّ بَعَثْنَا عَلَيْكَ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ يُلَاقُونَ

جُنُودَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَقْعُورًا ۝ ١٧ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالحق هنا لم يأت بذكر المسجد في أول مرة . فكيف يكون دخولنا للمسجد إذن ؟ . لقد دخلنا المسجد الأقصى أول مرة في الامتداد الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - والمسجد الأقصى أيام عمر بن الخطاب لم يكن في نطاق بني إسرائيل ، ولكن كان في نطاق الدولة الرومانية ، فدخلنا المسجد أول مرة لم يكن نكايه قبيح . ولكن الحق جاء بأثره الثانية هنا والمسجد في نطاق سيطرة بني إسرائيل :

﴿وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

سنكون نحن إذن عبداً لله ذوى الهأس الشديد الذين سندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وجاء الحق سبحانه بالمسجد هنا ، لأن دخول المسجد أول مرة لم يكن إدلالاً لليهود ، فقد كانت السلطة السهيية في ذلك الزمن تتبع - كما قلنا - الدولة الرومانية .

ومضيف الحق من بعد ذلك :

﴿وَلْيَتَّخِذُوا مَا عَلُوا تُغْيِيراً﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وسمى نثر ما يؤمنون - أى نجعله خراباً - لا بد أن نمر مرة ليعلموا في البنيان .

وعلمنا أن نعد أنفسنا لنكون عبداً لله لنعيش وعد الآخرة وقد جعلها الله وحداً تشريعياً ، فإذا عدنا عبداً لله فسندخل المسجد وننثر ما علوا تغييراً ، والحق سبحانه وتعالى في آيات سورة المائدة التي نحن بصدد خواتمها هنا يأل بلقطة من بلاغه لسيدنا موسى بعد خروجه مع نومه من مصر ، فقال :

﴿يَنْقُومِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كُتِبَ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَبُوا خَسِيرِينَ﴾

(سورة المائدة)

وقلنا إن الكتابة هنا تشريعية وليست كونية ، فلو كان الأمر كونياً لدخلوا الأرض

المقدسة بدون عقبات وبدون صراع وبدون قتال . والدليل على أن الكتابة التشريعية هو قوله الحق . « ولا تردوا على أديباركم فتقلبوا خاسرين » أي أنكم إن ارتدعتم على أديباركم انقلبتم خاسرين . فإن أطعتم الله ودخلتم الأرض دون إديبار ، فستدخلون لأرض ، وإن لم تفعلوا فلن تدخلوها . إذن ليست كتابة الأرض هنا كونية ، ولكنها تشريعية .

وقوله الحق : « ولا تردوا على أديباركم » يشرح لنا طبيعة مواجهة الخصم ، فالإنسان حين يواجه خصمه فهو يواجه برجه . فإن قرَّ الخصم من أمامه فهو يولي أديباره . والتربى على الأديبار يكون على لوتين : لون هو الإديبار من أجل أن يتعرف الإنسان إلى جماعة وفئة لتشتد قوتهم ويقفوا على هزيمة العدو أو يصنع مكيدة ؛ ليحيد مواجهة الخصم ، ولون آخر وهو الفرار وذلك مذموم ، ومن المعاصي الموبقات المهلكات . وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ يُوْهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَتَدْبَارُ ۚ وَتَنْصَبُ مِنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

لما ارتداد على الأديبار ليس مذموماً إن كان من أجل حيلة أو صنع كمين لعدو . وفي هذه الحالة لا بأس أن يرتد الإنسان ، أما خلاف ذلك فهو مذموم . وهل الارتداد على الأديبار رجوع بالظهر إلى الوراء مع الاحتفاظ بالوجه في مواجهة الخصم ؟ أو هو التفات بالوجه ناحية النير وفرار من العدو ؟ كلا الأمرين يصح . وقد جاء الأمر إلى بني إسرائيل بعدم التفرار ليدخلوا الأرض فهذا كان موقفهم مادامت الكتابة لهذا الأمر تشريعية ؟ .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَاقِلُ ۚ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾

كيف إذن يعلنون هذا التمرد على أمر الحق ؟ وكيف علموا أن فيها قوماً جبارين ؟ ولنا أن ننبه إلى أن الحق قد قال من قبل :

﴿وَعَشْنَا مِنْهُمْ آثَىٰ عَشْرَ نَجِيًّا﴾

(من الآية ١٢ سورة النجم)

فقد ذهب النقباء أولاً ونجسوا ونقبوا وعرقوا قصة هذه الأرض المقدسة ، وأن فيها جمعة من العمالة الكنعانيين . وساعة رأوا هؤلاء القوم ، قالوا لأنفسهم : هل نستطيع أن نقاوم هؤلاء الناس ؟ إن ذلك أمر لا يصدق ! لذلك لن ندخلها ماداموا فيها . إذن فقد تحذلوا وارتدوا على أديارهم . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين .

وساعة أن نسمع كلمة «جبار» نجد أنها مأخوذة من المحركات ، فالجبارة هي النخلة التي لا تطوعها يد الإنسان إذا أراد أن يجني ثمارها . وعندما تكون ثمار النخلة في متناول يد الإنسان حين يجني ثمارها فهي دانية الغطف ، أما التي لا تطوعها يد الإنسان لحظة الجني لثمار فهي جبارة ، لذلك أخذ هذا المعنى ليبر من الذي لا يقهر فسمى جباراً ، وقد يكون الجبار مكرهاً ولكن على الإصلاح ، وفي بلادنا نطلق على من يصلح كسور العظام «المجبرين» .

أي أنه يجبر العظام على أن تعود إلى مكانها الطبيعي . وقد يتألم الإنسان من ذلك ، ولكن في هذا إصلاح لحياة الإنسان . ود الجبار اسم من أسماء الله ، لأنه سبحانه يقهر ولا يقهر . وقد كرهت سبحانه وتعالى حتى يصلحنا ويحسبنا بالابتلاءات حتى يحسننا وتستوى حياتنا .

إذن فـ «الجبار» صفة كمال في الحق لأنه يستعمل جبروته في الخير ويقهر الظالمين والمعاندين والمكابرين ، وذلك لمصلحة الأخيار الطيبين . وهو سبحانه وتعالى لا يقهر . فعندما يكون في صف جماعة فإن أحداً لا يغلبهم ، أما الجبار كصفة في الخلق فهي مذمومة ، لأن التجبر هنا بدون أصالة كالبناء الأجوف . فالتجبر قد يصيبه قليل من الصداق فيرقد متوجهاً .

إننا نرى أمثلة لذلك في حياتنا ، فجد المتجبر يصاب بلزمة قلبية فيعمل على معالجة

إلى المستشفى ، وبعد جباراً آخر يصاب بقليل من الغص ، فيجربى وهو مسك بيده فوضعه عليه الأطفال . ويقولون له مامعته العيب بعيداً فليست جباراً ولا فتوة ولا أى شيء . والجبار إن لواد أن يكون كذلك فعليه أن يكون صاحب رصيد مستمر ، فلا تراه يوماً غير جبار . ولا يكون التجبر صفة ذاتية إلا لله سبحانه وتعالى

ويقول الحق : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » وساعة نسمع « لن » تسبق العمل فنعرف أنها للنفي . والنفي قد يأخذ زمناً طويلاً ، وقد يأخذ زمناً تأييدياً والمركب بين الدخول فقط والدخول التأييدي ، أن الدخول الأول له زمن ينهيه ، والدخول الثانى لا زمن له لينهيه كدخول المؤمنين الجنة .

وإذا عين الدخول بغاية كلوصم . « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » أى أن النفي التأييدي مرتبط بغاية وهي خروج القوم الجبارين . والتأييد هنا إضائي لأنهم قالوا : إنهم لن يدخلوا الأرض في مدة وجود الجبارين .

« فإن يخرجوا منها فإن داخلون » ونقول : وهل الأمم التي تنحصر إلى الشر وتمارسه تمتنع فيها وجود عناصر الخير ؟ لا ، لأن الحق يبقى بعضاً من عناصر الخير حتى لا ينطمس الخير ، وهذا ما يوصفه الحق في بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى هذا القول ، فقد خالفهم رجلاً منهم .

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾



وهما رجلان يخافان الكوثر عن أمر الله ، ينسبوا إسرائيل - كمجموع - لم يهتوا عن الله

حق الفهم ، لأنهم لو غفلوا أمر الله لهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ولم ينكسوا
لكتهم الله من ذلك . لكن لم يفهم عن الله فيها إلا رجلاان . وهما كالب ،
ويوشع بن نون ، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط افرايم ، وهما ابنا يوسف
عليه السلام ، فقد قال : مادام الله قد كتب لكم الدخول ، فهو لا يطلب منا إلا قليلا
من الجهاد .

فحين يأمر الله الإنسان بحمل من الأثقال ، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل المجاهداً
والمعونة من الله . وصيحاته يقول للعبد :

(أنا عند ظن عبدي بي ، وأد معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ،
وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ غير منهم ، وإن تقرب إلى بشير تقربت إليه
فراعاً ، وإن تقرب إلى فراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)^(١) .

فلذا كان الشأن في المشي أن يتعب الذاهب والسائر ، فإله لا يريد أن يرهق بالمشي
من يقصده ويطلبه ، لذلك يُهرول فضله ورحته - سبحانه - إلى العبد . فالرغبة
الأولى أن يكون العمل لك أنت أي العبد . ومن عظام فضل الله أنه فعل ونسب
إليك . وسبحانه يسعد بالعبد الساعي إليه . وانضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى -
لتتعرض أنك أردت أن تحمك سيفاً ، لماذا لا تحمل المسألة ؟ . السيف الذي لمسكه ،
صنعه من الحديد ، والحديد استخرجته من الأرض .
والحق قال .

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إن الحق هو الذي أنزل الحديد ، وهو الذي علمنا كيف نصقل الحديد وتشكله
بالتل :

﴿ وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَمْنَعَنِيكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

وأنا أريد من هلياء وظائف الأعضاء أن يحددوا لنا ساعة أن يمكك الإنسان شيء وليكن السيف . فبلى عضلة يمكك الإنسان السيف ؟ وكيف يأمرها الإنسان بذلك ؟ . وكم عضلة وكم نخلة عصبية تحركت من أجل أداء هذا الفعل ؟ . هل الرغم من أن الإنسان بمجرد إرادته أن يمكك شيئاً . فهو يمكك به . والإنسان إذا ما مشى خطوة واحدة ، فبلى العضلات بدأ المشي .

إن الإنسان عندما يحرك ذراعاً آلياً في جهاز آلي ، يصمم عشرات الوصلات والأدوات والدورات الكهربائية من أجل تحريك ذراع آلي ، فكيف إذن من عضلات في الإنسان تتحرك بالسير خطوة واحدة ؟ إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك بمجرد الإرادة منه !! . فإذا كانت إرادة الإنسان تفعل لمجرد أن يريد سواء أكانت هذه الإرادة هي الإمساك بالسيف أم حتى المشي خطوة واحدة ، أم حتى الإمساك بالفلم بين الأصبع للكتابة . فليعلم الإنسان أن الإرادة عطاء من الله والإنسان لا يستطيع تحديد مواقع إرادته من جسده فيما يالئنا بالحق حين يريد أمراً ؟

ولنعد إلى الآية التي نحن بصدد خواطرتنا عنها الآن :

﴿ قَالَ رَبُّ الْجَانِ مِنْ الَّذِينَ يَخَافُونَ أُنْعِمُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابُ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتْوَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٥)

(سورة المائدة)

لقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم عن الله ، فقالا لبي إسرائيل : ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض وسينصركم الله . ومثل الرجلين كمثل الأم التي طلب منها ابنها أن تدهوله بالسجاح ، فقالت الأم لابنها : ساعدك لك ولكن عليك فقط أن تساعد الدعاء بالإقبال على الاستذكار . وكأن الخوف من مخالفة أمر الله نعمة على هذين الرجلين ، وكأن الفهم عن الله لعبارة نعمة .

« ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتُموه فإنكم غَالِبُونَ » كأنهم بمجرد الدخول سيغلبون هؤلاء العمالقة . فلم يطلب الله منهم قتال هؤلاء العمالقة . بل ساعة يراهم القوم الجبارون يدخلون عليهم فجأة فسوف يذهلهم الرعب

وهم عندما نسجوا الأساطير حول هذه القصة قالوا : إن أحد هؤلاء العمالقة واسمه عوج بن عناق خرج إلى بستان خارج المدينة ليقطف بعض الثمار لرئيسه ، فحطفت اثنين من هؤلاء الناس وخبأهما في كهف ، وألقاهما أمام رئيسه وهو يقدم المفاكهة إليه وقال الرجل العملاق لرئيسه : هذان من الجماعة التي تريد أن تدخل مدينتنا . هذه هي المبالغة التي صنعتها حولهم من هؤلاء العمالقة ، برغم أن رجلين منها أحسن الفهم عن الله بقلوبهما . « ادخلوا عليهم الباب » ، لأن هذا هو مراد الله ، وهو الذي يحقق لهم النصر

وبعض المفسرين قالوا في شرح هذه الآية . إن الرجلين اللذين قالوا ذلك ليسا من بني إسرائيل ، لأن هؤلاء المفسرين فهموا القول الحكيم : « قال رجلان من الذين يخافون » قالوا هما رجلان من الذين يخاف منهم بنو إسرائيل ، ونالا لبني إسرائيل : لا ينجيكم ولا يرهيبكم عظم أجسام هؤلاء ، فإن جنود الله ستصركم :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النمل)

ويختتم الحق الآية بهذا التنذير : « وعلم الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أي لا تتوقفوا عند حساب العدد في مواجهة العدد ، والعلة في مواجهة العلة ، ولكن احسبوا الأمر إيماناً لأن الله معكم « إن تنصروا الله ينصركم » .

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْخَطِيرُ ۖ ﴾ (١٣٦)

(سورة الصافات)

وعلى المؤمن بالله أن يضع هذا الإيمان في كنف قوته . فإن كان هؤلاء الناس من بني إسرائيل المأمورين بدخول تلك الأرض مؤمنين بحق فليتركوا حل الله . بهذا قال هؤلاء القوم :

﴿ قَالُوا يَحْمُسُونَ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ﴾

فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا

قَعِيدُونَ ﴿٢٤﴾

كان خلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا تفرق نفسك معنا ووفر عليك جهنك فمحن لن ندخل هذه الأرض ، مادام هؤلاء العماقة فيها . وإن كنت مصراً على دخولنا هذه الأرض فإذهب أنت وربك فقاتلا وحي بانتظاركما ها فاصدون . وهكذا بلغ بهم الخوف أن سخرُوا من موسى ورب موسى . وهكذا وصل بهم الاستهزاء إلى تلك الدرجة المروية . ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليهم فقد لالوا من قبل :

﴿لَرَأَيْنَا أَفْعَىٰ جَثْوَةً﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النمل)

ومن قبل ذلك أيضاً جدوا العجل . فماذا يقول موسى :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ

بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وكان هارون أخاً لموسى عليه السلام ومرسلاً مثله ، فكان موسى عليه السلام قد أعلن عدم ثقته في هؤلاء القوم الذين أرسله الله إليهم ، حق ولا يوشع بن تون ولا كالب ، وهما الرجلان اللذان قال لبي إسرائيل : إنه يكفى دخول الباب لتهمزوا هؤلاء الناس العماقة . لكن أكانت نفس أخيه مملوكة له ؟ أم أنه قال ما ضحواه : إنى لا أملك إلا نفسي وكذلك أخى لا يملك إلا نفسه ، أما بقية القوم فقد سمعت منهم يارب أنهم لن يدخلوا هذه الأرض مادام ها هؤلاء العماقة . إذن فاما وأخى في طرف وبقيّة القوم في طرف آخر ، لذلك انفصل بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين .

والحق سبحانه وتعالى في هذا التعبير القرآن يأتى بهذه الكلمات على لسان سيدنا

موسى والتي تحتل أن يرق لها قلب واحد من أتباع موسى عليه السلام فيقول لموسى :
إننى معك . ولذلك جاء قول موسى . « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » . ومعنى
الفاستق . كما عرفنا . هم من خرجوا عن الإيمان ، كما ففسق الرطبة ؛ فالبلحة
عندما ترطب فإن قشرتها تسع عن حجمها ؛ فتخرج الرطبة من قشرتها ؛ ويقال
فسقت الرطبة ؛ فكان الإيمان كالجلد والجلد كالقشرة . وهو كخلاف يبط
بالإنسان . وعندما يفسق الإنسان عن الإيمان فهو يخرج عن قانون الصيانة ، وكذلك
كان فسق بنى إسرائيل ؛ لذلك قال الحق .

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ
فِي الْأَرْضِ فَلَا قَاسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٦)

فهل كان التحريم منه أربعون عاماً ؟ أو أنه قال : « إنها محرمة عليهم » وانتهى
الأمر لأنهم تأهبوا على أن يدخلوها ؟ . ولذلك فكل الذين قالوا : « لن ندخلها أبداً
ماداموا فيها » لم يحش منهم أحد لدخول هذه الأرض . وبعد ذلك صدر الحكم
الآتى : « أربعين سنة يتيهون في الأرض » فهل هذا القول هو استئناف للقول السابق
فيكون ظرفاً لـ « محرمة » . أو هو حكم منفصل ؟ .

نصح هذه ، ونصح تلك . والته هو كما نقول : فلان تاه أى سار على غير
هدى ولا يعرف لنفسه مدخلاً ولا مخرجاً ، والواحد عندما يدخل في مجال متشعب
المسالك ومتعرج الطرق ، فهو لا يعرف كيفية الخروج منه ، هذا هو التيه . ولكن
كم فرسخاً هي مساحة التيه ؟ . حنّدها العلماء بستة فراسخ [والفرسخ قدر ثلاثة
أميال] . كيف يتيهون في تلك المساحة الضيقة من الأرض ؟

لقد أراد الله ذلك ؛ لأنهم ساءة بمشور ويرهقون فينامون ولحق عليهم الصباح
ليجدوا أنفسهم عند النقطة التي بدأوا منها ، وكانوا يضمنون العلامات لإيضاح
الطريق ، لكنهم كل صباح كانوا يجدون العلامات قد انتقلت من مكانها . وظلّوا

على هذا الوضع وفي هذا التيه إلى الأمد والوقت الذي حده الله وهو أربعون سنة يتيهون في الأرض . وسين يذهب الله عاصياً يحفظ له من القوت والرزق ما يبقى به حياته ولو كان كافراً؛ لأنه سبحانه هو الذي استدعاهم إلى الوجود، ولهذا لم يضمن عليهم في التيه بما لم يضمن به على الكافرين به سبحانه .

إذن حفظ الحياة أمر ضروري . وعندما يرتكب إنسان ما ذنباً كبيراً في حق المجتمع فإننا نضعه في السجن ، ولكننا نطعمه ونسقيه ، وعندما يرتقى المجتمع الإنسان ، فهو يوفر للسجين عيلاً يتناسب مع مواجه ويحبس عنه حرية الحركة في المجتمع ، والسجين المذنّب يظل في السجن ، ولكنه يأكل ويشرب وينام ويعمل ، فقط تختلف المسألة في النقطة المهمة في الحياة وهي أن يتحرك المتحرك وفق حرته ، فما بالنا بالحقن الأعظم عندما مسجنهم في التيه ؟ لقد أطعمهم الله وسقاهم وأنزل عليهم المن والسلوى .

وقد يقول قائل : إن الله قد أنزل عليهم المن والسلوى ليعيشوا كسالى وغرقى في التكبر والقصور . ونقول : لا . فذلك الإجراء الإلهي من ضمن حكمه البالغة أن يطيل عليهم الوقت . فلو أنه سبحانه وتعالى قد جعلهم يزدهون ويهرثون لانشغلوا بأمور الحياة اليومية ، لكن الحق أراد أن يطيل عليهم الإحساس بالزمن . فالمسألة ليست طعماً وشراباً . ولكن هناك كرامة فوق الطعام وفوق الشراب .

إننا نرى ذلك عندما نسمع عن اعتقالات لبعض الأفراد الذين أسلموا للمجتمع . وتسمح لهم السلطات بالطعام الذي يتيهم من منازلهم . ولكن هؤلاء المعتقلين يشعرون بالضيق من تقييد الحركة . إذن أراد الحق لهم عقاباً صارماً في فترة التيه . ولذلك نجد بعضهم يحسب المسألة والزمن في فترة التيه ، فيقول الواحد منهم ما ذكره الحق :

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ رَفِيقٍ ثُمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي ﴾

وبعد أن رحل موسى عن القوم عبدوا العجل الذي صنعه لهم موسى السامري ،
وعاد إليهم موسى وهاباً لعله هارون العتب القاسي ، وعاقبهم ريبهم على كفرهم أربعين سنة .
كأن كل يوم من عبادة العجل صار سنة من العتاب في التوبة . ولأنه ربّ ورحيم لم
يتركهم دون أن يحفظ لهم حياتهم بالقوت ، فكان القوت هو المَن والسُّلوى . هل
كان موسى عليه السلام معهم في التوبة أم لا ؟ وهل مات معهم في التوبة أم لا ؟ تلك
أمثلة لا تهمنا الإجابة عنها بالرغم من أن بعض العلماء قد شغلوا أنفسهم بها ، فذلك
أمر لا تنفع ولا تضر . المهم أن بني إسرائيل لم يدخلوا أريحا إلا على يد يوشع بن
نون بعد الأربعين سنة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَنِّي فَاكِرٌ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥٦) قَالَ
فَلَهَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾
(سورة المائدة)

ولنا أن نقرا هذا القول الحكيم كما يلي : « قال ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأني
فاكِر بين القوم الفاسقين . قال فلها محرمَةٌ عليهم » . وهذا الوقت يمثلنا
الفهم بأن الأرض المقدسة صارت محرمَةٌ عليهم إلى الأبد . وبعد ذلك يأتي أمر الله
بعاقبهم في التوبة أربعين سنة . « أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم
الفاسقين » . أما لو قرأنا هذا القول الحكيم كما يلي : « قال ربّ إني لا أملك
إلا نفسي وأني فاكِر بين القوم الفاسقين قال فلها محرمَةٌ عليهم أربعين سنة
يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن
مدة العقوبة هؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة في التوبة . ودخلوا بعدها مدينة
أريحا .

ويأمر الحق موسى ألا يحزن على هؤلاء القوم الفاسقين ، ذلك أن موسى عليه
السلام عندما دعا الله بقوله « فافرق بيننا » انتابه قدرٌ من الضيق من هذا الدعاء
وقال لنفسه : لماذا لم ادع لهم بالهداية بدلاً من أن أدهو بالفراق ؟ ، ولذلك قال له
الحق : « فلا تأس على القوم الفاسقين » أي فلا تحزن عليهم لأنهم أوفى بالعتاب
لفسفهم ومخالفاتهم

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۚ﴾

وساعة يتلو الإنسان - أي يقرأ - فهو يتكلم بترتيب ملؤه من صوره ذلك أن الإنسان عندما يرى أمراً أو حادثة فهو يرى المجموع مرة واحدة ، أو يرى كل صورة مكونة للحدث منفصلة عن غيرها . وعندما يتكلم الإنسان فهو يترتب الكلمات ، كلمة من بعد كلمة ، وحرفاً من بعد حرف ، إذن فالمتابعة والتلاوة أمر خاص بالكلام . « واتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق » والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر . ولكن النبأ هو الخبر اللافت للنظر . مثال ذلك قوله الحق :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ آسِيَا الْعَظِيمِ ۚ﴾

(سورة النبا)

إذن فكلمة « نبأ » هي الخبر المهم الشديد الذي له وقع وأثر عظيم .

« واتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق » وساعة نسمع قوله الحق : « بالحق » فلنعلم أن ذلك أمر نزل من الحق فلا تغيير فيه ولا تبديل . ولذلك قال سبحانه :

﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا ۖ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أي أن ما أنزل من عند الله لم يلتبس بغيره من الكلام ، وبالحق الجامع لكل أوامر الخير والنواهي من الشر نزل . وعندما يقول سبحانه : « واتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق » فسبحانه يحكي قصة قرآنية تحكي واقعة كونية . وما دام الله هو الذي يقص فهو سيأتيها على النموذج الكامل من الصديق والمائدة . ولذلك يسميه سبحانه « القصص الحق » :

﴿إِنْ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾

(من الآية ٦٢ سورة آل عمران)

وَيُسَمِّيه سبحانه :

﴿يَحْنُ نَفْسُ طَلِيكَ أَحْسَنَ أَنْصَصِ﴾

(من الآية ٣ سورة يوسف)

وسبحانه يقول : « واتن عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » ونعرف أن آدم هو أول الخلق البشري ، وأن ابني آدم هما هابيل وقابيل ، كما قال المفسرون . وقد قرب كل منهما قرباناً . ولقن ان هو ما يتعرب به لعبد إلى الله ، ود قربان « على وزن « فعلا » . فيقال : « كَفَرْتُ كُفْرَاناً » ود عَفَرْتُ عُفْرَاناً . وهي صيغة مبالغة في الخلد . وهل قَدِمَ الاثنان قرباناً واحداً ؛ أم أن كلا منهما قَدِمَ قرباناً خاصاً به ؟ مادام الحق قد قبل من واحد منهما ولم يتقبل من الآخر لمعنى ذلك أن كلا منهما قَدِمَ قرباناً منفصلاً عن الآخر ؛ لأن الله قبل قربان واحد منهما ولم يتقبل قربان الآخر .

وه القربان « مصدر . والمصادر في التثنية وفي الجمع وفي التذكير والتانيث لا يتشبه نطقها أو كتابتها فنحن نصف الرجل بقولنا : « رجل عدل » وكذلك « امرأة عدل » ود رجلان عدل « ود امرأتان عدل « ود رجال عدل « ود نساء عدل « إذن فالمصدر يستوي فيه المرد والمثني والجمع والمذكر والمؤنث . ونعلم أن آدم هو أول الخلق الأدمي ، وجاءت له حواء ؛ وذلك من أجل اكتمال زوجية التكاثر ، لأن التكاثر لا يأتي إلا من ذكر وأنثى :

﴿وَمِنْ كُلِّ نَوْءٍ حَفَقَا زَوْجَيْنِ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الباقيات)

فكل موجود أراد له الحق التكاثر فهو يحقق منه زوجين .

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِثُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ونرى ذلك حين نقوم بتلقيح النخلة من طلع ذكر السجل . وهناك بعض الكائنات لا نعرفها ذكراً وأنثى ، إما لأن الذكر غير موجود تحت أعيننا ، ولكن يوجد على بعد والرياح هي التي تحمل حبوب التلقيح :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾

(س الآية ٢٢ سورة الحجر)

لنأتى الريح بحبوب التلقيح من أى مكان لتخصب البساتين ، وإما أن الذكورة والأنوثة يوجدان معاً فى شيء واحد أو حمز واحد ، مثال ذلك عود الذرة : حيث نجد ذكوره وأنوثة فى شيء واحد ، فقمّة العود فيها الذكورة ويخرج من كل « كرز » ذرة قدراً من الحبوب الرفيعة التي سميها « الشوشة » . وهذه هي حبال الأنوثة . ويقل الهواء طلع الذكورة من مسلة الذرة إلى « الشوشة » ، وكل شعرة تأخذ من حبوب اللقاح كمايتها لتتضج الحبوب ، وعندما تلتصق أوراق كور الذرة ولا تسمح بخروج الحبوب الرفيعة لحبال الأنوثة ، ولا تصلها حبوب اللقاح ، فيخرج كور الذرة بلا تضج وبلا حبوب مرة . وعندما تحسك بكور الذرة ويفتحه قد نجد بعضاً من حيوه ميتة وهي تلك التي لم تصلها حبوب اللقاح ، لأنها لم تملك خيطاً من الحبال الرفيعة لالتقاط به حبوب اللقاح . وجبة الذرة التي لم يخرج لها خيط رفيع لالتقاط حبوب اللقاح لا تنضج إذن فكل شيء فيه الذكورة والأنوثة .

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

وكذلك قوله : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)

وكل ما يقال له شيء لا بد له من ذكر وأنثى ، حتى المطر لا بد أن يلقح فلور لم يتم تلقيح أنظر بالسرّات لما نزل المطر ، وحتى الحصى فيه ذرات موجبة وذرات سالبة . وعندما اخترعنا الكهرباء واكتشفنا الموجب والسالب ارتعنا . إذن فعندما يقول الحق :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(سورة الذاريات)

وقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٥)

(سورة يس)

وهذا أول علم للعرب ، فلم يكونوا من قبل القرآن أمة علم .

وقد أوصل القرآن كل العلم للحرب حتى فاقوا غيرهم ، عندما أدخلوا بأسباب
الله ، لكن عندما توسعوا وواصل غيرهم الأخذ بالأسباب تقدمت الاكتشافات ،
وهذه الاكتشافات تجدنا مطمورة في القرآن :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٥)

(سورة يس)

إذن فكل ما يحدث ويكتشف من شيء فيه موجب وسالب أي ذكورا
وأنوثة ، يدخل في نطاق

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

والإنسان سيد الوجود لا يد له من روجين ذكر وأنثى وذلك للتكاثر لا للإيجاد ،
أما الإيجاد فهو لله سبحانه وتعالى الذي أوجد كل شيء من لا شيء . وعندما جاء آدم
وحواء وبدأ اللقاح والتكاثر أخذ عدد سكان الأرض في النمو . ولو أننا رجعنا
بالإنسان في العالم كنه رحمة متأخرة نجد العدد يقل إلى أن يصل إلى آدم وحواء .
مثال ذلك لو عدنا إلى الوراء مائة عام لوجدنا تعداد مصر لا يتجاوز خمسة ملايين
نسمة هل الأكثر ، ولو عدنا إلى الوراء قرونًا أكثر فإن التعداد يقل ، إلى أن نصل إلى
المخلوق الأول الذي خلقه الله وهو آدم وخلق له حواء . فالإنسان مفردة لا يأتي
مسل .

إذن عندما نجرى عملية الإحصاء للإنسان في العالم ويرجع بها إلى الوراء ، نعود

إلى الخلق الأول وكذلك كل شيء متكاثر سواء أكان حيواناً أم نباتاً . وعندما نسير بالإحصاء إلى الأمام فإننا نسجد الأعداد تتزايد ، وتكون الفقرة كبيرة . وعندما يبلغنا الحق أنه خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منها رجالاً كثيراً وساء ، فإن علم الإحصاء إنما يؤكد ذلك . والتكاثر إنما يأتي بالتزاوج . والتزاوج جاء من آدم وحواء . وأراد الحق أن يورق آدم بتوالم ليتزوج كل توأم بالتوأم المخالف له في النوع من الحمل المختلف . أي يتزوج الذكر من الأنثى التي لم تولد معه في بطن واحدة .

وجاء ربنا لنا بهذه القصة كي يبين لنا أصل التكاثر بياناً رمزياً . أشرح سبحانه : أن التباعد الزوجي كان موجوداً ، ولكنه التباعد الإضافي ، صحيح سيكون هذا الولد أنثى للبنت هذه ، وهذه البنت أخته ؛ لكن حين تكون مولودة مع هذا ، وتأتي بعن ثاني فيها ذكر وأنثى ، فسبكون فيها بُعد إضافي ، فتتزوج البنت لهذا البطن بالذكر في البطن الثاني . والذكر للبطن الثاني للبنت في البطن الآخر ، وهذا هو البعد الإضافي الذي كان متاحاً في ذلك الوقت ، لأن العالم كان لا يزال في بداية طفولته الواهية

ونلاحظ مثل هذا الأمر في الريف ، حين يقول فلاح لآخر : « الذرة بتاعتك خايب » ، يقول الفلاح الثاني . إلى أحد من الأرض التي أخذت منها الذرة وأعطيتها تقاوى منها ، فأننا قد زرعنا مدافاً من ذرة ، وأحجر كيلتين أو ثلاثاً استخدمنا تقاوى لأزرحها ، فخرجت الذرة ضعيفة ، فيقول الفلاح الناضج : يا شيخ هات من ذرة جارك . فيكون ذرة جاري فيه شيء من البعد . وبعد ذلك تصير البوابة واحدة ، فيقول الفلاح الناضج : هات من بلد أخرى . وبعد ذلك من بلد ثالثة ، ولندرك فالتهمجين والتكاثر كيف نشأ ؟ من أين تأتي بالتقاوى ؟ كلها جنبنا بها من الخارج يكون النتائج قوياً .

كذلك التزاوج ليكون في هذه الزوجية مواهب ، ولذلك فطن العرب قديماً لها ، ومن العجيب أن هذا العرب البدوي الذي لم يشغل بطلاقة ولم تعرف له تعلماً ولا علماً ، يبتدى إلى مثل هذه الحقيقة اهتماماً يجعلها قضية عامة فطرية . ويريد أن يمدح رجلاً بالفتوة ، فيقول عنه :

ففي لم تله بثّ هم فيضوى وقد يصري سليل الاقارب

كيف انتهى هذا الشاعر طله ١٢ وبعد ذلك يقول:

لما وُزئت بنت العم وهي حبيبة إلى
خافة أن يضوى على سليلها
أي هو بجها ، لكنه تجاوزها ، حتى لا يضوى سليلها .

ولذلك يقول الشاعر في هذه النضية :

أتصح من كان يمد لهم
تزويج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى ومقم

الشاعر العربي الذي ليس في أمة مثقفة ولا تعرف التهجين ولا تعرف هذه الأشياء ، انتبه إلى هذه المسألة ، كيف ؟ إما أن يكون قد انتهى إليها في واقع الكون فوجد أن زواج القرينات يُضوّي نسلاً ضميماً ، وإما أن يكون ذلك من رواسب الديانات السابقة القديمة والعنات الأولى التي ظل الإنسان يحتفظ بها ، فإذا أراد الله أن يبدأ تكاثر قلابه أن يتزوج أخ بـأخته ، ولكن سبحانه يريد أن يتباعد ، نعم أخ وأخت لكن يتباعد فتأخذ البطن المختطف ، ولذلك حينما جاءوا لينسبوا قصة ابني آدم قابيل وهابيل ، صحيح اختلفوا . مثلاً : « سقر التكوين » تكلم ، ونحن تأخذ من « سمر التكوين » لأن التفسير فيه لا يهمهم . فقد كان التفسير في المسائل التي همهم ، كمسألة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما المسائل الأخرى لا تهم ، ومع ذلك ففيها أيضاً الكثير .

إنهم يقولون : إن هابيل هو أول قتل في الإنسانية وقتله « قابيل » وبعض القصص تقول : لم يكن يعرف كيف يميت أو يقتله ، فالشيطان مثل له بأنه جاء بطير ووضع رأسه على حجر ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسه حتى قتله ، فعلمه كيف يقتل ، مثلاً سبأى الغراب وبعلمه كيف يدفن ، أما مسألة كيف يقتل هذه لم تأت حينها ، إنما كيف يدفن فقد جاءت حينها .

﴿ فَجَعَلَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوَةَ أَخِيهِ ﴾

فهذه هي أول من نوى وقتل ، لكن كيف تقولون : إنه لم يكن يعرف القتل حتى جاءه الشيطان وعلمه كيف يقتل أخاه ؟ نقول : أنتم لم تتبهوا ، فالحق قال :

﴿لَيْنَ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِنَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ
لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨)

قبايل - إذن - فاهم المقتل ، فلا تقل إنه تعلم القتل ، صحيح مسألة الدين هذه جديدة ، والقصة جاءت لتثبت لنا كيف بدأ التكاثر ، ليجمع الله فيه بين الزوجين البعد الإضافي ، لأن البعد غير الإضافي غير ممكن في هذا الوقت فتكون هذه بالنسبة لهذا أجنبية ، وهذا بالنسبة لهذه أجنبي إلى أن يتوسع الأمر ، وبعد ذلك يُعاد التشريع بأن الأخت من أي بطن محرمة على أخيها محرماً أبليها ، وبعد ذلك تتوسع في الأمر وتنقل إلى المحرمات الأخريات من النسب والرضاع فلا بد أن هذه القصة أصلاً هم قالوا تقرب قريباً . . . لماذا ؟ وإذ قريباً قريباً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ،

لماذا يريدان أن يُقرباً قريباً ؟ قالوا: إن أخت قبايل التي كانت في بطن معه كانت حلوة وجميلة ، وأخت هابيل لم تكن جميلة ، فطبقاً لقواعد التباعد في الزوجية كان على هابيل أن يأخذ أخت قبايل ، وقبايل يأخذ أخت هابيل ، فحسد قبايل أخاه وقال : كيف يأخذ الحلوة ، أنا أولى بأختي هذه . وكان سيدنا آدم مازال قريب العهد بالرحى ، فقل : قاربوا قريباً وانظرو . لأنه يعلم جيداً أن القربان سيكون في صف التباعد . إذ قريباً قريباً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . وبعض المفسرين يقول : والله نحن لم نعرف طريقة التقبّل هذه . نقول له : فلتنبهت عن «قربان» في القرآن . فنظروا ما هو القربان ؟ قد وردت هذه الكلمة في القرآن في أكثر من موضع . قال :

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ بِرُسُلِهِ حَتَّى يَأْتِيَ بَرْكَانَ تَاكُلُهُ النَّارُ﴾

(من الآية ١٨٢ سورة الأحقاف)

والحق يقول لهم ردوا عليهم :

﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِى بِآيَاتٍ وَبِأَلَدَى قَلْتُمْ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

« وبألدى قلتم ، ما هو ؟ إنه القربان الذى تأكله النار . إذى كان القربان معروفاً والاحتكام إلى قربان وتأكله النار علامة التقبل من السماء ويكون صاحبه هو القرب ، والقربان فى مسألة هابيل وقابيل لكى يعرف كل منهما من يتزوج الحلو ومن يتزوج الآخرى ، وتقبل الله قربان هابيل . لكن أرغى المهزوم ؟ لا ، بل حسده ، وهذا أول تاب على مرادات الحق فى تكليمه . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقالت لنا القصص : إن هابيل كان صاحب ضرع أى ماشية وبذلك يكون عنده ريد ولبن وجبن ، وحيوانات للحوم ، والثانى صاحب زرع ، وقالوا : إن قابيل قدّم شزار زوجه ، وهابيل قدّم حيار ماشيته . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . « قال لاقتلتك » وسبحانه قال . « أحدهما » ولم يقل قابيل أو هابيل ، « إذى قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . فقلوه : « قال لاقتلتك » من الذى قال ؟ الذى قال هو من لم يتقبل قربانه ، لأنه لم يحقق مراده وعرضه

« قال لاقتلتك قال إنما يتقبل الله من المتقين » . وهل هذا الرد مُنْعَب لقوله : « لاقتلتك » ؟ نعم ؛ لأن « لاقتلتك » سبب أن قربانك قبل وقربانك لم يقبل . قاله فما دخل أنا هذه العملية ؟ ادخل فى العملية للقابيل للقربان ، فأننا ليس لى دخل فيها ، وربنا لم يتقبل لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين . وهو يعلم أنك لست بمتيقن ؛ فلن يتقبل منك لأنك تأييت عن حكاية الزواج بآية البطى المخالف ، وهذا أول تمرد على منهج الله وعلى أمره لذلك قال هابيل : لا تلمنى فأننا لا دخل لى فى القربان المتقبل ؛ لأن هذا من عند الله . والله لم يظلمك ؛ لأن ربنا يتقبل من المتقين . وأنت لست بمتيقن ؛ لأنك لم ترخص بالحقم الأول فى أن تبعد البطون « إنما يتقبل الله من المتقين » .

﴿ لَهَا يَسْطَتِ إِلَى يَدِكَ يَتَّقُلَى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَى إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

الْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾﴾

(سورة التين)

وكلمة « البسط » ضد « القبض » ، وهناك : « بسط له » ، « بسط إليه » .

ونحمد « بسط له » كأن البسط لصالح المبسوط له .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

ولم يقل : « إلى عباده » بل قال . « لعباده » ، إذن فاليسط لصالح المبسوط له ولذلك لا يكون يلى إلا فى الشر ، وشرحا من قبل هذه المسألة فى قوله الحق :

﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكَ أَيْبِهِمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

إذن فالذى يسط لك يعطيك نفعا والذى يسط إليك يكون النفع له هو .

« لكن يسط إلى يدك لتقتلى ما أنا بيسط يدي إليك لأقتلك » . ويبت
« لتقتلى » مدلول « إلى » . والملة لا حيز من مقابلة قوتك بقوة ، لا ، وإنما لأننى
أخلف الله ، وليس فى هذا تقصير فى الدماغ عن نفسى لأننى أريد أن أحنئك تحنينا
يرجعك إلى ضوايك . وساعة يأتى واحد يريد أن يقتل واحدا يقول له . والله لى
أقتلك لأننى أخلف ربنا .

إذن فحين له أن يخوفه من الله مسألة مستفجرة فى الذهن حتى ولو كانت ضد استبقاء
الحياة ، وقد يعمرها فى نفسه لأن أخاه كان يستطيع أن يقدم دفاعا قويا ، لقد رد الأمر
إلى الحق الأعلى . فلا تفل كان هابل سلبيا لا إنه صعد الأمر إلى الأقوى .
ويقول الحق :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ آبَائِي وَإِيَّاكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ

النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾

« لا تبوء » أى ترجع من صفة قتل بأن تحمل إثم تلك القطة وتقال عقوبتها .

وه «إثمك» وكذلك الإثم الذي كان من أجله أنك أردت أن تقتلى ؛ لأنك تأييت على المسيح ، حين لم يتقبل ربنا قربانك . فقد أنمت في عدم قبولك التباعد المطلوب في الزوجية . إذن فأت عنك إثمان : الإثم الأول : وهو رفضك وعدم قبولك حكم الله ومنهجه وهو الذي من أجله لم يقبل الله قربانك ، والإثم الثاني : هو قتل وأنا لا أدخل لي في هذه المسألة ؛ لأن الظالم لا بد أن يأخذ جراه .

إن هابيل يقول : «إني أريد أن نبوء بإثمي وإثمك» لم يمتن أن يكون أخوه عاصياً . بل قال : إن كان يعصى بهذه نبوءة بإثمي ويأخذ جراه ؛ فيكون قد غنى وأراد له أن يعود إلى العقاب ربنا إن فعل وهو لا يريد أن يفعل .

«إني أريد أن نبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين» وجزاء الظالمين تربية عاجلة للترغيب أمام شعارات الظلم من الظالمين ؛ لأن الحق لو تركها للأخرة لاستشري الظلم ، والذي لا يؤمن بالأخرة يصبح مهترعاً للظلم ، ولذلك قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى ضرب لنا ذلك المثل في سورة «الكهف» حينما ذكر لنا قصة ذي القرنين : الذي آتاه الله من كل شيء سبباً فاتبع سبباً ، وبعد ذلك بين لنا مهمة من أوق الأسباب واتبع الأسباب ، وجعل قصته في الأرض لعبارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع . ماذا قال :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ۖ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الكهف)

هذا في رأي العين ، فعين تكون راكباً البحر . ترى الشمس تغرب في الماء ، هي لا تغرب في الماء ؛ لأن الماء هو نهاية امتداد أفقك .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ۖ وَوَجَدَهَا قَوْمًا ۚ ﴾

قَدْ نَا يَلْذَا الْقَرْيَتَيْنِ ۖ إِنَّمَا أَنْ تُغْلِبَ وَإِنَّمَا أَنْ تُخْذَ فِيهِمْ حُسًّا ۝ ٨٧ ﴿

(سورة الكهف)

إذن فقد خبره : إما أن تعمل هذا وإما أن تعمل ذاك .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ذلك هو القانون الذي يجب أن يسير في المجتمع حتى لا أترك لمن لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة أن يستشري في الظلم . فليأخذ عقابه في الدنيا .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

أي قبل الآخرة لهم عذاب ولولئك حين يرى المصير مصراع الظلم ، أو ترى الحقيقة التي حدثت له فهم يأخضون من ذلك العظة ، وجئنا نحن عاصم ظالمين كثيرين نكل بعضهم ببعض ، ولو مكى المظلومون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض ، ولراد الحق أن يجري عذابهم أمامنا لتتضح المسألة .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ولا ينتهي أمره بذلك ، وبعد ذلك يُرد إلى ٩ سورة الله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

يعني عذاب الدنيا، إن عذابها سيكون محتملا لأنه عذاب سوط بقدره العاجزين ، إنما العذاب في الآخرة فهو بقوة القدر الأعلى .

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَمَسْقَرٌ لَهُ مِنْ ءَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

(سورة الكهف)

تلك هي مهمة الله القوى المتين . إن الذي يظلم بضربه على يده ، والذي يحسن عمله يعطيه الحوائز .

والحق يقول هنا في الآية التي نحن بصدد شرحها عنها :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ مَا أَصْبَحَ

مِنَ الْخَيْرِ ﴾

ولا يقال : طوعت اشيء إلا إذا كان الشيء متائيا على المعص ، فلا تقل : أنا طوعت الماء ، إنما نقول ، طوعت الحديد ، ونحوه . « فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ » فهل نفسه هي التي ستقتل وهي نفس التي طوعت ؟

ولست به هنا أن الإنسان فيه ملكتان اثنتان : ملكة فطرية تُحِبُّ الحق وتُحِبُّ الخير ، وملكَة أمورية عاصية للهوى ، فالملكتان تتصارعان .

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ » كأن النفس الشريرة الأهوائية تغلبت على الخيرة ، فكان هناك تمهيدا وتصارعا وتنافعا ، لأن الإنسان لا يحب الظلم إن وقع عليه . لكن ساعة يتصور أنه هو الذي يظلم غيره فقد يقبل على ذلك .

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ » إنه لا يزال فيه بقية من آثار النبوة ؛ لأنه قريب من آدم ، ولا تزال المسألة تتأرجح معه ، والشر من الأخيار ينجس ، والشرق الأشرار يصعد . لقد تأثر لرجل طيب وتغير أعصابه فيقول : إن رأيته لأصربه رصاصا أو أصدعه سمعتين ، أو أؤبسه ، والشرير يقول : والله إن قابلك أبصق في وجهه ، أو أصربه سمعتين ، أو أصربه رصاصا . إذن فالشر عند الشرير يتصاعد ، وبعد العملية لا تكفى للمغضب عنده فيصعدها . إنما نفس الخير تُنْقِصُ من غضبها وبعد ذلك ينزل عنها بكلمة ، ولذلك فلاحظ في سورة مائدة « يوسف » :

﴿ إِذْ نَالُوا الْيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ أُمَيَّةً مِنَ الْأُخَيَّةِ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

والمعجب أنهم جاءوا بالتعليل الذي ضدهم ، كي يعرفك أن الهوى والغضب والحسد والحقد تغلب الموزين ، « ونحن عُصبة » هذه تدل على أنهم أقوياء . وهي التي جعلت أباه يعقوب يعطف على الصغير . أنتم تقولون : « ليوسف وأخوه أحب

إلى أبينا ما ، نعم ؛ لأنه صغير ، وسألوا العبري . مالت نُحْب الولد الصغير ، قال :
لأن أباهم أخصر الأيهم معي ، الكرم مكث معي طويلاً ، فلما أعرض للصغير الأيام التي
فاته بعض الحب وأعطيه بعض الحنان ، قولهم . « نحن عُصبة » هذه ضدهم ، بما
يبدل على أن الرجل ساعة تختلط عليه موازين القيم ، يأتي بالحجة التي ضده ويظن
أنها معاً وبعد ذلك يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَنِي سَلِيلٌ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

وانفقوا . فبدأوا بقطم :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

وقالوا :

﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

ولأنهم أسباط وأولاد يعقوب تنازوا عن القتل والطرح في الأرض وقال قائل
منهم :

﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي حَيِّتٍ أَلْحَبٍ يَلْتَغِيَهُ بِعُضُ السَّيِّئَةِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يوسف)

وهل يرتب أحد النجاة لمن يكرهه ؟

كان النفس مازل فيها خير ، فأولا لئلا : « اقتلوا يوسف » هذه شدة الغضب . أو
« اطرحوه أرضاً » يطرحوه أرضاً فقد يأكله حيوان مصرس ، فقال واحد : نلقه في
غياية الحب ويلتقطه بعض السيارة ، إذن فالأحيار تتنازل .

« بطوحت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » . ونعرف الخسران في
قضية التجارة ؛ لأن هناك مكسباً وهناك خسارة ، ومع مكسب ، أي جاء رأس المال

بزيادة عليه ، وه الخسارة ، أى أن رأس المال قد قُل ، فلماذا قتل أخاه وكان أخوه الوحيد وكان يأتس به في الدنيا ؟ إن هذا حدث من حكمة البعث . فقد أراد أن يأخذ أخاه الخلو ويترك الأخرى ، ولما قُذما القريان ولم يقبل منه تصاعد الخلاف وقتل أخاه ، إذن فَقَدَ رأس المال ، بينما كان يريد أن يكسب « فأصبح من الخاسرين » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ
كَيْفَ يُورَى سَوَاءٌ أَيْغِيهِ قَالَ يَتَوَلَّى أَعْمَجِرْتُ
أَن أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوَاءٌ أَخِي
فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

ونعرف السوءة وهي ما تنكره النفس . وهي من « ساء ، يسوء ، سوء » أى يتكره ، وسينا « الغورة » سوءة ، لأنها تنكره .

« بعث الله غراباً يبحث في الأرض » . من بعث الله حتى يرى قايلاً كيف يورى سوءة هابيل ، أم أن الغراب هو الذى سبقول له ؟ كلا الأمرين متساو ، لأن ربنا هو الذى بعث ، فإن كنت تنتظر للوسيلة القريبة فيكون الغراب ، وإن كنت تنتظر للوسيلة الباعث يكون هو الله ، فالمسألة كلها واحدة لله ، وأنت حين تنسب الأسباب تجدها كلها من الله .

« قل يا ويلتى » . ساعة تسمح كلمة « يا ويلتى » يكون ما معنيان في الاستعمال : المعنى الأول للويل : هو الهلاك ، وإن أردنا المبالغة في الهلاك نأى بناء التثنية ونقول : ويلة ، ولذلك عندما نحب أن نبالغ في وصف عالم نقول : ملان عالم وفلان عالم وفلان غلامه ، وتأتى التاء هنا لتؤكد المعنى ، إذن فالويل : الهلاك ، و« ويلة » تعنى أيضا الهلاك ، وماذا تعنى « يا ويلتى » ؟

إننا نعرف أن النداء يكون بـ « يا » فكيف ننادي الويل والهلاك ؟ وهل ننادي غير العاقل ؟ نعم ، ننادي ؛ لأنه مادام « الويل » و« الويلة » . الهلاك . كأنك تقول : أنا لم أعد أطيق ما أنا فيه من الهم والغم ، ولا يُخلصني فيه إلا الهلاك ، يا هلاكى تعال فهدأ وقتك ! إذن فقوله « يا ويلتى » يعنى يا هلاكى تعال ، والمسى فطن لهذه المسألة وقال .

كمى بث داء أن ترى الموت شهيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فأى داء هذا الذى تقول فيه يارب أرحمى بالموت !! إذن فابدى براه من يتنادى الهلاك هو أكثر من الموت . المعنى الأول : أنك تنادى الهلاك أن يحصر ، ولذلك يقول الحق

﴿ وَرَضِعَ الْكُتُبُ قَتَرَى الْمَجْرِبِينَ مُتَفِئِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا
الَّذِينَ لَا يَمْدُرُ صَعِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا أَتَحَنَّنَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

إنهم يتمنون الموت ، وكذلك قال قابيل . « يا ويلتى »

وهل تأتيه الويلة عندما يظننها ؟ لا ، فقد انتهت المسألة وصار قاتلاً لأخيه .

والمعنى الثانى : أن تلقى « يلويلتنا » بمعنى التعجب من أمر لا تعطيه الأسباب ، وهناك فرق بين عطاء الأسباب وبين عطاء المسبب . فلو ظل عطاء الأسباب هو التحكم فى نواميس الكون ، لكان معنى هذا أن الحق سبحانه قد راول سلطانه فى ملكه مرة واحدة ، وكأنه خلق الأسباب والنواميس وتركها تتحكم ونقول لا فطلاقة القدرة خلقت الأسباب ، وهى تأنى لتثبيت ذاتية القدرة وقبوميتها ، فبقول الحق حينما يشاء : قوهى يا أسباب .

إذن فهناك أسباب وهناك مسبب . والأمر المعجيب لا تعطيه الأسباب . وحين لا يعطى السبب يتعجب الإنسان ، ولذلك يرد الأمر إلى الأصل الذى لا يتعجب منه . وما هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما جاءه الضيوف وقدم لهم الطعام

ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ونفر منهم ولم يأنس إليهم وأوجس منهم جيفة
ويقول الحق عن هذا الموقف :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ جِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ طَيِّبٍ ۖ فَذَنَّبَتْ امْرَأَتُهُ فِي
صُرَّةٍ مَضْبُوتٍ وَجْهَهَا وَقَالَتْ بِجُرْزٍ خَفِيمٍ ۖ ﴾

(سورة الدانيات)

وقال الحق أيضاً في هذا الموقف :

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَاتِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۖ ﴾

(سورة هود)

وهنا قالت امرأة سيدنا إبراهيم :

﴿ يٰٓيُتُومَتَيْنِ ۖ إِيذٌ وَإِنَّا بِجُورٍ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة هود)

أي أن الأسباب لا تعطى ، وزدت إلى السبب . (أتعجبين من أمر الله ؟) كان
لك أن تتعجبين من الأسباب لأنها تعطل ، أما حين تصل الأسباب إلى الله ،
فلا عجب .

وقال سيدنا زكريا عليه السلام مثل قولها : فحين رأى السيدة مريم وهو الذي
كملها ، وكان يحيى لها بمظهرات مقرونت بحياتها ، وفوحى أن عندها رزقا من
طعام وفاكهة . فسألها :

﴿ يٰٓمَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

كيف يقول ما ذلك ؟ لا بد أنه رأى شيئا عندها لم يأت هو به ، وهنا ردت عليه
لتبينه بالحقيقة الخالدة

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة آل عمران)

ويشأه الحق أن تقولها سيدتنا مريم وهي صغيرة السن ، وكأنها تقول ذلك كتهديد ؛ لأنها - كما قلنا سابقا - ستعرض مسألة لا يمكن أن يحلها إلا المسبب ، وسوف تلك بدون رجولة ، وهي مسألة عجيبة ، لذلك كان لا بد أن نعلم هي رأت تنطق

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

وكان الحق يستنها صمداً بأن عليها أن تتذكر أنها هي التي قالت هذه الكلمة ؛ لأن المستقبل سوف يأمر لك بأحداث تحتاج إلى تذكر هذا القول وهي التي تذكّر سيدنا زكريا عليه السلام بهذه الحقيقة . ولتردقة إشارة القرآن إلى الموقع الذي ذكرت له مريم فيه تلك الحقيقة

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

كان ساعة سمع هذه المسألة قرر أن يدعو الله بأسمائه في المحراب نفسه وهل كان سيدنا زكريا لا يعرف تلك الحقيقة ؟ كان يعرف ، ولكن هناك فرق بين حكم يكون في حاشية الشعور ، وبين حكم يكون في بؤرة الشعور

وقول مريم لزكريا : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » جعل القصة تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

لماذا لم يدع ربه من البداية ؟ كان سيدنا زكريا سائراً مع الأسباب ورقابة الأسباب قد تذهل وتشتغل عن المسبب ، وعندما سمع من مريم : « يرزق من يشاء بغير حساب » أراد أن يدخل من هذا الباب ، فدع ربه ، وبشره الحق بأنه سيأتي له بولادة ، وتعجب زكريا مرة أخرى من هذا الأمر شامحاً حالته :

﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَائِرٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة آل عمران)

ومادمت يا زكريا قد دعوت الله أن يهبك الذرية وقصرت قصبه ورق الله لحى يشاء
من حاشية شعورك إلى بؤرة شعورك . فقد جاء أمر الله :

﴿ كَلَّا نِكَ قَالَ رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

إذن فلا بحث في الأسباب والمسببات فهي إرادة الله ويوضح الحق حيثيات
« إن الله يورق من يشاء بغير حساب » ويأتيك بالولد ، يقول سبحانه :

﴿ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

وكل هذه مقدمات من مريم ومن سيدنا زكريا الكفيل لها ؛ ذلك أن سيدنا زكريا
سوف يكون عنصراً شاهداً عندما يأتيها الولد من غير أب وتلد ، وهو كفيل لها ،
وهو الذي سيتعرض لهذا الأمر .

ولماذا كل هذا التحديد ؟ لأن حرق الأسباب وحرق لبراميس وحرق الشئس إنما
حدثت في أمور أخرى غير العرص ، لكن عند مريم سيكون ذلك في العرص وهو
أقدس شيء بالنسبة للمرأة ، لذلك لابد من كل هذه التحديدات . إذن ، هو أمر
عجيب لكنه ليس بعجيب على الله .

وها هوذا قابيل يقول : « يا ويلقى أحجرت أن أكون مثل هذا العراب » كأن
عملية العراب أظهرت لقابيل أنه لم يعرف شيئاً يفعلته الطائر الذي أمامه ، فهذا هو
دى مسألة يفعلها غراب ولا تفعلها أنت يا قابيل ، لقد امتلكت قدرة لتقتل بها
أخاك ، لكنك عاجز أن تعمل مثل هذا الغراب . فقابيل لا يقول - إذن - لا بعد أن
مرّ بمعنى نفسه شديداً قاسٍ على وجدانه .

لقد قتل على أخيه وقتله وهو لم يعرف كيف يراريه ، بينما عرف الغراب كيف
يواري جثة غراب آخر وهكذا أصبح قابيل من النادمين « فأصبح من النادمين » .

إن علينا أن ننته إلى العارفين بين « ندم » و « نقم » وعمل سبيل المثال : هؤلاء
إنسان قد جرؤ على حدود الله وشرب الخمر بالنفود التي كان عليه أن يشتري بها طعام

الأسرة . وعدمى عاد إلى مربه ووجد أهله في انتظار الطعام . ندم لأنه شرب الخمر ، لهل كان ندم لرجل عن أنه عصى الله ، أو ندم لأنه لم يشتري الطعام لأهله ؟ لقد ندم عن عدم شراء الطعام وحدث ندم مرفوض ، ليس من التوبة .

وقد يكون هذا الشراب لبحمر قد ارتدى فخر ثوبه وخرج بشرب الخمر ووقع على الأرض ، وهذا ندم لأن شرب الخمر أو صله إلى هذا الخل ، فهو ندم لأنه عصى ربه ؟ . أو ندم لأنه صار مُرَّة بين الناس ؟ وكذلك كان ندم قبيل ، لقد ندم على حيله لأنه لم يعرف ما عرفه العراب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

نجد الحق قال : به قد كتب على بني إسرائيل ما جاء بهذه الآية من قانون واضح ؛ لأن معنى كلمة « من أجل » هو « بسبب » ؛ و « أهل » من أهل ثرا عليهم يأخذه ، أى حتى جناية ؛ أى من جريرة ذلك .

أو من هذه الجناية شرعاً هذا الشرع « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا مسامحة تسمع « من أجل » « يعرف أنها تعنى « بسبب ذلك » أو « بجريرة ذلك » أو « هذه الجناية كان ذلك » .

ولكن هل هذا الكتب خاص بني إسرائيل ؟ نعم اعلماء قال: إن بني آدم ليس ابني آدم مباشرة ؛ ولكنها من ذرية آدم وهما من بني إسرائيل ونور : من هو إسرائيل أولاً الذي نسب إليه أبناء إسرائيل ؟ إنه يعنوب بن إسحاق ؛ بن إبراهيم ، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أباً ويصل نوح إلى شيث ، وبعد ذلك إلى آدم ؛ فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل ؟

طبعاً لا ؛ وما دام الحق أوضح أنه سبحانه قد بعث نوحاً في الأرض ليريه كيف يورث سؤة أخيه ، فهذا دليل على أن هابيل هو أول إنسان تم دفنه ، ومن غير المقبول - إذن - أن نقول إن الإنسان لم يعرف كيف يورث جنائز الميت إلى أن وصلت البشرية إلى زمن بني إسرائيل ، وأنهم هم الذين علموا البشرية ذلك !

ولماذا جاء الحق هنا ببني إسرائيل ؟ سبب ذلك أن بني إسرائيل احتاروا لا على قتل النفس فقط بل احتاروا على قتل النفس الهادية ، وهي النفس التي تحمل رسالة النبوة ، ولذلك كان التخصص ، فقد قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقي ؛ لأن الأنبياء يأتون كمراجع تطبيقية للمصالح حتى يلمتوا الناس إلى حقيقة تطبيق منهج الله . الأنبياء - إذن - لا يأتون بشرع جديد ، ولكنهم يسبغون على شرع من قبلهم . فلماذا قتل بنو إسرائيل بعضاً من الأنبياء ؟ لقد تولدت لدى بني إسرائيل حقيقة ضد هؤلاء الأنبياء .

ونعلم أن الإنسان الخير حين يصح الخير ويراه الشرير الذي لا يقدر على صناعة الخير فتولد في نفس الشرير حفيظة وحقد وعصب على فاعل الخير ، ففاعل الخير كلما فعل خيراً إنما يلدغ الشرير ، ولذلك يحاول الشرير أن يربح فاعل الخير من أمامه وكان الأنبياء هم القدوة السلوكية . وقد قال الحق عن بني إسرائيل :

﴿ قَلِمَ تَقْنُونَ أَنْبَاءَ الَّذِينَ قَتَلُوا ﴾

(من الآية ٩١ سورة البقرة)

وجاء الحق هنا به من قبل هذه الحكمة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عداوة مع اليهود ، وقد نهت عليهم الخواطر الشريرة فيحاولون قتل النبي

وقد حاولوا ذلك . مثلاً أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ، ودسوا له السم ، ولذلك قال الله : « من قبل ، أى إن قدرتكم على قتل الأنبياء كانت في الماضي ، أما مع محمد المصطفى فلن تمكّنوا منه »

ويقول سبحانه : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » وهذا توصيح لإرادة الحق في تأسيس الوحدة الإيمانية ليحعل من المجتمع الإيماني ربطة بوصفها قول رسول الله فيما رواه أبو موسى الأشعري عنه :

(المؤمن للمؤمن كإنيان يشد بعضه بعضاً)

وبيك أن ننظر إلى مجزئىء على غيرك ، بالباطل ، وتقف مكتوف اليدين ؛ لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد . إذا اشكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالنهر والحصى . فإن قتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيماني موقف العاجز . فهذا إفساد في الأرض ، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفساً واحدة . بل كأنه قتل للناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد في الأرض .

ويكمل الحق سبحانه الشئ الثاني من تلك القضية الإيمانية . « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ، وهذه هي الوحدة الإيمانية ، فمن يعتدى على نفس واحدة بريئة ، كمن يعتدى على كس الناس ، والذي يسهف إنساناً في مهلكة كأنه أهد الناس جميعاً

وفي التوقيع التكليفي يكون لتطبيق العمل لتلك القاعدة ، والذي يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويحديه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإن نظرنا إليها من ناحية الجراء فالجزاء واحد .

« ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيماني مجزئاً بباطل على حق إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف

المعتدى عليه بمفرده ، لأن الذي يُجرىء أصحاب الشر هو أن يقول بعض الناس كلمة « أنا مالي »

وإذا أُلما مالية ، هي التي تُجرىء أصحاب الشرور ، ولذلك أقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود والثور الأحمر والثور الأبيض ، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمح له بأكل الثور الأبيض واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر ، وجاء الدور على ثور الأسود ، فكان للأسد :

« كُنتُ يوم أكل لثور الأبيض . كان الثور الصمت إلى أن « أنا ماليته » جعلته بها مصرعه لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه .

وما هوذا الحديث النبوي الشريف الذي يمثل القائم على حدود الله ولواقع فيها :

عن ابن عباس بن بشر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة قصاد بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استنقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » (١)

كذلك مثل القائم على حدود الله ومثل الواقع فيها ، فكان الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظروا إلى أن نفساً قتلت نفساً بعير حق ، ولكن انظروا إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ؛ لأن الناس جميعاً متساوون في حق الحياة . ومادام القاتل قد اجتراً على واحد فمن الممكن أن يجترأ على الباقين .

أو أن يكون فعله أضواء لغيره ، ومادام قد استن مثل هذه السنة ، ستجد كل من ينسب من آخر يقتله ، وتصل السلسلة من الفتلة والقتل تتوالى .

(١) رواه البخاري في الفكرة والشهادات ، ورواه الترمذي في الفص ، ورواه أحمد في مسنده

والحديث النبوي يقول :

« من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء » .

إله الاحتياط والدقة والفيد : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض ، ولو كان التشريع تشريعاً بشرياً فمرت عليه هذه المسألة يمكن أن يستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل ، ولكن المشرع الأعلى لا يستدرك .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في لأرض » . فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد في الأرض ، لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحياء الناس جميعاً ، لأن التجريم لا يفي فعل بمعنى النص الموضح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة . ولا يمكن أن تأتي لوحد ارتكب فعلاً وتقول له : أنا أراحلك به وأعاقبك عليه بغير أن يوجد نص بتجريم هذا الفعل

وهناك توجد قاعدة شرعية قانونية تقول : « لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم » أي أننا نرتب العقوبة على الجريمة ، أو ساعة يُجرّم فعل يُذكر بجانب التجريم العقوبة ، فهل القصد هو عقاب مُرتكب الحُرْم ؟ لا إنما القصد هو تفتيح العتاب حتى يراه كل إنسان قبل أن يرتكب الجريمة ، والهدف هو منع الجريمة ، ولذلك نجد الحكمة الشريفة القائلة : « القتل أنفى للقتل » ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن ترقى تلك الحكمة إلى قول الحق :

﴿ وَلَكَرِ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَنَاقِ الْأَنْبِيبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

لأننا يمكن أن نتساءل : أي قتل أنفى للقتل ؟ . وسنجد أن المقصود بالحكمة ليس القتل الابتدائي ولكن قتل الاقتصاص . وهكذا نجد الأسلوب البشري قد فاته اللوحة الفعالة في منع القتل لوجوده في قوله الحق . « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في لأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعاً » . وكلمة « أحيها » هنا أكثر من معنى . وبالتحديد لها معنيان : المعنى الأول - أنه أبقى فيها

الروح التي تحرك المادة ، والمعنى الثاني : إحياء الروح الإيمانية ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(س الآية ٢٤ سورة الاحقاف)

ولما أن نلتمت إلى أن الحق وضع الفساد في الأرض مُستحقاً لعقوبة ائقتل والفساد هو إخراج الصالح عن صلاحيته ، والمطوب منا إيمانياً أن لأمر الصالح في ذاته علينا أن نبقى صالحاً ، فإن استطعنا أن نريده صالحاً فلنعمل وإن لم نستطع فستركه على صلاحه .

ولما جاء الحق بعقاب للفساد في الأرض ؟. عدلوا الأرض أنها المنطقة التي استخلف الحق فيها البشر ، وساعة يقول الحق : « أو فساد في الأرض » فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مطروف في الأرض وأول مطروف في الأرض أو السيد لها هو الإنسان وعدمه فساد في الإنسان ، فهذا معناه قتل الإنسان .

إذن لا بد أن يكون الفساد في أشياء أخرى : هي الأكران أو الأجناس الأخرى ، الحيوانات والنباتات والجمادات والفساد في هذه الكائنات يكون بإخراجها من مستحوزها ملكية ، كأن تسطو جماعة على بضاعة إنسان آخر ، لو أن يأخذ واحد ثمار زرع لأحد ، أو أن يأخذ بعضاً من إنتاج مصنع مسجور أو حديد أو حلافه .

إن الفساد نوعان : فساد في الأرض وهو متعلق بالمطروف في الأرض ، والمطروف في الأرض سيد وهو الإنسان ، والفساد فيه قتله أو أن تُسبب له اختلالاً في أمنه النفسي كالقلق والاضطراب والخوف . ولاحظ أن الحق سبحانه قد أمّن على قريش بأنه أطمعهم من جرع وأمنهم من خوف .

إذن فمن الفساد تفريق الناس وترويعهم وهو قسبان . قسم تُفرّق فيه من لك حده ثار أو بيتك وبيتة ضغينة أو بغض ، أو أن تفرّع قوماً لا علاقة بينك وبينهم ولم يصنعوا معك شيئاً فمن يعتدي على إنسان بيت وبيتة مشكلة أو عداوة أو بغضاء ، لا تُسببه خلعاً على الشريعة ، يأخذ حقه ، ولكنه لا يستوفي في حقه بيده بل لا بد

من حاكم يقرم بذلك كي ينضبط الأمر ويستقيم ، إنه يخرج على الشريعة فقط ن حالة العدوان .

أما الذي يذهب للاعتداء على الناس ولم يكن بينه وبينهم عداوة ؛ فهذه هي الحراية . كأن يخرج ليقطع الطريق على الناس ويخيف كل من يلقاه ويُسبب له القلق والرعب والخوف على نفسه وماله ، والمال قد يكون من جنس الحيوان أو جنس النبات أو جنس الجهاد . وذلك ما يسميه الشرع حراية وستأن لها أية خصوصية .

إذن . فالفساد في الأرض معناه إخراج صالح عن صلاحه مطرورف في الأرض ، والمطرورف في الأرض سببه الإنسان ، والإفساد فيه إما بقتله أو إهلاكه وإشاعة الرعب فيه ، وإما بشيء مملوك له من الأشياء التي دونه في الجنسية مثل الدروع أو النباتات أو الحيوانات . فكان الفساد في الأرض - أيضاً - يؤهل لقتل النفس .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . أي أن القتل بغير إفساد في الأرض ؛ هو القتل الذي يستحق العقاب . أما القتل بإفساد في الأرض فذلك أمر آخر ؛ لأن هناك فرقاً بين أن يقتل قصاصاً أو أن يقتل حداً من المشرع ؛ وحتى وهو صاحب الدم عن القاتل في الحراية وقطع الطريق لا ينفع في ذلك ولا يسقط الحد من الذي فعل ذلك ؛ لأنها جريمة ضد المجتمع كله .

وتابع سبحانه : « ولقد جاءتهم رُسُلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لسارفون » والسرف هو المتجاوز للحد ، وهو من لا يأخذ قدر تكوينه وموقعه في الوجود ، بل يحاول أن يخرج عن قدر إمكاناته في الوجود

مثال ذلك : رجل حاول أن يسطو على حق غيره في الوجود ؛ متحطاً منزلة الاعتدال فلا يأخذ حقه فقط . مثل قطاع الطريق أو النهابين يأخذون هرق غيرهم وتعبدوا أن يعيشوا كذلك وبراحة . والنصيبة لا تكرن في قاطع الطريق وحده ، ولكن تتعداه إلى المجتمع . هيقال : إن فلاناً يجلس في منزله براحة وتكفيه ساعة باللبل ليسرق الناس .

إن الأمر لا يقف عند حدود ذلك الإنسان إنما يتعداه إلى غيره . ويحيا من

ملك مالا في رعب ، وعندما يُفجع في زائد ماله ، يفقد الرعدة في أن يتحرك في الحياة حركة زائدة تنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالامس والامان . وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة في المجتمع السند والعمود من الذي كان يتحرك حركةً أوسع . إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال في التملك ، مادم السعي إلى ذلك يتم بطرق مشروعة .

ونضرب هذا المثل - والله للكل الأهل - . الرجل المرأى الذي يُقرض محتاجاً مائة جنيه ، كيف يطلب المرأى ريادة يمن لا يجد شيئاً يقيم به حياته ؟ إنه بذلك يكون قد أعطى من وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجزه . إن ذلك هو الإسراف فيه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا
أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ
يُسْفَوْا مِنْ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أول شيء في الحرب هو الاستيلاء ، فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أي يربحون في الاستيلاء على حيرات أو ممتلكات اطراف الآخر . فكيف يحارب قوم الله وهو عيب ؟ . وأول حرب لله هي محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريع . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع أنت على غير منهج الله فانت تريد أن تستولي على حق الله في التشريع . وهذه أول حرب لله

والذين يحاربون الله أهم الدين يريدون أن يسولوا على ملك الله ؟ لا ؛ لأن يد الله في ملكه أرلا ، وسبقني أبداً وسبحانه لن يسلمه لأحد من عباده . فعل ماذا

- إذن - يريدون الاستيلاء ؟ إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما سبحانه هو المشرع وحده والتشريع - كما قلنا - هو قانون صيانة لبدنة إلهية إذ لا تترك خالق الإنسان ليضع القواعد التي تصون البشر ؛ لذلك فأول امتيات بفعله الناس أنهم يشترعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يفرضه خالق الإنسان ؛ وإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان - الذي هو منه - قانون صيانة يقول له : إني تستولي على حق الله

وكيف يجارون الرسول ؟ .

نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم له وضعان ؛ فإله غيب ؛ لكن لرسول كان مشهداً من مشاهدنا في يوم من الأيام ، وقد حارب بالسيف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فأنفذ سلطته في التشريع ، وهي السلطة الثانية ونقول لها . نحن مشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما يتشرى بعض البلدان ونقول لكن واحد من هؤلاء : أتؤدى الصلاة ؟ . فيقول : نعم . سأله : كم ركعة صليت المغرب ؟ . فيجيب ثلاث ركعات . سأله : من أين أتيت بذلك ؟ . ومن أين علمت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهي لم تذكر في القرآن الكريم ؟ ؟ ها سيصمت

وسأله : كيف تمحرج الركعة ويأى حساب تحبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف بمائة في التقدين والتجارة مثلاً .

يقول له : كيف - إذن - عرفت ذلك ؟ . وأيضاً كيف عرفت الحج ؟ . إذن فللرسول صلى الله عليه وسلم مهمة ، وحرب السى تكون في ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك هؤلاء الذين يقولون إن أحاديث رسول الله كثيرة . ويقول لهم . كانت مدة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا نحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعناه وأقره من غيره حديث ، وكل

فعل فعله غيره أممه وأقره ولم يعترض عليه حديث ، فكيف تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التي وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة ؟ ، لأنهم قالوا : لأن نبعث عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يصعله . إسم بدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن قائم أن الله حافظ دينه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع القواعد لغلبة الأحاديث فقال

« من كذب على متعمداً فبئتوا معده من النار »^(١)

وهما هود ، البخاري يقل عن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والدين قابلوه ، وسيدنا مسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنها مطبوعة بالمقابلة وتحري كل منها بدقة الفائقة . وأي شخص كان له حشنة سلوكية لا يؤخذ بقوله ، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم . « أما يكفيني أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت . كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله ؟ وكيف يمكن أن يؤدي الأدان للصلاة ؟ وكيف يؤدي الصلاة ؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق

﴿ وَمَا أَتَيْنَاكَ بِالرُّسُولِ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهذا تفويض من الله في أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريع

وكذلك الاجترارات على الأنمة ، هم يجترئون أولاً على النبي ثم يزحفون على الدين كله . رجاء منهم قول الحق . « إنما حواء الدين يجربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، أي يخرجون الصالح بداته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجراء أن يقتلوا أو يقتلوا ، وهذا التمهيل في قوله : (أن يقتلوا أو يقتلوا) جاء للشد والتفوية ، حتى يقف منهم المجتمع الإيمان العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسيطة الشرعية قامت عن الجميع في هذا الأمر ، كما يقال إن النائب العام نائب عن الشعب في أن يرفع الدعوى ، حتى لا يتشر التقتيل بين الناس ، دون أن يفهموا حكمة كل أمر

« أن يقتلوا أو يقتلوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن علي بن عمر بن عبد الله

الأرض . ومن « أر » هن تحيرية ، أر أن هـ - كما يقال - « لف ونشر » ؟ واللف هو الطي . والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه .

ما اللف ، وما النشر - إذن - ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قضى وجهي واللسان وحالقي ..

لقد ذكر مُتَعَدِّد ولكن لأحكام غير مذكورة . هـ هو اللف : جميع المتدعات دون أن يذكر لكل واحد منها شعبه ، ثم جاء بالأحكام عن وفق المحكوم عليه فأكمل بيت الشعر بقوله

راحمي وبك شاكراً وغفوراً

ولتقرأ البيت كاملاً .

قضى وجهي واللسان وحالقي
راحمي وبك شاكراً وغفوراً

والحق يقول .

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فقوله : « تسكنوا فيه » راحع إلى الليل ، وقوله « ولتبتغوا من فضله » راحع إلى النهار . وهنا جاء باللف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد - كما نعلم - له صور متعددة ، فالفساد في الإنسان قد يمتد إلى قلبه أو عقله أو أحد ماله أو الاستيلاء على ماله دون قتله أو إثارة الرعب في نفس الإنسان دون أحد ماله أو قتله . نكان كلمة الفساد طوي فيها أنواع الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يؤخذ دون نفس تقتل ، أو تحويف وتزعزع

ويلول الحق : « أو ينهوا من الأرض » ، والمعنى معناه الطرد والإبعاد ، والطرد لا ينأى إلا لثقت مُستقر ، والإبعاد لا يتأق إلا لثمتكر . إذن ، نفس أن يُنهي لا بد

أن يكون له ثبوت وتمكن في موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن ، أو الوطن ، أو المكان الذي يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أي له حركة في دائرته . إلا أنه يأتى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سُمى سكناً ؛ أي يسكن فيه من بعد تحركه في مجالاته المختلفة . ومعنى الثنى على هذا هو إخراجنا من مسكنه ومن وطنه الذى اتخذه موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذى نهكهم عليه بالنفى ؟ قد يقول قائل : أنت إن أخرجته من مكان الفساد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فساد !

لا ، لأن النفى لا يتبع له ذلك الإفساد ، ذلك أن الوطن الأول يجعل له إلغاً بجغرافية المكان ، وإلغاً بمن يخضعهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلاناً وكيف يعتصب بضاعة آخر وهكذا . ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف بهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منع الإفساد العائد

وحين يقول سبحانه . « أو يمشوا من الأرض » يعرف أن كلمة « الأرض » لها مدلول وسمى الأرض الآن . الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، ويعد أن عرفنا أن جو الأرض منها صار جو الأرض جزءاً من الأرض . ولذلك قلنا في المقدسات المكاتبية . إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذى يصل في الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصل متوجهاً إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرحب في إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم المسجد والحرم المسمى لا يتسع لكل الحجاج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسمى الناس فيه . إذن فالمسمى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضاً له قدسية ، فإن بيتاً كذا مطابقاً فهو يصلح أيضاً كسمى

إذن فجو الأرض يتطبق عليه ما يطبق على الأرض . ولذلك كانوا يحرمون . قبل أن يوجد حيارون مسلمون . أن يُحرم في جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم محرم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . ومادام هناك إسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضاً ممنوع من الطيران في جو الكعبة .

لأن جَوَّ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فاجتَوَّ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوي يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . ومادام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد ان تضارب من أحد أمرين : إما أن معتبر الأمر الذي لا يزال في طور النظرية حقيقة في حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن تفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك على سبيل المثال قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾

(س الآية ٣٤ سورة لقمان)

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحين :

لا ، إن العلم يعرف ما في الرحم من ذكر أو أنثى ونقول : نحن لا نتناش ذلك ؛ لأنها حقيقة كونية وهي لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك ؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مضي مدة زمنية ، ولكن الحق يحسمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم من قال : إن الحق يقصد بعوالم ما في الأرحام ذكرًا أو أنثى فحسب؟ وهل لدلوها وجه واحد؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلي يعرف أحد أن ما في الرحم سيكون من بعد إنسانا طويلاً أو قصيراً ؛ ذكياً أو خبيثاً ؛ شقيئاً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ حليماً أو غصوباً . فلماذا يحصر « ما » في مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أولاً قبل أن يعلم أى عالم وقبل أن يحصل العالم على أية هيئة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذى تحمله في بطنها ؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا في بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل في العالم لطبيب واحد ؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما في كل الأرحام .

إذن فالحقيقة القرآنية لم نصطلم بأية حقيقة كونية ، لكن لصدام يحدث عندما

بهم فهي خطأ أب الحقيقة لقراءة في قوله الحق « ويعلم ما في الأرحام » مقصود به العلم بالذكر والأشياء فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحجر)

ويُخطئ البعض المزمع عن الله عظم أن المقصود بذلك أب الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبتت لنشر صحيفة كروية من أن لأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ، وظهور أعالي الأشياء قبل أسفلها وغير ذلك ، ثم صارت في عصرنا مُشاهدة من الأمار الصناعية . إذن هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها ، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية وأنهم الصواب في مدلول الحقيقة القرآنية . فقصده بقوله تعالى « والأرض مددناها » . « إنا كنا وقلنا في مكان نجد أرضاً ، أي أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن فسبحانه قد مد الأرض أمام الإنسان بحيث يد سار الإنسان في أي اتجاه ، يجد أرضاً . ولا يتأى ذلك إلا إذا كنت لأرض كروية . لهذا كالد الخطأ في فهم مدلول الحقيقة القرآنية ، لأن الضرر إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كروية وهي ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية عن محو خطئهم ، وهي لا تتعارضان ، فالعالم هو خالق حبه وهذا عرفنا متأخراً أن الحق من الأرض وأب العلاف الحق يدور مع لأرض ، وكما يقول سرتنا على الأرض ، لكنه سبحانه قل وهو العليم

﴿ يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

وهو سبحانه علم أولاً أن الحق من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة يعرفه العلاف الحق . إذن فالإنسان إنما يمشي في الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق العلاف الحق فهو يسير فوق الأرض

ونعود إلى قوله الحق « أو يقولوا من الأرض » وقد عرفنا أن المعنى هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض ينهون منها وإلى أى أرض ؟ ولا يكون الطرد إلا للمستقر

ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى في اللغة نعرف ما يسمى النعى والإثبات . وكل ذلك مأخوذ من شيء جسي . فعندما تأخذ الماء من البئر تنزل إلى قاع البئر ديواً ، وكل دلو يزل إلى البئر له « رشاء » وهو الحبل الذي نزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه . فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطرار الماء إلى تمام حافة الدلو ؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ، بل نجد قليلاً من الماء يتساقط من جوانب الدلو ، وهذا الماء المتساقط يسمى « النوى » ؛ لأننا لا نستطيع استعراج الدلو وهو ملآن لأخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطرار الماء .

إن الماء كما نعلم - له استطرار دقيق إلى الدرجة التي جعلت البشر يعيشون منه ميزاناً للاستواء . ومن « النوى » تؤخذ معان كثيرة ، فهناك « لتماية » وهي الشيء الرائد . إذن كيف يكون النوى من الأرض ؟ وهل تأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص ؟ أي الأرض التي حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنوى يكون لأي أرض أخرى . وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النوى ؟ وبرى أن الحق سبحانه قد قال في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَيْنِهِ رَبِّیْ إِسْرَءِیلَ اسْكُنْ أَرْضَ ۚ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

هم بلا جدال يسكنون في الأرض . وجاء هذا القول لمعنى مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تمييز مكان في الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت عمر » أو « اسكن المذنبه » أو « اسكن طعنا » ، وهذا تحديد موقع من لأرض للاستقرار ، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم في الأرض تقطعاً بحيث لا يستقروا في مكان أبد . وذلك مصداقاً لقول الله

﴿ وَقَطَّعَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۚ ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

فليس لهم وطن خلاص . ونجت تعزيتهم في كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذي

حدث في الكون . أوجد لني إسرائيل استقرار في أي وطن ؟ . لا . وحتى الوطن الذي أقاموه بسبب وعد بلمور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسوا العمل لاستردادته . ولزال اليهود بطيئتهم شتاتاً في أنحاء الأرض . ولهم في كل وطن حتى خاص بهم . وتحفظ كل جماعة منهم في أي بلد بذاتيتهم ولا يلويون في غيرهم :

﴿ وَفَلَنَامِسْ بَعْدَهُ لِيَبْنِيَ إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٦١ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين يأن هم الحق في الجولة الأخيرة سيأتون لفيفاً أي مجتمعين ، لأن الأمة المؤمنة حين يقويها الله لتضرب على هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مجتمعين . وكان الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القرمي » حتى يتحمسوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً ، لذلك لا نحزن لأنه قد صار هم وطن ، فقد جاء بهم لفيفاً .

ويعود إلى الآية التي نحن بصلدها كيف يكون النفي من الأرض ؟ حين يريد الله تحجير مكان فهو يقول على سبيل المثال :

﴿ أَدْسَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن فقد نفى غيرها . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكم « اسكنوا الأرض » . والنفي هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد في الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام : قتل ، قتل وأخذ مال ، أخذ مال فقط ، ترويع . وقد زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً وفعله في سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد في أمر الإفساد . وكان على

العلماء أن يتجهوا له ، فأول نفي حصل في الإسلام كان نفي رسول الله الحكيم بن أبي العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم - والعياذ بالله - كان يُقَلَّدُ بِمِثْيَةِ النَّبِيِّ بِاسْتِهْزَاءٍ ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذ مشى تكفياً تكفوفاً كأنه يتحدّر من عَنَبٍ . فقد كانت مشية النبي التي مشية نحامة . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحكم يقلد بمشيته في استهزاء والتفت أنبي - ذات مرة - فجاءه ، فوجد الحكم يقلده في مشيته فغضه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم في الطائف طوال حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما جاءت خلافة أبي بكر الصديق ، ذهب أهل الحكم إلى أبي بكر ، فقال :

- ما كنت لأحل عقدة عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضي الله عنه حَيِّياً وَخَجُولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل شهة الإفراج عنه . ويخرج عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وأثناء حياة الحكم في الطائف كان يرى بعض شويحات وبعض غييات وكان يرعاها عند جبهلات الطائف . وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأتى تعلمون أن معاوية رضي الله عنه أنجب يزيد الذي تولى الخلافة من بعده وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحكم .

وكان خالد بن يزيد الذي ترك الخلافة لمروان صلياً كبيراً في الكهماء وله أخ اسمه عبدالله ، وكان لعبدالله جواد يتسابق بها . وكان يولد من أولاد عبدالمالك بن مروان جواد أيضاً ، وجمرت جواد عبدالله مع جواد ابن عبدالمالك في مضمار سباق ، فلما جاءت خيل عبدالله لتسبق . . حدث خلاف بين عبدالله وابن عبدالمالك ؛ فنهز ابن عبدالمالك عبدالله ، فذهب عبدالله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبدالمالك بن مروان ، وقال له .

- لقد حدث من ابنتك لأخي كذا وكذا . وكان عبدالمالك فصيحاً في العرب وما جرىوا عليه لحن أبدي . ورأي أولاده على ألا يلحنوا في اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن

فلما دخل خالد إلى عبدالمك أباد أن يجد فيه شيئاً يعيه به ، قال عبدالمك لخالد : أتكنى في عبادته وقد دخل على أنف فلم يخل لسانه من اللحن ؟

وقال خالد - معرضاً بالوليد - : والله يا عبدالمك لقد أعجبتني فصاحة الوليد فقال عبدالمك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن فقال خالد : وإن كان عذقه يلحن فإن أخاه خالداً لا يلحن .

فقال عبدالمك : صكت يا هذا فليست في العير ولا في النعير

وأظن أن قصة العير والنعير معروفة فالعير هي التي كانت مع أبي سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نجى بها أبو سفيان والنعير هم الجماعة التي استنفرها أبو سفيان من مكة لأبيه خوف من المسلمين وكانت زعامتهم لعنتية . فالعير كانت زعامته لأبي سفيان والنعير كانت زعامته لعنتية بن ربيعة ، وكان عنتية هو جدّ خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير والنعير مني ، جدّي أبو سفيان صاحب لعير ، وجدّي عنتية صاحب النعير ، ولكن لو قلت غيبات وشبهات وجبيلات وذكر الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . واسكته .

إذن . فالنهي كان أول عذاب أنزل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهل ما فعله الحكيم ، يعتبر مسداً ؟ . ونقول إن كل فساد إنما ينشأ من الفساد الذي يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان احكم يستهري بمشية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقول مشرع ما : إن السجن يقرم مقام النفي ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرهاية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة وأهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شروء المفسد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه وذلك أمر متروك للحاكم يفعل كوف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

ويجب الحق هذا بقوله : « ذلك لهم حري في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم »

وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين في الأرض المحاريين لله ورسوله وهو :
« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » .
وهذه العقوبات شري لهم .

إن كلمة « خزي » ترد في اللغة بمعنىين : مرة بمعنى الفضيحة ، « خزي » ،
بخرى ، خزيًا ، أي انتفضح ، ومرة ثانية هي « خري ، بخري ، خزاية وخري » ،
بمعنى استحي . والعميان يلتقيان ، فإدام قد انتفضح أمر عبده فهو يستحي مما فعل .
وتلك الأفعال خري ، كالذي قطع طريقا على أناس آمنين ، ويقول لكل صاحب هذا
الفعل . إن قوتك ليست ذاتية بل قوة اختلاسية ، فلو كانت قوتك ذاتية لاستطعت
أن تتأني لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبك أو يقطعوا يدك ورجلك . فقد اجترأت
على العرل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم ، وفي هذا خري لك
خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافوك وأنت تنال العقاب . وحزبك الآن هو مقدمة
لعذاب آخر في الآخرة ، فسوف تنال عذاباً عظيماً .

« ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » وكل جزاء في الدنيا
إنما يأتي على قدر طاقات البشر في العقاب ، ولكن ماذا إذا وُكِّلُوا إلى طاقة
العافات ؟ ها هي ذي عدالة الحق تتجلى ، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال
للمُسرفين على أنفسهم ؛ أولاً بالتوبة ؛ لأن الله الرحيم بعنايه لو أخذ كل إنسان
بجريمة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بدنيه لاستشري في الأرض لحساد كل من
ارتكب ذنباً لأنه يش من رحمة الله فتشتد ضرارته وقسوته . ومسيحانه فتح باب لتوبة
لكل من أسرف على نفسه . وإن لم توجد التوبة لعلل المُسرف عاقدا . ويجب أن
واحد من الذين فعلوا ذلك استهفوا ضميره ، فإن تاب قبل أن تقدروا عليه فهناك
حكمكم . أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له .

ويقول الحق :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ۝ ٢٤ ﴾

ومادام الإنسان قد قلب وقلم بتسليم نفسه دون أن يقدر عليه المجتمع فقبول التوبة حق له ، ويجب أن تأخذ « أن الله غفورٌ رحيم » في نطلق ما جعله الله لنفسه ، أم ما جعله الله لأولياء المعتدى عليهم فلا بد من العقاب للمعتدى إن طلبه أصحابه .

« إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم »
والقرآن يعامل من المنهج الإيماني عجيبة واحدة . لذلك يُقسَم المسائل إلى فصول كالتيقنات البشرية التي تبرز ؛ للملك نجد القرآن يعامل الأفضية وكأنها قُوص استيقاظ للنفس ؛ لذلك يأخذ النفس إلى أمر توجيها بالطاعة

وضربنا من قبل المثل حينما تكلم القرآن عن مسائل الأسرة في سورة البقرة .
﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ قَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا قَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدُهُ أَيْنَ كَانَ ﴾
وَأَنْ تَقْعُوا أَقْرَبَ لِلْعَفْوِ وَلَا تَسْأُوا
الْمَعْفُولَ بِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

(سورة البقرة)

ومن بعد ذلك يأتي إلى أمر الصلاة :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَخُوفُوا اللَّهَ فَنُتَبِّحَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَادْعُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

(سورة البقرة)

وضع الله - إذن - الصلاة بين أمرين من أمور الأسرة ؛ حيث قال من بعد أمره بالحفاظ على الصلاة حتى أثناء القتال

﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ سُنَّتَكُمْ وَيَقْرُونَ أَرْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَرْوَاجِهِمْ مَتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِتْرَاجٍ
فَإِنْ تَرَجَّجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

وجاء بأمر الحفاظ على الصلاة بين المشكلات الأسرية ، وذلك لجعل الدين لبنة واحدة ، وأيضاً لأن النفس المشحونة بالبنطلاء وزحام أمور الزواج والوصية والطلاق ، هذه النفس عندما تقوم إلى الصلاة لله فهي تهدأ . ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . فقد كان إذا حزبه أمر واشتد عليه قدم إلى الصلاة

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يأتى بأمر الدين كأبواب منفصلة ، باب للصلاة ، وآخر للصوم ، وثالث للزكاة ، لا . بل يمزج كل ذلك في حجة واحدة . ولذلك فعندما أنزل بالمفسدين المحاربين لله عقاب التثليل والتصليب والتقطيع والنهي . كان ذلك لتربية مهابة الرعب في النفس الشريرة وساعة يستيقظ الرعب في النفس البشرية يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
إِلَى الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ
تَفْلِحُونَ ﴾

لقد أخرجنا من جوار صدم وحديث في عقوبات إلى تقوى الله والتقوى - كما نعرف - أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤديه وقاية .

وعرفنا أن الحق سبحانه القى يقول « تقوا الله » هو بعينه الذى يقول « اتقوا النار » ، وعرفنا كيف نفهم تقوى الله . بأن يجعل بيننا وبين الله وقاية وإن قال قائل :

إن الحق سبحانه يطلب من أن نلتزم بمهجه وأن نكون دائماً في معيته . فلنجدل الوقاية بيننا وبين عقابه . ومن عقابه النار .

إذن فقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » أى أن تنقضى صدمات الجلال ،

والنار من خلق الله وحده وقوله سبحانه : « وابتغوا إليه الوسيلة » أي بهت عن
الْوَسِيلَةِ الَّتِي تَوْصِلُنَا إِلَى طَاعَتِهِ وَرِضْوَانِهِ وَإِنْ عَجَبْتُمْ . وَهَلْ هُنَاكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا مَا شَرَّحَهُ
اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؟ وَهَلْ يَنْتَقِرُ إِنْسَانٌ إِلَى أَيْ كَائِنْ إِلَّا بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يُجَنَّبُهُ ؟

وعَنِ الْمُسْتَوِيِّ الْبَشَرِيِّ نَحْنُ نَجِدُ مِنْ يَتَسَاءَلُ : مَاذَا يُجِبُ فَلَان ؟ . فَيَقَالُ لَهُ :
فَلَانُ يُجِبُ رِبَاطَاتِ الْعُقُوقِ ، فَيُهْدِيهِ عِدَّةٌ مِنْ رِبَاطَاتِ الْعُقُوقِ . وَيَقَالُ أَيْضًا : فَلَانُ
يُجِبُ الْمَسِيحَةَ الْحَلِيقَةَ ، فَيُحَصِّرُهُ مَسْحُورَةً رَائِعَةً . إِذَنْ كُلُّ إِنْسَانٍ يَنْتَقِرُ إِلَى أَيْ كَائِنْ
بِمَا يُجِبُ ، فَمَا يَأْتِيهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ ؟ وَمَا يُجِبُهُ سُبْحَانَهُ أَوْصَحَهُ لَنَا فِي حَدِيثِهِ
الْقَدَسِيِّ :

(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِأَحْرَبٍ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا
افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَهْبِيَ أَهْبِيَهُ ، فَبِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ
سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي
بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَهُ وَلِئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنِي) (١) .

فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْضَحُ الطَّرِيقَ لِأَمَامِ الْعَبْدِ ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ
الْقَدَسِيِّ :

(مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ)

أَيُّ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْتَقِرُ إِلَى اللَّهِ بِالْأُمُورِ الَّتِي لَمْ يُلْزَمْ بِأَحَقِّهَا وَلَكِنَّمَا مِنْ جَنْسِ
مَا افْتَرَضَهُ سُبْحَانَهُ ، فَلَا ابْتِكَارَ فِي الْعِبَادَاتِ . إِذَنْ فَاِبْتِغَاءُ الْوَسِيلَةِ مِنَ اللَّهِ هِيَ طَاعَتُهُ
وَالْقِيَامُ عَلَى الْمَنْهَجِ فِي « الْعَمَلِ » وَ« لَا تَفْعَلْ »

وَالْوَسِيلَةُ عِنْدَنَا أَيْضًا هِيَ مَنَزَلَةٌ مِنْ مَنَازِلِ الْحَيَّةِ . وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
طَلَبَ مِنَّا أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ لَهُ الْوَسِيلَةَ فَقَالَ .

(إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَتَقَرَّلُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مِنْ صَلَّيَ عَلَيَّ صَلَاةً

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الرَّفْعِ ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي الْحَيْثِ

صلى الله عليه بها عشراً ثم سلو الله لي الوسيلة فإني منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلت به الشفاعة) (١).

ولا نريد أن ندخل هنا في مجال التوسل بالنبي أو الأولياء ؛ لأنها مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد . فبعضهم يحكم بكفر هؤلاء .

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبي أو الولي : هذبوا هذا القول قليلاً ؛ إن حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم ؛ فالذي يتوسل إلى الله بالنبي أو الولي هو يعتقد أن له منزلة عند الله . وهل يعتقد أحد أن الولي يجامله ليحيطه ما ليس له عند الله ؟ طبعاً لا . وهناك من قال : إن الوسيلة بالأحياء ممكنة ، وأن الوسيلة بالأموات ممنوعة . ونقول له : أنت تضيق أمراً متسعاً ؛ لأن حيلة الخي لا تدخل لها بالتوسل ؛ فإن جاء التوسل بحضرته صلى الله عليه وسلم إلى الله ؛ فذلك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله ؛ فحبك له هو الذي يشجع . وإياك أن تظن أنه سيأتي لك بما لا تستحق .

والجهاة التي نقول . لا يصح أن نتوسل بالنبي ؛ لأن النبي انتقل إلى الرفيق الأعلى ، نقول لهم . انتظروا قليلاً وانتهبوا إلى ما قال سيدنا عمر - رضوان الله عليه - قال : كنا في عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقي به . وما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توسل بعمر العباس . وقالوا لو كان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن التوسل بالنبي بعد انتقاله ، وذهب إلى التوسل بعمر النبي . ونسأل : أقال عمر « كنا نتوسل بشيخ والآن نتوسل إليك بالعباس » أم قال « والآن نتوسل إليك بعمر نبيك » ؟

ولذلك فالذين يسمعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم ؛ لأن التوسل لا يكون بالنبي فقط ولكن اتوسل أيضاً بمن تمت بصلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعني أنه يعتقد أن الذي توسل به لا يقدر على شيء ، إني أتوسل به إلى الغير لأنني أعرف أنه لا يستطيع أن يتفدى لي مطلوبى إذن فليبعد

مسألة الشرك بالله عن هذا المجال ، ونقول : نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن
لتوسل إليه هو القادر وأن نتوسل به عاجز . وهذا هو متبهي اليقين ومتبهي
الإيمان .

ولكن المتوسل به قد يتفجع وقد لا يتفجع ، وعندما توسل سيدنا عمر بالعباس عم
السبي كان يعمل ذلك من أجل المطر . والمطر في هذه الحالة لا يتفجع به رسول الله
لذلك جاء بواحد من آل البيت وكأنه قال : « يارب عمي بيك عطشان فمن أجله
نريد المطر » .

إذن فتوسل عمر بن الخطاب بعم النبي دليل صد الذين يجمعون التوسل بالنبي
بعد الاتصال إلى الرفيق الأعلى . وحتى نخرج من الخلاف نقول : إن العمل
الصالح المتمثل في « اعمل كذا » و « لا تفعل كذا » هو الوسيلة الخالصة . وبذلك
نخلص من الخلاف ولا ندخل في مناهات .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم
تفلحون » ولتر الإيثار الإيماني الذي يريد حتى أن يُربيه في النفس المؤمنة بتقوى الله
التي تتمثل في الابتعاد عن محارمه ، وابتغاء الوسيلة إلى الله في اتباع أوامره .

إن الذين لم يأتك من أجل نفسك فحسب ، ولكن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا أن تحب
لأهلك ما تحبه لنفسك ، فإن كنت قد أحبيت لنفسك أن تكون على الذنوب فاحرص
جيداً على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً . وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين
يعيشون معك ، ولكن هم المؤمن لهم أن يوجدوا من بعد ذلك . ولذلك عليك أن
تجاهد في سبيل الله لتعلم كلمة الله . وهكذا تتسع الهمة الإيمانية ، فلا تنحصر في
النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن . ولذلك يضع لنا الحق الطريق المستقيم
ويوضحه ويبيّنه لنا .

وكانت بداية الطريق أن المؤمن بالله حينها وثق بأن الله نعيماً وحزاء في الآخرة هو
خير مما يعيشه قديم دمه واستشهد ، لذلك قال صحابي جليل : أليس بيني وبين الجنة
إلا أن أدخل هذه المعركة فلما أن أقتلهم وإما أن يقتلوني . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : نعم .

وألقى الصحابي غمرات كان يأكلها ودخل المركة .

لا بد إذن أنه قد عرف أن الحياة التي تنتظره خير من الحياة التي يعيشها ؛ ومع ذلك لم يصح الله الجهاد كرسيلة في أول الأمر ، بل ظل يأمرهم بالانتصار والصبر حتى يبرأ من يحملون الدعوة . فلو يعلمها سبحانه عملية انتصارية .

وبعد ذلك نرى أثناء رحلة الدعوة للإسلام أن صحابياً يحزن لأنه في أثناء القتال قد أفلت منه عمرو بن العاص ، وأن خالد بن الوليد قد هرب . وثبتت الأيام أن البشر لا يعرفون أن علم الله قد أذخر خالداً وأنجده من سيف ذلك الصحابي من أجل أن ينصر الإسلام بعالمه . وكذلك عمرو بن العاص قد أذخره الله إلى نصر آخر للإسلام .

إذن فالجهاد في سبيل الله ضامن للمؤمن أن يظل منهج الذي آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتى إلا بإشاعة المنهج في العالم كله . والنفس المؤمنة إذا وقعت نفسها على أن تجاهد في سبيل الله كان عدها شيء من الإيثار الإيماني . ونعرف أنها أهدت خير الإيمان وثبتت أن توصله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها في غير ديار الإسلام ، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤتمت ، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجد أنها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالباس إذا كانوا أحياء استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرهم شيء .

إذن فمن مصلحة الخير أن يشيع خبره في الناس ؛ لأن إن أشاع خبره فهو يتوقع أن يستفيع به عدوى هذا الخير وأن يعود عليه خبره ، لأن الناس يأمن جانب الرجل الطيب ولا ينامهم منه شر . لأنه يجب أن يكون كل الناس طيبين وعلى ميران الإيمان ؛ لأنهم إن كانوا على ميران الإيمان فالطيب يستفيد من خيرهم . أما إن بقى الناس على شرهم وبقي الإنسان الطيب على خبره ، فسيظل خير الطيب مهذولاً لهم ويظل شرهم مهذولاً للطيب .

إذن من حكمة الإيمان أن « يعني » الإنسان الخير للغير . وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله ، ومن أجل انتشار منهج الله لا بد من الإعداد لذلك قبل اللقاء في

ساحات المارك ؛ فقبل اللقاء مع الخصم في ساحة المعركة لا يد من حسن الإعداد . وعندما يمد المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه ؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضي سلوكاً طيباً ، والسلوك الطيب ينتشر بين البشر ، وهنا يقوى معسكر الإيمان ، ليرتقى سلوكاً وعملاً ، وعندما يقوى معسكر الإيمان يمكنه أن يستخرج كنوز الأرض ويحمي أرض الإيمان بالتقدم الصناعي والعلمي والعسكري . والحق يقول :

﴿ وَأَرْكَنَ الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

سبحانه أنزل القرآن وأنزل الحديد ، ويتبع ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وجاء معنى البأس من أجل ذلك ، وهذا هو السبب الثاني الذي أوصانا به الحق :

إياكم أن تأخذوا مهبج الله فقط الذي ينحصر في « افعل ولا تفعل » ولكن حللوا مهبج الله بما يحصى مهبج الله وهو التقدم العلمي باستخراج كنوز الأرض وتصنيعها كالحديد مثلاً ، فسبحانه كما أنزل القرآن يجعل المنهج ، فقد أنزل الحديد وعلى الإنسان مهمة استنباط الحديد والمواد الخام التي تسهل لنا صناعة الأجهزة العلمية وتقيم المصانع التي تنتج لنا من الحديد فولاداً ، وبحول الفولاذ إلى دروع ، وتصنع أدق الأجهزة التي تهيء للمقاتل فرصة النصر . وكذلك نذخر المواد العذائية لتكفي في أيام الحرب

إذن حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أن تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، ولكن أعد نفسك للمعركة ؛ لأنك إن أعددت نفسك جيداً وعلم خصمك أنك أعددت له ، ربما امتنع عن أن يجارث . والذي يمنع العالم الآن من معركة صناعة تدمره هو الخوف من قبل الكتل المتوازنة لأن كل دولة تعد نفسها للحرب ولو أن قوة واحدة في الكون هدمت الدنيا .

وقول الحق : « وجاهدوا في سبيله » نأخذ على أنه جهاد في سبيل مهبج الله ؛

ويدرس هذا النهج ويفهمه ويعد ذلك بجاهد فيه باللسان وبالسان ، ونجاهد فيه بالكتب ونجاهد فيه بالكيفية .

إذن يقول الحق : « وجاهدوا في سبيله » يصح أمة إيمانية مُحصرة ، حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره في لكون فمن يعد الإله الواحد أولى بسر الله من الوجود ، ولو غرضنا أنه لن تقوم حرب ، لكننا نملك المصالح التي تنتج ، وعندنا الزراعة التي تكفي حاجات الناس ، عندنا سحق الكفاية . وما لا تستعمله في الحرب سيمود على السلام . ويجب أن تفهموا أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب . وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العفوبات والنفصاض والتقتيل والتقطيع ، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتق الله ونبتغي إليه الوسيلة ونجاهد في سبيله حتى نفلح ، وكان لا بد أن يأتي لنا الحق بالمقابل ، فالمعاقب الذي جاء من قبل كنفصاض وقتل هو عقاب دنيوي ولكن ماسيان في الآخرة أدهى وأمر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(سورة الحافه)

ولنا أن نتصور الجماعة الكافرة التي تنكبر في الدنيا ويعتلون ويرتفعون بالهبروت ،

فإذا من موقعهم يوم القيامة ؟ لقد أقمتم الجبروت بقوتكم على غيركم ، وما هي في القوة تضع وتعلت . لقد كانت انقوة تعيش معكم في الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم . ولم تَصْنُ عليكم سُنة الله أن ترتقوا ، وصبحانه قد خلق السُنن ومن يبحث في أسباب الله ، يتل نتيجة ما بطل من جهد ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، وما أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية . وأن قوتكم لم تكن إلا عطلة من الله . ها أنتم أولاء أمم المشهد الحق ، فلو أن ما في الدنيا جميعاً معكم وحق ولو كان ضعف ما في الدنيا وتريدون أن تقدّموه بذية لكم من عذاب جهنم فأنه لا يقبله ، وتلك قيمة الجزى ، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم .

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا مزلاً ، ولكن هي جد في منتهى الجد . وحل الإنسان أن يقتر العقوبة قبل أن يستلذ بالجريمة . والذي يجعل الناس تستشعر في الإسراف على أنفسهم ، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة . ولو نادى الإنسان قبل أن يسرف على نفسه العقوبة بالجريمة لما ارتكبها . وكذلك الذي يكسل عن الطاعة ، لو يقارن الطاعة بجزائها لأسرع إليه .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نفترض أن إنساناً في صحراء نظر إلى أهل الحبل ورأى شجرة تفاح ، واستدل على التماسح بأن رأى تفاحة خطبة واقعة على الأرض ، وقال الرجل لنفسه : هاأنذا أرى مصارع الناس ؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته . وذلك مهاجمة الذئاب . وثالث يتوه عن الطريق . كل ذلك على أمل أن في الشجرة ثماراً . ولا يدري من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار . والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لله ، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة .

وأيضاً : الطالب المجتهد الذي يتعلب عن التماس ويتوسل ويصل ويخرج إلى مدرسته في برد الشتاء ليحصل الدروس . ويعود إلى المنزل لتقن له أمه الطعام ، ولكنه مشغول بالدروس . إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد ؛ لذلك فكل تعب في سبيل التعلم صدر سهلاً عليه ، ولو أهمل ونام ولم يقم مبكراً إلى المدرسة ، وإن استيقظ وخرج من المنزل ليتسكع في الطرقات مع أمثاله ؛ يكون في مثل هذه الحالة غير مقلد للنتيجة التي تفوقه إليها الصُمْنكة . والعيب في البشر أنهم يعزلون

العمل عن نتيجة ، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها ، والطاعة من ثوابها . إننا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أعمل أحد في طاعة .

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين في الدنيا وهم في دار الآخرة ، هم بطشوا في الدنيا وبهوا ، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما في الدنيا - على الرغم من أن هذا مستحيل - وفوق ذلك أخذ مثل ما في الدنيا معه ويريد أن يقدمه اقتداء لنفسه من عذاب جهنم فبرطبه الحق منه « ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » وتلك هي قمة الحزى التي يجب أن يعتمد عنها الإنسان .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٣٧)

وكلمنا فسهم لعن النار يريدون أن يخرجوا منها ، لكن كيف تأق لهم إدراك الخروج من النار . لا بد - إذن - أن لحظة لمعها عليهم وتقلبهم هنا وهناك تدفعهم إلى النهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى . ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أمامنا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم :

﴿ وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوا يَفْتُتُوا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

هذا القول يوحى أولاً بأن رحمة ما ستصل إليهم ، ولكن ما يأتي بعد هذا القول يرسم المول الكامل ويحمده :

﴿ يُخَاثِلُوا بِمَا كَانُوا يَشْرُونَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذه قمة المول وهناك فرق بين الابتداء الطمع والانتهاه التوس

مثال ذلك السجين العطشان الذي يطلب كوب ماء . ويستطيع السجين أن يقول له : لا ليس هناك ماء . أما إذا أراد السجين تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سأق لك الماء ويحضر له كوباً من ماء رطب ، ويعد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجين يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المضمع والانهاء المؤنس وكذلك رغبتهم في الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم في الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء . ﴿ فَشَرَّهْمُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

وتثير البشرى في النفس الأمل في العفو ، فيرحلون ولكن تكون النتيجة هي :

﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم المؤنس بعد الرجاء المطمع

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٢٧ ﴾

(سورة المائدة)

وبعد ذلك بنقلنا الحق إلى قوله سبحانه :

﴿ وَالْمَسَارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٨ ﴾

جاء الحق من قبل بعقاب قطع الطريق والمعتدين في الأرض ، وما يأتى بقضية أخرى يريد أن يصون بها ثمرة حركة المؤمن في مجتمعه ؛ لأن الإيمان بحسب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لا بد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان وجماعات الثمرة لم جاء من يأخذها فلا بد أن يزهد المتحرك في

الحركة ، وحين يزهد الإنسان في الحركة يتوقف تقدم لوجوده ؛ لذلك من حطت أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيها شرع الله

وحين يتحرك الإنسان فيها شرع الله ويكسب من حلال ؛ فليس لأحد دخل ؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك في بابه أم لم يكن .

وقلنا من قبل إن الرجل الذي يملك مالاً يكثره يجد الحق يأمره بأن يستثمر هذا المال ؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال ، فيدفع بخايطه بناء عمارة شاهقة في قلب صاحب المال ، فيقول الرجل لنفسه . إن المال عندي مكتنز فلا ينبغي لنفسى عمارة ، ويرين له الحق هذا الأمر . ويعكر الرجل في أن يبني عمارة من عشرة طوابق وفي كل طابق أربع شقق ، وليكن لإيجار كل شقة مائة جنيه . وهو حصيلة شهرية لا بأس بها

لقد حسب الرجل المسألة وهو لا يدري أن الله سبحانه وتعالى يقلب في بابه الخواطر ، فيسرع ليشترى قطعة الأرض . وبعد ذلك يأتي بمن يصمم سبيل العمارة ومن يقوم بالبناء ، وتخرج العقود المكتنزة . وهكذا يرى أن الثرى قد أن يتفع بعمارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا . ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر . ولكل إنسان خواطره ، فالبخيل له من يسرف في ماله ، والكريم له من يكثر من ماله . وإياك أن تظن أن هناك حركة في الوجود خارجة عن إرادة الله فالحق يقول :

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾

(من الآية ٨٩ سورة آل عمران)

وهم يفعلون ذلك لأن الدروب تطاردهم ، فيعرضون ذلك بإصلاح أحوالهم . ولذلك نجد أن الخير إنما يأتي من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع أن يأخذ شيئا من وراء الله .

﴿إِنْ أَحْسَنْتَ لِلنَّاسِ سَنَاحَتِ إِلَيْكَ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

كان الحق سبحانه وتعالى بمجرد الخواطر يدفع الناس إلى ما يريد . نعم فهو غيب قيوماً ، ولذلك يكون تديره في الكون غيباً . وفي قرأنا بمحضرين يوماً للسوق ويري ساحتها في انيوم المحض من ساحتها فتعجب من إبداع محرك الكون : هي الصباح يسير رجال إلى السوق ومعهم عصيهم ولا يحملون شيئاً وهؤلاء داهيون شراء ما يحتاجون إليه ، وآخرون يسوفون أمامهم العجول أو الحمير ، وهؤلاء يذهبون لبيع بضائعهم . ويري نساء تحمل كل واحدة منهن صفاً من الخصار فعرف أنهم يذهبون لبيع في السوق . ويري أخريات يحملن سلالاً فارغة ، ونعرف أن كلاً منهن ذاهبة للشراء . وفي آخر النهار نرى المسألة معكوسة . من كان يحمل في الصباح شيئاً حمله غيره ، فمن الذي هيج الخواطر ليذهب من يربح في البيع إلى السوق يبيع ؟

من الذي حرّك الشاري للشراء ؟ هو الحق سبحانه يحقق للرأغب في البيع أن يوجد المشتري ، ويحقق للرأغب في الشراء أن يوجد البائع . إنه ترتيب الحق القيوماً . وسمع من يقول : لقد أنزل في السوق اليوم عشرين طناً من الطماطم وأربعين طناً من الكوسة . وغيرها من الأطنان . ونجد آخر النهار أن كل شيء قد بيع . إنها خوطر الله المتوارنة في الناس والتي توازن المجتمع

إذا الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي حركة المتحرك . ويريد أيضاً ألا يفترق الإنسان أو يتمتع بغير مجهود ؛ لأن من يسرق إنما يأخذ بمجهود غيره . وهذا العمل يرهق الغير في العمل .

إن في الإسلام قاعدة هي . عندما تكثر البطالة يقال لك لا تصدق على الناس بفرد من ملكك ، ولكن افتح أي مشروع ولو لم تكن في حاجة إليه كان تحفر بئراً وتردمها بعد ذلك وأعط الأجير أجره حتى لا يعود الإنسان على الكسل ، بل يجب تعويده على العمل ، ومن لا يقدر على العمل فلا بد له من ضمان . قصصنا الإنسان لفوته يكون من عمله أولاً ، فإن لم يكن قادراً على العمل ، قضياته من أسرته وقربته ، فإن لم توجد له أسرة أو قرابة ، فأهل محله مسئولون عنه ، وإن لم يستطع أهل القرية أو المحلة أن يوفرأ له ذلك ، فبیت المال عليه أن يتكفل بالقرية .

إذن فالأرضية الإيمانية تحثنا على أن نضمن للإنسان العمل ، أو نعوله ونقوم بما

يحتاج إليه إن كان عاجزاً . ولكن الآفة أن بعضاً من الناس يجنون عملاً بدائياً ، فهذا يرغب في التوظيف في وظيفة لا عمل فيها ، ونقول له :

في العالم المعاصر أزمة عمالة رائدة فتعلم أي مهارة ؛ فماضت الحياة أبداً على طالب قوت من عمل .

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة حين أقام أول مزاد في الإسلام . عندما جاء له رجل من الأنصار يسأله ، فقال له .

(أما في بيتك شيء . قال الرجل : بلى ، جئت تلبس بهمه وبسط بعضه ، وقمب - أي قدح - نشرب فيه من الماء . قال : إيتني بهما . فأتاه بهما . فآخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال : من يزيد على درهم ؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأَنْصَرِي وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فأنهه - أي ألقه - إلى أهلك ، واشتر بالأخر قلوماً فأتى به)^(١)

إذن أشار النبي صلى الله عليه وسلم على الرجل وأمره بأن يحضر المجلس الذي يام عليه والقدح الذي يشرب فيه ، حتى يعرف الرجل أنه تاجر في شيء يملكه ، لا في عطاء من أحد . وجه الرجل إلى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ووجد أن النبي قد سوى له يداً للقدوم وقال للرجل .

(اذهب فاحطب وبيع ، ولا أرينك حسنة عشر يوماً)^(٢)

وفزع الرجل بحطب وبيع امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وجاء بعد خمسة عشر يوماً وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(هذا خير لك من أن تحمي المسألة نكتة في وجهك يوم القيمة)^(٣) .

(١) رواه أبو داود في الزكاة ، وابن ماجه في التجارات ورواه أحمد

(٢) ، (٣) رواه أحمد وأبو داود في الزكاة وابن ماجه في التجارات

هذه هي التربية .

إذن فالفرص الأساسي أن يحصى الإسلام أفراد المجتمع ، والذي لا يجد قوته
نساعده بالرأى وبالعلم والقدره والقوة . ولخير أن نعلمهم أن يعملوا لأنفسهم
ولذلك جاء الحق لنا بقصة دى القريين المليئة بالعبر

﴿ حَقِّقْ إِذَا بُعِثَ بَيْنَ الْيَوْمَيْنِ وَحَدَّثَ مِنْهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (١٣) ﴿
(سورة الكهف)

أى أنه لا توجد صلة للتفاهم . ولكنهم قالوا :

﴿ قَالُوا يٰٓأَيُّهَا الْقَرِيبُ إِنَّا يَأْتِيَنَّكَ وَمَا حُجُوجٌ مُّسْتَوُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ تَجْعَلُ لَّنَا حَرَجًا
عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَبًّا ﴾ (١٤) ﴿

(سورة الكهف)

وهو هو دى القريين يعلى أنه فى غير حاجة إليهم ، ولكن يكتمهم بعض حتى يحقق لهم
مُرَادهم

﴿ تَوَلَّى زُرَّ الْمَدِينَةِ حَقِّقْ إِذَا سَلَوَى بَيْنَ الْقَصْدَيْنِ قَالَ أَفُحُوا حَقِّقْ إِذَا جَعَلَهُ نَدْرًا
قَبَّ ءَاتَوْنِ فَرَّغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴾ (١٥) ﴿

(سورة الكهف)

ومن العجيب أن القرآن عندما يحكى أمراً فهو لا يحكىه إلا لغرض ، هم طلبوا من
دى القريين أن يسي سباً ، لكنه اقترح أن يحصى لهم ردياً ، ما لفرق ؟ لمد تبيين من
العلم الحديث أن السب قد يحدث له هزة من أى جانب فهذا كله ، أما الردم فإن
حدثت له هزة يزداد غماسكاً . ولم يعمل دى القريين هم ، ولكن علمهم كيف يصنعون
الردم ، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز وهكذا يُعنى القرآن أن
الإنسان لا يبد له من عمل . لكن ماذا إن صرّق ؟ .

أولاً ما هى السرقة ؟ إنها أخذ مالٍ مقوم خفية . فإن لم يكن الواحد حمية فهو
عنصاف ، ومرة أخرى يكون حطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً .

فأخذ له أنواع متعددة ؛ فالتاجر الذي يفف في دكانه لبيع أى شيء ، وجاء طفل صغير وخطف قطعة من الحلوى وجرى ولا يستطيع التاجر أن يطول الطفل أو أن يقدر على الإمساك به ، هذا خطف . أما الذي يفتصب فهو السى فهو صاحب الشيء على أن يتركه له . أما الاختلاس فهو أن يكون هناك إنسان أمين على مال فبأخذ منه ، أما السرقة فهي أخذ مال مقوم خطية وأن يكون في حرز مثله ؛ أى يكون في مكان لا يمكن لغير المالك أن يدخله أو يتصرف فيه إلا بإذنه . أما الذى يترك بابه مفتوحاً لو يترك بضاعته في الشارع فهو المتصر . فكما يأمرنا الشرع بالآلا يسرق أحد أحداً ، كذلك يأمر بعدم الإهمال ، بل لابد للإنسان أن يحفل أشيائه ويتوكل . وسببها هو المشرع العدل الذى يقيم البقطة على الجاهل . حدد الشرع السرقة بما قيمته ربع دينار . وربع الدينار في ذلك الزمن كان يكفى لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد ، بل إن الدرهم كان يكفى أن يقيم أود أسرة في ذلك الوقت

وكيف نقوم ربع الدينار في زماننا ؟ . إن كان لا يكفى لمعيشة ، فوجب أن ترفع النصاب إلى ما يعيش ، وما دام الدينار كان في ذلك الزمان دهماً ؛ فربع الدينار ترفع قيمته . وقديماً كان الجنيه الذهب يساوى سبعة وتسعين قرشاً ونصف القرش . أما الجنيه الذهب حالياً فهو يساوى أكثر من مائتين وسبعين جنيهاً ، وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع ، ولذلك وضع الشرع له قدراً لا يتجاوز المحتاج لحفظ حياته وحياته من يعول هو الدرهم . وسرقة الدرهم لا حد فيها كى لا إثم فيها ، وذلك إذا استنفذ كل الطرق المشروعة في الحصول على القوت ، ونعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الدرهم للرجل وقال :

(اشتر طعاماً لك ولاسرتك) .

وكان الدرهم - كما قلنا - يكفى في ذلك الزمن . والدرهم جرم من اتقى عشر جزءاً من الدينار ، فربع الدينار ثلاثة دراهم ، والدرهم يساوى في زمان هذا أكثر من عشرين جنيهاً .

والسطحيون يقولون . إن سيدنا عمر ألغى حد السرقة في عام الرمادة ؛ ونقول هم . لا . لم يسقط عمر بن الخطاب الحد ، فالحد باق ولكنه لم يدخل الحادثة التي حصلت فيه بوجوب الحد . والحادثة التي حدثت في عام الرمادة أو عام الجوع هي

وجود الشبهة . وبطلته كأول أمير للمؤمنين ، لم يدخل الحوادث فيما يوجب الحد .
وفي مسألة عبدالرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة . عندما سرق غليانه ، فماذا حدث ؟
قال الغليان لعمر : كنا جوعى ولم يكن ابن أبي بلتعة يعطينا الطعام . ودرأ سيدنا
عمر الحد بالشبهة .

إند الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك .
لكن بعض السطحيين في المهم يقولون مثل ما قال المعري .
يد بخمس مئتين عجد وديت
سأبها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا إلا الكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وهنا ردّ عليه العالم المؤمن فقال :
أنت تعترض لأنك تعطى دية اليد خمسمائة دينار ، وعندما يسرق إنسان تقطع يد
السارق لأنها أخذت ربع دينار .

وقال العالم المؤمن :
عسر الأمانة أغلاما وأرحصها
ذل الحياة فافهم حكمة الباري
وبلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية ،
لكن تشريعات في منتهى الدقة . فلو أن مقتنا يقس للسارق أو اللقعة ، ويقتن
للران والزانية ماذا يكون الموقف ؟

إن الذي يتكلم هو رب العالمين ، فقال هنا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما
جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عرير حكيم » . والسرقة عادة ما تكون رعية في
الحاجة وهي غالبا ما تكون من عمل الرجل . أما في الران والزانية ، فتوأن الرجل
لم ينجح ويستتر بجمال امرأة لما فكر في الران . إذن فهي صاحبة البائة . وينص
سبحانه على العقوبة وجاء بالحكمة . وعندما بشرع للقصاص وهي الحالة التي يعلى
فيها دم أقارب القاتل ، فيقول .

أى أنها حيلة ليستفى يوسف أخاه معه . ولو استعمل قانون مهرى ذلك الزم لما أخذ أخاه معه . وهذا كيد لصالح يوسف ، لأن « للام » تعبد الملكية أو النعمية وأصاف إخوة يوسف قاتلين :

﴿ قَالُوا إِنِّي سَرِقٌ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَنَا مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يوسف)

ولماذا قالوا ذلك ؟ أصل هذه المسألة أن يوسف كان يحيا عند عمته وعندما كبر وأرادوا أن يأخذوه أرادت العمه أن تستقيه فهدست في متاعه قنالا أو منطقة كانت لها من أبيها إسحاق وادعت أنها فقدت ذلك ، ففشلوا الولد فعزروا معه على الشيء الذى ادعت عته سرقة فاستغته بشرع بنى إسرائيل وكان جراء السرقة فى الشريعة هو الاسترقاق . وبسبب هذا الشرع وجاءت آية حد السرقة تأكيداً للمسح وإن لم يكن قد نسخ بهذه الآية هى بدية للمسح « والمساوق والسارقة ما قطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

والسنة هى التى تبين لنا كيفية القطع ، وكان القطع المبدى اليمنى لأنها عادة التى تباشر مثل ذلك العمل . وفى إحدى رحلاتى إلى أمريكا ، حدثنى أخ مسلم حسن جماعة تحضر إحدى محاضراتى وقال : إن التيمم يجب أن يكون فى كل شيء ، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى ؟

قلت إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أسهرتها تحتجب ، فليست المسألة ميكانيكية . وأضحت . إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تحظى كالحاسب الآلى ولو كان يتقى ويحار لأمكن أن يحظى ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء . وقلت : إنى أسلب من أسائل أن يقع فلما وقف حليت منه أن يتقدم جهتي فلما تقدم جهتي مد رجله اليمنى ، فقلت تعليقا على هذا : « إنه تكوين خلفى » ولذلك نالنى عنده ولد تتابى عليه يمينه فربما أن ترغمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أودعها الخالق لتتبدل فى الخلق ، ولتظهر قدرة الخالق

فلا داعى لعهر الابن الذى تتأبى عليه يمينه ! لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست فى اليد ولكن فى المخ . وقد أوجد الحق تلك الأمور فى الكون حتى نفهم أن

خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسنه ، لا إنه يخرق السن كما أراد . لكن لو تأبى إنسان على استعمال اليد اليمنى في الأكل مثلاً وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفا لسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبجائبا للمطرقة

« فاقطعوا أيديها جزاء بما كسبا نكلاً » وإذا سمعنا كلمة « كسب » فهي تعنى الأحذ لأكثر من رأس المثل . والسارق يكسب السبئة لأنه أحذ من فرق الضرورة . والنكال : العقاب أو هو العبرة المأمعة وقوع الحزم سواء لم ارتكب الجريمة وكذلك لم يراها . والحق يقول عن بعض الأمور .

﴿ وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمْ كَذِبَهُمْ مِنْ أَنْزَمِينَ ﴾

(س الآية ٢ سورة التور)

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبه الفعل المؤتم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق . والخالق هو لدى صنع الصنعه فلا تتعلم على خالق لصنعه . والشرعية لا تقرر مثل هذا العذاب رغبة في قطع الأبدى ، بل تريد أن تمنع قطع لأيادي

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فليس يرتدع أحد . والنهي قالوا « نطع الأيدي فعل وحشي » ، يقول لهم : إن بدأ واحدة قطعت في السعودية فاستتعت كل سرقة . وإذا كان القتل أنفى للقتل ، فالقطع أنفى للقطع . أما عن مسألة التشويه التي يطمطون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدد من الناس وكذلك حادثة نفجار لأنسرية « بوتجاز » تعمل أكثر من ذلك . فلا تنظروا إلى انقصاص معصولا عن السرقة إن انتشرت في المجتمع . وإساءة القائمين على الأمر للإجراءات التي يترتب عليها العقوبات يسي المجتمع بشاعة الجريمة الأولى ، وعندما يحين وقت محاكمة المجرم تكون الرحمة موجودة .

يكن إن وقع العقاب ساعه لجرم تنته المسألة . وساعة يسمع الناس أنما سقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجرم . لأن المراد من الجراء العبرة والعظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكورة للإنسان بمطلوبات الله عنه إن أخذته العملة في سياسة الحياة فالجاء هنا نكلاً أي عقاباً وه نكولاً وهو

الرجوع عن فعل الذنب أى العبرة المانعة من وقوع الجرم . فكان الجراء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من فعلت يده فمتنع عن التكبر فى مثل ما آلت إليه هذه الحالة .

أو أن يحافظ الذى قصعت يده عن ما بقى من جوارحه الباقية ، لأنه قد قُطعت يمينه وإن عاد قُطعت يساره ، فإن عاد قُطعت رجله اليمى ثم إن عاد قطعت رجله اليسرى ويكون النكال لمنع الرجوع للجريمة ، وهو إما رجوع عن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أى جراحة من جوارحه قد نقصت فيحرص أن يظل الجوارح الباقية له ويعامل الحق حلقه سنة كونه هو ، أن من يأخذ غير حقه يجرم من حقه . ومثال ذلك قوم من بنى إسرائيل قال الله حكما فيهم : لقد استحللتم ما حرمت عليكم فلا جزاء لكم إلا أن أضيّق عليكم وأحرم عليكم ما أحللت لكم فقال :

﴿ فَبَطَلْهُمْ مِّنَ الَّذِينَ هَدَوْا حَرَمًا عَلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ أُحِلَّتْ مِّنْهُم ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن ليس فى قدرة أحد أن يضحك على الله أو أن يخدع الله أو أن يأخذ ما ليس حقا له . فإن أسرف الإنسان فى تعاطى أشياء حرمها الله عليه فسبى وقت يجرمه الله فيه من أشياء حللها له كالذى أسرف فى شرب الخمر أو فى تناول المواد المخدرة التى تغيب عن الوعى ، يتلبه الحق بما يجعه محروما من منفع أخرى كانت حلالا وإن أسرف الإنسان مثلا فى تناول الحلوى فإن اسرف بآتيه ، ويحرم الله عليه أشياء كثيرة

ولو قام السرف على نفسه ما أحله لنفسه بما حرمه الله عليه لوجد الصنفقة بالنسبة له خاسرة . فالذى أسرف بغير حق فى أن يأكل مال أحد ، يرى ماله وهو يضيع أمام عيبه . ولما فى ذلك المثل . كان السادة فى لريف - قديما - يقومون بتنقية الدقيق إلى درجة عالية حتى يصبح فى تمام النقاء من « الردة » . ويسمون هذا النوع من الدقيق « الدقيق العلامة » وكانوا يأكلون منه ويتركون البقية من الدقيق محتفظا بالردة ليأكله الخدم أو الفقراء ، فتأتى مرة يحرم الأطباء عليهم هذا الدقيق الأبيض ، ولا يجد الواحد منهم طعاما إلا الدقيق « السس » الذى كان يرفضه قديما فعليا - إذن - أن تنظر إليها كمقضية سائلة فى الكون كله ، ولتجس قول الله أملك .

﴿ فَمِطْلَمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا أَرَمَتْهُمُ طَائِفَتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الباء)

فَأُتِيتُ إِن أُحِذْتُ كَسْبُ يَدٍ وَاحِدَةٍ يَحْرِمُكَ الْحَقُّ مِنْ يَدٍ لَا مِنْ كَسْبٍ . فَإِذَا زِدْتَ حَرَمَكَ اللَّهُ مِنْ جَارِحَةٍ أُخْرَى ، وَهَكَذَا . وَتِلْكَ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ تُعَدِّلُ نِظَامَ الْكُونِ بِالنِّسْبَةِ لِلنَّاسِ ، وَخُصُوصًا مَنْ يَسْتَطِيعُونَ جِزَاءَ الْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُفَرِّقُهُمْ وَيُعْرِضُهُمْ وَيُطْعِمُهُمْ جَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

وَأُتِيتُ إِذَا مَا نَظَرْتُ وَصَنَعْتُ لِنَفْسِكَ دُفْعَةً جَعْرَافِيَّةً فِي الْبَيْتِ الَّتِي يَعْشِشُ فِيهَا فِي أَسْرَتِكَ ، أَوْ حَيْكٍ ، أَوْ بَلَدِكَ أَوْ أَمْتِكَ ، فَأُتِيتُ نَجْدٌ قَوْمًا قَدْ حَرَمُوا بِأَنفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْرَمَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ ، فَتَجِدُ وَاحِدًا مُصَابًا - وَالْعِبَادَةُ نَافِلَةٌ - بِالنَّوَلِيَا : وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَأْكُلَ قِطْعَةً مِنَ اللَّحْمِ ، أَوْ أُخْرَ مُصَابًا بِمَرْضَى السُّكْرِ ، وَتَوَاهٍ عَنِ قَادِرٍ عَلَى أَنْ يَأْكُلَ قِطْعَةً مِنَ الْخَلْرِ ، أَوْ مَلْعَقَةً مِنَ الْعَسَلِ . لِأَنَّ أَحَدًا لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا يَدُونَ عِلْمَ اللَّهِ وَصَمِعَ اللَّهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ عَزِيزٌ لَا يُغْتَبَ . فَيَأْخُذُ أَنْ تَعْلَى أَنْ يُمْسِكَ أَحَدٌ شَيْءًا مِنْ وَرَاءِ شَرَعِ اللَّهِ أَوْ نَظَرٍ نَكَتَ خَدَعَتِ شَرَعُ اللَّهِ ، فَهِيَ سَبِيحَاتُهُ عَزِيزٌ لَا يُضْبَ أَبَدًا . وَبَرَى فِي حَيَاتِنَا الَّذِينَ يَأْخُذُونَ أَمْوَالًا بِغَيْرِ حَقِّ رِشْوَةٍ أَوْ سَرِقَةٍ أَوْ احْتِلَاسًا ، نَرَى مَصَارِفَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَوْ الرِّشَاوِي أَوْ الْأَمْوَالِ قَدْ ذَهَبَتْ وَأَنْفَقَتْ فِي مَهَالِكٍ وَمَصَائِبٍ ؛ إِنَّمَا نَجِدُهَا قَدْ أَخَذَتْ مَا أَخَذُوهُ مِنْ حَرَامٍ ، وَمَالَتْ وَجَارَتْ عَلَى مَا كَسَبُوهُ مِنْ حِلَالٍ . وَأُرِيدُ مِنْ اسْتَرْفِيزٍ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَضَعُوا لِأَنفُسِهِمْ كُتُفَ حِسَابٍ ، فَيَكْتَبُوا فِي نَاحِيَةِ الْقُرْشِ الَّذِي كَسَبُوهُ مِنْ حَرَامٍ ، وَيَكْتَبُوا فِي نَاحِيَةِ أُخْرَى كُلِّ قُرْشٍ كَسَبُوهُ مِنْ حِلَالٍ . وَلِيُشَاهِدَ كُلُّ مُسْرِفٍ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَكْلِ حَقِّهِ النَّاسِ الْمَصَائِبَ إِلَى سَيِّئِهِ اللَّهُ بِهَا ، وَلِيُسَوِّفَ يَجِدَ أَنَّهُ قَدْ صَرَفَ لِمَوَاحِفِ الْمَصَائِبِ كُلِّ الْحَرَامِ وَمَعْصَا مِنْ الْحِلَالِ . وَلِذَلِكَ قَالَ الْأَثَرُ الصَّالِحُ : « مَنْ أَصَابَ مَالًا مِنْ تَهْلُوسِ أَدَمِهِ اللَّهُ فِي تَهْلُوسِهِ » (١) .

وَكُنْتُ أَعْرِفُ اثْنَيْنِ مِنَ النَّاسِ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّهَا وَلَدٌ فِي التَّعْلِيمِ . وَكُنْتُ أَجِدُ أَحَدَهُمَا يُعْطِي وَلَدَهُ خَمْسَةَ غُرُوشٍ . فَيَقُولُ الْآبَنُ لِأَبِيهِ : « مَعِيَ مَصْرُوفُ الْأَمْسِ »

(١) رَوَاهُ الْقُضَائِي عَنْ أَبِي سَلَمَةَ الْحَمَاقِيِّ سِرْفَرًا ، وَعَمَّا الدَّبْلِيِّ لِبَنِي بْنِ جَابِرٍ وَلَيْسَ مُصَابًا ، وَالتَّقِيُّ مِنْ

أَصَابَ مَالًا مِنْ غَيْرِ سَلَمَةِ أَدَمِهِ اللَّهُ فِي مَهَالِكٍ وَلَسَوْفَ تَجِدُهُ

وكان الآخر يعطى ولده عشرة قروش فيقول الابن له : « إنها لا تكفى شيئاً » . وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة في مكتب يتبع وزارة الري بالقرغازيق ، فمما جئنا لنخرج إذا برئيس كتاب تلك المصلحة يأتى نظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويتأوله لواحد منها ، فسأته : « ما هذا ؟ » فقال : بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وهدى من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبهم المدرسى . فقلت له : هذا سر خفية أولادك النواسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التي تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك : إن القروش العشرة لا تكفى شيئاً . أما الشخص الآخر فلابنه يقول له : « لا أريد مصروف يد اليوم لأن معى خمسة قروش هى مصروف أمى ولا أريد أن أخد دروساً خصوصية لأنى أحب الاعتناء على نفسى . »

وسبحانه الحق القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . ويقول لنا بلاها :

قال أبو الجلد : « لوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : قل لقومك . ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ؟ إن كنتم ترون لى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون لى أراكم فلم تجهلننى أهون الناظرين إليكم »^(١) .

إذاً قوله الحق « جزء مما كتبنا تكالاً من الله » واضح تماماً ، ويردف الحق قوله هذا : « والله عزيز حكيم » . وسبحانه عزيز لا يغلبه أحد ، حتى الذى يسرق ، إنما يسرق الرزق المكتوب له ، لأن العلماء اتفقوا على أن الشيء المروق رزق أيضاً لأنه يتنفع به . والله ليرصبر لجأه وطرق عليه بابه . فليأكم أن تحتالوا على قدر الله ، لأنه حكيم فى تقديره .

وكلمة « حكيم » لها فى حياتنا قصة ، كنا ونحن فى مقبل حياتنا التعليمية نحب الأدب والشعر والشعراء ، وبعد أن قرأنا للمعرى وجدنا عنده بعضاً من الشعر يؤول إلى الإلحاد ، فزهدنا فيه وخصوصاً عندما قرأنا قوله فى قصيدته :

نحطمننا الأيام حتى كأننا
رجاج ولكن لا يهاد لنا منك

(١) لورده ابن رجب فى شرحه فى كتاب (جذع العلوم واخكم) .

وأحدنا من ذلك القول أنه ينكر البعث ؛ فقلت . يغيبا الله عنه ولكن صديقا الشيخ فهمي عبداللطيف - رحمه الله - رأى المعري في الرؤيا وكان مولعا بالمعري ، فبعثه إلى ذات صباح ونعمن في الزقازيق وقال لي : يا شيخ لقد رأيت المعري الليلة في الرؤيا وهو غاضب منك أنت لأنك جفوته . فقلت . أنا جفوته لكذا وكذا وأنت تعلم السب في ذلك . وقال الشيخ فهمي عبداللطيف . هذا ما حصل .

وقلت لنفسى . يجب أن أعيد حسابى مع المعري ، وجئتنا بدواوينه « سقط الزند » وه لزوم ما لا يلزم » . ووجدنا أن لرجل عذرا في أن يعتب علينا ؛ لأن آفة الناس الذين يسجدون خواطر أصحاب المكر أنهم لا ينظرون إلى تاريخ مفعولاتهم ، وقد قال المعري قوله الذى أنكره عليه وقت أن كان شاب مفتونا بفكره وعندما مضج قال عكسه . وكثير من المكربين يهرون بذلك ، مثل طه حسين والعقاد ، بدأ كل منها الحياة بكلام قد يؤول إلى الإلحاد ولكنها كتب بعد النضج ما يحمل عطر الإيمان الصحيح ؛ لذلك لا يصح لمن يحكم عليهم أن يأخذهم بأوليات خواطرهم التى بدأوها بالنك حتى يصلوا إلى لغير . وجلست أبحث في المعري الذى قال :

نحططنا الأيام حتى كأننا
رجاج ولكن لا يعد لنا ميث

فوجدته هو نفسه الذى قال بعد أن ذهبت عنه المرافقة الفكرية .

زعم المنجم والطبيب كلاما
لا تحتر الأجساد قلت إليك
إن صح قولكما فليست بسماسر
أو صح قولى فالخمس عليكما

كأنه عاد إلى حقيرة الإيمان :

وكذلك قال المعري .

يد بخمس مئين عسجد ودينار
ما بها قطعت في ربع دينار

وقال بعد ذلك :

تَنَاقَضَ مَا لَنَا إِلَّا الْكَوْثُ لَهُ
وَإِنْ نَعُدُّ عِبْرَاتِنَا مِنْ النَّارِ

وقلت للشيخ طهني عبدالمطيب : للمعري حق في الكتاب وسأحاول أن أهلده قراءة شعره ، والأبيات التي أرى فيها خروجاً ساعدها قليلاً . وعندما جئت إلى ذلك البيت . قلت : لو أنه قال - وأنا أستأذنه - :

لِحُكْمِهِ مَا لَنَا إِلَّا الرِّضَاءُ بِهَا
وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ السَّارِ

فلكل شيء حكمة . ونحن نرى طبيياً بحيث طفلاً قلبه لا يتحمل المرقد - أي
البنج - أثناء إجراء عملية جراحية ، فهل يقن ظان أن الطبيب ينتقم من هذا
العلل ؟ طبعاً لا ، إذن فلكل شيء حكمة ، ويجب أن ننظر إلى الشيء وأن نربطه
بحكمته . والله عزيز أي لا يغلبه أحد ولا يحتال عليه أحد . وهو حكيم فيما يضع
من عقوبات للجرائم ، لأنه يزن للمجتمع نفسه بميزان العدالة ومن بعد ذلك يفتح
الحق سبحانه باب التوبة رحمة لمن يتوب ورحمة للمجتمع ، لذلك يقول الحق :

﴿۱۶﴾ مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿۱۷﴾

والسوق ظالم ، لأنه أخذ حق غيره ، فإن تاب أى ندم على الفعل وعزم على
 ألا يعود شريطة ألا تكون التوبة بالكلام فقط ، بل يصلح ما أفسده ، هنا تقبل
 التوبة . ولكن كيف يعمل ذلك ؟

إذا كان الشيء الماروف في حوزته فعليه أن يرده إلى صاحبه . وإن كان قد تصرف

فيه فعلية أن يأكل لصاحب الشيء ويستعمله ويقول له : كنت في غفلة نفسي وفي زهوة الشيطان منى ففعلت كذا وكذا . وأعتقد أن أى إنسان سرق من إنسان آخر وبعد فترة اعترف له وطلب العفو منه فأنا أقسم بالله أنه سيعفو عنه راضيا . وبذلك يستحل الشيء الذى أخذه . لكن لماذا إن كان السارق لا يعرف صاحب الشيء المسروق . كلص . الأتومسات ؟

إن كان قد سرق محضة نفوذ من شخص ووجد العنوان يستطيع أن يرد الشيء المسروق بحالة يريده من مجهول تحمل قيمة المبلغ المسروق ويطلب فيها السماح عن السرقة . وإن لم يعرف من سرقه فعلية أن يقول : الله أعلم بصاحب هذا المبلغ وأنا سأتصدق به في سبيل الله وأقول : يارب ثوابه لصاحبه .

إذن فوجوه الإصلاح كثيرة . وإن كان يجمل من رد الشيء المسروق فليقل : فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة . وفي القرآن تأتي آيات كثيرة عن التوبة : ﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

كان توبة الله مكتوبة أولا ، ثم يتوب العبد من بعد ذلك . وسبحانه يقول :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة طه)

وللتوبة - كما نعلم - ثلاث مراحل . فالحق حين شرع التوبة كان ذلك إذنا بها وبعد ذلك يتوب العبد ، فيتوب الله عليه ويحور عنه الذنب ويكون الغفران بقبول الله للتوبة . ولذلك يقول الحق : « فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

وَصِفَةُ الْغَفْرِ وَصِفَةُ الرَّحْمَةِ كُلٌّ فِي مَطْلَعِهَا تُكُونُ اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَهِيَ تَوْبَةُ لِلْجَنِّ وَرَحْمَةُ لِلْمَجْنُونِ عَلَيْهِ . وَكَيْفَةُ « إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » تَوْضِيحٌ لِّمَا أَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَهُ طَلَاةُ الْقُدْرَةِ وَهُوَ يَخْفَرُ وَأَنْ يَرْحَمَ قَوْلُكَ أَنْ تَقُولَ . إِنْ فَلَانَا لَا يَسْتَحِقُّ الْغَفْرَةَ وَالرَّحْمَةَ ؛ لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ مَلِكُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الَّذِي أَحْطَى لِلْبَشَرِ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجِبَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَهُ طَلَاةُ الْقُدْرَةِ فِي الْكَوْنِ ، وَلِلْمَلِكِ يَقُولُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ :

﴿الَّذِي تَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ويستخدم الحق سبحانه من أساليب البيان ما يخرجنا عن الغفلة ، فلم يقل :
« الله له ملك السموات والأرض » ، ولو كان قد قال ذلك لكان الأمر خيراً من
التكلم وهو الله ، ولكنه يريد أن يكون الخبر من المخاطب إقراراً من العبد .
ولا يخرج الخبر تخرج الاستفهام إلا وقائل الخبر واثق من أن جواب الاستفهام في
صاحبه ، والمثال على هذا هو أن يأتيك إنسان ويقول : « أنت تهملني » ، فتقول : أنا
أجبت إليك .

ولكن إن أردت أن تستخرج الخبر منه فانت تقول : ألم أجيب إليك ؟ وبذلك
تستفهم منه ، والاستفهام يريد جواباً . فكان المشوّل حين يجيب عليه أن يدبر ذهنه
في كل مجال ولا يجد إلا أن يقول : نعم أنت أحسنت إلني . ولرجاء ذلك من المتكلم
لكانت دعوى ، لكن إن جاءت من المخاطب فهي إقرار ، ومثال ذلك قول الحق :
﴿الَّذِي تَفْصَحُ لَكَ صَدْرَكَ﴾

(سورة الشرح)

إنه خبرٌ من المتكلم والإقرار من المخلفي . وقد يقول قائل ولماذا لم يقل الحق :
« أشرحنا لك صدرك » ؟ كان من الممكن ذلك ، ولكن الحق لم يقلها حتى لا يكون
في السؤال إيماء بجواب الإثبات بل جاءت بالنفي
وفي وقوله الحق :

﴿الَّذِي تَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(سورة النازعات)

نجد منطوق الآية ليس دهورى من الحق ، ولكنه استفهام للخلق ليدبروا الجواب على هذا ، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا . « الله ملك السموات والأرض » . وهذا أسلوب لإثبات الحق والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق . « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » ، وقد يقول إنسان . إن هناك أجزاء من الأرض ملكا للبشر . ونقول . صحيح أن في الأرض أجزاء هي ملك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لا يقدر على الاحتفاظ به . . كملك البيت والأرض ، إنه يملك - بكسر الميم - ماله ، وهناك « ملك » - بضم الميم - يملك هو الله . وفي الحديث نجد أن لكل إنسان ملكية ما . ولكن الملك في الأرض يملك القرار في أملاك شعبه ، وهذا في دنيا الأسباب ، أما في الآخرة فالأسباب كلها تمتنع :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ فَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ١٦ سورة طه)

فلا أحد له ملك يوم القيامة .

« ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يُعَذِّبُ من يشاء ويفقر لمن يشاء » والقارىء بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ونأتى الأمر في أحياى أخرى بالعكس . ولكن هذا القول هو الوحيد في القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء في القرآن يكون الغفران مقدماً على العذاب ، لأن الحق سبحانه قال في الحديث القدسي :

(إن رَحِمِي سَبَقَتْ خُصِي)^(١) .

فسإذا جاء العذاب في هذه الآية مقدماً على الغفران : « يعذب من يشاء ويفقر من يشاء » هل السبب هو التمتنع في الأسباب ؟ لا ، لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه . ولننظر إلى السياق جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عصى نازب . فالسرقة إذن تقتضى التعذيب ، والتوبة تقتضى المغفرة ، إذن فالترتيب هنا منطقي .

(١) رواه البخاري في التوحيد ورواه الحلق . ورواه مسلم في التوبة ورواه الترمذي في الدعوات ، وابن ماجه في

ونلاحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرقة وبعد آية الإعلام بأن له مُلْكُ
السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تذييل بخدم الاثنين معاً . ليؤكد سيطرة
القدرة . وحين يرد الحق أن يرحم واحداً . فليس في قدرة المرحوم أن يقول :
« لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول الملعوب - بفتح الذال - :
« لا داعي للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على ردّ العذاب أو
الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً متعددة . فإن حسبناها في ميزان
الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها في ميزان الزمن ، فكيف يكون
الأمر ؟ .

نعرف أن التعذيب للسرقة قسبان .. تعذيب بإقامة الحد ، وفي الآخرة تكون
المغفرة . إذن فالكلام منطقي متسق .

إنني أقول دائماً : إياكم أن تأخذوا بأن الكافر يكفر ، والمعاصي بمعنى دون أن
ينال عقابه ؛ لأن من تعود أن يتأثر على منهج الله ، فبكفر أو بمعنى لا بد له من
عقاب . لقد تجرد على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التمرد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة
لإنسان أن يتمرد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف في مواجهة الموت ، وهو
بعض من قدرة الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجد للإنسان
احتياطاً في أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فها من مرّت نفسك على التمرد
على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرد على صاحب المنهج وهو الله . ولن تستطيع
لا في شكك ولا لولئك ولا صحتك ولا ميعاد موتك . وليفتح كل مُتمرد أذنيه ،
وليحرف أنه لن يقدر على أن يتمرد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول
الله : « والله على كل شيء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق .

﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ ﴾

فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَامِهِمْ وَلَمْ
تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمِهِ الْخَرِيفَ لَمَّا تَوَلَّوْا
يُخْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ
أُرِيدَ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُتَوَقَّهْ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ
يُؤْرِدِ اللَّهُ فَتَنَّهُ فَلَئِنْ تَمَّيَّلَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
أَوْ لَتَمَّيَّلَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١١﴾

نأن في النداء بحرف الإقبال وهو « يا » ويدخله على « المأدى » أى أنك تطلب
إقباله . فهل يطلب إقباله لجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادى الحق سبحانه وتعالى لشرف
من ناداهم وهم رُسُلُهُ ، نجد أنه نادى كل الرُّسل بمشخصاتهم العَلَمِيَّة .
(يا آدم) ، والمُشَخَّص العَلَمِي هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا لتشخيص
الذات بكون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١١﴾ قَدْ صَلَّقْتُ الرُّءْيَا ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَنْتُحِ أَهْبَاطَ بَيْتِهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَمْوَيْنِ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام .

﴿ يَعْزِيزِي آيَةَ مَرْيَمَ إِذْ نَفَثَ فِيهَا ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُلُّ الرُّسُلِ ناداهم الحق بالشَّخص العَلَمِي الذي لا يعطى إلا التشخيص ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الرُّسُل ما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مُشخصات الذات فيقول : (يا أيُّها الرسول) ، ويقول : (يا أيُّها النبي) .

حقاً إن الجميع رُسُل ، ولكنه سبحانه يريد أن يدلنا أن عمداً صلى الله عليه وسلم هو الرسول الذي جاء ناسخاً للكلِّ ومؤمناً بالكلِّ ، هو الذي يستحق التَّناء بالوصف الزائد عن مُشخصات الذات . « يا أيُّها الرسول » . وهو الرسول الذي تقوم عليه الساعة . ولذلك نجد خطاب الحق لرسوله دائماً : « يا أيُّها الرسول » أو : « يا أيُّها النبي » ، وهذا نوع من التَّكريم .

واحق يقول هنا : « يا أيُّها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » . أي لا تحزن يا رسول الله من الذين يسارعون في الكفر . وحين يخاطب الحق رسوله لئلا يحزن ، علينا أن نعرف هي ماذا يكون الحزن ؟ . سبحانه يوضح لرسوله : إياك أن تحزن لأن معك فلان يبالغ في غشوك ولا يمكن أن اختارك رسولاً وأخذت ، إياهم لئلا ينالوا منك شيئاً .

وقد يكون حزن النبي صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن التأسى الذى قال فيه الحق :

﴿ فَعَلَّكَ بَخْصَ نَفْسِكَ عَلَىٰ النَّاسِ أَن تُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝١٠ ﴾

(سورة الكهف)

لأن الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر

﴿ إِن تَشَاءْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ عَلَيْهُمْ مَا خَافُوا ۝١١ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعتاقاً ؟ لا . بل يريد قسراً ، لأن سيطرة القدرة بإمكانها أن تفعل ما تريد ، بدليل أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أتت للمخالق طائعة . فلا يمكن أن ينأى الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة في سائر الكون ، ولكن الله أحب أن يأتي عبده - وهو السيد - بالإيمان مختاراً ؛ لأن الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثانى هو إيمان المحبة .

وقد صرنا من قبل المثل على ذلك وأوضحه . هب أن عندك خادمين ويطب أحدهما في سلسلة لأنت إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تهذب السلسلة فيأتى ، إنه يأن لسيطرة قدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فأتت تتركه حراً ويأتبك من فور النداء . فأيهما أحب إليّ ؟ لأنت أنك تحب الذى يهوى عن حب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مختاراً لذلك قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۝٧٢ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل لآمانة خورها وإشعافاً من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يجرئك » فلما إذا كان الحزن بسبب الخوف على الميخ منكم ، فالحق ينصره ولن يمتكنهم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ،

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً غير مفعولٍ على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « لا يجرئك الذين يسرعون في الكفر » .

وهذه رُبُوبية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشيء ، لا في الشيء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة آل عمران)

ولكن هنا يجده يقول : « يسارعون في الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون في دائرة الكفر . ويعلمنا أنهم في البداية في الكفر ، يسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « في » في القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا في الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

واحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٩ سورة النساء)

وهي ليست أموال للمخاطبين ، ولكنها في الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يبيننا أن السفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأمر الحق بالوصي والتميم على المال ويأمره أن يعتبر للمال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره ألا يجزئ المال ليأكل منه الشيء ، لأن المال إن أكل منه الشيء ودفع له الزكاة ، قد ينصب ويُعبد . لذلك قال الحق

﴿ وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾

(من الآية ٩ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَأَرْزُقْهُمْ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النازعات)

لم يقل ارزقهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الورق مطبوع في رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال في الحياة حتى لا ينقص بالتمتعة ، وحتى لا تستهلكه الزكاة ، وحتى يسفح السفيه رشده ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « في » وهناك آية الصلب .

﴿ وَالْأَصْلَبُ كَرِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة النازعات)

بعض المفسرين يقولون في هذه الآية : « لأصلبكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يفسروا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا في تفسير ذلك :

لأصلبكم على جذوع النخل تصلباً قوياً يدخل المصلوب في المصلوب فيه ومثال ذلك لو جئنا بعمود ثقل وربطناه على الأصبع بخيط رقيق وأوثقنا الربط ، فعود الثقب يقوس في الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « ولأصلبكم في جذوع النخل » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أسس أنه تصلب على جذوع النخل تصلباً قوياً يدخل المصلوب في المصلوب فيه . وتلك هي العلة في وجود « في » وعدم وجود « على » .

والحق يقول ها . « لا يجرئك الدين يسارعون في الكفر » فكأن المسارعة إما أن تكون بـ « إلى » وإما أن تكون بـ « في » . فإن كانت بـ « إلى » فهي انتقال إلى شيء لم يكن فيه ساحة بدء السرعة ، وإن كانت بـ « في » فهي انتقال إلى صحن الشيء الذي كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لا يجرئك الدين يسارعون في الكفر » من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، فالإيمان محله القلب ، والإسلام محله الجوارح ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة المجرات)

إنهم يسارعون إلى الصف الأول في الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحمته القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم أما ، هم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها اقنوب . وهم قالوه بأفواههم وما مرت على قلوبهم . وماداموا قد قالوا بأفواههم أما وما مرت على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم في كل يوم ستظهر منهم أشياء تدلهم في الكفر ، لأنهم من البداية قد أبطروا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون في مجال الكفر

« من الذين قالو آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ، هم إذن صنفان اثنان يسارعان في الكفر ، المنافقون الذين قالوا بأفواههم أما ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « يسارعون للكذب » وساعه تسمع مادة « السين » والميم والعين ، فهذا يعنى أن الأذن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصَوِّت إما أن يكون مُتَكَيِّمًا بالكلام الحق فيجذب من الأذن الإيمانية استماعاً بإنصات ، ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ، فيقول المؤمن . أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الوريثين يسمعون كذباً ، لكن الفصيل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس لهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع ونرى في الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأتي بالأموات اللازمة لذلك ، ويغال هنا عن هذا الرجل . « نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجار » ؛ لأن النجار هو من تكون حرفته النجارة .

إذن كلمة « سامع للكذب » لا تؤدي المعنى ، ولكن « سَمَّاع » تؤدي المعنى ، أى أن صناعته هي التسمع ، وهتاعا يقول الحق : « سمَّاعون للكذب سمَّاعون لقوم آخرين لم يأتوك » أى إيقروا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟ . لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة

وما معنى الكذب هنا ومن هم السَمَّاعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الأخبار والرهبان الذين قالوا لأنبيائهم كلاماً غير نبي من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سمَّاعين للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قوم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك . فقد رأى أحد أتباع ملك في العصر القديم وحاولوا أن يفهموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجم هذا الرجل ويبحثوا عن حكم آخر .

ورسخ الكهنة لأمر الملك وقالوا : نَعْمُ وجه الزَّانِ - أى نُسُود وجهه بالحُصم وهو القُصم - ونجعله يركب حماراً ووجهه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرُّجم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية ليُحْمَرُوا في اقوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده في استصدار أحكام فيها هولاة ولي . ورفضوا عليه بعضاً من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشَدِّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الرُّنَا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وجاء رسول الله بالحكم الذي نزل من لسياء وهو الرُّجم . ولكنهم قالوا للرُّجم لا . يكفي أن يجلد به أربعين جلدة وأن نُسُود وجهه وأن يجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ليس عندكم رجل صالح له حسم بالكتاب ؟ وهنا صمتوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شاباً أُمرد أبيض أمور يسكن في ذلك ؟ يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم بيود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحكم النازل في الرُّنَا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله مالدى لا إله إلا هو ويحق من لوسل موسى ، ويحق من أنزل التوراة على موسى ، ويحق من فلق البحر ، ويحق من أغرق فرعون ، ويحق من ظلمهم بالقيام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُنزل فيه كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق ، فقال ابن صوريا : نعم نجد الرُّجم للرُّنَا . وهنا سئ اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حكم مخفف من رسول الله ليُقتلوا الزان صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؟ لذلك قال الحق على لسانهم : وإن أويشم هذا ، أي التخفيف أراد بخنوده ، وإن وجلتم العقاب القاسى فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن بهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يتفنون التخفيف فإن وافق الحكم هراهم قالوا : إن محمداً هو الذى حَكَمَ ، ومن المعجيب أنهم أهداه لمحمد وكلفرون به . وبرغم ذلك يحكمونه .

هذه الواقعة يرويها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى يهودى ويهودية لى زيبا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على من زى ؟ قالوا : نسود وجوهها ونحسبها ونحملها ونخالف بين وجوهها ، ويطلب بها ، قال : (فأتوا بالنواة فأتلروها إن كنتم صادقين) قال : فجلوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مرّ بآية الرجم وضع العتي الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرّة فليرفع يده ، فرفع يده لأن تحتها آية الرجم ، فلمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجا ، قال عبدالله بن عمر : كنت فىمن رجمها فلقد رأيت يقرها من الحجارة بنفسه » (١) .

إنهم يريدون الحكم السهل المين اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القود . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى - كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه - أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فظهرت بنو النضير بنى قريظة ، فكانت النضير وهى العريضة إذا قتلت أحداً من بنى قريظة وهى الذليلة لم يقبلوهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه يقتلهم . إنما يعطوهم الدية . وكانت قريظة إذا قتلت أحداً من بنى النضير لم يرضوا منهم إلا بالقود فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة لحاكموا إليه فى هذا الأمر فحكم بالتسوية بينهم ، فسأهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكدة للمعنى .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئا ، والفتنة هي التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ نَمُوتُ عَلَى النَّارِ يُقْتَلُونَ ﴾ (١٢)

(سورة النازعات)

والفتنة أيضاً هي الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أى وصعت الذهب في برقعة وحولته بالحرارة العالية من جسم صلب إلى سائل حتى نستخلصه من المواد العالقة لثابتة التي فيه ليصير نقياً . والفتنة في ذاتها ليست مضمومة . ولكن المضموم منها هو النتيجة التي تصل إليها ، أينجح الإنسان فيها أم يرسب ؟ لأن الاختبارات التي يمر بها الإنسان كلها هي فتنة ، والذي ينجح تكون الفتنة بالسبب إليه طيبة ، والذي يرسب وفشل فالفتنة بالسبب إليه سيئة . وعندما يرد الله فتنة بشر أى يريد اختبارهم ، أباتون طوعاً واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالى أعطى للإنسان قدرة الاختيار حتى يُثبت صفة المحبوبة فسبحانه أراد ذلك ، ولا أحد يقادر أن يجعل الإنسان مفهوماً . وقد أراد الله اختباراً وأن يتل وأن يختبر . أينجح أم يرسب ، أ يكون مؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئا » . وجعل سبحانه ذلك قانوناً خلفه بمتى الوضوح ، وهناك جانب في الإنسان مُسَخَّر ، وجانب آخر مُخَيَّر . « ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئا » . أى أن أحداً لا يجرؤ أن يعير نواويس الكون ولن ينير الله نواويس الكون من أجل أى أحد ، لأن النواويس لا بد أن تسير كما أَرادها الله حتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث في أحد ، عتلمنا تحاذل الرماة ولم يسمعوا إلى نصيحة القائد الأعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أغير الله من أجل وجود حبيبه معهم ؟ لا ، وانهمزموا على رغم وجود رسول الله معهم ، لأن الله أراد للجنة الكونية أن تسير كما هي من أجل إصلاح الأمر . فلو فُرض أنهم انتصروا من أجل خاطر النسي ، ماذا يكون الموقف في أوامره صلى الله عليه وسلم فيما بعد ؟ كان من الممكن أن يقول شخص منهم : « عالفاه وانتصرنا » . إذن لا بد لسنة الله أن تُتخذ

﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا جَزَاءٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة التائيه)

لماذا لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفي قلب المنافق مرض . وعندما تأتي أحداث يستفح بها المسلمون فالمنافق يرداد حيقداً ومرحفاً لأن قلبه ممتلئ بالعل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقس على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة الدحراك)

فهل علم هداية الله هم نشأت أولاً ، ثم شأ الكفر ، أو شأ الكفر منهم فجاه عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هي ما يحدث في كون الله . ولا شيء قد حدث في كون الله غصبا عن الله . والاختيار خلفه الله في الإنسان ليصير الإنسان خيراً بين الكفر والإيمان . وما دم الحق قد خلق الإنسان مختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه يريد كونيّاً ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفوّاً أو هداية . لكن أمريد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سيئوى إما أن يتعلمه العبد وإما أن يعصيه . ويعرف أن هناك أشياء مُراد كونياً وأشياء مُراد شرعياً . والمُراد الكون هو الذي يكون : أما الإنسان لقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذي يسرق لا يسرق غصبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

وبعن حين ننظر إلى الساعة التي نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توقيت أى بلد ، فهل هذا يتم عصيا عن الصانع ؟ لا . وكذلك جهار « التليفزيون » ، إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذي صمم التليفزيون جعله صالحا لهذا ولذا ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هي كل ما يكون في ملك الله ، والإرادة الشرعية هي كل ما يكون في شرع الله « افعل ولا تفعل » . ومادام هناك أمر كوني وأمر شرعي فالكون قد أوجده الله لخدمة المؤمنين والكافر والعاصي ، لكن الأمر الشرعي جعله الله للمؤمن .

إذن إيمان المؤمن بأرادة الله كون ، لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمنين شرعا . وكفر الكافر لم يتم خصبا عن الله ولكن الإنسان بخلافه مختارا . صار كفره أمرا كونيا ، ولكنه غير مُراد شرعا ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعا . وإيمان الكافر غير مُراد كونا وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام في المُراد كون وشرعا . وهذه هي القسمة العقلية .

إذن من يُرد الله فتته كوناً فلا راد لإرادة الله ، فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - المولد يعطى لابته جنيتها ويقول له : أنت حُر في هذا المبلغ فإن اشتريت مصحفا أو كتاب حين أو شيئا تأكله أنت وإخوتك فأكادلك وأستأملك على أشياء كثيرة . أما إن اشتريت ورق اللعب المُسمى « كوتشينة » فسأعضب منك .

وحين يذهب الولد ليشتري ورق اللعب المُسمى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك خصبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصيب غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المُراد كونا والمُراد شرعا . وبين المُراد كونا لا شرعا . والمُراد شرعا لا كونا .

« أولئك الذين لم يُرد الله أن يُظهر قلوبهم ، كان ذلك كونا ، لأنه سبحانه جعلهم قابلين للتطهير وقابلين لغيره ، فإن فعلوا أى شيء فهم لن يفعلوه خصبا عن الله ، لذلك يبدل الحق الآية : « هم في الدنيا جزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم » فكان

معنى ذلك أن في قلوبهم أشياء صمد الظهارة ، ولهم في الدنيا خزي . والخزي يطلق
على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والممانيان يمتنيان . وهنا في مجال هذه الآية :
أي خزي وأي فتنة ؟ إنيها فتنة اليهود ، وكان المنافقون كلما فعلوا شيئاً
يتفضح . وعندما يبينون أي شيء فإن الله يخبر رسوله عما يبيتون .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بَیْمَتِهِمْ وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي حَزَنِ الْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : بأنهم الخزي أي الانفصاح ، أي أن يصيروا إلى المسترسل
بعد أن كانوا في المستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة
هذه البقعة ، سادتي عليا لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فاليون لا يعرفون
شيئاً . وكان اقتصاد المدينة في أيدي اليهود ، من مال وصناعة وزراعة وعجبة اجاء .
وعندما يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يهدمهم السادة ، ثم يتفضح
أمرهم وكذبهم ، وينم إحلاؤهم ، وتسمى ساؤهم ويقتل بعضهم . وعندما يدبرون
كيداً لرسول الله ، يفضحهم الله ، وكل ذلك خزي ، وليس الخزي هو الجزاء
الوحيد لهم ، بل يلقون في الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّحْتِ فَإِنْ
جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ
عَنْهُمْ فَكَانَ يَصُورُكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ
فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ ﴾

وفي اللغة ألفاظ مفردة ، مثال - « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها

« البلور » ، وكذلك الصفا والمروة ، وعندما تبحث في القاموس عن كلمة « مروءة » تعرف أن معنى اللفظ بعيد عن النسبة ، فأول عمل للغة أن تعرف معنى الألفاظ بعيداً عن نسبتها . ومهمة القاموس أن يشرح لك معنى اللفظ بعيداً عن النسبة دون إثبات أو نفي ، مثال ذلك « الجرو » معناها هو ما يحيط بك من هوء أو غير ذلك ، لكن القاموس لا يشرح هل الجرو مكهر أو صاف أو بارد .

وإن تقدمنا مرحلة أخرى وأحدنا اللفظ لنصنع له سبته ، كأن نقول : « الجرو صحور » ، هنا نتقل من فهم معنى كلمة « جَو » ، إلى أننا نسبنا الصحور إليه . والكلام المفيد يأتي في النسب . ولا تأتي النسب إلا بعد معرفة معاني الألفاظ . والنسب تعني أن ننسب شيئاً إلى شيء ، كأن نقول : « محمد مجتهد » هنا نسبنا لمحمد الاجتهاد ، وذلك بعد أن عرفنا معنى كلمة « محمد » بمفردها ، ومعنى « مجتهد » بمفردها .

إذن الكلام المفيد يتأتى في النسب . وقد تكون الإفادة بضميمة كلمة إلى ما سبقها ، فعندما يسألك إنسان : « من عندك » ؟ فنقول : « محمد » ، هذا القول أفاد ، لأنه انضم إلى كلمة أخرى صار للمعنى : « محمد عندي » .

إذن هناك نسب ، والنسب هي أن تنسب حكماً إلى شيء إما إيجاباً وإما نفيًا

والنسبة تنقسم إلى قسمين : نسبة واقعة ، ونسبة غير واقعة . وإن كانت النسبة واقعة فهل نعتنقها ؟ وهل نستطيع أن نقيم عليها ديناً ؟ إن كانت النسبة الواقعة ومقام عليها الدليل تكون علمياً . وإن كانت نسبة وواقعة وأنت نعتنقها ولا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تقليد ، مثل الطفل الذي يقلد أباه فيقول : « الله أحد » ، والطفل في هذه الحالة لا يستطيع أن يقيم على هذه النسبة دليلاً .

إن العلم أهل مراتب النسب لأنه نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل . أما إذا كانت نسبة معتقدة وغير واقعة ، فهذا هو الجهل ، لأن الجاهل هو الذي يعرف الشيء على غير وجهه الصحيح . أما الأحمق فهو الذي لا يعرف شيئاً ونجد صعوبة في الشرح للجاهل ، مثال ذلك الذي يقول الأرض مسوطة ويدافع عنها ، إنه يقول نسبة يعضدها ، ولكنها غير الواقع لأنها كروية .

والجاهل - إذن - أن تعرف نسبة تعتقدها وهي غير واقعة . ولا يرهق الدنيا غير الجاهل ، لا الأمل ، لأن الأمل له عقل فارغ يكفى أن تقول له الحقيقة فيصدقها ، أما الجاهل فيحتاج إلى أن فحلج من أفكاره المكر الخاطيء ونفزع له الفكر الصحيح .

أما إن كانت النسبة غير واقعة . فالتفى فيها يساوى الإثبات ، وهذا هو الشك . وإن كانت هناك نسبة راجحة فهو الظن . والنسبة المرجوحة هي الوهم . إذن هناك عدد من النسب : نسبة عدم ، نسبة تقليد ، نسبة جهل ، نسبة شك ، نسبة ظن ، نسبة وهم . وعلى ذلك يكون الكذب نسبة غير واقعة ، فإن كنت تعتقدها فأنت من الجاهلين .

ويقابل الكذب الصدق ، وعندما يقول الحق : « سهاون للكذب » . فالنسبة هنا غير مطابقة للواقع . ويقتصر المتكلمون بعض النسب التي تأتي في بعض من أسلوب القرآن ويقولون : في القرآن كلام لو تحصناه لوجدناه غير دقيق . مثال ذلك

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

كلام المنافقين هنا قد طابق كلام الله ، ولكن لما يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

النسبة واحدة ، لكن الله يكذب المنافقين . وإن فطنا إلى قول الله حكاية عنهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

أي أن الله يكذب شهدتهم ، لأن محمداً رسول الله بالفعل ، ولكنهم كاذبون لأنهم لا يعتقدون ذلك ، فالشهادة هي ما يوافق الإنسان ما في القلب .

إذن نوله الحق : « سهاون للكذب أكاثون لسحت » أي أن عملهم الاستماع

للكذب ، وأكل السحت وكلهم يرمقون إن أكلوا حلالاً ، وأكّل صبيغة للمبالغة ؛
وتكون إما في الحدث ، وإما في تكرار أنواع الحدث . يقال : « فلان أكال » ،
وهو فلان أكول ، وهو الإنسان الذي يأكل بشراهة أو يأكل كثيراً ، والمبالغة - إذن - إما
أن تكون في الحدث وإما في تكرير الحدث .

« أَكَالُونَ لِلْسُّحْتِ » ومادة « سحّ » تعني « استأصل ومحا » ، ولكنها تزيد أنها
استأصلته استئصالاً لم يبق له أثرٌ وتعلى الاستئصال إلى ظوله . مثلك ذلك عند ظهور
بقعة من زيت أو طعام على ثوب ، نستطيع استئصال البقعة ، ونستطيع للمبالغة في
استئصالها إلى أن نتحت من الثوب . والسُّحْت استئصال مبالغ فيه لتوجة الجور على
الأصل قليلاً . أي يستأصل الذي جاء معه بعض من الأصل أيضاً ؛ لذلك جاء
المفسرون إلى هذا المعنى في شرح الرُّبَا لأن الله يصفه بالقول :

﴿ بِمَحَقِّ اللَّهِ الرَّبَّوْا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

والربا في مفهومنا أنه زيادة ، ولكن الحق أوضح لنا أنه ليس بزيادة ؛ لأنه يخل
ويستأصل ويأكل ويحكت أصل المال . وظاهر الربا الزيادة وباطنه محق واستئصال .

أما الزكاة فظاهاها نقص ، ولكنها غناء ، وبذلك نرى اختلاف مقاييس الخلق عن
مقاييس الحق . وبمثل الواضح : أن النفس تلغض دائماً إلى رزق الإيجاب ،
ولا تلغض إلى رزق السلب . فرجل راتبه خمسمائة جنيه ، وآخر راتبه مائة جنيه ،
صاحب الراتب البالغ الخمسمائة فتح الله عليه أبواباً محتاج إلى ألف من
الجنيهات ، والذي يأخذ مائة جنيه سدّ الحق عنه أبواباً لا تأخذ منه كل راتب بل
تبقى له حشرة جنيهات .

هناك - إذن - رزق إيجاب يريد الدخول ، ورزق سلب أن يسلب الحق منك
للمصارف في المصائب والمهلك ويبارك لك فيها أحطاك .

والسُّحْت هو كل شيء تأخذ من غير طريق الحلال ، كالرشوة أو الربا أو السرقة
أو الاختلاس أو الخطب . وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سُحْت .

« ساهون للكذب أكالون للشح » وهذا القول دليل على أن أذنتهم اعتلت سماع الكذب ويقبلون عليه . وعندما يقول نحن في الصلاة : « سمع الله لمن حمده » ، أي أننا ندعو الله أن يقبل الحمد . وهم ساهون للكذب أي يقبلون الكذب . والسماع جارحة ، والاكل بناء ما به الجارحة لأنه مقوم لها . مثلها يأكل لينمو ، وإن كان ناضجاً يحفظ له العاقبة والقدرة

فالنمو - إذن - معناه أن يدخل حوله أكثر مما يخرج منه . وبعد فترة يدخل الى جسمه هل قدر ما يخرج منه ، ثم الشيخوخة يجد فيها أن ما يخرج أكثر مما يدخل . وماداموا ساهين للكذب أكالين للشح ، فهم في بولٍ دائم ، لأن أكل الشح حثية من حيثيات الاستماع المصطنع للكذب ، لأنهم قد بنوا ذرات أجسادهم من حرام ، فكيف ترفض أذانهم الكذب ؟ بل أذانهم تستدعي الكذب ، ولستهم تحترقه . وحيوتهم تستدعي المحارم ، وأيديهم تستدعي السرقة ، إنها الأبعاض التي بناها أصحابها من حرام .

ولم يقل الحق عنهم : « ساهون » ، بل قال : « ساهون » أي جعلوا صناعتهم أن يتسموا ، وهم الجواسيس ، وإلا فإذا كان الأمر غير ذلك لكان كل من سمع كتباً بعد من هؤلاء . والقول مقصود به من جعل السماع صنعة له ، ولا يجعل إنسان السماع صنعة له إلا إذا كان عبثاً لغيره ، والمعين للغير يتلصص على أمانة المجالس ، ولكل مجلس أمانة . فإذا ما حضر إنسان مجلساً فليس له أن يتقل ما في ذلك المجلس إلى غيره إلا أن يكون ذلك هو صناعته ، وتلك هي مهنة

« ساهون للكذب أكالون للشح » وهنا قصيتان . فهل السماع للكذب سببه أكل الشح ، أم أكل الشح سببه السماع للكذب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حبس خلق الإنسان من طينة الأرض وصوره على شكل آدم نفخ فيه من روحه ، وحين صوره من طينة الأرض جعل كل مقومات حركة حياته من طبيعة طينة الأرض ، فإذا ما أخذ الإنسان شيئاً من جل ، اعتلت الذرات في نفسه على الهيئة التي خلقها الله . وإن تدخل فيها بحرام جعل في الذرات اختلالاً تكريهاً . وهذا الاختلال التكويني هو الذي جعل أكل الحرام سبباً للكذب . ولولم

يكن فيه فلك الاختلال التكويني الذي صنعه بتعنه لما سمع الكذب ابداً .

أو أنه عندما أكل الشُّعْت حمار سباعها للكذب . أو سمع كلباً همار أكلًا للشُّعْت . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : « أكل للشُّعْت » ، ولم يقل : « سمع للكذب » ، ولكنه قال : « ساعون للكذب أكلون للشُّعْت » أى أنهم تعودوا سماع الكذب وتعودوا أكل الشُّعْت ، فالواحد منهم أخذ حراماً من أول الأمر ، وعندما صار أكلًا وساعاً للكذب في آن واحد ، اختلت ذرات تكوينه ، ولم يعد في أحياه نور ليرفض الكذب ، بل أقبل عليه ، وبغريه الكذب ثابته بأن يأكل الشُّعْت ، بالأمر دائر بين سماع كذب وأكل سعت .

ونفسية الكذب هي قصة صراع الباطل مع الحق . ومادام الكذب غير مطابق لواقع كوني أو لواقع منهجي تكليفي فهذا يصنع خللاً في الكون . وحينها أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا المثل في ذلك جاء بالمثل في أمر حتى حتى نراه جميعاً :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن كل وادٍ تحمّل على قدر طاقته . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

فقبل أن يتزل السيل من على الجبال إلى الوديان ، يأخذ كل الأشياء التي تصادفه على الجبل من آثار الرياح ، ومن أوراق البسات ، فيترله إلى الوادى ، وتلك هي الأشياء التي تصنع الزبد ونقول عنه في لغتنا العامية : « الرغوى » .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وإى رابياً ، أى حائياً وعالياً ومطافياً فوق المياه ، لماذا ؟ لأنه مادام زبداً ففيه فقاع هواء تحمّل حجمه أكبر من وزنه . وتصبح كثافته أقل من المياه ، لذلك يطفو فوقها وماذا يكون الموقف بعد ذلك ؟

﴿ فَاحْتَمِلْ السَّيْلَ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ رَدًّا مِّثْلَهُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحديد)

ومن العجيب أنه سبحانه جعل المثلين في الماء والمضاد له وهو النار ، فلماذا يأتى
يزيد وقثاء يطفو على المياه ، وكذلك النار حين ندخل فيها المعدن . ومن رأى الحديد
يتفخ في كبره على قطعة من الحديد يرى الخبث ، والمواد الغريبة المترجعة بالحديد
والتي تنفصل أثناء الصهر عن الحديد ليصير صافيا . إذن فهناك زيد في الحديد فخرجه
النار عنه صهرا ، وزيد يطفو فوق الماء .

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ رَدًّا مِّثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ

وَالْبَاطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحديد)

ولهذا نرى الباطل وقد أتى عليه زمن ليطفو فوق السطح ، ويخرج الخبث طافيا على
أصل الحديد . فكس أبطل الباطل كذلك ؟ نُطْمِئِنُّنَا الْحَقُّ أَنَّهُ يَحْصِي الْحَقَّ لِيَقُولَ :

﴿ فَأَمَّا الْأَرْضُ فَطِينَةٌ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحديد)

رحمن نرى الباطل وقد طفا على السطح نفاجا بعد وقت من الزمن أن الزبد يتهدى
ويصبح الماء صافيا ، وكذلك الزبد الذى يطفو على الحديد ، ينقصه الحديد ليقى
صافيا . فإذا رأينا الباطل مرة يعلو ، فنعلم أنه لا بقاء لهذا العلو ، لأن ما يرفع
الناس يمحى في الأرض .

ولهذا لا يعلن الحق عن نفسه من البداية ؟ لواد الله ذلك ليجعل الباطل من جنود
الحق ، ولو لم يتعض الباطل الناس ويتبعهم أينجهون إلى الحق ؟ لا ؛ لذلك كان
لا بد أن يأتى إليهم الباطل ويتبعهم ليبحثوا عن الحق . وهكذا نرى الباطل كجنودى
من جنود الحق . وضربنا المثل من قبل وعرفنا أن الألم عند المريض من جنود
العافية ، فلولا ذلك الألم لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض ، فكان الألم يلفتته
إلى موضع الداء ويدفعه لبحث عن وسائل الشفاء . وبذلك يتعرف على حلالة
العافية .

إذن فالباطل من جنود الحق والالم من جنود الشفاء ؛ لأن أمور الحياة لو سارت على وتيرة واحدة لما عرف الإنسان أوجه الحياة ؛ فلولا ألم يأت الالم إلى المريض لأكله المريض . فإذا كان الالم من جنود الشفاء ، فالكفر أيضاً من جنود الإيمان ؛ لأننا عندما نرى الكفر ونشهد آثار الكفر فساداً في المجتمع ، نتساءل : ما الذي يخلصنا من ذلك ؟ ونعرف أن الذي يخلصنا من الفساد هو الإيمان .

وأكرر ذاتياً : كلمة الكفر بذاتها هي النقيض الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو السُّر ، ومادام الكفر هو السُّر ، والكافر يستر الإيمان ، وظهور الكفر على السطح دليل وجود الإيمان في الأصل .

ومادام الحق قد قال : « ساهون للكذب أكالون للسُّحت » فلا بد بعد هذا التشخيص أن يرسم لرسوله أسلوب التعامل معهم : « فإن جاموك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » . فأنت يا رسول الله بالخيار بين أن تحكم بينهم في القضية التي جاموا من أجلها أو تعرض عنهم ، فليس عليك تجاههم إلزام ما ؛ لأنهم الساهون للكذب الأكالون للسُّحت . وهم حينما يأتونك يا رسول الله طلباً لحكم إنما يفعلون ذلك لا رغبة في معرفة الحق ولا هم يلتزمون العدل . بل جاموك مظنة تبسیر أمر الباطل وأكل السُّحت لنفسهم . وقد طلبو الحكم في قضية الزنا وعندهم في التوراة كان الرجم عقاباً للزنا .

لقد ذهبوا رسول الله لأنهم لئلا يسترُوا حكم الزنا في التوراة ، والاكتفاء بالجند وتسويد وجه الزاني وركوبه حماراً في الوضع العكسي بحيث يكون وجهه في اتجاه الليل وقمء في اتجاه رأس الحمار ، وأن يطوفوا بالرائ وهو على هذه الهيئة حول البلدة . ولما لم يسمعوا ذلك الحكم من الرسول ابتعدوا عنه . إذن هم يطلبون التخفيف لأنهم كانوا ساهين للكذب وأكالين للسُّحت . ولأن الذي سيطبق عليه الحد رجل له جاه وله مكانة وهم يريدون التقرب إليه بتخفيف العقاب عنه . وهل هناك تعارض بين قول الحق في الآية التي نحن بصدد غواطرتها عنده وبين قول الحق :

﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

لا تعارض . والبعض يقول : إن في قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجعت جائب أن تحكم وتفضي بينهم فاحكم بما أنزل الله ، ولننظر إلى الأداء القرآني لأن المتكلم إليه وحكيم : « فإن جاموك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . وتلاحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ، لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله على هواهم . وطمانته الله بأنه سبحانه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكان الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذي اجتفوه عنك « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » وإياك أن تجعل الضرر منهم ترجيحاً للحكم ، فانت بالخيار ، إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش من شرهم لأن الذي أرسلك بحميتك .

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » والحكم في هذه الآية يأتي كالقوس في البداية وفي النهاية ، والحكم بينهم يكون بالقسط ، أي بالعدل . والعدل ليس كما يراه الهوى ولكن حسب ما أنزل الله . أي أن الله يحب الذين يزيلون الجور . ومادام الحكم بالعدل يأتي ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جور مقنن ، إذن « أقسط » أي أزال جوراً مقنناً وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون . والكون كله يسير بمران ، الأرض تدور والشمس تؤدي مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يس)

فلان أردتم أن نستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التي حولكم ، فإن كانت بنظام وميزان واعتدلت الأمور ، اعتدلوا - إذن - في إدارة شئونكم حتى تتسجموا كما اتسجم الكون ، ولذلك نقرأ قوله تعالى

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ① وَأَنجُمٌ وَأَشْجُرٌ سَاجِدَاتٍ ② وَالْأَسْمَاءُ رَافِعَاتُهَا ③

وَدَّعَى الْمِيزَانَ ④ أَلَا تَطَعُونَ ⑤ فِي الْمِيزَانِ ⑥ ﴾

(سورة الرحمن)

لما كنتم الرَّاغِبِينَ الْعِلْمَ فِي الْكَوْنِ ، وَلَا تَسْتَطِيعُونَ إِفْسَاحَهَا لِأَنَّهُ تَسِيرُ بِنِظَامٍ لَا دُخَلَ لَكُمْ بِهِ ، لِذَلِكَ هَلَيْكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا مِنْهَا وَأَنْ تَدِيرُوا أُمُورَ حَيَاتِكُمْ بِمِيزَانٍ حَتَّى تَسْتَعِينُمْ أُمُورَكُمْ الْإِخْتِيَارِيَّةَ .

﴿ أَلَا تَطْمَئِنُّونَ فِي الْمِيزَانِ ﴿٤٦﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فَإِنْ رَأَيْتَ حَوْلَكَ كَوْنًا غَيْرَ مُضْطَرَبٍ ، وَغَيْرَ مُتَصَادِمٍ ، وَوُجِدَ حَرَكَةُ دَوْنٍ تَعَارُضٍ أَوْ تَصَادِمٍ ، فَافْهَمِ أَنَّهُ نَائِمٌ عَلَى مِيزَانٍ الْحَقِّ ، وَوَضَعَ سَبْحَاتِهِ لَكَ مِيزَانًا فِي الْأُمُورِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ ، وَالْمَرْجِعَاتِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ هِيَ أَحْكَامُ التَّكْلِيفِ مِنَ اللَّهِ ، فَإِنْ أُرِدْتَ أَنْ تَسْتَعِينُمْ لَكَ الْأُمُورَ الْإِخْتِيَارِيَّةَ فَسِرْ بِهَا عَلَى الْمِيزَانِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ .

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمٌ
اللَّهُ ثُمَّ يَرْثُكَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧)

يُوضِحُ سَبْحَاتِهِ : كَيْفَ يَأْتُونَ طَلِبًا لِلْحُكْمِ مِنْكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ ، وَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولًا مِنَ اللَّهِ ، فَكَيْفَ يَرْضَاكَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ حَقًّا ؟ لَا يَدُ أَنْ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ مُنَاقِضَةٌ لِمَا فِي التَّوْرَةِ ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْمَصْلَحَةُ مُنَاقِضَةً لَنَفَذُوا الْحُكْمَ الَّذِي عِنْدَهُمْ ، وَهُمْ إِذَا جَاءُوا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَلِبًا أَنْ تُعْطِيَ شَيْئًا مِنَ التَّسْهِيلِ وَطَنُوا - وَالْعِبَادَ بِاللَّهِ - أَمَّا قَدْ تَوَفَّرَ لَهُمْ أَكْلُ السُّحْتِ وَبِيعَ الْكُذْبِ .

وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ : وَهِيَ مُسْأَلَةٌ حُجِّيَّةٌ يَجِبُ أَنْ يُفْطِنَ إِلَيْهَا ، لِأَنَّ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ، فَلَوْ حُكِمَ بِكَ فِي أَمْرِ لَيْسَ فِي التَّوْرَةِ لَكَانَ الْأَمْرُ مَقْبُولًا ، لَكِنْ إِنْ يُحْكَمُ بِكَ فِي أَمْرٍ لَيْسَ فِي التَّوْرَةِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَطْلُبُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ

لتكشفه فتقول يا رسول الله : هاتوا ابن سوريا لئاني بحكم التوراة . ويعترف ابن سوريا بوجود حكم الرجم في التوراة . إذن هم رغبوا في الاحتيال ، ولراد الله أن يثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم لوثاً في الإعلام عن هؤلاء المارقين على أحكام الله ، هم يعلمون أن الرسل أئمة ، لم يقرأ ولم يكتب ، فس الذي أخبره بالحكم الموجود بالتوراة ؟

إذن أخبره من أرسله ، وإذا كانوا قد أرادوا البحث عن حكم تخفف فالحق أراد ذلك ليكون سبباً من أسباب العقوبة لهم .

﴿ وَكَفَّ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٥)

(سورة المائدة)

وهذا دليل على أن الرسول عندما حكم بغير مطلوب تفسيرهم . عرضوا عن الحكم ولو كانوا طالين للحكم بآدمي ذي بدء لقبوا بالحكم بالرجم كما قاله لهم رسول الله ، لكنهم غير مؤمنين حتى بتوراتهم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّحِيمُونَ وَالْأَخْيَارُ يَمَاسُحُفُظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَسْتَرُوا بِتَائِي ثُمَّ قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١٦)

المطى هو الطريق أو الدرب المؤمل للذابة . وثاني على الطريق أحطاب الليل والنهار ، فالطريق مُظلم ليلاً ، وقد تعترض السائر فيه عقبات ، أو قد لا يمشى السائر في سواء السبيل أى وسط الطريق ، فيقع في حفرة أو يصطدم بحجر

ويوضح الحق هنا : لقد صنعت لكم الدرب وأنرتكم حتى لا تصطدموا بشيء أو تلقى لكم عقبات ، وتمثل ذلك في المتبع الذي جاء به موكب الرسل كلهم . وقدما كان العالم مفككا ، متاثر الجماعات ، فلا توجد موصلات ، وتعيش كل جماعة في انعزال وشبه استقلال ، فإن حصلت داءات في بقعة ما نظف محصورة في هذه البقعة ، ويبقى رسول يعالج هذه الداءات ، فهذا يعالج أمر عبادة الأصنام ، وذلك يعالج مسألة الكيل والميزان ، وثالث يعالج الأمور المنظمة للحياة الزوجية ضد اليهود .

هذه الداءات كانت متعددة بتعدد الجهات ، وعندما أراد الحق سبحانه أن يصر الناس بأسرار كونه ليستبطلوا منها ما يقرب المسافات ويجمع المشتقات لتلتقى الأمم . وعندما تلتقى الأمم لا يوجد فصل بين الداءات ، فالداء الواحد يحصل في الشرق ليستقل إلى الغرب . وكأن الداءات تتحد في العالم أيضاً

إذن لا بد أن يحىء الرسول الجامع لمعالج الداءات كلها ، فبأن صلى الله عليه وسلم الجامع المانع ، فلذا ما قال الحق : إنه أنزل التوراة فيها هدى ونور ، فالإنجيل أيضاً فيه هدى ونور ، وكل هدى ونور في أى كتاب إنما هو للمدائن الموجودة في البيئة المنعزلة . مثال ذلك أن سيدنا إبراهيم كان موجوداً ، ومعه في الأرض نفسه سيدنا لوط . وهما هذا سيدنا موسى كان موجوداً . وكذلك سيدنا شعيب ، إذن كانت الرسل تتعاصر في بعض الأحيان لأن كلا منهم يعالج داء معين . وهكذا كانت الرسائل تأتي محدودة الزمان ومحدودة المكان .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بعثه الله للناس كافة بكل أجناسهم وتقوم على منهجه الساحة ؛ لذلك لم تعد الأرض في حاجة إلى رسول آخر ، وصار من المنطقي أن يكون هو الرسول الخاتم .

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها السيرون الذين أسلموا » لماذا إذن يأتي

الحق بإسلام الأنبياء هنا ٢ جاء سبحانه بأمر إسلام الأنبياء تشريفا للإسلام لأنه جوهر
مبج كل نبي .

إننا سجد الشعراء يفتنون في هذا المعنى :

ما إن مدحت عمداً مقالتي
لكن مدحت مقالتي بحمد

والشاعر الآخر يقول :

قالوا أبوالصفر من شيبان قلت لهم
كلا لعمري ولكن منه شيبان

والقبيلة بالنسبة لأبي الصقر هي التي تنسب إليه وليس هو الذي ينسب إليها .

ويروى قائلا :

وكم أب قد علا بابن ذرا شرب
كما علا برسول الله عدنان

إذن فالنبيون عندما يصفهم الحق بأنهم أسلموا ، إنما يريد الحق أن يشرف
الإسلام بأن النبيين أسلموا قياهم وزمامهم إلى الله لأنهم وجدوه الخير لهم . وإسلام
النبيين هو الإسلام بمعناه الكامل ، أي هو الانصياع لأوامر الله ، فكلمها لكرسى منهم
في أن هناك شراً سيأتي له بسبب دعوته ، أو أن بضطهده أحد ، أو يحلو لأحد أن
يسىء إليه فهو يسلم أمره لله ، لأن الرسول منهم إنما يقول كلمة الحق ولا يبالى بما
يجدث بعده .

و يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، وهم يحكمون بالثروة بين الذين
هادوا ، أي من يهود ، وكذلك يحكم بها الرمانيون والأخبار . والرمان مسوب
للرب ، أي أن كل تصرفاته مشبوبة إلى الله . والأخبار هم العملاء حملة أوعية
العلم ، لكن هل يعلونه أو لا يعلونه بهذا شيء آخر صحيح أن كل عالم وعلة

علم ، لكن قد يتنفع هو بعلمه ، وقد لا يتنفع ، لكنه ينقل علمه إلى من يتنفع به .
ولذلك يقول أحد العلماء .

فخذ بعلمي ولا تركزن إلى حمل
واجبي الشمار وحل العود للنار

فلا تقل : إن هذا العالم يقول لنا كذا وكذا ، ونراه في تصرفاته عكس ما يقول ،
لأن عليك أن تأخذ ثمرة العلم ، واترك العود للنار . ولكن على العالم أن يكون أول
من يمثل ويطبق ما يقوله حتى لا يعذب ولا يدخل تحت قوله تعالى : « يا أيها الذين
آمَنُوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »

« والريانيون والأخبار بما است حفظوا من كتاب الله ، وعرفنا أن التوراة فيها نور
وهدي ويحكم بها النبيون والريانيون والأخبار بالوسيلة التي طلب الله منهم أن
يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة ، وقال الحق .
« است حفظوا » ولم يقل . « حفظوا » ليبين لنا الفارق بين كل كتاب سابق للقرآن وبين
القرآن ، لأننا عرفنا أن كل رسول قد جاء بمعجزة تدل على أنه صادق البلاغ عن
الله .

ولكل الرسل من السابقين على رسول الله معجزة متصلة عن المنهج ، مثال ذلك
سيدنا موسى فمعجزته العصا وقلق البحر ، أما منهجه فهو التوراة . وسيدنا عيسى
معجزته إبراء الأكمه والأبرص ، والمنهج الذي جاء به هو الإنجيل . أما سيدنا رسول
الله فمعجزته هي عين منهجه ، وهي القرآن . وكان الأمر الموجود بالنسبة لكل
رسول مرتبطا بزمانه وجماعته ومحتاجا إلى معجزة مناسبة ومنهج مناسب ، لكن
الرسول الذي أرسله الله إلى الناس جميعا وخاتما للأنبياء لا بد أن تطل معجزته عين
منهجه بحيث يستطيع أي مسلم أن يقول حتى قيام الساعة : محمد رسول الله وهذه
معجزته وهي عين منهجه .

وسيفل القرآن معجزة ظاهرة إلى أن تقوم الساعة ، لأن الله أرادها مختلفة عن بقية
المنهج والمعجزات . فالمعجزات السابقة كانت كعود الثقاب الذي يشتعل مرة

واحدة ؛ فمن رآه لحظة الاشتغال فالأمر بالنسبة إليه واضح ، أما من لم يره فهو لن يصدق تلك المعجزة إلا أن يجبره من يصدق . وقد استحفظ الله الربانيين والأخبار بالثبوت ، أي طلب منهم أن يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفاً ، والأمر التكليفي عُرضة لأن يُطاع وعُرضة لأن يُعصى . واستحفظهم الله الثبوت والإنجيل :

﴿ فَتَسْأَلُ عِطَاءَ مَا دُرُّوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

وصار أمر المنهج مسياً . وليس هل بالغهم كثيراً ، لأن الأمر إذا توارد على الهال واستقر دائماً في بؤرة الشعور يظل في الذهن ، لكن النسيان يأتي عندما يكون الأمر بعيداً عن البال .

والحق طلب منهم أن يحفظوا المنهج ، ولكنهم - ماعدا النسيان - لم ينفذوا ، وكل أمر تكليفي يدخل في دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأخبار والربانيين قد نسوا ، وما لم ينسوه كنسوه . وأول مرحلة من مراحل عدم الحفظ أنهم نسوا ، والمرحلة الثانية هي كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هي : ما لم يكتبوه حرقوه ولووا به ألسنتهم . وبالتالي اقتصرنا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جددوا بأشياء وقالوا : هي من عند الله وهي ليست من عند الله :

﴿ قَوْلِيلَ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْمَانِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِن عِندِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

إذن فالحفظ منهم لم يتم ، لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف ؛ لأنه سبحانه اختير البشر من قبل ، ولأنه أراد القرآن معجزة باقية ، لذلك لم بكل الله سبحانه أمر حفظه إلى الخلق ، ولكنه تكفل - سبحانه - بأمر حفظ القرآن .

﴿ إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُمُ حَافِظُونَ ﴾

(سورة الحجر)

ومصدق هذا المنع ، أن بعضاً من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في هجر منهج الإسلام ومنهج القرآن إلا أنك تجد عجباً ، فبقدر ما بعدهم عن منهج الإسلام تطبيقاً يحفظون على القرآن تحقيقاً ، فيكتبون القرآن بكل ألوان الكتابة وبكافة الأحكام ، وهناك حجم ضخم ترتديه النساء في صدورهن ، وحجم يوضع في اليد ، وبعد ذلك

نجد الكفرة أنفسهم يخترعون طريقة لكتابة القرآن في صفحة واحدة .

إذن فانه يُسخر لحفظ القرآن حق من لم يكن مسلماً . وتلك خواطر من الله . ونحن نرى كل يوم من يتعلمون بسلوكهم عن المنهج لكنهم يرصدون المال لحفظ القرآن . ونجد القرآن محققاً بألف وسيلة حفظ : الرجل يضع في سيارته مصحفاً ، وفي حجرة نومه مصحفاً ، وقد تكون المرأة ساقرة وصدرها مكشوف ولكنها تعلق مصحفاً ذهبياً وهذا يثبت لنا أن حفظ القرآن ليس أمراً تكليفاً . بل هو إرادة الله .

فلو كان الأمر تكليفاً لكان نسيان القرآن وارداً ، لأن المسلمين ابتعدوا في بعض أمورهم عنه كمنهج . ويناسب ذلك أن ينفصلوا عنه حفظاً . ولكن الأمر صار بالعكس . فعل الرغم من بُعد المسلمين عن المنهج ، لكن حفظ القرآن لا يقل أبداً ، ومن العجيب أن الكثيرين من السرفين على أنفسهم ، إن سمع واحد منهم أن شيئاً بمس المصحف ، يفهم الدنيا ويقعدها ، فالمسألة ليست مسألة ، ولكنها مسألة الحفاظ جل شأنه . وإن حدث أي تحريف يسير في القرآن من أحداث الإسلام ، نجد أمة الإسلام تقف وقفة رجل واحد . ولقد أراد بعض المدلسين أن يدسوا على القرآن ما ليس فيه وجاءوا إلى آية في سورة الفتح وهي :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وقالوا : « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكانهم يرغبون في ريادة التكريم لرسول الله ، فلما عرف المسلمون ذلك قامت صيحة وأحرقوا تلك المصاحف . ومنع المسلمون التحريف بها كان باب الدخول إليه .

« فلا تخشوا الناس واخشوا » والخشية . خوف متروهم عن تقبل أنه قادر على الضر ، ولا أحد غير الله قادر على النفع والضرر ؛ لذلك لا يصح أن يخاف الإنسان من سواه ، أما أن تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر ، فهذا أمر غير صحيح ، ويخشى كل إنسان الحق سبحانه وهو جل وعلا نصيحنا أن تكون الخشية منه دون سواه .

وإن غير أحد أحكام المنهج من أجل السلطان أو أقارب السلطان أو أصدقاء

السلطان فذلك عين الفساد . والآفات والشُرور تأتي من ذلك . بل قد لا يدري السلطان شيئاً عن ذلك ، وقد يتدخل قريب للسلطان - دون علم السلطان - ليطلب من العلماء تغيير بعض من المنهج ولا يستسلم له إلا الضعاف منهم ، وقد فطن سيدنا عمر رضي الله عنه إلى هذا الأمر فقال : إن الفساد قد لا يأتي من السلطان ، ولكن من الذين حول السلطان .

والخشبة هنا تكون من غير الله ، ولذلك كان سيدنا عمر يجمع أقاربه والمخلصين حوله ويقول لهم : لقد اعتزمت أن أصبر كذا وكذا فوالذي نفسي بيده من خالفني منكم إلى شيء من هذا جعلت نكالا للمسلمين .

هذا هو أسلوب من أراد أن يخدم ويحكم ولا يحمل أوزاراً ، ويرى صور الفساد إنما جاءت نتيجة مخالفة القاعدة الحكيمة : « فلا تحشوا الناس وتحشون » .

ويتابع الحق من بعد ذلك : « ولا تشتروا بآيائكم شيئاً قليلاً » وضمن آيات الله مهما بولغ في تقييدها فلن يتجاوز نفسه هذه الدنيا ؛ لأن الدنيا - كما قلنا سابقاً - لا تقاس بعمرها الحقيقي أي إلى أن يفنى الله البشر ، وإنما دنيا كل حتى تقاس بعمره فيها .

فهب أن الحياة طالت لملايين السنين فما تنفع الفرد المحدود العمر بهذه الملايين من السنين ؟ إذن فدنيا كل إنسان هي مقدار عمره في الحياة . وعمر الفرد في الدنيا له حد محدد غير معروف لأحد غير الله ، فلكل أجل كتاب . ولذلك نجد واحداً يعيش متوسط الأعمار وهو سبعون عاماً . ويختلف العمر من إنسان لآخر ، وقد يموت آخر عند الستين وثالث يموت في الأربعين ورابع يموت في المائة ، وخامس يموت وهو طفل رضيع .

إذن فدنيا الفرد قد تكون لحظة . ومادامت مسألة العمر لا يحكمها زمن ولا يحكمها سبب فهي - إذن - بإرادة الحق غيب .

وأقضية الموت في الوجود جعلها الله شائعة في كل زمن ولم يجعلها الحق بعد الميلاد . بمعنى أن يولد الإنسان ليموت من بعد ذلك ، لا ، فقد يموت الكائن

البشرى وهو جنون في بطن أمه + فهذا هل يسقط من بعد ساعة ، وذاك هل يسقط من بعد شهر أو شهرين ، وجعل الحق لنا ذلك لناخذ من الأمر العيس وهو الجنون في البطن مراسل تكويته . إنه يعطينا شكل الجنون بعد نصف ساعة من التكوين ، ويعطينا شكل الجنون من بعد ساعة . وكل الأزمنة في الحياة والموت موجودة . وعندما نحلل تلك الأشكال نجد أمامنا كل أطوار الجنون ، وكل أطوار الحياة ليكون ذلك واضحاً جلياً حتى لا يحسب أحد لنفسه عمراً في هذه الدنيا .

ومادام الثمن الذي يأخذه المرتشون ليغيروا آيات الله وأحكامه سيمنعهم في هذه الدنيا ، وأعمالهم في هذه الدنيا محدودة ، كان عليهم أن يتذكروا أن حياتهم رمياً قليلة بالنسبة بعمر الدنيا . وحتى يقوم الإنسان بعملية اقتصادية لا بد أن يتعرف إلى أن عمره محدود بقدر سنوات مجهولة بالنسبة له في هذه الحياة ، وهو عمر محدود مهما طال . وإن قارنها الإنسان بالحياة في العالم الآخر سيجد أن عمره الدنيوي مهين ، فإن نايضه بعمر خير منهى هو عمره في الآخرة ، فذلك هو الفوز العظيم ؛ لأن وجود الإنسان في الدنيا مظلون ، ووجود الإنسان بالنسبة للآخرة متيقن . ونعيم الفرد في الدنيا هو على قدر إمكاناته ولو في السلب . ونعيم الإنسان في الآخرة ينسب إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

إذن فأي صفقة تكون هي الرابعة ؟ محدود مقابل غير محدود ، ومظلون مقابل متيقن ، ونعيم على قدر مكنة وسلطان الفرد ولو بالسلب مقابل نعيم على قدر طلاقة قدرة الحق ، أى صفقة هي الرابعة ؟ إذن صفقة الدنيا قليلة بالنسبة لما وعد الله به المتقين . ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ماذا يعنى الحكم بما أنزل الله ؟

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل قضية مخالفة في الكون حكماً ، فإذا أردت أيها الإنسان أن تحكم في أمر فعليك أن تبحث عن جوهره بسلسلة تاريخ هذا الأمر . ونجد أن قصة كل الأمور هي العفيدة ، وهو وجود الواجب الأعلى وهو الله ، فإن حكمت بأنه غير موجود فذلك هو الكفر . وإن آمن الإنسان بالله ثم جاء إلى أحكام

الله التي أنزلها وقال : لا ، ليس من المعقول أن يكون الحكم هو هكذا . فهذا لون من رد الحكم على الله وهو لون من الكفر .

أما إن آمن الإنسان بالحكم وقال : إني أصدق حكم الله ، ولكن لا أقدر على فهمي فهل هذا كفر ؟ أم هل ظلم ؟ إنه ليس كفر ، ويكون ظمناً إن كان حكماً بين اثنين . وهو فسق إن كان بين الإنسان وبين نفسه ؛ لأنه يفسق عن الحكم كما يفسق الرطبة عن قشرتها .

فالفاسق هو من له إظهار من التكليفات ويخرج عن هذا الإحار كالرطبة التي خرجت من قشرتها . ومادامت الرطبة قد خرجت من قشرتها فهي عرضة للتلوث .

إذن فإن سمعت قول الله :

﴿ وَمَنْ لَا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وعندما نسمع :

﴿ وَمَنْ لَا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

وعندما نسمع :

﴿ وَمَنْ لَا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة المائدة)

تذكر أحكام الله وحاول أن تقدر على نفسك . وقيل : إن ذلك لليهود ؛ لأن الحق قال :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَبُورٌ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

وقيل : إن الثانية جاءت للنصارى الذين لم يحكموا بالإسجد

ولنا أن نقول رداً على مثل هذه الأقوال . أمم الممكن أن يكون ذلك للأديان السابقة على الإسلام وليس موجوداً بالإسلام ؟ ذلك أمر لا يفسله العقل أو المنطق ، فهي آيات نزلت في ساطع الحكم عامة . فإن حكم إنسان في قضية القصة وهي العقيدة بغير الحق ، فذلك هو الكفر . وإن رد الإنسان الحكم على مشيئة - وهو الحق الأعلى - فهذا لون من الكفر . وإن أمم الإنسان بالعصية وهو مؤمن بالإله فخطيئته نفسه بهذا هو الفسق . وإن حكم إنسان بين اثنين وحده ومال من حكم الله فهذا هو الظلم .

إذن هذه كفرون ، وظالمون ، وفاسقون . تقول لنا : إن ألفاظاً اختلفت باختلاف المحكوم به . فلا يقول أحد : إن تلك آية نزلت لتلك العنة ، وتلك الآية نزلت لعنة أخرى . وثالثة نزلت لعنة ثالثة ، ولكنها أحكام عامة لمناط التكليف عامة . والحق قال في بداية كل حكم « ومن » ومن كما تعلم كلمة عامة . والسبيل على ذلك أن من يحكم بغير ما أنزل الله إنما هو يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ورد الحكم على الله . وقال الحق في الآية اللاحقة :

﴿ وَكَتَبَ عَلَيْهِمْ قِيَمَ أَنْ أَنْفُسَ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

إنها أحكام تتعلق بجرائم ، وعقوبات على جرائم ، وهنا يكون الحكم بغير ما أنزل الله ظلماً . إذن فالأمر يختلف حسب المحكوم عليه

وحينما تعرضنا لقضية الخلق الأول وهو خلق آدم ، وطلب الله من الملائكة التكلمين بتدبير أمور الخلق في الأرض أن يسجدوا لآدم . وقلنا إن هذا السجود هو رمزية لأن يكونوا في خدمة آدم ، لأن كل مظهر من مظاهر القوة في الكون لا يرى الملك الذي يديره ، فكل قوة لها ملك معين ، ولأن ذلك الأمر من العيب فنحن لا نراه ، إنها ملائكة مدررات أمر . ونحن ينلهم الحق أن الطاريء على الكون وهو آدم ، وأنهم في خدمته ، ومن أجل ذلك أمرهم بالسجود لآدم . ولذلك تجد أن بعضاً من الملائكة الذين ليسوا من المدررات أمروا لم يشملهم الأمر . ويكلم الحق إبليس حينما رفض السجود قال سبحانه :

﴿ أَتَسْكَبْتُمْ أَتَمَّ كُتَّ مِنْ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

إن «العالمين» هم الذين يسبحون الليل والنهار ولا يفترون ولا يدرون ولا يعلمون بأمر آدم . فقد سأل الحق إبليس أنت مستكبر عن السجود أم أنت من العالمين الذين لم يشملهم أمر السجود ؟ قلنا إن إبليس لم يكن من الملائكة ، لأنه ينص القرآن :

﴿لَآ إِبْرِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ولذلك لا يصح أن يكون «إبليس» محل خلاف أهو من الملائكة أم لا ! فهو ليس من الملائكة . وفي القرآن نص صريح يثبت جنسية إبليس . وهو من الجن . وكان من المختارين ، له أن يطيع أو أن يعصى . لأن الجن داخلون في قانون الاختيار . فإن ألقى الحق نفسه بمنح الله إلزاماً يتساوى به مع الملائكة وجب عليه أن يقوم بذلك . ولكنه لم يفعل . وكان من الواجب أن يطيع إبليس الأمر . وما دام الحق هو الذي أمر بالسجود ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أن يسجد ، لأن المراتب محروطة كما نعلم . رئيس الجمهورية عندما يدخل على الوزراء فهم يطيعون أمره ، وإن كان يجلس مع الوزراء بعض ركلاء الوزارات فهم يعطون أوامره ، فلك أهم يدخلون في الأمر من باب أولى . ولو كان إبليس أعلى من الملائكة لكان أولى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى ولا يعصى ويتأمر . أما وإنه كان أقل من الملائكة فكان لا بد من باب أولى أن يتصاع لأمر الله لكن إبليس عطل أمر عدم السجود . فقال :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وفي آية أخرى قال سبحانه :

﴿أَتَعْبُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وحين يتأمر كائن على الحكم ، يتأمر على الحكم الأصم ، أى على الحكم من حيث هو حكم دون النظر إلى الحاكم ، أم على من حكم بالحكم وهو الأعلى سبحانه ؟ . تأمر إبليس على من حكم بالحكم ، ولذلك طرده الحق من الجنة وصار ملعوناً لكن آدم عصى ربه وقرب من أشجرة التي نهاه الله عنها . ومن رحمة الله

تعالى أنه جعل في التكاليف مقدمات تنطبق على حالة المكلف نفسه ، فلم يقل الحق
لآدم : لا تأكل من الشجرة . ولكنه قال :

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

لأن الحق علم أن آدم إنسان ، والإنسان من الأغيار ، وهو عندما يرى الشجرة
بشوارها قد لا يقدر على نفسه ، ولذلك كان من الأفضل ألا يقرب من هذه الشجرة .
وسببها أنه يريد أن يحصى الإنسان : لأن التكاليف الشرعية لا يرفعها الحق ، ولا يعفى
المكلف من القيام بها إلا في الأمر الذي ليس للإنسان فيه اختيار ، ولذلك أراد الحق أن
يحصى الإنسان من الاقتراب من تلك الشجرة حتى لا تغريه وجاء الحق بمثل هذا الأمر في
الحمر فلم يقل : لا تشربوا الخمر . ولكنه قال :

﴿إِنَّمَا أُخْذَ مِنْكُمْ وَاعْتَمِرُوا فَأَلْصَقُوا وَالْأَرْثَمُ رَحْمَةً مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾

(من الآية ٩٠ سورة البقرة)

لأن الإنسان لو جلس في مجلس خمر ورأى السكرى قد سعدوا وضحكوا فقد
تواوده نفسه على شرب الخمر . إذن فالأمر بالاجتناب هنا أبلغ من « لا تشربوه » .
ونجد أن تكاليفات الحق إنما تأتي للعمل الزوجي ، ومعنى العمل الزوجي أن يتحرك
الإنسان بلعمس . أما بالنسبة للإدراكات فمن احتار أن يدرك الإنسان الأمر . ويترك
الحق لنا حرية حب من نشاء وكراهية من نشاء . ولكن هذا الحب لا يصح أن يصدر
عنه عمل تزويج فتجامله بالباطل . وكذلك الكراهية فليس هناك أمر بالكراهية ،
ولكن إن كره إنسان إنساناً فلا يصح أن يظلمه . فاللهي عنه هو الظلم ، ولذلك قال
الحق :

﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَفَاقُ قَرْمٍ عَلَى الْآتَمِعُوا﴾

(من الآية ٨ سورة البقرة)

أي لا يميلنكم بعض قوم على الاتعاض . إذن فالحق لم يحرم البغض لأنه مسألة
عاطفية ولكن التحريم ينحصر على الإقدام على عمل يخل بميزان العدل مع من
تكروه . ويجب أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن من ظلمه بمعصية ، فلا يجازيه
الإنسان إلا بطاعة الله . وأدم أكل من الشجرة ، فهو - إذن - قد تجاوز مسألة

الاقتراب إلى مسألة الأكل من الشجرة ، لأنه لو قرب منها لكان مخالفاً ، فإنا بالنا وهو قد أكل منها أيضاً ؟ إذن فقد أوعى آدم في المحصية ، لكنه قال : (ظلمنا أنفسنا) .

وهذا اعتراف واضح بأن حكمك يا الله هو الحكم الحق ، لكنني لم أقدر على نصي يا رب . إذن فهو لم يرد الحكم على الله ، ولكنه اعترف بأنه لم يقدر على تنفيذ الحكم ، لذلك أعطاه الله كلمات ليقولها فيتوب عليه . وسبحاته هو الذي عصى آدم كيف تكون التوبة . فآدم - إذن - ليس كإبليس الذي رد الحكم على الله ؛ لأن آدم قال : أنا لم أقدر على نصي .

إذن فمن لم يحكم بما أنزل الله راداً للحكم على الله وخطئاً له - سبحانه - فهو كافر . وإن كان حكماً بين اثنين وحكم بنير ما أنزل الله فهو ظالم . أما إن كان حكماً على النفس ولم يقدر عليه الإنسان فهذا فسق . وكل وصف جاء حسب حكمه . ولا داعي - إذن - للجدل ولا للحلاف ولا ادعاء أن هناك قولاً يقصد به اليهود ، وآخر ورد في النصرانية ، ولا يصح أن يزين الإنسان الساطل لأحد ، لأن ورود الحكم بما أنزل الله في الإسلام أمر جازم يوجب الالتزام به

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ
وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ
بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ
تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُمْ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

لقد كتب الحق على اليهود في التوراة التي وصفها من قبل بأنها هدى وبور ، كتب

وأوجب عليهم أن النفس بالنفس ، وعليها أن تأخذ كل أمر وما يناسبه من الحدث .
 أى أن النفس تقتل بالنفس . ولكن عندما يقول الحق : « والعين بالعين » ، فهل
 يعنى ذلك أن تقتل العين ؟ لا . ولكن العين تقمع مقابل عين . وكذلك « والأنف
 بالأنف » . أى الأنف المجذوعة ، مقابل جدع أنف أخرى . وكذلك قوله الحق .
 « والأذن بالأذن » أى إصابة أذن بالصمم مقابل إصابة أذن بالصمم . إذن فلكل
 ما يقابله . فهناك النفس تقتل بالنفس وهناك العين تقفأ بالعين ، وكذلك الأمر فى
 جدع الأنف ، وصلم الأذن .

إن تعبيرات اللغة واسعة تعطى لكل وصف ما يناسبه . فالإنسان مثلاً قد يكون
 جائعاً . ولكن إلى ماذا ؟ إن كان جائعاً لطعام فهو جوعان . وإن أراد حصوية أكل
 ويشتهي اللحم فلا يقال له : جوعان ، ولكن يقال « قريح » . وإن كان يشتهي اللبن
 يقال له : « عثيان » ، وإن كان فى حاجة للماء يقال له : « عطشان » . وإن كان
 جائعاً للجنس فهو « شين » .

وذلك يكشف لنا أن الإنسانية تحتاج إلى أمور متعددة ، وكل أمر له اسم . وكل
 شيء له تعبير . ومثال آخر : يقال « فلان جلس » أى قعد . وهذا فى المعنى العام .
 ولكن الجنس يكون من الضطجاع . أما قعد ، فهو عن قيام ، أى كان قائماً
 وقعد . ولذلك قال الحق : « قيماً وقعوداً »

ومثال آخر : يقال : « نظر ، ورى » و « ملح » ، وكل كلمة لها موقعها ، فالنظر
 يكون بجميع عييه . و « رى » أى لحظ لحظاً خفيفاً . و « ملح » أى اختلس النظر
 إليه . وكذلك قوله الحق معناه : أننا كتبنا عليهم فيها أن النفس مقتولة بالنفس ،
 والعين مقتولة بالعين ، والأنف مجذوعة بالأنف ، والأذن مصبوبة بالأذن ، والس
 مخرجة بالس . وبعد ذلك يقول الحق عن الجروح . « والجروح قصاص » لأن
 الجرح قد يكون فى أى مكان . والقصاص يكون مجزئاً ومساوياً للشيء ، وهو مأخوذ
 من قص الأثر ، أى السير تبعاً لما سارت عليه انقدم السابقة دون انحراف . ولما كان
 القصاص هو أمر مطلوب فيه المماثلة فذلك أمر صعب ، صحيح أن الحق قال :

﴿ قَسِيَّ آفَئِدَتِي عَلَىكَ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلٍ بِمَا آفَئَدَتْنِي عَنكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

لكن القصاص أمر صعب ، فالصفحة من يد جائع متهاة بعكس الصفحة التي تأتي من يد صاحبها في منتهى النشاط والقوة . فكيف يكون القصاص مناسباً لقوة الذي فعل الفعل ؟

يذن لا يصح أن يدخل الإنسان في متاهة . ويمكنه أن يتصدق بالقصاص فلا يأخذه . ونحن نعظم حكاية « تاجر اليدين » ذلك المراهي اليهودي الذي أقرض نفوداً مقبل رطل من لحم صاحب القرض ، وكتب الاثنان التعاقد وجاءا بالشهود . ولم يستطع الرجل أن يسد المال في المعاد ولكن القاضي أنار الله بصيرته . فقال : حذ الرطل من لحم الرجل ولكن إن أنقصت أوقية فسأخذها منك أو إن زدت أوقية فسأخذها منك . فقال المراهي لا أريد .

وقد فس الحق للجريمة ، ولم يخلق سبحانه باب الطموحات الإيمانية ، فقال : « فمن تصدق به فهو كفارة له » . ومعنى « تصدق » أنه دفع وأعطى شيئاً غير مستحق ، ولا واجب عليه أى تبرع به ابتغاء وجه الله . إن الذى يتصب البشر في تقنياتهم أنهم يطيلون إجراءات التعاضى ، ساعة تقع جريمة يستمر التحقيق فيها بواسطة القضاء لأكثر من عام فتبهت بشاعة الجريمة في النفس البشرية . ومن الواجب كذلك أن يكون الأمر لولى القصاص ، لأنك إن مكته أرضيت نفسه بأول شفاه . وساعة يعطى الإنسان ذلك الحكم فقد يرهد فيه ، لأن الأمر حين يكون في يده ويقرر على القصاص فمن المحتمل أن يعفو

وسيقبل المتصدق عليه طيلة حياته يدين بحياته أو بجوارحه من جوارحه لصاحب القصاص . وبدلاً من إعازات الثارات تنشأ المودة . وحين يشرع المشرع الأعلى يوضح لنا : لا تحكم بأنك دائماً معتدى عليك ، بل تصور مرة أنك معتد ، ألا تحب في مثل هذه الحالة أن يتصدق عليك صاحب المصاح ؟ وإذا أرادت الحكومات أن تنهى الثارات فلهم في التشريع الأعلى الحكم الواضح .

وفي صعيد مصر ، ساعة يُقتل إنسان يجد الذى عليه الثار يأخذ كفته ويذهب إلى العائلة الطالبة للثأر ، ولحظة يدخل عليهم حاملاً كفته بيديه ، تشفى النفوس من طلب الثأر . ويحيا ، وصاحب الثأر متمصل عليه بالعيش « فمن تصدق به فهو كرامة

له ، تكون الصدقة هنا من ولى القصاص . والفعل « تصدق » يحتاج إلى اثنين هما .
« متصدق » و « متصدق عليه » . وسبحانه الحق يكفر عن المتصدق من الذنوب بقدر
ما تسامح فيه لأخيه ، وهنا يحسن الله الخلق بعضهم حل بعض ؛ لذلك تأتي المسألة
هنا من ناحية صاحب القصاص لترغبه في التصديق .

ومضى الحق الآية بقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »
وعرفنا من قبل ضرورة الحكم بما أنزل الله . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه .

﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَا إِلَّا بِحِجَابِ هُدًى وَنُورٍ
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

وقفنا على آثامهم ، فبعيسى جاء من بعد موسى ، فعندما يمشى رجل خلف رجل
تجد أن قفا الأول يكون في وجه الثاني . وعندما يقول الحق : « وقفنا على آثامهم
بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه » أى مصدقاً لموسى لى جاء بالثورة . « وآياتنا
الإنجيل فيه هدى ونور » . وعرفنا أن « الهدى والطور » يناسبان الهيئة التى نزلت إليها
تلك الهداية وذلك النور .

إن هناك مقولات سمها « المقولات الإضائية » ، كأن يقول إنسان في قرية
لابنه : أشعل الضوء . ويشعل الولد المصباح الكبير وسقى ، أما إذا قال إنسان في
مدينة لابنه : أضئ ، النور ، فالابن يضبط على الزر لضئ المصباح الكهربائى .
وهذه الإضافات قد تجعل اللفظ يحمل معنيين . ومثال آخر أكثر وضوحاً : يسكن
الإنسان في منزل ما ، ويعرف أن السقف عال بالنسبة له ، ولكنه أرض بالنسبة
لصاحب الدور الثانى ، إنه علو وسفل وهذا هو المعنى الإضائى . وكذلك عندما

نقول : فلان ابن فلان ، فهذا لا يجمع أن هذا الابن يكون أباً بالنسبة لابنه .

إذن « هدى ونور » هي معان إضافية . وكل « هدى ونور » يناسب البيئة التي نزل فيها . فالبيئة المادية الأولى كانت في حاجة إلى تقنين ، لذلك جاءت التوراة ، ومن بعد ذلك صارت هذه البيئة المادية في حاجة إلى طاقة روحية ، لذلك جاء الإنجيل بكل الروحانيات ، وعندما سئل عيسى ابن مريم عليه السلام في قضية الميراث قال : أنا لم أرسل مورثاً ، فهو يعلم أنه جاء بشحنة روحية فيها مواجيد ومراغظ . ويتابع الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَيَحْكُمَنَّكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾

والحق أنزل في الإنجيل أن الأحكام تؤخذ من التوراة . أي أن الإنجيل تضمن إلى جانب روحانياته أسس الأحكام الموجودة في التوراة . ولذلك أوضح الحق : من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق مادام قد خرج عن الطاعة . فإن خرج أحد عن الطاعة في أمر الألوهية والربوبية فهو كافر . ومن خرج عن الأحكام بالنسبة للحكم بين الناس فهو ظالم . إذن فالسالة كلها متداخلة ، فالشرك ظلم عظيم أيضاً .

وبعد أن تكلم الحق عن التوراة والإنجيل ، جاء بما نزل إلى النبي الخاتم .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قُلُوبَهُمْ ﴾

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ
الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
ءَاتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » نعرف أن هناك شريعاً جاء من أعلى . وهناك من
يريد أن يلبس الناس أهواءه ، فيقول : إن الإسلام دين تقدمي ، أو يقول
الإسلام دين رجعي ، وكلاهما يحاول أن يلبس الإسلام بما ليس فيه ، ويقول :
لا تقولوا ذلك ولكن قولوا الإسلام توفى ، لأنه جاء من الله ، فإن كان للتقدمية مزاي
فهو تقدمي ، وإن كان للرجعية مزاي فهو رجعي ، وإن كان لليمين مزاي فهو يميني
وإن كان لليساو مزاي فالإسلام يساوي ؛ فقد جاء الإسلام بالاستطراق الاجتماعي
والتقدم العلمي الأصيل ؛ لأن مفهوم التقدم هو أن يرتقى الإنسان بنفسه ارتقاءً
متقدماً يجعل الناس متكافئين .

إن الإسلام ليس تقدماً فقط بالنسبة للحياة الدنيا ولكن بالنسبة لحياة أخرى
خالدة فوق هذه الحياة . إن الدين يناقشون تلك الأفكار لا يحسنون فهم أفكارهم
سواء أكانت تقدمية أم رجعية أم يمينية أم يسارية . ونرى أن المناهج المعاصرة التي
تسبب كل هذا الصراع في الدنيا من شرق وغرب هي : الرأسمالية والشيوعية
والاشتراكية والوجودية وغيرها .

وعندما ننظر - على سبيل المثال - إلى القائلين على أمر الثورة الشيوعية عام
١٩١٧ ، نجد قولهم : إنهم مازالوا في بداية الطريق إلى الشيوعية ، ولكنه اختيار
الطريق الاشتراكي .

كان يجب أن يتجهوا إلى ما نادوا به ، ولكن ها نحن أولاء نرى أنهم كلما تقدموا في الزم نراجعوا من أفكارهم الأولى . حتى انقلبوا على أنفسهم . وذلك دليل على أن المنهج الذي اتبعوه لأنفسهم غير صحيح .

والمنهج الرأسمالي أظن كما هو ؟ لا ، لأن الأحداث قد اضطرت الرأسمالية أن تمنح العمال حقوقاً وبذلك لم تبق لرأس المال شراسته . كما سارت الشيوعية إلى معظم أساليب الرأسمالية . والرأسمالية سارت إلى بعض من أساليب الاشتراكية وهما - إذن - يريدان أن يلتقيا . ولكن الإسلام لوجود هذا اللقاء من البداية ، فسعزهم رأس المال ، واحترم العمل . وكل إنسان لزم حدوده . وضمن وجود واستمرار حركة الحياة . ولذلك نجد أن الرأسمالية تقول : يجب أن توفر الحوافز للعمل . ولم فصل الشيوعية أيضاً إلى مداها ، بل قامت بإهدار حقوق الناس ، ثم ماذا عن الذين لم تمتد إليهم يد الشيوعية - قبل أن توجد - وكان فيهم من يستغل الناس ؟

كان العقل يحتم أن تؤمن الشيوعية بأن هناك آخرة يعاقب فيها من استغلوا الناس من قبل ، ومن مصلحتهم إذن أن توجد آخرة . وكان من اللازم أن يكونوا متدينين . وكذلك الرأسمالية التي لا تعترف إلا بالربح المادي ، امتلأت بمجتمعاتها بالهشاياء الذين نفذوا المعصيات . وقول الحق : « أثرتنا » يعتبر أن هناك منهجاً نزل من أعلى . وحين تأخذ معطيات البيان القرآني ، نجده سبحانه يبلغنا تعاليمه : « قل تعالوا » . أي ارتفعوا إلى مستوى السماء ولا تهبطوا إلى حضيق الأرض .

ولذلك قال الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ونرى أن آيات القرآن تتأزر وتخدم كل منها الأخرى . ونزول الكتاب بالحق يحتاج إلى صدق دليل أنه ينزل من الله حقاً ، وأن تأتي كل قوانين الحق في حركة الحياة بالانسجام لا بالتناحر ، وهناك آية تشرح كلمة « الحق » :

﴿ وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أي أنه نزل من عند الله وليس من صناعة بشر . (وبالحق نزل) أي نزل بالمنهج من عند الله الذي يقيم منطق الحق في كل نفس وكل مكان ، وينص كل حق يقيم حركة الحياة .

وهنا اجعلت الآية ، فقالت : « وأنزلنا إليك الكتاب بخلق مصدق لما بين يديه من الكتاب ، لئى أن القرآن مصدق للكتب السماوية السابقة . وما الفارق بين كلمة « الكتاب » الأولى التى جاءت فى صدر الآية ، وكلمة « الكتاب » الثانية ؟

إننا نعلم أن هناك « ال » للجس ، و « ال » للمعهد ، يقال « لقيت رجلا فأكترمت الرجل » ، لئى الرجل المعهد الذى قابلته . فكلمة الكتاب الأولى اللام فيها للمعهد لئى الكتاب للمعهد المعروف وهو القرآن ، وكلمة الكتاب الثانية يراد بها الجنس لئى الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، فالقرآن مهيمٌ رقيبٌ عليها ، لأنها قد دخلها التحريف والتزييف .

كلمة « الحق » - إذن - تعنى أن كتاب الله الخاتم لكتبه المنزلة وهو القرآن قد نزل بخلق الثابت فى كل قضايا الكون ومطلوب حركة الإنسان . ونزل بخلق بحيث لم يصبه تحريف ولا تغيير .

إذن فالخلق هو فى مضمونه وفى ثبوت نزوله . وقد نزل القرآن بعد كتب أنزلها الله متناسبة مع الأزمنة التى نزلت فيها ، لأنه سبحانه خلق الخلق لمهمة أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن يعمرُوا هذا الكون بما أمّدهم به من عقل وفكر ، وطاقات تنفذ ، ومادة فى الكون تتفعل ، فإن أرادوا أصل الحياة مجرداً عن أى ترقى أو إسعاد فلهم فى مقومات الأرض ما يعطيهم ، وإن أرادوا أن يرتقوا بأنفسهم فعليهم أن يعملوا العقل الذى وهب الله ليعلم الطاقات التى خلقها الله فى المادة التى خلقها الله ، ويحيث ياخلون أسرار الله من الوجود .

إن أسرار الله فى الوجود كثيرة ، وتفعل لنا وإن لم نعرف نحن السر فنجد الجاذبية التى تمسك الأفلاك تفعل لنا ، وإن لم نكن قد اكتشفنا الجاذبية إلا أخيراً . والكهرباء السارية فى الكون سلباً وإيجاباً تفعل لنا وإن لم نعرف ما تتطوى عليه من سر .

إن الخلق سبحانه حين يهد ميلاد سر فى الكون سبحانه يمد الخلق بأسباب بروز هذا السر . واعلموا أن كل سر من أسرار الكون المستخر للإنسان له ميلاد كميلاد

الإنسان نفسه ، إما أن يصادف - هذا الميلاد - حمل العقل في مقدمات تنتهي إليه ،
وحيث يأتى الميلاد مع مقدمات استعمالها البشر فوصلوا إلى النتيجة ، تماماً مثل
التمرين الهندسى الذى يقرم الطالب بحله بعد أن يعطيه الأستاذ بعضاً من
المعطيات ، ويستخدمها التلميذ كمقدمات ليستنتج ما يريد المدرس أن يستنتجه من
مطلوب الإثبات . فإن صادف أن العقل بحث فى الشيء معطياً وتجريبياً وصل ميلاد
السر مع البحث . وإن جاء ميلاد السر فى الكون ، ولم يشغل الإنسان نفسه ببحث
مقدمات توصل إليه ، وأراد الله ذلك الميلاد للسر فماذا يكون الموقف ؟

أمنع الله ميلاد السر لأننا لم نعمل ؟ لا . بل يخرج سبحانه السر إلى الوجود كما
نسمع دائماً عن مصادفة ميلاد شيء على يد باحث كان يبحث فى شيء آخر . فنقول : إن
هذا السر خرج إلى الوجود مصادفة

وإذا نظرت إلى الابتكارات والاختراعات وأمهات المسائل التى اكتشفت لوجدتها
من الصنف الثانى ، ونجد المفكر أو العالم وقد عرق فى بحث ما ، ثم يعطيه الله سرّاً
من أسرار الكون لم يكن يبحث عنه ، فيقال عن الاكتشاف الجديد : إنه جاء مصادفة ،
وحيث جعل الله لكل سر ميلاداً ، فهو قد أعطى خلقه حياة من واسع فضله ،
وأعطاه قدرة منفيض قدرته وأعطاء علم من علمه (وعلماء من لدنا علماء) ، ووهبه
حكمة يؤتى بها خيراً ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . وهو سبحانه وتعالى
يريد من خلقه أن يتفاعلوا مع الكون ليبرروا الأشياء ، وإذا كان سبحانه يريد ما أن نعلم هذا
الاتصال فلا بد أن يضع المنهج الذى يصون طاقاتنا ونكرنا بما يندمها .

والذى يبدد أفكار الناس وطاقاتهم هو تصارع الأهواء ، فالهوى يصادم الهوى ،
والفكرة قد تصادم فكرة ، وأهواء الناس مختلفة ، لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن
يضمن لنا اتفاق الأهواء حتى يصدر فى كل حركاتنا عن هوى واحد ، وهو ما أنزله
المخالق الأعلى الذى لا يغير تلك الأهواء . أما ما لا تختلف فيه الأهواء فتركنا لكم
نبحث فيه ، لأننا سنتفق فيه قهراً . ولذلك نقول دائماً : لا توجد اختلافات فى
الأفكار العملية التجريبية المادية ، فما وجدنا كهرباء روسية ، وكهرباء أمريكية لأن
المعمل لا يحايل . والمادة الصماء لا تخايل . والنتيجة العملية تخرج بوصوحها
واحدة .

إننا نرى اتفاق العلماء شرقاً وغرباً في معطيات المادة التجريبية وتحاول كل بلد أن يسرق من البلد الآخر ما انتهى إليه من نتائج لتدخنها على حصارها ، بينما يختلف الأمر في الأهواء البشرية ، فكل بلد يحاول أن يبعد هوى الآخر عن حدوده ، لأن الأهواء لا تلتقي أبداً ، وحق قد وضع حركة الحياة لتعمل بـ « اعمل كذا » و « لا تعمل كذا » مما تختلف فيه الأهواء ليضمن الاتحاد وعدم تعاند الطوائف فيما بل تتساند معاً .

﴿ وَلَوْ أَتَعَاحَتِ أَهْوَاءُكُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المائدة)

إذن فمنهج الله في كونه إنما جاء لينظم حركة الإنسان فيما تختلف فيه الأهواء ، أما الحركة فيها لا تختلف فيه الأهواء فقد تركها سبحانه حرة طليقة . لأن البشر يتفقون فيها قهراً عنهم ، لأن اللذة لا تهمل والعمل لا يجاهل

ولذلك قلنا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله نبياً حافئاً أعطى بـ « اعمل ولا تفعل » أما بالنسبة للأمر المأدب المعمل فقد جعل أمره في ذات النبي صلى الله عليه وسلم . فعندما قُبِمَ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كان أهلها يأبرون النخل ، أي يلقحونه ليثمر . فمر النبي صلى الله عليه وسلم يقوم يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » .

فلم يأبروا النخل ، فخرج شيخاً ، أي بشراً وديئاً ، وشاب النخل . ومر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لنعلمكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإن إنما ظننت غناً فلا يؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإن لن أكذب على الله عر وجل » .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما أنا بشر ، إذ أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر »

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلمها قضية كونية مادية تجريبية معملية :
(أنتم أعلم بأمر دينكم) (١) .

أى أنه صلى الله عليه وسلم ترك للأمة إدارة شئونها التجريبية ، ولم يكن ذلك القول تركاً للحبل على العارب في شئون المنهج ، فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم لفصل فيما تتدخل فيه السماء ، وفيما تتركه السماء للبشر ، وأعمار الناس - كما يعلم - تختلف ، فنحن نقول للإنسان طفولة ، وله فتوة ، وشباب ، وله اكتمال رجولة ونضج ؛ لذلك يعطى الحق من الأحكام ما يتناسب هذا المجتمع ، يعطى أولاً الاحتياج الذى للطفولة ، وعند عصر الفتوة يعطيه المسائل الإدراكية ، وعندما يصل إلى الرشد يعطيه زمام الحركة في الكون على صورة المنهج ، فكانت رسالة الإسلام على ميعاد مع رشد الزمان ، فأين الحق سبحانه أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يفتقروا ليحموا حركة الإنسان من أهواء البشر . وكانت الرسل تأتى من عند الله بالبلاغ للمجتمعات البشرية السابقة على الإسلام . وكانت السماء هى التى تؤدب ولكن عندما اكتمل رشد الإنسية ، رأينا الرسول يبلغ ، ويؤكد الله فى أن يؤدب من يخرج على منهج الله فى حركة الحياة ، لأنه صلى الله عليه وسلم أصبح مأموناً على ذلك .

وإذا نظرت إلى الكون قديماً لوجدته كوناً انعزالياً ، فكل جماعة فى مكان لا تعلم شيئاً عن الجماعة الأخرى ، وكل جماعة لها نظامها وحركتها وعيشتها ودياراتها . والإسلام جاء على اجتماع البشر جميعاً . فقد علم الله أولاً أن لإسلام سيجىء على ميعاد مع إلقاء فوارق الزمن والمسافات ، وأن الداء يصيب فى الشرق فلا يبيت إلا وهو فى الغرب ، وكذلك ما يحدث فى الغرب لا يبيت إلا وهو فى الشرق .

إذن فقد انحدرت الداءات ولا بد أن يكون الدواء واحداً فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعاً للزمان وجامعاً للمكان وماتوا أن يحىء رسول آخر بعده ، وأن العالم قد وصل إلى قمة نضجه . فإذا ما جاء الإنسان ليعلم منهج الله بـ « افعل » ولا « تفعل » ، وجد أن المنهج محروس بدلائل ، بمعنى أن الكتب السابقة على القرآن فيها « افعل » و « لا تفعل » ، والقرآن أيضاً فيه « افعل » و « لا تفعل » لكن المنهج

السابق على القرآن كان مطلوباً من المنزل إليهم أن يحفظوا عليه ، وما دام قد طلب الحق منهم ذلك فكان من الواجب أن يمثلوا لطاعته لكنهم تركوا المنهج . فكل منهج عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يهمل ، ولم يحفظوا الكتب وحدث فيها التحريف بمراحله المختلفة والتي سبق أن ذكرناها وهي التسهل وهو منمثل في قومه الحق .

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة النازعات)

وما لم ينسوه كتبوا به ، فقال الحق فيهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْحَقَّ مِنْ بَيْتِنَا لِلنَّاسِ فِي
الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة البقرة)

وما لم يكتموه حرقوه ولوا للستهم به وقال الحق :

﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ نَفَرٌ يَأْتُونَ السَّبِيلَ وَالْكِتَابَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة آل عمران)

ولم يقتصروا على ذلك بل وضعوا من عندهم أشبه وقالوا إنها من عند الله . وكان أمر حفظ كتب المنهج السابقة موكولا لهم ولذلك قال الحق عنهم :

﴿ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

أى أن الحق طلب منهم أن يحفظوا على المنهج ، وكان يجب أن يطعموه ولكن أهلهم آثر العصيان . فلما عصى البشر المنهج ، لم يأمن الله البشر من بعد ذلك على أن يستحفظهم على القرآن ، وكأنه قال : لقد جربتم فلم تحفظوا على المنهج ، ولأن القرآن منهج خاتم لن يأتي له تعديل من بعد ذلك فسألتنى أنا أمر حفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّاتُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(سورة الحجر ٩)

ومادام الحق هو الذي يحفظ المنهج فالقرآن مهيمن على كل الكتب ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد ضمن عدم التحريف فيه إذن فالكتاب المهيمن هو القرآن ، ومادام القرآن هو المهيمن فهو حقيقة ما يسمى بالكتاب .

ودليل العهد هو قول الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب » أما قوله : « ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب » فالقصد به لزوم التوراة والإنجيل ومصحف إبراهيم وموسى ، ثم جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

وساعة سجد وصفاً وصف به غير الله وسمى به الله نفسه في الموقف ؟ تعرف أن هذه صفات بلغت في تخصصها به مقامها الأعلى بالله ، مثل قولنا : « الله سميع » والإنسان يسمع ، و « الله غني » ويقال : « فلان غني » ؛ فإذا سمي الحق باسم وجد في الخلق ، فليس من المتصور أن يكون هذه صفة مشتركة بين العبد والرب ، ولكننا نأخذ ذلك في ضوء : « ليس كمثل شيء » .

إن أي اسم من هذه الصفات على إطلاقه لا ينصرف إلا لله ، فإن قلت : « الغني » على إطلاقه فهو اسم لله ، وإن قلت : « الرحيم » على إطلاقه فهو اسم لله . فإذا أطلق اللفظ من أسماء الله على إطلاقه فهو الله ، واسم « المهيمن » يطلق هنا على القرآن وهو اسم من أسماء الله . ومن معنى « مهيمن » أنه مسيطر

ومن أمثلة الحياة أننا نرى صاحب مصنع يطلق يد مدير في شئون العمل ، وهذا يعني أنه مؤمن ومسيطر وأمين ، ولا بد أن تنتبه ، أي رقيب ، وهو شهيد ، إذن فالذين فسروا كلمة « مهيمن » هي أنه مؤمن قول صحيح .

والذين فسروا كلمة : « مهيمن » على أنه « مؤمن » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « رقيب » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « شهيد » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه قائم على كل أمر فون صحيح . وإذا رأيت اختلافات في تفسير اسم واحد من أسمائه - سبحانه - فلتعلم أن الحق يصلق عليه كل ذلك ، وباللزام لا يكون « رقيباً » إلا إذا كان « شهيداً » ، ولا يكون « شهيداً » إلا إذا كان قائماً على الأمر ، ولا يكون كل ذلك إلا إذا كان مؤمناً ومؤمناً .

إذنه « مهيمن » هو قيم وشاهد ورقيب . ومادام القرآن قد جاء مصدقاً بما بين يديه من الكتاب فعل أى مجال يهيمن ؟ نحن نعرف مدلول الكتاب بأنه نور من عند الله ، فإن جئ الكتاب الذى نزل من عند الله كما هو فالقرآن مصدق لما به ، أما إن لعبت فى ذلك المنهج أهواء البشر فالقرآن مهيمن لأنه يصحح المنهج وينقي من أهواء البشر . « فاحكم بينهم بما أنزل الله » . « احكم » مأخوذة من مادة « حكم » ، « والحكمة » هى قطعة الحديد التى توضع فى فم الحصان ويربدها باللبان ، حتى تتحكم فى الحصان . والحكمة هى ألا تدع المحكوم يفلت من إرادة الحاكم .

وحين يقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » فهل يحدث ذلك أيضاً مع غير المؤمنين ؟ نعم . فإذا ما جاء إليك يا رسول الله أناس غير مؤمنين وطلبوا أن تحكم بينهم فاحكمهم بما أنزل الله . ولذلك قال الحق :

﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة التوبة)

لكن لماذا جاءوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم برغم عدم إيمانهم به ؟

جاءوا إلى الرسول ليحكم بينهم ؛ لأنهم ألفوا أن يبيحوا ما حرم الله شهوات الدنيا وأخذوا لأنفسهم سلطة زمنية ، وماداموا قد أخذوا لأنفسهم سلطة زمنية أنستهم حكم الله . وأرادوا - على سبيل المثال - أن يخرجوا على حكم الرجم وتخفيفه ، ولذلك ذهبوا إلى النبی ، فإن حكم هو بالتخفيف أخذوا بالحكم المخفف ، وإذا لم يحكم بالتخفيف فهم لن يأخذوا بالحكم ، هم ذهبوا إليه صلى الله عليه وسلم بقصد التيسير وقالوا له : أنت تعلم أن لنا سلطاناً وأن لنا نفوذاً ونحن نريد أن تحكم لنا لأنك صدمنا فحكم لنا سنؤم بك وبعد ذلك تأتى إليك باقى جماعتنا ليؤمنوا بك ويتبعوك .

لقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك تطبيقاً لقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » فإذا كان عندهم كتاب التوراة مصوناً من التحريف ، فالرسول يشير عليهم بالحكم الموجود فى التوراة ، ولذلك عندما استدعى صلى الله عليه وسلم أهلهم علمائهم بالتوراة حاول بعضهم أن يصع يده على

السطور التي بها الحكم ؛ فالحكم بما أنزل الله يكون من التوراة إن لم يبدل ، أما إذا كان الحكم قد بدله الناس فالحكم من القرآن ؛ لأن القرآن هو المهيمن . فالحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ؛ لأنهم بهذه الأهواء يريدون أن يسروا على أنفسهم ليستفوا لأنفسهم السطة الرمية ، ووصفهم الحق :

﴿ أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمًّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

هم - إذن - يريدون أن يستبدلوا بآيات الله مصلحتهم في الحكم . ويقول الحق : « ولا تتبع أهواءهم عما جملك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاج » ، وإن افترضنا أن بعضا من التوراة لم يحرف ، وبه حكم أراد الإسلام أن يبدله ، فما أمر يتبع ؟ إن الاتباع هنا يكون للقرآن لأنه هو المهيمن ، فسبحانه أراد بالقرآن أن يصحح ويعدل ويغير .

إن مناهج الأديان في العقائد ثابتة لا تغيير فيها ، وأما ما يتصل بالأحكام التي تحكم أفعال الإنسان فله سبحانه وتعالى ينزل حكماً لقوم يلائمهم ثم ينزل حكماً آخر يلائم قوماً آخرين . ولذلك نجد أن سيدنا عيسى قال :

﴿ وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُجِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٥١ سورة آل عمران)

أي أن هناك أشياء كانت محرمة في دين اليهود . وجاء عيسى عليه السلام ليحلل بعضاً من هذه المحرمات ، وكان التحريم مناسياً بني إسرائيل في بعض الأمور ، وجاء المسيح عيسى ابن مريم ليحلل لهم بعضاً من المحرمات ، وكان تحريم بعض الأمور بني إسرائيل بهدف التأديب :

﴿ قُلْ لِمَنْ أَلْزَمَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتِ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة البقرة)

إذن فقد يكون تحريم الشيء بسبب الضرر النافق ، أو هدف التأديب ؛ لأن الإنسان أحل لنفسه ما حرمه الله عليه .

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » والشرعة هي الطريق في الماء . والمنهج هو الطريق في اليابسة . ومقومات حياة الإنسان هي من الماء ومن الغذاء الذي يخرج من الأرض ، فكللت جعل الحق سبحانه وتعالى في القيم هذين الاثنين ، الشرعة والمنهج ، ومادام سبحانه قد جعل لكل منا شرعة ومنهاجا ، فلماذا قال في موضع آخر من القرآن :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة الشورى)

معنى هذا القول هو الاتفاق في أصول العقائد التي لا تختلف أبداً باختلاف الأزمان . ففى بدء الإسلام نجد أنه جاء ليؤصل لعقيدة أولاً بلا هوادة ، فتأدى بوحدة الله ، وعدم لشرك به ، وصفات الكمال المطلق فيه ، وعدم تعدد الأله . أما بقية الأحكام الفعلية فقد جعلها مراحل . وكان يحذف قليلاً بقليل . إذن فالمراحل إنما جاءت في الأحكام الفعلية ، أما العقائد فقد جاءت كما هي وحسب لا هوادة فيه

إذن فقوله الحق : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » هذا القول مقصود به العقائد . ومادام قد شرع لنا في الدين ما وصى به نوحاً ، فهذا توصية بأعمال تتعلق أيضاً برس نوح ، وسبحانه الذى وضع لنا المنهاج الذى نسير عليه في زماننا . إذن فالأمور متساويان . والمهم هو وحدة المصدر المشرع

ويقول الحق : « ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة » . فلو شاء لجمع « الفعل » ولا « تفعل » واحدة في كل المناهج ، ولكن ذلك لم يكن متناسباً مع اختلاف الأزمان والأقوام الانعزالية قبل الإسلام بداءاتها المختلفة ، لذلك كان من المنطقي أن تأتى الأحكام مناسبة للداءات .

﴿ وَتَوَسَّاءَ اللَّهُ لِيُجَمِّعَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَرْصُكُم بِمَا تَتَشَكَّرُونَ فَاسْتَبِقُوا

الْحَيَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وسبحانه وتعالى لو شاء لجمعنا أمة واحدة في « افعل » و « لاتفعل » ولكنه

- سبحانه - لم يرد ذلك حتى لا يألّف الناس العبادة وتصير كالعادة عندهم ، فحيثما يألّف الناس أداء العبادات ، فهم بذلك يحرّمون ثلّة التكليف والإيمان بالتكليف ، فكان لا بد أن يأتي لتشريع مناسبا لكل زمان . وذلك ليقرب بين قوم وقوم ، ففى الصوم - حل سبيل المثال - نجد أن الحق يسمح لنا بالطعام والشراب والجنس فى الفترة ما بين الإفطار والسحور ، فالحق يأتى إلى الشيء الرتيب ويأتى فيه أمر الله بالامتناع عنه لفترة زمنية معينة . ولا يقرب المؤمن هذه المحرمات فى زمان معين ، ولا يقرب غيرها فى أى زمان ومكان . مثل شرب الخمر ، أو أكل لحم الخنزير . واؤمّس لا يقرب هذه الأشياء بطبيعة اختياره . ويأتى الصوم ليعلّمه ويذريه حل الانصياع للتكليف فيحرّمه الحق من الطعام طول نهار شهر رمضان وكذلك الشراب والجنس .

المسألة - إذن - ليست رتبة أبدأ . بل هي ابتلاء واختبار للبشر ، ولكن ليلوكم بها أياكم ، والابتلاء - كما نعلم - ليس أمرا مذموما فى ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تؤول إليه نهايته ، ومادام سبحانه يتلينا قيا آثانا فيجب أن نكون حكيما وأن نتسابق إلى الخير :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء ، والنجاح يعطى أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن فالابتلاء فى مصلحتنا ، لأنه يعطى الناجحين فيه نجاحاً أخلد ، وقصارى ما يرينه الشيطان للناس أو ما تتخيله نفوس الناس ، أن تمر الشهوة العابرة وتنفق فى الدنيا العابرة . وبعد ذلك يأتى العذاب المقيم . وعندما نوازن هذا الأمر كصفقة نجدها خاسرة ، لكن إن نجحنا فى ابتلاء الله لنا فلذلك هو الفوز العظيم . فاستبقوا خيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فمّن كتم به تحتلفون .

أى تسابقوا فى الوصول إلى الخيرات ، لأن الخير إن يقاس بمائدته ، فلأياكم أن تفهموا أن الله حرّمكم شهوات الدنيا لأنه يريد حرمانكم ، ولكنه حرّمكم بعضاً من شهوات الدني لأنها مفسدة . وكان التحريم لزمن محدود ليعطيكم نعم ومتع الآخرة المصلحة فى زمن غير محدود ، وهذا هو كل الخير .

« إلى الله مرجعكم جميعاً » والكل يرجع إلى الله سواء ملتزم أو المنحرف ، وأمام الحق نرى القول الفصل : « فنبينكم بما كنتم فيه تختلفون » . ومادام هناك اختلاف فلا بد أن يوجد من أخذ جانب الخير ومن أخذ جانب الشر ، ولو أن الله قال لنا : « ستأخذون الخير » وسكت عن الشر لكان ذلك كامراً ، لكنه يعطينا الصورة الكاملة . وينح ذلك قول الحق :

﴿ وَإِنْ أَحَكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِسُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لَفَتِيسُفُونَ ﴾ (١٦)

وقد يقول قائل : إن الله سبحانه وتعالى قال من قبل :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وتكون الإجابة : أن الحق بين إن القرآن قد نزل مهيمناً ، وعلى الرسول أن يباشر مهمة التنزيل ، لذلك يأتي هنا قوله : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله » . بلاخاً للرسول وليضاحاً : « أنا أنزلت إليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمناً فاحكم » ، فإذا جاءك قوم بشيء يخالف لما نزل من القرآن ، فاحكم بينهم بالقرآن . والذي زاد في هذه الآية هو قوله الحق : « وأحذروهم أن يفتسوك » والحذر هو احتياط الإنسان واحترازه بمن يريد أن يوقع به ضرراً في أمر ذي نفع ، والذي يرغب الضر قد يزين لنفسه ولغيره الضر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما في باطنه هو كل الشر .

إذن فالحذر هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يندس عليه ضرراً في صورة نفع ، كان يأتي خصم ويقول لك : سأضع لك كذا وأفعل من أجلك كذا وكذا . يجب عليك هنا أن تقول له : لا .

والخيل - إذن - يقتضى حقلاً مركباً ، ولذلك كانوا يعرفون الخيل من الغراب .
فها هوذا الغراب يعلم ابنه فى قصة شعبية فيقول الغراب لابنه .

احذر الإنسان ؛ لأن الإنسان عندما ينحني ليلتقط شيئاً من الأرض فهو يلتقط
قطعة من الطوب ليرميك بها . وهنا يقول الغراب الصغير لوالده : وماذا أفعل لو كان
هذا الإنسان ينجىء قطعة الطوب فى جيبه ؟ إنها قصة توحى بأن الغراب حذر
بفطرته

ونرى مثل ذلك فى مظهر الأشياء كالمرايا التى يزين للناس أن يضعوا أمراهم
عنده ويعطيهم فائدة تبلغ عشرين بالمائة ، هذه صورة شيء يفع ولكنها صولة
بالفعل ؛ لأنها تزيد المال ظاهراً ولكن ينطبق عليها قول الله (يحق الله الربا)

وهذا أمر صار يزينه الخصم وكأنه أمر نافع . ولحق يطلب من رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يكون حذر ، فإذا يكون المطلوب من الاتباع ؟ . إنه الحذر نفسه ؛
لأن أفضل البشر وجهه الله إلى الحذر : « واحذروهم أن يعتنوك » لأن الصورة التى
دخلوا بها هى صورة ترين الخداع ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم بنا ، فإن
حكمت لصالحنا فلسوف نبتلك ، وهذا أمر يبدو فى صورة شيء نافع . وجله انقول
الحق ليحسم هذه المسألة : « واحذروهم أن يعتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك »
وهنا يحذر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

ويتابع الحق : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً
من الناس لفاسقون » وهم إن تولوا ، فاعلم أن الله يحبك أن تتزلق إلى شبهة
باطل . فهم قد اختاروا أن يوفلوا فى الكفر ، وفى الاعتماد عن منهج الله ، ومصيبهم
ببعض عذبه مقابل ذنوبهم ، وسبحانه لا يصيبهم ظلاً ، بل يصيبهم ببعض اللنوب
التي ارتكبوها . وهو أعلم بهم ، لأنه الأعلم بالناس جميعاً .

ويحتم الحق الآية بقوله : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » أى خارجون عن
طاعة كتبهم ورسولهم ؛ لأن طاعة الكتب السابقة على القرآن تنهى عن ضرورة
الإيمان بالرسول النبى الأمين صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي أَنزَلَ مَكْنُونًا مِّنْ أَنفُسِهِ وَالْإِنْجِيلَ

يُحَرِّمُ الْمَشْرُوفَ رِيسَهُمْ مِنَ الشَّرِّ وَيُجِلُّهُمْ أَطْبَعَتْ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ أَنْجَبَتْ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة الاعراف)

إذن فطريق الفلاح كان مكتوباً في التوراة والإنجيل ، وكان الأمر باتباع محمد
صلى الله عليه وسلم النبي الأسمى موجوداً في الكتب السابقة على القرآن ، وكانت
البشارة بمحمد رسولاً من عند الله بأمر بكل الخير ونهي عن كل الشر ويحل للناس
كافة الأسماء التي تحسن العطرة الإنسانية استقباليها ، ويحرم عليهم أن يزيهوا ويغيروا
للنبي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يستسلموا للعباد ، فقد
جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليبرل عنهم عبثه تزييف المنهج فمن اتبع نور
رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن بالحجة والفوز . ومن لم يتبع هذا النور فهو
المتخارج عن طاعة كتاب السماء . ومحاولة إنكار رسالة رسول الله محكوم عليها
بالفساد ، فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وصف رسول الله صلى الله عليه
وسلم من هذه الكتب .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْعَنُونَ
الَّذِينَ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾

(سورة البقرة)

ونعلم جميعاً ما فعله عبدالله بن سلام عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ليعلن إسلامه . قال عبدالله بن سلام :

-لأنا أشد معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم مني باني .

فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- : وكيف ذلك يا بن سلام ؟

قال عبدالله بن سلام : لأني أشهد أن محمداً رسول الله حقاً وبقيةً وأنا لا أشهد

بذلك هل ابني لأن لا أدرى ، أحداث النساء . فقال عمرو بن الخطاب

- رفضك الله يا ابن سلام .

ولكن بعض علماء بني إسرائيل وأخبارهم كتبوا البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يرجون الرئاسة والطمع في الهدايا التي كان يقدمها الناس إليهم . لذلك عمدوا إلى صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وكتبوها . وما داموا قد فعلوا ذلك فلنعلم أن الله يريد أن يصيرهم ببعض ذنوبهم .

ونلاحظ أن الحق حين أجرى على لسان رسوله خطباً إلى اليهود . ولم يأت على لسانه صلى الله عليه وسلم اتهام شامل لليهود ، بل اتهام لبعضهم فقط ، وإن كان هذا البعض كثيراً ، فلنعلم أن ذلك هو أسلوب صيانة الاحتيال ، لأن بعضهم يدير أمر الإيمان بقلبه . صحيح أن كثيراً منهم فاسقون ، ولكن القليل منهم غير ذلك فيها هوذا أبو هريرة رضي الله عنه ينقل لنا ما حدث :

- زنى رجل من اليهود بأمرأة وقال بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه نبي مبعوث لتخفيف فإن أفتانا بغيا دون الرجم قبلناها واحتججناها عند الله وقتلنا فتيا نبي من أنبيائك فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد مع أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى في امرأة ورجل زنيا ؟ فلم يكلمهم حتى ذهب إلى يئزاسهم .

وهناك طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاب رفض أن يتكلم بالكلام غير الصدق الذي يتكلمه قومه وقال الشاب : إنا نجد في التوراة الرجم . وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجم .

عن البراء بن عازب قال : مرّ على النبي صلى الله عليه وسلم يهودي قميصاً مجلوداً ، فدعاهم فقال : هكذا تمجدون الزاني في كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تمجدون حدّ الزاني في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك تشدتي بهذا

لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكما إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقدنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أمأثوه) ، فأمر به فرجم فانزل الله : (يا أيها الرسول لا يحرمك الذين يسارعون في الكفر) إلى قوله : (وإن أوتيتهم هذا فخطوه) يقولون ائتوا بهذا لأن أمركم بالتحميم والجلد فحدوه ، وإن أفتاكمم بالرجم فاحذروا (١) .

إذن فالكثير منهم فاسقون ، والقليل منهم غير فاسق لأنهم يديرون فكرة لإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ولو أن الاتهام كان شاملاً لكل بأنهم فاسقون ، لما أحسن الذين يفكرون في أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالنور الذي جاء به . وعندما قال الحق : « وإن كثيراً منهم فاسقون » يعني أن الدين يديرون في رؤوسهم فكرة الإيمان برسول الله سبحانه لنور وأصباح في كنياته .

وتساءل : لماذا أرادوا أن يلوا أحكام الله ليحموا أنفسهم سلطة رسمية ونمناً تابعاً من تلك الأشياء التي يتقاصونها ، لماذا يفعلون ذلك ؟
ها هو قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّمَنْ يُؤْفِكُونَ ﴾

والجاهلية هي نسبة إلى جاهل . ولو كانت نسبة مأخوذة من الجهل لجاء الفول « جهلية » ، لكن الحق يقول هنا « جاهلية » نسبة إلى جاهل . وحتى نعرف معنى الجاهل بالتحديد لا بد لنا أن نتذكر ونستعيد تقسيم النسب الذي قلناه قديماً ، ونعرف أن كل لفظ نتكلم به له معنى ، وساعة نسمع اللفظ فالمعنى يأتي إلى ذهن

إفرادياً مثلاً نسمع كلمة « جبل » يوقفز إلى الذهن صورة الجبل ، لكن لا توجد حالة واضحة للجهل ، لأن الكلمة لم تكن مصحوبة بحكم .

إذن فهناك معنى للفظ ، ولكن هذا المعنى لا يستقل بفائدة . ولكن إن قلنا إن الفاهرة مكتظة بالسكان ، أو أن مرافقتها متعبة ، هنا نكون قد أتينا بحكم يوضح لنا ماذا نقصد بقولنا الفاهرة .

إن هناك فرقاً بين اللفظ حين يؤدي إلى معنى مفرد لا حكم له ، وبين لفظ له حكم ، ولذلك نجد العربي القديم حين يأتيه لفظ بلا حكم لم يكن ليقبله . وما هوذا رجل عربي قال : أشهد أن محمداً رسول الله - بفتح اللام في كلمة « رسول » - وبهذا القول تكون « رسول الله » صفة لمحمد وليس فيها الخبر المطلوب . لذلك قال عربي آخر : ومدا يصنع محمداً ؟ ليثبت القائل إلى أنه لم يتلق الخبر إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى مفرد ولا بد له من نسبة .

مثلاً نقول لصديق . « محمد » ، ويعرف هذا لصديق محمداً ، فيسألك : وما لمحمد ؟ ويقول هذا إنما يطلب الخبر ليعرف ماذا حدث له أو منه ، فتقول : « محمد زاول أمس » . وهكذا تكتمل الفائدة .

إذن فكل لفظ من الألفاظ المفردة له معنى حين يفرد . فإذا ما جاء الحكم تنشأ عنه النسبة . وإن كانت النسبة واقعة ويعتقدها قائلها ، ويستطيع إقامة الدليل عليها فهذه نسبة علم ، لأن العلم نسبة مجرّوم بها وواقعة وتستطيع إقامة الدليل عليها تماماً مثلاً نقول : الأرض كروية . حيث توحي الكلمة أولاً بصورة الأرض وأضغنا إليها نسبة هي « كروية » لأننا نعتقد أنها كروية والواقع يؤكد ذلك ، فإذا ما جئنا بالدليل عليها فهذه نسبة علم إذن فالعلم نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل .

أما إذا كانت النسبة واقعة ومعتقدة ولا يستطيع التدليل عليها فذلك هو التقليد منها يكرر الطعل عن والده بعضاً من الحقائق ولكنه لا يستطيع إقامة الدليل عليها ، إنه يقلد من يتق به ، إذن فالمرحلة الأقل من العلم هي التقليد . أما إذا كان الإنسان يعتقد أن النسبة قد حدثت ولكن الواقع غير ذلك ، فهذا هو الجهل ، فالجهل ليس

معاً أنك لا تعرف ، ولكن أن تعرف قضية مناقضة للواقع . والجاهل يخلف عن الأمل ، فالأمل هو الذي لا يعرف ، أما الجاهل فهو الذي يعرف قضية مخالفة للواقع ومتشبه بها .

والحكم الجاهلية يخون ، وأحق هنا يتساءل : هل يرغبون في الاستمرار بالاعتقاد الخطيء الجاهل ؟ والأمر مع الأمل - كما عرفنا - يختلف عن الأمر مع الجاهل ، لأنه يكفيك أن تقول للأمل العلم الذي تريد تعليمه إياه ويقبله منك ، أما الجاهل فلا بد للتعامل معه من حدين . الأول أن نجعله يخدمه ويستبعد من باله القضية الخاطئة ، والذي أن نجعله يفتنن بالقضية الصحيحة . والذي يرهق الدعاة إلى الدين هم الجهلة هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً يتضمن قصايا خاطئة .

لكن ماذا إن كانت لنسبة مجالاً للنفي ومجالاً للإثبات ؟ إن كان النفي مساوياً للإثبات فهي نسبة شك وإن طلب الإثبات فهذا ظن وإن كان النفي راجعاً فذلك هو الوهم وهكذا يتضح لنا أن قضية الجهل قضية صعبة ، والذي يسبب التعصب في هذه الدنيا هم الجهلة ؛ لأنهم يعتقدون في قضايا خاطئة ، فإذا كان هناك حكم من الله . فلماذا لا يرتضون إذن ؟ أيريدون حكم الجاهلية ؟ وكان أهل الكتاب أنفسهم يسهون حكم الجاهلية .

وللحظ أن هذا السفيه كان في زمن المواجهة بين الجاهلية وبين أهل الكتاب . وكانوا يستمتحون على أهل المدينة ومكة . وكثيراً ما قالوا . لقد أضلنا عهد نبى منتمعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . ولكن ما إن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قالوا المكس ، ماذا قالوا للجاهلين ؟ ها هوذا الحق يجبرنا بما قالوا

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَنطَبُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَعْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۚ ﴾

(سورة النساء)

وقد ذهب بعض من أحبار اليهود إلى قريش ، وسألهم بعض من سادة قريش : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عما روى محمد . فقال الأحبار .

ما أنتم وما محمد ؟ فقال سادة قريش : نحن نضر الكوماء^(١) ونسقى اللبن على الماء ونمك العاني^(٢) ونصل الأرحام ونسقى الححيح وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال الأخبار : أنتم خير منه وأهدى سبيلاً . وبدلت زوروا القول .

وسفل الرواة قصة أخرى في هذا الموضع . أن واحداً من أخبار اليهود قال لأبي سفيان : أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه . وقال الأخبار ذلك حسداً لرسول الله .

إذن فهل يرتضى أهل الكتاب حكم الجاهلية ؟ لا . ولكنه التافس والتضارب وماداموا قد تافسوا مع أنفسهم صار من السهل أن يتافسوا مع الكتاب الذي نزل إليهم . ولذلك يتساءل الحق

« أفحكم الجاهلية يبغون » ثم يأتي من بعد ذلك بأن قيل وهو قوله . « ومن أحسن من الله حكماً » وسبحانه لم يقل . إن الأحسن في الحكم هم المسلمون بجواز أن يكون من المسلمين من ينحرف ، لذلك رد الأمر إلى ما لا يتغير أبداً وهو حكم الله . وحين يقرر سبحانه ذلك فإنه - أزلاً - يعلم أنه سيأتي قوم مسلمون وينحرفون عن المنهج .

ومن يرى في بعض الأحيان سلوكاً منحرفاً من مسلم ، فهل نلتصق بهذا السلوك بالإسلام ؟ لا . بل ننظر إلى حكم الله في كتابه . وعندما يرى أن حكم الله يحرم فعلاً وله عقوبة ، فلعقوبة تقع على المسلم المنحرف أيضاً . والمثال قوله الحق :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا الحكم يطبق على مسلم وغير المسلم ، إذن فلا يقول هذا حكم المسلمين وذلك حكم الجاهلية ولكننا نقول . إنه حكم صاحب المنهج وهو الله .

ونلاحظ أن هناك استنفهاً في قوله الحق . « ومن أحسن من الله حكماً » . والاستنفهاً هو نقل صورة الشيء في اللمس ، لا نقل حقيقة الشيء . وساعة يطلب

(١) الكوماء : الناقة العظيمة الثام

(٢) العاني . الأسير

الحكم من المخاطب أن ينقل إليه الفهم ، هنا نقول : هل كان المتكلم لا يعلم الحكم ؟ قد يصح ذلك في الحالة العادية وقد نراه حين يقول إنسان لآخر :

من زارك أمس ؟ فنكون أمام حالة استفهام عن الذي زاره ، تلك هي حقيقة الاستفهام ، لكن ما بالنا إذا كان الذي يتكلم ويستفسر لا تخفى عليه خافية ، إنه - سبحانه - يطلب منا أن نجيب على سؤاله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وتلك عظمة الأداء .

وأخرب مثلاً آخر - والله المثل الأعلى - عندما يأتيك إنسان ويدعي أنك لم تحسن إليه لأنه كان سجيناً مثلاً وأنت الذي أخرجته من السجن . فتقول له : من الذي ذهب ودفع عنك الكفالة وأخرجك من الحبس ؟

إنك أنت الذي فعلت ولا ترهد أن تقول له : لقد فعلت من أجلك كذا وكذا ، ولكنك ترهد هو أن يعطى بما فعلته له ، ولا تقول ذلك إلا وأنت واثق أنه لن يجد جواباً إلا الاعتراف بأنك أنت الذي صنعت له كذا وكذا ، وبذلك تصبح لمسألة إقراراً وليس إنجيلاً .

« ألهكم لجاهلية يبعون » فالخلق عالم أهم حين يسيرون وموسم في الحواب ، لن يجدوا إلا أن يقولوا : يارب أنت أحسن حكماً . وهذا إقرار منهم وإنكار أيضاً . أما عند المؤمن فالأمر يختلف تماماً ، لأن المؤمن يعترف ويقر بفضل الله عليه .

« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » فإحدى يفهم أن حكم الله هو الأفضل هم القوم الذين دخلوا إلى مرحلة اليقين . ونعلم أن مراحل اليقين تتفاوت فيما بينها ، فعندما يخبرك إنسان صادق في قضية ما فأنت تعلم هذه القضية . كأن يقول لك : لقد ذهبت إلى نيويورك . وهذه المدينة تقع على حافة من الجزر وبها جارات شاهقة والمنف منتشر فيها . والناس تبدو وكأنها محسوسة من قرط الموس على الثروة . وسنسمع هذا الصادق فأنت تأمنه على عمل الجهد وتعتبر كلامه بقينا وهذا هو علم اليقين ، أي أنه إنجبار من إنسان تثق فيه لأنه صادق .

وبعد ذلك يأتي هذا الإنسان ليوجه لك الدعوة ، فتركب معه الطائرة ، وتطير

الطائرة هل ارتفاع يسارى لربمين ألف قدم ، وبعد إحدى عشرة ساعة تهب الطائرة قليلاً ، لترى أضواء مدينة صاحبة ، ويقول لك صاحبك : هذه هي نيويورك ، وتلك هي ناطحات السحاب . هكذا صر علم اليقين عين يقين .

وعندما نزلان معاً إلى شوارع نيويورك فأنتما نسيران إلى جزيرة مانهاتن . ونصعد إلى برج التجارة أعلى ناطحات السحاب في نيويورك ، وهذا هو حق اليقين .

إذن : فمراحل اليقين ثلاث : علم يقين : إذا أخبرك صادق بخبر ما ، وعين يقين : إذا رأيت أنت هذا الخبر ، وحق يقين : إذا دخلت وانغمست في مضمون وتفاسير هذا الخبر . وقد بدأ قلت لتلاميذى مثلاً محدداً لاوضح الفارق بين ألوان اليقين ، قلت لهم : لقد رأيت في أندوتسيا ثمرة من ثمار الموز يبلغ طول الثمرة الواحدة نصف المتر . وبالطبع صدقنى التلاميذ ، لأنهم يصدقون قولى . وقد نقست لهم صورة علمية . وصار لديهم علم يقين . وبعد ذلك أدخل إلى عرفة وأنتع حفيفة وأخرج منها ثمرة الموز التى يبلغ طولها نصف المتر . وبذلك يصير علم اليقين عين يقين . وبعد ذلك أمسكت بسكين ونمت بتقسير ثمرة الموز وررعت هل كل واحد منهم قطعة . وهكذا صار لديهم حق يقين . وحين يطلق الحق « اليقين » فهو يشمل النى علم والذي تحقق

فأهل الأدلة ، علموا علم اليقين ، وأهل المراتى والمجاهدات علموا عين اليقين ، وأهل الفيوضات والتجليات وصلوا إلى حق اليقين . والمؤمنون بالله يقول الواحد منهم : أنا بمجره علم اليقين موقن تماماً ولا أنتظر حق اليقين لأنى لا أجرو على التكذيب ، لذلك بعد أن سيدنا الإمام عليا - كرم الله وجهه - يقول : لو انكشف حق الحجاب ما اردت يقيناً .

والحق سبحانه وتعالى يعطين هذه الصورة فى قوله الحق :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرُ ۖ حَقٌّ زُرَّمُ الْقَفَارِ ۖ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۖ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۖ﴾

وإبداءه تكون علم اليقين ، ثم نرى الجحيم ونحس نسيجه على الصراط فتصير عين اليقين ، ومن لطف الله أنه جعلنا - نحن المسلمين - لا نواها حق اليقين ، وهو القدس .

﴿ وَإِنْ مَسَّكَ إِلَّا وَارِدُهُ ﴾

(من الآية ٢١ سورة مريم)

هو يعطينا صورة الجحيم لكن حينما أراد الحق أن يعطينا صورة حق اليقين ، فقد جاء بها في قوله الحق :

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْجِعِ الْجُحُومِ ۝ وَبِأَنَّهُ لَقَدْ لَعَنَّكُمْ ۝ إِذْ أَنتُمْ لَعْنَةُ الْكَرِيمِ ۝ فِي كَيْتٍ مَكُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَنْطَرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْتُونَ ۝ وَجَعَلُوا رِزْقَكَ أَكْثَرُ تَكْثِيرًا ۝ ﴾

(سورة الواقعة)

كل ذلك مقدمة ليقول الحق :

﴿ إِنْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ أَتِيَبِ ۝ ﴾

(سورة الواقعة)

وما يذكره الحق هنا من منزلة المصدق المؤمن إن هذه المنزلة هي الجنة ويرى ذلك عين اليقين . أما منزلة المكذب الكافر ، فله مكانه في النار ؛ لذلك سيرى كل الناس النار كعين اليقين أما من يدخله الحق النار - والعياد بالله - فسيعان منها حق اليقين ، وسينعم المؤمنون بجنة حق اليقين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَيَنْهَ عَنْهُمِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْهَاهُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۚ ﴾

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾

فلنحظ أن الخطابات هنا للذين آمنوا . والمسي عنه هو اتحاد اليهود والنصارى أولياء . وما معنى الولي ؟ الولي هو الباصر وهو المعين . وهذا القول مأخوذ من ولي يلى ، أى يقف فى جنبه . ونسمى الذى يوب عن المرأة فى عهد النكاح « الولي » وكذلك « ولي المقتول » . والمراد هو . يا من آمنتم لاحتطوا تحموا أنكم أصحاب مهمة وهى أن تخرجوا الصلالات من الشر . هذه الصلالات غثلت فى تحريف ديانات كان أصلها الهدى فصارت إلى ضلال ، فليأكم أن تضعوا أيديكم فى أيديهم لطلب المعونة والنصرة

إذن قوله الحق : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » هو حكم تكليفى . وحشبه الإيمان بالله . فممنعت قد آمنت بالله فكل من تقدر أنت فى إيمانه بمحالفته لمهج ربه لا يصح أن يكون مؤمناً على نصرتك ، لأنه لم يكن أميناً على مامنه فهل توقع منه أن يعينك على الأمانة التى معك ؟ لا ، لأنه لم يكن أميناً على ما نزل عليه من صحيح . والولاية نصرة ، والنصرة انفعال الناصر لمساعدة المنصور . وهل تجد فيهم انفعالاً لك ينصرك ويعينك ، أو يتظاهرون بنصرتك ، ولتعلموا أنهم سيقولون ما قاله الحق .

﴿ تَوَخَّأُوا فِيكُمْ مَادُّوكُمْ إِلَّا خَلَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة التوبة)

إنهم لو دخلوا فى صفوفكم لعلوا فيكم مثلبا يفعل المادفون ، فما بالناس بالدين خابوا أمانة الكتب المنزل عليهم ؟ إذن فالنوااة والنصرة والمعونة يجب أن تكون من متحد معك فى الغاية العليا . وما دام هناك من يختلف مع الإسلام فى الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أن يأتم المسلم ومبغضاته يقول : « بعضهم أولياء بعض »

وقد يتساءل الإنسان : كيف يقول الحق فيهم

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة البقرة)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَنَبِيِّنَا كَذِبٌ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول جل شأنه :

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

نحن - إذن - أمام ثلاثة أقسام : يهود ، ونصارى ، ومشركون ، وقد قال مشركو قريش مثل قول أهل الكتاب شقيهم برغم أنهم في خلاف متضارب وكل منهم ينكر الآخر ، وسبحانه قال :

﴿مَغْرِبٌ بَيْنَهُمُ الْعِدَاةُ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

فكيف من بعد ذلك يقول سبحانه : « بعضهم أولياء بعض » ؟ وهذا أمر يحتاج إلى وقفة إيمان لنرى الصورة كاملة ، ونعلم أن الذين يخالفون منهج الحق قد يصح أن يكون بينهم خلاف على السلطات الزمنية ، لكنهم عندما يواجهون حقائقاً قاهرة على دحر كل بنيان أكاذيبهم يتفقون معاً . وهذا ما نراه في الواقع الحياتي : معسكر الشرق - الذي كان - يعادى معسكر الغرب ، ولكن ما إن يجرى شيء يتصل بالإسلام حتى يتعقوا معاً على الرغم من هزيمة المعسكر الشرقي ، لأن الإسلام يهجه خطراً على هؤلاء وهؤلاء وعلى سلطاتهم ولكن في الحقيقة رحمة بهم إنه يخرجهم من الظلمات إلى النور وهم يتصرفون في ضوء ما قاله الحق : « بعضهم أولياء بعض » .

وعندما يتفرد كل منهم بالآخر فإنه ينطبق عليهم قول الحق :

﴿فَأَقْرِبُوا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْجَنَّةَ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

هكذا نفهم طبيعة العلاقات بين أعداء الإسلام

ويقول الحق : « ومن يتوكلهم منكم فإنه منهم » أي أن من يتخذهم نصراء ومعينين

فلا بد أنه يقع في شرك النفاق ؛ لأنه سيكون مع اسلمين بلسانه ومع اعداء الإسلام بقلبه .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ، ونعرف أن الظلم هو نقل حق إلى غير صاحبه ، وأهل مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ، فالحق يقول :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة النفاق)

ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر فهل هناك إنسان يقدر على أن يأخذ من الله شيئاً ؟ لا ، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك وهذا ظلم خائب للنفس والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الحيلة .

لأن الظلم حينما يحقق للظالم نفعاً فهو ظلم حين ، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ولا يأخذ إلا العقاب الصارم . فإذا كان المشرك يتأخر على منهج الله في الأشياء فهل يجرؤ على أن يتأخر على قدرات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلاً ؟ .

والحق بأمر الإنسان بالإيمان ومتعلقات الإيمان من شهادة بربوبيته وإيمان برسائه وكتبه واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً . والمشرك يتأخر على الإيمان والتكاليف فهل يجرؤ على التأخر على المرض أو الموت ؟ لا ؛ لذلك فهو يظلم نفسه ظلماً خائباً . والحق سبحانه لا يهديه ، لأن معنى الهداية هو أن يهدي الإنسان من يذله على الطريق الموصل للغاية . فهداء أى دله على الطريق الموصل للغاية ولا يتجنى سبحانه على خلقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمروا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا آيَةٌ فَقَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَهُ الْفَتْحُ
أَوْ أَقْرَبُ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُصْصِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ
تِلْكَ آيَاتُ

المجال هنا كان عن انهي عن اتخاذ أمل الكتاب أولياء من دون الله ، ومن سمع
هذا الهمي وفي قلبه الإيمان بعد النصيحة . ولكن الذي طمس المرض - وهو النفاق -
قلبه فهو الذي يتولاهم . وهو يسارع إلى هذه الولاية . ويعرف أن المسارعة هي
تقليل الزمن في قطع المسافة الموصلة بعبادة إذا كانت هناك مسافة تقتضي السيرة لمدة
خمس عشرة دقيقة فالمسارعة تعرض على الإنسان أن يقطعها في وقت أقل من ذلك
ومناك « يسارع إلى » و « يسارع في » ، مثل قول الحق :

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

والغاية هنا هي المغفرة من الله وعلى المؤمن أن يسارع إليها ، أما عندما يقال :
« يسارع في كذا » أي أنه كان في الأصل متغصناً في هذا الموضوع وعندما يقول
الحق : « يسارعون فيهم » أي كأنهم كانوا مع هؤلاء الكفار من البداية ، ولذلك
فالمسارعة في ظمرتهم . وبذلك يتهافون عليهم . والعلة العامة أن في قلوبهم مرضاً
جعلهم يبتكرون ويلعنون أسباباً ، هذه الأسباب هي « نخشى أن تصيبنا دائرة »

والمؤالة هنا من الخوف أن تلوث الدوائر ، وبتحاج إليهم لأن عندهم الأموال
والسلاح ، وهذا ما قاله المنافق عبدالله بن أبي : فقد قال : أما رجل أخشى الدوائر ،
أي أنه يخشى الأحداث والمصائب . مثلاً نقول : « الأيام دول » ولكن كلمة
« دول » هي انتقالية وقد لا يكون فيها ضرر ، أما « دوائر » فهي انتقالية فيها ضرر
وعكس ذلك ما قاله عبادة بن الصامت قال رضي الله عنه

.. أنا سألته ولاية الله ورسوله والمؤمنين وسألتهم عن ولاية اليهود والنصارى

وأورد الحق قول المذنب : « نحشى أن نصيب دائرة عسى الله أن يأتي بالفتح »
وساعة نسمع كلمة « الفتح » ، فنعرف أدلّ مدلولاتها أنه الحكم .

﴿ رَبَّنَا فَتَحْ يَمِينَ وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

أي احكم يا رب بيننا وبينهم

إذن فقول الحق : « عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده » أي احكم لدى
يصح جداً لمسألة مولاة أهل الكتاب والذين لا يعلمون

والأمر من عند الله هو حكم من الله أيضاً يحاطب المؤمنين به والمؤمن بالله أنه
أعمال تؤدي كالمسبب إلى مسببات ، وقد يأتي للمؤمنين أشياء بدون مقدمات معهم ،
وهي الفصل من الله . إذن عسى الله أن يأتي بالفتح ، أي بأسباب أتت تصعوبها
وتعذر عن استطاعتهم من بعدة وعدة وتؤدوهم ، ولذلك قال في آية أخرى :

﴿ قُلْ أَوْحَيْتُ عَنْ رَبِّي رَأَيْتُ زَيْدًا وَقُلْ لِّمَنْ أَمْرٌ مِّنْ رَبِّي ﴾

(من الآية ٦ سورة الحشر)

مثال ذلك ما حدث لسي النصير ، فكان لإحلاء ، واستولى المسلمون على أرض
بني قريظة ، وهذا هو الفتح من عند الله . وسبحانه - إذن - يعامل المؤمنين
معامتي الأولى أن يصح المؤمنين مقدمات تؤدي إلى نتائج

﴿ قُلْ لَّيْسَ بِشَيْءٍ عِنْدَ رَبِّي إِلَّا بِمَا شَاءَ وَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

ومن جعل الحق كتاب المؤمنين مسأ ، أما الثانية فهي الأمر من عنده بالصحة
بالربوبية .

وساعة نسمع « عسى » ولعل « وهذا معناه الرجاء والرجاء أن المتكلم يرجو أن
يقع ما دخلت عليه « عسى » مثال ذلك قولنا : « عسى أن تكرم زيداً » ومن
يقولها إنما يرجو سامعها أن يكرم زيداً ، وهذا يعني أن القائل ليس في يده إكرام
زيد . أما إذا قل القائل : « عسى الله أن يكرم زيداً » ، فهذا نقل للرجاء من الشر

إلى الله . والقاتل هنا بشر ويتكلم عن بشر ، ولرجو هو الله ، وقدره الله أوسع من كل قدرة . هنا ندخل في اتساع دائرة الرجاء فما بالنا إذا كان اتكلم هو الله ؟ إذن فهذا إطماع من كريم لا بد أن يتحقق .

ونتمرف بذلك على درجات الرجاء : رجاء من بشر لبشر ، رجاء بشر من إله لبشر ، رجاء إله من إله لبشر ، ولأن الرجاء الأخير من المالك الأعلى لذاته فهو الذي يعطى ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ، وقد تمحق ذلك في واقع الأمر ، ومساءة قالوا : نخشى أن نصيبنا دائرة ونحن نحفظ بالعلاقة مع أهل الكتاب من أجل الولاية والنصرة . جاءت من بعد ذلك النصرة بالفتح وأمر من الله ، فماذا كان موقفهم ؟

صار الموقف هو « فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » أي أنهم صاروا إلى الندم . وبذلك صار قولهم : « نخشى أن نصيبنا دائرة » هو كشف لما في قلوبهم من مرض الشقاق ، وقد دخلوا على المرض وهربوا عنه بهذا الكلام ستر لما في قلوبهم ، فكان الذي أسروه في قلوبهم هو كراهية هذا الدين وكراهية هذا المنهج وأنهم لا يحبون أن يستعمل هذا المنهج على غيره .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يدنا عن أن القول الذي نشأ منهم : « نخشى أن نصيبنا دائرة » لم يكن هو السبب المباشر . ولكن السبب هو المرض في قلوبهم . والمرض : أنهم لا يحبون أن يتصر منهج الإسلام ، لأنهم يعيشون على ثروات المخالفين للدين ، ومساءة تكون السيطرة للإسلام ينتهي ثراؤهم . وكذلك كان أهل الكتاب في المدينة قبل أن يأتي الإسلام كانوا أصحاب العلم والمال والجاه ، وكانت الأوس والخزرج يأخذون منهم المال بالربا ويشترون منهم السلاح ، ويأخذون منهم العلم . ولما جاء الإسلام ضاع من اليهود كل ذلك فتمكن من قلوبهم المرض ، لأن الإسلام سلبهم السلطة الزمنية ، هذه السلطة التي جعلتهم يحرقون كتب الله . فإذا كانوا قد دخلوا مع الله في تحريف كتبه ، أفلا يدخلون معكم - أيها المسلمون - في عداوة ويلبسون عليكم بأنهم يعينون وهم يخذلون ؟

« فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » ومساءة يسمعون هذا القول الرياس

وهو قرآن يتلى ويتعد بتلاوته ويُقرأ في المساجد ويسمعونه ، ولم يكن هناك فتح ، ولم يكن هناك أمر ، ويخبرهم الله بمصيرهم . « فاصبحوا على ما أسروا في أنفسهم ماعمين » ومعنى ذلك أنه سبحانه كتب الذي في نفوسهم . مثلما قال من قبل : « ويقولون في أنفسهم » . أى أنهم قالوا في أنفسهم وسمعهم الخالق . ولو لم يقولوا في أنفسهم لأعلموا أنهم لم يقولوا ذلك ، لكنهم بهتوا حين كشفهم الحق وفضحهم وسجل ما في أنفسهم وأورد مضمون القول ، وكان من اللازم أن يعترفوا بمضمون القول ، وكان لا بد لهم أن يتجهوا إلى الإيمان . لكنهم لم يفعلوا فصاروا إلى الندم . بنصر الآية التي نزلت قبل أن يأتى فتح أو أمر من الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ
جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا
خَسِرِينَ ﴾ ٥٢٠

هنا يرى المؤمنون رأى العين ندم هؤلاء . والندم انكسار القلب في الحاضر على تصرف سابق مثلاً يرتكب إنسان حماقة وتظهر آثارها من بعد ذلك ، فيقول : يا ليتنى لم أكن قد فعلت ذلك . إنه انكسار نفس على تصرف سابق وانكسار النفس يتضح على بشرة الوجه . وساعة يأتى الفتح تجد المنافقين وأهل الكتاب مكبوتين كتباً قسرياً وهو الكبت الذى لا يمرز صاحبه عليه فيدعى أنه فرحان ، إنه قسرى بالخلاج بنية ، وظهور أثر ذلك على وجوههم .

وهنا يفتن المؤمنون إلى ذلك فيقولون . « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » . ولو كان هؤلاء المنافقون من الصادقين لفرحوا ولكانت أساريرهم متهللة ، ولطهرت عليهم الغيبة . لكنهم صاروا عكس ذلك ، صاروا ماعمين مكبوتين .

« ويقول الدين آمنوا أهؤلاء الذين اتسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمحكم حبطت ،
أى حبط عملهم وقولهم : « إنا معكم » . والحبط هو - كما قلنا - الانتفاخ الذى
يصبب البهيمة التى تأكل طعاما غير مناسب لها ، فيظن الناس أنها قد سمعت ولكنهم
يلفتنون يجعلون أنها مصابة بانتفاخ قاتل .

« حبطت أيمانهم فأصبحوا خاسرين » والخسارة فى معناها الواضح أن يفل رأس
المال . لقد فسد المنافقون ذلك ليستروا أنفسهم وراء المسلمين ولم يلم لهم هذا الأمر
واكتشفوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ
يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَحَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

والخطاب هنا للمؤمنين ، وكل بدء مثل هذا قد يبعث بحكم من الأحكام أو
بشارة من البشائر أو وعيد للمخالف . والذى بأتى فيه شبه إشكال وليس
بإشكال ، هو أن يأتى هذا القول ويكون ما بعده أمر بالإيمان كقوله الحق : « يا أيها
الذين آمنوا آمنوا » فبعبارة يناديهم كمؤمنين ويطلب منهم الإيمان ، ومثال ذلك قول
القائل : « يا قائم قم » برغم أن المفروض أن يكون يقول : « يا قائم اجلس » أو
« يا قائم تعال » ، أو « يا قائم انصرف إلى فلان » ، فكيف إذن يقول الحق :
« يا أيها الذين آمنوا آمنوا » . هنا يقول : ما الإيمان ؟ الإيمان هو استقرار العقيدة فى
القلب فلا تظلمو للذهن لتناقش من جديد . ونسمى ذلك عقيدة ، أى أمر معقودا فى
القلب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى حينما يحاطب مؤمنا ويطلبه أن يؤمن ، فمعنى ذلك أن

الحق بقول : أنت آمنت قبل أن أتاديك وبسر الإيمان ناديتك فحافظ على هذا الإيمان دائماً . وجدد دائماً إيمانك لأن ناديتك بوصف الإيمان الذي عرفته فيك .

إن الحق يوضح : يا أيها الذين آمنوا دافعوا عن إيمانكم ولتكن كل لحظة من لحظات حياتكم المفضلة في إيمان عالٍ مرتقي قبل أن أتكلّم معكم بوصف الإيمان أنتم آتمتم أولاً ناديتكم فحافظوا على ذلك واثبتوا على إيمانكم

ومعنى قوله : « من يرتد منكم عن دينه » أى من يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعرض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين . إذن فمن يرتد فعليه أن يفهم أنه لن يتنص جيد الله واحداً ؛ لأن الذى لذن لشرعه أن ينزل على رسول موسى عاتم لن يجعل هذا الرسول وهذا المصحح تحت رحمة أغيار الناس . فإن خرج أناس من المنهج فالله يستبدل بهم غيرهم . وفي هذه الآية أسلوب يحالف آية البقرة في الوجه الإعرابي ، وسبحانه يقول في آية البقرة :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَرِهَةٌ وَأَسْبَاحٌ حَرَامٌ وَخُرُوجٌ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَأَنْفُسٌ كَثِيرٌ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا زَلْزَلٌ يُقْتُلُوكُمْ حَتَّى يَرْدُّكُمْ عَنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَنْظُرُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ بَيَّتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَلْيُكَلِّمْهُ جَحِشٌ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلِيَكُنْ لَكُمْ أَنْتَحَبُ آلَتَا هُمْ فِيهِ يَحْتَدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هنا وجدنا الحق بقول : « ومن يرتد منكم عن دينه » أما في الآية التي نحن بصددتها في سورة المائدة فهو سبحانه يقول « من يرتد منكم عن دينه » ونجد الأسلوبين مختلفين . وإحكمة العليا في أن الحق سبحانه وتعالى يأتي في كتابه بآيات متحدة في المعنى إلا أن وجه الإعراب فيها يختلف لهدلنا أن القرآن نزل إلى الناس كافة . وقبل أن يزل القرآن كانت هناك لغتان : لغة تميم ، ولغة الحجاز

وكان الاختلاف بين اللغتين محصوراً في الكلمة التي بها تصعيف ، أى فيها حرفان

من شكل واحد أى متماثلان . وكلمة « يرتد » بها « دالان » وأصلها « يرتدد » .
و« يرتد » بها مثلاً والنطق بها صحيح . ولذلك حاول الناس في مثل هذه الحالة أن
يدغموا مثلاً في مثل . ولذلك كان من اللازم أن تسكن الحرف الأول من المثليين
والمفروض أن « الدال » الثانية ساكنة ؛ لأن « مَنْ » شرطية جازمة . والدال الأولى
أصلها بالكسر . ولا بد من الإدغام . والإدغام يقتضى إسكان الحرف الأول . إذن
من أجل الإدغام ففعل ذلك .

ونحن نعلم أن الساكنين لا يلتصقان ، وكان تسكن الحرف الأول لأنه ضرورى
للإدغام ، أما الحرف الساكن الآخر فهو العارى . فتصرف فيه ، ولذلك نحركه
بالتفتح حتى نتخلص من التقاء الساكنين . ولذلك نقول : « من يرتد » بالتفتح .

وجاء في ذات مرة سؤال يقول : كيف يأتى القرآن بـ « يرتد » بالنصب أى
بالتفتح ؟ وقلت : إنها ليست « فتحة نصب » ، والسائل يفهم أن « مَنْ » إما اسم
موصول ، وإما هى « مَنْ » الشرطية ، فلو كانت اسماً موصولاً ؛ لكان القول « من
يرتد » - بالنصب - وإن كانت « مَنْ » الشرطية جاءت بالنسكين ولأن ما قبلها جاء
ساكناً للإدغام فتخلصنا من النسكون بالفتحة وهى « فتحة » نتخلص من ساكنين ،
لأنه - كما قلت - لا يلتصق ساكتان .

والذى يظهر لما ذلك هو آية البقرة التى قال فيها الحق : « ومن يرتدد » بدليل أنه
عندما عطف قال : « ويمت » بالجزم عطفاً على يرتدد . أما السبب فى أن جواب
الشرط واضح فى آية المائدة أنه لم يأت فعل جواب أو عطف ، وجواب الشرط هو
قول الحق : « فسوف يأتى الله يقوم يحبهم ويحبونه » ويدل على ذلك دخول الفاء على
كلمة سوف لكن لو كان الحق قد قال : من يرتد منكم عن دينه يأت الله يقوم يحبهم
ويحبونه كان يمكن الفهم بسرعة أن « مَنْ » شرطية ، لأن كلمة « يأت » جاءت
مجزومة بحذف آخرها ، ومن هنا يتضح أن الفتحة فى « يرتد » هى فتحة التخلص
من التقاء الساكنين .

وما السبب فى أن الحق يأتى بآية على هذا النسق ، وآية أخرى على ذلك النسق ؟
نحن نعلم أن القرآن قد نزل بلغة قريش وكانت قريش تمتلك السيادة ولم تكن

هناك قبيلة بقادرة على مواجهاة قريش . ونعرف جميعاً أن رحلة قريش إلى اليمن لم يكن ليخرجوا إنسان أن يتعرض لها ، وكذلك في رحلة قريش إلى الشام ، لأن قريشا تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذي يحج إليه كل عرب . ويوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو نقيضه ، إند فاليث الحرام هو الذي أوجد لهم تلك المهابة لذلك ينههم الحق إلى ذلك عندما قال في سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَرَسُولٌ عَلَيْهِمْ طَيْرٌ أَبَابِيلٌ ۚ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ يَّسْجَلٍ ۚ فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَمَاكِيلٍ ۚ ﴾

(سورة الفيل)

وقد تم وعيد الله لأصحاب الفيل ، لأنهم أرادوا هدم بيت الله الحرام ثم منع الحق سورة الفيل بقوله في سورة قريش :

﴿ لَا يَلْفُئُ قُرَيْشٌ ۚ إِن لَّعَنَهُمُ رَّحْمَةُ الشَّاءِ وَالصَّيْفِ ۚ ﴾

(سورة قريش)

ليوضح سبحانه أنه من ضمن أسباب صيانة بيت الله الحرام أن حفظ سبحانه لقريش الأمان في رحلة الشتاء والصيف ، ولو اهدم البيت الذي يحقق لقريش السيادة فحجم الناس على القرشيين من كل جانب ، لأنه القائل في شأن من قصدهم هدم بيت الله الحرام

﴿ مَجَّعْلَهُمْ كَعَصِفٍ أَمَاكِيلٍ ۚ لَا يَلْفُئُ قُرَيْشٌ ۚ ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ سورة قريش)

وما دامت تلك المسألة قد صعبها الله بقريش ، فلا بد لهم من عبادة رب هذا البيت :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۚ ﴾

(سورة قريش)

إذن فقريش أحدثت السيادة بين العرب بمكانة البيت ، وأندت السيادة أيضاً في الدنيا ، وكانت كل أسواق العرب تعقد هناك ، وأشهرها سوق عكاظ ، وكان يتصب في قريش خلاصة اللغات لجميلة من القبائل المختلفة وهكذا أحدثت اللغة

المصفاة للتنقية ، فكل شاعر كان يقدم أفضل ما عنده من شعر . وكل خطيب كان يأخذ بأحسن ما عنده من خطب . وبذلك كانت قريش تسمع أجود الكلمات . ولهذا كانت اللغة التي عندهم هي اللغة العالية . ولذلك عندما جرى لزمّن كتابة القرآن كانت الوصية :

إن اختلف عليكم شيء فاكتبوه بلغة قريش ؛ لأن لغة قريش أخذت من اللغات محاسنها . وهو تميم والحجاز كانوا مختلفين في بعض الأشياء . ولذلك كنا نسمع - عندما نتعلم الإعراب - قول المعلم وهو يسألنا : هل « ما » حجازية أو تميمية ؟ وهذا يدلنا على أن هناك خلافاً بين النطق في القبيلتين .

وفي الآية التي نحن بصددها ندغم ونقول : « من يرتد » وفي آية البقرة ننطقها دون إدغام فنقول : « ومن يرتدد » .

وكان الحق جاء بآية على لغة الحجاز وآية على لغة تميم ، وذلك برهان جديد على أن القرآن لم يأت ليحقق سيادة لقريش ، إنما هو للناس كافة ؛ لذلك نجد من كل لهجة كلمة ، ليوضح أن القرآن لم يسمم الناس جميعهم .

وعندما قرأ قول الحق :

﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

(من الآية ٥١ سورة المائدة)

نعلم أنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يأتي بأهل إيمان خير السنين ليرتدوا عنه ، تماماً كما أخبرنا من قبل :

﴿وَمَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَنُحِلُ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

والقول هنا : خبر عن مصير المرتد إلى جهنم بعد أن تقوم الساعة .

ولكن القول . « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه »
 يدل على أن إهراءه سيحدث قبل أن تقوم القيامة . ومن ذا الذي يستطيع أن يتصور
 أن لها ينزل قرآنا يتحدى به ثم يأتي في القرآن بقصة مارالت في الغيب ويتجاوز بها ،
 إن لم تكن ستفتح ؟ . والحق يقول : « سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه »
 « سوف » تخبرنا بموقف قادم سيأتي من بعد ذلك . ونقول هنا : من الذي يستطيع
 أن يتحكم في اختيارات الناس للإيمان ؟ . لا أحد يستطيع أن يتحكم في اختيارات
 الناس للإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي يتحكم ويحكم ويحبرنا بأنه سوف
 يأتي أناس يؤمنون بدلاً من المرتدين .

أما إن ارتد أناس ، وانتظروا أن يروا البديل لهم ، ولم يأت فيما يكون الأمر ؟
 لا بد أن تنصرف الناس عن الدين . ولم يكن الحق ليجاوز ويحري على لسان محمد
 بأن قرماً سيرتلون وهو لا يعلم أيأت قوم مرتدون ؟ والعدم جاء في هذه الآية كما جاء
 في كل القرآن من الله جل وعلا . وقد قلنا الحق قطية كونية : « سوف يأتي الله
 بقوم يحبهم ويحبونه » . وهل هناك قوم يحبهم الله وهم لا يحبونه ؟ ونقول : إن هذا
 لا يحدث مع الله ، وإن كان يحدث في الحياة البشرية مثلها قال الشاعر العربي :

أنت الحبيب ولكني أعود به
 من أن أكون محباً غير محبوب

وشقاء المحبين إنما يأتي من أن العاشق يحب أحداً ، وهذا الحبيب لا يبادل
 الحب ؛ لذلك يظل العاشق باكياً طوال عمره . ولنا أن نلاحظ أن حب الله هو
 السابق في هذا القول الكريم : « سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » ؛ لأن هذه
 هي صفة الانكشاف للعالم ، لقد علم الحق أنهم سينجهون إليه فأحبهم ، وعندما
 جاءوا فعلوا ما جعلهم محبوبين لله ، ثم ما هو الحب ؟ . إنه ودادة القلب . وقسا
 الكثير من قبي في أمر ودادة القلب . ويعرف أن هناك لونا من الحب يتحكم فيه
 العقل . ولونا آخر من الحب لا يتحكم فيه العقل ولكن تتحكم فيه العاطفة .

ومثال هذا عندما نذهب إلى طبيب ويصف لنا دواء مرأ غير مستساغ الطعم ،
 ونجد الإنسان الموصوف له الدواء يذهب إلى الصيدلية للسؤال عن الدواء ، فإن لم

يحمده فهو يلف ويدور ويسأل في كل صيدليات البلد فإن لم يحمده فهو يرمى المسافر إلى الخارج لعله يأتي له بالدواء . وإذا جاء له صديق بهذا الدواء فهو يحتل بالامتنان بالسرور . أيقبل المريض على الدواء غير المستساغ بمحافته أم بمقته ؟ إنه يقبض على الدواء غير المستساغ الطعم ومحبته بعقله . والحب العقلي - إذن - هو إثارة النافع .

ومثال ذلك نجد الوالد لايس غيبى يحب ابناً ذكياً لإنسان غيره .

الوالد - ها - يحب ابنه الغيبى بمحافته . ولكنه يحب ابن جاره لأنه يمتلك وصيداً من الذكاء . إذن هناك حب عقلي وحب عاطفي وهذا ما يحدث في المجال البشري لكن بالنسبة لله فلا .

وعندما يقول الحق : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » أى أنهم يحبون الله بعقولهم ، وقد يتسامى الحب إلى أن يصير بعافيتهم ، وقد يجرب ذلك حين يرى الله على أناس أشياء هي شر في ظاهرها ، ولكنهم يظلون على عشق الله . ومعنى ذلك أن حبهم لله انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم . وسيدنا عمر جرى معه حل هذا الإشكال . كيف ؟

لقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » (١) .

وهناك من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أحب إليه من ماله وولده لكن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال أنت أحب إلي من مالي وولدي أما نفسي فلا وأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » (٢) .

وها علم عمر - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد الحب العقلي ، لأن عمر رضي الله عنه علم أيضاً أن الحب العاطفي لا يكلف به ، ولذلك قال عمر : الآن أحبك عن نفسي ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم . الآن

يا عمر . أى كأنه فى هذه اللحظة قد اكتمل إيمان عمر . إذن فحبب الله لا نقل فيه أيها المؤمن هل هو حب عقل أو حب عاطفى ؟ لأن المراد بحب الإله هو دوام قيوضاته حل من يحب ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالحق يلقاه فى أحضان نعمه ويتجلى عليه برزقته .

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

والحسنى هى الجنة . أما الزيادة فقد قال المفسرون : إنها روية المحسن .

« فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، وعندما يقول الحق : « سوف ، فلنعلم أن ما يأتى بعدما هو من إعلانات النبوة التى جاءت على لسان محمد فى قرآن الله ، لأن ذلك الأمر قد حدث كما جاء فى قرآن الله ، فقد ارتد قوم وانقسموا فى الردة إلى قسمين : قسم ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم ارتد على عهد أبى بكر ، ومنهم من ارتد على عهد عمر . ونحن نتفكر إلى ما بعد « سوف » لا يد أن تعرف أن هناك امتداداً زمنياً

وأول الارتداد كان فى اليمن ، وكان ذلك بعد حجة الوداع وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان فى اليمن كاهن مشعوذ اسمه قَبِيْهَةَ بن كعب ، ويقال له : ذو الحِجَار ، أو ذو الحِجَر فى رواية أخرى ، وهو الذى يعرف فى كتب التاريخ الإسلامى باسم الأسود الغنصى . هو أحد الكذابين اللذين ذكرهما النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « بَيْنَمَا أَنَا مَائِمٌ إِذْ أَوْتِيَتْ خَزَائِنُ الْأَرْضِ ، فَوُضِعَ فِي يَدَيَّ سَوَارِسٌ مِنْ ذَهَبٍ فَكَبَّرَ عَلَى رَأْسِي ، فَلَوَّحِي بِلِيٍّ أَنْ ائْتِمَحِبْهَا فَتَفَحَّطْهَا فَعَلَوْهَا فَأَوَّلَتْهَا الْكَذَابِيْنَ الَّذِينَ أَنَا بَيْنَهُمَا صَاحِبُ صَنْعَاءَ وَصَاحِبُ الْيَمَامَةِ » (١) .

وكان لهذا الكاهن حمارٌ رَوْضَهٌ صاحبه رياضة من لون خاص تماماً كتدريب

(١) رواه البخارى فى التمهيد والتهذيب والمغازى ، ودروك مسلم فى الزُّمَرِ ، والترمذى فى الرُّوَا ، وابن ماجه فى

الفرود ، فكان يقول له : قف . فيقف . ويقول له : سر . فيسير . واعتبر هذا الكاهن أن مثل هذا الأمر للمجاهد هو معجزة . أو كذب الرجل اسمه « فوالجبار » أي أنه كان يرتدى خماراً على وجهه . ومن العجيب أن أي مرتد لم يطالبه من يتبعه بعلامة صدقه في السوة .

إن أول شيء في التأكد من صحة قول أي إنسان : « أنا نبي » أن يسأله الناس من علامة الصدق في السوة وأن يتعمروا على معجزته ، لكننا لا نجد ذلك في مرتد أبداً . وكيف لا يسأل الناس الذين يتبعون المرتد عن نفسه وعن دعواه أنه نبي وعن معجزته التي تدل على صدق رسالته ، وهو ما يحدث مع أي رسول ، كيف يؤمن أناس بفرد بدون معجزة ؟ .

هنا نذهب إلى الجانب النفسي من الأمر ويقول : إن التدين أمر فطري والإنسان الذي ليس له دين يقضب ويحزن عندما يقول له : يا قليل الدين . ولذلك نجد أن المبطل من هؤلاء يقول : أنا على دين . إنه لا يتصور أنه مبطل بلا دين . ولذلك قال الحق

﴿لَكَرِّدِينُكَ وَلِي دِينِ﴾

(سورة الكافرون)

فكان الأصل في العطرة الأصليه أن الدين ضرورة للإنسان ، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يقل كل الناس على الدين ؟ لأن الدين ليس مجرد اسم أو صفة ، ولكنه التزام بتكاليف . والذي يجعل الناس في حشيه من الدين هو مشقة التكاليف ؛ لذلك فعندما يأتي إنسان ويقول : أنا مسلم ومعجرتي أنني خففت عليكم الصلاة والزكاة والصيام وأباحت لكم النظر إلى ساء بعضكم .

لا بد أن يسيل لعاب أصحاب الموى الدين لا بصيرة لهم ويقولون : إن مثل ذلك ليس جليل ، ويستسلمون ويتقدمون أنفسهم بأنهم متدينون ورغم تحذيرهم من بعض التزامات التدين ، إن المرء ليتعجب من مدعى البرة في الزم القديم وحتى عصره هذا ، لأننا لم نجد أحداً من المضمين قد وقف أمام مدع وقال له :

ما معجرتك ؟ ولكن الكل سأل : ما منهجك ؟ وعندما سأل أهل اليمن دا الخمار : ما منهجك ؟

كانت إجابته: إنه أسقط عنهم بعض التكاليف بداية من تقليل الصلاة والزكاة إلى إباحة الاختلاط بنساء قريتهم . واستراح بعضهم لذلك المنهج وذهلوا وخفلوا عن طلب المعجزة . وكل الذين ادهوا النبوة كانوا من هذا الصنف . ولذلك نجد أن كل مدع للنبوة يحاول التخفيف من المنهج ، فهناك من خفف الزكاة . وجاءت امرأة اسمها سجاح خففت الصلاة وجاء ثالث ليخفف الربا فيبيحه . لكن أهدأ منهم لم يأت بمعجزة . واتبعه بعضهم لمجرد تسهيل المنهج . وملحى النبوة إنما يرضى النفوس التي لا تطيق ولا تقوى على مشقة المنهج بأن تكون مندبنة ملتزمة به .

ومثال ذلك ما حدث في الإسكندرية عندما ظهر مدع للنبوة . وأباح منكرات مشيراً ، واتبه بعض من المعلمين الذين أرادوا دينا على هواهم ، وكذلك كان الأمر في البداية . وعندما جاء ذو الحمار ، أو ذو الحمار ، وهو كما قلنا : مشعوذ ، وكان كما يصفه المؤرخون يسمى قلوب من يسمع منطقه وكان يرمي الأحاجيب ، واستطاع بذلك أن يستولي على منبث اليمن ، وأعلن ارتداده . وغلب على صنعاء وعلى ما بين الطائف إلى البحرين . وجعل يستطير شره استنارة الحريق .

وكان سيدنا معاذ بن جبل هو الرائي على اليمن من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنجز سيدنا معاذ بن جبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إن كاهناً اسمه ذو الحمار لو ذو الحمار ، قد ارتد .

ويذهب سيدنا معاذ إلى حضرموت . وهناك يأتيه كتاب من النبي صلى الله عليه وسلم يأمره فيه أن يبعث الرجال لمصاوبة ذي الحمار . ويحتال المسلمون للتهوض بما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يدخل على ذي الحمار رجل ديلمى اسمه فيروز فيقتله على فراشه .

وعلى الرغم من بعد المسافة بين اليمن والمدينة ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ليلتها . « قتل اللبنة الأسود العنسي »^(١) .

وبعد ذلك يأتي الخبر في آخر الشهر أن مدعى النبوة قد قتل . وتلك من إهجمات

النبوة . إذن لقد تعرض المؤمن على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للهزة من العقيدة بحكاية ذى الحمار أو ذى الحبر . وكانت قصة ذى الحمار كالمصل الواقع الذى يرى المناعة ، وأخبرهم الله بها أولاً : « من يرد منكم عن دينه فسوف يأبى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

وذلك ليعطى الحق سبحانه وتعالى المؤمنين مناعة إيمانية وكأنه يقول للمؤمنين : لا تظنوا أنكم لن تتعرضوا إلى هزات عقيدة دينية بل ستعرضون . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : قد يجوز أن يفهم الناس أنى وأنا حتى أقوم على منهج الله فى الأرض فإذا أنا مت ربما ارتدوا عن الدين .

ورسول الله عندما يلغ ذلك للمؤمنين عن الله - سبحانه - إنما كان ذلك بقصد تربية المناعة . فلو فوجئ المسلمون بالردة ولم يكن الله قد أخبرهم بها لما كان عندهم احتياط مناعى والاحتياط المناعى هو أول عملية فى الوقاية . ونعلم أن العلم المعاصر استطاع فصل الميكروب أو الفيروس المسبب لمرض وبائى ، ويقوم العلماء بإضعاف هذا الميكروب أو الفيروس ، ثم يوضع قليل من هذا الميكروب أو الفيروس بعد إضعافه فى الجسم البشرى ، فتتحرك فى الجسم أجهزة الوقاية والحماية لتقاتل هذا الميكروب أو الفيروس وتنتصر عليه ، وبذلك تمنك قوى الوقاية والحماية داخل الجسم القدرة على مقاومة هذا المرض ، وهكذا أراد الحق بهذا القول الكريم : « من يرد منكم عن دينه فسوف يأبى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . إذن حين يوجد الارتداد ، لا يفجأ المسلمون بهذا الارتداد ، ويثقون تماماً أنه بمجرد عي الارتداد فإن وعد الله الآخر يحى . « فسوف يأبى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فلا هزع عند المؤمنين ساعة يحدث الارتداد ولا زلزلة فى النفوس . وساعة يأبى الارتداد يقول المؤمن :

إن الذى صدق فى أنه يحدث الارتداد ، سيصدق فى قوله : « فسوف يأبى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وإذا رأيت « السين » تسبق قولاً فإن هذا يعنى أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾

أما عندما نقرأ « سوف » فنعلم أن الزمن الذي يحصل بين الحدث والحدث منسج وبعيد . ولذلك نحر برى أن الردة قد امتدت في عهد أبي بكر - رضى الله عنه - وفي عهد عمر - رضى الله عنه - .

وما هي ذى مواصفات النعم الذين يأتي بهم الله في قوله : « سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أمة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يحانون لومة لأنهم ؟ » إنها مواصفات مست : يحبهم الله ، ويحبون الله ، أدلة على المؤمنين ، أمة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، لا يحانون لومة لأنهم .

وكيف يكون الإنسان المؤمن ذليلاً وعزيراً في آن واحد ؟ لأن الحق لا يريد أن يطبعنا على لون واحد من الانفعال ، ولكنه يريد لنا أن نتعمل تبعاً للموقف . فعندما يحتاج الموقف إلى أن يكون المؤمن عطوفاً فالمؤمن يواجه الموقف بالعاطفة . وعندما يحتاج الموقف إلى الشدة فالمؤمن يواجه الموقف بالشدة . وإن احتاج الموقف إلى الكرم ، فالمؤمن يقابل الموقف بالكرم . فالمسلم - إذن - يتفعل انفعالا مناسباً لكل موقف ، وليس مطوعاً عن انفعال واحد . ولو انطبع المؤمن على موقف ذلة دائمة فقد يأتي لمواجهة موقف يتطلب المزة فلا يجدها ولو طبع المؤمن على عزة دائمة فقد يأتي لمواجهة موقف يتطلب الذلة فلا يجدها ، لذلك جعل الحق قلب المؤمن ليناً قادراً على مواجهة كل موقف بما يناسبه .

والمؤمن عرير أمام عدوه لا يغلب ، ويحببه بقوة . والمؤمن يخضع جناح الذل من الرحمة لوالديه امتثالاً لأمر الحق سبحانه .

﴿ وَأَخِصِّصْ جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

وهل إذا خضع المؤمن جناح الذل لوالديه . اتخذ ذلك عزته ؟ لا بل ذلك أمر يرفع من عزة الإنسان . وأحق يريد المؤمن أن يكون غير مطبوع على لون واحد من الانفعال ، ولكن لكل موقف انفعاله . ونحن نتعمل المؤمن للمواقف المختلفة فهو يميز ما يحتاج إليه كل موقف . أدلة على المؤمنين أمة على الكافرين . ويمال في الذلة . « ذليل لعلان » فليأذا - إذا - يقول الحق ها . « أدلة على المؤمنين » .

« على » تعبد العلو . وإبدية تعبد المكانة المنخفضة ، فكيف يأتي هذا التعبير ؟ لقد جاء هذا القول على هذا الشكل لحكمة هي : أن المؤمن ما دام يحب الله ويحبه الله . وساعة يكون في ذلة لأخيه المؤمن بهذا يرفع من قدره . وهي ليست ذلة بالمعنى المتعارف عليه ، ولكنه ليس جائب وعطف ورحمة . إذن فقوله الحق : « أدلة عن المؤمنين » يعني أن المؤمنين يحفظون على غيرهم من المؤمنين حتى يبدو هذا العطف وكأنه ذلة . وبعض العلماء يقول : إن الامة « ذال » و « لام » تدل على معنيين متقابلين ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة يس)

أي جعلناها خاضعة لتصرفهم . وهذا التذليل يس بفهم من الإنسان للأعنام ولكنه بتسخير من الله . وهي ميسرة لخدمة الإنسان ومثال آخر . قوله الحق :

﴿ فَاسْأَلْ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النحل)

أي متطامنة مهابة . إذن فهذه ذلة اللين . وهناك « ذُل » - بضم الذال - وهو ضد العز . وهناك « ذَل » - بكسر الذال - وهو اللين . إذن فالتدل بكسر الذال هو ضد الصعوبة ؛ أي اللين . والتدل - بضم الذال - هو ضد العز ، فإذا أردنا ذلة اللين ؛ فذل المؤمن للمؤمن من الذل ، وإن أردنا الذلة التي هي ضد العز ، فهي من الذل . وعندما يكون المؤمن على ذلة للمؤمن . فهي ذلة اللين والعطف . وعندما يريد الحق الشيء ليتداني للمؤمن ولا يتعبه ، فهو يقول .

﴿ قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾

(سورة الحاقة)

وفي آية أخرى يقول سبحانه .

﴿ وَذَلَّلْتُ نُطْرُقَهَا تَذَلِيلًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الإنسان)

أي ذللت عناقيدها . فالعناكية تنزل إلى المكان الذي يوجد فيه المؤمن وإن وقف المؤمن لعناله يده أن يقطف الثمار . وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار

لأنها تتلصق له . وإن دام المؤمن لتدافق قطاف الشهيد إلى مكانه وبذلك يستطيع أن يأكل منها في أي وقت وصل أي وضع .

وهنا يأتي الحق بالقول الحكيم : « أذلة على المؤمنين » أي أن ذلة المؤمن لأحبه المؤمن ترفع منزلته . وبها يكون المؤمن أهلاً لأن ترفع منزلته ، لأنه مصطفى بأن الله يحبه وأنه يحب الله ، ولا توجد رفعة أكثر من هذه رفعة . ولذلك نجد القول للأنور : (من تواضع لله رفعه) .

أي من تواضع وفي بالله الله فإن الله يرفعه .

« أمة من الكافرين » وهذا هو الوصف الثالث للمؤمنين في تلك الآية بعد قوله الحق : (فسوف يأتي الله بقوم يحبونه أخلة على المؤمنين) .

إن المؤمن عزيز على الكافرين بأنه لا يثلب ، وما دام هو يعرف ذلك فهو يضم إلى الجهاد في سبيل الله . « يجاهدون في سبيل الله » وكلمة « الجهاد في سبيل الله » تخصص لونا من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حية أو دفاهاً من جنسيته أو أي انتفاء آخر ، وكل هذه الانتفاءات ن عرف لدينا لا قيمة لها إلا إذا نبعت من الانتفاء إلى مسج الله ، لتكون كلمة الله هي العليا

وعندما ستل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل القتال :

فيما جاء عن أن موسى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فسن في سبيل الله ؟ قال . « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » (١)

وما دام المؤمن محبباً من الله ويحب الله وذليلاً عن المؤمنين وعزيزاً على الكافرين ،

(١) رواه البخاري في الجهاد ، وسلم في الإمارة ودواه أحمد .

ما دام الأمر كذلك فعندما يتولى مؤمن أمر قيادة غيره من المؤمنين فلا أحد منهم يأنف أن يكون تحت قيادته . ولذلك يخرج المؤمن من دائرة الاستعلاء والاستكبار ، لأنه يجاهد في سبيل الله ولو جاءه إنسان ليلومه على ذلك فهو لا يسمع له . وكان سبحانه يوضح . تبها جيئاً إلى أن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وأتة على المؤمنين وأمة على الكافرين ويجاهدون في سبيل الله فلا يظن أنهم بمأى عن سخرية الساترين ، وهوى المستهزين . ولوم اللاتمين يريدوهم عن هذه العملية .

ولذلك يقول الحق . « ولا يخافون لومة لائم » وقد وضع ذلك حل مر تاريخ الإسلام وجاء الحق يقوم بحبهم ويحبونه وهم أدلة على المؤمنين وأمة على الكافرين وجاهدوا في سبيل الله وما خافوا لومة لائم

وساعة نستعرض هذه الآية نجد أن « سوف » ابتداء مدلولها الأول في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين سئل رسول الله عن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم هذه الصفات ، أشار بيده مرة إلى أبي موسى الأشعري ، وقال صلى الله عليه وسلم : « هم قوم من هنا » (١) .

وعندما نزل قوله تعالى :

﴿وَأَعْرِضْ عَنْهُمْ لَمَّا يَبْتَغُوا بِرِسْمٍ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

سأل أبو هريرة - رضي الله عنه - رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هم يا رسول الله ؟ . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال . « لو كان الإيمان عند الثريا لنالته رجل من هؤلاء » (٢)

وقد حدثت الردة الأولى في اليمن ، وكانت في قوم أبي موسى الأشعري ، وكتب رسول الله إلى معاذ بن جبل - كما أوصحنا - وبعد ذلك تطوع قيروز ليدلهم ودخل على من كان يدعى البوة ذى الحمار أو ذى الحمار ، وقتله . وأخبر رسول الله صلى الله

(١) حديث مرثف صحيحه الحاكم ورواه الطبري في المعبر

(٢) روى البخاري ومسلم في فضائل الصحابة واحد ٤١٧/٢

عليه وسلم ليبتها بالأمر . ولكن خبر القتل جاء بعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وكانت تلك من علامات النبوة .

وحدث - أيضاً - في زمانه صلى الله عليه وسلم أن ادعى مسيلمة الكذاب أنه نبي . وكتب مسيلمة إلى رسول الله كتاباً ، يقول : **بين مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله** .

ولم يقدر على نزع صفة النبوة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء في كتاب مسيلمة : « أما بعد . فإن الأرض نصيبها لي ونصيبها لك ، كأنه قد فهم أن المسألة بالنسبة لرسول الله تحتاج إلى فسخة ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات فيها هيات النبوة :

(من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) (١) .

ولم يسمع مسيلمة كلام رسول الله ، وجهزت الحملة لترسل إليه لتأديبه . وجاء عهد أبي بكر - رضي الله عنه - ، وكانت المعركة على أشدها . وجاء « وحشي » الذي قتل حمزة - رضي الله عنه - في موقعة أحد . وأراد أن يكفر عن سيئاته فذهب وقتل مسيلمة . ولذلك كان يقول كلمته المشهورة : **أنا قتلت في الجاهلية خير الناس** - يقصد حمزة - وقتلت في الإسلام شر الناس - يقصد مسيلمة - وانتهى أمر مسيلمة .

وجاء إنسان ثالث في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه « مطليحة بن عويلد » من بني أسد وادعى النبوة ، وكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذهب إليه وكان « خالد بن الوليد » وساعة علم الرجل أن خالداً هو الذي جاء لقناله لاذ بالفرار ، ولكنه من بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه .

ونلاحظ أننا نتعلق « بالردة » بكسر الراء ، وصفاً لتلك الأمور التي حدثت وقويت

(١) رواه أبو حنيفة في مسنده ، وابن سعد في الطبقات الكبرى من ١٨٠ برواية الإمام المصنف

هذه ايقالة . ولا نسيها ورد فتح الرء ، لأن الرد - بفتح الرء - يكون عودة إلى حق ، أما الردة - بكسرة الرء - فتكون إلى باطل ، مثال ذلك قوله سبحانه وتعالى .

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى آثَمِهِ وَآلِ الْأَرْسُولِ﴾

(من الآية ٩٩ سورة النساء)

أما الذي يرتد فهو يرتد إلى باطل .

ومن العجيب أن كلمة « الردة » التي جعلها الإسلام علامة على الانتقال من الإيمان إلى الكفر يستخدمها أعداء الإسلام الذين لا يؤمنون بأديان ما ، فعلمهم يترك الشيوعية أحد أتباعها يقولون . لقد حدثت ردة . وكان من الواجب لو أنهم أصحاب مبادئ أصيلة أن يختاروا لفظاً آخر لكن لا يوجد في اللغة لفظ يعبر عن الرجوع إلى الباطل إلا كلمة « ردة » وكذلك كلمة « منبر » لا توجد - أيضاً - إلا في الإسلام ، وهو موقف الواقع من المصلين يوم الجمعة . وعندما يأتون إلى تصيف جماعة متطرفة إلى اليسار فهم يقولون : « منبر اليسار » ويقول : لماذا تأخذون هذه الكلمة من عندنا ؟ .

ومثال آخر عندما يكتب كاتب : هذه الراجعة تتعد في محراب الفس . ونقول : لماذا تستخدم كلمة « محراب » ؟ عليك أن تبحث عن كلمة أخرى . وكل ذلك يدل على أن كلمات الإيمان هي الكلمات المعبرة ولذلك يسهبون إليها .

ويؤخذ في ظاهر الأمر على الإسلام أن من يرتد يُقتل .

ونقول : أيعطى أحد أن هذه ضد الإسلام ؟ لا إنها لصالح الإسلام ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه عديم يقبل على الإسلام فهو يقبل على الدين الكامل ؛ لأن من يخرج عليه يهرده ويقتل . وعلى من يفكر في الدخول إلى الإسلام أن يحاط بحياته إذن فالإسلام لا يسهل لأحد الدخول فيه ، ولكنه يصعب عملية الدخول . ويتجه كل فرد إلى ضرورة الاستئذان قبل الدخول في الإسلام ؛ لأنه دخول إلى دين كامم وليس طواً أو لعباً .

إن على من يرغب في الدخول في الإسلام أن يفكر جيداً وأن ينتهي إلى الحق ؛

لأن حياته ستكون لمن الرجوع عن الإسلام وهذا دليل على جدية هذا الدين وعدم السماح بالعبث في عمليات الدخول فيه . وحين يصعب الإسلام عملية الدخول فيه إنما يعطى فرصة الاختيار ليعلم من يختار لدين الإسلامى أن يرى أن الرجوع عن الإسلام ثمنه الحياة . وماعة يطلب دين لم يفكر الإنسان جيداً قبل أن يدخل فيه فهل فى ذلك خداع أو نصيحة ؟ إنما النصيحة وهى عمية لصالح الإسلام ، وهى أمر على ليعلم كل دأخل فى الإسلام أن هذا هو الشرط

ولو أن الإسلام يريد تسهيل المسألة لقال : تعال إلى الإسلام وأخرج منى تريد . لكن الدين الحق لا يخضع أحداً . وسبحانه يقول :

﴿يَسِّرْكَ مِنْ غَلَبِكَ عَنْ يَمِينٍ وَيَسِّرْكَ مِنْ غَلَبِكَ عَنْ شِمَالٍ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الانفال)

وتكلمنا من قبل عن الرداءات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن كلمة «سرف» التى جاءت فى قوله : «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه» يدل على الامتدادية . وقد حدثت ردة فى عهد أبى بكر - رضى الله عنه - وظهر سبعة ادعوا النبوة ، مثال ذلك « بنو قزارة » قوم عيينة بن حصن ارتدوا وأرسل إليهم أبوبكر - رضى الله عنه - من حاربه . وكذلك قوم عطفان ارتدوا .

وكذلك قوم قرّة بن هبيرة بن سلمة ، وكذلك بنو سائب . قوم الفجاعة بن عبد ياليل ، فأرسل لهم أبوبكر من يؤدبهم . وبويربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض من بنى تميم الذين ادعوا النبوة سجاح بنت المنذر والى تزوجت مسيلمة . وكذلك « كدة » قوم الأشعث بن قيس ، وكذلك قوم الخصم بن ضبيعة وهم بنو بكر بن وائل فى البحرين . وقضى عليهم سيدنا أبوبكر مما جعل كثيراً من القوم يقولون : إن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم كل تلك الأوصاف هم أبوبكر ومن معه . ولكن أجمع ذلك أن كل جماعة سيكون فيها مثل أبى بكر - رضى الله عنه - ؟ لا . ومثال ذلك على بن أبى طالب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم حبير :

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : كان على رضى الله عنه يخلف عن النبى

صل الله عليه وسلم في حويز ، وكان به رمد فقال : أنا أتخفف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج على فحقق بالسب صلى الله عليه وسلم فلما كان مساء الليلة التي فتحتها في مباحها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية - أو ليأتمرن - غدا رجلاً يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله . يفتح الله عليه . فلما نحن بعلل وما مرجوه ، فقالوا هذا هي ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتح الله عليه »^(١) .

وفي عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لم تحدث إلا ردة واحدة ، جاءت من الفساسنة بقيادة جبلة بن الأيهم وهم من الشام وكانوا مواليين لروم ، وكان جبلة هو رئيسهم وأسلم وجاء ليطوف بالبيت الحرام بهيلمان كزيميم للفساسنة . وكان لهم العظمة في الجهاد والملابس . وكان يرتدي رداء طويلاً فوطي ، أحد الناس رداهه ، فسقط ، فلفظه جبلة ، وأبغ الرجل عمر بن الخطاب . وقال عمر بن الخطاب : إنه الفعاصر . وقال سيد الفساسنة : إن أشتري هذه اللطمة بألف دينار ولم يقبل الرجل معرض سيد الفساسنة ألعبن من الدنانير فرفض الرجل ، فزادها إلى عشرة آلاف ولم يقبل الرجل .

وقال جبلة لعمر : أنظرنى حتى أفكر في المسألة . فلما أنظره عمر ، هرب الرجل إلى الشام وتصر . هكذا يتضح لنا أعاق كلمة « سوف » وأى زمن تأخذ ، إن لها امتدادات حتى زماننا .

إن الردة في زماننا جاءت من فارس ممثلة في البهائية والبابية ، وهدف المرتد يكون جاهد الدنيا ، إن كان يريد حكم ، ووسيلة المرتد تيسير التكليف لمن يتبعه في الارتداد . ومن يدعى لنفسه النبوة والقررة عن الإنيان بنشرع جديد إنما يطلب لنفسه جاهد الدنيا ، والذي يتبع ذلك المدعى للنبوة إنما يقصد لنفسه تيسير التكليف .

ولماذا تيسير التكليف ؟ لأن الإنسان مؤمن بمطوته وديبل ذلك أننا إذا واجهنا إنساناً غير مؤمن ، وقلنا له : أنت قاتل الدين . يعصب وينور ، لأنه لا يتصور أن يتزع أحد منه أنه متدين بشكل ما . ونرى إنساناً قد يسرف على نفسه كثيراً لكنه

(١) رواه البخاري - واللفظ له - في جهاد وفي فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه مسلم في فضائل

الصحاب ، والترمذي في ألقاب ، وابن ماجه في القصة ، وأحمد ٩٩/١ ، ٨٠

ساعة يسمع إسماعاً آخر يسب الدين يثور ويغضب ويتحول إلى مدافع عن دين الله ،
وتلك هي العطرة الإيمانية التي فطر الله كل الناس عليها . والذي يجعل الدين أمراً
شاقاً على النفس البشرية ليس فطره الدين ، ولكنه تكليف التدين ، لأنه أمر يدخل
في الاختيار . وقد جعل الحق التكليفات الإيمانية كلها في ساطع الاختيار البشري ، ولم
يشأ أن تكون أمراً قهرياً . ولو شاء سبحانه أن يجعل كل الناس مؤمنين لما قدر أحد
على الكفر

﴿ نَعَلَتْ بَنِعَجٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ أَشَاءَ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءَ آيَةً
فَقَطَّ أَعْنَاقَهُمْ لَمَّا خَصَعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشراء)

فليس في قدرة أحد أن يتأبى عن الله ، ولكنه شاء أن يجعل تكليف الإيمان مسألة
اختيارية . والإنسان حر في أن يفعل تكاليف الإيمان أو لا يفعلها ، ربي كلفنا الخائتين
سينقى الخزاء . مثال ذلك : « اللسان » خلقه الله صالحاً أن يقول : « لا إله إلا الله
محمد رسول الله » ، وهذا اللسان نفسه صالح لأن يقول : « والعيذ بالله » . أنا
لا أؤمن بالله .

ولا يعصى اللسان صاحبه ، فقد خلقه الله مجبوراً للتعبير عن مكنونات قلب
الإنسان وخاصة لإرادة الإنسان . ومثال آخر من مصوغاتنا نحن . جهاز
التليفزيون الذي صممه البشر ليكون آلة متفاحة ومسخرة لما يرسله الإنسان فيه من
برامج ، فإن أرسل الإنسان في جهاز التليفزيون أفلاماً وبرامج دينية وعلمية
تستكشف آيات الله في الكون وتثبت قيم الإنسان على الإيمان فهذا اختيار إيمان .
وإن أرسل الإنسان أفلاماً حليلة تحض على المجون والفسق فهذا اختيار يلحق
الإنسان بدائرة المفسدين في الأرض .

إذن فالخلق خلق الإنسان صالحاً لتطبيق تكليف الإيمان وصالحاً للخروج عن
التكليف . وحين يأمر الله عباده أن يطبقوا أو يتعدوا التكليف الإيمان فهو يعلم أن
قدرة الإنسان تسع التكليف ؛ لأنه العليم بعباده ، ولو لم يكن باستطاعتهم تنفيذ
التكليف لما كلفهم به . وكلنا نعرف الفرق بين « العباد » و « العبيد » ؛ فكل
المكائنات عبيد لله ، والإنسان من عبيد الله إن كان منكبراً على التكليف ، وإن خرج

على التكليف فهو مسير في أمور لا يقدر على الخروج منها ، فلا يستطيع أحد بإرادته أن يتوقف عن التنفس ، وهو - كما نعلم - أحد المعصيات التي تجري عن الرغم من الإنسان

ولا أحد يستطيع أن يتنفس عندما ينتهي أحله كذلك لا أحد يستطيع أن يقاوم المرض إن أصابه . إذن فكيف الإنسان ويخروجه عن طاعة الله في أشياء لا معنى أنه خارج في مطلق أموره عن الله ، لأن الحق فعال لما يريد ، فلا أحد يتحكم في بدايته حين يولد ، ولا أحد يتحكم في نهايته حين يموت ، وهناك أمور بين قوسيّ الميلاد والموت ما من أحد يقاوم على التحكم فيها ، وإرادة الاختيار إنما توجد في بعض الأمور فقط . أما كل ما عدا ذلك فهو قهري ، وكلنا عبيد لله في ذلك . لكن الحق تعالى أعطى لنا الاختيار في بقية أمور الحياة .

والدكي حقاً هو من يسأل ربه : لقد خلقتني بأرب مختاراً . وماذا تحب أنت أن أفعل ؟ هنا يجد الإنسان نفسه أمام أوامر الله ونوحيه وأمام المنهج بمطلوباته ، هذا المنهج الذي يوضح للمؤمن ما الذي يمكن أن يفعله وما الذي يمكن أن يتجنبه . ويقول المؤمن : إنني أخرج من اختياري إلى مرادك يا رب . ولنعبد الذي يتبارك عن اختياره إلى مراد خلقه هو واحد من العباد الذين وصفهم الحق بأسم عباد الرحمن .

ونرى في حياتنا العادية نموذجاً لما يحدث بين رب الأسرة وأفرادها ، فرب الأسرة يقول لأبنائه : أستم تريدون التتو ، فأى مكان تحبون الذهاب إليه ؟

يجيب أحد أفراد الأسرة . لندهب إلى المكان العلاني . ويحيب آخر : أنت حر ، أنت تصحبنا إلى أى مكان تريد ، المهم فقط أن تكون معنا . ومن المؤكد أن الذى يقول مثل هذا القول لرب الأسرة ينال منزلة رفيعة في قلبه . فإذا كان هذا يحدث بين إنسان وإنسان مثله فما بالنا بالاستحسان الذى يناله العبد حين يقول ذلك لخالقه الأكرم ؟ لا بد أن ينال منزلة راقية ، لأنه قد خرج من دائرة العبيد إلى دائرة العباد الذين قال عنهم الحق :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا

وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ لِرَبِّهِمْ تَحَدًا وَوَعْدًا ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿١٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين يحبهم ويحبونه . أما الذي يتمرّد على منهج الله فعليه أن يعرف أنه غير قادر على أن يتمرّد على قدر الله . وأراد الحق أن يعطينا مناعة إيمانية حين قال : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأق الله بقرم يحبهم ويحبونه » وتتجل تلك المناعة في أن المؤمن لا بد أن يلتفت إلى هؤلاء الذين يرتدون عن دين الله بادعاء أنهم أنبياء من بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذه الآية توضح لنا ما جدد وما يجد من أمر هؤلاء المرتدين ، والراحد منهم يعلن : أنا نبي مرسل . ويجد هذا النبي المزيف من يستمع له ويصدقه ويتبعه ، ولا يجد من يسأله : إن كنت نبياً لها معجزتك ؟ لكنه يجد من يصدقون هذا الزيف طوى في نفوسهم .

هذا الحوى يتلخص في أن مثل هذا النبى المزيف يأتى بمنهج ميسر يخدع به أتباعه الذين يخدعون أنفسهم بأن الواحد منهم متدين ، لكنه يتبع مفهوماً ضالاً . وكثير من الذين ادعوا أنهم أنبياء وأنه هو المهدي المنتظر لم يسألهم أحد : ما المعجزة الدالة على صدق نبوتكم ؟ لأن النبى المزيف من هؤلاء يلهى الناس بالتخفيف من التكليف .

إننا نجد بعضاً من المثقفين أو الذين يدعون أنهم يعملون عقولهم في كل شيء يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد رأينا منذ أعوام قليلة العجب العجائب ، عندما ادعى أحدهم النبوة . وآمن به واتبعه عدد من الرجال والنساء . وكانت المرأة المتروكة تدخل على هذا النبي المزيف لتقبله ويقبلها من شفيتها وأمام زوجها . أين نخوة الرجل - إذن - في مثل هذا الموقف ؟ إنه التديس الضال الذي يدعى لنفسه الهداية ، إنها هداية إلى الجحيم .

وهل تتبع تلك التيارات من الإسلام ؟ لا ، بل تلقى من قوم يخضون الإسلام .

ويصطادون الرجل الذي تظهر عليه المواهب والمخايل ، ويقنعونه بأنه يمكن أن يلعب دور النبي المزيف .

مثال ذلك الهندي ميزرا غلام أحمد الذي جاء بالقاديانية . ونعلم أن الإنجليز قد استعمروا الهند لسنوات طويلة ، وكانوا يعتبرونها درة التاج البريطاني . ونعلم أن خصوم الإسلام وعلى رأسهم الاستعمار يحاولون أن يتألوا من الإسلام ؛ لأنهم رأوا أن التمسك بالدين أتاح للمسلمين فتح الامبراطوريات لا بالسيف ولكن بحماية حق الاعتقاد .

إذا كانت الدعوة قد نشأت في الجزيرة العربية ؛ فقد امتدت إلى آفاق الأرض . وانهزمت الفرس والروم أمام الذين يحملون راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ومن بعد ذلك نجد أن الذين هزموا التار هم المسلمون ، وكذلك اشتعلت الحروب الصليبية في حملات متتابعة ، ولكن المقاتلين تحت راية الإسلام أنزلوا بهم الهزيمة الضارية .

إن الذي أرهق الاستعمار من الإسلام طاقة الإيمان والقتال في سبيله ولذلك جاء ميزرا غلام أحمد وحاول أن يضعف الفكرة على الجهاد عند المسلمين ، فقال : لقد جئت لكم لألغي الجهاد من العقيدة الإسلامية . وجرؤ ميزرا غلام أحمد ، وأعلن إلغاء القتال . والحق يقول في كتابه الكريم :

﴿ كُنِبَ عَلَيْكَ الْفِتَالُ وَهُوَ كَرِهٌ لَكَ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وسبحانه بقدرته بهل ولا يهمل . وجاء بهاء الكوليرا في الهند سنة ١٩٠٨ ليقتض على غلام أحمد وينهى وجوده تأكيداً لقوله الحق :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة المائدة)

وظهر أيضاً في فارس وهي موطن سلمان الفارسي من ادعى لنفسه النبوة ، وكان من الذكاء بحيث حاول التسلل إلى الإسلام ، لينقلب عليه من بعد ذلك ، قال الرجل : أنا الباب ومن بعدى سيأتي المهدي .

وعندما سأل الناس : وماذا تحمل من منيع ؟ أجاب : جئت لأخفف عنكم بعض التكاليف ، لأن الإسلام صار بتكاليفه لا يناسب العصر . واتبعه أناس ، وثار عليه أناس . ومن اتبعوه ، ذهبوا إليه بغية تخفيف المنيع ، ومن ثاروا عليه كانوا من القوم الذين يحبهم الله ويحبونه ، وجامعوا له بالعلماء يناقشونه ويحاجونه فاعترف بأنه غلط ، وأعلن التوبة في المسجد الكبير . وعند ذلك تركه الناس .

لكن هذا الرجل وجد من يلتقطه ليعيده إلى ضلاله وتضليله ، التقطه فنصل روسيا في فارس ، وهياً له ملجأ ، وأوعز إليه أن يعلن أن توبته إغا كانت هرباً من القتل . واستطاع هذا الباب ، واسمه على محمد الشيرازي أن يذال دعاية واسعة وخاصة بعد أن انضمت إلى دعوته فتاة اسمها « قرة العين » وكانوا يلقبونها بالطاهرة . ووقفت لخطب خطبة في الناس . ومن يقرأ تلك الخطبة يعرف إلى أي انحلال كان يدعو ذلك الباب .

وأعلنت هذه المرأة أن الإسلام قد انقضت مدته كدين ، وأن الباب قد اختفى لفترة ، لأنه في انتظار شرع جديد ، وأن العالم يمر بفترة انتقال ، وصار ينزل المنيع الجديد هل الباب . وقالت تلك « الطاهرة » : إن التشريع المختص بالمرأة ، والذي جاء إلى الباب هو :

« المرأة زهرة خلقت لتُشَمَّ وتُضَمَّ ،
فلا يمنع ولا يحجَّ ضامها ولا ضامها »

وما دامت المرأة زهرة إذن فهي تحب وتقطف ، وإلى الأحباب تُهدى وتتحف .. إلى أن تقول في نهاية خطابها : لا تحجبوا حلاتكم عن أحبائكم (١) .

ومن يرغب في أن يعرف مسلسل الفضائح الخلقية التي جاءت في خطاب « قرة العين » تلك فليقرأ كتاب « نقطة الكاف » للباب الكاشاني طبعة لندن صفحة ١٥٤ . هذا ما جاء به الباب من بعد أن أعلن إلغاء الإسلام :

لا تحجبوا حلاتكم عن أحبائكم فإنه الآن لا منع ولا حد ، خلوا حظكم من الحياة ، فإنه ليس بعد المات شيء . وهذه خلاصة الانحلال الذي جاء به هذا

المدعو بالباب ، لقد أعلن أنه لا حساب ولا يوم آخر ، وأن المرأة عرضها مشاع تضم وتشتم . والغريب أن بعضاً من المتزوجين قد اتبعوه . وقالوا عن أنفسهم : إنهم متدينون ، لقد أخذوا ظاهر الأمر واعتبروا الفسوق الذي جاء به هذا الباب وأسموه ديناً بعد أن سهل لهم بتعاليمه الفساد ، فأخذوا الانحلال عن التكليف ، وادعوا أن ذلك دين (!)

هكذا أراد خصوم الإسلام للإسلام . وفنصل روسيا القيصرية هو الذي شجع هذا الرجل وحاه في عام واحد وستين ومائتين بعد الألف من الهجرة . وبرغم ذلك حكم أهل فارس بإعدامه بعد موجة السخط العلوي ، ولم يستطع أن يتقلده أحد ، وتم إعدامه فعلاً . والذين قرأوا أقواله لحظة الإعدام عرفوا كيف أنه تذلل وخضع ويكفى . ولو كان مبعوثاً بحق من عند الله لما تذلل وخضع وطلب النجاة . ولا مثلاً بالسرور والخبور ، لأنه ذاهب إلى الله .

لقد عرف هذا الرجل الدجال إلى أي عقاب سيذهب ، لذلك بكى واسترحم . ولما قتل الباب ، أعلن واحد من رجاله وهو ميرزا حسين أن الكتاب الذي جاء به الباب كتاب كاذب ، وكان اسمه « البيان » . وقال ميرزا حسين على : إنه جاء بكتاب اسمه « الأقدس » . كان المسألة كلها خداع للناس وتبرير الخداع .

ولو رجعنا إلى كتاب يسمونه « بهجة الصدور » مؤلفه حيدر بن علي البهائي لوجدنا كل الانحرافات الممكنة ، فالبهاء يقول : استر ذهبك وذهابك ومذهبك ، أي لا تجعل أحداً يعرف ثروتك ، ولا إلى أي مكان تذهب ولا تقل للناس : إنك بهائي حتى لا يقتلوك . واعتبر البهائيون أن القرآن قد انتهت مدته وأن كتاب « الأقدس » هو كتاب فوق القرآن .

ويقرر كتاب « الأقدس » أن القدس لا بد أن تكون وطناً لليهود وأن موسى سيد الرسل جميعاً . وما يدلنا على أن ذلك الرجل كان صنيعة الاستعمار والصهيونية ، أنهم أقاموا له حفل تكريم في بريطانيا ومنحوه وسام الفروسية الإنجليزى ، لأنه رجل خدم الاستعمار .